مسلمو الغرب

بعد أحداث سبتمبر

نخبة من الباحثين والكتاب

إعداد
مركز البحوث والدراسات



مُسلِمُو الغَرب

بَعدَ أَحْداثِ سبْتمبَر ٢٠٠١

نخبة من البَاحثين والكتاب



إعداد

مركز البُحُوث والدِراسات

الطبــعة الأولـــى

شوال ١٤٢٥هـــ - كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٤م

مسلمو الغرب بعد أحداث سبتمبر

- نخبة من الكتاب والباحثين.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٤م.

٥٩٢ ص، ٢٤سم

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:

الرقم الدولي الموحد للكتاب:

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٤٧٣٠٠ - فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة

موقعنا على الإنترنت : www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

مطابع الدوحة الحديثة المحدودة

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا

(الحجرات : ١٣)



حضرة صاحب السمو

الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني

أمير دولة قطر

مسلمو الغرب

تقديم
سعادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ

الحمد لله الذي خلق البشر من أسرة واحدة، وجعل الحياة الإنسانية قائمة على التعارف والتحاور والتفاهم والتكامل وبناء المشترك الإنساني، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ﴾ (الحجرات:١٣).

فكانت الدعوة إلى التعارف والتعاون والتكامل دليل الاعتراف (بالآخر) ومرتكز الفاعلية والتفاعل، وعلة الخلق، وسنة الوجود البشري، وسر الامتداد والإنجاز الحضاري.

والصلاة والسلام على المبعوث للناس كافة، سواء في ذلك من آمن واستجاب أو الذي مازال على طريق الإجابة، أي سواء في ذلك أمة الدعوة وأمة الإجابة، الذي كانت الغاية من بعثته إلحاق الرحمة والسعادة بالعالمين جميعاً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ولعـــل مـــن أبرز ملامح تلك الرحمة إقرار حرية التدين، وربط كرامة الإنسان ومسؤوليته بتحقيق حريته، تحت شعار: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

وبعد:

فهـــذا الإصـــدار الـــرابع في مشروعاتنا الثقافية العالمية الممتدة بمشيئة الله تعالى: «**مســـلمو الغرب بعد أحداث سبتمبر**» يأتي في هذه اللحظة التاريخية الحرجة، التي ماتزال أسبابها وآثارها وتداعياتها ماضية في حياة العالم جميعه، التي يمكن أن تمثل بداية لحقـــبة تاريخـــية جديـــدة وخطـــيرة على مستوى الثقافة، والسياسة، والاجتماع، والاقتصـــاد، والتربـــية والتعلـــيم، والإعلام وإن شئت فقل: على مسيرة الحضارة الإنسانية عامة بكل مكوناتها.

لذلـــك فالأمر يتطلب الكثير من التفكير والنظر والتأمل وحسن قراءة المقدمات والـــتعرف إلى الأســـباب، في محاولـــة لإبصار العواقب والتداعيات، ووضع خطة مدروســـة لكيفـــية الـــتعامل معهـــا، على مستوى (الذات) وما كشفت عنه تلك الأحداث من فجوات وإصابات، وأورثته من اجتهادات وردود أفعال، منها السوي ومنها الكثير غير السوي، بحيث أعادت الكثير منا إلى مواقع الفكر الدفاعي وسمحت بتحكم (الآخر) بساحة اهتمامنا وتفكيرنا.

وقد تكون الإصابة الذهنية الكبيرة أن تلك الأحداث أعادت الكثير منا، قبل أن نستيقظ بشكل سليم، إلى التلبس بالفكر الذرائعي، واستفراغ الطاقة في إعفاء النفس مـــن المسؤولية، والإلقاء بالتبعة على (الآخر)، وبذلك بتنا نسهم ونساهم، عن قصد أو غـــير قصـــد، بإلغـــاء أنفســـنا، وإطفاء فاعليتنا، وشل حركتنا، وسلب إرادتنا، والدخـــول إلى غرفة الانتظار لتلقي ما يُهيأ لنا، وإذا ما أعيتنا الحيلة ألقينا بالتبعة على

القدر ليشكل ذلك إيقافاً لتفكيرنا بالأسباب ونقدنا للواقع وتقويمنا لأهلية القيادات، وإلجاماً لألسنتنا في الطرح والمناقشة والدراسة، وكأن القدر يستهدفنا دائماً دون غيرنا، وفي ذلك ما فيه من الإساءة لقيم الدين، والفهم الرشيد والنضيج لقوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ (آل عمران:١٦٥).

إن الإلقاء بالتبعة على القدر، هروباً من مواجهة المشكلة وإعفاء للنفس من تبعاتها، يمثل إساءة لفهم السنن والأقدار التي تحكم الحياة والأحياء، وغفلة خطيرة عن سنن المدافعة، التي – تعني فيما تعني– مغالبة قدر بقدر، كما أوضح ذلك وأبانه بدقة وحسن فقه وإدراك الإمام ابن قيم الجوزية: بأنه ليس المسلم الذي يستسلم للقدر، بل المسلم الق هو الذي يغالب القدر بقدر أحب إلى الله منه، وما لم يكن شعارنا الدائم، قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾، فسوف تستمر رحلة الضياع والضلال والمعاناة.

نعاود القول: إن أحداث الحادي عشر من سبتمبر تستدعي الكثير من الدراسة والتأمل والتفكير والاستيعاب ومعاودة اكتشاف (الذات) وإمكانها بعد هذا الوهم الكبير الذي احتل النفوس، والحلم العريض بالصحوة واليقظة، وإعادة تقويمها، والتقدم بجرأة إلى تحديد الأسباب والعلل والإصابات التي هيأت الأمة وأصابتها بالوهن، ودفعت الكثير من أفراد الأمة إلى هدر الطاقات في المعارك الخطأ والقيام بمجازفات وانفجارات غير محسوبة، كما كانت دفقات الحماس والضجيج التي تلبست بالكثير منا سبباً في اختراق نسيج الأمة الاجتماعي والثقافي والتمهيد لمحاولة التحكم بها والهيمنة عليها من (الآخر).

بـل لعلـنا نقول: إن عجزنا عن تشخيص أمراضنا ووضع العلاج الحقيقي لها وقصورنا عن وضع الأوعية الشرعية لحركة الأمة هو الذي ساهم، ولو سلبياً، بدفع بعض الأفراد نتيجة لحالات الضغط والظلم والإكراه والاحتقان والهيمنة والتسلط إلى نوع من الممارسات والانفجارات التي كانت الأمة أولى ضحاياها.

كما أن أحداث سبتمبر من وجه آخر كانت بمثابة الكاشف والمحك الذي أبان (الآخـر) عـلى حقيقته، وكشف دواخله، وأظهر نواياه، وحرك أحقاده التاريخية، وأيقـظ نـزعاته العنصرية، ومهد لرغبته في الهيمنة والتسلط، ودفعه إلى الكثير من التصرفات والممارسات والمجازفات العقيمة، كما دفعه إلى التعميمات غير الموضوعية في حكمـه على عالم الإسلام والمسلمين، بقدرٍ من الصلف وغرور القوة، رغم كل شعاراته ودعاواه في الحرية والديمقراطية والمساواة ومحاربة العنصرية.

والذي نريد أن يكون واضحاً ابتداءً أن إرعاب الآمنين وقتل المدنيين والاعتداء على الـبرءاء مدانٌ بكل المعايير، وأن منطلقنا في ذلك كله قوله تعالى أن: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المـائدة:٣٢)، مهما ادعي لذلك من الأسباب والمعاذير والمصالح.

كما نريد أن يكون واضحاً أيضاً أنه لا يجوز ولا يعقل معالجة الانحراف والظلم بانحـراف وظلم، وإنما بعدل وحكمة وموضوعية، حتى لا نقع بما ندينه ونأخذه على (الآخر).. ومن المفيد أن نذكّر هنا بأن الله سبحانه وتعالى لم يأذن للمسلمين ببعض المعارك خشية الوقوع في الظلم والتعدي وعدم تمييز البريء من الظالم، ومانزال نقرأ قولـه تعالى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ... ﴾ (الفتح:٢٥).

وقــد تكون الإشكالية، عند الكثير ممن يحاولون معالجة التوهم، بأن السبيل هو المواجهــة والحــل الأمني، الذي كثيراً ما يصاب بعمى الألوان والتعميم والضربات الاســتباقية، الــتي تُبنى على الكثير من الأدلة الظنية والأوهام، وتنطلق من الخلفيات العنصرية والمذهبية، وأنه هو السبيل الوحيد للعلاج (!)

ونحــن هنا لا ندعو لإلغاء الحل الأمني وبذل كل جهد لحماية الآمنين، والحيلوله دون تــرويعهم، وهــذا مــن الطبيعي أن يكون هاجس الحكومات والأجهزة الأمنية والاستخباراتية، ولكنا ندعو إضافة إلى ذلك إلى الدراسة والتحليل للأسباب التي أدت إلى مــثل هذه الأحداث؛ ذلك أن الأسباب إذا بقيت متوفرة فسوف تستمر بالإنتاج للرعــب والإرهــاب والانفجارات هنا وهناك، كلما سنحت الفرصة، ولعل ازدياد حــالات الإرهاب والرعب والإخــلال بالأمن تناسبت عكســياً مع الحلول الأمنية، و لم يعد العالم من الأحداث إلى الآن أكثر أمناً، بل إنه أصبح على العكس تماماً.

ولئن كانت أجهزة الأمن والحكومات والاســتخبارات معنية بالحــلول الأمنية -كما أسلفنا- فإن العلماء والمفكرين والباحثين ومراكز الدراسات والمحللين السياسيين ورجال الفكر والثقافة هم المعنيون بدراسة الأسباب وتقديم الحلول لمعالجتها.

وقــد يكون من أخطر الإشكاليات الثقافية، بالنسبة للمسلم، عدم قدرته على اســتيعاب الحدث وإرجاعه لأسبابه الموضوعية وامتلاك الدليل الشرعي للتعامل مع نــوازل العصــر مــن خلال قيمه الإسلامية؛ ذلك أن الاستمرار في رفع درجات الإحســاس بالمشــكلة، والحمــاس الكبير في وصفها وإدانتها وبيان مخاطرها، دون الاجتهاد في وضع استراتيجية ورؤية شرعية لحركة الأمة وتقديم دليل عملي للتعامل مع النوازل، سوف يؤذن باستمرار الكوارث والانفجارات العشوائية والمعارك الخطأ.

ومــع ذلك نقول: رب ضارة (في المقدمات القريبة) نافعة (في النتائج والعواقب البعيدة) ذلك أن استقراء التاريخ يؤكد أن الكثير من الظلم والعدوان على المسلمين كــان ســبباً في دفع (الآخر) للتعرف على الإسلام، والإيمان به، والانتصار له بعد اكتشــاف الحقيقة، وإدانة الظلم، مهما طبل له الإعلام.. ولا يتسع المجال أن نذكر بالإعصــار المغــولي الــذي جــاء لاقتلاع الإسلام فتحول إلى نصرة وفتح للقيم الإســلامية.. وليس أقل من ذلك ما أحدثته الحملات الصليبية، عند احتلالها لبلاد المسلمين وتحديها للأمة، الأمر الذي كان سبباً في إعادة تشكيل الأمة والقضاء على الجوانب الرخوة في حياتها، للنهوض من جديد.

ولا يسعني بهذه المناسبة، التي نصدر فيها هذا الإنجاز الثقافي الكبير، إلا أن أتقدم **لحضرة صاحب السمو أمير البلاد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، حفظه الله،** بوافــر الشــكر والإجــلال والتقدير على تشجيعه لمثل هذه المشروعات، ومتابعته لإنجازهــا، والأمر بترجمتها إلى اللغات الحية، تعميماً للفائدة، وتوصيته بتوسيع دائرة المشاركة والمساهمة فيها.

كما لا يفوتني أن أنسب الفضل لأهله، حيث بدأت بواكير فكرة هذا المشروع في عهــد ســعادة الأخ الفاضــل أحمد بن عبد الله المري، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السابق، وأتقدم بالشكر الجزيل إلى الإخوة الكتاب والباحثين، الذين كان لهــم الفضل في إنجاز هذا العمل العظيم، وإلى الإخوة في مركز البحوث والدراسات الذين اضطلعوا بعبء هذا العمل، رغم الإمكانات المتواضعة.

سائلاً الله للجميع التوفيق والسداد.

والحمد لله رب العالمين.

هذا الكتاب

الكتاب الذي نقدمه: «**مسلمو الغرب بعد أحداث سبتمبر**»، يعتبر أحد مشروعاتنا الثقافية الكبرى، والممتدة بإذن الله، التي لا يحيط بها كتاب ولا كاتب، وإنما تعتبر من الملفات المفتوحة والقضايا الدينامية الحية المتحركة والمتغيرة والمتطورة، والمفاصل الاجتماعية والسياسية الرئيسة، التي تتطلب الكثير من النظر والتأمل، والبصيرة النافذة، والانطلاق من مرجعية واضحة، وامتلاك الأدوات البحثية المناسبة، ومحاولة الإحاطة بالموضوع من جوانبه المتعددة، وأحياناً المتباينة، من قبل متخصصين وخبراء، وعدم الخلط بين الأمنيات والرغبات والأحلام، وبين الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، وحسن التقدير، والحذر - ما أمكن- من الوقوع في فخاخ الفكر الدفاعي؛ لأنه يمثل لوناً من رد الفعل والاستلاب الثقافي الخفي، والتوقّي من الإثارات والانفعالات الخطابية الحماسية والأصوات العالية، التي ما تزال تغشى الكثير من أنشطتنا وندواتنا وأعمالنا الفكرية، والتي تنتهي آثارها بانتهاء أصواتنا العالية.

ولا أقل من ذلك خطورة - فيما نرى- الوقوع في النظرات الجزئية والرؤى الذرائعية، أو الأحكام التعميمية، أو السقوط في نظرية المؤامرة - كما يقال- بعيداً عن استشعار المسؤولية وإدراك الفراغات والفجوات، والأسباب الذاتية التي أنشأتها، التي تسمح بامتداد (الآخر)، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران:١٦٥).

وما لم نتملك الجرأة الكافيـــة على الاعتراف بالخطأ، وإدانة (الذات)، و«**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَــهُ ... وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ...** » (أخرجه الترمذي، وقال:حديث حسن)؛

ومـــا لم نميز بين قيم الدين المعصومة المستمدة من الوحي، التي تمثل المعايير والمرجعيات والمقايـيس وأدوات الاختبار والتقويم للفعل البشري، وبين صور التدين التي تمثل اجتهادات البشــر الـــتي يجري عليها الخطأ والصواب، والتي تخضع بطبيعتها للتقويم والمراجعة والنقد والإلغاء والتعديل؛

وما لم نحاول العمل الدؤوب على فك الالتباس، أو التلبس، بين الذات والقيمة، بين الفعـــل البشـــري والقيم السماوية، بين الصواب النسبي البشري والصواب المطلق الإلهي، فنعاير الرجال بالحق ولا نعاير الحق بالرجال، فنعرف الحق أولاً لنعرف أهله، ونعمل على إلغاء الكهانات البشرية الدينية، وبذلك نحول - ما أمكن- دون تسرب علل التدين، التي كانت سبب انقراض الأمم السابقة؛

فســـوف نســـتمر في رحلـــة التـــيه والضياع والتضليل الثقافي وصور التدين المغشوش والممارسات المحزنة، وأحياناً الشائنة، باسم الدين ومصلحة الدعوة.. تلك الممارسات المحكومة بفقـــه قلـــيل ونظـــر كليل ومجازفات غير محسوبة، تؤدي إلى هدر طاقات مقدورة، وتقديم تضحيات لغير الصالح الإسلامي، وتصفية الحسابات الدولية والإقليمية بدماء المسلمين.

لذلـــك قـــد يكون من الأولويات الكبرى لحياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية بشكل عام، وحياتنا الثقافية بشكل أخص، فتح أبواب الحوار مع (الذات) على مصراعيها، وبـــذل الجهد لاستدعاء العقل الناقد، الغائب، وإعادة تشكيل الذهنية الثقافية القادرة على الـــنقد والـــتقويم والمـــراجعة، وفك قيود التعصب والتقليد والتباس الذات بالقيمة واجتهاد الإنســـان الشـــارح للـــنص بقول الله الخالق الشارع للنص، والاطمئنان أن ممارسة التقويم والمـــراجعة والمناصـــحة ديـــن من الدين وسبيل إلى التقوى، وامتلاك أهلية الفرقان، وبناء (الـــذات)، وإعادة بناء النسيج الاجتماعي للأمة، وتوسيع دائرة التفاهم والمشترك الإنساني،

وتشـــريع أبواب الاجتهاد والحرية على مصراعيها، وإعادة بناء وبلورة مفاهيم ومصطلحات كـــبيرة وكـــبيرة في حياتنا، تواضعت عليها الأجيال لقرون طويلة، حتى كادت تصبح من المسلمات، وفي مقدمتها مفهوم الولاء والبراء، ومفهوم أهل الحل والعقد، ودار الحرب ودار الإســـلام، بعـــد تغير الزمان والمعادلات الدولية، لتتحول الأمة من حقبة الحماس إلى دائرة الخبرة والاخـــتصاص، انطـــلاقاً من قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٩)، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر:١٤).

ولـــيس ذلك الحوار المطلوب على مستوى (الذات) فقط، بل التقدم والسير صوب (الآخر)، والتعرف على الســـنن والقوانين الحضارية للسقـــوط والنهوض، وأخذ العبرة والـــدرس، والـــتحقق بالوقاية الحضارية، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمـــران:١٣٧-١٣٨)، وانطلاقـــاً من قول الرسول ﷺ: «**الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**» (أخرجه الترمذي).

فالحوار مع (الذات) على أهميته وأساسيته قد يتحول إلى حوار مغلق، وافتتان بالذات وقوالـــب جـــامدة، وخـــنادق ومتاريس، بعيدة عن التفاعل والنمو والمعرفة والتماحك والاحـــتكاك والمدافعة، لذلك لا بد من الحوار لإعادة بناء (الذات) أولاً ومن ثم الانفتاح والحوار والتفاهم مع (الآخر).. وهذا الحوار هو إحدى وسائل الدعوة وأساليب الإسلام في الإقـــناع والتواصل؛ فإما طريق الحوار والدعوة والتفاهم، وأما طريق الإكراه والغصب والإقصاء (للآخر)، والله تعالى يقول: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

لذلك نعتقد أن هذا الكتاب، الذي حاولنا فيه – ما أمكن – تناول حدث ونازلة من أخطـــر النوازل، إن لم تكن أخطرها على الإطـــلاق في هـــذه الحقبة من تاريخ البشرية، وما يمكن أن يترتب عليها من تداعيات، يعتبر من الموضوعات الثقافية والسياسية الفكرية الكبرى، على المستوى الإقليمي والعالمي، بل والإنساني، وليس الإسلامي فقط.

مـــن هـــنا جاء طرحنا لهذا الموضوع الدقيق والخطير في آن واحد، وحاولنا -كعادتنا في مشروعاتنا الجماعية الكبرى، التي لا يمكن أن يحيط بها فرد أو أفراد- أن يكون مساحة مفتوحة للحوار من الجميع، حتى من (الآخر)؛ لأن الموضوع يخص الجميع وليس المسلمين فقط.

كما أننا رغبنا أن نلقي بذلك التنوع الضوء على جوانبه المتعددة، ونقدم للقارئ المسلم رؤيـــة للموضوع من زواياه المتنوعة، ليعرف تماماً موقعه من الأحداث ووقع هذه الأحداث عـــلى العـــالم، علنا بذلك أن نساهم بتحقـــيق رؤية متكامـــلة، وعبرة دقيقة، وقدرة على كيفـــية التعامل مع النوازل، من خـــلال قيمنا ومقاصد إسلامنا الذي كانت الغاية الكبرى منه إلحاق الرحمة بالناس: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ولا نزعم، أو ندعي، أننا بلغنا في هذا المشروع الثقافي، ما نريد ونأمل، ولكن حسبنا أنـــنا فتحنا ملف الموضوع، واستدعيناه إلى ساحة الهمِّ الإسلامي، وقدمنا بعض الملامح، والمعالم، والإضاءات البسيطة، التي يمكن أن تشكل دليل عمل وتعامل.

ولقـــد حاولنا، كما هو الحال في مشروعاتنا الثقافية السابقة، أن تأتي المساهمات، من مواقع ثقافية وجغرافية، ومدارس فكرية ومذهبية ومؤسسية متنوعة، إضافة إلى مساهمات من غـــير المسلمين أيضاً، وجاء التركيز على بلاد الغرب، أو من الذين يعيشون ضمن منظومة الـــثقافات الغربية، ومؤسساتها، حتى لو تضمنت مساهماتهم بعض المغالطات أو سوء الفهم للقـــيم والأحكـــام الشـــرعية، والعجز عن تنـــزيلها منازلها من منظومة القيم الإسلامية، واجـــتزائها، والحكـــم عليها في ضوء قيم حضارية أخرى، حتى تأتي نظرتنا للأمور واقعية وموضوعية تمكننا من كيفية التعامل مع الواقع وامتلاك المفاتيح الصحيحة للمداخلة والتأثير.

ونحـــب أن ننوه بأن فكرة المشروع والاستكتاب حولها طُرحت منذ زمن مبكر، وقد تكون بعض المساهمات تمت قبل ظهور الكثير من التداعيات التي كانت زمن الكتابة متوقعة قـــبل أن تصـــبح واقعـــة، لذلك نعتقد أن الحكم على الأفكار والقضايا وتقويمها لا بد أن يستصحب الزمن الذي طُرحت فيه، حيث الزمن ركيزة موضوعية مهمة في عملية التقويم.

وحرصـــاً على تقديم فكرة واضحة عن الموضوع المطروح، وضبط مساره، ما أمكن، وضــعنا له عدة محاور، علها تحدد الإطار المطلوب للمساهمات، وتأتي البحوث قاصدة إلى حد ما، وملتزمة بالمحاور المطروحة، ومستصحبة الإطار الموضوع، لكن الإشكالية التي لا نزال نعـــاني مـــنها، أو يعاني منها بعض المثقفين المسلمين، من الذين قد يحسبون على النخبة، أن الكـــثير مـــنا مـــا يزال يعاني من بعض الإصابات، التي تتمركز في عدم الالتزام بالموضوع، والانضـــباط بمحاوره، واستصحاب إطاره، والتوهم أن ما عنده، أو ما يشغله، أو يهتم به، يمكـــن أن يكـــون صـــالحاً لكل زمان، وكل ومكان، ويمكن أن يندرج تحت أي عنوان، ويستجيب لكل موضوع، مهما كان عنوانه، ومحوره، وإطاره، وهذا يوقع في حرج شديد، من جانب، ويدلل على الحالة الثقافية البائسة لبعض من نسميهم «نخبة» من جانب آخر.

ولا شك أن من المعوقات، والإشكاليات، التي واجهتنا، وتواجهنا في معظم مشروعاتنا الثقافية، هي تلك الاعتذارات، غير المتوقعة، التي تشكل لنا الكثير من الإحباط، على طريق الإنجاز، لأنها تشكل فجوات في العمل، خاصة عندما تُسبق بوعود والتزامات بالمساهمة.

وقـــد يكون من المفيد أن نشير إلى أن بعض الإشكاليات والاعتذارات، التي واجهت مشـــروعاتنا الجماعـــية السابقة وظننا أنها ظروفاً طارئة، تبين لنا أنها حالة ثقافية أو إصابة ذهنية تتطلب المعالجة.. ذلك أن الكثير ممن نُصّبوا كتاباً أو رواداً أو مفكرين أو أهل حل وعقد لحل مشكلة الأمة، يمكن – من حيث لا يدرون– أن يكونوا جزءاً من المشكلة.

ولكن في نهاية المطاف، لا يســعنا إلا أن نحترم أصحاب الاعـــتذارات، على الرغم ممـــا يترتـــب عليها؛ لأن الاعتذار عن المساهمة، أفضل بكثير من المساهمات التي تفتقر إلى الموضوعية، والانضباط بمحاور الموضوع وإطاره.

إضافة إلى أنه في كثير من الحالات يكاد يكون الاعتذار عن عدم المشاركة أفضل من الإقـــدام على المشاركة بموضوعات نشرت سابقاً، أو أرسلت لأكثر من جهة في الوقت نفسه، والاكتفاء بتغيير العنوان، أو حتى الإبقاء عليه، دون الإشارة إلى ذلك.

كمـــا نود أن نعتذر لبعض الإخـــوة، الذين تجاوزت مساهماتـــهم القـــدر المقبول، مما اضطررنا لمعاودة الكتابة إليهم والتنســـيق معهم على بعض الحـــذف، الذي نعتقد أنه لا يؤثر على الأفكار الرئيسة للمساهمة؛ وغالباً ما يقع الحذف في إطار التعريفات مما يمكن استدراكها في مقالات أخرى.

ومـــع ذلك نقول: لعل هذه النوازل والهزات الفكرية والثقافية التي تجتاحنا، تكون قادرة عـــلى تحريك الرواكد، بحيث تمثل تحريضاً ثقافياً، وحضارياً، وتشعرنا بالتحدي، وتدفعنا إلى إعـــادة النظر بواقعنا الثقافي، واكتشاف مواطن الخلل، والتخلص من إشكالية الرجل الملحمة، الذي ما يزال يملأ مخيلتنا، الذي يدعي المعرفة بكل شيء، ويدعى للكتابة ورئاسة كل شيء، للوصول إلى نوع من تقسيم العمل، والتخصص المعرفي حتى يتكامل العمل، ويعظم الإنجاز، ويعاد بناء شبكة العلاقات الاجتماعية بشكل سليم.

ونعـــاود القـــول: بـــأن ما أقدمنا عليه يعتبر ملفاً مفتوحاً بطبيعته، لا يمكن أن يُعالج بكـــتاب أو كتـــب، وحسبنا - كما أسلفنا- استدعاء الموضوع لساحة التفكير والنظر والاجتهاد، إلى جانب الإطلاع على الحالة الثقافية، أو الواقع الثقافي لعالم المسلمين ونخبهم عـــلى حـــد سواء، ورؤية (الآخر) لنا، وهذا بحد ذاته يمثل جزءاً كبيراً من الاستواء على طريق الحل، ودليلاً هادياً من أدلة العمل الثقافي، إن شاء الله.

ونحـــب أن نؤكـــد أن الآراء والاجـــتهادات الواردة، لا تمثل بالضرورة وجهة نظر الوزارة، بل يمكن القول: إن بعضها قد لا يمثلها، بل هو محل نظر.

ويطيـــب لـــنا بهذه المناسبة أن نتقدم بالشكر الجزيل للإخوة الكتاب والباحثين، الذين أسهموا معنا في إنجاز هذا العمل .. وإلى الإخوة موظفي مركز البحوث والدراسات، الذين شاركوا في إعداد الكتاب، على الرغم من الظروف الصعبة، والإمكانات البشرية المتواضعة.

والله نســـأل أن ينفع به، وأن يكون خطوة سديدة على الطريق الطويل، وإضاءة متميزة وبصيرة نافذة، على هذه الحقبة الخطيرة من مسيرة البشرية، تعين المسلم المعاصر على الاضطلاع برسالته... إنه نعم المسؤول.

مُسلمو الغرب
بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م

المحاور الرئيسة

المحور الأول: الإسلام في الغرب «النشأة والتاريخ»:

- من الإقامة إلى المواطنة (الاستمرار).
- من المعرفة بالإسلام إلى اعتناقه.
- بين الاندماج والذوبان والانتماء.

المحور الثاني: التباس المفاهيم والمصطلحات:

تحرير مصطلح:

- الولاء والبراء.
- دار الحرب ودار الإسلام.
- أمة الإجابة.. وأمة الدعوة.

المحور الثالث: مؤسسات المسلمين في الغرب:

- الدور الغائب والفاعلية المطلوبة.
- المرأة وظاهرة إسلام النساء.
- مواصفات مخاطبة الغرب.

المحور الرابع: الإصابات الداخلية والتحديات الخارجية:

- من التعارف المشروع إلى التعايش المطلوب.
- حوار لا مواجهة (عنف تدين .. لا عنف دين).
- الإسلام والديموقراطية (التجانس الغائب).

المحور الخامس: مسلمو الغرب والعالم الإسلامي:

- أبعاد الارتكاز الحضاري التاريخي.
- تجسير التواصل والحوار بين الحضارات.
- دور مسلمي الغرب في نهوض عالم المسلمين.

المحور السادس: رؤية مستقبلية:

- كيفية بناء الأنموذج المثير للاقتداء.
- دور الكفاءات المسلمة في المستقبل الحضاري الغربي.

تجاوز الأزمة إلى مستقبل أكثر إشراقاً

الدكتور عبد الرزاق خليفة الشايجي (*)

الإسلام في الغرب حقيقة قائمة؛ فإذا ما استُنهض البعد الرسالي في العقول الإسلامية، بما يتضمّنه من قيم، فسيتكوّن من ذلك حركة تفاعل حضارية بالغة الأهمّية، تتلاقح فيها تلك القيم الإسلامية ذات البعد الإنساني بما يتوفّر عليه الغرب من مكاسب العلوم الكونية والأنظمة الإدارية، خاصة بعد هزة سبتمبر التي أعادت الإسلام إلى ساحة الاهتمام.

أولاً: مسلمو أوروبا

بدأ الوجود الإسلامي في أوروبا منذ أن وصل المسلمون في فتوحاتهم إليها، حيث فتحوا مدينة ناربون الفرنسية عام ٧١٦م ، ومدينة تولوز عام ٧٢١م، ومدينة ليون عام ٧٢٦م، ومدينة بوردو عام ٧٣١م، ثم هزموا في مدينة بواتيه عام ٧٣٦، إلا أن الهزيمة لم تؤد إلى جلاء كل المسلمين العرب عن فرنسا. فضلاً عن أنه بعد سقوط الأندلس لجأ أكثر من ١٥٠ألف عربي ومسلم إلى جنوبي فرنسا.

(*) العميد المساعد للشؤون الأكاديمية والدراسات العليا في جامعة الكويت (سابقاً)، رئيس مجلس إدارة مركز المشكاة للبحوث والاستشارات (دولة الكويت).

ويـــرى المؤرخون أن الإسلام - ديناً وحضارةً - بوجه خاص كان منذ البداية عنصـــراً مكونـــاً في جميع مراحل الحضارة الأوروبية، جنباً إلى جنب مع الحضارات والتقاليد الهلينية والمسيحية واليهودية والعلمانية.

فكـــان «ابـــن رشد»، الفيلسوف المسلم القرطبي، أوروبياً بنفس الدرجة مثل الفيلسوف المسيحي «توماس الأكويني»، كما كان المسجد الكبير في قرطبة والحمرا في غـــرناطة وجســـر موستار- الذي هُدم - جميعهم ينتمون إلى التراث الحضاري الأوروبي تماماً مثل «البارثينون» في أثينا أو كاتيدرائية «يورك».

ومع هذا فعند تأسيس الدولة القومية الأسبانية في القرنين السادس عشر والسابع عشـــر تعرضـــت كل الآثار الغربية الباقية مما كان إسلاماً شعبياً «لإبادة عرقية» ثم حُصر الإسلام الأوروبي في جنوب شرق ووسط أوروبا لقرنين من الزمان.

وفي حقبة الاحتلال الفرنســـي لأفريقيا، اسْـــتُقدمت مجموعات عمالية للعمل في الصناعة وفي شـــق الأنفاق والطرقـــات، وكان غالبـــيتهم من دول المغرب العربي (المغرب - الجزائر- تونس).

ثم جـــاءت موجة الهجرة بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت مزيجاً من الطلاب القاصدين التعلم في الجامعات، والعمال القاصدين العمل، رغم الظروف الصعبة التي كانـــت تضـــطرهم إلى الانفصال عن عائلاتهم، مع ما يرافق ذلك من انفصال ثقافي يؤدي إلى تشتت ذهني وضياع اجتماعي ومعاناة من تلك النظرة الدونية التي ينظر بها إلـــيهم، حيث هم في أدنى المراتب الاجتماعية: عمال في الأنفاق والبناء والتنظيفات وما شابه ذلك.

هـــذا على الجانب الفرنســـي، أما على الجانب البريطـــاني فقد كان الوفود إليها كثـيفاً مـــن شـــبه القارة الهندية نتيجـــة لطول الاحتلال البريطاني للهند، ونتيجة للتقســيم الــذي تـــم بين الهند وباكســتان، والذي دفع بالكثير من الباكستانيين للهجرة إلى بريطانيا.

عدد المسلمين:

ليســت هناك إحصاءات دقيقة ومفصلة؛ لأسباب عديدة، منها أن الإحصاءات الرسمية في دول أوربا لا تحدد هوية الشـــخص الدينية، وحتى العرب كخلفية عرقية لم تظهر في استمارات الإحصاء الرسمية إلا نادراً.

وعلـــيه، فيمثل الإحصاء المدرج أدناه أرقاماً تقريبية أوردها د. أحمد الراوي في دراســـة نشرت على موقع «إسلام أون لاين» في ٢٠٠٣/١٢/٣٠م، ووضعت من خلال الوقوف على إحصاءات بعضها لمؤسسات رسمية أو شبه رسمية، وأخرى لبعض المؤسسات الإسلامية.

ولا شـــك أن التباين ليس بسيطاً بين تلك الإحصاءات، غير أنه يمكن القول من خـــلال إطلالـــة واســـعة على تلك الإحصاءات، ومن خلال الوقوف على أوضاع المســـلمين في جل دول أوربا، ومعايشة تطور نمو أعدادهم خلال السنوات العشرين الماضية: إن الأعداد المذكورة أدناه تقارب الواقع، إن شاء الله.

أوروبا الغربية:

القطر	عدد سكان البلد	عدد المسلمين	عدد العرب	نسبة العرب
فرنسا	٥٦,٥٧٦,٠٠٠	٥,٥٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠,٠٠٠	٧٠% أكثرهم من المغرب العربي
ألمانيا	٧٩,١١٣,٠٠٠	٣,٢٠٠,٠٠٠	٣٦٠,٠٠٠	١١% أكثرهم من المغرب العربي
بريطانيا	٥٧,٢٣٦,٠٠٠	١,٧٠٠,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠	٢٧% أكثرهم من العراق
إيطاليا	٥٧,٧٣٩,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٦٥٠,٠٠٠	٦٥% أكثرهم من المغرب العربي
هولندا	١٤,٨٠٥,٠٠٠	٩٠٠,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠	٣٩% أكثرهم من المغرب العربي
بلجيكا	٩,٩٢٨,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠	٣٢٠,٠٠٠	٥٣% أكثرهم من المغرب العربي
السويد	٨,٥٢٦,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠	١١٠,٠٠٠	٢٧% أكثرهم من المغرب العربي
سويسرا	٦,٧٩٦,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠	٨٧,٥٠٠	٢٢% أكثرهم من المغرب العربي
أسبانيا	٣٨,٨٦٩,٠٠٠	٣٨٠,٠٠٠	٢٦٠,٠٠٠	٦٨% أكثرهم من المغرب العربي
النمسا	٧,٦٢٤,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠	٧٠,٠٠٠	١٨% أكثرهم من المغرب العربي
اليونان	١٠,١٤٠,٠٠٠	٧٠٠,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٧ % أكثرهم من مصر
الدنمارك	٥,١٣٠,٠٠٠	١٢٠,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	٢٥% أكثرهم من المغرب العربي
فنلندا	٤,٩٧٤,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٥٢% أكثرهم من الصومال
المجموع	٣٥٧,٤٥٦,٠٠٠	١٥,٨٤٠,٠٠٠	٦,٦٨١,٥٠٠	٢٤% من الجالية

إضافة إلى أعداد أخرى قليلة في كل من البرتغال والنرويج ولوكسومبورج؛ أي أن عدد المسلمين في أوربا الغربية أكثر من ١٥ مليون نسمة.

أوربا الشرقية والبلقان:

القطر	عدد سكان البلد	عدد المسلمين	عدد العرب
روسيا الاتحادية	١٤٧,٣٨٦,٠٠٠	٢١,٠٠٠,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
أوكرانيا	٥١,٧٠٤,٠٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠
رومانيا	٢٣,١٥٢,٠٠٠	٠,١٢٠,٠٠٠	١٣,٠٠٠
بلغاريا	٨,٩٧٦,٠٠٠	٢,٦٠٠,٠٠٠	١٥,٠٠٠
بولندا	٣٧,٩٣٢,٠٠٠	٠,٠٢٠,٠٠٠	١٢,٠٠٠
المجر	١٠,٥٩٠,٠٠٠	٠,٠٨٠,٠٠٠	٥,٠٠٠
روسيا البيضاء	١٠,٢٠٠,٠٠٠	٠,٠٨٠,٠٠٠	٥,٠٠٠
ملدوفيا	٤,٣٤١,٠٠٠	٠,٠٢٥,٠٠٠	٢,٠٠٠
دول البلطيق	٧,٧٠٠,٠٠٠	٠,٠٣٥,٠٠٠	٢,٠٠٠
ألبانيا	٣,٢٠٠,٠٠٠	٢,٤٠٠,٠٠٠	أعداد متفرقة وقليلة نتيجة لعدم استقرار هذه الدول
البوسنة	٤,٤٧٩,٠٠٠	٢,٢٠٠,٠٠٠	
كوسوفا	٢,٢٨٣,٠٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠	
مقدونيا	٢,١١١,٠٠٠	٠,٥٠٠,٠٠٠	
كرواتيا	٤,٦٨٣,٠٠٠	٠,٤٠٠,٠٠٠	
سلوفينيا	١,٩٤٨,٠٠٠	٠,٢٥٠,٠٠٠	
صربيا	٩,٨٣٠,٠٠٠	٠,٨٠٠,٠٠٠	
المجموع	٣٣٠,٥١٥,٠٠٠	٣٤,٦١٨,٠٠٠	٤٨٤,٠٠٠

وهـــذا يعـــني أن أوربا كلها تضم اليوم ما يقارب من ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ مسلم، أكثر من ٧,٠٠٠,٠٠٠ منهم من خلفية عربية.

تصنيف ثقافي واجتماعي

لقـــد تطـــورت أحـــوال الجالـــية المسلمة في أوربا مع ازدياد أعداد المسلمين وانتشارهم في جل الأقطار الأوربية، وبروز الجيل الثاني والثالث بل والرابع في بعض الأقطار التي هاجر إليها المسلمون في وقت مبكر، وقد بات الاتجاه السائد في صفوف المســـلمين هـــو الاستقرار. ولا شك أن مطلوبات الاستقرار غير مطلوبات الإقامة المؤقـــتة، وشـــعور المســـلمين بأنهم جزء لا يتجزأ من مجتمع أوربي متعدد الأعراق والأديان غير شعورهم بأنهم جسم غريب يبغي الارتحال كل يوم، ويمكن القول: بأن الغالبـــية العظمى من المسلمين في أوربا قد استقر بهم المقام، وبدأت أجيالهم الجديدة على وجه الخصوص تستشعر أن أوربا وطنهم.

ويمكن تقسيم الجالية المسلمة في أوربا اليوم إلى أربع شرائح، لكل شريحة وضعها وتوجهاتها وآمالها التي تتداخل أحياناً وتتباين أحياناً أخرى.

الشريحة الأولى: شريحة العمال:

كانـــت وما زالت هذه الشريحة تمثل العدد الأكبر من المسلمين في أوربا؛ إذ رغم القيود الكثيرة التي تضعها المجموعة الأوربية في وجه الهجرات الجديدة وفي وجه اللجوء السياسي؛ فما زال عدد غير قليل من المسلمين ومن دول كثيرة يخاطرون بأنفسهم من أجـــل الوصول إلى دول أوربا، كل ذلك نتيجة للأوضاع الاقتصادية والسياسية غير المســـتقرة في كثير من الدول الإســـلامية. غير أنه يمكن القول: إنه مع مرور الوقت - ربمـــا خلال عقدين من الزمان - فستصبح هذه الشريحة في مرتبة متأخرة مقارنة بشريحة الأجيال الجديدة من المسلمين.

ويمكن وصف هذه الشريحة بإيجاز بالأمور الآتية :

١- ضعف المستوى الثقافي للغالبية العظمى منها، الأمر الذي انعكس ضعفاً على قدرتهم على التأثير الإيجابي في أبنائهم أو توريث قيمهم ومثلهم وعاداتهم.

٢- الانحـــياز نحو العزلة، لضعف شديد في لغة القوم، وتباين في القيم والطباع والعادات؛ وهو ما ساهم في ترسيخ الجهل في المجتمع الجديد، ومن ثم ضعف القدرة على التأثير فيه.

٣- حـــرص الغالبية منهم في الحفاظ على التزامهم العام بالإسلام كدين مختلط بعادات وتقاليد وأعراف لا علاقة لبعضها بالدين.

٤- ساهمت هذه الشريحة في بناء عدد غير قليل من الزوايا والمساجد في مناطق ســـكنهم المعـــزولة غالـــباً، والتي كانت ملجأً لهم ومساعداً للحفاظ على ارتباطهم بدينهم.

٥- رغم هذا الحرص في الانتماء إلى الإسلام كدين فإن الانحياز العرقي، وأحياناً المذهـــبي لأبناء الخلفية العرقية الواحدة، هو الأبلغ تأثيراً، وذلك نتاج جهل بالإسلام وقيمه ومثله العليا.

٦- مـــا زال هـــناك ارتباط عاطـــفي للغالبية من هذه الشـــريحة بأقطـــارهم الأم، الـــتي هاجـــروا منها، وهذا واضـــح لدى هذه الشريحـــة من أبناء الخلفيتين التركـــية والمغربية على وجـــه التحديد، ورغبة بعضـــهم في الرجـــوع عند تحسن أوضاعهم الاقتصادية.

الشريحة الثانية: شريحة الكفاءات العلمية والاقتصادية والطلبة الدارسين:

هذه الشريحة كانت هجرتها الواسعة إلى أوربا متأخرة عن الشريحة الأولى، وبدأ أثرها في محيط الجالية المسلمة يظهر قبل أربعة عقود. وكانت صاحبة الفضل في إنشاء الاتحادات الطلابية أولاً، ثم المراكز الإسلامية المتقدمة، والمؤسسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. واستقر الكثير منها نتيجة للأوضاع السياسية والاقتصادية المتردية التي لم تغرها بالرجوع إلى بلادها الأصلية، ويزيد عدد الأطباء المسلمين مثلاً الذين لا يمثلون إلا جزءاً يسيراً من هذه الشريحة، عن ٣٩٠٠٠ طبيب في أوربا الغربية وحدها، إضافة لعشرات الآلاف من المهندسين والآلاف من رجال الأعمال.

ويمكن وصف هذه الشريحة بالخصائص الآتية:

١- تتمتع بمستوى ثقافي مرتفع ساهم في تأثيرها الإيجابي في الأجيال الجديدة، ويمكن القول: بأنها صاحبة الفضل في توريث الإسلام وقيمه، بل والمساهمة في إنشاء المؤسسات الشبابية الجديدة.

٢- ساهمت في بناء جل المؤسسات الكبرى (طلابية، ثقافية، اجتماعية، اقتصادية، مهنية، إغاثية) التي أصبح بعضها اليوم منارات إشعاع في أوربا.

٣- تأثير العادات والتقاليد في فهمهم لقيم الإسلام أقل بكثير من الشريحة الأولى، وحتى تأثير الخلفيات العرقية والمذهبية أقل أيضاً، إلا أن هناك اختلافات حركية كان لها انعكاس سلبي على هذه الشريحة، ساهم في تقليص أثرها الإيجابي على أبناء المسلمين بشكل خاص، وعلى المجتمع الأوربي بشكل عام.

٤- تفهُّم الكثير منهم لطبيعة وجودهم في المجتمع الأوربي وضرورة التواصل معه؛ ومساهمة الكثيرين منهم اليوم في جوانب الحياة المختلفة للمجتمع الأوربي، وربما تبوأ بعضهم مواقع متقدمة فيه (مواقع علمية وأكاديمية وحتى سياسية، وخاصة المساهمة في إدارات الكثير من البلديات).

٥- تفهم الغالبية منهم لضرورة الموازنة بين محافظة الأجيال الجديدة على هويتها الإسلامية واندماجها في المجتمع الأوربي، وأن ذلك الاندماج أصبح ضرورة لا بد منها، وأن حماية الأجيال الجديدة لا تأتي من خلال عزلتهم عن مجتمعهم الأوربي.

٦- هناك نسبة من هذه الشريحة تأثروا ببعض قيم المجتمع الأوربي المادية؛ فتراهم بعيدين عن التزامهم بقيم الإسلام ومفاهيمه، وهؤلاء لا شك غير قادرين على توريث قيم الإسلام لأبنائهم، وإن كان بعضهم يرغب ويجتهد من أجل ذلك بالاستعانة بالمؤسسات الإسلامية.

٧- هناك جزء من هذه الشريحة -نحسبه قليلاً- يرفض التواصل مع المجتمع الأوربي، ويحمل أفكاراً وآراء متشددة، ويمكن أن نقول: إن بعضها يتجاوز حالة التشدد إلى التطرف، وانعكاس هذه الأفكار سلبي بل سيئ على المسلمين في أوربا، ويساهم في تشويه صورة الإسلام الناصعة بين أبناء المجتمع الأوربي. ورغم قلة عدد هذه الفئة إلا أن صوتها مرتفع، وتجد تشجيعاً من الإعلام الغربي والعربي لإظهارها.

الشريحة الثالثة: شريحة الأجيال الجديدة:

وهي الأجيال التي ولدت وترعرعت وتشربت الثقافة الأوربية والتي أصبحت تمثل الشريحة الثانية في عددها، وتكاد في القريب أن تكون الأكثر، التي تمثل مستقبل الإسلام والمسلمين في أوربا، ويحمل اليوم الغالبية العظمى منهم جنسية البلاد الأوربية، ويستشعر الكثير منهم أنهم أوربيون وطناً ومسلمون ديناً، ونحسب أن من يفكر منهم في الهجرة إلى بلاد آبائهم قليل ونادر.

ويمكن وصف هذه الشريحة بالأمور التالية:

١- وجود أعداد غير قليلة منها استطاعت الحفاظ على قيمها الإسلامية مع أخذها الكثير من قيم المجتمع الأوربي دون الشعور بالتعارض والتناقض (قيم العدل والحرية واحترام حقوق الإنسان وسيادة القانون...)، وجل هؤلاء ممن انتظم في المؤسسات الشبابية التي بدأت تنتشر في معظم البلدان الأوربية (هناك عشرات المؤسسات الشبابية في الأقطار الأوربية، منها أكثر من ٤٠ مؤسسة شبابية كبرى على المستوى الوطني تنتظم في المنتدى الأوربي للشباب والطلاب، الذي ساهم اتحاد المنظمات الإسلامية في أوربا في إنشائه).

٢- شعور كثيرين من هذه الشريحة بأن هذا المجتمع أصبح مجتمعهم، الذي لا بديل لهم عنه، وقد بدأوا يتعاملون مع المجتمع الأوربي على هذا

الأساس؛ مساهمة في أوجه حياته المختلفة، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية.

٣- وجود عدد غير قليل، بعيد عن دينه، أثرت فيه آفات المجتمع الأوربي كالمخدرات والانحلال الخلقي، غير أن من انسلخوا عن دينهم أو تركوه كانوا قليلين.

٤- وجود شريحة - نحسبها صغيرة- تحمل أفكاراً دخيلة على قيم الإسلام الإنسانية، طابعها التشدد والتحامل على كل ما هو غربي، دون نظر أو تمحيص، وذلك نتاج تربية لبعض القوى الوافدة من المشرق الإسلامي، زاد في حدتها تلك الحملات المغرضة على الإسلام في الإعلام الغربي، إضافة إلى بعض الأحداث داخل البلدان الإسلامية (فلسطين - الجزائر - البوسنة - العراق...) وموقف الغرب منها.

٥- انعكاس الخلافات العرقية والمذهبية، وحتى الحركية، على هذه الشريحة أقل بكثير من تأثيرها على الشريحتين الأولى والثانية، وبات ذلك واضحاً في انخراط الكثير من أبناء المسلمين من الأجيال الجديدة في مؤسسات واحدة رغم انتماء آبائهم لخلفيات عرقية ومذهبية مختلفة.

٦- يمكن القول: بأن هذه الشريحة وشريحة المسلمين من أصل أوروبي ستتقاربان بل ستصبحان شريحة واحدة خلال جيلين أو ربما جيل واحد.

الشريحة الرابعة: المسلمون من أصل أوروبي:

وهؤلاء هم الذين اعتنقوا الإسلام، إما تأثراً بقيمه ومثله، أو من خلال دراساتهم الأكاديمــية، أو الشخصــية، أو مــن خــلال اختلاطهم ببعض العاملين في الحقل الإسلامي، أو عن طريق الزواج والمصاهرة. وتشير بعض التقديرات إلى أن أعدادهم في أوروبــا الغربية لا يزيد عن نصف مليون، ويتركزون في فرنسا وألمانيا وبريطانيا على التوالي.

ولا شــك أن لهــم توجهات متباينة ومختلفة، وليس من اليسير تحديد مواصفات خاصــة بــــهم. واليوم، كثير منهم بدأ يســتشعر ضرورة التوافق بين انتمائهم إلى الإســلام وارتباطهم ببلــدهم الأوربي، وأن تحولهم إلى الإســلام لا يعني انسلاخهم عن مجتمعهم.

وقــد بذل قسم الدعوة والتعريف بالإســلام في اتحاد المنظمات الإســلامية في أوربــا جهــداً في تجمــيع الكثير منهم في عمل مؤسسي، يركز على واجبهم تجاه مجــتمعهم الأوربي في التعريف بالإسلام وقيمه الإنسانية، إضافة إلى العمل الجاد على إشــعار المجتمع الأوربي أنهم ما زالوا جزءاً منه، وأنهم حريصون على أمنه واستقراره وتطوره وتقدمه.

بيد إن جل أبناء الجالية اليوم يرنو إلى الاســتقرار، ويميل إلى التجانس والتآلف مــع المجتمع الذي يعيش فيه؛ لأنه أدرك أن هذا المجتمع مجــتمعه، ولا بديل له عنه، رغم كل العوائق المتمــثلة في كثرة البطــالة في صفوفــهم، وانحــياز شــرائح من المجــتمع الأوربي ضدهم، ووجــود بعض العناصر المتشــددة بين أبنائهم، إضــافة إلى انعكــاس بعض الخلافــات العرقية والمذهــبية والحركية التي وردت معهم من المشرق الإسلامي.

ثانياً: مسلمو الولايات المتحدة

يختلف المؤرخون حول توقيت بدء تاريخ وجود المسلمين في أمريكا، هل يعود إلى عام ١٤٩٢م أو قبل ذلك؟ حيث يتحدث بعض المؤرخين عن أن اكتشاف «كريستوفر كولمبس» لأمريكا كان بمساعدة بعض بحارته المسلمين، كما يتحدثون عن اتباع بعض قبائل العالم الجديد الأصلية لعادات إسلامية كدليل على وصول المسلمين إلى أمريكا قبل «كريستوفر كولمبس»، ويؤكدون وجود العديد من المسلمين بين الأفارقة الذي أحضروا إلى أمريكا في موجات تجارة العبيد الشائنة.

ولكن استقرار المسلمين، وتميزهم كجماعة مستقلة داخل المجتمع الأمريكي بدأ مع ستينيات القرن العشرين، فقد ساعدت قوانين الهجرة الأمريكية الجديدة، وموجات الطلاب المسلمين القادمين للدراسة بالغرب، وثورة الحقوق المدنية الأمريكية، وتوجه الأقلية الأفريقية الأمريكية نحو الإسلام، في زيادة عدد المسلمين في أمريكا بشكل ملحوظ منذ أواخر الستينيات.

ومنذ منتصف السبعينيات شرع مسلمو أمريكا بقوة في بناء مؤسساتهم الأساسية والضرورية، مثل المساجد والمراكز الثقافية الإسلامية والمنظمات الاجتماعية ثم المدارس الإسلامية؛ حيث تشير دراسة «المساجد في أمريكا» التي أصدرها مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير) في عام ٢٠٠١م إلى أن ٢% من المساجد الأمريكية تم تأسيسها قبل عام ١٩٥٠م، وأنه منذ عام ١٩٧٠ تم تأسيس ٨٧% من المساجد الموجودة حالياً، بينما يمثل عام ١٩٨٠م عاماً فارقاً؛ حيث تم تأسيس نصف مساجد أمريكا قبل عام ١٩٨٠، بينما أسس النصف الآخر بعد هذا العام.

وليس ثمة اتفاق حول إحصائية واحدة لمسلمي الولايات المتحدة الأمريكية، إذ تشير بعض التقديرات إلى أنهم ٩ ملايين مسلم، وأخرى ١٥ مليوناً، واطلعتُ مؤخراً

على دراسة للدكتور عبد المنعم سعيد، مدير مركز الدراسات الاستراتيجية للأهرام، أشارت إلى أن عدد مسلمي أمريكا بلغ ٣٠ مليون مسلم، وأنهم منظمون في ٢٠٠ ألف مؤسسة تجارية، و٤٤٠ رابطة، و١٧٠ مدرسة، و١٦٠٠ جامع، ويصدرون ٩٥ مجلة، ومعها عشرون محطة إذاعية وتليفزيونية، بالإضافة إلى عدد غير قليل من المحطات التليفزيونية العربية الفضائية التي تبث باللغة الإنجليزية من أجل اختراق المجتمع الأمريكي وبث وجهات النظر العربية والإسلامية.

وفي أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات بدأ مسلمو أمريكا مرحلة تأسيس مؤسساتهم السياسية والإعلامية؛ حيث تأسست المؤسسات السياسية المسلمة الأمريكية الأربع الكبرى، وهي:

- مجلس الشؤون العامة الإسلامية (MPCA)؛
- المجلس الإسلامي الأمريكي (AM)؛
- مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (CAIR)؛
- التحالف الإسلامي الأمريكي (AMA).

وفي عام ٢٠٠٠م أسَّست تلك المؤسسات مجتمعة المجلس الإسلامي الأمريكي للتنسيق السياسي (AMPCC)؛ لكي يقوم بمهمة التنسيق بين نشاطات المؤسسات الأربع السياسية، وقد جاء تعبيرًا عن الحضور المتزايد للمسلمين الأمريكيين، سواء على مستوى عددهم أو على مستوى إمكاناتهم التعليمية والاقتصادية والعمرية. حيث تشير «دراسة المساجد» السابق الإشارة إليها إلى القدرات العالية التي يتمتع بها الناشطون المسلمون بتلك المساجد؛ حيث إن ٨١% منهم من الحاصلين على شهاداتهم الثانوية على الأقل، و٤٨% منهم حاصلون على شهادتهم الجامعية.

ومـــن الناحية العمرية، يتميزون بالشباب، حيث إن ٤٧% منهم تقل أعمارهم عن ٣٥ عاماً، وتنحصر نسبة من تزيد أعمارهم على الـــ ٦٠ عاماً في ١١% فقط.

وبالنســـبة لدخولهـــم الاقتصادية، فتبلغ نسبة الحاصلين على أكثر من ٢٠ ألف دولار بينهم ٧٦%.

كمـــا تشـــير الإحصـــاءات إلى أن هذه النسب في استقرار وفي نمو، خاصة أن ٣٠ % من هؤلاء النشطين هم من المسلمين الجدد.

وقـــد جاء تأسيس هذه المؤسسات إيذاناً ببدء مرحلة جديدة من مراحل وجود المســـلمين في أمـــريكا، مـــرحلة تتخطى الاستجابة للحاجات الدينية والاجتماعية الأساســـية، مثل المساجد والمدارس والمؤسسات الاجتماعية والثقافية، إلى بناء القوة السياسية والإعلامية للمسلمين الأمريكيين، وقد عمل المسلمون في الولايات المتحدة عـــلى المشاركة في الحياة السياسية الأمريكية، واستخدام حقوقهم المكفولة دستوريًّا، وبخاصة حقوق التصويت، وحرية الرأي والتعبير، وحرية التنظيم السياسي، والترشيح لتولي المناصب السياسية.

كمـــا يقومـــون أيضًا بالعمل على التأثير في السياسة الخارجية الأمريكية؛ لتطوير الموقف الأمريكي من قضايا المسلمين، مثل: قضية فلسطين، وكشمير. إذ كان واضحاً أن توجهات المسلمين الأمريكيين نحو المشاركة في الحياة العامة والسياسية الأمريكية قد تصـــاعدت بشكل لافت، خاصة خلال عقد التسعينيات الذي شهد تأسيس مجموعة مـــن أنشط منظمات مسلمي أمريكا السياسية والإعلامية حالياً، وقد أوضحت دراسة أجـــرتها «كير» في عام ٢٠٠٠م لتوجهات قادة المساجد في أمريكا، أن ٩٦% منهم يؤيـــدون مشـــاركة المســـلمين في مؤسسات المجتمع الأمريكي المختلفة؛ وأن ٨٩% يؤيـــدون المشاركة في العملية السياسية؛ وأن ٧٧% منهم يؤيدون فكرة أن الولايات المتحدة تقدم نموذجاً من الحرية والديمقراطية يمكن أن يتعلم منه المسلمون.

وقـــد انتهى عقد التسعينيات بخاتمة إيجابية لمسلمي أمريكا تمثلت في نجاحهم في تنشـــيط أعـــداد كبيرة منهم في أول حملة لوبي منظمة ضغطوا فيها على الكونجرس الأمـــريكي للمطالـــبة بإبطال بعض القوانين التي طبقت بشكل تمييزي ضدهم، وقد تجلـــت هذه التحولات في عدد من الاختبارات الحقيقة لقدرة مسلمي أمريكا على التأثير السياسي، ففي عام ١٩٩٦م رفض مرشح بمجلس الشيوخ عن ولاية نيوجرسي، «ريتشـــارد زيمر»، قبول دعم مسلمي نيوجرسي له خلال انتخابات مجلس الشيوخ خوفـــاً مـــن انتقادات يهود الولاية له، ومن ثم سحب المسلمون دعمهم له وأعلنوا عـــزمهم عـــلى هزيمته بدعم خصمه «روبرت توريتشللي» الذي فاز بفارق بسيط، وكـــان المسلمون – كما أعلن «توريتشللي» – السبب في نجاحه. ويختلف السناتور «توريتشللي» الآن كثيراً في مواقفه عن غيره من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي في ما يتعلق بالقضايا التي تهم المسلمين والعرب.

وفي حادثة أخرى تعهد أحد مرشحي مجلس الشيوخ، عن ولاية نورث داكوتا، «لاري برتســـر» للناخـــبين بخفض المساعدات الأمريكية لباكستان إذا ما فاز، وفي المقـــابل قامت الجالية المسلمة والباكستانية بالعمل على جمع التبرعات لتأييد خصمه الذي فاز عليه.

وهكذا بدأت معالم الوجود الإسلامي السياسي في الظهور للمراقبين في مختلف الدوائـــر السياســـية الأمريكية بعدما ترك المسلمون بصماتهم على الانتخابات المحلية ببعض أهم الولايات الأمريكية حيث يوجد المسلمون بكثافة.. وقد كان لهم دور في انـــتخابات عام ٢٠٠٠م لم ينكره المراقبون في ترجيح كفة الرئيس الأمريكي الحالي «جـــورج بـــوش» عـــلى منافسه «آل جور»، بعد أن أبدى الأخير – أثناء حملته الانتخابية – آراء و مواقف غير عادلة أو منصفة لقضايا العرب و المسلمين في العالم.

ثالثاً: مسلمو الغرب بعد ١١ سبتمبر

منذ مع مطلع القرن الميلادي الحادي والعشرين، لم يعد المسلمون المقيمون بالغرب مجرد «جاليات» غريبة ومهمشة من عمال وطلبة يقيمون بإقامة مؤقتة من جهة، و لا يمثّلون «أقليات دينية» بالمعنى التقليدي للكلمة؛ فهم يطالبون بحقوقهم في صراع مع الغالبية من جهة أخرى. وتراجعت تدريجيًّا أشكال التجمعات المنعزلة. صحيح أن النسبة العددية الكبرى تتشكل من أجانب ومهاجرين ولاجئين، ولكن العنصر «الفعَّال» على المدى القريب والبعيد، بصدد الوجود الإسلامي في الغرب، يتمثل في نسبة عددية ترتفع عامًا بعد عام، من مجموعة فئات أصبحت جزءاً من نسيج المجتمع الغربي، في نطاق اندماجٍ متوازنٍ لا يذيب خصوصية عنصر التميز بالانتماء الإسلامي. ونقصد بها المسلمين من ذوي الأصول الغربية، والمقيمين منذ زمن بعيد، ومواليدهم الذين بلغوا سن الإنتاج، ويعرفون المجتمع الغربي باعتباره «مجتمعهم» هم.

وارتفاع مستوى وجود هذه الفئات، عددًا وتفاعلاً مع المجتمع، جعلها هي العنصر الفعَّال الذي يعطي الوجود الإسلامي بالمجموع «صورة أخرى» تختلف عما كانت عليه في العقود الأولى بعد الحرب العالمية الثانية. وأهم محاور هذا التفاعل هو الجانب «الحضاري» بما تعنيه الكلمة من منطلقات عقائدية، ومدارس فكرية، ومناهج سلوكية، إلى جانب الوسائل والإمكانيات العلمية والمادية والتقنية.. وقد تحققت قفزة نوعية على هذا الصعيد خلال العقود الماضية.

وإذا أردنا تلخيص ما وصل إليه هذا التفاعل عشية تفجيرات واشنطن ونيويورك، يمكن القول: بأنّ الوجود الإسلامي في الغرب أصبح يمثل «جزءاً من المجتمعات الغربية»، يتأثر بما حوله.. وربما برز الجانب الثقافي، والفكري، والإعلامي

في هـذه النقـلة النوعـية في أوروبا أكثر مـنه في الولايات المـتحدة الأمريكية. وهـو ما بدأ ينعـكس ببطء في السـاحة الإعـلامية، بمعـنى «التقلّص» الكمي والـنوعي للـتهجم التقليدي المحض، مقابل ظهور مواقف وأصوات منصفة، بدأت تنتشر وتترك آثارها.

فقد أصبح مستقبل الإسلام في الغرب سؤالاً ملحاً ومكرراً لدى عشرات الدوائر والمعاهد، وأفرز السؤال مجلدات وكتباً من الأجوبة، ومازال يحرك العديد من الخلايا الدراسـية في الدوائر الحسّاسة والمراكز الاستراتيجية السريّة والمعلنة أحياناً. وتذهب بعـض هـذه الدراسات، التي وضعت من قبل منظّرين غربيين، إلى أنّ الإسلام في الغـرب أصـبح حقـيقة قائمة لا مناص منها ولا مفّر، فلا يخلو شارع أوروبي من مسـجد أو امـرأة محتجبة أو مدرسـة إسـلامية أو ملحمة كتب على بابها: نبيع الـلحم الشـرعي، أو لحومنا مذكاة على الطريقة الإسلاميّة، وغير ذلك من المظاهر الإسـلاميّة.كمـا أنّ بعـض هذه الدراسات تؤكّد بأنّ ملايين المسلمين أصبحوا، أوروبـيين بحملهم الجنسيات الأوروبية، وأنّهم متساوون في الحقوق والواجبات مع السـكّان الأوروبـيين الأصليين، لهم أن يصوتوا ولهم أن يشكّلوا أحزاباً، ولهم أن يفتحوا إذاعات وتلفزيونات، وما إلى ذلك.

والأخطـر ما في هذه الدراسات إشارة إلى أنّ التكاثر بين المسلمين الغربيين في اطراد، فيما النسـبة الغربية آيلة إلى الشـيخوخـة، وقد أشارت دراسة حديثة إلى أنّ نسـبة المتقاعدين من الغربيـين بعد عشر سـنوات سيكون مذهلاً، وأن البديل لهـؤلاء في مناصب الشغل سـيكون من المهاجرين العرب والمسلمين وبقيّة القادمين مـن العالم الثالث.. ومعنى ذلك أنّ المسلمين سيدخلون في قلب المعادلة الاقتصادية للغـرب والغـرب يعتـبر أنّ أمـنه الاقتصادي كأمنه السياسي؛ حتى أن صحيفة

«هـآرتس» الإسرائيلية كتبت في تموز ٢٠٠١م معربة عن تخوفها من «التغيير الديمغرافي الجاري في غرب أوروبا» الذي يتضمن ارتفاع عدد المسلمين وانخفاض عدد اليهود في أوروبا وموقف الحكومات الأوروبية تجاه إسرائيل؛ لأن الوجود الإسلامي الكبير في أوساط السكان يتحول إلى عامل سياسي، كما حدث في الانتخابات البريطانية».

كما أن الكونغرس اليهودي العالمي أعد ورقة تحت عنوان « نمو الإسلام في أوروبا» جاء فيها: «اليوم يتمتع الدين الإسلامي بمعدلات النمو الأعلى في أوروبا، وهناك حوالي ٢٠ مليون مسلم في دول الاتحاد الأوروبي، وإذا تواصل هذا الاتجاه سيشكل المسلمون في عام ٢٠٢٠ حوالي ١٠% من مجموع السكان في أوروبا».

وفي هذا السيّاق يشار إلى أنّ الكتب التي تتحدّث عن «الإسلام» باتت تحقّق أعلى المبيعات في معارض الكتب في الغرب؛ كما أنّ دور النشر الغربية اتصلت بالعديد من المتخصصّين في الدراسات الإسلامية والحضارة الإسلامية والعربية للكتابة في مواضيع بعينها على صلة بالإسلام؛ كما أنّ المعاهد الجامعية الغربية باتت تحضّ الباحثين الراغبين في إنجاز أطروحات دكتوراة للكتابة عن الحركات الإسلامية أو المذاهب الإسلامية وغيرها من المواضيع ذات العلاقة بالإسلام.

أمّا البرامج التلفزيونيّة التي تصوّر حياة المسلمين في أكثر من قطر إسلامي، فقد أصبحت من الكثرة بحيث يندهش المشاهد للقنوات الغربية لهذا السيل الإعلامي الذي يتناول ظواهر الإسلام والمسلمين في خطّ طنجة – جاكرتا.

ففي ألمانيا، على سبيل المثال، وبعد تفجيرات سبتمبر، ولأول مرة نُقلت صلاة الجمعة كاملة من مسجد صغير في برلين؛ حيث ألقيت الخطبة بالألمانية من جانب

دكـــتور نديم إلياس، رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا، الذي حرصت وسائل الإعلام على إجراء عدد من اللقاءات والمقابلات معه، كما استقبله المستشار الاتحادي «جيرهـــارد شرودر» في نطاق وفد إسلامي – وهذا لأول مرة – إذ كانت اللقاءات تقتصـــر في الدرجة الأولى على رئيس الجمهورية، الذي تقتصر صلاحياته الدستورية على الجانب التمثيلي بالدرجة الأولى.

ولا يكـــاد يمضي يوم واحد دون برنامج إذاعي أو تليفزيوني يتصل بالمسلمين؛ وخصَّصـــت بعض الإذاعات مساحة زمنية واسعة، لبثّ برامج تضمنت ترجمة لمعاني ســـور كاملة من القرآن الكريم، مع بيان أهم نقاط الاحتكاك مع الديانات الأخرى وما يتعلق بالجهاد. وتعدَّدت الملاحق المخصصة للإسلام، وبعضها بمشاركة أقلام من المسلمين في ألمانيا، في الصحف اليومية والأسبوعية الرئيسة.

أمّـــا ذروة ما يمكن وصفـــه بردَّة الفعل الإيجابية على التداعيات السلبية الأولى بعد التفجـــيرات، فكانت في يوم «الباب المفتوح» للمساجد الإســـلامية في ألمانيا، يـــوم ٣/١٠/٢٠٠١م، الذي يصـــادف يوم عطلة «ذكرى إعادة الوحدة الألمانية». فقد نظَّم القائمون على المســـاجد أكثر مما مضـــى عمـــلية استقبال الزوار، وتهيئة المحاضـــرين والمحـــاورين الأقـــدر من ســـواهم على عـــرض الإســـلام وإجـــابة الاستفســـارات عـــنه باللغة الألمانية. وبالمقابل شهدت المساجد في هذا العام نفسه أضـــعاف الـــزوار الذين كانت تستقبلهم في مرات ماضية، منذ إطلاق هذا التقليد السنوي عام ١٩٩٦م.

بـــل ويصـــل رصد الجانب الإيجابي – على الصعيد الشعبي– إلى تسجيل حالات جديـــدة لاعتناق الإسلام «في الظروف الراهنة بالذات وتفاعلاً معها»، فضلاً عن أن

القـــوى الكنسية نفسها بدأت تتجه نحو الحوار مع الجهات الإسلامية، بعد أن وصلت الحملة «العلمانية الأصـــولية» في الغرب إلى البقـــية الباقية من مواقع القوى الكنسية في مـــناهج الـــتدريس مثلاً. وبالمقابل نجد أيضاً أن نسبة جهل عامة الغربيين بالإسلام بـــدأت تتضـــاءل عامـــاً بعد عـــام، ســـواء تحت تأثير الاحـــتكاك المباشر أو بتأثير مفعـــول الصـــحوة الإســـلامية في بلاد المسلمين وفي الغرب، أو نتيجة تطور وسائل الاتصال والنقل.

تقدير موضوعي للموقف:

وفي هذا السياق فإنه لا يصح الانطباع القائل: إن المسلمين أصبحوا عمومًا تحت الخطـــر في بلدان الغرب، وإن الاعتداءات عليهم باتت يومية؛ ففي ذلك تهويل من شأن ما شهدته الأيام والأسابيع التالية للتفجيرات، أي الفترة التي يمكن أن نتوقع أن تســـجِّل ذروة ردود الفعـــل الانفعالية على مستوى الشارع الغربي. ولا يعني ذلك الـــتهوين مـــن شأن ما وقع من اعـــتداءات وتحرشـــات؛ فمجرد وصول ذلك إلى مســـتوى قـــتل عدد من الأفراد، كما وقع في الولايـــات المتحدة الأمريكية، كافٍ للتنويه بحجم الخطر، إلا أن تقويـــم الوضع بصـــورة موضوعية ينبغي أن يقوم على استحضار الأرقام.

إذ نجـــد مـــثلاً، ووفـــق بيانات مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية، أن عدد الاعتداءات التي تم رصدها في الأسبوعين الأولين بعد التفجيرات بلغت زهاء ٦٢٥؛ ثلـــثها (١٤٠) عبارة عن تحرشات لفظية، ومنها ٤ حالات (قتل)، وهي نسبة عالية بشـــكل مـــلحوظ إذا قورنـــت بأرقام حالات الاعتداء المرصودة على مدى عامين سابقين معاً.

لكن يصعب وصفها بالمرتفعة ارتفاعًا خطيرًا عند مقارنتها من وجه آخر بمعدَّل حوادث الاعتداء العنصري في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن جهة أخرى لم يتمّ رصد أي حادثة من مستوى العنف الإجرامي في البلدان الأوروبية. وعندما سُئِل رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا في ذلك لم يذكر سوى تحرشات وتهديدات كلامية في الشوارع وعبر البريد الإلكتروني.

الأهم من ذلك – على المدى المتوسط والبعيد – هو رد الفعل الشعبي والإعلامي الإيجابي نسبيًّا على ما انتشر من أخبار، بصدد تعميم الأحكام المسبقة والتسرّع في اتهام المسلمين. ومن ذلك ما انتشر – وما زال ينتشر– في وسائل الإعلام، وقد اتخذ، بشكل عام، طابع التعريف بالإسلام لا التنفير منه بشتى الافتراءات.

قد يمضي بعض الوقت قبل أن يرصد المسلمون في الغرب أنفسهم حجم التغير «الإيجابي» الكبير وغير المنتظر على مستوى الرأي العام الغربي، ولكن يمكن رصد أمثلة مبدئية عليه، لبيان اتجاهه العام، رغم استمرار الانطباع المعاكس لذلك في كثير من وسائل الإعلام العربية، ولا سيما ذات التوجه الإسلامي:

بعد أقل من ثلاثة أسابيع من الحدث تبدَّلت مضامين التقارير اليومية الصادرة عن الجهة المركزية الرئيسة للمسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية، متمثلة في «مجلس العلاقات الأمريكية – الإسلامية»، فلم تَعُدْ تشكو بقلق ظاهر – كما كان في الأيام الأولى– من موجة الاعتداءات، بل تتحدث في الدرجة الأولى عن الخطوات الجديدة من جانب الجهات الإسلامية لتتحرك في نطاق ظروف جديدة.

فإذا خرجنا من النطاق المركزي إلى بعض الولايات والمدن الأمريكية، نجد الحديث عن تطور إيجابي غير منتظر أشدّ إيجابية، كما ينقله مثلاً د. وليد فتيحي في

مقالين نشـــرهما في جريدة عـــكاظ السعودية، وكان ثانيهما في ٢/١٠/٢٠٠١م، وكـــان مما جاء فيه: «توالت علينا الدعوات من الكنائس من مدينة بوسطن والمدن المجـــاورة لتقديـــم محاضـــرات عن الإســـلام في كنائسهم، ونظرًا لكثرة الطلبات فقد كُوِّنت لجنة من إخـــوة وأخوات – وبعضـــهم أمريكيون مسلمون – لتطوير هـــذا الـــبرنامج بصورة دائمة، وعمل زيارات أسبوعية للكنائس في مدينة بوسطن والمدن المجاورة».

وبعـــد أن يعدد أمثلة على بعض اللقاءات الجارية، يقول: «إن ما ذكرت أعلاه اليوم وما ذكرت في مقالي السابق ما هو إلا أمثلة بسيطة مما يحدث في مركز إسلامي واحـــد في مدينة واحدة في ولاية واحدة من ولايات أمريكا، وقد سمعنا وقرأنا عن مدن كثيرة أخرى تعايش ما نعايشه، وإن كانت بوســـطن قد حباها الله بعوامل قد لا تتوفر لغيرها من المدن، وتتلقى من المنح أكثر بكثير من المحن».

ومـــن جانب آخر، فإن أحداث الحادي عشر من سبتمبر قادت إلى العديد من الدفعات الإيجابية لمسلمي أمريكا كقوة سياسية، لخصها رئيس قسم الشؤون العربية بمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية «كير» د. علاء بيومي فيما يأتي:

١ – فتحـــت الأزمـــة أمام المنظمات المسلمة الأمريكية أبواب أكبر المؤسسات السياســـية والإعلامـــية الأمريكية. بل إن الرئيس الأمريكي نفسه التقى بالمنظمات المســـلمة الأمريكـــية مرتين خلال الأسابيع الثلاثة التالية للحادي عشر من سبتمبر. أضـــف إلى ذلـــك تمييز الرئيس الأمريكي والعديد من مساعديه بين الإسلام وبين مرتكبي الحوادث الإرهابية الأخيرة.

٢ – خلقـــت الأزمة شعورًا بالتوحد والتحدي داخل المجتمع المسلم الأمريكي. وعلى الرغم من أن التحدي الذي خلقته الأزمة قد يخيف العديدين، ويدفع بعضهم

إلى تــرك الولايات المتحدة، كما فعل بعض المسلمين الأجانب في الولايات المتحدة، فإنه زاد من ارتباط العديد من المسلمين والعرب بعضهم بعضاً وعمّق التفافهم حول مؤسســاهم، كمــا ظهــر في إقــبال المســلمين الكبير على تلبية دعوة منظماهم ومساجدهم لهم في أكثر من مناسبة خلال الأسابيع الأخيرة.

٣ – مثّلــت الأزمة فترة انقطاع في عقلية المواطن الأمريكي (المسلم وغير المسلم) جعلــته يفكــر في علاقته بالإســلام والمســلمين بشكل جديد وغير مسبوق، فقد تحدثــت جريدة «USA Today» الأمريكية الشهــيرة، في عددها الصادر يوم السابع عشر من ســبتمبر عن نفاذ الكتب المتعلقة بالإســلام والشرق الأوســط من مكتبات الولايــات المــتحــدة، مشــيرة إلى اهتمام الأمريكــيين المتزايد بمناقشــة الإســلام وعلاقــة الشعب الأمريكي بأبناء الشعوب الإسلامية. نفس الأمر حدث مع العديد من المسلمــين المقيمين في الولايات المتحدة، فقد دفعتهم الأزمة – وما تضمنها من هزة – إلى مراجعة المصادر والمؤســسات الإســلامية للبحث عن أجــوبة لمــا أثارته الأزمة من تساؤلات.

من المؤكد إذن أن الجالية المسلمة والعربية استطاعت أن تتجاوز أزماها الكثيرة والمــتعددة، والــتي تعثرت بها في تاريخ وجودها في العالم الغربي على وجه العموم، واستطاعت اتخاذ خطوات تاريخية ومصيرية على طريق بناء قاعدة ورصيد اجتماعي ومؤسسي وسياسي يمكن استخدامه في تحالفات وتحديد معالم مستقبل جديد، ليس فقط لأبنائها في أوربا والولايات المتحدة، ولكن أيضاً في تقديم رسالة أمتها الحضارية إلى المجــتمع الغربي، وفي بناء جسور تعاون جديدة بين العالمين العربي والإسلامي من جهة والعالم الغربي من جهة أخرى.

رابعاً: الدور الرسالي لمسلمي الغرب

لا شــك في أن للهجرة في التاريخ الإسلامي معنى خاصاً وآثاراً متميّزة، بحيث اتّخــذت فــيه وضعاً لم يكن لها في أيّ دين أو مذهب آخر، فقد جاءت النصوص الدينية تبارك الهجرة في سبيل الدين، وتحثّ عليها، وتعتبرها إحدى وسائل الجهاد في ســبيله، مــن ذلك قوله تعالــى: ﴿ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ ﴾ (النســاء:٩٧)، وكانت هجرة النبيّ ﷺ من مكّة إلى المدينة عاملاً حاسماً في انتصار الإسلام ورسوخه، كما كانت بعد ذلك هجرات المسلمين إلى أصقاع الأرض سبباً في انتشــاره بين الناس، وسبباً في تلاقح حضاري اعتبر أحد الأسباب المهمّة في نشأة الحضارة الغربية الراهنة.

ومــن هذا الوضع المتميّز للهجرة في الإسلام وتاريخه، أصبح في المخزون الثقافي للمســلمين مــا يمكن أن يسمّى بثقافة الهجرة، وهي ثقافة أصبح بها المسلم يعتبر أنّ الهجــرة لــئن كان فيها من الشدّة والمعاناة ما يلقاه عموم الناس إلاّ أنّها بالنسبة إليه تعتــبر وسيلة من وسائل الدعوة إلى الدين، وضرباً من ضروب الجهاد في سبيل الله، فاكتســت بذلك في نفس المسلم بعداً رسالياً اختلفت به عن موقعها في نفوس غير المسلمين من سائر أهل المذاهب والأديان الأخرى.

ولــئن كان البعد الرسالي في هجرة العقول المسلمة في النصف الأخير من القرن الماضــي (العشرين) خافتاً عــند أكثر المهاجرين، لأســباب يعود بعضــها إليهم، كمــا أسلفنا، متعلّقة بضعف وعيهم الثقافي العامّ، ويعود بعضها إلى المناخ الحضاري الــذي هاجــروا إليه متمثّلة في السطوة الحضارية الغالبة في الحضارة الغربية، إلاّ أنّ الــتطوّرات التي حدثت في نوعية المسلمين المهاجرين، وفي مجمل الوجود الإسلامي

بالديـــار الغربـــية، مضـــافاً إليه ذلك الرصيد من البعد الرسالي المخزون مستكنّاً في النفسية الإسلامية، يمكن أن يكونا عاملين مهمّين من العوامل التي يمكن استثمارها في الدفع بالهجرة الإسلامية إلى الديار الغربية إلى آفاق رسالية واسعة يمكن أن تكون لها آثار نوعية في الدعوة الإسلامية.

وفي هذا الإطار، يتنـــزّل ما يثار اليوم من حجاج واسع حول هجرة العقول من البلاد الإسلامية إلى الديار الغربية، فقد كثرت حول هذه الهجرة التساؤلات فيما إذا كانـــت تمثّل عاملاً سلبياً بالنسبة إلى المسلمين يُضعف من أسباب نهضتهم وتقدّمهم، أو هـــي تنطوي على عناصر من القوّة بالنسبة لمجمل الوضع الإسلامي العامّ في جانبه الدعـــوي على وجه الخصوص، وكيف يمكن لتلك العناصر من القوّة، إذا ثبتت أن تفعّـــل لـــتحدث الآثار المطـــلوبة فيـــربو ما تنطوي عليه من خير على ما يمكن أن تكون منطوية عليه من ضرر؟

فمـــنذ بعـــض العقود وكما أوضحنا تكثّفت هجرة أعداد كبيرة من العلماء والمفكّـــرين المســـلمين من بلادهم بالمشرق إلى أوروبا وأمريكا، حتى أصبح عددهم الـــيوم يقـــدّر بعشرات، إن لم يكن بمئات الآلاف، ومنهم من بلغ في الريادة العلمية الدرجـــة الأولى من بين علماء العالم ومفكّريه، وهم يساهمون إسهاماً فاعلاً في تقدّم الحركة الحضارية في جميع وجوهها.

وبقطـــع الـــنظر عن الأسباب التي أدّت إلى تفشّي هذه الظاهرة وتناميها بمرور الـــزمن، والتي ليس هذا محلّ بحثها، فإنّها ظاهرة ذات تأثير بالغ على كلّ من طرفي الـــبلاد، المهاجر منها والمهاجر إليها، على حدّ سواء، إلاّ أنّه تأثير يختلف في طبيعته بعض الاختلاف بين الطرفين.

أمّا بالنسبة إلى البلاد المهاجر إليها، فإنّ هذه العقول المهاجرة تعتبر رصيداً إضافياً في مجال الريادة العلمية والفكرية، تساهم إسهاماً فاعلاً في التقدّم الصناعي والتكنولوجي، وتسرّع من حركة التنمية الشاملة فيها، وهو أمر مشهود به من قبل أهل تلك البلاد أنفسهم، كما يدلّ عليه حصول بعض العلماء المسلمين المهاجرين على جائزة «نوبل»، وهي الشهادة العالمية العليا على الريادة والعطاء في المناشط العلمية على اختلافها.

وأمّا بالنسبة إلى البلاد المهاجر منها، فإنّ تأثير هجرة العقول يبدو في طرفه القريب تأثيراً سلبياً عليها، إذ هجرة العقول منها يعتبر نقصاناً من رصيدها الذي به تتحرّك نحو نهضتها، وذلك بما ينقص بتلك الهجرة من إمكانيات الابتكارات والكشوف العلمية والفكرية، التي من شأنها أن تطوّر الحياة وتنمّيها، وإن كان بعض الباحثين يشكّك في أن يكون لتلك العقول المهاجرة تأثير إيجابي في البلاد التي هاجرت منها فيما لو بقيت فيها، إذ هي حينئذ سيكون مآلها الانكماش والعطالة كالعقول التي لم تهاجر، وذلك بحسبان أنّ المناخ العامّ في تلك البلاد غير مساعد على الانطلاق في سبيل الريادة والابتكار والعطاء، وهو ما كان أحد أسباب هجرتها إلى بلاد يتوفّر فيها ذلك المناخ.

ولكن قد نظفر بنتائج أخرى لظاهرة هجرة العقول الإسلامية مخالفة للنتائج الآنفة البيان لو وسّعنا زاوية النظر إليها، بحيث تتجاوز في التقدير حدود الربح والخسارة، بميزان التنمية المادّية، لتمتدّ إلى مساحات تشمل مستقبل الدعوة الإسلامية فيما يمكن أن يكون لها من انتشار بتلك الهجرة في ديار الغرب من شأنه أن يثمر من النتائج ما يعود بنفع حضاري عامّ، مادّي ومعنوي، لكلّ من طرفي الهجرة،

المهاجر منه والمهاجر إليه، على حدّ سواء، ونحن نعني هنا ما أشرنا إليه آنفاً من البعد الرسالي في هجرة العقول الإسلامية إلى بلاد الغرب.

وإذا ما استُنهض هذا البعد الرسالي في العقول الإسلامية المهاجرة ليصبح نشيطاً فاعلاً فإنّه سيمتدّ بالدعوة الإسلامية، بما تتضمّنه من قيم إيمانية وخُلقية واجتماعية إلى بـــلاد المهجر الغربي، وستتكوّن من ذلك حركة تفاعل حضارية بالغة الأهمّية تتلاقح فـــيها تلـــك القيم الإسلامية ذات البعد الإنساني بما يتوفّر عليه الغرب من مكاسب العلـــوم الكونية والأنظمة الإدارية، وتكون تلك العقول المهاجرة واسطة تبليغ إيجابي تـــنقل الحسنات من كلّ طرف إلى (الآخر)، فإذا التقدّم المادّي بالبلاد الغربية يتعزّز بالقيم الإسلامية في أبعادها الإنسانية، وإذا بتلك القيم عند المسلمين تتعزّز بمكاسب الغرب من العلم الكوني وأنظمة الإدارة، وإذا بذلك كلّه يفضي إلى مدخل مهمّ من مداخـــل الـــتلاقح الحضـــاري الذي يبلّغ فيه خير الإسلام إلى الناس، ويستفيد فيه المسلمون ممّا عند هؤلاء الناس.

يتبـــيّن إذن أنّ ظاهرة هجرة العقول المسلمة إلى الغرب هي ظاهرة تنطوي من مكوّنات الخير والمنفعة للأمّة الإســـلامية وللإنســـانية عامّة على ما يمكن أن يذهب بما قدّر فيها من الوجوه السلبية، ممّا أشرنا إليه آنفاً، وذلك حينما ينظر إليها من زاوية أرحب تجعل البعد الرسالي وما ينجرّ عنه من تفاعل حضاري مثمر المحور الأساس في التقدير، والمحور الأساس في معالجة هذه الظاهرة وتوجيهها.

إنّ هذا المحتوى للبعد الرسالي في هجرة العقول المسلمة، في طرفي الأخذ والعطاء، مـــن شـــأنه أن يغـــيّر طبيعة تلك الهجرة من مجرّد حركة انتقال آلي تحوّلت به تلك العقـــول من ضفّة حضارية إلى أخرى، ومن نمط اجتماعي إلى آخر، عابرة ما بينهما

من هوّة في سبيل تحقيق مآرب فردية ضيّقة، مثل العيش في رفاهية من الحياة، أو الاطمئنان بالأمن، أو إشباع الطموح العلمي، مع بقاء تلك الهوّة الفاصلة على حالها، إلى انتقال يحمل معه مخزوناً ثقافياً قيمياً حضارياً يبلّغه إلى أهل الغرب، ويشارك به في حركة الحوار الحضاري من أجل المصلحة الإنسانية العامّة.

ومن شأن ذلك أن يغيّر من طبيعة تلك الهجرة لتكون هجرة واصلة بين حضارتين، تحمل من كلّ منهما إلى الأخرى ما هي في حاجة إليه من الحقّ النظري والعملي، لينمو الخير فيها وتضيق مساحة القصور، فتضيق إذن تلك الهوّة الفاصلة، وتقترب الأمّة الإسلامية من أمم الغرب بما تقدّم إليهم من القيم الخُلقية والدينية، وبما تأخذ من الكسوب المادّية والإدارية، وفي ذلك خير الإنسانية، وفيه على وجه الخصوص خير الإسلام والمسلمين.. وإنّ العقول الإسلامية المهاجرة لمؤهّلة للقيام بهذا الدور الرسالي في هجرتها.

بالإضافة إلى تلك المؤهّلات الذاتية المتحقّقة في العقول الإسلامية المهاجرة للقيام بدورها الرسالي، فإنّها تتوفّر أيضاً على مؤهّلات للقيام بهذا الدور من حيث البيئة الغربية التي هي مسرح وجودها ونشاطها.. فهذه البيئة بالرغم من كونها بيئة مغايرة في جذورها الفلسفية وفي تشكيلها الثقافي للرسالة الإسلامية إلى حدّ التعارض في كثير من العناصر، إلاّ أنّها تنطوي على جملة مهمّة من المعطيات المؤهّلة لدور رسالي تقوم به العقول الإسلامية المهاجرة، وذلك سواء بالنظر إلى المناخ الروحي النفسي الذي يسود تلك البيئة، أو بالنظر إلى الوسائل المتاحة للحوار والتبليغ.

فالمجتمع الغربي يعاني معاناة مضنية من الإرهاق المادّي جرّاء المذاهب الفلسفية المادّية التي صاغت حياته فأفضت به إلى فقر روحي مدقع، ظهر في مستوى المشاعر

الفردية وفي مستوى العلاقات الأسرية والاجتماعية على حدّ سواء، وأفضى إلى جملة من المشاكل النفسية والاجتماعية من مثل الاكتئاب والإجرام والمخدّرات والاضطراب الأسري.

وبما أنّ هذا الوضع نشأ من خلل في الفلسفة التي بنيت عليها الحياة، إذ هي فلسفة تعتدي على الفطرة الإنسانية ذات البعدين المادّي والروحي، بإفراطها في الأوّل وإجحافها في حقّ الثاني، فقد ظهرت بوادر كثيرة، فردية وجماعية، تعبّر عن الرّفض لهذا الاعتداء على الفطرة الإنسانية المزدوجة، وباتت تطلب تعديل الميزان بالبحث عن مذاهب ذات بعد روحي تجد فيها النفوس تحقيق أشواقها الروحية، وهو ما بدا في انتماء الكثيرين من أهل الغرب إلى أديان ونحل شرقية روحانية، وسقوط أخرى في ضروب من التهويمات والأساطير ذات الطابع الروحي، فما ذلك إلاّ تعبير عن الحاجة إلى مذهب جديد يحقّق الفطرة التي تعرّضت إلى الإجحاف.

ولو عرض الإسلام في هذا المناخ المتعطّش للروحانية عرضاً رشيداً لكان رسالة تتلقّاها نفوس أهل الغرب المرهقة بالمادّة، لما تجد فيه من توازن تشبع فيه أشواق الروح، وتلبّى مطالب الجسم، إذ هي مؤهّلة بحكم الوضع الذي آلت إليه لتلقّي تلك الرسالة.

مسلمو الغرب والعالم الإسلامي

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري (*)

الأحداث التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر هزت الضمير العالمي، وشقت خطاً وهمياً بين العالم الإسلامي والغرب، ترتب عليه تضييق الخناق على المسلمين في كل مكان، وخاصة في الغرب، والزج بهم في دائرة الصراع المفتعل، وانتحال الأعذار لإعادة عملية التاريخ إلى الوراء، ببسط النفوذ الغربي على البلدان الإسلامية.

كلمة في المنهج

ما الفرق بين عبارة (مسلمو الغرب) وعبارة (المسلمون في الغرب) ؟

نعتقد أن ثمة فروقاً تتعدّى المعنى اللغويَّ الذي يتراوح بين المضاف والمضاف إليه وبين الجملة الخبرية، إلى معنى أعمق يستحق منا أن نتدبّره ونتأمله وندرس ما يترتّب عليه من دلالات ومضامين. ذلك أن عبارة (مسلمو الغرب) تنطوي على دلالة عميقة تؤكد النسبة إلى الغرب بكل ما تعنيه هذه النسبة من ارتباط جغرافي وانتماء تاريخي، كما تنطوي على مضمون قانوني ودلالة دستورية وحالة انتماء دائمة لا سبيل إلى

(*) المدير العام.. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو).

الإخلال بشروطها. بينما تخلو عبارة (المسلمون في الغرب) من هذه الدلالة وتنصرف إلى المعـــنى المادي المجرد الذي يقتصر على الوجود دون أن يتعدّاه إلى أيّ معنى آخر، كمـــا تنصرف إلى مفهوم متحرك وحالة غير مستقرة، تفتقد إلى المكوّنات القانونية والمسوّغات الدستورية.

فمسلمو الغرب هم جزء من النسيج المجتمعيّ في دول الغرب، بالمصطلح السائد، الـــتي تشمل دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا ودول أمريكا اللاتينية، بـــل إنـــنا إذا أسقـــطنا من اعتبارنا الحدود الجغرافية، أمكننا أن نضـــيف أستراليا واليابان – على سبيل المثال – إلى هذا المحيط الغربي.

وإذا اســـتعملنا التعبير النحوي، فإنّ الإضافة هنا عامل أساس في تشخيص حالة المسلمين في الغرب، ولذلك فإنّ العبارة التي اعتمدناها في هذا البحث، وهي (مسلمو الغـــرب)، تعـــبّر عن الحالة القائمة بأوفى ما يكون من الدقة، وتجعلنا أمام الظاهرة الاجتماعـــية والثقافية التي تتمثّل في الوجود الإسلامي الراسخ في الغرب الذي أصبح جـــزءاً لا يتجزأ من المجتمعات الغربية، والذي يشكّل في عالم اليوم، ظاهرة جديدة تستحقّ الدراسة.

الخلفيات التاريخية:

لـــلمرة الأولى في الـــتاريخ تنشأ ظاهرة وجود المسلمين في الغرب في مجتمعات أصيلة ذات الانتماء التاريخي والجغرافي والقانوني إلى مجموعة من الدول الغربية. فقبل النصـــف الثاني من القرن العشرين، كان المسلمون من الأصل الغربي يشكلون نسبة قلـــيلة جدّاً من تعداد السكان في الغرب، بحيث لم يكونوا يشكلون ظاهرة اجتماعية ودينـــية، بـــل لم يكـــن وجودهم يلفت النظر. ومعظم هؤلاء كان يعيش في الدول الأوروبـــية الـــتي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وانفصلت عنها، كما هو

معــروف، إبّــان الحرب العالمية الأولى، فنشأت دول أوروبية مستقلة حديثاً بعد أن وضــعت الحــرب أوزارها، في منطقة البلقان واليونان، وفيما كان يعرف إلى وقت قريــب بأوروبــا الشــرقية التي انتهى بها المطاف إلى السقوط تحت هيمنة الاتحاد السوفياتي السابق بعد الحرب العالمية الثانية.

ومســلمو هــذه الــدول الأوروبية هم جزء أصيل من نسيج المجتمعات الغربية الأوروبــية، فهم مسلمو الغرب تاريخياً وواقعياً، وهم يكتسبون الأصالة والعراقة في انــتمائهم الإسلامي، باعتبارهم ينتمون إلى الشعوب التي عاشت في أوروبا منذ أقدم العصور، والتي اعتنقت طوائف كثيرة منها الإسلام في القرون الوسطى، التي لم تكن بالنســبة للعالم الإسلامي مراحل الظلام والتخلف كما كانت تسود الغرب في تلك العصور، وإنما كانت دولة الخلافة العثمانية خلال هذه المراحل الطويلة التي استغرقت خمسة قرون، سيّدة العالم بلا منازع.

لقد دخل الإسلام إلى أوروبا في القرن الخامس عشر للميلاد. ولربما أمكن لنا أن نقول: إن احتكاك الغرب بالعالم الإسلامي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر المــيلاديين اللذين شهدا ما تسميه المراجع الأوروبية بالحروب الصليبية، قد نتج عنه تعــرّف بعــض الفــئات من الشعوب الأوروبية على الإسلام. وإذا كانت المصادر التاريخية عن تلك الفترة لم ترد فيها الإشارة إلى دخول بعض الأفراد في الإسلام، فإن لــنا أن نتخــيَّل أن أفراداً أو مجموعة ممن شاركوا في تلك الحروب، قد تعرفوا على الإسلام، ولربما اعتنقه بعضهم.

ولابد أن نستثني هنا الأندلس التي هي جزءٌ من أوروبا، والتي دخلها الإســلام في القرن الأول الهجري. وحتى بعد سقوط غرناطة آخر حصون الإسلام في الأندلس في عام ١٤٩٢م، استمر الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبرية لقرنين من الزمن،

في شـــكل الأقلـــية المسلمة التي عرفت في التاريخ بالموريسكيين [1]. ويذهب المؤرخ محمـــد عبد الله عنان إلى أن المسلمين كانوا لا يزالون يعيشون في الأندلس إلى غاية القرن السابع عشر الميلادي، أي بعد قرنين من سقوط غرناطة، وإن كانوا قد عاشوا مطوقـــين بالاضـــطهاد الـــذي بلغ ذروَته في تلك الفترة، إلى أن لم يبق في الأندلس مسلم [2].

والملاحـــظ أن انـــتهاء الوجود الإسلامي في الأندلس بهذه الصورة الهمجية من القمع والاضطهاد الديني العنصري، قد تَزامَنَ مع ما يعرف في أوروبا بعصر الأنوار.

والجدير بالذكر هنا أنه مع ظهور بوادر الصحوة الإسلامية في إسبانيا المعاصرة، قبل عقدين على الأقل، بدخول أعداد متزايدة من الإسبان في دين الله أفواجاً، ظهر مـــن بين المســـلمين الجدد مَن أعـــلن على الملأ أنه توارث الإســـلام أباً عن جد طوال القرون الأخيرة، وأن أجداده حافظوا على الإسلام ولم يرتدوا قط، كما ارتدَّ بعض المســـلمين في الأندلس تحت وطأة محاكم التفتيش. وهذه حالة فريدة تثبت لنا أن الإسلام يستعصي على القهر والمحو والذوبان حتى في أحلك الظروف التي مرَّ بها في الأندلس.

ولكـــن الإسلام وإن كان قد ضعف وجوده البشري في أوروبا في حدود القرن الثامن عشر، فإن التأثير القوي الذي أحدثته الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي في عقول مفكري أوروبا في عهود مختلفة، ظلّ يعمل عمله في توجيه الفكر الأوروبي نحو

(١) هـــؤلاء يمثلون المأساة التي استحالت فيها بقية الأمة الأندلسية بالتنصير المفروض إلى طائفة جديدة عرفت من ذلـــك الـــتاريخ بالموريسكيين – MORISCOS – أو المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين، محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط٣ (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦م) ص ٣٢٢.

(٢) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص ٤٠٧.

مجالات لم تكن مطروقة. وهنا لابد من الإشارة إلى ما كان لمؤلفات الفيلسوف الفقيه العالم أبي الوليد بن رشد وشروحاته لمؤلفات أرسطو طاليس، من تأثير بعيد الغور في العقل الأوروبي ابتداءً من القرن الثالث عشر، إلى درجة أن المنصفين من مؤرخي النهضة الأوروبية أثبتوا في مؤلفاتهم التي تعدُّ من المراجع المعتمدة المهمة، أن الفكر الرشدي كان هو الأساس في تطوير الفكر الأوروبي وارتقائه وتحرّره من رواسب القرون الوسطى، وخروجه من عصر الظلمات، التي هيمنت فيه الكنيسة الغربية على الحياة العقلية، حتى ساد الجهل والخرافة وحورب العلم محاربة لا هوادة فيها، إلى عصر الأنوار.

وعلى المستوى العلمي، فقد ظلت الجامعات في أوروبا تدرس الكتب العربية في الطب والصيدلة إلى القرن الثامن عشر، حيث كانت مؤلفات ابن سينا والبيروني وابن الهيثم في العلوم الطبية، من المصادر الأساس للمعرفة العلمية ولازدهار الحياة الأكاديمية في العديد من المدن الأوروبية.

ونخلص من هذا إلى أن للإسلام تأثيراً لا ينكر على العقل الأوروبي، وعلى الحياة الفكرية والعلمية في أوروبا، منذ الاحتكاك المباشر الذي وقع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وخلال الوجود الإسلامي في الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط، وخاصة صقلية. ولا قيمة للآراء التي تقلّل من أهمية هذا التأثير، لأنها نشاز(١).

---

(١) هذه الحقائق التاريخية تدحض بشكل كامل المقولةَ التي كان يرددها الكاتب الإنجليزي رديارد كبلنج: (الشرق شرق والغرب غرب وهيهات أن يلتقيا). والذي يقرأ مؤلفات كبلنج يشتم بين سطورها أكثر من هذه العبارة، لقد كان من طغاة المستعمرين الذين أدى بهم التعصب الأعمى إلى الاعتقاد بأن حضارة الشرق قد قضي عليها القضاء الأخير، وأن رمال الصحراء قد دفنتها إلى الأبد، ولن يسمح لها الزمان أن تبعث، وأكثر من ذلك، أن الحضارة الغربية لن تستطيع أن تغير من العقلية الشرقية، د. أمير بقطر، حضارة الغد هل تطلع من المشرق؟، مجلة (الهلال)، مارس ١٩٥٣م، القاهرة .

الوجود الإسلامي في الغرب: أقليات وجاليات

نشأت ظاهرة الأقليات الإسلامية في العصر الحديث، مع تصاعد الهجرة من البلاد الإسلامية إلى مختلف أقطار الأرض، خلال العقد الأول من القرن العشرين، في مستواها الأول، بينما برزت هذه الظاهرةُ في مستواها الثاني، مع نشوء الدول الحديثة في العديد من المناطق التي كانت تقع تحت حكم المسلمين، إلى أن قررت القوى الاستعمارية الأوروبية إعادة رسم الخريطة السياسية والجغرافية لهذه المناطق، بحيث يتضاءل نفوذ المسلمين ويتقلّص حضورهم، ليصبحوا أقليةً في المجتمعات التي كانوا يحكمونها إلى عهود قريبة.

فمع نموّ حركة انسياب الهجرة من العالم الإسلامي إلى شتى الأصقاع، وبخاصة إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، في أول العهد، ثم إلى أمريكا الجنوبية وكندا واستراليا، نشأت ظاهرة الأقليات الإسلامية لأول مرة تقريباً في تاريخ الإسلام، حيث وصل المسلمون إلى هذه الأقطار يحملون ثقافتهم وحضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ليجدوا أنفسهم وسط مجتمعات لها أديانُها ولغاتها وثقافاتها، ولها أنماط العيش وأساليب الحياة الخاصة بها والتي تختلف عما ألفوه ونشأوا عليه وعاشوا في كنفه في بلدانهم الأصلية.

ولقد كانت الأفواج الأولى من المهاجرين من العالم الإسلامي إلى البلدان غير الإسلامية، ذاتَ خصائصَ متقاربةٍ يغلب عليها الطابعُ الشعبيُّ العام؛ إذ لم يكونوا من ذوي المستويات الثقافية العالية، في حين كان البحثُ عن موارد الرزق، هو أكبر دافع على هذه الهجرات الأولى التي نتج عنها ظهور تجمعات إسلامية تتوزّع على رقعة جغرافية مترامية الأطراف، وهو الأمر الذي أدّى إلى ذوبان معظم هؤلاء المهاجرين في المجتمعات الجديدة عليهم، بحيث لم يشعر بهم أحد، خاصة في العالم

الإسلامي الذي كان في وضعٍ بالغ الضعف من جراء عوامل عديدة، يكفي أن نذكر منها، أن معظم الأقطار الإسلامية، كان خاضعاً عهدئذٍ، للاستعمار الغربي.

وبالتحوّل الذي حدث في العالم الإسلامي، وبخاصة مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، حصل تَغَيُّرٌ رئيسٌ في تركيبة المهاجرين من البلاد الإسلامية إلى الغرب على وجه الخصوص، حيث أخذت أفواج المتعلمين والدارسين من ذوي الكفايات الثقافية والعلمية والمهارات المهنية المتميزة، تغلب على ظاهرة الهجرة المتصاعدة في اتجاه البلدان الأوروبية والأمريكية، مما أدّى إلى ظهور أوضاع جديدة طبعت حياةَ التجمعات الإسلامية التي أخذت في البروز بصورة واضحة في العديد من الأقطار، فنشأت عنها مشكلات متنوعة، شعر المسلمون في المهجر بوطأتها الشديدة عليهم، فصاروا يتطلعون إلى إيجاد حلولٍ لها، حتى تستقيم حياتُهم، وينتهوا إلى التوافق والانسجام بين ثقافتهم وهويتهم، وبين المحيط الاجتماعي والبيئة الثقافية والمناخ الفكريِّ العام الذي وجدوا أنفسهم يعيشون في خضمه[1].

وعلى مستوى آخر، فإن تأسيس الدولة الحديثة في بعض الأقطار التي كانت تحت هيمنة الاستعمار الأوروبي، تسبّب في نشوء أوضاع سياسية فُرضت على المسلمين في العديد من المناطق، نتجت عنها حالة شديدة التعقيد تتمثّل في أن مجتمعات إسلامية كثيرة انقلب وضعها من النفوذ والسيادة والأخذ بزمام الأمور، إلى الانعزال والتقوقع والانكماش وزوال السلطة، وبذلك نشأت أقليات إسلامية بقوة الأمر الواقع الذي فرضه المستعمرُ الأوروبيُّ، فيما فرض من أوضاع أراد بها تحقيقَ مصالحه بعد رحيله من البلاد التي كان يحتلها احتلالاً عسكرياً مباشراً.

(١) عبد العزيز بن عثمان التويجري، الحوار من أجل التعايش (القاهرة: دار الشرق ، ١٩٩٩م) ص ١٣٧.

وبانتشار الإسلام في بقاع واسعة، سواء أكان ذلك بإقبال أهل الأديان والعقائد الأخرى على اعتناقه والدخول في دين الله أفواجاً أو أفراداً، أم بوصول المسلمين إلى تلـك الـبقاع واختلاطهم بشعوبها واندماجهم فيها، نشأت أقليات إسلامية ذاتُ خاصيتَيْن ثقافيتين اثنتين؛ أُولاهما أن هذه الأقليات جماعات بشرية متجانسة نابعة من مجـتمعاتها الأصلية، فهي بذلك تكتسب صفة الانتماء إلى الأوطان التي تعيش فيها، وثانيـتُهما أن المعـيار العددي لم يُفقد هذه الأقليات حقوقَها السياسية والمدنية في أوطانهـا، يسري هذا على المسلم من أهل البلد غير الإسلامي الذي اعتنق الإسلام حديـثاً، كما يسري على المسلم الذي وفد على بلد الهجرة من الخارج، فاندمج في محيطه، واكتسب صفةَ المواطنة بحكم القانون.

فهاتـان الخاصـيتان اللتان تمتاز بـهما هذه الفئة من الأقـليات الإسـلامية، تجعلان الأوضـاع التي يعيشها المسـلمون في بعض الأقطار غير الإسـلامية، ذاتَ طبـيعةٍ مختلفةٍ عن سائر الأوضاع التي تسود مجتمعات الأقليات الإسلامية في مختلف أنحاء الأرض.

ونستطيع أن نخلص من هذا التحليل، وبالاستناد إلى المعيار العددي، وبالاحتكام إلى المقتضيات القانونية والدستورية المتعارف عليها دولياً، إلى أن الأقليات الإسلامية، هي إحدى الفئات الثلاث التالية:

أولاً: رعايـا دولـة غير إسلامية، ينتسبون إلى هذه الدولة بالأصل والمواطنة، علـيهم مـا على مواطني تلك الدولة من حقوق وواجبات. وتمثّل هذه الفئة النسبة العالـية مـن الأقليات الإسلامية (مثال مسلمي الهند، والصين، والفليبين، وروسيا الاتحادية، المقيمين في أوطانهم الأصلية). ويندرج تحت هذه الفئة أيضاً، مواطنو الدول

غير الإسلامية الذين اعتنقوا الإسلام في أوطانهم، فهم جزءٌ لا يتجزأ من شعوبهم، ولا ينقص دخولُهم في الإسلام شيئاً من مواطنتهم.

ثانياً: رعايا دولة إسلامية يقيمون في دولة غير إسلامية ويخضعون لمقتضيات القانون الدولي ولأحكام القانون المحلي. وتأتي هذه الفئة في الدرجة الثانية من حيث التعداد (مثال المسلمين من دول منظمة المؤتمر الإسلامي المقيمين في شتى بلدان العالم).

ثالثاً: رعايا دولة غير إسلامية يقيمون في دولة أجنبية غير إسلامية، وتمثّل هذه الفئة نسبةً كبيرة من الجماعات والأقليات الإسلامية (مثال مسلمي الهند، والصين، والفليبين، وروسيا الاتحادية، وجنوب أفريقيا .. الخ المقيمين في دول لا تنتمي إلى منظمة المؤتمر الإسلامي).

ومن الواضح الجليّ أن هذه الفروق التي نشير إليها هنا، إنما تخضع لمفهوم القانون الدولي، ولكن حينما يتعلق الأمر بالمفهوم الإسلامي للقضية في عمقها، فإن هذه الفروق تتلاشى بصورة تلقائية، إعمالاً لمبدأ الأخوة الإسلامية، طبقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:١٠)[1].

ومن الطبيعي أن تختلف الأوضاع العامة للأقليات الإسلامية، من بلد إلى آخر، ومن قارة إلى أخرى. ولكن، وعلى الرغم من هذا الاختلاف القانوني والدستوري، فإن هناك قدراً مشتركاً من التشابه فيما يجب القيامُ به تجاه هذه المجتمعات الإسلامية، من حيث العناية بشؤونها، والاهتمام بأحوالها، وتقديم الدعم الثقافي والتربوي والعلمي لها، ومساندتها في حماية هويتها وصون ذاتيتها الحضارية، ومن حيث المشكلات التي

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

تعـــاني منها هذه الأقليات في الغالب الأعم، وما تستدعيه هذه المشكلات من حلولٍ موضوعية، ومعالجةٍ سليمة.

لقـــد كـــان التنبّه إلى وجوب الاهتمام بالأوضاع العامة للأقليات الإسلامية في العـــالم، جزءاً من حركة اليقظة الشاملة التي سادت العالم الإسلامي منذ أن أخذت الشـــعوب الإسلامية تتحرّر من قيود الاستعمار الأوروبي. ولقد تفاوتت درجة هذا الاهتمام من مرحلة إلى أخرى، تبعاً لخط تصاعد الاتجاهات العامة في العالم الإسلامي ونموّهـــا في مســـتوياتها السياسية والثقافية والفكرية، إلى أن صار الاهتمام بالأقليات الإسلامية، من صميم العمل الإسلامي المشترك في قنواته الرسمية والشعبية، من وجوه شـــتى، وتحـــت تـــأثير ضغوط المشكلات المتعددة التي بدأت تحاصر هذه الأقليات، لاسيما في العقود الأخيرة التي تَصَاعَدَ فيها مدّ الموجات العنصرية والفكرية والثقافية والمذهبية والسياسية المعادية للإسلام، عقيدةً وثقافةً وحضارةً.

ولقد اكتسبت الأقليات الإسلامية في معظم البلدان الأوروبية والأمريكية بصفة خاصة، كياناً قانونياً يوفّر لها إمكانات الاندماج في المجتمعات التي تعيش في وسطها على النحو الذي لا يُفقدها خصوصياتها، ولا يؤثّر في تركيبتها الاجتماعية التي تستند إلى الهوية الثقافية الحضارية التي تتميّز بها، بحيث صار اندماجُ هذه الأقليات في الحياة العامة للمجتمعات التي تعيش فيها، لا يتعارض مع صفة التمايز الحضاري الذي يطبع المجـــتمعَ الإسلاميَّ في أية بقعة من الأرض ينشأ فيها ويتكوّن هذا المجتمع. وهو الأمر الـــذي يجعل هذه الأقليات في موقع القدرة على الحوار والتعايش مع جميع الفئات في مجـــتمعاتها، ويمكّـــنها في الوقت نفسه، من التعامل المتكافئ مع الظروف المحيطة بها، وبقدر كبير من الاستقلالية في القرار، والحرية في التصرّف.

إن العلاقـات الـتي تُقيمها الأقليات الإسلامية مع غير المسلمين في البيئات التي تعيش فيها، تنبع أولاً من خصوصية الثقافة الإسلامية التي تنفتح على (الغير)، وتتميّز بالتسـامح مـع جمـيع أهل الأديان والعقائد والثقافات والحضارات، وتنـزع نحو الـتعاون في إطـار الأخـوة الإنسـانية التي تجمع بين البشر كافة، من دون اعتبار للاخـتلاف في المعتقد والمذهب، أو في العرق والجنس.. وتقتضيها ثانياً، ضرورات الـتعايش الـذي أصـبح سمة العالم الجديد، وتُمليها متطلبات الحياة في المجتمعات المعاصرة، وتفرضها المصلحة المؤكدة لهذه الجماعات الإسلامية الناشئة في غير البلاد الإسلامية.

بـل إن هذه العلاقات ترتقي إلى مستوى أعلى من مجرد كونها ضرورات، لأن اسـتمرار حياة الأقليات الإسلامية على النحو الذي يضمن لها الاستقرار ويكفل لها المـناخ الطبيعي السليم للرقيّ والتقدم، يتطلب إقامة أوثق علاقات التعاون مع جميع مكوّنات المجتمع الذي تعيش فيه هذه الأقليات، وعلى مختلف المستويات، وبما يحقق اندماجَهـا الفاعل والمؤثّر في المحيط العام على النطاق الواسع، وبالقدر الذي يجعلها طرفاً مشاركاً في الحياة العامة.

وأيّـاً كانت الظروف التي تكتنف كلَّ فئة من الفئات التي تتكوّن منها الأقليات الإسـلامية، فإنـه ممـا لاشك فيه، أن العلاقات التي تُقيمها هذه الأقليات مع غير المسـلمين، هي المحك الذي يمحص سلامةَ الكيان الحضاري للمسلمين في غير ديار الإسـلام؛ فبقدر ما تنتظم هذه العلاقات وتستقيم على النهج الصحيح وتقوم على القواعد السليمة، يتقوى استقرار الأقليات الإسلامية، ويتعاظم الدور الذي تؤدّيه في الحياة العامة، وتَتَزَايَدُ المكاسب التي تحققها والمنافع التي تجنيها.

إن الرصيد الثقافي والحضاري الذي تمتلكه الأقليات الإسلامية في كل مكان، يمدّها بأسباب التواصل مع المجتمعات غير الإسلامية التي تتعايش معها، على شتى المستويات.

فعلى المستوى الإنساني، يعتبر التسامحُ الحضاريُّ القاعدة العامة التي يبني عليها المسلمون علاقاتهم بغير المسلمين، وهو تسامح ينطلق من الإيمان بوحدة الأصل الإنساني، وبالقيم والمثل العليا التي يدين بها البشر في كل عصر من عصور التاريخ، وهي قيمُ الخير والعدل والفضيلة والصدق والأمانة والاستقامة والمروءة والنجدة.

وعلى مستوى تبادل المصالح والمنافع والتعايش بمفهومه الشامل العميق، فإن المسلمين المتشبثين بتعاليم دينهم الحق، يعلمون جيداً أن العمل وجهٌ من وجوه العبادة، وأن السعي في الأرض تكليفٌ ربّانيٌّ للإنسان، وأن نفع العباد مقصدٌ شريفٌ من مقاصد الشريعة الإسلامية، وأن درء المفاسد مقدَّمٌ على جلب المنافع، وأن التعاون على البر والتقوى والخير والمصلحة العامة، فريضةٌ دينية، وأن اكتساب القوة وتحقيق الرقيّ وصنع التقدم والتفوّق في العلم والتعمّق في المعرفة، من مقتضيات الحياة الكريمة التي ينشدها الإنسانُ السويُّ في كل مكان وزمان(١).

أما على المستوى الثقافي العام، وعلى الصعيد الحضاري، فإن المسلمين حيثما كانوا، يسعون دائماً إلى التقارب مع أتباع الديانات والثقافات والحضارات، والتحاور معهم، ويجعلون هذا التقاربَ والتحاورَ في مقام الدَّعوة إلى الله التي أمر، سبحانه وتعالى، أن تكون بالحكمة وبالموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن، ويصدرون في سلوكهم هذا عن إيمانٍ بالرسالة التي يحملونها، وبواجب تبليغها إلى الناس كافة، وبأنهم دعاةُ هداية ربّانية، وحضارة بانية، وثقافة هادفة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤١.

وحيثما تجمّع المسلمون خارج ديار الإسلام، سواء أكانوا جالية تقيم بصفة مؤقتة، أم أقلية مستوطنة، أم أقلية مواطنة، فإن القيم والمبادىء التي يؤمنون بها تشع من حولهم، وتترك أثرها في تعاملهم مع من يعيشون معهم، لأن هذه القيم بانيةٌ للعلاقات الإنسانية السليمة، ومؤسِّسةٌ لمبادىء التعايش الحضاريّ الراقيّ.

بيد أن تأثير القيم الإسلامية في المحيط الاجتماعي الذي يشكّل المسلمون فيه نسيجاً متناسقاً ومترابطاً، لا يأتي مفعولُه الإيجابي، إلا إذا توفرت شروطٌ موضوعية تتمثّل في الإيمان والوعي بهذه القيم، وتشرّبها، وتمثّلها، والعمل بمقتضاها، وهو الأمر الذي يقتضي القيام بمجهود مستمر في التوعية، والتربية، والتوجيه، على أكثر من مستوى، مما له علاقةٌ بالرعاية المتكاملة في إطار الحرص على حماية الهوية الثقافية والذاتية الحضارية.

ولا شك أن الأقليات الإسلامية المقيمة في مختلف الأقطار، هي أحوج ما تكون إلى أن نتعهدها بهذه الرعاية المتكاملة، تربوياً وثقافياً وأخلاقياً وفكرياً، حتى تبقى هذه الأقليات في منأى عن المؤثّرات الضاغطة التي تمدّد الوجودَ المعنويَّ في الصميم، وتضعف في الإنسان المناعةَ الثقافية والأخلاقية، فيصبح فريسةَ الضياع والانحراف والتيه.

ولذلك فإن تأثير الأقليات الإسلامية في المجتمعات التي تعيش في محيطها، يتوقف على مدى سلامة الكيان الفكري والثقافي، وعلى المناعة الأخلاقية لهذه الأقليات؛ فكلما كانت الجماعات الإسلامية خارج بلدان العالم الإسلامي، متماسكةً عقائدياً وأخلاقياً، وواعيةً برسالتها الحضارية، كان ذلك أقرب إلى التأثير الإيجابيّ المتحضّر في البيئة والمحيط.

أما إذا ضَعُفَ هذا الكيانُ وتَرَاخَى بسبب غياب الوعي الديني الصحيح وانعدام التضـــامن القوي والعمل المنظم المتقن في إطار احترام القوانين السائدة والاستفادة مـــنها، وغـــير ذلك من الأسباب، انعزل المسلمون عن مجرى الحياة، وانسحبوا من مـــيدان التدافع الحضاري، وانتهى أمرُهم إلى التلاشي، فالانهيار، حيث تصبح الأقلية الإسلامية في هذه الحالة، عبئاً ثقيلاً على المجتمع الإسلامي الكبير، تُسيء إلى الإسلام من حيث تدري أو لا تدري.

مـــن هذا المنظور، فإن علاقة الأقليات الإسلامية بغير المسلمين، ينبغي أن تقوم عـــلى أساسٍ من القيم الإسلامية التي تصنع الفرد والجماعة، وتجعل من المسلم عضواً فاعلاً ومؤثّراً في دائرته القريبة، وفي محيطه الأشمل، وفي أي بيئة يعيش فيها، يتجاوب مـــع ما تعجُّ به الحياة من أحوال وأحداث، ويتفاعل مع ما يسود المجتمع من أفكار وآراء ومواقـــف، ويســـتوعب كلَّ ما يجري من حوله بعين فاحصة، وعقل مدبّر، وفكر حصيف.

فإذا ارتقت الأقليات الإسلامية إلى هذا المستوى من التعامل والتجاوب والتحاور مـــع المجتمعات التي تعيش فيها، كان لها حضورٌ متميّزٌ في ميادين العمل العام، وكان لهـــا تأثيرها الفاعل في مَاجَرَيات الأمور، وكان لها بعد ذلك كلّه، صوتُها المسموع وذكرُها المحمود.

وليست الأقليات الإسلامية سواء في مدى تعاملها مع غير المسلمين، وإنما هناك تفاوتٌ في درجة هذا التعامل، وفي تأثيره، نتيجة اختلاف ظروف كل فئة من فئات الأقليات الإسلامية. ويترتَّب على هذا التفاوت، تعدّدٌ في مستويات تجاوب الأقليات الإســـلامية مع مختلف طبقات المجتمع الذي تعيش فيه، مما ينعكس على العلاقة التي

تُقـيمها هـذه الأقلـيات مع غير المسلمين، سواء على المستوى السياسي، أو على المستوى الثقافي والإنساني العام.

ولـيس مـن شـك أن العلاقات الثقافية لا تثمر النتائج المرغوب فيها إلا إذا استندت إلى قاعدةٍ راسخةٍ من الاحترام المتبادل، ومن الثقة في دوافع كلِّ طرفٍ من الأطـراف المُنْشِئة لهذه العلاقات، ومن الإيـمان بالأهـداف المشتركة، والالتقاء حولهـا، والاقتناع بها، وجعلها محطَّ كل اهتمام وموضعَ كل عناية، حتى تتحقق في الواقع المعيش.

ومن المؤكد أن الأقليات الإسلامية سـتحقّق لذاتـها منافع جمّة وفوائد كثيرة، إذا مـا وفقت في إقامة علاقاتٍ ثقافيةٍ غنية ومثمرة مع جميع شرائح المجتمعات التي تندمج فيها وتتعايش معها، فمن شأن تقوية العلاقات الثقافية بين الأقليات الإسلامية وبين غير المسلمين، أن تُنشِىء روابط إنسانية متينة ترسخ الوجودَ الإسلاميَّ في الديار غير الإسلامية، وتساهم في إبراز الصورة الحقيقية للإسلام، وفي تصحيح ما يروج من مغالطـات وافـتراءات وأخطـاء، عن الإسلام، من حيث هو عقيدة ودين وثقافة وحضارة.

إن إقامـة علاقات ثقافية نشيطة وذات فعالية ومردود واقعي، على أي مستوى مـن المستويات، تتطلب انتهاج الطرق القانونية، وسلوك المنهج العلمي الذي يُفضي إلى أقوم السبل المؤدّية دائماً إلى تحقيق الأهداف المتفق عليها.

ويقتضـي هـذا أن يُرجَع في إقامة هذه العلاقات، إلى القوانين المحلية، والتقيّد بمقتضياتها، والالتزام بروحها ونصّها، وذلك تجنباً لأي لبس أو غموض، وابتعاداً عن أية شبهة أو مظنة، وتوخياً لبلوغ الغايات الشريفة في قصدٍ واعتدال.

مسلمو الغرب في إطار العمل الإسلامي الدولي

هذه الفئات العريضة والعناصر المتنوعة والكثيرة التي تشكّل الوجود الإسلامي في الغـــرب، بكـــل أطيافه وتصنيفاته من الأقليات والجاليات، هي جزء أصيل من الأمة الإســـلامية، مـــن حقوقهـــا على الأجهزة العاملة في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي، إيلاؤها بالغ العناية والاهتمام.

إن الأقلـــيات الإســـلامية في العديد من المناطق والأقطار، تتوفّر لها فرصٌ كثيرة للعمل في هذا الميدان، خاصة الأقليات الإسلامية التي تعيش في الدول الأوروبية، وفي الولايـــات المتحدة الأمريكية، وفي كندا، وأستراليا، واليابان، وفي بعض دول أمريكا الجنوبـــية، حيـــث تُتـــيح القوانين المحلية الفرص المتعددة لإنشاء الجمعيات والهيئات والـــروابط الـــتي تنظم علاقات الأقليات فيما بينها من جهة، وفيما بينها وبين جميع فئات المجتمع ومختلف شرائحه، من جهة ثانية، وحيث تكفل هذه القوانين للأقليات الحـــقَّ في ممارســـة الشعائر الدينية، والقيام بالأنشطة الثقافية التي تخدم الأهداف التي ترغـــب في تحقـــيقها، وتمهد أمامها السبل نحو تنمية علاقات التعاون مع مكوّنات المجتمع الذي تعيش فيه، بالقدر الذي يكفل لها حظوظاً كبيرة لتطوير قدراتها، ولتقوية كـــيانها، ولإحكـــام علاقتها بمن تشاء من الفئات والطوائف، من مختلف المشارب والمذاهب والاتجاهات.

أمـــا الأقليات الإسلامية التي تعيش في أوطانها، كحالتَيْ مسلمي الهند والصين، عـــلى سبيل المثال لا الحصر، فإنها في حاجة ماسّة إلى تنظيم نفسها بالشكل القانوني الـــذي يضـــمن لها العمل على تنمية ذاتيتها، وإقامة علاقات ثقافية مع المحيط الذي

تعيش فيه، من أجل أن تحافظ على هويتها الثقافية التي من أقوى مقوّماتها وأهمّها على الإطلاق، عقيدتُها الدينية.

وليس بخافٍ أن الأقليات الإسلامية في هذه البلدان، لا تجد المناخ المناسب في معظم الأحوال، للتحرّك في هذا الاتجاه. وهنا يتعيّن على المنظمات والهيئات الإسلامية الرسمية والشعبية، أن تقوم بواجبها تجاه الأقليات الإسلامية التي تعيش في أوطانها محرومةً، أو مضطهدةً، أو واقعةً تحت ضغوط مختلفة المصادر. ومن أوجب واجبات البلدان الإسلامية أن تتضافر جهودُها في تقديم الدعم المادي والأدبي لهذه الأقليات، وأن تقوي صلاتها بها، وأن تُشعرها دائماً بأنها جزءٌ لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، تتجاوب معها، وتساندها وتدعمها.

والعلاقات الثقافية التي تنظمها الأقليات الإسلامية في مثل هذه البلدان، تشكّل في جوهرها، رصيداً للأمة الإسلامية، يمكن استثماره في التعامل الرشيد مع حكومات هذه الدول ومع منظماتها الرسمية والشعبية، من أجل تحسين أوضاع المسلمين فيها، في إطار العلاقات الديبلوماسية القائمة بينها وبين بلدان العالم الإسلامي.

وفي كل الأحوال، فإن العلاقات الثقافية التي تُقيمها الأقليات الإسلامية في مختلف المهاجر، سواء في الشرق أو الغرب، في الشمال أو في الجنوب، يمكن استثمارها لدعم الوجود الإسلاميّ في هذه الأقطار، بشتى الأساليب والطرق التي يكفلها القانون الدولي، وذلك من أجل تصحيح صورة الإسلام التي تتعرّض للتشويه، وتبليغ الرسالة الإسلامية إلى العالم، بلغة مفهومة، وبمنطق مقنع، وبأسلوب جذاب، من دون إخلال بجوهر العقيدة، أو بأصل من أصول الدين الحنيف، ومن دون بخس حقٍّ من حقوق المسلمين. ويتطلب هذا الأمر حسن التصرّف، والفهم الرشيد لمقتضيات العمل الثقافي في قنواته الدولية، مع الوعي المتفتّح بمتطلبات التحرك في هذه الميادين الحيّوية.

وتتسع القنوات التي يوفّرها العملُ الدوليُّ في المجال الثقافي، للعلاقات الثقافية بين الأقليات الإسلامية وبين غير المسلمين على العديد من الأصعدة؛ فعن طريق هذه القنوات، يمكن أن يُقيم المسلمون، خاصة في المهجر، علاقاتِ تعاونٍ نشيطة، إذا عرفوا كيف يستثمرونها ويوظّفونها التوظيف الجيّد المدروس والمتقن، أمكن لهم أن يحققوا مكاسب كثيرة تنفعهم في حياتهم حيث هم، وتنفع العالم الإسلامي بأسره والمسلمين كافة في كل مكان.

وتعدّ العلاقات الثقافية في إطار المنظمات الدولية والإقليمية، من أقوى الوسائل للتعاون فيما فيه المصالح المشتركة للشعوب. ويتوجّب على الأقليات الإسلامية حيثما كانت، أن تشارك مؤسساتها الثقافية والتربوية والاجتماعية في أعمال هذه المنظمات والهيئات الدولية، وأن تستفيد من الفرص التي تُتيحها في إقامة شبكةٍ من العلاقات الثقافية المنتجة التي تصبّ في اتجاه خدمة مصالحها.

وتقع على منظمات العالم الإسلامي ومؤسساته المعنية بالعمل الثقافي العام، مسؤوليةٌ كبيرة في هذا المجال الهام، إذ أن الأقليات الإسلامية في حاجة شديدة إلى أن تقف هذه المنظمات إلى جانبها، وتدعمها، وتقدم لها الخدمات التربوية والعلمية والثقافية، وتوفّر لها المساندة والمؤازرة في كل الأحوال، لأن نجاح هذه الأقليات في حماية هويتها، وفي الدفاع عن حقوقها ومصالحها، يخدم في نهاية المطاف، المصالح العليا للعالم الإسلامي[1].

ولقد صادق مؤتمر القمة الإسلامي العاشر على (استراتيجية العمل الإسلامي الثقافي في الغرب)، وهي الوثيقة ذات البعد الاستراتيجي والرؤية المستقبلية التي وضعتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بالتعاون والتنسيق مع رؤساء

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

المراكـــز الثقافية والجمعيات الإسلامية في أوروبا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وفي أمريكا اللاتينية.

إنّ هـــذه الاســـتراتيجية تـــنطلق من قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (المـــائدة:٤٨)، ومن الإيمان بأن نهضة الأمم وتقدم الشعوب مرهونان بوعـــيها بذاتيتها الحضارية وبتخطيطها لـــمستقبلها، مدفوعة بدافع من مجموعة من العوامل أبرزها ما يلي(١):

أ- **مـــبدأ التمـــيّز الحضـــاري**: الداعـــي إلى الوعي بمقوّمات السلم الحضاري الإسلامي، وحماية الذاتية الحضارية للمسلم من آفات التيارات الأيديولوجية والثقافية والسياسية التي لا تتلاءم مع هويته الحضارية.

ب- **الوعي بالبعد الروحي والأخلاقي**: البارز في تشخيص المنطلقات والغايات وتحديد المواقع والمواقف في ظل المتغيّرات والاحتياجات والتحدّيات.

ج- **تأكـــيد مـــبدأ التعاون**: إن التعاون والتنسيق بين العاملين في الحقل الثقافي الإســـلامي في الغـــرب، عاملٌ أساسٌ في تطور الرسالة الحضارية للمراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية.

د- **العمـــل الاستراتيجي**: اقتناعاً من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بـــأن المشـــاريع الحضـــارية لا تـــبلغ شـــأوها وتحقـــق أهدافها، إلا بقدر الخطط والاستراتيجيات التي تستند إليها في بنائها، فقد وضعت عدة استراتيجيات موجهة في المجـــالات الثقافـــية والتربوية والعلمية التكنولوجية للعالم الإسلامي، وإيماناً منها بأن الجالـــيات والأقليات الإسلامية تشكل عضواً رئيساً في كيان الأمة الإسلامية المترامية

(١) اسـتراتيجية العمل الإسلامي الثقافي في الغرب، ص ٧، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) الرباط،٢٠٠١م .

الأطـــراف، حرصت على وضع هذه الاستراتيجية للجاليات والأقليات الإسلامية في الغرب، ساعيةً إلى تحقيق أهداف منها:

- تأكيد دور الثقافة في حماية الهوية الحضارية للجاليات الإسلامية.

- تقريب الرؤى، وتوحيد مناهج العمل، وتوطيد جسور التعاون بين العاملين في حقل العمل الثقافي الإسلامي في الغرب.

- تصحيح المفاهيم وتحديد المصطلحات.

- إيجـــاد مرجعية قيمية إسلامية توجيهية تهدي الأعمال وتحميها من الاستلاب والانغلاق معاً.

مـــن هـــذه المـــبادئ والمرامي، تستمد هذه الاستراتيجية منطلقاتها من القواعد الكبرى التالية:

أولاً: القـــاعدة الإيمانـــية: تستند الاستراتيجية في تصوّراتها إلى المرجعية القيمية الإســـلامية الـــتي تنظر إلى العمل الثقافي على أنه فعل تعبّدي، وليس مجرد مهارات وتقنيات، مؤكدة بذلك البعد الروحي والقيمي للتنمية الشاملة المنشودة للمسلمين.

ثانياً: القاعدة التوازنية: تقوم على التلاحم بين مبدأي الأصالة والمعاصرة، حيث تعمـــد إلى ترســـيخ قيم الانتماء العقدي والحضاري من جهة، وعلى الانفتاح على مســـتجدات العصر من جهة أخرى، لكي لا تنقطع صلة هذه الأجيال بماضيها، وفي الوقت نفسه لا تتقاعس عن مواكبة زمانها.

ثالثاً : القاعدة الشمولية : تنطلق من أن البناء الحضاري السوي لأي مجتمع من المجـــتمعات يجـــب أن يقـــوم عـــلى العناية بمختلف الجوانب، الثقافية والاجتماعية والتربوية، مؤكدة بذلك تعدد الأبعاد للنموذج الحضاري السليم.

المجلس الأعلى للتربية والثقافة في الغرب

وإذا كانـــت الاســـتراتيجيات لا تعـــدو أن تكون لافتة مضيئة، ومبادئ عامة موجهـــة، وإشـــارات مختصـــرة، فإنهـــا لن تحقق أهدافها إلا بخطط وبرامج مترجمة لحقائقهـــا، وبتطبيق العاملين بها في حياتهم العملية. ولذلك عمدت المنظمة الإسلامية للتربـــية والعلوم والثقافة إلى تأسيس المجلس الأعلى للتربية والثقافة في الغرب في عام ٢٠٠١م؛ ويعقد المجلس دوراته سنوياً في إحدى العواصم الغربية؛ ويعمل المجلس تحت إشراف المنظمة الإسلامية.

ويســـعى المجلـــس الأعـــلى للتربـــية والثقافة في الغرب، الذي تأسس في إطار استراتيجية العمل الإسلامي الثقافي في الغرب، إلى تحقيق الأهداف التالية:

– مـــتابعة تنفـــيذ استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب، بالتنسيق مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

– التنســـيق بـــين الجمعـــيات والمراكز الثقـــافية الإســـلامية في الغرب، لتقريـــب الرؤى فيما بينها، وتوحـــيد مناهج عملها، في المجالات التربوية والثقافية والاجتماعية والإعلامية والدعوية.

– العمل على ترسيخ مبدأ التعدّد الثقافي، ونبذ أشكال التمييز العنصري والعرقي والعنف والتطرف كافة.

– نشر ثقافة الاعتدال والوَسَطية والتزام الموضوعية في معالجة قضايا المسلمين في الغرب، وإبراز الصورة الصحيحة عن الإسلام والمسلمين.

– رصد الاحتياجات التربوية والثقافية للمسلمين في الغرب، لاعتمادها في وضع المخططات وبرامج العمل المستجيبة لهذه الاحتياجات.

- الانفتاح على مكوّنات المجتمع الغربي في مستوياتها الرسمية والشعبية والإعلامية، وربط علاقات التعاون معها بما يخدم مصالح المسلمين في الغرب، ويُفَعِّل إسهامهم في بناء المجتمعات الغربية، التي ينتمون إليها ويدعم الحوار والتفاعل بين الحضارات والثقافات والديانات.

ويمكن القول: إن استراتيجية العمل الإسلامي الثقافي في الغرب، باعتبارها وثيقة إسلامية دولية مصادق عليها من طرف مؤتمر القمة الإسلامي، تمثّل إطاراً ملائماً للعمل من أجل تحقيق هدفين رئيسَيْن:

أولهما: تقديم الدّعم الأدبي للمسلمين في الغرب، سواء أكانوا من الجاليات الوافدة من دول العالم الإسلامي، أم من الأقليات التي تنتمي إلى الدول الغربية أصلاً. وتَتَعدَّدُ هنا أوجه الدعم، ولكن أهمّ أنواع هذا الدّعم هو المساعدة في إنشاء قواعد للتعليم تَتَلاءَمُ مع الظروف المحلية في كل دولة، سعياً وراء الحفاظ على الخصوصيات الثقافية وثوابت الهوية الحضارية للمجتمعات الإسلامية.

ثانيهما: تقوية أواصر الارتباط والتقارب بين عناصر الأمة الإسلامية من كل الأجناس والقوميات، تقوية لوشائج الوحدة الثقافية للعالم الإسلامي، وتعزيزاً لأسس التضامن الإسلامي، وحرصاً على ربط اهتمامات المسلمين في الغرب بالواقع في بلدانهم الأصلية، وإتاحة الفرصة لهم للإسهام في خدمة أغراض التنمية في العالم الإسلامي بخبراتهم التي اكتسبوها في الغرب.

وتعزيزاً لهذه الجهود المتواصلة التي تقوم بها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في مجال تطبيق استراتيجية العمل الإسلامي الثقافي في الغرب، فإنها تعقد اجتماعات سنوية لرؤساء المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية في الغرب، على

مستويات ثلاثة؛ المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية العاملة في كل من أوروبا، وأمريكا اللاتينية، وآسيا. ولكل هذه المناطق منسقٌ قاريٌّ يعمل تحت إشراف المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة التي تتابع تنفيذ التوصيات التي تصدر عن هذه الاجتماعات السنوية.

ولقد فتح إنشاء المجلس الأعلى للتربية والثقافة في الغرب، وعقد سلسلة من الاجتماعات لرؤساء المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية في المناطق الجغرافية الثلاث، المجال واسعاً أمام المسلمين في الغرب (وفي الشرق أيضاً، اليابان والفلبين وكوريا الجنوبية وسنغافورة، وغيرها من الدول غير الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي) للعمل الجدّي المنظّم والمدروس للحفاظ على خصوصياتهم الثقافية، ولتوفير فرص تعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية للأجيال الجديدة من أبنائهم وبناتهم، ولربط الصلات بالعالم الإسلامي الذين هم جزءٌ لا يتجزأ منه.

ولقد تعدّدت قنوات الترابط والتعاون بين المسلمين في الغرب، فنشأت شبكة من الجمعيات والاتحادات والروابط والمؤسسات التي تعمل من أجل تعزيز التعاون والدفاع عن المصالح المشتركة للمجتمعات الإسلامية في الغرب. وقد تأسس أخيراً المؤتمر الإسلامي الأوروبي الذي يضمّ القيادات الإسلامية العاملة في إطار المراكز الثقافية والاتحادات والجمعيات الإسلامية في الدول الأوروبية. كما أُنشئت خلال العقد الأخير مؤسسات تعليمية إسلامية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية على مستوى راقٍ. ومعظم هذه المؤسسات أُنشئت بمبادرة من المسلمين من ذوي الأصول الغربية، هذا فضلاً عن المؤسسات التعليمية التي أنشأتها بعض الدول الإسلامية في عديد من العواصم الغربية.

مسلمو الغرب بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١

لا أحد ينكر أن الأحداث الإجرامية الإرهابية التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، قد هزّت الضمير العالمي هزّاً عنيفاً، وشقّت خطّاً وهميّاً يفصل بين العالم الإسلامي والغرب، ممّا ترتّب عليه تضييق الخناق على المجتمعات الإسلامية في كل مكان، وبصورة خاصة في الغرب، وضرب نطاق من الحصار الإعلامي والفكري على العالم الإسلامي، والزج به في دائرة الصراع المفتعل بغية التأثير على مقدراته وإضعاف إمكاناته وربطه بالسياسة الاستعمارية الجديدة التي تنتحل الأعذار لتعيد عجلة التاريخ إلى الوراء، ببسط النفوذ الغربي الاقتصادي والسياسي والثقافي على البلدان الإسلامية.

ولقد نال المسلمينَ في الغرب قسطٌ وافرٌ من هذه الحرب الإعلامية العدائية الموجّهة إلى الإسلام، عقيدةً وثقافةً وحضارةً وتاريخاً وأمةً؛ فهم المستهدفون في المقام الأول، وهم الذين يعانون أشدَّ المعاناة من جراء هذه المواقف العدائية التي تتخذها بعض الأطراف في الغرب إزاء المسلمين كافة، وهم إلى جانب ذلك، يقاسون ويكابدون في صمودهم في مواقعهم متشبثين بدينهم وهويتهم، ويحرصون على ممارسة حياتهم في مواقعهم ساعين إلى تطوير قدراتهم وتحسين أوضاعهم وإثبات كفاءتهم في العمل والإنتاج، وفي الإبداع والتفوّق في حقول اختصاصاتهم. ولذلك فإن العبء الأكبر في المعاناة من المشاكل التي ترتبت على المواقف التي اتخذتها بعض الدول الغربية وقطاعات واسعة من وسائل الإعلام ودوائر البحوث والدراسات إزاء العالم الإسلامي، يقع على المسلمين في الغرب، باعتبارهم الواجهة الأولى التي تتلقى الضربات وتتعرض للمضايقات.

وأمـــام هذا الوضع غير المستقر الذي يعيشه المسلمون في الغرب، على اختلاف مســـتوياتهم وتعـــدّد انتماءاتهم، تَتَضاعَفُ مسؤوليات العالم الإسلامي قاطبة، ليس للوقـــوف إلى جانب المجتمعات الإسلامية في الغرب ومساندتها وشدّ أزرها فحسب، وإنمـــا من أجل قطع الطريق على قيام الحجج التي تستغلها الأطراف المغرضة لضرب الإسلام والتحريض على النيل من المسلمين، وذلك بالمضيّ قدماً في طريق الإصلاح الشـــامل لجمـــيع مـــرافق الحياة في البلدان الإسلامية، سياسياً ودستورياً، اقتصادياً واجتماعياً، فكرياً وثقافياً، تعليمياً وتربوياً، علمياً وتقانياً.

إنَّ ثمّة تأثيـــراً متبادلاً بين مسلمي الغرب وبين إخوانـــهم في البلدان الإسلامية كافة؛ فكلما تحسنت الأوضاع في العالم الإسلامي، واستقرت الأحوال، وتحقّق قدرٌ مناســـبٌ مـــن التقدم الاقتصادي والتطوّر الاجتماعي في ظلّ الاستقرار السياسي، انعكـــس ذلك التحوّلُ بالقدر نفسه، على الأوضاع التي يعيشها مســـلمو الغرب، لأنهـــم يجـــدون في ذلك تقويةً لموقفهم الذي يلتزمونه للدفاع عن خصوصياتـــهم الثقافـــية وحقوقهـــم ومصالحهم، وبعثاً للثقة في أنفسهم، وتحسيناً لصورة الإسلام والمســـلمين التي ينقلونـــها إلى المجتمعات التي يعيشـــون فيها وافـــدين مندمجـــين، أو أصلاء مستقرين.

ومهمـــا يكن مستوى الجهود التي يبذلها مسلمو الغرب للدفاع عن شخصيتهم ولـــلحفاظ عـــلى خصوصـــياتهم الثقافـــية والحضارية ولتصحيح الأخطاء ودحض الافـــتراءات والشـــبهات والأباطيل التي تروجها الأطراف الغربية التي تقف مواقف معاديـــة للإســـلام، فـــإن هذه الجهود لن تُجدي فتيلاً، ما لم تصلح أوضاع العالم

الإســلامي وتســتقيم وتتحسّــن، وما دام المسلمون أنفسهم لا يصحّحون صورة الإســلام في ذواقم أولاً، ثم في أعمالهم وممارساقم وسياساقم، لأن تصحيح صورة الإســلام في الغــرب تــبدأ بتصحيح صورة الإسلام في موطنه، وذلك من خلال الإصــلاح الشــامل القائم على أسس علمية، والمحكوم بالضوابط الشرعية، والمنفتح على آفاق العصر.

وما دام أن مستقبل الإسلام في الغرب لا ينفصل عن مستقبل الإسلام في العالم الإســلامي؛ لأن هــؤلاء المسلمين هم جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية ومن العالم الإسلامي، يتأثرون سلباً وإيجاباً بما يجري في البلدان الإسلامية، على نحو من الأنحاء، فإن المستوى الرفيع من التطوّر الذي بلغوهم في حياقم، بالقياس إلى الواقع المعيش في بلداهم الأصلية بالنسبة للوافدين منهم من دول العالم الإسلامي، يحملنا على التفاؤل بــأن ازدهار الحضارة الإسلامية سيتعزّز بجهود مسلمي الغرب، وبأن فجر المستقبل المزدهر للإسلام والمسلمين سيبزغ في الغرب، بمشيئة اللّه تعالى.

دور مسلمي الغرب في نهوض العالم الإسلامي

الشيخ الدكتور فهد بن عبد الرحمن آل ثاني(*)

عليـنا أن لا نُستدرج إلى معـاداة الغـرب؛ لأن ذلك يخدم الأعداء الحقيقيين، الذين لهم أهداف استراتيجية.. والمسلمون في الغرب، قبل أحداث سبتمبر، كانوا يتمتعون بحياة مدنية أفضل من الحياة المدنية التي يحصل عليها أقرانهم في أوطانهم الأصلية، وما يحدث لهم الآن رد فعل شبيه بما حدث لليابانيين الأمريكيين في أعقاب أحداث «بيرل هاربر».

في ١٨٩٧ م قـال «فريدرلـيك راتـزل» مقولته المشهوره: «إن الدافع الأول للتوسـع يأتي الدولة البدائية من الخارج. معنى هذا أن الدولة الكبرى ذات الحضارة تحمـل أفكارهـا إلى الجماعات البدائية التي تدفعها زيادة عدد السكان إلى الشعور بالحاجة إلى التوسع»(١).

ومنها، منذ فكرنا في العنوان أعلاه كان تركيزنا على: لماذا لا يساهم المسلمون في الدول المتقدمة في نقل الحضارة الإيجابية التي لا تتعارض مع ديننا الحنيف إلى دولنا

(*) أستاذ مشارك في الجيوبوليتكس.. باحث قانوني.. جامعة قطر (دولة قطر).
(١) رياض محمد، ص ٦٠.

في العالم الإسلامي، خاصة وأن الدول المتقدمة التي فيها أقليات إسلامية جميعها تعتبر دار عهد[1] أي تنظم العلاقات معها ويمنع الاعتداء، بل وأصبح معظم الأقليات المسلمة في الغرب تتمتع بحق المواطنة.

ونعتقد أنه لابد لنا أن نوضح ابتداءً المصدر الرئيس للعنوان أعلاه، فهذا العنوان مصدره الرئيس جاءنا مع الدعوة الكريمة التي تلقيناها من مركز البحوث والدراسات التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية.

والمركز المذكور بصدد إنتاج مشروع مهم تحت عنوان: «مسلمو الغرب بعد الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)» وكان هذا المشروع ينقسم إلى ستة مواضيع هي: الإسلام في الغرب، والتباس المفاهيم والمصطلحات، ومؤسسات المسلمين في الغرب، والإصابات الداخلية والتحديات الخارجية، ورؤية مستقبلية، ومسلمو الغرب والعالم الإسلامي.

وقد اخترنا أن تأتي دراستنا ضمن الموضوع الأخير، مع مراعاة تجنب الجمود في إطار عنوان مشتق من موضوع واحد، بل حاولنا أن نروض الدراسة لكي تستفيد من المواضيع المختلفة وخاصةً موضوع رؤية مستقبلية للعالم الإسلامي.

وكذلك حاولنا أن نكون موضوعيين قدر الإمكان في هذه الدراسة، والابتعاد قدر الإمكان عن نظرية المؤامرة التي يُتهم بها معظم الباحثين المسلمين، وكذلك حاولنا قدر الإمكان الابتعاد عن الأسلوب العاطفي الذي يعتمد على الديماغوجية أو إلهاب مشاعر المسلمين، و في النهاية يتحول الأمر إلى إسفاف وزبد عديم الفائدة، أو شعارات براقة في شكلها الخارجي، ولكنها خاوية في مضمونها الداخلي، وهذه الكلمة الأخيرة تمثل مصطلح «الإصلاح» الذي تنادي به معظم الحكومات الإسلامية، وهذا «الإصلاح» المزعوم ينطبق عليه المثل العربي القائل: «اسمع جعجعةً، ولا أرى طحيناً»!
أما المحاور الرئيسة التي سنتناولها في هذه الدراسة فهي:

(1) إدريس، ص ٢.

المحور الأول

الوضع القانوني للأقليات المسلمة في الغرب

١- الأقليات المسلمة في الدول الغربية:

يبلغ عدد المسلمين في دول الاتحاد الأوربي ٢٥ مليون مسلم تقريباً، وذلك يعادل أكثر من ٦% من سكان دول الاتحاد الأوربي الخمسة والعشرين (Shokat) ولكن لو وفقت تركيا وحصلت على عضوية الاتحاد الأوربي ستصبح نسبة المسلمين ما يقارب ١٨% من سكان الاتحاد الأوربي، وذلك يعني أن المسلمين بعد انضمام تركيا سوف يشكلون ما يقارب خمس سكان أوربا، وهذه النسبة الإسلامية ستزداد بالطبع، لأن النمو الطبيعي عند المسلمين ما بين ٢% إلى ٣%، وهذا يعني أن معدل النمو يتضاعف ما بين كل ٢٥ إلى ٣٥ سنة.

أما الأوربيون الآخرون فمعدل النمو الطبيعي عندهم أقل من ١% وذلك يعني أن معدل التضاعف عند الأوربيين غير المسلمين يتضاعف كل سبعين سنة مرة واحدة، وإذا استمر الوضع على ما هو عليه فستتحول أوربا في بداية القرن القادم إلى قارة إسلامية تقريباً.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل سيوافق الأوربيون على انضمام تركيا إليهم ؟

أما عدد المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية فيبلغ ستة ملايين نسمة، ويشكلون ما يقارب ٢% من سكان الولايات المتحدة الأمريكية[1].

---

(١) الراية القطرية، العدد ٨١٩٧.

٢- الحياة المدنية لمسلمي الغرب:

نستطيع أن نقول: بأن المسلمين قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، كانوا يتمتعون بحياة مدنية أفضل من الحياة المدنية التي يحصل عليها أقرانهم في أوطانهم الأصلية، من حيث حرية العبادة، والاجتماع، والتعبير، وتشكيل الجمعيات. إلى أن جاءت أحداث سبتمبر ٢٠٠١م وأصبح هناك تضييق كبير ليس على حرية التنظيم فقط، بل حتى على حرية الحركة بالنسبة للمسلمين، كما سنوضح لاحقاً.

فمثلاً في ديسمبر ٢٠٠١م فقط، داهمت وأغلقت السلطات الفيدرالية الأمريكية أربع جمعيات خيرية إسلامية على الأقل بحجة أنها تقوم بدعم ما تسميه الولايات المتحدة منظمات إرهابية. غير أن تلك المداهمات لم تثبت وجود أي صلة لتلك المؤسسات بأي نشاط إرهابي، ولكنها أثارت بالمقابل مخاوف من انتهاك الحريات المدنية في الولايات المتحدة.

والأغرب في هذا الأمر، أنه بعد الصدمة الأمريكية من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، دعا ائتلاف من المسلمين الحكومة الفيدرالية إلى تحديد المشتبه فيها من المنظمات حتى يمكن التبرع إلى جمعيات خارج إطار الشبهة بدون مشكلات قانونية وأمنية، ولكن وزارة العدل الأمريكية رفضت تحديد الجمعيات الإسلامية المشروعة[1].

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على الصدمة التي تعانيها السلطات الأمريكية، والتي جعلتها في حالة تشوش كامل (Chaos) إزاء: من هو العدو؟! ومن هو الصديق؟!

وهذه اللخبطة التي تعيشها الولايات المتحدة، وحتى أوربا الغربية، ليس بالضرورة اعتبارها ردة فعل سلبية ضد الإسلام، ولكنها لحظة هيجان هستيرية

(١) الجزيرة نت، ٢٠٠٤/١٠/١٩م.

للبحـــث عـــن الخصـــــم الحقيقي الذي يريد أن يدمرهم! وأكثر من استغل هذه الأوضـــاع التخبطية التي يعيشها الغرب هو الإدارة الإسرائيلية في فلسطـــين المحتلة، بحيث أصبح شارون لا يتورع عن القيام بأي عمل ضد الشعب الفلسطيني الأعزل، من دون أن نسمع أي شجب أو استنكار حقيقي من المجتمع الدولي، لكي يوقفه عند حـــده! وكذلك استفادت من هذه الأوضاع التخبطية في العالم روسيا الاتحادية ضد المسلمين في الشيشان (١).

ومـــن هـــنا علينا نحن المسلمـــين، أن لا نُستدرج إلى معاداة الغرب؛ لأن ذلك ســـيقدم خدمـــات جلـــيلة للأعداء الحقيقيين، الذين لهم أهداف استراتيجية ثقافية ومكانية في العالم الإسلامي، ونود أن نذكر بأن ما يحدث للمسلمين الآن في أمريكا هو شبيه بما حدث لليابانيين الأمريكيين في أعقاب أحداث «بيرل هاربر».

ومن هنا هل يمكن القول: إن العداء لليابانيين أيضاً كان عداءً لثقافة؟!

وفي رأينا أن العداء لليابانيين ولا للمسلمين هو عداء للثقافة، وإنما هو عداءٌ لعدو معالمـــه غير ظاهرة، ففي الأربعينيات من القرن الماضي، ربما كان العـــدو متخفياً في شخص أي ياباني، وفي بداية القرن الواحد والعشرين ربما تخفى في شخص أي مسلم من ملايين المسلمين في الغرب!

طبعاً نحن هنا لا نبرر ما حدث للمسلمين في أمريكا، ولكننا سنتعامل مع الأمر بشكل أكثر موضوعية وعقلانية، وسنلجأ بدلاً من تحكيم العاطفة إلى تحكيم القانون الـــدولي العـــام في مثل هذه الحالات! وعلينا أن نتذكر دائماً في عالمنا الإسلامي أنه عندما تقوم قبيلـــة أو مدينـــة أو محافظـــة بالتمرد ضـــد الحكومة، ماذا يحدث لها؟ ألا تسحق بشكل كامل؟ والأمثلة على ذلك كثيرة في العالم الإسلامي!!

---

(١) Herald Tribune, October 17 ,2004.

٣- أوضاع المتجنسين المسلمين في الغرب:

المسلمون الذين يحملون جنسية الدول الغربية يتمتعون في الغرب بكامل حقوقهم المدنية والسياسية، التي لا يحصلون حتى على الجزء اليسير منها في أوطانهم الأصلية، ومن هنا بدلاً من أن نذهب إلى أسلوبنا الشرقي التقليدي العاطفي وهو تجسيد الشعور بالألم، لا بد أن نلجأ إلى استخدام الأسلوب العملي التنظيمي بحيث نعيد تنظيم أنفسنا من خلال تكتلات قوية في الدول الغربية ونطالب بحقوق المستضعفين من المسلمين، سواء في الغرب أو في العالم الإسلامي، وخاصةً أننا لاحظنا أن بعض علماء المسلمين يحثون أبناء المسلمين المتجنسين في الغرب على الاستفادة القصوى من حقوقهم السياسية.

فعلى سبيل المثال، أفتى الشيخ أبو بكر جابر الجزائري بجواز: أن يحمل المسلم المقيم في دولة غير مسلمة جنسية الدولة التي يعيش فيها، بل والمشاركة بمجالسها النيابية والتشريعية، خاصة بعد ما استقرت عليه الأوضاع في الغرب أن حمل جنسية إحدى دوله لا تجبر من يحملها على تغيير عقيدته أو تبديل دينه الأصلي. (١)

إذاً ما الذي يمنع الجاليات المسلمة في الغرب من التمتع بحقوقها المدنية والسياسية كاملة ؟!

(١) عبد الخالق؛ إسلام أون لاين، ٥/١٠/٢٠٠٤م.

٤- تأثير أحداث ١١ سبتمبر على المسلمين في الغرب:

بعد أحداث ١١ سبتمبر صـــدر في أمريكا قانون مكافحـــة الإرهاب باســـم «باتريوت آكت» - سنوضحـــه لاحقاً- وقد أثر هذا القـــانون على المســـلمين؛ اعتماداً على تقرير مجـــلس العلاقـــات الإســـلامية الأمريكـــية (كير) ٢٠٠٣م، في التالي: [١]

أ- ذكـــر تقرير أعده المفـــتش العام بوزارة العـــدل الأمريكية أن الســـلطات اعتقلـــت ٧٣٨ مســـلماً وعربياً منذ أحـــداث سبتمبر وحتى أغســـطس ٢٠٠٢م، وأن المعـــتقلين أُخضعوا لمعاملة ســـيئة وتمييزية مثل إعاقة عملية اتصـــالهم بمحامين يدافعون عنهم أو الاتصال بأسرهم، واعتقالهم بناء على أدلة سرية، والاعتداء عليهم لفظياً وجسدياً.

ب- قـــيام وزارة العـــدل بعقد مقابلات استجوابية مع حوالي ٨٠٠٠ مسلم وعربي.

ج- إخضـــاع حوالي ٧٠ ألف إلى ٥٠ ألف مهاجر مسلم وعربي إلى عمليات تسجيل إجبارية لدى إدارة الهجرة الأمريكية.

د- إخضـــاع ١١ ألف مهاجر عراقي إلى عمليات استجواب منذ بداية الحرب على العراق.

مـــا حدث أعلاه للمسلمين في أمريكا لا يُختلف حول وصفه بأنه شيء سيء جداً، ولكن هذا ما يحدث في حالة الحرب بين الأمم، حيث يدفع الأبرياء ثمن الحرب

---

(١) مجلة الوطن العربي، العدد ١٣٧٧.

غالباً، فالأمريكيون من أصول يابانية في فترة الحرب العالمية الثانية بين أمريكا واليابان اعتقلوا في معسكرات خاصة إلى نهاية الحرب العالمية الثانية[١].

وكذلك أوضح تقرير «كير» عن حوادث التمييز ضد المسلمين، أن حوادث التمييز ضد المسلمين كانت ٦٠٢ حالة عام ٢٠٠٢م بما يمثل زيادة قدرها ١٥% مقارنة بعام ٢٠٠١م، وزيادة قدرها ٦٤% بعام ٢٠٠٠م، وقد أرجع التقرير الارتفاع الملحوظ في حوادث التمييز ضد المسلمين في أمريكا إلى تبعات أحداث سبتمبر ٢٠٠١م[٢].

وكذلك «الفوبيا» الجديدة التي أصابت أمريكا هي التركيز الدقيق في تطبيق قوانين الهجرة ضد الشرق أوسطيين، فمثلاً يوجد في أمريكا أكثر من ٣٠٠ ألف أمر ترحيل غير منفذة، ولكن وزارة العدل تركز فقط على ٦٠٠٠ شرق أوسطي[٣].

وتعتقل الولايات المتحدة منذ الحرب على أفغانستان ما يقارب ٦٠٠ أسير من دون محاكمة في خليج غوانتانامو[٤]. وفي خارج أمريكا تعرض المسلمون في أشخاصهم المادية والمعنوية لمجموعة من الاعتداءات، مثل ما حدث في هولندا، وأستراليا، وجزيرة فيجي.. الخ. وكذلك استغل غضب العملاق الأمريكي على المسلمين استغلالاً بشعاً في مجموعه من الدول لتصفية حسابات كانت كامنة أصلاً، وخاصةً روسيا وإسرائيل!

(١) نيوزويك، العدد ٨٥.
(٢) الوطن، ١٣٧٧.
(٣) نيوزويك، العدد ٨٥.
(٤) نيوزويك، العدد ١٥٦ .

وربما تثار نقطة مهمة في ما يتصل بالمعتقلين في خليج غوانتانامو: هل هم أسرى حرب؟ أم إرهابيون؟

وهنا نقتبس إجابة «لديفيد شيفير» عن وضع أسرى غوانتانامو فيقول: إنهم أسرى حرب ويتمتعون بحقوق أسرى الحرب بموجب اتفاقية جنيف الثالثة. يمكن أن يقاضوا بتهمة ارتكاب جرائم الحرب. لكن ينبغي مقاضاتهم في المحاكم العسكرية التي تؤمن ضمانات أساسية من الاستقلالية وعدم الانحياز. ولكن -يضيف ديفيد شيفير- إذا تم التعرف إلى أحد الأشخاص على أنه إرهابي أو عضو في «القاعدة» سيفقد حماية اتفاقية جنيف الثالثة، وينبغي بالتالي التعامل معه كإرهابي. ومعظم أسرى الحرب ليسوا متهمين بارتكاب جرائم، بل يتم إطلاق سراحهم مع نهاية الحرب[1].

غير أن الإدارة الأمريكية ما تزال تتخبط في تصنيفهم: هل هم أسرى حرب؟ أم إرهابيون؟ فإذا كانوا أسرى حرب، فالحرب قد انتهت وأمريكا في مرحلة سلام مع أفغانستان، أو بالأحرى أمريكا تحتل أفغانستان، فمن واجب أمريكا أن تطلق سراح الأسرى الذين لم يرتكبوا جرائم حرب[2]، ومن ارتكب جرائم حرب منهم يحاكم محكمة عادلة، وحتى من تدعي أمريكا أنهم إرهابيون فيفترض عليها محاكمتهم في ضوء قوانين المحاكم الدولية التي أنشئت لمحاكمة مجرمي الحرب في رواندا وسيراليون والبلقان، أو محاكمتهم في المحاكم الجنائية الفيدرالية أو العسكرية[3].

(١) نيوزويك، العدد ٧٩.
(٢) المجذوب، ص ٧٣٧.
(٣) نيوزويك، العدد ٧٩.

٥- رأي القانون الدولي العام في مواطني الدولة العدو المقيمين في دولة محاربة:

نحـــن لا نستطيع أن نجد أي تبرير لانتهاك أمريكا القانون الدولي العام في قضية الحـــرب على الإرهاب، ولكن في الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر بأن هناك بعض الخطـــوات التي اتخذتما أمريكا تعتبر قانونية في حالة الحرب. فبالنسبة للقانون الدولي العام يثير الفقهاء، في ما يتعلق بالآثار المترتبة على الحرب، سؤالاً تقليدياً هو:

ماذا يحل برعايا الدولة العدو المقيمين في أراضي دولة محاربة ؟

كانت الدولة قديماً تحتجزهم كأسرى حرب، ولكنها اليوم تطلب منهم مغادرة البلاد أو تطردهم منها. غير أنه لوحظ أن هذا الأسلوب قد يضر بمصالح الدولة؛ لأن هؤلاء الرعايا قد ينضمون، بعد خروجهم، إلى قوات العدو وينـــزلون الضرر بالدولة التي كانوا يقيمون فيها. ولكنه لوحظ أيضاً أن إبقائهم في إقليم الدولة قد يجعل منهم طـــابوراً خامســـاً يعمل لصالح دولتهم. ولذلك جرت العادة على إبقائهم في إقليم الدولـــة المحاربـــة ووضعهم تحت المراقبة أو اعتقالهم في أماكن معينة. وبعض الدول تفضـــل ترحـــيل الأطفال والنساء والعجزة وتبادلهم بغيرهم من رعاياها إن أمكن، وطـــبعاً مـــع عدم المساس بأموالـــهم وأملاكهم، وإن تـــم وضـــع اليد عليها فإن ذلـــك يتم مقابل تعويض مناسب[1] وهذا ما حدث لليابانيين في أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية.

أمـــا الأحكـــام العرفية، فتستعين بها الدولة من خلال لوائح استثنائية تلجأ إليها الســـلطة التنفـــيذية تحت ظروف حالة الطوارئ، إذ تسمح لها بتعطيل بعض أحكام

(١) المجذوب، ص ٧٣٢.

الدستور حتى تستطيع تلافي بعض الأخطار التي تتعرض لها البلاد، كنشوب ثورة داخلية أو وقوع غزو خارجي، وفي هذه الحالة تطبق السلطة التنفيذية ما يعرف بقانون الطوارئ الذي يخولها سلطات واسعة واستثنائية[1].

واستناداً على ذلك استطاعت أمريكا وبريطانيا تمرير بعض القوانين تحت مسمى «الحرب على الإرهاب»، فمثلاً في الولايات المتحدة أقر الكونغرس «قانون باتريوت» لمكافحة الإرهاب، وهو القانون الذي انتهكت من خلاله حقوق الإنسان والقوانين الإنسانية في أمريكا كما ذكر أعلاه. فهذا القانون كما هو موضح في الوثيقة القانونية (USA Patriot act, Public law ١٠٧-٥٦/١٠٧th Congress) بنوده معظمها مقيدة للحرية.. فمثلاً:

أولاً: تطوير الأمن المحلي ضد الإرهاب،

ثانياً: تطوير الأساليب الرقابية.

ثالثاً: تقليص تحرك غسيل الأموال لمقاومة الإرهاب.

رابعاً: حماية الحدود.

خامساً: تعطيل كل الأمور التي من الممكن أن تعيق التحقيق مع الإرهابيين.

سادساً: توفير الأمن لضحايا الإرهاب.

سابعاً: تشديد القوانين الجنائية ضد الإرهاب.

ثامناً: تطوير الأساليب الاستخباراتية ضد الإرهاب.

تاسعاً: متنوعات، ويقصد بها هنا تجهيز جميع مؤسسات الأمة للتعامل مع الإرهاب والقضاء عليه.

---

(١) الكيالي، ص ٨٧.

طبعاً بعد مراجعتنا لهذا القانون وجدنا أن السلطة التنفيذية أصبحت مطلقة اليد في التعامل مع القضايا التي توصف بالإرهاب دون رقيب ولا حسيب من السلطات الأخرى مثل: الكونغرس والقضاء الفيدرالي!

ولكن هل يستمر ذلك؟ بالطبع لن يستمر ذلك، لأن الولايات المتحدة ستكون الخاســر الأول، لأن الأساس الذي أقام المؤسسون أمريكا عليه هو أن تكون الدولة الراعية لحرية العالم، والمطبقة للسوق المفتوح، وليس الدولة التي يوجد بها إحدى أكبر سجون العالم مثل ما يحدث الآن.

أما بالنسبة للملكة المتحــدة، فيوجد فيها قانون للإرهاب قبل أحداث سبتمبر (Terrorism Act ٢٠٠٠) & (Investigatory Pounds ٢٠٠٠) بحيــث تســتطيع الســلطة التنفيذية توقيف الشــخص المشتبه به لمدة ٤٨ ساعــة بدون إدانة، وبعد ذلــك إمكانية الطلب من الســلطات المخــتصة التمــديد ٧ أيام، ومن ثــم لمدة ١٤يوماً (Shokat).

والذي لاحظناه أن هناك تشابهاً ما بين أمريكا وبريطانيا في التوسع في العمليات الاســتخبارية، التي كان يفترض أن تكون، سابقاً، سرية على أقل تقدير، وبطريقة رسمــية، وذلــك يشــمل التنصت على الهاتف وجميع أساليب الاتصالات السلكية واللاســلكية بمــا فيها البريد الإلكتروني، والبريد العادي.. إلخ. وإذا كان ذلك قد حــدث في هــذه الدول بطريقة متزايدة بعد أحداث سبتمبر، فذلك للأسف ما يتم يومــياً في معظــم الدول العربية والإسلامية منذ تأسيسها.. فأمريكا وبريطانيا حتى يتســنى لهما الأمر أخذوا إذناً من سلطاتهم التشريعية المنتخبة، وهذه السلطات أصلاً تمثل إرادة الشعب، أما في كثير من الدول الأخيرة فإن كل شيء يستخدم بدون أية تشريعات، للأسف الشديد !!

المحور الثاني
من آثار أحداث سبتمبر على الدول الإسلامية

١- المثقفون العرب:

أدى تسارع الأحداث ضد العرب والمسلمين، سواء في الولايات المتحدة أو بريطانيا أو خارجهما، بعد أحداث ١١ سبتمبر، إلى كثير من ردود الفعل من قبل الأقليات الإسلامية المقيمة في دول الغرب، وحتى مواطني الغرب غير المسلمين المحبين للسلام، وصاحب ذلك الكثير من المسيرات والمظاهرات في كثير من الدول الإسلامية، ولكن يوجد طابع شبه موحد تقريباً، للأسف، لمعظم التحركات العربية والإسلامية، وهو الطابع العاطفي غير التنظيمي، وهذا الطابع لا يؤثر على متخذ القرار في الدول المتقدمة لأنه يعتبر ردة فعل، وردة الفعل غالباً ما تستوعب من خلال الامتصاص الأول للهيجان الشعبي، وبعد ذلك هضمه، وبعد ذلك قتله مع الزمن ونسيانه، أي كأنه لم يكن.

وربما كان من أفضل ردات الفعل العربية التي لاحظتها على الانتهاكات الأمريكية للقانون الدولي العام لاتفاقيات جنيف هي الوثيقة التي نشرتها صحيفة (The Daily Star, October٩th.٢٠٠٤) تحت عنوان (Arab National Congress).. وهذه الوثيقة، التي وقع عليها نحو ٦٣٢ مثقفاً عربياً، تتميز بأن الموقعين عليها من مختلف الدول العربية، وأنها تحتج على انتهاكات أمريكا وحلفائها التي نتجت عن احتلالهم للعراق، والميزة الأخرى هي في ما كشفت عنه من وجود مشاعر قومية

عربية ناضجة تتفاعل مع كل شبر من أرض العرب يتم احتلاله، وكانت هذه الوثيقة موجهـــة لزعماء العالم، ومن مطالبها: أن تعقد جلسة طارئة لمجلس الأمن، ويقدم لها المخطط التالي:

أ - إيقاف كل أشكال العدوان الأمريكي البريطاني في العراق.

ب- إيجاد آلية دولية لتوفير الأمن للشعب العراقي.

ج - إيجـــاد آلـــية دولية لدراسة حالة جميع أسرى الحرب العراقيين، والأسرى بشكل عام الموجودين عند قوات الاحتلال في العراق.

د- المجتمع الدولي عليه أن يطالب قوات الاحتلال في العراق أن يقدموا جدولاً للأمـــم المـــتحدة يوضح مراحل انسحابهم من العراق، لأن أية انتخابات في الوضع الراهن في العراق تعتبر غير سارية المفعول.

الـــنقاط طالما صيغت بطريقة تنظيمية نتوقع أن يكون لها رد فعل أكثر في المجتمع الدولي وخاصة أصحاب العلاقة على المستوى العالمي: الدول المحتلة، وعلى المستوى الإقلـــيمي: معظم الزعماء العرب، حتى وإن حاول الطرفان الأخيران تجاهلها. ومن هـــنا إذا أردنـــا أن يكون لنا دور عالمي ما بين الأمم وإنقاذ أوطاننا الإسلامية من الكـــوارث الـــتي تـــتعرض لها، فلابد لنا على مستوى العالم الإسلامي بشكل عام، والأقلـــيات الإسلامية بشكل خاص، أن ننظم أنفسنا من خلال جمعيات أو أحزاب بالأشـــكال المختلفة، سياسية وثقافية ودينية واجتماعية.. الخ. وإذا استطعنا أن نصل إلى هـــذه المرحلة بالفعل فنحن نراهن أن العالم الإسلامي سيتغير وضعه عما هو فيه من كآبة وشعارات زائفة!

٢- الحكومات العربية والإصلاح:

منذ انتهاء الحرب الباردة في التسعينيات من القرن الماضي أصاب بعض الحكومات العربية مرض هستيري اسمه الإصلاح.. ومعروف أن **النظرية «الويلسونية» التي وضعتها أمريكا للعالم منذ بداية القرن الماضي تطالب بالحرية لشعوب الأرض أو بالأصح بتعميم مبدأ الليبرالية**، وتعميم سياسة السوق المفتوحة، ولكن الذي أخر أمريكا عن تطبيق ذلك هو الحرب العالمية الثانية، وتلاها الحرب الباردة إلى عام ١٩٩٠م. ولكن بعد أن أصبحت السيادة الأحادية لأمريكا على الكوكب واضحة، فمن الطبيعي أن تفرض أمريكا تصورها الأيديولوجي، ونعتقد أن أفضل من صاغ ذلك خلال القرن الماضي «فوكياما» في كتابه «نهاية التاريخ»، وكذلك «هنتنغتون» الذي عبر عن مخاوفه من أن تصطدم «نهاية التاريخ» مع «صراع الحضارات» أو صراع الثقافات.

ونعتقد أن أفضل تعليق على الإصلاحات التي تتبناها الحكومات العربية هو التعليق الذي قلناه في الحلقة الأولى من (The Doha Debates October ١٣th.٢٠٠٤) الذي عقد في «مؤسسة قطر» تحت عنوان (أننا نعتقد بأن الحكومات العربية غير جادة في القيام بإصلاحات فعلية) وكان يدير الحوار «تيم سبيستيان»، وطرفا المناظرة هم: د. سعد الدين إبراهيم وريم العلاف من ناحية، الطرف الآخر المقابل لهم حسين شبكجي وعادل درويش، وكانت مداخلتنا في هذا الحوار بأن الحكومات العربية غير جادة بالإصلاح وإن كل ما تقوم به من إصلاحات هو تغييرات مكياجية أو تلميعية للسلطة، والدليل هو التالي:

أ – هل يوجد عندنا مشاركة في السلطة في العالم العربي؟ طبعاً لا.

ب – هل يوجد تداول للسلطة في العالم العربي؟ طبعاً لا.

ج – هل يوجد شفافية في إدارة السلطات في العالم العربي؟ طبعاً لا.

د – هل يوجد عدالة لتوزيع الثروة في العالم العربي؟ طبعاً لا.

هـ – هل يوجد عدالة لتوزيع الوظائف في العالم العربي؟ طبعاً لا.

إذاً نقول لمن يدعي بأن هناك إصلاحاً أو صلاحاً حقيقياً في العالم العربي: عليك أن تعرض لنا أعلاه، أما إذا لم يستطيع فنعود لمثلنا العربي الذي يقول: (اسمع جعجعة ولا أرى طحيناً).

٣- الإصلاح الذي تريده أمريكا:

الإصـــلاح الـــذي تريده أمريكا وحلفاؤها في العالم الإسلامي، هو إيجاد أفضل الآليات للوصول إلى خدمة مصالحها القصوى في العالم الإسلامي.. وكان الأكاديمي «ف.غـــريغوري غـــوز الثالـــث» قد كتب في فصلية (Foreign Policy) نصيحة للإصـــلاح في المملكـــة العربية السعـــودية، مؤداها أن الديمقراطية السعودية ستضر المصـــالح الأمريكية فهي إذاً غير ضـــرورية، وأن الســـعوديين إذا أرادوا أن يكونوا محبوبين من الإدارة الأمريكية والشعب الأمريكي، فعليهم أن يوفروا النفط الرخيص للشعب الأمريكي.

دعونا نتحدث بطريقة موضـــوعية:

الحكومـــة الأمريكـــية أو الحكومات الغربية أو أية حكومة في العالم إذا كانت صادقة وجادة فعليها البحث لأقصى حد عما يمكن أن تفيد به الوطن والشعب الذي تمثله. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: أين الحكومات العربية من ذلك؟!

٤- نماذج من الإصلاحات المناسبة للدول العربية:

دعونا نكون موضوعيين:

لـــن تكون هناك إصلاحات جادة في العالم العربي من دون إعادة العربة خلف الحصـــان، حتى يستطيع أن يسحبها، فمعظم المؤهلين العرب المسلمين مهمشين في أوطانهم.. وحتى عندما تحتاج دولهم إلى خبرات في تخصصاتهم تسعى حكوماتهم إلى اســتقدام أجانب لتقديم النصح والمشورة لهم، وذلك لكي يفوتوا الفرصة على أبناء أوطانهم من الدخول أو المشاركة في «الميكانيزم» الخاصة بالعمل الوطني، لأنه دائماً تســيطر علــيهم فكـــرة أنه مجرد أن تعطي المثقف العربي الفرصة في وطنه سيصبح كالتيار القوي الذي يصعب عليك إيقافه ؟!

إذاً، فـــإذا كـــان معظم من يسيطر على الإدارات العربية هذا تفكيرهم بالنسبة لأبناء أوطانهم، فمن أين سيأتي الإصلاح؟!

وحـــتى لا نقفـــل أبـــواب التفاؤل، لابد لنا من ذكر بعض النماذج الإسلامية الناجحة، أو التي بدأت تحقق بعض النجاح في العالم الإسلامي.

فهـــناك مـــثلاً النموذج الماليزي، الذي يقول عنه مهاتير محمد: الحكمة السائدة المتمـــثلة في أبجديات السياسة تقول: إنه على الأقل ضمن أية دولة فإن المؤسسة التي تخـــتارها الأغلبـــية هـــي التي يمكن لها أن تحكم بطريقة عادلة. ولضمان عدم سوء اســـتخدام السلطة لابد من وضـــع نظام للمحاســـبة والتدقيق، وفي الديمقراطيات الحقيقـــية فـــإن إجراءات السلامة هذه يوفرها فصل السلطات، التشريعية والتنفيذية والقضائية[1].

---

(١) محمد، ص ١٧٨.

أمـــا في تركـــيا، فقـــد قدم رجب طيب أردوغان، حزب العدالة والتنمية بعد انتصاره الساحق، نوفمبر ٢٠٠٢م، مجموعة من الإصلاحات، وإن كنت اختلف مع بعضـــها، الـــذي تمـــس بجوهر بعض الأحكام الشرعية، ولكن لماذا لا نقتبس، على مســـتوى العالم الإسلامي، الإيجابي من هذه الإصلاحات، فأردوغان في فترة قياسية قام بالتالي [1]:

أ – إبعاد جنرالات الجيش عن عملية صناعة القرار السياسي.

ب – إحداث تحول في المشهد الاجتماعي، ذلك أن أكراد تركيا البالغ عددهم ١٢ مليون نسمة (٢٠% من شعب تركيا) حصلوا على حقوقهم في البث الإعلامي بلغتهم وتعليمها في المدارس.

ج – انـــتعاش الاقتصـــاد التركي، فحقق في عام ٢٠٠٤م نمواً خرافياً يصل إلى ١٣,٥% وذلـــك بفضـــل الإصلاحات المصرفية والمالية التي جذبت الاستثمارات الأجنبية وخفضت التضخم من ٤٥% إلى ٨%.

د – إعـــادة صـــياغة قـــانون العقوبات، وأكثر ما أعجبنا في هذه الصياغة هو استئصال القوانين التي تحظر انتقاد الدولة.

(١) نيوزويك، العدد ٢٢٦.

المحور الثالث

النهضة مرهونة بالإصلاح

إذا أردتم النهضة فلابد من الإصلاح الحقيقي، المتمثل في:

١- عدالة توزيع الدخل.

٢- عدالة توزيع الوظائف.

٣- أن نوفر أمننا بأنفسنا، حتى لا نخضع للمساومات.

٤- تداول السلطة.

٥- توسيع قاعدة المشاركة الشعبية.

٦- الشفافية الكاملة. وطبعاً لن يتحقق الإصلاح إلا بوجود الشفافية الكاملة، ففي الدول المتقدمة كل برنامج يمرر تصادق عليه لجنة تشريعية منتخبة، وإذا كان الموضوع مصيري أكبر، من حيث المساس بمصلحة الوطن والمواطنين، فيخضع إلى الاستفتاء العام، أما الأمور الإجرائية اليومية فتقع تحت سلطة استطلاعات الرأي التي تقوم بها غالباً مراكز متخصصة في الدول المتقدمة.

معظم الكتّاب العرب، للأسف الشديد، عندما يكتبون وينقدون ويكون نقدهم موجهاً (للآخر)، أي للدول الغربية، فإنما يقومون بانتقادها بشراسة، وذلك يعكس صورة خاطئة للمستهلك العادي للإعلام العربي، ويعبأ المواطن العربي التعبئة الخطأ، التي تجعله يقرأ المشهد بصورة خاطئة.

إن أحـــد أكبر مشاكل العرب أنه لا توجد عندهم برامج ناجحة لإدارة اللعبة السياســـية مع (الآخر)، فنحن من خـــلال مـــتابعتنا للصحـــافة العالمية بشـــكل عام، والصحافة الأمريكية بشـــكل خاص، نـــجد أن معظم أفراد الشعب الأمريكي يقـــف ضـــد سياسة حكومته في العالم، وخاصةً في الشرق الأوسط، فاستطلاعات الرأي تقول:

أ- إن ٦٦% مـــن الأمريكـــيين يريدون العمل ضمن الأمم المتحدة، و٥٩% يفضلون إلغاء الفيتو، ٧٤ % يفضلون أن تكون القوة الرئيسية في العالم للأمم المتحدة وليس لأمريكا، و٧٦% من الأمريكيين مع المحكمة الجنائية الدولية، وهذا يوضح أن الأمريكـــيين مـــتفقين مـــع الآراء الـــتي ضـــد حكومة بوش، و ٧١% يؤيدون بروتوكولات كيوتو، وهذا الرأي يوضـــح أن الأمريكـــيين يقفون ضد حكومتهم، و٨٧% تؤيـــد حظـــر الاختبارات النووية، وهذا يوضح أن الأمريكيين يقفون ضد حكومـــة بوش، و ٨٠% من الأمريكيين تؤيد معاهدة حظر الألغام البرية، وفي هذا الـــرأي يقـــف الأمـــريكان ضد حكومتهم، و٦٨% من الأمريكيين يقولون: يجب الحصول على إذن من الأمم المتحدة إذا أردنا القيام بعمل ضد كوريا الشمالية، وهذا يوضـــح أن الأمريكيين يفضلون أن يصطبغ أي عمل عسكري ضد أي دولة أخرى بصـــفة الشـــرعية الدولية، حسب مفهومهم، وهذا يخالف قرارات بوش الأخيرة في احـــتلاله للعراق، و٧٤% من الأمريكـــيين يفترض أن أي تصـــرف عســـكري أمريكي لا بد أن يكون ضـــمن تحالف دولي، ويقصـــد غالباً هنا دول الناتو، وهذا مـــا لم يفعلـــه بوش في حالة احتلال العراق! (مجلة الشؤون الخارجية، في شيكاغو، سبتمبر ٢٠٠٤م[1]).

(١) نيوزويك، العدد ٢٢٦ .

ولكــن الســؤال الذي يطرح نفسه: هل يوجد قائد سياسي عربي يستطيع أن يســتفيد مــن الاســتطلاع أعلاه، من خلال إيجاد آلية سياسية جديدة للتعامل مع الشعب الأمريكي وقيادته عن قرب دون إذعان أو تقديم تنازلات؟!

إن إجــراء مثل هذا التقارب يتطلب إجراء استطلاع للرأي العربي، ولكن هل تسمح دولة عربية واحدة بهذه الشفافية دون قيود قاتلة؟!

ب- ويوضــح اســتطلاع مركز أبحاث «بيو» مشاعر معاداة الولايات المتحدة الأمريكــية في الخارج: فنسبة التأييد لأمريكا انخفضت في بريطــانيا من ٧٥% إلى ٥٨%، وفي فرنسا انخفضــت من ٦٣% إلى ٣٧%، وفي ألمانيا انخفضت من ٦١% إلى ٣٨% .

وكذلك يوضــح الاســتطلاع أن نســبة القــلق الأمريكي الأكبر، هو ردة الفعــل في الدول الإســلامية الصــديقة لأمريكا بعد احــتلال العراق، فالمؤيدون للعملــيات الاســتشــهادية ضــد أمريكا في العراق ٥٩% في تركيا، ٣٦% في باكســتان، و ٢٧% في المغــرب، و ٢٤% في الأردن! (استطلاع للرأي لمركز أبحاث «بيو» (النسخة العربية Foreign Policy).

تعليقــنا عــلى هذيــن الاستطلاعين هو أن على أمريكا أن تغير من سياستها الخارجية إذا أرادت أن تحافظ على مصالحها العالمية!

ج- ومن خلال استطلاع للرأي شمل عشرة دول حليفة لأمريكا هي: بريطانيا، فرنســا، أســبانيا، روســيا، إســرائيل، اليابان، كوريا الجنوبية، المكسيك، كندا، وأستراليا، وكان السؤال العالمي في هذه الدول:

ماذا لو شاركتم في الانتخابات الأمريكية ؟ باستثناء إسرائيل وروسيا اللذين أيدا بوش، وهما طبعاً مستفيدين من سياسة «الضربات الاستباقية»، و«الحرب على الإرهاب» (!) فإن جميع المشتركين في استطلاع الرأي في الدول الأخرى أيدوا «جون كيري»!! (استطلاع رأي لصحيفة هيرالد تريبيون Herald Tribune, October ١٧th ٢٠٠٤).

ولكن من الممكن أن نسأل أنفسنا: هل سيبقى الناخب الأمريكي أو العالمي على رأيه أعلاه دون تغيير؟

طبعاً الإجابة لا؛ لأن صوت مستطلع الرأي غالباً لا يخضع لاستراتيجية طويلة المدى، وإنما يتأثر بمصلحته الآنية. فمثلاً من أقوى الأوراق التي حاول الرئيس بوش أن يؤثر بها على الناخب الأمريكي في حملته الانتخابية الأخيرة، هي ورقة الأمن القومي الأمريكي، علماً بأن ما يقارب الـ ٥٥% من الأمريكيين يتصدر الأمن القومي اهتماماتهم.

إن قضية الأمن الأمريكي، وقد أثيرت بقوة، فذلك ربما لأن بوش كان يعتبر الأمن الورقة الأولى والأكثر أهمية في انتخابات ٢٠٠٤م، وأن ذلك يجلب نحوه، على أقل تقدير، معظم الناخبين الذين لم يكن قد حددوا بعد لمن سيصوتون من الخصمين الرئاسيين!

من ناحية أخرى يمكن اعتبار إعلان الرئيس بوش يوم ١٦/١٠/٢٠٠٤م بأنه وقع قانوناً جديداً يلزم وزارة الخارجية الأمريكية بإحصاء الأعمال المعادية للسامية حول العالم وتقويم مواقف الدول من هذه المسألة(١)، استدراجاً من الرئيس الأمريكي للعرب والمسلمين أن تكون ردة فعلهم شديدة وعنيفة.

ولكن هل استوعب المسلمون هذه اللعبة ؟!

---

(١) الحياة، ١٧/١٠/٢٠٠٤م.

المحور الرابع

المساهمة الممكنة لمسلمي الغرب في نهضة العالم الإسلامي

قبل أن نفكر بأن مسلمي الغرب لابد لهم من المشاركة في نهضة العالم الإسلامي يجب أن نعترف في البداية بأننا نعاني من مشكلة، وإذا لم نجد علاجاً ناجحاً، ونتعامل معها بشفافية مطلقة، فنعتقد بأن الحال سيتجه من سيء إلى أسوأ. فمثلاً عندما ننظر في تقريـــر التنمية البشرية عن ترتيب دول العالم، من حيث التنمية البشرية، نجد أن الـــدول الإسلامية تقع في المؤخرة. فمثلاً أهم الدول الإسلامية من الناحية السكانية نجـــد ترتيبها كالتالي: المملكة العربية السعودية ترتيبها ٧٣، تركيا ٩٦، إيران ١٠٦، الجزائر ١٠٧، سوريا ١١٠، مصر ١٢٠، المغرب ١٢٦، السودان ١٣٨، بنغلاديش ١٣٩، الكاميرون ١٤٢، باكستان ١٤٤، ونيجيريا ١٥٢ .[١]

أعلاه يوضح أن العالم الإسلامي يقع بالأرقام في ذيل القائمة ما بين أمم الأرض رغـــم الإمكانـــات الضخمة التي وهبها الله سبحانه وتعالى له[٢]. ونعتقد أن أفضل الحلـــول لإنقـــاذ العـــالم الإسلامي من الكوارث التي يعاني منها هو حدوث تعاون تنظـــيمي كـــبير ما بين منظمات تشتمل على مجموعة من المثقفين المسلمين في العالم الإسلامي، ومنظمات تشتمل على مجموعة من المسلمين المقيمين في الغرب. ونعتقد أن الدور الأهم يفترض أن يقوم به مسلمو الغرب؛ لأن هامش الحركة عندهم أكبر مـــن هامش الحركة التي توجد عند أقرانهم في العالم الإسلامي، ولكننا نرى أن من أولويات العمل الإسلامي في الغرب أن يشتمل على:

---

(١) تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣م.

(٢) راجع آل ثاني، فهد، جيواستراتيجية العالم الإسلامي.

تحسـين صورة الإسلام عند الآخرين، واحترام قوانينهم مادمنا في أوطانهم، بدون أن نتنازل عن الأمور التي تمس عقيدتنا، وأستطيع أن أؤكد بأن كل شخص في الغـرب يمـتلك مـن الحرية الشخصية ما أعطانا إياه الإسلام، إلا ما ندر، مثل التشريع الجديد في فرنسا لرفع الحجاب عن طالبات المدارس، وطبعاً علينا حتى نقول بـأن المسلمين مضطهدين في الغرب أن نضع مقياساً رقمياً دقيقاً: كم هي الحقوق المدنية المسلوبة من المسـلمين؟ وكم هي الحقوق المدنية التي يحصلون عليها؟ أعتقد لو أخذنا ذلك بالنسبة والتناسب سنجد أن الحقوق المسلوبة من المسلمين في الغرب لا تصل حتى إلى ١% مقارنةً مع الحقوق التي يحصلون عليها. يضاف إلى ذلك أن في الغرب الكثير من القنوات والآليات ذات الشفافية الكاملة التي يستطيع المسلمون من خلالها المطالبة بحقوقهم المسلوبة، التي لا تتجاوز ١% كما ذكرنا أعلاه.

ولكـن السـؤال الـذي يطرح نفسه: عندما تسلب حقوق المواطنين في العالم الإسـلامي في أوطانهم، هل توجد القنوات والآليات ذات الشفافية العالية للمطالبة بحقوقهم؟

وأؤكـد هنا بأن المسلمين غير مكروهين في الغرب، ذكر تقرير لمجلس العلاقات الأمريكـية الإسـلامية (كـير) عـن الصورة السلبية التي يحملها المجتمع الأمريكي للمسلمين فكانت كالتالي: ٢٦% منهم متفقون مع تصريحات مثل الديانة الإسلامية تعلم العنف والكراهية، ٢٩% مع القول: إن المسلمين يعلمون أولادهم كراهية غير المؤمـنين، و ٢٧% يـرون أن المسـلمين يعطـون قيمة للحياة أقل من الشعوب الأخرى.[1]

(١) الراية، العدد ٨١٩٧.

لذلــك يمكــن القــول: بأن أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، والاحتلال الأمريكي لأفغانســتان والعراق، وتركيز معظم الإعلام الأمريكي على إعطاء صورة سلبية عن المسلمين، تلك الأحداث المذكورة كلها، لم تؤثر إلا على ربع الأمريكيين، بإعطائهم صــورة ســلبية عــن الإسلام! وردة الفعل هذه سلبية في جميع المجتمعات في حالة الحروب ما بين الأمم أو ما شابهها.[١]

والــذي يدعم رأينا بأن آراء الأمريكيين ليست سلبية عن الثقافة الإسلامية هو اســتطلاع الرأي الذي قدمه منتدى «بيو» للديانات والحياة العامة في شهر ديسمبر ٢٠٠١م، وكان ٥٩% من الأمريكيين الذين استطلعت آراؤهم لديهم صور إيجابية عــن الإسلام.. وكذلك، بعد أحداث ١١ سبتمبر، أظهر مسح لـ ٩٠٠ قسم دين جــامعي قامــت به جمعية وقف ليلي أن ثلثها لا يقدم فصولاً عن الإسلام. والآن أصــبحت الجامعــات في تنازع طلباً لخبراء الإسلام، ومعظم الحلقات الدراسية في الفصل الجامعي عن الإسلام تم التسجيل بها أكثر من الحد[٢]. ولكن نحن كمسلمين هل نستطيع أن نتعامل إيجابياً مع هذا الإقبال على الإسلام؟!

ولكــن دعونا نذهب إلى أمريكا مرةً أخرى ونفترض أنه لو استطعنا أن نجري اســتطلاعاً للعنصــريين البيض الأمريكيين، لمعرفة الصورة السلبية التي يحملونها ضد الســود الأمريكــيين، لوجدنــا أن الصورة السلبية للبيض الأمريكيين ضد السود الأمريكــيين تصل إلى أكثر من ٩٠% وذلك يعني أن ٧٠% من الشعب الأمريكي يكره ١٠% من الشعب الأمريكي رغم أن الجميع يعتنقون الديانة المسيحية!

وكذلــك لو استطعنا أن نذهب إلى مناطق «الهيسبانك» الأمريكيين الذين تبلغ نســبتهم ١١% مــن الشــعب الأمريكي تقريباً، وأجرينا استطلاعاً للرأي لمعرفة

---

(١) ويمكنكم مراجعة المحور الثالث رقم ٦ أعلاه لقياس ردة فعل الشعوب في حالة الكوارث.

(٢) نيوزويك، العدد ٨٢.

مشـــاعرهم السلبية عن البيض الأمريكيين لوجدنا نسبة الكراهية لدي «الهيسبانك» خرافية ضد البيض الأمريكيين، ونفس مشاعر الكراهية توجد عند البيض أيضاً ضد «الهيســبانك» رغم أن جميعهم يعتنقون ديانة واحدة هي المسيحية! وكذلك لو أتينا إلى أوربا وذهبنا إلى أيرلندا الشمالية وحاولنا أن نجري استطلاعاً للرأي لمعرفة موقف الكاثوليك المسيحيين من البروتستانت المسيحيين لوجدناهم يحملون صورة قاتمة عن البروتســـتانت، وكذلـــك البروتستانت يحملون صورة قاتمة السواد عن أقرانهم من الكاثوليك!!

إن النتيجة التي سنتوصل لها إذاً هي أن صراعات الغربيين فيما بينهم أكثر وأعمق مـــن الصـــورة السلبية التي يحملونها عن الإسلام.. ولكن من أكبر مشاكل المسلمين عـــندما يُســـتدرجون للصـــراع مع (الآخر) بواسطة بعض المراكز المتخصصة، يتم استدراجهم بكل سهولة، واستدراجهم هذا يؤدي إلى عكس صورة سلبية كاملة عن الإسلام للأسف الشديد !!

وخلاصة القول أعلاه:

إن مـــن مهامنا كمسلمين، وخاصة مسلمي الغرب، هو عكس الصورة الإيجابية عـــن الإسلام.. وفي الحقيقة فإن الديانة الإسلامية لو استوعبناها الاستيعاب السليم كـــلها صـــور إيجابـــية في المعاملات ما بين المسلمين وأنفسهم، وما بين المسلمين وأصـــحاب الديانـــات والثقافات الأخرى، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل نستوعب الدرس؟!

وأعتقد بأنه **يفترض على الأقليات المسلمة في الغرب، إعادة تنظيم أنفسهم،** مـــن خـــلال الأحزاب و«اللوبيات» والتكتلات والجمعيات السياسية والاقتصادية والثقافـــية والخيريـــة والمجتمعات المدنية بشكل عام. وهذه التنظيمات لو نجحت في

الغـــرب، ونجـــح الإصلاح الحقيقي، لا المكياج السياسي في العالم الإسلامي، فمن الممكن أن يتم التنسيق التنظيمي والفني ما بين المجتمعات المدنية في العالم الإســـلامي - طبعاً بعد الإصلاح أعلاه - والتنظيمات الإسلامية في الغرب، وأعتقد أن هذا هو أول خطوات نقل المعرفة الحقيقية والتقدم من دول عالم الشمال.

وأولى الخطـــوات الـــتي من الممكن أن يبدأ بها التعاون ما بين العالم الإسلامي ومســـلمي الغرب، وبموافقة ومشاركة الدول الغربية، هو التطوير الإيجابي للتعليم في العالم الإسلامي، من خلال التالي:

أ- دعم مراكز البحوث في العالم الإسلامي بالتجهيزات المعملية والبحثية فضلاً عن الدعم المالي.

ب- تقديم برامج للمعونة الفنية في شكل دعم وتطوير البنية الأساسية لتجهيزات المعامل البحثية بالجامعات الإسلامية.

ج- دعم الجامعات الإسلامية بتكنولوجيا المعلومات المتقدمة بما يسهم في زيادة فاعلية العملية التعليمية بالجامعات الإسلامية.

د- تقديم منح للباحثين المسلمين لإكمال دراساتهم العليا في الجامعات الغربية.

هـــــ- تقديم دعوات للباحثين المسلمين للمشاركة في المؤتمرات التي لها علاقة بتخصصاتهم وتعقد في الدول الغربية.

و- تكـــريم الباحـــثين المسلمين، سواء في الغرب أو في العالم الإسلامي، عندما يقـــدم الواحـــد منهم عملاً علمياً كبيراً يساهم في تقدم وتطور البشرية في المجالات المخـــتلفة، على أن يكون هذا التكريم: مالياً ومعنوياً، وأن يتضمن الترقية في وظيفته، وذلك سيحرض زملاءه الآخرين على تقديم كل ما عندهم!

المحور الخامس
الخاتمة

١- استيعاب إدارة اللعبة:

هناك مصالح استراتيجية صهيونية، ومن بعض المنظمات المتطرفة، لكي تثبت بأن الغــرب أعداء لنا، وهم في الحقيقة ليسوا أعداء لنا ونحن لسنا أعداءً لهم. فمن خلال متابعتــنا، هــناك محــاولات مســتميتة من قبل الغربيين لإحداث تقارب مع العالم الإسلامي، فمثلاً هناك دعوة أوربية لحوار الحضارات بين الغرب والمسلمين يتزعمها كــلٌّ مــن «خوسيه سباتيرو» رئيس وزراء أسبانيا، و«جيرهارد شرودر» المستشار الألمــاني، و«جان فرانكوفيني» نائب رئيس وزراء ايطاليا، وكذلك يفترض أن نشيد بــالدور الذي يقوم به للدفاع عن الإسلام الأمير «تشارلز» ولي عهد بريطانيا منذ عقد من الزمان[١].

من هناك تحرك الغرب، ولكن ماذا عن العالم الإسلامي؟

أعــتقد من دون وجود منظمات إسلامية سليمة ومتعافية وممثلة لإرادة الشعوب الإســلامية، لا نســتطيع أن نجري حواراً مع (الآخر)، لأن الأشخاص أعلاه الذين يــريدون الــتقارب مع العالم الإسلامي جميعهم يمثلون إرادة شعوبهم، ولكن معظم الأشخاص الذين يفترض أن يمثلوا المسلمين، فيمثلونهم رغماً عن أنوفهم. إذاً المشكلة ليست مشكلة ثقافة إسلامية وثقافة غربية، بل المشكلة هي: إدارات إسلامية مترهلة وإدارات غربية متقدمة!

(١) القدس، العدد ١٣٦٣١.

وعلينا كمسلمين استيعاب أسلوب الاستدراج والاستفزاز.. فمثلاً توقيع الرئيس «بـــوش» لقانون جديد تحت عنوان «معاداة السامية»[1]، يعتبر استفزازاً للمسلمين واســـتدراجاً عدوانـــياً لهم، ولكن إذا استوعبنا اللعبة نستطيع أن نرد عليها، غير أن ذلك لن يحدث إلا إذا استطاع المسلمون إعادة تنظيم أنفسهم بطريقة صحية.

وقد أعجبتنا مقالة للكاتب محمد شاكر عبد الله، يقول فيها: «والعرب ساميون أيضـــاً يـــا مستر بوش».. وملخص قول الكاتب: «أبناء نوح، سام وحام ويافث، وإبراهـــيم علـــيه السلام وذريته ينتسبون إلى نوح عليه السلام، والعرب من سلالة إسماعـــيل بن إبراهيم عليه السلام، وإذا بحثت فكرة نسب نبي الله إبراهيم بسام بن نوح، فإن العرب بديهياً سيرتبطون بسام هذا بنفس قوة ارتباط اليهودية»[2].

ورأينا إننا نستطيع أن نرسل رسالة هزلية إلى الرئيس «بوش» ونقول له: شكراً إذا كان قصدك أن قانون حماية السامية يشملنا أيضاً نحن العرب. رغم أننا كمسلمين لا نؤمن بالعنصرية التي يؤمن بها الرئيس بوش!!

الاســـتدراج الآخـــر من بوش في قانون «معاداة السامية» يتمثل في إظهار أن الصـــراع الدائـــر اليوم هو بين السامية والعرب، أو بين اليهود والمسلمين، ولكن في الحقـــيقة لا هـــذا ولا ذاك، إن الصـــراع الحقيقي إنما على حقوق مغتصبة للشعب الفلســـطيني في أرض فلسطين، فكان بالأحرى على الرئيس بوش أن يقول لصديقه شارون أن يعيد أرض الفلسطينيين إليهم، وأتحدى أن يبقى أي صراع غير ذلك، لأن حكم الدين واضح وصريح: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦).

(١) راجع أعلاه المحور الثالث البند رقم ٦.

(٢) القدس، العدد ١٢٦٣٤.

٢- أمريكا تبحث عن سياسة خارجية جديدة:

أمـــريكا فشـــلت في سياستها الخارجية في عهد الرئيس بوش ٢٠٠٠/٢٠٠٤م والدليل على ذلك استطلاع الرأي في المحور الثالث أعلاه، وكذلك فشلت أمريكا في أفغانستان بعد احتلالها، فالأكاديمية الأمريكية «كاثي جانون» المتخصصة في شؤون أفغانستان وباكستان تقول: أمريكا أنجزت الدمار في أفغانستان، فبدلاً من التعامل مع خصـــم واحـــد اسمه طالبان أصبحنا نتعامل مع مجموعة لا تعد ولا تحصى من أمراء الحـــرب، وكل واحد منهم لديه المليشيا الخاصة به مثل عبدالرسول سياف، ومحمد فهيم، وعبد الرشيد دوستم، ورئيس أفغانستان السابق رباني.. وتقول الكاتبة: هؤلاء يملكـــون جيوشهم الخاصة بهم، وسجونهم الخاصة بهم، ويحصلون على ريع كبير من تجارة المخدرات التي وصلت في عام ٢٠٠٣م إلى ٢,٣ مليار دولار. (١)

أمـــا بالنســـبة للعراق فالاستراتيجية الأمريكية أخطأت خطأ جسيماً باحتلالها. فالأكاديمـــيين «جورج لوبير» و«ديفيد كورتريت» يقولان: سياسة العصا والجزرة نجحـــت مع صدام، وكان علينا بالاستمرار عليها، والدليل على ذلك من بعد تحرير الكويت عام ١٩٩١م، فالعقوبات نجحت مع العراق بحيث أجبرتهم على التالي: إنهاء مشـــكلة الحـــدود السياسية مع الكويت، وقلصت من الريع الذي كان يحصل عليه صدام من النفط، وحرمت صدام من بناء جيشه بعد هزيمة حرب الكويت، وحرمت صدام من تطوير أي برامج لأسلحة الدمار الشامل. (٢)

وهنا نلاحظ أن المفـــكرَيْن كانا يركزان على أن بوش كان يســـتطيع أن يحقق ما يريد من احتواء، وما يليه من تغييرات في العراق، من خلال العقوبات الذكية.

---

(١) Foreign Affairs, May,June 2004

(٢) Foreign Affairs , July–August, 2004, P.19

وطبعاً نحن ندعم الرأي أعلاه، لأن كارثة احتلال العراق جعل الدولة في مرحلة هلامـــية.. وهـــناك خطر أن تتحول الدولة العراقية إلى شظايا متناثرة، أي دويلات صغيرة متناحرة، وسيترتب على ذلك انعكاسات سلبية في المنطقة بأكملها!

وطـــبعاً الرئـــيس بوش يتفاخر بأن احتلاله للعراق أدى إلى إذعان الرئيس الليبي لمطالـــب أمريكا، بمعنى أنه باستخدم الدبلوماسية الصلبة مع دولة أو دولتين مارقتين يـــنحل عقد السبحة للدول المارقة الأخريات، أي أن معظم الدول المارقة ستستسلم للشروط دون مطالب!

وهـــنا أيضاً – كما يقول الأكاديميان أعلاه– فإن بوش قد أخطأ.. كان الرئيس معمر القذافي عندما أعلن: (١) إنهاء دعمه للإرهاب الدولي (٢) إنهاء برامجه المخفية لإنـــتاج أســـلحة الدمار الشامل، لم يفعل ذلك بسبب الاحتلال الأمريكي للعراق، ولكن بسبب العقوبات التي فرضت على ليبيا في تسعينيات القرن الماضي.

فعقوبات الأمم المتحدة جعلت ليبيا في التسعينيات تقبل التفاوض، وأقنعت ليبيا عـــلى تسليم المتهمين في قضية لوكيربي إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي، وتقرير أمـــريكا الســـنوي عـــن الإرهاب أثبت أن ليبيا قلصت في عام ١٩٩٦م عملياتها الإرهابـــية، وكذلـــك الـــتفاوض مع ليبيا ساهم في إشراكها في عملية الحرب على الإرهـــاب، وأخيراً كشفت ليبيا عن جميع برامجها لأسلحة الدمار الشامل، وكذلك وافقت على إلغاء البرنامج بشكل كلي(١).

إن أكبر إنجاز تتفاخر به إدارة بوش هو أن استسلام ليبيا إنما كان بسبب احتلال العراق، والمفكران الأمريكيان أعلاه يقولان له: لا وكلا، إن استسلام ليبيا إنما بسبب عقوبات الأمم المتحدة المفروضة عليها في تسعينيات القرن الماضي.

---

(١) Foreign Affairs, July-August, p.102.

وخلاصة ذلك أن سياسة أمريكا الخارجية في الفترة ٢٠٠٠ – ٢٠٠٤م فاشلة بكل المقاييس!! ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل توجد عندنا الإدارات المؤهلة للتعامل مع سياسة أمريكا الخارجية؟! أم أنها كالعادة السياسات التابعة؟!

٣- المسلمون.. هل هم أمة مهزومة؟

هل المسلمون أمة مهزومة؟

نحـــن هـــنا لا نستطيع أن نقول: نعم أو لا، إلا من خلال استطلاعات الرأي، وأفضل استطلاعات للرأي استطعنا الحصول عليها في العالم العربي وتركز على وضع أسـئلة تهـم الشـارع العـربي هي استطلاعات «الجزيرة نت». ففي مجموعة من الاستطلاعات، التي يُعد المشاركون فيها بالآلاف، لاحظنا التالي :

- هل تؤيد الانتفاضة رغم جسامة التضحيات الفلسطينية ؟ أجاب ٨٧% بنعم، علماً بأن معظم الحكومات العربية تحاول احتواء الانتفاضة وتوقيفها،

- هـل الصـمت العـربي، شعبياً ورسمياً، وراء غياب الإدانات الدولية لمجازر إسرائيل في غزة؟ والإجابة ٨٥% بنعم.. يعني ٨٥% من المستطلع رأيهم يقولون إن الإدارات العربية مقصرة في التعامل إيجابياً مع مجازر غزة.

- هـل يخدم الصعـود غير المسـبوق لأسعار النفط المواطن العربي ؟ الإجابة طبعاً ٦٢% لا.

إذاً نسـتطيع أن نستخلص من المذكور أعلاه أن مرحلة الكآبة التي يعاني منها المواطـن العـربي هـي نتيجة من نتائج سلبية الإدارات العربية.. وإذا كانت هذه معنويات المواطن العربي، والعالم العربي هو قلب العالم الإسلامي، فكيف تعتقدون أن هذه الأمة ستتطور دون إصلاحات فعلية لا صورية لإداراتها ؟!

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية :

١- Foreign Policy, September/October 2004, Carnegie endow ment, U.S.A (النسخة العربية).

٢- New Week الأعداد ٧٩، ٨٢، ٨٥، ١١٤، ١٥٦، ٢٢٦ (النسخة العربية)

٣- إدريس، شريف، القانون الدولي الخاص، الخرطوم، لا يوجد ناشر، ١٩٧٩م.

٤- استطلاعات الرأي في الجزيرة نت (لعينات من الشعوب العربية).

٥- آل ثاني، فهد، العالم الإسلامي، دراسة جيواستراتيجية وجيوبوليتيكية، مكتبة دار الثقافة، الدوحة، ٢٠٠٢م.

٦- تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة لعام ٢٠٠٣م.

٧- جريدة الحياة، ١٧/١٠/٢٠٠٤م.

٨- جريدة الخليج الإماراتية، ١٦/١٠/٢٠٠٤م.

٩- جريدة الراية، العدد ٨١٩٧.

١٠- جريدة القدس العربي، العدد ١٢٦٣١.

١١- د. فهد بن عبد الرحمن آل ثاني، الموقع الإلكتروني www.df-althani.com

١٢- رياض، محمد، الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا، بيروت، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

١٣- عبد الخالق، عبد الرحمن، أولويات العمل الإسلامي في الغرب، الكويت، جمعية إحياء التراث الإسلامي، ١٩٩٤م.

١٤- الكـــيالي، عبد الوهاب وآخرون، موسوعة السياسة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، عمان، دار فارس للنشر والتوزيع، ١٩٩٠م.

١٥- المجذوب، محمد، القانون الدولي العام، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٩٠م.

١٦- مجلة الوطن العربي، باريس، العدد ١٣٧٧.

١٧- محمد، مهاتير، خطة جديدة لآسيا، Pelanduk Publications(M) sdn. Bhd, Malaysia.

ثانياً: المراجع الأجنبية :

1- Shokat. M. British Embassy, Doha October 13th 2004, Corres Pondance.
2- Herald Tribune, October 17th. 2004.
3- Foreign Affairs, May / June 2004, Volume 83 – Number 3.
4- Foreign Affairs, July / August 2004, Volume 83 – Number 4.
5- The Daily Star Newspaper, October 16th. 2004.
6- The Daily Star Newspaper, October 9th. 2004.
7- Dr. Fahd.A.AL-Thani, Comment in Doha debates 13th, October 2004, Qatar Foundation.
8- U.S.A, Public Law 107-56 .157th Congress, (U.S.A Patriot Actor 2001).
9- Islam on Line.

المسلمون الأمريكيون
الواقع وإمكانيات النمو

الأستاذ نهاد عوض (*)

التفكير في مستقبل المسلمين في أمريكا يجب أن يسير في وقت واحد على مستويات خمسة أساس، وهي: الفرص المتاحة أمام مسلمي أمريكا؛ والأخطار المحيطة بهم؛ وعناصر القوة التي يمتلكونها؛ وجوانب الضعف التي يعانون منها؛ وكذلك وجود رؤية مستقبلية واسعة غير محبوسة في تفاصيل الواقع، تعمل على ترشيد حركة وتفكير مسلمي أمريكا فيما يتعلق بمستقبلهم على مدى عقود مستقبلية قادمة.

أولاً: مراحل تطور مسلمي أمريكا كجماعة

يعاني حقل الدراسات المتعلقة بشؤون المسلمين في أمريكا، بصفة عامة، من فقر واضح خاصة فيما يتعلق بالدراسات المتعلقة بنشاط المسلمين في الحياة العامة الأمريكية[1]، ويظهر ذلك بوضوح في ندرة الاهتمام الذي تمنحه بعض أهم وأحدث

(*) المدير العام.. لمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير).

(1) Mohamed Nimer. "Muslims in American Public Life." In: Yvonne Yazbeck Haddad (ed.), *Muslims in the West: from Sojourners to Citizens*. (Oxford University Press, 2002), p.169.

الموسوعات الأمريكية – التي تتناول أنشطة جماعات المصالح والحركات الاجتماعية في الولايات المتحدة – لدراسة المنظمات المسلمة الأمريكية وحركة المسلمين في أمريكا، لحمايـــة حقوقهم وحرياتهم في أمريكا، على الرغم من اهتمام هذه الموسوعات بدراسة جماعـــات مصـــالح وحركات اجتماعية وسياسية ظهرت للدفاع عن حقوق ومصالح أقليات أمريكية مختلفة، كاليهود والأفارقة الأمريكيين واللاتينيين وغيرهم[١].

ويكـــاد يقتصـــر اهتمام هذه الموسوعات بشؤون المسلمين في أمريكا على قضيتين أســـاس، همـــا: تطور حركة أمة الإسلام (Nation of Islam) والتي نعتقد أنه لم تهيأ لها الفرصة المناسبة للاطلاع على منظومة المعتقدات الإسلامية الصحيحة[٢]؛ والقضايا المتعلقة بدور الدول الإسلامية فيما يتعلق بالدفاع عن صورة الإسلام في الولايات المتحدة[٣].

حتى الموسوعات الإنجليزية الحديثة عن الإسلام – مثل موسوعة أكسفورد للعالم الإسلامي المعاصر – أغفلت – عند تناولها لقضية الأقليات المسلمة في المجتمعات غير المســـلمة – عـــن دراســـة التحديات الواقعية التي تواجه الأقلية المسلمة في أمريكا، واكتفت بتناول جدل علماء المسلمين التاريخي حول قضية تفسير وجود المسلمين في المجتمعات غير المسلمة وعلاقتهم بالأمة الإسلامية[٤].

ولـــم يحل ذلك دون ظهـــور عدد متزايد من الدراســـات التي تناولت تاريخ وحاضـــر المسلمين في أمريكا كجماعة، والتي نعتمد على جزء كبير منها في إعداد هذه الدراسة.

---

(١) See for example:
David Bradley and Shelley Fisher Fishkin. *The Encyclopedia of Civil Rights in America*, Vol. 2. (Sahrpe Reference, 1998).
Immanuel Ness. *Encyclopedia of Interest Groups and Lobbyists in the United States*. (Sharpe Reference, 2000).

(٢) David Bradley and Shelley Fisher Fishkin. Ibed. Pp. 612-623

(٣) Immanuel Ness, op. cit. p. 589

(٤) John Esposito. *The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World*, Vol. 3. (Oxford University Press, 1995), pp. 112-116

بصفة عامة، يمكن تقسيم مراحل تطور المسلمين في أمريكا، كجماعة، إلى أربع مراحل أساسية، وهي:

١- مرحلة العبودية.

٢- نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

٣- فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

٤- الفترة المعاصرة.

- مرحلة العبودية:

يرى المؤرخون أن تاريخ وجود المسلمين في أمريكا يعود إلى عام ١٤٩٢م، وهو تاريخ اكتشاف الأوربيين للعالم الجديد، بل وقبل ذلك، إذ يتحدث بعض المؤرخين عن أن اكتشاف كريستوفر كولمبس لأمريكا كان بمساعدة بعض بحارته المسلمين، كما يتحدثون عن اتباع بعض قبائل العالم الجديد الأصلية لعادات إسلامية كدليل على وصول المسلمين إلى العالم الجديد قبل كريستوفر كولمبس، ويؤكدون على وجود العديد من المسلمين بين الأفارقة الذي أحضروا إلى أمريكا في موجات تجارة العبيد الشائنة.

وقد حاول بعض المؤرخين تتبع تاريخ المسلمين الأوائل في شمال أمريكا وفي بعض بلدان أمريكا اللاتينية كالبرازيل، كما حاولوا تتبع نسب العبيد المسلمين الذين أحضروا إلى القارة الأمريكية، كما اهتم بعضهم بالخلفيات الحضارية والمتمدنة للأفارقة، الذي استعبدوا ظلماً في العالم الجديد، وذلك من خلال تتبع السير الشخصية القليلة التي تركها بعضهم، ومنهم مسلمون مثل أيوب بن سليمان ديالو،

وهو أمير أفريقي مسلم استعبد ظلماً في عام ١٧٣١م، ومثل أبو بكر صادق وهو من تامبكتو، التي كانت مركزاً للمعرفة الإسلامية في أفريقيا قبل دخول الاستعمار، وقد تم تسجيل ودراسة خبرة هؤلاء المسلمين في دراسات عدة(١).

- مرحلة نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين:

تدفقت موجة من المهاجرين المسلمين والعرب إلى الولايات المتحدة في أوائل القرن العشرين، وركزت الدراسات التي تناولت هذه المرحلة في جزء كبير منها على حياة العرب الأمريكيين (وأكثرهم مسيحيون) الذين هاجروا من بلاد الشام إلى الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولكنها أيضاً أفردت أجزاء منها لحياة المسلمين العرب في الولايات المتحدة(٢).

كما شهدت الفترة نفسها هجرات مسلمة من عدة مناطق أساسية في العالم القديم، مثل هجرة مسلمي جنوب شرق أسيا، التي أتت من بلدان كفيتنام والفلبين وكمبوديا، واستقرت معظمها في غربي أمريكا، وهجرة مسلمي شرق ووسط أوربا والاتحاد السوفيتي والذين استقروا في شرقي الولايات المتحدة(٣).

ويشير سليمان نيانج إلى أن الدارسات التي تمثل هذه المرحلة تشمل بعض الأدبيات التي تتناول جماعات ادعت الإسلام، ولكن معتقداتها تبتعد عن معتقدات الدين الإسلامي الصحيح، وعلى رأس هذه الجماعات حركة الأحمدية، التي

(١) Sulayman S. Nyang. "Islam in the United States of America: A Review of the Sources."Op.cit. pp. 4-7

(٢) Sulayman S. Nyang. "Islam in the United States of America: A Review of the Sources." Op. cit. pp. 7-19

(٣) Sulayman S. Nyang. *Islam in the United State of America*. Op. cit. pp. 60-63

ادعى مؤسسها – في أوائل القرن العشرين – ميرزا غلام أحمد أنه المهدي المنتظر، وجذب حوله بعض الناس، على الرغم من تعرضه لانتقادات عديدة من مسلمي شبه القارة الهندية.

كما ركزت مجموعة أخرى من الدراسات – ضمن هذه المرحلة – على الجماعات الأفريقية الأمريكية، التي حاولت استخدام الإسلام لتبرير أفكارها الانفصالية عن المجتمع الأمريكي وثقافته السائدة التي ميزت ضد الأفارقة، وعلى رأس هذه الجماعات جماعة «أمة الإسلام»، التي ضمت معتقداتها بعضاً من الأفكار الخاطئة عن الإسلام، وقد تحول بعض أعضاء الجماعة فيما بعد إلى الإسلام الصحيح، في بداية الستينيات في القرن العشرين بعد تحول أحد أبرز قادة الحركة وهو «مالكوم إكس» إلى الإسلام.. وفي السبعينيات انفصل «وريث الدين محمد»، وهو نجل إيلاجا محمد (مؤسس حركة أمة الإسلام، الذي توفي في الحقبة ذاتها) عن الحركة وقام بتأسيس جماعة أخرى تحت اسم «المجتمع المسلم الأمريكي (MAS)» التي تبنت عقيدة أهل السنة والجماعة، و لم يؤد هذا إلى تحول جميع أفراد الحركة إلى تيار الإسلام العام، إذ استمرت الحركة بأفكارها الانفصالية تحت قيادة جديدة.. ويرأسها حالياً «لويس فرقان».

– مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية:

وتغطي هذه المرحلة الموجة الأخيرة من الهجرات المسلمة إلى الولايات المتحدة في النصف الثاني من القرن العشرين، والتي قامت بتأسيس العدد الأكبر من المنظمات والمؤسسات والمراكز الإسلامية الموجودة حالياً في الولايات المتحدة، مما ساعد على استقرار مسلمي أمريكا ونموهم.

إذ ســـاعدت قوانين الهجرة الأمريكية الجديدة في بداية الستينيات - إضافة إلى موجـــات الطـــلاب المســـلمين القـــادمين للدراسة بالغرب، وثورة الحقوق المدنية الأمريكية، وتوجه الأقلية الأفريقية الأمريكية نحو الإسلام - في زيادة أعداد المسلمين في أمريكا بشكل ملحوظ منذ أواخر الستينيات.

ويقـــول «ســـليمان نيانج»: إن المجموعة الأخيرة من المهاجرين اهتمت بشكل مـــلحوظ، وبـــتفوق كـــبير عن الموجتين السابقتين من موجات الهجرة المسلمة إلى أمـــريكا، ببناء المؤسسات المسلمة، وبنشر المعرفة الإسلامية بين المسلمين المهاجرين، ســـعياً منها للحفاظ على الهوية والديانة الإسلامية بين المهاجرين، والحيلولة دون أن يذوبوا في المجتمع.. ويقول: إن موجة الهجرة الثالثة جلبت معها موجتين اجتماعيتين داخليتين في المجتمع المسلم، وهما موجة تأسيس (بناء المؤسسات والمراكز الإسلامية) وموجة أسلمة (نشر المعرفة الإسلامية بين أفراد المجتمع المسلم) [١].

ومـــن أهم معالم هذه المرحلة: تأسيس مسلمي أمريكا لمنظمات حاولت تجميع المســـلمين المهاجرين إلى الولايات المتحدة، بعد الحرب العالمية الثانية، في مؤسسات كبرى تعمل بالأساس على حماية هويتهم ونشر المعرفة والنشاطات الإسلامية بينهم، ومن هذه المؤسسات: اتحاد الطلبة المسلمين (MSA) والذي أسس في عام ١٩٦٣م، والاتحـــاد الإسلامي لشمال أمريكا (ISNA) والذي أسس في عام ١٩٨٢م، والحلقة الإسلامية لشمال أمريكا (ICNA) والذي أسس في عام ١٩٧١م.

وتقـــول الباحثة «كارين ليونارد»: إن منظمات المرحلة الثانية تميزت بأنشطتها غـــير السياســـية، وبانقسامها وفقاً لحدود عرقية ودينية معينة، مثل غلبة العرب على

(١) Sulayman S. Nyang. *Islam in the United State of America*. Op. cit. pp. 64-66

الاتحـــاد الإســـلامي لشمال أمريكا، في مقابل غلبة مسلمي شبه القارة الهندية على الحلقـــة الإســـلامية لشمال أمريكا.. كما تتميز هذه المنظمات أيضاً بتعدد أنشطتها الاجتماعـــية الدينـــية، وبأنهـــا تمثل منظمات «مظلة»، تضم تحت عضويتها مراكز ومؤسسات إسلامية صغيرة تابعة لها(١).

- المرحلة المعاصرة:

تطلق الباحثة «كارين ليونارد» على المرحلة الحالية من مراحل تطور المسلمين في أمـــريكا، التي تمتد منذ تسعينيات القرن العشرين حتى الآن، اسم مرحلة «المسلمين الأمريكـــيين»، وتقول الباحثة: إن المرحة الحالية تميزت بظهور عدد من المؤسسات المســـلمة الأمريكـــية التي أسست لتعالج بعض مشاكل المرحلة السابقة لها، مثل قلة التركيز على النشاط السياسي، وضعف المشاركة في فعاليات الحياة العامة الأمريكية، والانقســـام حـــول حـــدود عرقية ودينية، وعدم الانفتاح أمام المسلمين الأمريكيين بمختلف انتماءاتهم العرقية والدينية.

وتضـــم هـــذه الفـــئة أربع منظمات سياسية مسلمة، وهي - مرتبة وفقاً لسنة إنشائها - مجلس الشؤون العامة الإسلامية (MPAC) الذي أسس في عام ١٩٨٨م، والمجلـــس الإســـلامي الأمـــريكي (AMC) الذي أسس في عام ١٩٩٠م، ومجلس العلاقـــات الإســـلامية الأمريكية (CAIR) الذي أسس في عام ١٩٩٤م، والتحالف الإسلامي الأمريكي (AMA) الذي أسس في عام ١٩٩٤م.

---

(١) Ibed, pp.237-238

ثانياً: النمو المؤسسي لمسلمي أمريكا

تقــدم دراســة «المسجد في أمريكا: صورة وطنية» الصادرة عن مجلس العلاقات الإســلامية الأمريكية «كير» في عام ٢٠٠١م أول وأشمل مسح من نوعه لأهم فئة من فــئات المؤسســات المسلمة في أمريكا وأكثرها انتشاراً ألا وهي المساجد، كما تتميز الدراســة بتــناولها لأبعــاد عديــدة مــن حياة المسلمين في أمريكا، مثل أعدادهم، وتوجهاتهم. نحو المجتمع الأمريكي والإسلام، ومستوى نشاطهم الاجتماعي والسياسي والإعلامي[١].

وسوف نحاول تقديم نبذة سريعة عن أهم نتائج الدراسة:

١- تقدر الدراسة عدد المسلمين في أمريكا بحوالي ٧ مليون مسلم.

٢- تقســم الدراســة المسلمين في أمريكا إلى ثلاث مجموعات رئيسة، وهي: الجنوب أسيويون (٣٣ %)، والأفارقة الأمريكيون (٣٠ %)، والعرب، وهم يمثلون ٢٥ % من مسلمي أمريكا.

٣- تدلل الدراسة على النمو السريع للمسلمين في أمريكا خلال النصف الثاني مــن القرن العشرين، إذ تشير إلى أن ٢ % من المساجد في أمريكا تم تأسيسها قبل عــام ١٩٥٠م، بيــنما تم تأسيس نصف المساجد بعد عام ١٩٨٠م، كما أن غالبية المساجد في أمريكا (٨٧ % منها) تم تأسيسها بعد السبعينيات.

وهــذا يشــير إلى الطفرة الكبيرة التي ظهرت في أعداد المساجد والمسلمين في أمريكا في النصف الثاني من القرن العشرين[٢].

(١) Ihsan bagby, Paul M. Perl & Bryan T. Froehle. Op.cit
(٢) Ibed, p22.

٤- أوضحت الدراسة أن أحد أسباب نمو أعداد المسلمين في أمريكا يعود إلى ارتفاع معدلات اعتناق الإسلام بين الأمريكيين، إذا يعتنق الإسلام كل عام حوالي ٢٠ ألف أمريكي، سبعون في المائة منهم من الأفارقة الأمريكيين.

٥- أوضحت الدراسة أن المسلمين في أمريكا يميلون نحو الاندماج الإيجابي في المجتمع الأمريكي، ويرغبون في مزيد من المشاركة في الحياة العامة الأمريكية، إذ وافقت أغلبية ساحقة من المساجد المشاركة في الدراسة (٩٩%) على أن أمريكا تمثل مجتمعاً متقدماً تكنولوجياً يمكن للمسلمين التعلم منه، كما وافقت ٩٦ % من المساجد على أنه ينبغي على المسلمين التوغل في المؤسسات الأمريكية، وأيدت ٨٩ % من المساجد فكرة المشاركة في العملية السياسية الأمريكية.

٦- كما أشارت الدراسة إلى الأدوار الجديدة والمتزايدة التي بدأت المساجد في أمريكا تضطلع بها في حياة المسلمين في الولايات المتحدة، والتي تختلف بعض الشيء عن الأدوار التقليدية التي تضطلع بها المساجد في حياة المسلمين في البلدان الإسلامية خلال الفترة المعاصرة، إذا أشارت الدراسة إلى زيادة الدور الإعلامي والسياسي للمساجد في الولايات المتحدة، إذ تقوم حوالي ٧٠ % من المساجد بأنشطة تتعلق بالاتصال والتعاون مع وسائل الإعلام الأمريكية لتحسين تغطيتها لقضايا الإسلام والمسلمين، وتقوم ٦١ % منها بالاتصال بالسياسيين الأمريكيين، كما استقبلت ٤١ % من المساجد سياسيين أمريكيين خلال عام ٢٠٠٠م.

هذا إضافة إلى نشاط المساجد في القيام بأدوارها الطبيعية في نشر الدعوة الإسلامية (٩٢% من المساجد)، وفي تقديم المساعدات المالية والاجتماعية للأسر المسلمة (٧٤-٨٤ % من المساجد)، وفي بناء ورعاية المدارس الإسلامية (٢١ % من المساجد) [١].

(١) Ibed, p.42, p.39 & p.35

- تصنيف المنظمات المسلمة الأمريكية:

دراسة «دليل المصادر للمسلمين في شمال أمريكا» للدكتور محمد نمر، مدير قسم الأبحاث في «كير»، الصادرة في أواخر عام ٢٠٠٢م، تقدم لأول مرة تصنيفاً جامعاً للمؤسسات والمنظمات المسلمة في أمريكا الشمالية، الأمر الذي يعد خطوة مهمة على سبيل فهم البنية المؤسساتية للمجتمعات المسلمة في أمريكا وكندا، وعلى سبيل الوعي بتاريخ المسلمين في أمريكا وتوجهات تطورهم وتطور مؤسساتهم خلال العقود الأخيرة(١).

إذ تحصي الدراسة ٢٢٨٣ منظمة مسلمة في أمريكا وكندا، تقسمها إلى ٢١ فئة أساسية، وتتناول منها بالشرح والتحليل الدقيق ٨ فئات كبرى وهي المساجد والمراكز الإسلامية، والمدارس المسلمة، ومؤسسات التنمية المجتمعية، والمؤسسات التي تقوم كاتحادات بين أبناء عرقيات بعينها، ومنظمات الخدمة الاجتماعية والأعمال الخيرية، والمؤسسات الإعلامية، ومنظمات الشؤون العامة والسياسية، ومراكز الأبحاث.. ويبحث الكتاب أهم معالم تطور الأنواع السابقة من المؤسسات ضمن الخبرة المسلمة الأمريكية(٢).

ويوضح الجدول التالي ٢١ فئة من فئات المنظمات المسلمة في شمال أمريكا، وأعداد المنظمات المدرجة تحت كل فئة:

---

(١) Mohamed Nimer. *The North American Muslims Resource Guide: Muslim Community Life in the United States and Canada.* (Routledge. 2002)

(٢) Mohamed Nimer. *The North American Muslims Resource Guide: Muslim Community Life in the United States and Canada.* (Routledge. 2002)

نوع المنظمة	عددها	نوع المنظمة	عددها
المساجد	١٢٠٩	دور نشر	٢٤
منظمات عرقية	٢٩٥	منظمات أعمال خيرية وإنسانية	١٩
منظمات طلابية	١٧٨	منظمات للشباب	١٧
المدارس الإسلامية	١٧٢	شركات اتصالات	١٧
منظمات شؤون عامة	٥٥	روابط مهنية	١٥
مواقع إسلامية كبرى على الإنترنت	٥٠	منظمات نسوية	١١
تجمعات دينية خارج إطار المساجد	٤٩	منظمات بحثية	١٠
منظمات للخدمات الاجتماعية	٣٨	منظمات دعوية في السجون	٦
منظمات تنمية مجتمعية	٣٢	جامعات إسلامية	٣
منظمات دعوية	٣٠	أوقاف	٣
مؤسسات إعلامية	٢٦	فئات أخرى غير مصنفة	٢٤
المجموع الكلي للمنظمات:		٢٢٨٣	

وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج مهمة تتعلق بتوجهات تطور الأقلية المسلمة في أمريكا، في مقدمتها ما يأتي(١):

١- أن مسلمي أمريكا ينظمون أنفسهم بالأساس من خلال منظمات دينية وعقائدية، أكثر منه من خلال منظمات عرقية أو على أسس إثنية.

٢- أن مسلمي أمريكا نشطوا نشاطاً ملحوظاً خلال العقد الأخير من القرن العشرين لتنظيم أنفسهم، ومواجهة ما يتعرضون له وما تتعرض له صورتهم من تمييز

(١) Ibed.
Mohamed Nimer. *The North American Muslims Resource Guide: Muslim Community Life in the United States and Canada*. Op.cit. pp.172-177.

وتشـــويه في الدوائر العامة الأمريكية، وقد دفعت أحداث ١١ سبتمبر المسلمين في الاتجاه نفسه.

٣- أن المـــنظمات المســـلمة الأمريكية المختلفة تسعى في اتجاه توطين أنفسها والمسلمين في أمريكا، وذلك من خلال البحث عن قيادات تقودها تكون على دراية واسعة بالبيئة الأمريكية.

٤- أن المسلمين في أمريكا ومنظماتهم منخرطون في علاقة اعتماد متبادل واسعة الـــنطاق بينهم وبين المجتمعات المسلمة خارج أمريكا من ناحية، وبينهم وبين المجتمع الأمـــريكي مـــن ناحـــية أخرى، ويعني ذلك أن المسلمين في أمريكا يحصلون على المســـاعدات والموارد بأنواعها المختلفة (من أموال، ومعرفة إسلامية، ومعرفة بالواقع الأمـــريكي، وخـــبرات في إدارة المؤسسات الأمريكية) من الأمة الإسلامية والمجتمع الأمريكي في آن واحد.

٥- أن كـــثيراً مـــن المسلمين المهاجرين إلى الولايات المتحدة تأثروا بالحركات الإسلامية في العالم الإسلامي وبخبرة هذه الحركات في التعامل مع النظم السياسية في العـــالم الإســـلامي، والتي تتميز في مجملها بالمعاناة من النظم المنغلقة سياسياً وغياب الديمقراطية، وفي المقابل هناك توجه متزايد داخل المنظمات المسلمة الأمريكية يسعى للانفـــتاح عـــلى الخـــبرة السياسية الأمريكية التي تتميز بالانفتاح والتعددية وبثقافة سياســـية معيـــنة، الأمر الذي حد من دور الحركات الإسلامية في حياة المسلمين في أمريكا وجعلها تقتصر على الجوانب التعليمية والاجتماعية في بعض الأحيان.

٦- أن المســـلمين في أمـــريكا يـــتوجهون نحو الاندماج في المجتمع الأمريكي ونحو الانفتاح على خبرته التعددية، ويدعم هذا الاتجاه على مستوى المنظمات المسلمة الأمريكية بعـــدة ظواهـــر مثل ميل المنظمات المسلمة للتخصص، وميلها للانفتاح على الحياة العامة الأمريكية، وسعي المنظمات إلى الاستعانة بالخبراء المتخصصين في إدارة أعمالها.

ثالثاً: تبعات أحداث سبتمبر ٢٠٠١م

أشار تقرير أعده مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية «كير» في الذكرى السنوية الثانية لأحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى أن مسلمي أمريكا خلال العامين التاليين لأحداث سبتمبر ٢٠٠١م واجهوا عدد فريداً من الفرص والتحديات التي شكلتها أزمة سبتمبر ٢٠٠١م.

- فرص أوجدتها الأزمة:

أشار التقرير إلى أن أزمة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م أوجدت العديد من النتائج والفرص الإيجابية على صعيد تفاعل المسلمين مع محيطهم الأمريكي، ومن أهم هذه النتائج ما يلي:

١- الأزمة زادت من شعور مسلمي أمريكا بأهمية التنظيم السياسي والقانوني بشكل عام، بعد أن فرضت على نسبة كبيرة منهم الاحتكاك الشخصي والمباشر مع سلطات تنفيذ القانون والأجهزة الأمنية والمؤسسات السياسية، بسبب سياسات مختلفة اتخذتها الإدارة الأمريكية بعد أحداث سبتمبر، مثل سياسات تسجيل المهاجرين، والتحقيق مع آلاف المسلمين من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالية (FBI).

وقد دفعت هذه السياسات غالبية التجمعات المسلمة الأمريكية - وإن لم يكن جميعها - إلى توثيق علاقاتها بجماعات الحقوق المدنية المحلية والوطنية وبسلطات تنفيذ القانون، سعياً منها إلى حماية أعضائها وإلى توعيتهم قانونياً.

٢- دفعت الأزمة العديد من مسلمي أمريكا إلى العمل على مساعدة منظماتهم السياسية والحقوقية، فعلى سبيل المثال شهدت أنشطة بعض المنظمات المسلمة

الأمريكية مثل «كير» توسعاً كبيراً في نشاطاتها منذ أحداث سبتمبر، فقد تضاعفت أعـــداد مكاتـــب «كـــير» الفرعية منذ عام ٢٠٠١م لتصل إلى حوالي ٢٦ فرعاً في منتصف عام ٢٠٠٤م، كما شهدت «كير» إقبالاً واسعاً على مؤتمراتها وفعالياتها من قبل مسلمي أمريكا، وتوسعت في جهودها، وبدأت في تبني مشاريع كبرى لتوضيح صـــورة الإسلام والمسلمين في أمريكا، مثل إهداء الكتب التي تشرح الإسلام بصورة موضـــوعية إلى آلاف المكتـــبات العامة، ونشر إعلانات بالجرائد الأمريكية الكبرى لشـــرح حقـــيقة الإسلام والمسلمين، وهي مشاريع كبرى شجعتها ظروف ما بعد أحداث سبتمبر الصعبة.

٣- دفعـــت الأزمة بمزيد من المنظمات المعنية بشؤون المسلمين الأمريكيين إلى تطويـــر برامج وأقسام سياسية وإعلامية خاصة بها، ومن أبرز هذه المنظمات الجمعية الإســـلامية الأمريكية (MAS) التي أسست مركزاً جديداً خاصاً بها يسمى «مؤسسة الحـــرية»، للعمـــل على القضايا السياسية والإعلامية وقضايا الحقوق المدنية.. ولقد اضطلعت «مؤسسة الحرية» بدور مهم في تنظيم معارضة المسلمين في أمريكا للحرب ضد العراق بالمشـــاركة مع جماعات المعارضة الليبرالية في الولايات المتحدة.

كمـــا شـــجعت الأزمة المسلمين الأمريكيين على السعي إلى تأسيس عدد من المـــنظمات المسلمة الجديدة المعنية بالدفاع عن الحقوق المدنية، وبالعمل مع الإعلام الأمريكي، وتشجيع نشاط المسلمين في أمريكا على الصعيد السياسي، ومازال عدد كـــبير من هذه المنظمات صغيراً أو في طور التكوين، ولكن قد تم تأسيسها بالفعل، وقد يكون لبعضها شأن في الأوساط المسلمة الأمريكية في المستقبل.

٤- نشطت المنظمات المسلمة الأمريكية منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١م في العمل مع عدد متزايد من المنظمات المدنية الأمريكية، التي اهتمت بالدفاع عن قضايا مسلمي أمريكا، في ظل الضغوط الكبيرة التي تعرضوا لها بعد أحداث سبتمبر، ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى أربعة تحالفات أساسية دخلها مسلمو أمريكا بقوة خلال العامين الماضيين:

التحالف الأول: قرب بين مسلمي أمريكا وعدد من أكبر جماعات الحقوق والحريات المدنية - مثل اتحاد الحريات المدنية، واتحاد المحامين الوطني، واتحاد محامي الهجرة الأمريكيين - والتي انتقدت ما تعرضت له حقوق وحريات مسلمي وعرب أمريكا خلال العامين الماضيين.

التحالف الثاني: قرب بين مسلمي أمريكا وعدد كبير من جماعات السلام ومناهضة الحروب الأمريكية، خاصة خلال فترة الحرب على العراق.

التحالف الثالث: قرب بين مسلمي أمريكا والجماعات المدافعة عن حقوق الأقليات في أمريكا - كالأفارقة، واليابانيين، والسيخ الأمريكيين - التي توحدت شعورياً مع مسلمي وعرب أمريكا خلال الفترة التالية لأحداث سبتمبر، رافضين ما تعرضت له حقوق وحريات المسلمين والعرب من انتهاكات ذكرتهم بمعاناتهم خلال فترات تاريخية أخرى، كمعاناة اليابانيين الأمريكيين حين وضعوا في معسكرات اعتقال جماعية خلال الحرب العالمية الثانية.

وقد اهتمت بعض الصحف الأمريكية مثل جريدة «سان فرانسيسكو كرونيكال» التي تصدر في ولاية كاليفورنيا، بإبراز هذه الظاهرة، إذ تحدثت الصحيفة في مقال نشرته في السابع من أغسطس ٢٠٠٣م عن «الصداقة» المتنامية

بـين المسلمين الأمريكيين وبين الأمريكيين ذوي الأصول اليابانية والأصول الجنوب أسـيوية.. وقالت الصحيفة: إن حيرة مسلمي أمريكا بعد هجمات سبتمبر ذكرت هذه الأقليات بمعاناتها خلال فترات حروب تاريخية سابقة.

المتحالف الرابع: قرب بين مسـلمي وعرب أمريكا وبعض الجماعات الدينية - مـثل مجلـس الكنائس الوطني، والعديد من الجماعات المعنية بالتقريب بين أبناء الأديان المختلفة - والتي نشطت في التواصل مع مسلمي وعرب أمريكا وفتح قنوات للحوار معهم.

٥- دفعـت الأزمـة مسـلمي أمـريكا إلى البحث عن سبل جديدة وفعالة لاسـتخدامها في الدفاع عن حقوقهم وحرياتهم في أمريكا، وعلى رأس هذه السبل الجديـدة الـلجوء للقضـاء الأمريكي كأداة للدفاع عن حقوق وحريات المسلمين والعرب وصورتهم في أمريكا.

وقـد لجأ مسلمو أمريكا للقضاء الأمريكي خلال الفترة التالية (الأعوام الثلاثة السابقة) لسببين أساس، أولهما الدفاع عن حقوقهم، كجماعة، مثلما كان في حالة القضـية الـتي رفعـتها مجموعة من المنظمات المسلمة والعربية كمجلس العلاقات الإسـلامية الأمريكـية «كـير» واللجنة العربية لمكافحة التمييز، بالتعاون مع اتحاد الحـريات المدنـية الأمـريكي، ضد وزارة العدل الأمريكية في شهر يوليو الماضي للتشـكيك في دستورية بعض بنود قانون مكافحة الإرهاب لعام ٢٠٠١م والمعروف باسـم «بتريوت آكت» والتي تمنح مكتب التحقيقات الفيدرالية سلطات مهولة في التجسس على الأفراد في الولايات المتحدة.

كما لجأوا للقضاء للدفاع عن حقوقهم كأفراد، كحالة العديد من القضايا التي رفعها موظفون وعمال مسلمون وعرب، بالتعاون مع لجنة تكافؤ فرص العمل الأمريكية - المعنية بمكافحة التمييز في أماكن العمل - ضد أصحاب أعمالهم، بسبب التمييز ضدهم لأسباب ترجع لخلفيتهم العرقية والدينية بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م.

أما السبب الثاني فهو الدفاع عن صورتهم وصورة الإسلام والعرب في أمريكا كجماعة، كما حدث في حالة القضية التي رفعتها مؤسستان خيريتان مسلمتان أمريكيتان، وهما «هيرتيج إيديوكيشين ترست» و«صفا ترست»، ضد شبكة التلفزيون الأمريكية «سي بي إس (CBS)» وضد مديرة مركز أبحاث أمريكي يسمى «سيت (SITE)» تدعي الخبرة في شؤون الإرهاب، في شهر يونيو الماضي، بسبب برنامج مسيئ أذاعته القناة التلفزيونية واسعة الانتشار في الرابع من مايو ٢٠٠٣م، وشاركت فيه مديرة مركز «سيت» واتهمت خلاله المؤسستين الخيريتين بالضلوع في شبكة لدعم «الإرهاب».

كما لجأوا للقضاء للدفاع عن سمعتهم كأفراد كحالة قيام الناشط المسلم الأمريكي «حسام أيلوش» المدير التنفيذي لمكتب «كير» في جنوب ولاية كاليفورنيا في شهر أغسطس ٢٠٠٣م بمقاضاة مجلة «ناشيونال ريفيو» المعروفة بمساندتها لتوجهات المحافظين الجدد، وضد «شون ستيل» الرئيس السابق للحزب الجمهوري في ولاية كاليفورنيا، بسبب مقالة نشرها «ستيل» في المجلة اليمينية، يتهم فيها «أيلوش» بمعاداة السامية، بناء على معلومات خاطئة، وقد حاول «أيلوش» الاتصال بالمجلة ومطالبتها بتكذيب الخبر دون جدوى، الأمر الذي دفعه إلى اللجوء للقضاء.

رفـــع القضـــايا السابقة – والعديد من القضايا الأخرى المشابهة لها، التي رفعها مســـلمو أمريكا خلال العامين السابقين – يعبر عن توجه عام وجديد في الأوساط المسلمة والعربية الأمريكية لاستخدام القضاء، على الرغم من تكلفته المادية العالية، في الدفاع عن حقوقهم، نظراً لطبيعة قرارات المحاكم كقرارات ملزمة يمكن قياس مدى الالـــتزام بها، خاصة في حالة فرض تعويضات على الطرف المسيئ وإلزامه بدفع تلك التعويضات للطرف المسلم أو العربي.

كما أن نجاح مسلمي أمريكا في استصدار أحكام قضائية في بعض قضايا التمييز ضـــدهم أو تشـــويه سمعتهم، سوف يبني سوابق قانونية تمكنهم من تحقيق نجاحات مســـتقبلية في قضايا مشابهة، وتمكنهم أيضاً من ردع المسيئين لهم في قضايا أخرى، كان من الصعب ردعهم عنها باستخدام الوسائل الإعلامية والسياسية فقط، كتنظيم الحمـــلات الجماهيرية للاعتراض عليهم ومطالبتهم بالاعتذار وتغيير سلوكهم، وإن كان هذا بالطبع لا يقلل من أهمية الوسائل الأخيرة في حماية حقوق المسلمين والعرب وصورهم في قضايا أخرى عديدة.

وكـــلما زادت أهمية القضية، وزادت ضخامة التعويضات الرادعة المطالب بها، ارتفعت أهميتها وتكلفتها أيضاً. فقضايا تشويه السمعة تتميز بتكلفتها الباهظة، لأنك لـــن تـــردع المسيئين إلا إذا طالبتهم بتعويضات كبيرة.. وكلما زادت التعويضات المطالب بها، زادت كلفة توثيق القضية وإثبات أحقية المدعي بهذه التعويضات.

وقـــد استغل كثير من المسيئين للإسلام وللمسلمين وللعرب الحقيقة السابقة من خـــلال تماديهم في الإساءة للإسلام والمسلمين بشكل متكرر، معتمدين على صعوبة وتكلفـــة الخـــوض في قضايا تشويه السمعة والتمييز. ولكن من الواضح أن مسلمي وعرب أمريكا باتوا مصرين على تحمل تكاليف القضاء الباهظة، كملجأ اضطروا إليه للدفاع عن أنفسهم وعن صورة دينهم وعرقهم.

- التحديات والفرص الداخلية:

لعل في مقدمة التحديات التي تواجه مسلمي أمريكا على المستوى الداخلي:

١- ضعف مواردهم، وقلة المنظمات القائمة على رعاية شؤونهم، إذ تقوم حوالي ٢٣٠٠ هيئة مسلمة - غالبيتها مساجد ومؤسسات دينية وطلابية - على رعاية احتياجات حوالي ٧ ملايين مسلم، وفقاً لدراسة أصدرها مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية «كير» في عام ٢٠٠٢م عن المؤسسات المسلمة الأمريكية وتصنيفاتها، بمعنى أن كل هيئة تقوم على خدمة ٣ آلاف فرد في المتوسط.. وإذا علمنا أن هذه المؤسسات تنتمي إلى فئات عديدة مثل المساجد والمدارس الإسلامية والمنظمات الإعلامية والسياسية وغير ذلك من المنظمات التي تحتاجها حياة أي جماعة، وأن بعض هذه الهيئات هيئات صغيرة جداً، وفي طور التكوين، لوجدنا أن كل فئة من المؤسسات المسلمة الأمريكية تقوم على رعاية احتياجات أعداد كبيرة جداً من المسلمين الأمريكيين، تفوق طاقاتها الاستيعابية في معظم الأحيان.. فعلى سبيل المثال يقتصر عدد المؤسسات العاملة في مجال الشؤون العامة مثل الدفاع عن الحقوق المدنية وتشجيع المشاركة المدنية، على ٥٥ منظمة فقط (غالبيتها منظمات صغيرة ومحلية، محدودة الإمكانيات والموظفين)، وهو ما يعني أن كل منظمة تخدم حاجات حوالي ١٣٠ ألف مسلم بالولايات المتحدة.

كما تعاني ميزانيات غالبية هذه المؤسسات من الفقر الشديد، إذا قارناها بميزانيات المؤسسات الأمريكية المشابهة لها، فعلى سبيل المثال تقل ميزانيات ٧٦ % من المساجد في أمريكا عن ١٠٠ ألف دولار سنوياً، كما تقل ميزانيات ٥٤ % منها عن أربعين ألف دولار سنوياً، ولا تتعدى ميزانية أكبر منظمات الشؤون العامة المسلمة خمسة ملايين دولار سنوياً، وذلك وفقاً لدراسة المساجد في أمريكا التي أصدرتها «كير» في عام ٢٠٠١م.

إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الشعب الأمريكي أنفق في عام ٢٠٠٢م حوالي ٢٤١ بليون دولار على العمل الخـيري، ذهب ٨٤ بليون دولار منها للمؤسسات الدينية، و٣١ بلـيون دولار منها للمؤسسات التعليمية، و١١ بليون دولار منها للمؤسسات المعنـية بالشؤون العامة، لوجدنا أن موارد المنظمات المسلمة الأمريكية ضعيفة جداً، بالمقارنة.

٢- تـتركز معظـم جهود المسلمين في أمريكا في مجال العمل الديني، بمفهومه التقلـيدي، إذ تـبلغ نسبة المساجد والمؤسسات المعنية بالشؤون الدينية ٥٩ % من إجمـالي المـنظمات المسـلمة الأمريكية، وهي أكبر نسبة على الإطلاق من الهيئات المسـلمة، تلـيها المنظمات العرقية بنسبة ١٢ %، ثم الاتحادات الطلابية والمدارس الإسلامية بنسبة ٨ % لكلٍ منهما تقريباً، أما المؤسـسات المعنية بالشـؤون العامة - وغالبيتها منظمات صغيرة ومحلية - فتقتصر نسبتها على ٢,٤ % فقط من إجمالي المؤسسات المسلمة الأمريكية، مما يعد مؤشراً خطيراً على قلة عدد المؤسسات القائمة على رعاية حقوق المسلمين وصورتهم في المحيط الأمريكي الكبير.

نـدرة المـوارد المخصصة للعمل في مجالات الشؤون العامة والسياسية، يرتبط بطبـيعة المسـلمين في أمريكا كجماعة مازالت تعيش طور التكوين، ركزت معظم مواردهـا عـلى بناء المؤسسات القائمة على حماية هويتها الدينية والثقافية، في بداية فـترة نموها واستقرارها في أمريكا، ولـم تبدأ في عملية بناء مؤسساتـها السياسية إلا مؤخـراً، كما يرتبط أيضاً بضعف ثقافة المشاركة السياسية لدى نسبة كبيرة من المسـلمين الأمريكـيين، بسبب خبرات بعض المسلمين المهاجرين السلبية في بلدانهم الأصـلية وشـعور المسلمين الأفارقة الأمريكيين، بشكل عام، بعدم الثقة في النظام السياسي الأمريكي، وهما معاً يشكلان غالبية مسلمي أمريكا.

٣- التأخر في بناء المؤسسات المسلمة المعنية بالشؤون العامة والسياسية ارتبط بالتأخر في انتشار ثقافة مسلمة أمريكية تشجع مسلمي أمريكا على الانفتاح على الحياة العامة الأمريكية، والمشاركة في مؤسسات المجتمع المدني الأمريكي المختلفة.. وقد انعكس ذلك على ضعف مستويات المشاركة السياسية في أوساط المسلمين الأمريكيين، وبالتالي افتقارهم لخبرة المشاركة والكوادر المدربة.

ولكن كان من الواضح أن توجهات المسلمين الأمريكيين نحو المشاركة في الحياة العامة والسياسية الأمريكية تصاعدت بشكل مستمر، خاصة خلال عقد التسعينيات، الذي شهد تأسيس مجموعة من أنشط منظمات مسلمي أمريكا السياسية والإعلامية حالياً، وقد أوضحت دراسة أجرتها «كير» في عام ٢٠٠٠م لتوجهات قادة المساجد في أمريكا أن ٩٦% منهم يؤيدون مشاركة المسلمين في مؤسسات المجتمع الأمريكي المختلفة، كما أيد ٨٩% منهم المشاركة في العملية السياسية، وأيد ٧٧ % منهم فكرة أن الولايات المتحدة تقدم نموذجاً من الحرية والديمقراطية يمكن أن يتعلم منه المسلمون.

وقد انتهي عقد التسعينيات بخاتمة إيجابية لمسلمي أمريكا، تمثلت في نجاحهم في تنشيط أعداد كبيرة منهم في أول حملة لوبي منظمة ضغطوا فيها على الكونجرس الأمريكي للمطالبة بإبطال بعض القوانين التي طبقت بشكل تمييزي ضدهم، كما نجحوا أيضاً في بناء أول كتلة انتخابية موحدة لهم في انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام ٢٠٠٠م. ولكن ذلك لم يعن أن مسلمي أمريكا دخلوا القرن الحادي والعشرين بعد أن تغلبوا على جميع مشاكلهم الداخلية، فالحقيقة أن ما فعلوه هو السير بضع خطوات ناجحة في الاتجاه الصحيح للتأثير في الحياة العامة الأمريكية.

- التحديات والفرص الخارجية:

خبرة مسـلمي أمريكا خلال العقد الأخير من القرن العشرين تميزت بتركيزهم - أكـثر مـن أي مـرحلة أخرى من مراحل وجودهم في أمريكا - على مواجهة الضغوط الخارجية التي تعرضوا لها من قبل المجتمع الأمريكي، منذ استقرارهم المتزايد في الولايـات المـتحدة مـنذ الستينيات من القرن العشرين، وذلك بعد أن ركزوا جهودهـم خـلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي على بناء المؤسسات القادرة على الحفاظ على هويتهم الدينية والثقافية، مثل المساجد والمدارس الإسلامية والمؤسسات الراعية لها.

ويمكن تقسيم الضغوط الخارجية، التي تعرض لها مسلمو أمريكا إلى أنواع أربعة رئيسية:

١- الانتهاكات التي تعرضت لها حقوق وحريات المسلمين في أمريكا، سواء من قبل مؤسسات المجتمع الأمريكي المختلف، كالشركات والمدارس، أو بسبب القوانين والسياسات الحكومية.

٢- مواجهـة ما تتعرض لها صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الأمريكي من تشويه متزايد.

٣- تشـجيع المسـلمين على المشاركة في العملية السياسية الأمريكية، لحماية وجودهم وإنجازاتهم على المستويات الحياتية الأخرى.

٤- الضغوط الاجتماعية والثقافية، التي يتعرض لها المسلمون الأمريكيون كأقلية تعيش في محيط عام كبير غير مسلم.

وكان من الواضح أن التحديات الثلاثة السابقة ظهرت لأسباب عديدة، من أهمها:

أ- جهـــل غالبية الأمريكيين بحقيقة الإسلام والمسلمين، وتأثرهم بتزايد السمعة السلبية المنتشرة عن الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الأمريكية.

ب- وجود أقليات أمريكية نشطة ومنظمة سياسياً تعمل بشكل مستمر على تقويض صـــورة الإسلام والمسلمين وحقوقهم ووجودهم في الولايات المتحدة، وعلى رأس هذه الجماعات قوى اللوبي الموالي لإسرائيل وقوى اليمين الأمريكي الأصولي المتشدد.

جـ - رصيد الصراعات المتزايدة بين بعض بلدان العالم الإســـلامي والولايات المتحدة، وتزايد مشاعر العداء لدى كل من الطرفين تجاه الآخر، وقلة حيلة المسلمين في أمـــريكا وخارجها في توضيح صورهم وشرح قضاياهم للرأي العام والمسؤولين الأمريكيين على حد سواء.

وقـــد اســـتجاب المســـلمون الأمريكيون لهذه التحديات ببناء عدد متزايد من المنظمات المسلمة الأمريكية المعنية بالدفاع عن حقوق المسلمين، وصورهم، وتشجيع مشاركتهم في الحياة السياسية الأمريكية.

تفاقم التحديات:

لقد أدت أزمة سبتمبر ٢٠٠١م، إلى تفاقم التحديات الخارجية لمسلمي أمريكا، خلال العامين السابقين، وذلك للأسباب الآتية:

الســـبب الأول: الأزمة أدت إلى **زيادة الضغوط التي يتعرض لها المسلمون في أمريكا**، لكونهم مسلمين على المستويات الثلاثة التالية:

١- **عـــلى مســـتوى الحقـــوق المدنية**، تعرض حوالي ألفي مسلم للمضايقات والتميـــيز خـــلال الشهور القليلة التالية لأحداث سبتمبر، بسبب موجة الغضب التي شـــعر بها الشعب الأمريكي تجاه مسلمي أمريكا، كرد فعل لهوية مرتكبي تفجيرات

سبتمبر؛ كما اضطر ٦٠-٨٥ ألف من المهاجرين المسلمين إلى تسجيل أنفسهم لدى دوائر الهجرة أو للقاء مع مسؤولي مكتب التحقيقات الفيدرالي، بسبب الاحتياطات الأمنية التي اتخذها الحكومة الأمريكية بعد الأحداث ضد المهاجرين والأمريكيين من ذوي الأصول المسلمة والعربية.

وكشف تقرير أصدرته «كير» في الثالث من مايو ٢٠٠٤م، عن أوضاع حقوق المسلمين المدنية خلال عام ٢٠٠٣م، عن ارتفاع حالات التمييز ضد مسلمي أمريكا بنسبة ٧٠ % في عام ٢٠٠٣م مقارنة بعام ٢٠٠٢م، وبنسبة ٢٧٨ % مقارنة بالعام السابق لأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

ورصدت «كير» في تقريرها ارتفاعاً قدره ١٢١ % في عدد جرائم الكراهية، التي تعرض لها مسلمو أمريكا في عام ٢٠٠٣م مقارنة بعام ٢٠٠٢م، وقد قادت هذه الجرائم إلى تخريب بعض ممتلكات المسلمين ومؤسساتهم وقتل عدد من الأفراد.. فعلى سبيل المثال أدين قناص بولاية نيويورك في سلسلة جرائم راح ضحيتها أربعة أفراد خلال الفترة من ٨ فبراير ٢٠٠٣م إلى ٢٠ مارس ٢٠٠٣م، وذكر الجاني أنه قام بجرائمه لقتل العرب انتقاماً لأحداث سبتمبر، في حين راح ضحية جرائمه الأربعة عربياً وهندياً وأوكرانياً ومواطناً من بلد أفريقي.

كما رصد التقرير زيادة مضطردة في عدد حالات التمييز التي تعرض لها مسلمو أمريكا من قبل المؤسسات الحكومية الأمريكية والتي وصلت نسبتها في تقرير عام ٢٠٠٣م إلى ٣٣ % من إجمالي حالات التمييز المرصودة، وذلك مقارنة بنسبة ٢٣% فقط في عام ٢٠٠٢م، وبذلك تحتل «الهيئات الحكومية» المرتبة الأولى بين مصادر التمييز ضد مسلمي أمريكا خلال عام ٢٠٠٣م.

في حين تراجعت أماكن العمل إلى المركز الثاني بين مصادر التمييز ضد مسلمي أمريكا في عام ٢٠٠٣م وذلك بنسبة ٢٣ % من إجمالي حوادث التمييز، وقد احتلت «أماكن العمل» الفئة الأولى بين مصادر التمييز ضد المسلمين في أمريكا خلال السنوات الماضية.

في الوقت ذاته تراجعت نسب حوادث التمييز ضد المسافرين المسلمين في المطارات الأمريكية، وتراجعت حالات القبض غير المبرر على المسلمين.

وأرجع التقرير أسباب الزيادة الملحوظة في حوادث التمييز، التي تعرض لها مسلمو أمريكا إلى أسباب خمسة رئيسة، هي:

أ- بيئة الخوف والقلق السائدة منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

ب- الحرب على العراق وما صاحبها من تصعيد لخطاب مساندة الحرب.

جـ- الزيادة الملحوظة في خطاب عداء الإسلام والمسلمين، والذي سعى دوماً لتصوير المسلمين الأمريكيين على أنهم أتباع لدين باطل، وأعداء لأمريكا.

د- قانون مكافحة الإرهاب المعروف باسم «باتريوت آكت» الذي أدت بعض تطبيقاته الانتقائية لتبعات سلبية خطيرة على حقوق وحريات مسلمي أمريكا.

هـ- زيادة نشاط مسلمي أمريكا في الإبلاغ عما يتعرضون له من تمييز، مما ساعد «كير» على توثيق عدد أكبر من حالات التمييز ضد المسلمين في أمريكا خلال عام ٢٠٠٣م.

٢- **على مستوى الإعلام الأمريكي**، زادت معدلات التشويه التي تتعرض لها صورة الإسلام والمسلمين بشكل غير مسبوق.. وقد أشار استطلاع

لـــتوجهات الـــرأي العام الأمريكي تجاه الإســـلام والمســـلمين نشره مركز «بيو» الأمـــريكي للأبحـــاث في شـــهر يوليو الماضي، إلى تدهور صـــورة الإســـلام في أعين الأمريكيين مقارنة بصـــورة الأديان الأخرى، إذ توصـــل الاســـتطلاع إلى أن ٤٤% مـــن الأمريكـــيين يعتقدون أن الإســـلام يشـــجع العنف أكثر من الأديان الأخرى، وذلك مقارنة بنسبة ٢٢% فقط منهم في شهر مارس من عام ٢٠٠٢م.. كما زادت نســـبة الأمريكـــيين الذين يعـــتقدون أن المســـلمين يعـــادون أمريكا، إذ وصلت إلى ٤٩ % مقارنة بنســـبة ٣٦% في مارس عام ٢٠٠٢م.. وفي الوقت نفسه قلت نسبة الأمريكـــيين الذين ينظرون نظرة إيجابية تجاه مســـلمي أمريكا إلى ٢٢% فقـــط مقـــارنة بنسبة ٢٧ % في عام ٢٠٠٢م، ونســـبة ٣١% في خريف عام ٢٠٠١م.

كمـــا انتشر خطاب العداء للإسلام والمسلمين بشكل غير مسبوق، خاصة من قـــبل بعض القيادات اليمينية الأمريكية المتشددة، التي تجرأت على الإساءة للإسلام والمســـلمين بشـــكل غير مسبوق، كما تعرض بعض القيادات السياسية - المعروفة بتوجهاتها اليمينية - للإسلام بإساءات بشكل مؤسف.

فعـــلى سبيل المثال، طالبت بعض المنظمات المســـلمة والعربية الأمريكية وزير العـــدل الأمـــريكي «جون أشكروفت» في فبراير عام ٢٠٠٢م بتوضيح موقفه من عبارات مســـيئة للإســـلام نســـبت إليه على صفـــحات أحد المواقع الإلكترونية، إذ نشـــر الصـــحفي «كـــال تومـــاس» مقـــابلة مع وزير العـــدل الأمريكي على صفـــحات موقـــع يسمى (crosswalk.com) نســـب فيها إلى «جون أشكروفت» القـــــول بأن: «الإســـلام هو دين يطـــالبك فيه الرب أن ترســـل ولدك ليموت

من أجله (الرب). والمسيحية هي عقيدة يرسل فيها الرب ولده ليموت من أجلك».

وفي أكتوبر ٢٠٠٢م اتهم رجل الدين المسيحي الأمريكي المعروف «جيري فالويل» في حوار أجراه معه برنامج «سيكستي منتس» أو ستون دقيقة (Sixty Minutes) الأمريكي المعروف – أذيع في ٦ أكتوبر ٢٠٠٢م – الرسول الكريم محمد ﷺ بأنه «إرهابي».

٣- **على المستوى السياسي**، أقرت الحكومة الأمريكية العديد من القوانين والسياسات التي رأى مسلمو أمريكا أنها تستهدفهم، بما في ذلك سياسات تسجيل آلاف المهاجرين المسلمين والعرب، واعتقال المئات منهم على ذمة التحقيقات بدون توفير أدلة تدينهم، والتوسع في التجسس عليهم ومراقبتهم.

فقد أشارت جماعات الحقوق والحريات المدنية الأمريكية إلى أن بعض نصوص قانون «مكافحة الإرهاب» الذي أقر بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، والمعروف باسم «باتريوت آكت»، سمحت للسلطات الأمريكية بالتوسع في عمليات التفتيش والمراقبة بشكل غير مسبوق، وبدون توافر أدلة على ضلوع الأشخاص المراقبين في أنشطة خاطئة.

كما رصد تقرير «كير» عن الحقوق المدنية لمسلمي أمريكا في عام ٢٠٠٢م، بعض السياسات الحكومية التي ألحقت أضراراً بالغة بحقوق وحريات مسلمي أمريكا منذ أحداث سبتمبر، من ذلك:

- اعتقال السلطات الأمريكية ٧٣٨ مسلماً وعربياً، في الفترة من أحداث سبتمبر وحتى أغسطس ٢٠٠٢م.. وذكر تقرير أعده المفتش العام بوزارة العدل الأمريكية أن المعتقلين أُخضعوا لمعاملة مسيئة وتمييزية، مثل إعاقة عملية اتصالهم

بمحـــامين يدافعـــون عـــنهم، أو الاتصال بأسرهم، واعتقالهم بناء على أدلة سرية، والاعتداء عليهم لفظياً وجسدياً.

– قيام وزارة العدل بعقد مقابلات استجوابية مع حوالي ٨٠٠٠ مسلم وعربي.

– إغـــلاق ثـــلاث من أكبر مؤسسات الإغاثة الإسلامية الأمريكية، وهي الآن تخوض معارك قضائية ضد الحكومة الأمريكية.

– حمـــلات تفتـــيش ومداهمة أعمال ومنازل بعض المسلمين والعرب النشطين سياسياً.

– إخضـــاع حـــوالي ٥٠ ألف إلى ٧٠ ألف مهاجر مسلم وعربي إلى عمليات تسجيل إجبارية لدى إدارة الهجرة الأمريكية.

– مطالـــبة مكتـــب التحقيقات الفيدرالية بعض المساجد بالإطلاع على قوائم عضويتها.

– إخضـــاع ١١ ألف مهاجر عراقي إلى عمليات استجواب، منذ بداية الحرب على العراق.

كمـــا نشـــطت مجموعة صاحبة نفوذ من الكتاب السياسيين، ذوي التوجهات اليمينـــية المتشددة، من أمثال «دانيل بيبس» و«تشارلز كروثهمر» و«فرانك جافني» في التشكيك في ولاء المسلمين الأمريكيين ومنظماتهم وقياداتهم تجاه الولايات المتحدة، وتصـــوير أية انتقادات قد يوجهونها نحو سياسة الحكومة الأمريكية على أنها تعبير عن عـــدم ولائهم لأمريكا، أو عن طبيعة الإسلام المساندة «للإرهاب»، كما سعوا بقوة لتشويه صورة غالبية المؤسسات المسلمة الأمريكية العاملة على الساحة، ونشر نبوءة

متطرفة ينادون بها تقول: بأن ٨٠ % من المؤسسات المسلمة الأمريكية، باختلاف أنواعها، يسيطر عليها متطرفون، ومن ثم نشطوا في المطالبة باستبعاد القيادات والمنظمات المسلمة النشطة على الساحة حالياً، وإحلالها بمؤسسات جديدة تتناسب مع تعريفهم للإسلام المعتدل.

وقد كشفت بعض وسائل الإعلام الأمريكية مساعي بعض الجماعات السياسية الأمريكية المتشددة لعزل مسلمي أمريكا سياسياً، فعلى سبيل المثال ذكرت صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» الأمريكية في تقرير نشرته في الثالث من نوفمبر ٢٠٠١م أن مجموعة من أكبر المنظمات اليهودية الأمريكية - مثل «عصبة مكافحة التشويه» و«رابطة الدفاع عن اليهود» و«مركز أبحاث الشرق الأوسط» الذي يرأسه «دنيل بيبس» - نظمت في الأسابيع التالية لأحداث سبتمبر «حرب فاكسات» ضد المنظمات المسلمة والعربية الأمريكية، وقادتها بعد لقائهم بالرئيس الأمريكي «جورج دبليو بوش» وكبار مسؤولي الإدارة الأمريكية، وقد تضمنت الحملة إرسال «حزم من الوثائق المضادة» للقادة المسلمين والعرب لوسائل الإعلام الأمريكية بهدف التشكيك في نوايا المسلمين الأمريكيين تجاه بقية المجتمع الأمريكي، وفي مصداقية المنظمات المسلمة والعربية وقياداتها.

كما نشرت مجلة «ناشيونال ريفيو» المحافظة مقالاً في السابع من أبريل الماضي، يتحدث عن وجود انقسامات في أوساط المحافظين الأمريكيين بخصوص التعامل مع مسلمي وعرب أمريكا، بسبب سعي بعض صقور المحافظين الجدد إلى تشويه صورة مسلمي وعرب أمريكا وقياداتهم، ومعارضة جهود الإدارة الأمريكية في التواصل معهم.

السبب الثاني: الأزمة ألحقت ضرراً بالغاً بحلم آلاف المسلمين بالبقاء في أمريكا، وبناء حياة كريمة لهم. فقد أضرت الأزمة بحقوق بعض مسلمي أمريكا وتصوراتهم نحو الحياة المسلمة الأمريكية بشكل يصعب إصلاحه، ونعني بهؤلاء ثلاث مجموعات على الأقل:

المجموعة الأولى اضطرت للرحيل عن الولايات المتحدة، بسبب الضغوط المتزايدة التي تعرض لها الإسلام والمسلون في أمريكا بعد أحداث سبتمبر.

والمجموعة الثانية رحلت عن الولايات المتحدة بسبب بعض السياسات الأمنية التي اتخذتها الحكومة الأمريكية بعد أحداث سبتمبر، والتي استهدفت المهاجرين المسلمين والعرب، وتقدر أعداد هؤلاء الأفراد بالآلاف، وبأكثر من ١٣ ألف مهاجر مسلم وعربي على أقل تقدير.

أما **المجموعة الثالثة** فهي الأسر التي تضررت حياتها ضرراً بالغاً بعد أحداث سبتمبر بسبب اعتقال بعض أفرادها ضمن التحقيقات التي تلت التفجيرات، وقد طالت الاعتقالات مئات المسلمين والعرب المقيمين في أمريكا، و لم تؤد إلى إدانة إلا عدد قليل جداً منهم بتهم تتعلق بالإرهاب.

السبب الثالث: زيادة الضغوط التي يتعرض لها المسلمون الأمريكيون، من العالم الإسلامي، بسبب التوتر المتزايد بين بلدان العالم الإسلامي والولايات المتحدة خلال الفترة الراهنة، بسبب بعض سياسات الحكومة الأمريكية تجاه المسلمين والعرب وخاصة في فلسطين والعراق.

وبالطبع أدت هذه الضغوط، على الرغم من أنها لم تتحول إلى مطالب مباشرة من قبل العالم الإسلامي إلى مسلمي أمريكا، بالانعزال عن المجتمع الأمريكي إلى تعقيد البيئة والظروف المحيطة بالمسلمين في أمريكا.

رابعاً: رؤية للمستقبل المنظور

التفكير في مستقبل المسلمين في أمريكا يجب أن يسير في وقت واحد على مستويات خمسة أساس، وهي:

الفرص المتاحة أمام مسلمي أمريكا؛ والأخطار المحيطة بهم؛ وعناصر القوة التي يمتلكونها؛ وجوانب الضعف التي يعانون منها؛ وكذلك وجود رؤية مستقبلية واسعة غير محبوسة في تفاصيل الواقع، تعمل على ترشيد حركة وتفكير مسلمي أمريكا فيما يتعلق بمستقبلهم على مدى عقود مستقبلية قادمة.

وسوف نعرض باختصار في هذه الخاتمة لرؤيتنا للمستويات الخمسة السابقة، ذلك أن التفاصيل تحتاج إلى دراسة مستقلة قائمة بذاتها.

بالنسبة للعناصر الأربعة الأولى، يمكننا القول: إنه متاح أمام مسلمي أمريكا فرص غير محدودة لتنمية قواهم ومواردهم، على المستويات السياسية والفكرية والاقتصادية بالولايات المتحدة، كما أن زيادة نفوذهم على المستويات السياسية قد يرشحهم للاضطلاع بدور أكثر فعالية على صعيد تحسين العلاقة بين العالم الإسلامي والولايات المتحدة.

كما يتمتع مسلمو أمريكا بعدد من الخصائص الإيجابية المهمة، التي قد تساعدهم على اغتنام الفرص السابقة، مثل ارتفاع مستواهم التعليمي، وزيادة أعداد الشباب بينهم، وشعورهم المتنامي بالرغبة في المشاركة في الحياة العامة الأمريكية، والتأثير فيها.

على الجانب الآخر، يواجه مسلمو أمريكا عدداً من التحديات والأخطار، التي يأتي بعضها - كما ذكرنا باستفاضة داخل الدراسة - من داخل المجتمع المسلم الأمريكي نفسه، أما الجزء الأخر فهو مفروض عليهم.

وربما تساعد بعض عوامل الضعف الموجود داخل الجسد المسلم الأمريكي - مثل حداثة العهد، وضعف الاهتمام بالعمل العام لدى بعض المسلمين الأمريكيين، وافتقار أعداد كبيرة منهم لخبرة العمل العام - على إعاقة قدرة بعض المسلمين الأمريكيين على النظر الإيجابي نحو المستقبل.

وقد تعرضنا داخل الدراسة بالشرح والتحليل بشكل أكثر توسعاً للأبعاد الأربعة السابقة، خاصة في الفترة التالية لأحداث سبتمبر ٢٠٠١م، وبقي لنا هنا أن نؤكد أهمية دراسة هذه الأبعاد المهمة، وأهمية أن نتخطى هذه الأبعاد برؤية مستقبلية واضحة تمنح مسلمي أمريكا الأمل والرغبة في تغيير واقعهم في الاتجاه المفيد لهم.

- رؤية لمستقبل مسلمي أمريكا:

تقع على عاتق قيادات ومؤسسات المسلمين في أمريكا ترويج رؤية مستقبلية تحدد مسار مسلمي أمريكا على المدى البعيد، وذلك لمواجهة ما يروج في أوساط مسلمي أمريكا حالياً من رؤى مستقبلية تعاني أحياناً من الانعزالية أو مخاطر الذوبان المبالغ فيه في المجتمع الأمريكي.

وأول ما يجب التأكيد عليه في هذه الرؤية المستقبلية البعيدة هو هدف المسلمين الاستراتيجي في أمريكا، وهو توطين أنفسهم كجماعة، والمساعدة من خلال استقرارهم في الولايات المتحدة على بناء جسور التفاهم والحوار لدى أوسع قطاعات من الشعب الأمريكي، وتوعيتهم بالإسلام.

ولكي يتحقق هذا الهدف ينبغي أن يواكبه وجود وتطور مؤسسي لمسلمي أمريكا، وتركيز واضح على بناء مسيرة استقرارهم في الولايات المتحدة، وعدم إفراطهم في الانشغال في الصراعات والتحديات المفروضة عليهم، والتي هي جزء طبيعي وحتمي من مسيرة أي جماعة نامية ذات رسالة.

وعلى النقيض، يجب أن يمتلك مسلمو أمريكا رؤية للمستقبل تحدد كثيراً من الأهداف المهمة التي يجب عليهم السعي لتحقيقها خلال العقدين القادمين، ومن أهم عناصر الرؤية المذكورة ما يلي:

١- استقرار أكبر عدد من المسلمين في الولايات المتحدة، بما يؤدي إلى مضاعفة أعدادهم خلال العقدين القادمين، لتصل إلى عشرين مليون مسلم أمريكي على الأقل، على أن يكون ٧٥ % منهم من المواطنين الأمريكيين، وعلى أن يكون ٦٠-٧٠ % من المولودين في الولايات المتحدة.

٢- نشر الشعور بالمواطنة في أوساط المسلمين الأمريكيين، وتشجيعهم على الانخراط في مؤسسات مجتمعهم الأمريكي المدنية.

٣- زيادة عدد الأمريكيين ممن ينظرون نظرة عامة إيجابية نحو الإسلام إلى أكثر من ثلثي الشعب الأمريكي (نسبة ٦٧ % على الأقل) على عكس نسبتهم الآن والتي تتراوح حول (الثلث) من الأمريكيين.

٤- العمل على انتخاب ٨ أعضاء مسلمين بمجلس النواب الأمريكي، وسيناتور واحد على الأقل بمجلس الشيوخ، و٥٠ نائباً محلياً على مستوى الولايات والمدن الأمريكية.

٥- على المستوى الإعلامي، نأمل أن يمتلك المسلمون خلال العقدين القادمين قناتين إعلاميتين تبثان برامجهما على مدى ٢٤ ساعة، على المستوى الوطني بالولايات المتحدة، وأن تذيع التلفزيونات الأمريكية المختلفة برنامجاً واحداً عن الإسلام على الأقل بصفة يومية.

٦- أن يؤسس المسلمون جامعتين إسلاميتين قادرتين على تخريج أئمة ودعاة مسلمين أمريكيين، يفهمون الإسلام ويعملون على نشره بالأسلوب الصحيح.

٧- تأســيس جمعية خيرية مسلمة أمريكية لمواجهة الكوارث الطبيعية والبشرية الطارئــة، عــلى غرار الصليب الأحمر والهلال الأحمر، على أن تكون جمعية مسلمة أمريكية تخدم المجتمع الأمريكي، انطلاقاً من مبادئ إسلامية راسخة.

٨- أن يتم الاعتراف بالأعياد الإسلامية كأعياد رسمية أمريكية.

٩- توظيف مئات الشباب المسلمين بمؤسسات صناعة القرار الأمريكية، بهدف وجــود موظــف مسلم على الأقل بكل مكتب سياسي رئيسي (كمكاتب أعضاء الكونجــرس)، وتعــيين ٢٠-٣٠ سفير مسلم أمريكي لتولي قيادة علاقات الولايات المتحدة مع العالم الإسلامي.

١٠- أن يكــون من بين المسلمين عشرة من كبار كتاب الروايات بالولايات المتحدة، و٢٠ من كبار كتاب المقالات والأعمدة الصحفية، ومركز فكري مرموق في العاصمة الأمريكية واشنطن.

١١- أن يؤسس المسلمون الأمريكيون عشرة مستشفيات تقدم خدمات صحية متمــيزة عــلى المســتوى الوطني، وتضم عدداً من كبار الأطباء المسلمين المنتشرين بالولايات المتحدة.

١٢- أن يمتلك رجال الأعمال المسلمون الأمريكيون عشرة من أكبر الشركات الاقتصادية الأمريكية.

١٣- أن يوجد مسلم واحد على الأقل في كل فريق رياضي أمريكي كبير.

١٤- أن يؤسس المسلمون الأمريكيون هيئة سلام غير حكومية، قادرة على حل النــزاعات الدولية بالطرق السلمية، ومعترف بدورها دولياً.

نشر الرؤى سوف يمد المسلمين الأمريكيين ومسانديهم بالأمل، والرؤية الإيجابية لدورهم، ومستقبلهم، في الولايات المتحدة الأمريكية.

عندما يتفوَّقُ المخْيَال على الواقع
النقاش الغربي حول الإسلام والديمقراطية

الدكتورة خيما مَرْتين- مُنْيوز(*)

ترجمة: سامية تواتي؛ مراجعة: د.العربي كشاط

إن وضع الدول العربية، البعيد عن الكمال، من وجهة نظر الديمقراطية، ليس ناتجاً عن «قدر قَبْلي بسبب العرب، أو ديني بسبب الإسلام» بقدر ما هو ناتج عن الاستيراد الحديث «للنموذج الديمقراطي» ومحاولة تطبيقه على مجتمعات متجزئة وقليلة البنى، كما هو الحال غالباً في العالم الثالث، الذي لم يكن له ما يكفي من الوقت أو من الاستقرار اللازمَيْن لاستبطان الشكل الجديد لدوله القومية.

ملخّص:

لقـــد أدّت مسألة الديمقراطية في بلاد المسلمين إلى ميلاد كتابات غربية عديدة تسود فيها النظريات «الثقافوية» التي تدّعي أن العجز الديمقراطي، الذي يميّز البلدان المســـلمة، نـــاجم عـــن «عيوب وراثية» متعلقة بالإسلام وليس عن تجارب تاريخية وعوامـــل اجتماعية – سياسية واستراتيجية قابلة للتطور. وهذا اللجوء إلى نظريات «ثقافويـــة» يحوّل الواقعَ الذي تعيشه عدة مناطق أخرى في العالم، خاصة تلك التي مـــرّت بمرحلة الاستعمار (في آسيا، وأميركا اللاتينية، وأفريقيا السوداء) إلى «استثناء

(*) أستاذة علم اجتماع العالم العربي والإسلامي في جامعة مدريد المستقلة.. (أسبانيا).

عـــربي-إســـلامي». وقد أدّى بروز الحركات «الإسلاموية» إلى دعم هذه الأفكار «الـــثقافوية» اعـــتماداً عـــلى المخْـــيال[1] المعادي للإسلام في الغرب. واستعملت الحكومـــات الملقّـــبة بـــ«العلمانية» هذه الأفكار كأداة، بل كذريعة، لتبرير رفضها دَمقْرَطة[2] أنظمتها.

قـــال «صـــاموئيل هنتنغـــتون» سنة ١٩٨٤م: «لم يكن الإسلام يوماً مضيافاً للديمقراطـــية»، وهـــذا يعـــني أن الإسلام ليس له مصادر يستلهم منها الديمقراطية. وتصريح «هنتنغتون» هذا كان صدىً لنـــزعة سائدة ليس فقط على مستوى وسائل الإعـــلام، بـــل للأسف حتّى على مستوى الخبراء الغربيين المختصين بدراسة العالم العـــربي. ولـــو كلّفـــنا أنفسنا عناء دراسة التحاليل التي تتّبع هذه الفرضية بتمعّن، لاستنتجنا أنها ثمرة لتصرّف إرادي، ولمنهجيّة حتميّة و«جوهرانيّة»، أي منهجيّة تجعل ما هو «خاصّ»، وهو متعلّق «بالجوهر» في نظرها، وسيلةً لشرح كلّ شيء.

فهذه النظريات تُرجِع العجزَ الديمقراطي للبلدان الإسلامية إلى «عيوب وراثية» تدّعـــي وجودها في الإسلام وعند العرب، وكأنّها عوامل ملازمة وثابتة وحاسمة تميّز الثقافة العربية أو الإسلامية الغالبة على المنطقة، ولا ترى أن هذا العجز وليد تجارب تاريخية وعوامل سياسية -اجتماعية واستراتيجية قابلة للتغير. وهكذا، نجد أن العديد من النظريات مبني على فرضية استحالة تحقيق الديمقراطية حين تكون الثقافة السياسية السائدة متأثّرة بـــ«السلطانوية» أو مركّزة على طوباوية الدولة الإسلامية[3].

وقد تُفسَّر هذه الاستحالة أيضاً بالرجـــوع إلى «الثقافة الإسلامية» التي يبدو أنها لا تمـــنح السياسة فضاءً مستقلاً وتخلط بين ما هو عمومي وما هو فردي[4]؛ أو حتّى

---

(١) المخيال: مجموعة من الصور التي ترسمها لاشعورياً مخيلة الشخص وفقاً لرغباته.
(٢) دمقرطة نظام: جعله ديمقراطياً.
(٣) Pipes, 1983.
(٤) Badie, 1986.

باعتـــبار أن مبدأ الحرية لا يمكنه أن يرسخ في مثل هذه المجتمعات؛ لأن مبدأ العدالة هو الغالب على التاريخ الإسلامي؛ ولأن الجماعة ستتفوّق دوماً على الفرد [١].

ويبدو أن أولئك الخبراء، زيادةً على هذا، يجتهدون في اعتبار المسلمين بمعزل عن التـــيارات الفكـــرية الآنـــية. فحين يُجمع علماء الاجتماع على اعتبار الديمقراطية والـــتطور مستلزِمَيْن لوجود مجموعات اجتماعية قوية ونشيطة، نرى تياراً مهُمّاً من المستشرقين يقرّر أنه لا وجود لحركات جمعوية كهذه في الإسلام. فالطابع الشمولي للإيمـــان (ومن الصعب فهم السبب الذي يجعل ذلك حكراً على الإسلام وحده، إذ الإيمـــان قاســـم مشترك بين كل الأديان السماوية) يجعل الدولة - وتكون بدورها شمولـــية- هـــي الوحيدة القادرة على تطبيق العقيدة، ويجعل الإسلام لا يشجّع على تكوين جماعات قادرة على مقاومة الاستبداد.

فالنتـــيجة الـــتي يصل إليها هذا النوع من النظريات هي أن الدولة في المجتمعات الإسلامية أقوى من المجتمع؛ وأن الجمعيات الاجتماعية-السياسية التي تتميّز بضعف نظامهـــا وعـــدم وجـــود هوية اتحادية قوية ما هي إلا استثناء شاذّ، والقاعدة هي الجماعـــات غـــير الرسمية التي تُستَعمل كأداة لمساعدة ومساندة السلطة ونخبها والتي يمكن وصف روابطها السياسية بالتحزيبية[٢].

وبـــنفس الطريقة، حين يدافع علم الاجتماع السياسي عن فكرة ضرورة وجود مجـــتمع مـــدني قوي لتحقيق الديمقراطية، تُستخدَم نفس الحجج لإثبات عدم قدرة المسلمين على تحقيق هذا الشرط[٣].

---

(١) Lewis, 1996.

(٢) Bill & Springborg, 1984.

التحزيبية : نزعة لدى حزب أو شخصية سياسية لتوسيع نطاق أنصارهما بكافة الوسائل.

(٣) Sadowsky, 1993, p19.

ولما أثبتت الثورة الإسلامية في إيران أن النزاع كان بين دولة ضعيفة ومجتمع مدني قوي (فقد كان رجال الدين الإيرانيون ومؤيّدوهم من أعضاء البرجوازية التقليدية يشكلون مجتمعاً مدنياً قويّاً ليس قادراً على تحدّي السلطة فحسب، بل حتّى على الإطاحة بها) - وقد قام تطوّرالإسلاموية وقدرتها الكبيرة على التنظيم الاجتماعي على هامش تنظيمات الدولة بتأكيد هذا الوضع- برزت لهذا الغرض تفسيرات جديدة تدّعي أن المواجهة بين المجتمع المدني والدولة تعوق تطوّر مجتمع مدني حقيقي وتمنع تحقيق الديمقراطية.

وهكذا نجد عدداً كبيراً من الدراسات تحاول أن تشرح أنّ الحضارة الإسلامية تتميّز برفضها القاطع لإضفاء الشرعية على السلطة السياسية[١]. ويعتبر «بايبس» أن التسليم بالمثالية شيء تشترك فيه كل الأديان غير أن الإسلام وحده هو الذي يحدّد مثالياته السياسية بالتفصيل في قانون سيره. وبعد أن حُدِّدَت هذه المثاليات المستحيلة التحقيق، لم يبق للمسلمين سوى اعتبار كل حكومة غير شرعية، مهما كان شكلها[٢].

ليس من النادر إذن أن نجد تحليلات تجعل من الإسلام الموضوع الأساس والمصدر الرئيس لتاريخ ولمستقبل العرب والمسلمين، لكنها تبني افتراضها على إسلام حتمي وكليّ الوجود. فهذه التحليلات تعتبر المجتمعات الإسلامية كلاًّ مُغلَقاً بصفة نهائية، وكأنها لا تتطوّر باستمرار، ولا تُغيِّرُ هويتها وتصوّراتها وثقافتها ومؤسساتها بتغيّر الظروف. ومن وجهة نظر علم الإناسة (الأنتروبولوجيا)، فلا وجود «لإنسان الإسلام Homo islamicus» كفصيلة منفصلة عن باقي الجنس البشري[٣]، وليس من الصحيح ولا من العادل التأكيد أنّ عبارة «ديمقراطي عربي» تنطوي على تناقض في حد ذاتها[٤].

(١) Crone, 1980.
(٢) Pipes, 1981, p 62.
(٣) Corm, 1994, p. 118.
(٤) David Pryce-Jones, 1989, p 406.

وإن كان عبد الله العروي مُحقّاً حين قال: «إن الدولة العربية هي قبل كل شيء جسد مفتول العضلات، لكن بمخّ صغير وعقل صغير، ولا تمتلك نظرية للحرية، وهي قويـــة بجهازهـــا القمعـــي، لكنها ضعيفة في الحقيقة، لأنها لا تملك الدعائم الخُلقية والأيديولوجـــية والـــتربوية الضرورية»[1]، ولو أخذنا بعين الاعتبار الميزات الخاصة بالمـــنطقة وبثقافتها، فإن هذا الوضع البعيد عن الكمال، من وجهة نظر الديمقراطية، ليس ناتجاً عن «قَدَر قَبَلي بسبب العرب، أو ديني بسبب الإسلام» بقدر ما هو ناتج عن الاستيراد الحديث «للنموذج الديمقراطي» ومحاولة تطبيقه على مجتمعات متجزئة وقلـــيلة الـــبنى، كما هو الحال غالباً في العالم الثالث، الذي لم يكن له ما يكفي من الوقت أو من الاستقرار اللازميْن لاستبطان الشكل الجديد لدوله القومية.

وبالفعل، فإنه من الصحيح أن نقول: إن الديمقراطية، كإمكانية منظَّمَة وشرعيَّة لمعارضـــة السلطة الحاكمة إلى غاية تولّي الحكم بدلاً عنها بطريقة سلمية من خلال تصويت الناخبين، لا وجود لها حالياً في العالم العربي والإسلامي (ولا حتى في إفريقيا أو أمريكا الجنوبية أو آسيا).

لكـــن يجـــب البحث عن أسباب هذا العجز في عوامل سوسيولوجية خارجية المنشـــأ، مـــثل الـــتدخّل الأجـــنبي، والإنشاء المصطَنع للدول من جراء الاستعمار، والتلاعـــب بالأقلّيات؛ وكذا في عوامل داخلية أساسية مثل: أهمية الشرعية التاريخية لـــ«آباء الوطن»، ونظام الشرعية التاريخية هذا يمتاز بالجمودية مّما يمنع اليوم جيلاً كاملاً من التصرف في «شيء الشعب»[2].

وهـــناك عوامل أخرى مهمّة كمبدأ الريع الذي يعتمد عليه اقتصاد هذه الدول، وهـــو مـــبدأ منافٍ للديمقراطية في حدّ ذاته، إذ أنه يُكتِّل مصادر الثروات في أيدي

(١) Laraoui, 1981, p. 146.

(٢) ترجمة لكلمة ذكرت باللاتينية هي Res Publica وهي أصل كلمة Republica وتعني جمهورية. (المترجم).

الحكومات التي ستحتكرها لتضمن بذلك الطاعة المدنية للأغلبية، وهذا بدوره يعوق بروز قوىً اجتماعية قادرة على انتقاد هذا النموذج، الذي يمنع الحكومات من توطيد علاقاتها بالشعوب من خلال واجبات متبادَلة مركّبة، مثل دفع الضرائب مقابل الاشتراك في هذا النظام والاندماج فيه.

وإلى كل هذا يُضاف تسييس المنظومة العسكرية في دولٍ لعب فيها الجيش دوراً بارزاً في بناء القومية وتشكيل نوع الحكومة، وهذا يجعله أحد أبرز أبطال خشبة المسرح السياسي (مصر، سوريا، ليبيا، السودان، الجزائر).

وكلّ ما سبق لا يعني أنّه ليس للدين أهمية في المجتمعات الإسلامية، لكنّ المشكل يكمن مرّة أخرى في المنهجية المتّبعة لتحليل مختلف العناصر. إن الحتمية الجوهرية، أي النزعة إلى عدم وضع هذه العناصر في موضعها بل استخدامها لشرح غياب الديمقراطية مثلاً، تُفسِد النتائج المبنية على فرضيات كهذه. فالنظريات «الثقافوية» حوّلت إلى «استثناء عربي إسلامي» ما هو في الواقع وضع يميّز عدداً كبيراً من المناطق في العالم وخاصة منها تلك التي تعرّضت للاستعمار (في آسيا وأميركا اللاتينية وإفريقيا السوداء).

وحين نتحدّث عن «نظرات ثقافوية» فنحن نقصد بها مخيال المجتمعات الغربية التي تكوّنت عن المشرق والعالم العربي. وطريقة النظر هذه التي لا تعكس الواقع تُستخدَم في دعم فكرة مُقَوْلبة عادةً ما تكون مقبولة في الغرب.

فالغرب هو الذي يسيطر على طريقة تمثيل وتحليل المسائل المتعلّقة بهذه المنطقة، إن لم نقل أنه هو الذي يحدّدها. وهو بذلك يواصل بثّ هذه النظرة المبنية على التعارض الذي يفصل بطريقة مانوية بين الإسلام والغرب (إذ في الواقع لا وجود لا لشرقٍ ولا لغربٍ متراصّ). فتطغى على طريقة التمثيل هذه فكرة وجود صراع

ثقافي بين نموذجنا الديمقراطي (العلماني) ونموذج آخر غير مقبول معتمد على القواعد الدينية المشتقّة من القرآن.

فالتمثيل «الثقافوي» يُدافع عن تعدّد مركزانوي-عرقي للأجناس تكون فيه قيم الغـــرب، وهـــي ثمرة لتجربة تاريخية معيَّنة، مُقدَّمةً على أنها النموذج الوحيد النافع للبشرية جمعاء. هذا يعني أنه لا يُنظر إلى التعددية الثقافية على أنها تنوّع في خيارات كلها متساوية، بل على أنّها سلّم تدريجي من الأكثر حداثة إلى الأكثر تخلّفاً(١).

وهذا المخيال «الثقافوي»، خاصةً فيما يتعلّق بالجدال عن الإسلام والديمقراطية، تكـــثّف بسبب مرئية الحركات الإسلاموية وعلاقاتها مع المسار الانتخابي والتحرري في أواخر الثمانينيات على وجهين:

أوّلاً: كامتداد طبيعي ومنطقي لهذا المخيال المعادي للإسلام،

وثانياً: كأداة تستخدمها الجماعات الحاكمة والنخب العلمانية للعالم الإسلامي في إطار مقاوماتها للإسلامويين وبحثها عن مساندات غربية.

وفي الســـيناريو العربي الاجتماعي السياسي لسنوات التسعينيات، فإنّ ما يسمّى بـــ«الأصوليانوية» أو «التطرف الإسلامي» (وبانزلاق تعبيري يتمّ استعمال مصطلح «الإرهـــاب» بـــنفس الشـــكل) لعب دور الذريعة التي يُبرّر بها الاستبداد ومقاومة الدمقرطة، بل كان أداةً نفيسة في أيدي النخب السياسية الحاكمة في «استراتيجيتها لـــلحفاظ عـــلى بقائها السياسي الاستبدادي» سواءً على الصعيد الخارجي (إذ هي بذلـــك تجني مساعدات أمنية واقتصادية ضخمة) أو الصعيد الداخلي (بـِـ«استعادة» النخـــب القديمة العلمانية، التي كانت إلى ذلك الحين تعارض استبداد النظام لحدّ ما، وباستغلال خوف السكان من الحرب ومن الاعتداءات).

(١) Martín-Muñoz, 1998.

وإذا كانـــت ديناميكـــية التحرّر والدمقرطة، التي تلت انهيار الاتحاد السوفياتي والثنائـــية القطبـــية، قد توقّفت توقّفاً راديكالياً في جنوب المتوسط، فذلك يعود إلى كـــون الـــبديل الديمقراطي تجسّد في الاتّجاه الإسلاموي. وبالتالي، فإننا نلاحظ أن الغرب وافق بصـــورة إمّا مباشرة أو ضمنية على هذه العودة الاستبدادية إلى الوراء. إذ أن الأفكـــار المسبقة التاريخية والتقليدية عن الإسلام والناتجة عن تراكم عدة أمثلة لســـوء التفاهم وعن علاقة فُسِّرَت طيلة قرون من زاوية المواجهة وحدها، تبلورت اليوم تبلوراً يجعلها تقريباً حكراً على الإسلاموية.

إنَّ عجـــز الغرب على اعتبار الإسلاموية الإصلاحية حركة تهدف إلى المعارضة السياســـية للحكم، وتعتمد على قاعدة اجتماعية واسعة، وتستطيع أن تقدّم البديل وتواجه النخب القديمة، التي عجزت عن إخراج بلدانها من الأزمات الخانقة التي تعاني مـــنها، يجعل «الخوف من الإسلام» مُبرِّراً لعرقلة مسار الدمقرطة، وذريعة للاستبداد المـــتزايد الذي يمارسه النظام مصحوباً بانتهاكات لحقوق الإنسان. وكل هذا يجعل العالَم الإسلامي يُعتبَر، مرَّةً أخرى، حالةً خاصّة حيث جُرِّدَ مواطنوه من حقّ انتخاب ممثليهم بكلّ حرية، بدعوى أنهم ليسوا «راشدين» وأنّهم «لا يحسنون الاختيار».

وهـــذا بمثابة شيك على بياض أُعطي لحكومات البلدان العربية والإسلامية حتى تواجـــه المعارضـــة السياسية، ممّا يمنحها فرصة تشويه صورة الإسلامويين من خلال الخلـــط المقصـــود بـــين الحركات الراديكالية والوسطية (أو بالأحرى بين الثوريين والإصـــلاحيين)، والنتـــيجة هـــي أن هـــذه الاستراتيجية تمكّنت من إخفاء التيار الإســـلاموي الإصـــلاحي الغالب، وراء الجماعات الثورية التي يُتَحدَّثُ عنها بكثرة (مـــثل الجماعـــات الإسلامية المسلحة، وجماعات الجهاد) حتّى وإن كان هناك عدّة اختلافات كبرى بينها.

وفي الحقــيقة بــدل أن يــأتي هــذا الصخب الإعلامي عن مسألة الإسلاموية المصــحوب بعدد ضخم من الكتابات في الموضوع بتوضيحات مفيدة - إن استثنينا بعــض الأعمال الجيّدة- فإنّه جاء ليؤكّد على هذا الخلط، المقصود أو غير المقصود، بين العديد من وجوه الحركة الإسلاموية وبين أدوارهم الاجتماعية-السياسية.

وهكذا قامت كتابات «ثقافوية» النــزعة ببثّ نظرتها المتراصّة عن الإسلاموية، معتــبرة إيّاهــا -مُسبقاً- غير متماشية مع الديمقراطية، ومُشكّلةً خطراً على الغرب. وحتمــية هذه الأطروحة تتجاهل بل تخفي واقعاً اجتماعياً سياساً أكثر تبايناً وتركيباً ممّــا تصــفه، إذ نجــد فيه التيار الإسلاموي الإصلاحي، الذي رضي بقواعد اللعبة السياسية الديمقراطية التي تمكّنت من البروز، كما كان حال النهضة في تونس والجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر، والإخوان المسلمين في مصر، وكما أثبتته مساهمة بعض الحركات في الحياة البرلمانية مثل الإخوان المسلمين في الأردن، وحزب الله في لبنان، والحركات الإسلامية الثلاث في الكويت، ومؤخّراً الإصلاح والتجديد في المغرب.

هــذه الحــركات الإسلاموية تدين عنف المتطرّفين، وبرهنت على قدرتها على الــتعايش بل حتّى التحالف مع أحزاب غير إسلاموية، مثل ما رأيناه في لائحة روما فــيما يخص الجزائر[١]، أو في جبهة المعارضة التي جمعت بين الإسلامويين واليساريين في كــل من الأردن والكويت، أو حتّى في «المعارضة الناقدة» الحذرة التي عبّر عنها النواب الإسلامويون المغاربة بخصوص أول حكومة مثّلت البديل الاشتراكي[٢]، وفي نشــأة حــزب الوســط المصري الذي ينشّطه جيل إسلاموي جديد من الإخوان المسلمين إلى جانب شخصيات مسيحية مصرية[٣].

(١) Martín-Muñoz, 1997.
(٢) Tozy, 1999.
(٣) Martín-Muñoz, 1999.

الممثلون السياسيون الإسلامويون

يوجد تنوّع كبير في الشخصيات التي تُنسَب إلى الإسلام، عكسَ ما تحاول الأطروحات الثقافوية إثباته. فلقد أنشأت دولة «مابعد» الاستعمار إسلاماً رسمياً جاعلةً إياه المسؤول عن مهمة تسيير المجتمع المسلم تسييراً محافظاً جداً، مقابل جعل الشرعية الدينية حكراً عليه. فالتقليديون، أي العلماء المحافظون جدّاً والمستعدّون دائماً لمقاومة أيّة بدعة، هم أهمّ ممثلي هذا الإسلام الذي تستخدمه الدولة، وهو الإسلام الرسمي (ويضمّ أجهزة إفتاء مختلف البلدان، وأهم مسؤولي الأزهر، ومختلف المجالس العليا للعلماء).

و لم يقم أبداً هذا القطاع الذي يركّز اهتمامه على حماية التقاليد الإسلامية بأيّ نشاط سياسيّ منظّم، كما أنه ليس بحوزته أيّ مشروعٍ للحُكم. فهو بالعكس، بفضل علاقاته الضمنية مع السلطة الحاكمة، يستطيع ممارسة تأثيره الكبير والاستمتاع بمرئية اجتماعية مهمّة. وقد يقوم بنقد بعض تدابير الإصلاحات الاجتماعية (خاصة ما يمسّ التربية أو العَلْمَنة، أو قانون الأحوال الشخصية) لكنه يبقى دوماً مسانداً لأهمّ الخطوط العريضة في السياسة التي يتّبعها النظام. فتزداد أهمية حُرّاس التقاليد هؤلاء، من الرجعيين ثقافياً واللامتسامحين، بازدياد حاجة الحكومات لهم، حتّى تتفادى فقدان شرعيتها أمام الإسلامويين. وهكذا يلتزم التقليديون بأن يكونوا «مقبولين سياسياً» مُقابل حضورهم في المجتمع. وهذا التصوّر بالذات مصحوباً بهذا «الاستعمال» للدين هو الذي عرقل نشأة أي إصلاح أخلاقي وفكري إسلامي.

أمّا فيما يخصّ مفهوم «الأصوليانوية»، فمن الضروري أن نذكّر بتفاصيل مهمّة في عدد من الأمور. ودون أن نعير السياق التاريخي الذي ولد فيه هذا المصطلح اهتماماً (وكان ذلك في إطار البروتستانية في شمال أميركا)، فإن هذا المفهوم يعتمد

العـــودة إلى الأصـــول، أي إلى الكتابات كنقطة انطلاق لأي محاولة تجديد. ويمكن المقابلـــة بينه وبين فكرة برزت في الإسلام قبل أن يعرفها العالم المسيحي بمدّة، وهي فكـــرة الأصـــولية (أي إعادة بناء النظام الاجتماعي والسياسي انطلاقاً من الأصول الموجـــودة في العصور الأولى للإسلام، والتي تعتبر صحيحة وصافية، إذ هي نابعة من الوحي مباشرة وليس من تفسير البشر).

إضـــافةً إلى هذا، فإن مثالية المدينة المسلمة، كما وصفها عدد كبير من العلماء والفقهـــاء، كانـــت دائمـــاً تُشجّع على نشأة وتطوّر الإصلاحية في بلاد الإسلام. فالدعوة إلى العودة إلى الأصالة، أي إلى صفاء وصحة المنابع الأولى المقدّسة، بحجّة أن مبادئ الإسلام فُسّرت بطريقة سيّئة منذ عهد الأمويين وأُخرجَت بذلك من جوهرها الحقـــيقي، ظاهـــرة مـــتكرّرة في تاريخ الإسلام: الموحّدون في القرن الثاني عشر، والوهابـــيون في القـــرن الســـابع عشـــر، والمهدية والسلفية في القرن التاسع عشر، والإخـــوان المســـلمون في القـــرن العشرين. كلّ هذه الحركات كانت أصولية في تصـــوّرها النظري للإصلاح. لكن بعضاً منها يعتبر أن العودة إلى الأصول تتمثّل في قراءة «حرفية» للقرآن والسنة، في ما يحاول بعضها الآخر أن يفهمها في ضوء العقل، بحيـــث يولد فهماً جديداً للإسلام، لا يرفض الحداثة بل يرفض الغربنة والعولمة اللتين تستخدمهما بعض البلدان كأدوات للسيطرة.

وبالـــتالي، فإذا كان بالإمكان القول: بأن المسار الفكري لنشأة الإسلاموية من نـــوع أصـــولي صحيحاً، حيث إنه يعتمد على مبدأ إعادة التفسير ويرفض عدداً من العناصـــر الموروثـــة مـــن التقاليد، فإن الحركات الأصوليانوية المسلمة ليست كلها إسلاموية، كما أن التنظيمات الإسلاموية ليست كلها على نفس الشاكلة، إذ الأمر يـــتعلّق بحـــركة اجتماعية-سياسية مازالت في طور النمو، حيث تضطر النظرية إلى البحـــث عن أساليب للاستفادة من نتائج التطبيق. والتطبيق هو الذي يشكّل الخط

الفاصل بين الاتجاهات الإسلاموية الراديكالية من جهة والتي تدعو إلى العنف ضدّ الدولة، وباقي الاتجاهات التي تتموقع من خلال تصوراتها الإصلاحية داخل النظام دون أن تحاول الإطاحة به بالقوة.

فالنوع الأول من الحركات الذي يشكّل أتباعه أقلية بعيدة جدّاً عن المجتمع، يتشبّث بطوباويته، أي بحلم المدينة الإسلامية «الفاضلة»، دون أي تغيير، ويرفض بعناد أي شيء يخالف هذا الحلم.

أما النوع الثاني من الحركات، وهو الغالب، ويكون على اتّصال مستمر مع المجتمع وطموحاته الحقيقية، فيحقّق نموّه على شكل حزب سياسي، ونتيجةً لهذا فإن النظرات اللاتاريخية التي تعتبر الإسلام نظاماً لازمانياً شاملاً وتشجّع الجمودية أصبحت مهمّشة أكثر فأكثر. هذا لا يعني أنه لا وجود في داخل هذه الأحزاب لعدد مهمّ من المفكّرين أو ممّن يشكّلون «المؤخرة» من الذين يكرهون المحدثات، لكن الجيل الإسلاموي الجديد يتميّز بطابعه التحديدي، إذ أنه يحاول امتلاك الفضاءات والقيم العالمية للحداثة انطلاقاً من مراجعه الإسلامية.

فالإسلاموية إذن مصطلح جديد، يستعمل لتعريف حركة إصلاحية مسلمة حاملة لمشروع ليس ثقافياً واجتماعياً فحسب بل سياسياً أيضاً، وهي اليوم كثيراً ما تُعتَبَر البديل الذي يطمح إليه الجيل الجديد. وهذا الجيل مهمّ جدّاً على المستويين الديمغرافي والسياسي-الاجتماعي (فهو يمثّل أكثر من ٦٥% من السكان العرب حالياً) ويشكّل خطراً على النظام، ولهذا فهو، بشكل مباشر أو غير مباشر، قريب من الاتّجاه الإسلاموي، وبذلك فهو الذي يثريه برأسماله البشري الكبير(١). وتمتاز الحركات الإسلاموية بالاستقلالية السياسية، عكسَ الإسلام التقليدي المرسّم، وهي قريبة من التغيرات الاجتماعية والسياسية التي تعيشها اليوم المجتمعات المسلمة.

(١) Martín-Muñoz, 1999.

وتواجه الحكومات اليوم ما يمكن أن نسميه الجيل الثالث من الإسلامويين، الذين استفادوا من إمكانية التعليم التي وُفّرت لجزء كبير من الشباب، الذين ما زال سخطهم على الأنظمة السياسية-الاجتماعية السائدة يتزايد. وعرفت الدعاية الإسلاموية تجديداً وانتشاراً كبيرين في سنوات الثمانينيات، ولا يمكن نسبة ذلك إلى التأثير الأخلاقي لنجاح الثورة الإيرانية وحده، أو إلى فشل النموذج الاشتراكي الداعي إلى العروبة فقط، أو إلى المساعدات التي منحتها ظرفياً بعض الحكومات في إطار مقاومتها للمعارضة اليسارية وحدها، بل يعود ذلك خاصة إلى كون الإسلامويين عرفوا كيف يبرزون كنخبة جديدة تمثّل الاعتراض على هذا النظام الجامد سياسياً (لاستحالة تجديد النخب) واقتصادياً (بسبب عرقلة الحركية الاجتماعية وتعميم الرشوة مما يعوق الإنتاجية) واجتماعياً وثقافياً (بسبب الفئات الرسمية الإسلامية التقليدية التي تمارس الرقابة على الإصلاح والتجديد).

وباستثناء الجماعات العنيفة، التي رغم كونها تشكل أقلية[1] فهي تحظى بتغطية إعلامية كبيرة لا تتناسب مع أهميتها الحقيقية، فمن زاوية النشاط السياسي فإن تطور هذا الجيل الثالث من الإسلاميين يشير بوضوح إلى أنه يتموقع داخل حدود الدولة-القومية (عكس النظريات الهادفة إلى وحدة إسلامية) وأنّه قد مرّ بتجربة بلوغ الرشد السياسي المعتمد على البراغماتية وعلى الدروس المستوحاة من فشل طريق التمرّد. فهذه التجارب سمحت لهم بعدم التشبّث بالمحافظَوية[2] الاجتماعية والثقافية،

(١) إن القمع الذي مارسه النظام المصري في عهد جمال عبد الناصر أدى إلى ميلاد تيار فكري راديكالي لدى الإخوان المسلمين، ويمثله سيد قطب. وأفكار قطب المتعلقة بالتكفير الفعلي للمجتمع ككل، والتي كانت أساساً لاعتبار الجهاد نشاطاً ثورياً داخلياً، هي التي استوحى منها بعض المنشقين المتطرفين نشاطاتهم مثل: جماعات تنظيم الجهاد، وحزب التحرير، والتكفير والهجرة، ومؤخراً الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر، والجماعة الإسلامية في مصر العليا. (المؤلفة).

(٢) المحافظوية : الفكر المُحافِظ.

بل دفعتهم دفعاً نحو ثقافة الإجماع فيما يخص مشاريع أخرى اجتماعية-سياسية تختلف عن مشاريعهم (أي في إطار التعددية السياسية والانتخابات وتشكيل الحكومات).

وهكـــذا، فقـــد أدّى هذا التطور إلى التفكير بعمق في معنى أن يكون الإنسان مســـلماً اليوم، أي في محاولة تأسيس نظام إسلامي يتمتع بالأصالة والمعاصرة في آن واحـــد، وهذا ما سمح بفتح نقاش مكثّف جداً حول العلاقات بين الإسلام والدولة والديمقراطية، وذلك بتكرير التحليل النظري حول المتغير في الإسلام، أي ما يستطيع العقـــل الإنســـاني استنتاجه من النصوص من خلال اجتهاد تفسيري منظّم، وحول العناصـــر التي تتعلّق بالحُكم، أي بالسلطة، وبالمعاملات. وهكذا اكتسبت المشاركة السياسية والمطالبة بالدَمقرطة شروحات إسلامية، إذ ترتبط مفاهيمها بمبدأ الشورى.

ويعـــرّف محمّـــد عمارة الشورى مثلاً بأنّها: «المشاركة في تسيير شؤون الدولة والمجـــتمع»[(١)]، أمّا فتحي عثمان فقد استنتج أنّها تعني «المساهمة الفعلية والفعّالة في مسار اتّخاذ القرار». ويصرح رشيد البراوي أن التفسير الديمقراطي للشورى نابع من نصّ القرآن نفسه، وأن نظام الحزب الواحد يتعارض في الحقيقة مع روح التعددية في الإســـلام[(٢)]. فالهدف الذي يسعى وراءه هؤلاء المفكرون هو محاولة اقتباس المبادئ الديمقراطـــية كالمشاركة والتمثيل السياسيين وإضفاء شرعية إسلامية عليهما. ولهذا فمـــن المهـــمّ أن لا نقلل من أهمية دور همزة الوصل، الذي يقوم به هؤلاء في مجتمع يحاول تملّك قيم الحداثة بطريقة نابعة من داخله.

ولكـــن أفكار هؤلاء الإسلامويين الليبراليين ونقاشاتهم حول التعددية والديمقراطية يتجاهلها «الخبراء» ووسائل الإعلام مُفضلين عليها إدهاشية[(٣)] الخطاب المتطرّف، الذي

(١) Imara, 1993.

(٢) Barawi, 1975, p 118.

(٣) الإدهاشية (Sensationalisme): السعي وراء كل ما يُدهش أو يثير.

يجلب اهتمام الرأي العام الغربي. ومن الصحيح أيضاً أن أغلب نصوص هؤلاء المفكرين السياسيين مكتوبة بالعربية، وهذا يجعلها صعبة المنال، زيادة على كونها لا تحظى بشعبية لا لدى الخبراء ولا لدى دور النشر ممّا يجعلها حكراً على دائرة صغيرة من العارفين.

وقد أدّى قبول التعددية وتقسيم السلطة والمساهمة الفعلية في مؤسسات الدولة، في إطار إصلاحات ليبرالية حقّقت منذ نهاية الثمانينيات، إلى تقريب الإسلامويين من الثقافة الديمقراطية، لا سيّما وأنّ بعض السياسات الحكومية الاستبدادية كانت تهدف إلى إقصائهم من الساحة السياسية. ومن الغريب ملاحظة أن هذه السياسات هي التي تحظى بدعم ورعاية الديمقراطيات الغربية رغم كونها كثيراً ما تسبّبت في «انزلاقات» عنيفة. وقد صرّح راشد الغنوشي زعيم الحركة الإسلاموية التونسية بشيءٍ من التهكم في محاضرة جرت بجامعة ابن سينا الإسلامية بقرطبة سنة ١٩٩٥م، أن مشكلة العالم العربي اليوم تكمن في «إقناع العلمانيين وليس الإسلامويين بمدى ضرورة الديمقراطية».

وقد أكّد الغنوشي في كثير من اللقاءات والتصريحات التي أدلى بها من منفاه في أوربا بأنّه ضدّ «الأصوليانوية التي تعتقد بأنها وحدها على حقّ وتريد إرغام الآخرين على اتباعه».. وفيما يخص مسألة الإسلام والديمقراطية فهو يعتقد أن «الإسلام لا يحتوي على برنامج محدد خاص بالحياة، بل يعبّر عن مبادئ عامّة، ومهمتنا تكمن في صياغة هذا البرنامج من خلال التفاعل بين المبادئ الإسلامية والحداثة». فالاجتهاد هو الضمان الذي بحوزة المؤمنين، وهو ما يسمح لهم بتفسير النص القرآني، ويبقى حقل نشاطهم مطلقاً بما أن الإسلام ليس له أية مؤسسة أو سلطة موحّدة يمكنها أن تمثّل الدين أو أن تعارض التفسيرات الجديدة[1].

وبعض النصوص الإسلاموية الأكثر حداثة تعتبر المشاركة السياسية ضروريةً اليوم لمواجهة التحديات التي يفرضها العالم الحديث. ومنها ما يذهب إلى اعتبار هذه

(١) Wright, 1996, p 73.

المشـــاركة تـــرياقاً للعـــنف[1]. غـــير أنه من الصحيح أيضاً أن هناك داخل التيار الإســـلاموي الإصلاحي بعض وجهات النظر التي تعارض هذه المشاركة مثل جمال البنا (١٩٨٦م) وعبد العزيز الخياط (١٩٩٢م) الأردني. فالإسلامويون يرون أن بقاء حكومات استبدادية في السلطة وقلة الديمقراطية، من أهم الأسباب الأساسية للعنف، ولهـــذا فإن التجارب التي يشارك فيها الإسلامويون ويحتلون فيها مقاعد برلمانية تُقدّم كأمثلة على أن الدمَقْرطة أدّت إلى وقف العنف (اليمن، الأردن، لبنان وماليزيا)[2]. وهـــم إضافة إلى ذلك، يندّدون بسياسة الخطاب المزدوج التي تنتهجها الديمقراطيات الغربـــية، التي لا صرامة لها بتاتاً مع السلطات العربية الحاكمة فيما يخص الديمقراطية واحـــترام حقـــوق الإنسان، في الوقت الذي يبقى لومها موجَّهاً للإسلامويين دون غيرهـــم. وقد رأينا الدول الغربية تصل حتى إلى الدفاع عن خرق نتائج الانتخابات الديمقراطية عندما يفوز فيها الإسلامويون.

ولقد أثبتت التطورات السياسية في إيران أن «مصلحة الدولة» تتغلّب شيئاً فشيئاً عـــلى «المـــنطق الـــثوري»، وأن نظرة إصلاحية متفتّحة تمكّنت خطوة فخطوة من مواجهـــة الخطاب الأخلاقي اللامتسامح. ونجد اليوم صحافيين وجامعيين ومناضلين سياسيين يتناقشون ويعيدون طرح مسألة دور الإسلام في السياسة ومشاركة رجال الديـــن في الحكم: هل يمكن أن يكون هناك تفسير نهائي للإسلام؟ ما هو دور الدين في السياســـة؟ هـــل الإسلام متماشٍ مع الديمقراطية؟ هل تجربة إيران مابعد-الثورة تستلزم ضرورة إصلاح النظام التقليدي الديني؟ كلّ هذه الأسئلة فتحت مجال النقاش حول مزايا التعددية والمشاركة السياسية والعلاقات مع العالم الخارجي، بما فيه الغرب

(١) Al-Nafisi, 1989.

(٢) Al-Wa'i, 1993, p39.

طبعاً. ويعد الأستاذ عبد الكريم سُروش[1] أحد أبرز مفكري هذا التيار السياسي الإصلاحي المسلم، إذ هو يمثّل هذه النزعة الإسلامية الواسعة الانتشار، المُطالبَة بالتعددية وبالمشاركة السياسية، وهي تعتبرهما عنصرين إسلاميين أصيلين.

ولقد أثبت مفكرو هذا التيار وجود جوهر مشترك يفتح باب التفاعل المثمر بين المجتمعات المسلمة والغربية، ودحضوا الفكرة الشائعة عن المجتمع الإيراني التي تصوره كمجتمع متحجر ومعاد للغرب بشكل مستمر. فسروش وهو بعيد عن تحقيق الإجماع، مفكر يدافع عن فكرة أن القيم الديمقراطية وحقوق الإنسان لها مكانها في أي حكومة إسلامية، وأنه لا يمكن وجود نظرة نهائية وكاملة للإسلام، فهو يرفض بذلك أي محاولة لصياغة أيديولوجية سياسية إسلامية رسمية. وهو لا يعارض أبداً أن يكون للإسلام دور في السياسة بصفة عامة، بل يؤكّد أن الحكومة الديمقراطية عليها أن تعكس المجتمع الذي تمثله. فهو يقول: إن كانت إيران بلداً مسلماً، فعلى حكومته أن تكون ذات طابع إسلامي، مع كون حقوق الإنسان مرجعاً للحكومة حتى يبقى الطابع الديمقراطي للدولة الدينية مضموناً[2].

وأهمّ ما يعنينا في طريقة التفكير هذه هي أنّها لم تنبع من مفكّر إيراني مُعَلمَن، بل من مسلم غيور، شارك في اللحظات الأولى لحكومة مابعد-الثورة، وهو يصوغ

---

(١) عبد الكريم سروش اسم مستعار لحسين الدباغ. درس في ثانوية العلوي، إحدى أولى مؤسسات التعليم التي كانت تدرّس العلوم الدقيقة إلى جانب العلوم الإسلامية، وتخرّج منها العديد من أعضاء الحكومة الإيرانية الحالية. درس علوم الصيدلة في طهران، ثم التاريخ والفلسفة في إنجلترا. كان مُقرّباً جدًا إلى علي شريعتي (توفي سنة ١٩٧٧م) وآية الله مرتضى المُطَهّري (توفي سنة ١٩٧٩م). شغل منصباً مهماً في اللجنة الثقافية للثورة إلى غاية ١٩٨٧م، حيث قدّم استقالته بسبب عدم موافقته على الطرق المتّبعة. أنشأ سنة ١٩٩٢م كلية الأبحاث التاريخية وفلسفلة العلم في معهد الأبحاث والعلوم الإنسانية بطهران. يتمتع سروش بشعبية كبيرة لدى الشباب الإيراني والمفكرين والسياسيين الإصلاحيين، ولديه أيضاً خصوم متعددون في الأوساط المحافظة. وكلما كانت محاضراته في الجامعة وخطبه في المساجد تجلب الناس أكثر فأكثر، كلما حاول المحافظون مقاطعته، فانتهى به المطاف إلى توقيف نشاطه في إيران سنة ١٩٩٦م ليتفرغ للسفر وإلقاء الدروس في الخارج، لأن حياته كانت مهددة كما شرحه في رسالة مفتوحة إلى الرئيس رفسنجاني. ولنتذكر أن الخطاب الذي ألقاه الزعيم الروحي لإيران علي خامنئي، بمناسبة ذكرى الاستيلاء على السفارة الأميركية، انتقد فيه أفكار سروش أكثر من الولايات المتحدة، وهذا وحده له أكثر من معنى. (المؤلفة).

(٢) Vakili, 1996.

فكره السياسي كله انطلاقاً من تصوره للإسلام. وتماشي تصوره الإسلامي مع فكره السياسي يمنح فكره الناقد قيمة تطبيقية كبيرة. فهو يطرح من وجهة نظر أخرى مسألةً طالما طرحها المفكرون المسلمون حول ضرورة «إعادة تركيب» الإسلام لجعله متأقلماً مع احتياجات الإنسان الحديث. وقد أجاب سروش أن الأمر لا يتعلّق بـ«إعادة تركيب» الإسلام بقدر ما يتعلّق بفهم الإنسان للإسلام.

وبعد أن ميّز سروش بين هذين الأمرين، تمكّن من أن يوفّق بين دين لا يتغيّر وعالم مستمرّ الحركة. أي أنه يجب عدم الخلط بين الدين في حدّ ذاته والمعرفة الدينية التي تكتسب بالدراسة. فإن قبلنا بأنّ هذا الخلط خطأ، فهمنا أن المعرفة الدينية إنشاء إنساني، وهي إذن بالأحرى في تطور مستمر. على المسلمين إذن «إعادة تركيب» تفسيراتهم الدينية وفقاً لفهمهم المتغيّر لعالمهم.

ويعتقد سروش أن أي شكل من أشكال الأيديولوجية الإسلامية يعوق تطور المعرفة الدينية. ولكن في الوقت الذي يرفض فيه سروش أن يُستعمَل الإسلام كأيديولوجية، إما كأداة ثورية أو كبرنامج حكومي، إذ أن ذلك يستلزم نظرة جامدة ورسمية للإسلام تُضعف شرعية السلطة، فهو لا يطالب بفصل الدين عن السياسة، بل يقيم الحجة قائلاً: إن السياسة، عليها أن تكتسب حتماً طابعاً دينياً في مجتمع متديّن. فالمسألة التي يرى من الضروري طرحها ليست الفصل بين الدين والسياسة بل طبيعة التفاعل بينهما.

فهو إذن يوافق على أطروحة علي شريعتي حول «جغرافيا المفاهيم» القائلة: بأن على المفاهيم أن تُطبَّق في أماكن نشأتها وليس بالضرورة في أجواء ثقافية مختلفة. وبعبارة أخرى، فإن سمحت العلمانية للغرب بالتحرر من الاضطهاد الديني، فإن المجتمعات الإسلامية لها تجربتها التاريخية الخاصة بها.

الإسلامويون والغرب

لقــد تساءل الشيخ يوسف القرضاوي، الذي يتمتّع بشعبية كبيرة: لِمَ يرتضي الأوروبــيون وجــود أحــزاب مسيحية الاسم والروح، ويرفضون منح هذا الحق للمســلمين[١]؟ فهذا التناقض يُشعِرُ المسلمين أنه تمييز ضدهم، ويمكن أن نضيف إليه نــتائج السياســة الأميركية المبنية على الدعم الأعمى لإسرائيل، التي لم تحترم أيّاً من قرارات الأمم المتحدة بشأن حقوق الفلسطينيين، في الوقت الذي تبدي فيه الولايات المتحدة حزماً راديكالياً في تعاملها مع جيران إسرائيل العرب والمسلمين (قصف ليبيا والسودان والعراق). كل ذلك يدفع الإسلامويين إلى تعميق الهوة بينهم وبين الغرب.

إن التصور السائد في الغرب عن الإسلامويين -وهنا تكمن المشكلة- لا يسمح لــه بــرؤية الاختلاف الموجود بين الإسلامويين باختلاف بيئاتهم القومية وحقولهم الاجتماعية وطرق نشــاطهم. فالنظرة التي مازالت شــائعة نظرة متحجّرة، وتختار إما الخطاب الأكثر تقليدية، ذلك الذي يدعي أنه لازمــاني وأن التاريــخ لايغيّره، أو الخطاب الأكثر إدهاشية، النابع من أكثر الجهات سخطاً أو جهلاً أو راديكاليةً.

وبانطلاق هذه النظرة من هاتين الجماعتين الواقعــتين في طرفي الطيف وتجاهل مــا بينهما، فإنها تصل إلى نتائج شديدة الانحراف عن واقع الطابع العام للإسلاموية بسبب المنهجية المتّبعة.

فــبمعايير اختــيار كهذه، من السهل نسيان أن الطرق المختلفة التي يحاول بها السياســي الســيطرة على الديني لا تتعلق بأصل الأشخاص بقدر ما تتعلّق بالواقع السوسيولوجي الذي يعيشون فيه.

(١) Qardawi, 1993, p 30.

أمـــا الإســـلامويون فأغلبهم موجودون داخل التيارات الإصلاحية التي تقع في الفضـــاء الشاسع الذي يشكله الوسط والذي كثيراً ما يُخفى وجوده وراء التقليديين والجماعات العنيفة.

وبالـــتالي، فإن جزءاً كبيراً من الاضطرابات السياسية التي يعيشها الشط الجنوبي للمتوســـط متأثّر بالطرق السلبية التي تُمثّل بها «الظاهرة الإسلامية»: هذه التمثيلات تقـــتات أساساً الخلافات التاريخية المتراكمة لمدة طويلة حيث إن الإسلام من خلال احتكاكه المستمر بأوروبا، ولأسباب جغرافية وإنسانية وتجارية، قام بأداء دور المُمَيِّز الثقافي في خضمّ الكيمياء المعقّدة التي مرّ منها مسار تكوين الهوية الأوروبية.

فهـــذا المخيال السائد هو السبب في كون الإسلامويين الإصلاحيين يجدون كل تلك الصعوبة في التواصل مع الغرب، وإفهامه أنهم لا يشكّلون تلك الحركات العنيفة والراديكالية التي عادة ما ينعتهم بها. وقلة التواصل هذه تعود أيضاً إلى غياب جسور فكرية مشتركة، مثل ما كان الحال مع حركات مدافعة عن العالم الثالث أو حركات قومية كانت تربطها باليسار الأوروبي علاقات أيديولوجية. ويمكن شرح ذلك أيضاً بـــنـــزعة الغرب المبالغ فيها إلى «غربنة» التاريخ العالمي، مما يجعله يبحث عن نظام قـــيمه الخـــاص بـــه لـــدى كل مخاطبيه. فالشخصيات التي لا تندرج في مرجعيته الأيديولوجية والرمزية لا تستطيع بسهولة التغلغل في حلقة التواصل[1].

فنحن نقبل بصعوبة مثلاً أن التجربة التاريخية والاجتماعية للعالم العربي لم تشهد نـــزاعاً جذريـــاً بين العقل والدين، إذ أن هذا النـــزاع هو الذي يميّز البناء الحديث لأوروبـــا الـــتي تطـــوّرت على أساس تصوّر خطيّ للحداثة. ففقدان الدين لأهميته كمرجعية تلازم مع تطوّر الحداثة، لكن ذلك لم يحدث مع العالم الإسلامي.

(١) Martín-Muñoz, 1999.

وفي الوقت الذي برزت فيه العلمانية كقيمة حداثية وديمقراطية في أوروبا، لم تكن في العالم العربي سوى ثمرة للإرادة المستبدّة لزعماء قوميين في فترة ما بعد الاستعمار. وحيث إن العلمانية كانت في البلاد الإسلامية غالباً ما تحظى بدعم النخب الحاكمة المستبدة المالكة لثروات البلاد، فهناك تعارض مَصالح كامن بين الديمقراطية والعلمانية، عكس ما هو الحال في أوروبا. وأيضاً بما أن العلمانية غالباً ما فُرضَت لمواجهة التراث الإسلامي، فهناك أيضاً تعارض مصالح كامن بين العلمانية والهوية الثقافية.

فيم تنفعنا إذن هذه النظرات الحتمية، التي تجعل الإسلام عائقاً للديمقراطية إذا كانت الحكومات والنخب، التي تدّعي أنها حديثة وعلمانية، هي التي تعرقل تطور الديمقراطية في المجتمعات الإسلامية ؟

المراجع

1) AARTS, P. 1993. « Le Koweit d'après-guerre et le processus de démocratisation ». Maghreb-Machrek, 142. 61-79.

آرتس، ب، ١٩٩٣م، كويت مابعد الحرب ومسار الدمقرطة، ص ٦١-٧٩.

2) BADIE, B. 1986. Les Deux Etats. Paris, Fayard.

بادي، ب. ١٩٨٦م، الدولتين، باريس.

3) AL-BANNA, J. 1986

جمال البنا، ١٩٨٦م، الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الحكم، القاهرة.

4) AL-BARAWI, R. 1975

البراوي، ١٩٧٥م، القرآن والنظم الاجتماعية المعاصرة، القاهرة.

5) AL-BICHRI, T. 1991. « Les conditions d"un dialogue avec l"Occident ». Egypte/Monde Arabe, 7. 125-139.

البشري، ط.، ١٩٩١م، شروط الحوار مع الغرب، ص ١٢٥-١٣٩.

6) BILL, J.A. & SPRINGBORG, R. 1984. Politics in the Middle East. New York, Harper Collins.

بيل وسبرينغبورغ، ١٩٨٤م، السياسة في الشرق الأوسط، نيويورك.

7) CORM, G. 1994. « Perspectives démocratiques au Machrek ». In : R. Bocco & M.R. Djalili (eds), Moyen-Orient : migrations, démocratisations, médiatisations. Paris, PUF. 118-119.

كـورم، ١٩٩٤م، «آفـاق دمقراطـية في المشرق» في: بوكو وجليلي (النشر)، الشرق الأوسط: الهجرة، الدمقرطة، الإعلام، باريس، ص ١١٨-١١٩.

8) CORNE, P. 1980. Slaves on Horses : The Evolution of the Islamic Polity. Cambridge. Cambridge University Press.

كورن، ١٩٨٠م، عبيد فوق الأحصنة: تطور السياسة الإسلامية، كمبريج.

9) DABAGHY, J. DES BEAUVAIS, C. 1996. « Hussein, le funambule de la paix ». Arabies, 111, Mars. 12-21.

دباغي ودي بوفي، ١٩٩٦م، حسين: بهلوان السلام، مجلة آربي، ص ١٢-٢١.

10) HUNTINGTON, S. 1984. « Will more countries become democratic ? » Political science quarterly 99, 2. 193-219.

هنتنغتون، ١٩٨٤م، هل سيزيد عدد البلدان الديمقراطية ؟" مجلة بوليتيكل ساينس كورترلي ٩٩-٢، ص ١٩٣-٢١٩.

11) IMARA, M. 1993

عمـارة، محمد، ١٩٩٣م، التعددية الإسلامية والتحديات الغربية، في ندوة التعددية الحزبية والطائفية والعرقية في العالم العربي، هرندون، فرجينيا، ص٣-١٤.

12) KHAYYAT, A.Al-A, Al-, 1992

عبد العزيز الخياط، ١٩٩٢م، التعددية من وجهة نظر إسلامية، اللواء، ١٦-١، أكتوبر، ص ٢١.

13) LAROUI, A, 1981.

عبد الله العروي، ١٩٨١م، مفهوم الدولة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

14) LEWIS, B. 1996. « Islam and Liberal Democracy. A Historical Overview ». Journal of Democracy, April, pp 52-63.

لويس،ب. ١٩٩٦م، نظرة تاريخية سريعة إلى الإسلام والديمقراطية الليبرالية، مجلة الديمقراطية، أبريل، ص ٥٢-٦٣.

15) MARTIN-MUÑOZ, G. 1997 « le régime algérien face aux islamistes » In. B. Kodmani & M. Chartouni (eds) Les Etats arabes face à la contestation islamiste. Paris, Armand Colin/ IFRI. 41-70.

خيما مرتين–مونيوز، ١٩٩٧م، النظام الجزائري ومواجهة الإسلامويين، في كتاب كدماني وشرطوني (الناشرين) الدول العربية ومواجهة المعارضة الإسلاموية، باريس، ص ٤١-٧٠.

16) MARTIN-MUÑOZ, G. 1998, « The image of Islam and the Arabs in the West. The Prevalence of Culturalist Vision » In : J. Nielsen & S.A. Khasawnih, (eds.) The Arabs and the West : Mutual Images, Amman, Jordan University Press. 59-72.

خيما مرتين–مونيوز، ١٩٩٨م، صورة الإسلام والعرب في الغرب: تغلّب النظرة الثقافوية، في كتاب نيلسن وخاساونيه (الناشرين): العرب والغرب: صور متبادلة، عمان، ص.٥٩-٧٢.

17) MARTIN-MUÑOZ, G. 1999, Islam, Modernism and the West. Londond & New York, IB Tauris

خيما مرتين–مونيوز، ١٩٩٩م، الإسلام والحداثوية والغرب، لندن ونيويورك.

18) MARTIN-MUÑOZ, G. 1999, El Estado Arabe. Crisis de legitimidad y contestacion islamista, Barcelona, Bellaterra.

خيما مرتين–مونيوز، ١٩٩٩م، الدولة العربية. أزمة الشرعية والمعارضة الإسلاموية، برشلونة.

19) NAFISI, Al., A' 1989

النفيسي، ١٩٨٩م، الحركة الإسلامية. رؤية مستقبلية: أوراق في النقد الذاتي، القاهرة، مكتبة مدبولي.

20) OTHMAN, F., 1992

فتحي عثمان، ١٩٩٢م، في التجربة السياسية للحركة الإسلامية المعاصرة

21) PIPES, D. 1981, Slaves, Soldiers and Islam : the Genesis of a Military System. New Haven : Yale University Press.

بايبس، ١٩٨١م، العبيد والجنود والإسلام: تكوين النظام العسكري.

22) PIPES, D. 1983, In the Path of God : Islam and Political Power. New York, Basic Books.

بايبس، ١٩٨٣م، في سبيل الله: الإسلام والسلطة السياسية

23) PRYCE-JONES, D., 1989. The Closed Circle : an interpretation of the Arabs. New York, Harper & Row.

برايس-جونس، ١٩٨٩م، الدائرة المغلقة: محاولة تفسير للعرب

24) QARDAWI (AL), Y , 1993

يوسف القرضاوي، ١٩٩٣، المجتمع، ٢٤-١٠٨١، ص-٣٠-٣٦.

25) SADOWSKY, Y. 1993 « The New Orientalism and Democracy Debate » Middle East Report, 183, 23,4, pp 14-21.

سادفسكي، ١٩٩٣م، الاستشراق الجديد والجدال عن الديمقراطية، مقال في ميدل إيست ريبورت ١٨٣-٢٣-٤ ص ١٤-٢١.

26) TOZY, M. 1999. « Réformes politiques et transition démocratique » Maghreb-Machrek, 164, pp 67-84.

توزي، ١٩٩٩م، الإصلاحات السياسية والتغير الديمقراطي، ص ٦٧-٨٤.

27) VAKILI, V. 1996. Debating religion and Politics in Iran : The political thought of Abdolkarim Soroush. Studies Department Occasional Papers Series, 2. Council on Foreign Relations. NY.

فاكيلي، الجدال عن الدين والسياسة في إيران: الفكر السياسي لعبد الكريم سروش.

28) Al-Wa'I, T. 1993

الواعي، ١٩٩٣م، الحوار هو الحل للعنف، المجتمع، ٢٤، ١٠٨١، ديسمبر ٢٨، ص ٣٨-٤١.

29) WRIGHT, R. 1996. « Two Visions of reformation ». Journal of Democracy, April, pp 64-75.

رايت، ١٩٩٦م، نظرتان إلى الإصلاح، مجلة الديمقراطية،أبريل، ص. ٦٤-٧٥

معركة المصطلح

الدكتور زيد بن عبد المحسن الحسين(*)

قذفت أحداث الحادي عشر من سبتمبر بمجموعة هائلة وخطيرة من المفردات والمصطلحات، ذات الدلالات الخاصة، التي يحاول الغرب من خلال إشاعتها واستخدامها احتلال العقول، وإعادة صياغة الشخصية، وتوفير القابليات وتحضيرها للقبول والتلقي؛ لأنه أدرك أن معركة الأفكار هي المعركة الأساس، وأن الفكرة والمصطلح هي القوة المرنة، التي سوف يكون لها التحكم والتمكن في عالم الغد.

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين.

تتعرض ساحة الأمة المعرفية لهجمة مصطلحية شرسة، استخدم العدو فيها كل وسائل التلقي دون استثناء، وحاول أن يغطي كل مساحات التعامل، الشريف منها والوضيع، مجنداً لتحقيق أهدافه في عزوه هذا، جيشاً من المتخصصين أمدّهم بالمال وبكل ما يحتاجون.

(*) الأمين العام السابق لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.. (المملكة العربية السعودية).

تــأتي هــذه الهــبَّة من الغريب، بعد إدراك تام مبني على دراسات علمية متخصصــة، أثبتــت نتائجها التأثير العميق الذي يحدثه «المصطلح» في تفكير المــتلقي، وموقفــه من المتلقي، وتعامله مع المادة المتلقاة، يأتي ذلك في غفلة من حــراس التراث الإسلامي، وسلبية بعض من حامليه، في جماعة صار أكبر همّها الاستهلاك، مادياً كان أو معنوياً، على أن طائفة من النخبة فيها لا تقدر خطر «المصــطلح» حــق قــدره، ولا في اســتعماله عمق تأثيره، لأنها لم تفقه بعد موضوعه، ولا استوعبت إشكاله.

وللأسف الشديد، قد تبوأ جزء من هذه النخبة، مراكز القرار في مؤسساتنا التعليمــية والعلمــية؛ جامعــات ومجــامع، ومعاهد، ومراكز أبحاث، فتلقوا «المصطلح» الوافد بالصدر الرحب، وأنزلوه المقام الذي أراده باعثوه؛ وقد يعمد أصــحاب الــدار، إلى إلباسه الزي المحلي، لعلمهم بطول مكثه، حتى لا يكون مستنكراً بين الناس.

ولا أغمــط هــنا حق رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حبسوا أنفسهم يدفعــون عــن هــذه الأمــة محــاولات المســاس بمقومات هويتها، وتراثها الحضــــاري، أو تخلــيص مــا وصل إليه (الآخر) منها، واختيار ما تقتضيه مصالحها، دون التأثير على ثوابتها من الوافد عليها.

مفهوم «المصطلح»

- «المصطلح» في اللغة:

صلح: الصاد واللام والحاء، أصل واحد، يدل على خلاف الفساد.

والصلح: السلم.. وصالحه مصالحة وصلاحاً؛ واصطلحا، واصّالحا، وتصالحا، واصطلحا[1].

قال الزبيدي: والاصطلاح «اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص»[2].

والمراد به في هذا المقام: هو «عبارة عن اتفاق قوم على تسمية شيء باسم بعد نقله عن موضعه الأول لمناسبة بينها»[3].

و المراد بالقوم، الطائفة أو الجماعة، التي تشترك في تخصص واحد، سواء أكان في العلوم الإنسانية، كالفقه أو أصوله، أو النحو وغيرها؛ أم التجريبية كالفيزياء والكيمياء والطب وغيرها.

أما نقله من وضعه الأول، فالعلوم العربية والإسلامية، تبدأ من الوضع اللغوي ثم تنتقل لتصبح مصطلحاً ذا دلالة خاصة، في علم خاص، وتحمل أحكاماً خاصة، ثم تصبح مفاتيح أساسية لذلك العلم بعد التواضع.

ويكون التناسب الدلالي، هو الرابط بين الوضع اللغوي والمعنى الاصطلاحي.

أما مصطلحات العلوم التجريبية، فإنها تشترك مع الأولى في عنصر الاتفاق الحاصل بين أهل التخصص، إلا أنها تختلف عنها في وضعها الذي قد يكون في العلوم التجريبية مرتبطاً بالمخترع، أو بمكونات المخترع، أو بمميزاته... وهكذا.

---

(١) انظر ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢ (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م) ٣/٣٠٣؛ الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م) ص ٢٩٣ .

(٢) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق حسين نصار (الكويت: مطابع حكومة الكويت) مادة صلح.

(٣) التهانوي، محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق رفيق العجم وآخرون (بيروت: مكتبة لبنان الناشرون، ١٩٩٦م) ٢/٨٢٢ .

ولاشــك أنّ هــناك فــرقاً بيّناً بين الدائرة المعرفية للعلوم الإنسانية، التي حاز المســلمون فــيها قصــب السبق، بحثاً وتأصيلاً ووضعاً للمناهج، والعلوم الفيزيائية المــتطورة وعلــوم الحاســوب والعلوم التكنولوجية وغيرها، خاصة إذا اعتبرنا أن التكنولوجيا هي التطبيق المباشر للعلم ونظرياته.. وهذا الإنجاز للغرب يمثل الاستثمار الهــائل للعلــوم الــتي تعددت مصادرها والتنظير لها منذ أمد بعيد في أماكن مختلفة وحضارات متعددة، مما بلغ الغرب فيه شأواً بعيداً، والتي يحتاج إليها المسلمون، لعجز في تحصيلها، أو لاستكمال نقص فيها، وهنا نحتاج لنقل هذه المعارف للترجمة.

إلا أن «المصطلح» الوافد، في غير التخصصات المذكورة آنفاً، يحمل قيم ومبادئ وتصــورات وأهداف أصحابها، فيكون نقل الكلمة من غير العربية إلى العربية، عن طريق الترجمة يقتضي الانتباه إلى خصوصيات المنقول منه إلى المنقول إليه، وهذه وظيفة المترجم، ولا شك أن مسؤولية المترجم ووعي الأمة بحسب خطورة الخطأ في نقل معنى هذا «المصطلح»، وتداعيات ذلك، أمور أساسية؛ وذلك لعدم حيادية «المصطلح» حتى بالنسبة للتكنولوجيا؛ لأنها تنقل مضامين ثقافية من الحضارة الحاضنة لها.

توظيف «المصطلح»:

إذا كنا نعتقد بأن المستعمر لــمَّا سحب جيوشه وآلياته الحربية من بلادنا، قد خلى بيننا وبين أنفسنا، وتراثنا، وثرواتنا، وحرية تعاملنا مع الآخرين، وإذا تصور أحدنا حصاد خمسين مليون آدمي في الحربين العالميتين، كان نهاية لهما، وإقفالاً لباب الغزو، وإذا خطر بخلد مثقف من مثقفينا أنّ سلماً حقيقياً قد حلّ بعد أن وضعت الحرب الباردة أوزارها، صحّ فينا قولهم: «إن العرب لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون».

غير أن اجتياح المحتل الأرض، واستخدام جيوشه، ونصب الصواريخ بعيدة المدى، الحاملــة لــرؤوس نوويــة، والانتباه الشديد، بتسخير كل وسائل المراقبة للجوسسة،

والمضادة لها، للسيطرة على مقدرات الأمم، أغراه بالعودة إلى شكل الاستعمار السابق، وأوجد حصانة ذاتية لدى المستعمَر والمستهدَف بالغزو عموماً، جعلته يشكك في كل ما يلقيه إليه هذا العدو، لأن الأصل في هذا الأخير الرغبة الجامحة في الاستحواذ على ما عند المستهدَف، ولو كلّف القضاء عليه.

ومع المقاومة الشديدة، والخسائر التي تكبدها المستدمِر، والخوف من الدمار الشديد الذي تلحقه حرباً عالمية ثالثة، اجتمعت إليها ازدياد الحاجة لثروات تلك البلاد، والتوجس من قوة كامنة لدى المسلمين في دين يحمل مخزوناً حضارياً هائلاً، وقدرة على إحداث تغيير متكامل، لجأ الغرب إلى احتياطيه في الجيش من المستشرقين والمنصِّرين، يمدهم الصهاينة بخبثهم ومكرهم، مستأنفين المعركة من جديد، مستبعدين عنصر التمايز الذي أحدث نفرة (الآخر) منهم، مستبدلين سلاح المعركة - مكرهين لا قانعين، وللفرصة مستغلين، وبالعراق وأفغانستان مبتدئين - من مدفع وصاروخ، وطائرة، وقنبلة، إلى كلمة ولفظة تعرف بـ «المصطلح»، فنقلوا المعركة من الأرض إلى العقل، واجتهدوا في تحصيل ربع ثرواتنا بأيدي أبنائنا، مجندين أبناء جلدتنا في مهاجمة دينهم والإساءة إليه، فتأمل الفرق بين المعركتين.

ورغم المخزون التراثي الضخم الذي تتمتع به أمتنا، من كثرة وجودة علمية تتفوق به على (الآخر)، يبقى من يمتلك وسائل الاتصال السريعة المختلفة، هو القادر على مخاطبة المثقف والعامي، الكبير والصغير، الذكر والأنثى، في أي ساعة من الزمان، وفي أية بقعة من المكان؛ المسيطر في نشر مصطلحاته، المشكِّل لفكر المتلقي لها، الموجِّه لرغباته، وميوله.

ولم يقصِّر الغرب لحظة واحدة، بعد امتلاكه لزمام وسائل التأثير، في توظيف هذا السلاح «المصطلح» في خلط المفاهيم الإسلامية بالمصطلحات الغربية حيناً

(الديموقراطية الغربية تساوي الشورى في الإسلام) وتشكيك في الإسلام أحياناً أخرى «المحمدية Mohammedanism» في نسبة القرآن للرسول ﷺ، يساوي الإسلام... وهلما جرا.

وقد برع المستشرقون والمنصرون والصهاينة، ومن يحمل بين جنبيه حقداً على الإسلام وأهله، في إحداث بلبلة فكرية، وضبابية في المفاهيم عند المسلمين عموماً، وطبقة المثقفين منهم، على وجه الخصوص.. وتمكنوا من إيجاد قناعة كبيرة لدى شريحة محترمة عند الآخرين في أن بلوغ مستوى المثقف الحضاري عند الغرب، يستوجب بالضرورة سلوك الفكر الغربي، واتباع أساليبه الاجتماعية، واستخدام مصطلحاته العلمية والثقافية على السواء.

كما استطاعوا، بقدرتهم على توليد «المصطلح»، والتخطيط لتوظيفه، وإيجاد الآليات لذلك، إنجاز الكثير من مخططاتهم المعادية للإسلام، الهادفة لسلخ أهله عنه، وإبعاد (الآخر) منه، فلم يقتصر «المصطلح» في الخداع الفكري على محاولة اختراق البنى الفكرية والثقافية للأمة، عن طريق ضخ أفكار جديدة في ثنايا هذه المصطلحات تتناقض مع مكونات هذه البيئة، وتتحيز لبيئة ثقافة الغازي، وإنما يتجاوز ذلك إلى التشكيك في الثوابت التي تنهض عليها تلك البنى، بإعطاء المصطلحات التي تتوارثها الأمة معانٍ جديدة، وأبعاد أخرى مغايرة لدلالتها الأصلية[1].. ويذهب الغازي في حربه المصطلحية إلى أبعد من ذلك، عندما يوظف «المصطلح» للتشكيك في أصل الرسالة وربانيتها، فيدخل في مصطلح «التراث» مثلاً النص المقدس، حتى يهدم السور الذي يفصل بين النص البشري والنص المعصوم، فيحجب بذلك خاصية العصمة التي يتمتع بها الأخير، ويسلط عليه النقد والمناقشة.

(١) انظر زيد الحسين، المصطلح ووهم الحياد، مجلة الفيصل، العدد (٢٣٨) ص ٥.

والذي يزيد في ضعف الأمة في هذه الحرب الضروس، عوامل ثلاثة:

١ - وجـود طائفـة من أبناء الأمة تقف في الصف المقابل، جنباً إلى جنب مع (الآخر)، تسوِّق مصطلحاته، متخذة من حاجتنا إلى ما عند الغرب من تفوق علمي في مجـال العلوم التجريبية مطية لدعوى ضرورة وحدة «المصطلح»، حتى نستوعب قواعـد تلـك العلوم، ونفهم مسائلها، دون فصل بين «المصطلح» في هذا المجال، و«المصـطلح» في مجالات أخرٍ، والتي يلقي فيها هذا الأخير بظلاله على قيم الأمة، ومعتقداتها، وحركتها الفكرية.

٢ - وجـود صـنف آخـر من مثقفي الأمة، يؤمنون بحياد «المصطلح»، وأنه مشـترك إنساني عام، دلالاته موروث ثقافي لكل حضارات، صالح لكل الأمم، أداة التواصل بينها، وجسر عبور لتجارها.. ولا شك أنّ الضفة الشرقية، لن تتوقف أبداً عن استقبال الوافدين عليها من الضفة الغربية، فتتلون الأولى بصبغة الثانية، وسيعمل الوافدون على تغييب كل ما يربط المشرق بموروثه الحضاري الأصيل.

٣ - التعصـب الذي يدفع صاحبه للإساءة للإسلام وللأمة، وخدمة أعدائها، دون وعـي ولا إدراك، بتولـيده للمصطلح الذي يوظفه في تمزيق وحدة المسلمين، وتشـويه الحقائق الشرعية، وخدمة (الآخر)، ومساعدته في حربه عليه، وعلى جماعة المسلمين، ودينهم.

فإذا تقرر هذا، أمكن أن نقسم «المصطلح» من خلال هذا التصور إلى أنواع ثلاثة:

١ - «المصـطلح» الذي خرج من رحم النصوص الشرعية، أو التراث العلمي الصحيح، واتخذنا «الولاء والبراء» نموذجاً للبحث فيه.

٢ - «المصـطلح» الوافـد، الذي يحمل بين دلالاته ثقافة (الآخر) وتصوراته، وأحكامه، وجعلنا من «الإرهاب والأصولية» مادتين لبحثه.

٣ - «المصطلح» التهمة، المختلق عصبية، وكان لفظ «الوهابية» هو المختار للبحث.

أولاً: الولاء والبراء

أ- الولاء:

الــواو واللام، والياء، أصل صحيح يدل على القرب، قال ابن فارس: «والباب كله راجع إلى القرب»[1]

الولي: القرب والدنوّ.. **والولي**؛ الاسم منه؛ المحب والصديق والنصير.

والمولى: المالك، والعبد، والمعتِق والمعتَق، والصاحب والقريب،كابن العم ونحوه، والجار والحليف، والربُّ، والناصر والمنعِم والمنعَم عليه، والمحب والتابع.

والولاية بالفتح: المصدر؛ وبالكسر: الخطة والأمارة والسلطان.

والولاء: الملك، وأوليته الأمر، وليته إليه إياه.

وتولاه: استخدمه ولياً.

وأولى على اليتيم أوصى؛ واستولى على الأمر بلغ الغاية.

فكلمة «ولي» اسماً أو فعلاً أو مصدراً، تشعر بوجود طرفين، تجمع بينهما رابطة معيّنة، تفيد القريب بمفهومه الواسع، والذي يدخل تحته التعلق القلبي بمختلف مراتبه، والانــتماء القبلي والعشائري، وعقد الثواب، وما يحصل بالنسب والسبب، النصرة والتأييد.. وهذا التباين في نوع الرابطة بين المتولى والمتولي، ينتج عنه دون شك تنوع في الولايــة، أصــــل بعضها المحبة وآخر النصــرة، والتأييد، وثالث العقد والولاء. كما يمكننا أن نسجل أن بعض هذه العلاقات إرادي، والآخر لا إرادي.

أما في نصوص الكتاب والسنة فقد ورد «الوليّ» اسم من أسماء الله تعالى، وورد «الــوليّ» بمعنى الناصر، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، وقال سبحانه: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ

(١) ابن فارس، المرجع السابق، ٦/١٤١-١٤٢.

لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:٥١)، أي؛ ناصرنا، وغيرها من الآيات.. وجاء في الحديث قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاهَا**»[١].

كما جاء معنى «الولي» في آيات أخرى، بمعنى المتولي الأمور، العالم بالخلائق، القائم بها، المتصرف فيها[٢]. وبالمعنى الأخير جاء قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ ﴾ (الرعد:١٦) فإن كانت الولاية الأولى خاصة بالمؤمنين لما فيها من الرضا الرباني عنهم، وما يترتب عنه من محبة وتأييد ونصرة، فإن النوع الثاني يشترك فيه المؤمن والكافر، لدخول الجميع تحت قدرة الله وملكه وإرادته وتدبيره.

كما جاءت هذه الكلمة في عدة آيات قرآنية، تحمل الوصاية والحلف بين بني البشر، مسلمهم وكافرهم، في علاقة متبادلة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٧١)، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۖ ﴾ (الجاثية:١٩).

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك النوع الذي ينشأ دون إرادة الطرفين، بل بإرادة الله تعالى، حكمة منه سبحانه في تسيير هذا الكون، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (الدخان:٤١). أي لا ينفع ابن عم عن ابن عم، ولا صاحب عن صاحب[٣].

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) ابن منظور، المرجع السابق، ٩٨٤/٣.
(٣) انظر السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٧٧٤.

وقوله تعالى: ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (البقرة:٢٨٢).

وقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ» (١).

كما نلاحظ في الاستعمال الشرعي لمادة «ولي»، غياب العلاقة الدالة على معنى المحبة والنصرة أحياناً، ففي الحديث المتقدم قد أثبت الشارع الحكيم حق الولاء للمعتِق، دون التفات إلى المشاعر التي يكنها كل منهما للآخر(٢).

ب - البراء:

الباء والراء والهمزة، أصلان إليهما ترجع فروع الباب:

أحدها الخلق، يقال برأ الله الخلق، يبرؤهم برءاً، والباري الله جلّ ثناؤه.

والآخر، التباعد من الشيء ومزايلته، من ذلك البرء وهو السلامة من السقم، والبراءة من العيب والمكروه، وبارأت المرأة على المفارقة، وأبرأت من الدين والضمان، ويقال: إن البراء آخر ليلة من الشهر، سمي بذلك

وبرأ: قال الفيروزآبادي: برأ الله الخلق كجعل برءا وبروءا خلقهم،

وبرؤ، تبرءا وبرءا وبروءا: نقه؛

وبرئ من الأمر يبرأ براءة ، تبرأ؛

وبارأه فارقه.

وقد جاءت الآيات الكريمات والأحاديث الشريفة بالمعاني سالفة الذكر، وبالمعنى الأول قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ (الحديد:٢١). وبمعنى الشفاء والبرء قال الله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:٤٩).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٢٧٦٨) .

(٢) انظر: صيني، سعيد إسماعيل، حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ص ٧٨.

وفي دفع التهمة، قال سبحانه في تبرئة موسى عليه السلام: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ (الأحزاب:٦٩).

وفي قطـــع العلاقة بين طائفتين، قال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٦-١٦٧)؛ وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:٤١).

وإذا اســـتثنينا معـــنى الإبداع من كلمة «برأ»، وتأملنا في معانيها التي لها تعلق بالمخلوق، وجدناها تشترك في معنى واحد، ألا وهو بغض الشيء المراد الانفصال عنه كالمـــرض، والعيب والتهمة، والدين، وكذلك العمل الذي تتلبس به الطائفة المتبري مـــنها، فتبـــيّن أن التبري واقع على ما يحمله الشخص من أشياء مكروهة، وحاصل بسبب سلوك تلبس به، لا بالذات التي تحمل ذلك.

وقـــد يَردُ على هذا قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (الممتحـــنة:٤) حيث تبرأ ســـيدنا إبراهيم والطائفة المؤمنة معه، من قومهم، والعمل الذي تلبسوا به ألا وهو «عبادة غير الله». ويـــزول الإشكال، بالحد الذي وضعه سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والســـلام، غاية لهذا التبري والبغض والعداوة، حين قال: «حتى تؤمنوا بالله وحده»، فهـــي ليست عداوة أبدية، لكنها نشأت بسبب صدكم لنا عن دعوة الحق، ستنقطع تلقائياً بإيمانكم بالله وحده.

علاقة الولاء والبراء بالمحبة والمعاداة:

والسؤال الذي يُطرح هنا، وتزيل الإجابة عنه إشكالية فهم «مصطلح» الولاء والبراء، هو: هل المحبة والنصرة ملازمة للولاء؟ وهل العداوة ملازمة للبراء؟

إن المعاني السابقة التي دلت عليها كلمة «ولي» لم تتضمن المحبة والنصرة فقط، بل جمعت إضافة إلى ذلك، معاني أخرى، لا علاقة لها بالمشاعر، بل وحتى المحبة هنا ليست كلها في درجة واحدة، لاختلاف أنواعها، فمحبة الله أعلى درجاتها، ثم محبة رسوله ﷺ ثم محبة الأنصار خصوصاً والمؤمنين عموماً، ومحبة الزوجة، وقل مثل ذلك في الأم والأب والقريب.

فالمحبة والنصرة الملازمة للولاء المشروع هي تلك التي تتضمن عنصر القصد «في الله»، وهي التي يجب صرفها للمسلمين دون غيرهم، ويترتب عليها التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا، رجاء الثواب والأجر بذلك عند الله، ومتى صرف مثلها إلى غير المسلم ممن لاتربطه به رابطة كوحدة الهدف والمصلحه والتوجه، مما أمر به الله، خاصة عندما يوجد أي موقف عدائي أو بواعثه على أساس الكراهيه للعقيدة أو للجنس أو للتوجه أو للهدف.. إلخ، فهو موقف يتعارض مع أبسط قواعد الإسلام وظوابطه، ويترتب عليه عدم الولاء.

أما المحبة التي لم يقصد بها «الله»، وكانت لأجل العشرة والتعامل بالحسنى، وحسن الخلق، ونحوها، فهو من باب البرّ والصلة، الذي حث عليهما الشارع الحكيم مع الوالدين وذوي القربى، وما جاء النبي ﷺ ليتممه من مكارم الأخلاق مع البشرية كافة، فليست من الولاء المشروع في شيء، قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (النساء:٣٦)؛ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ

عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ (لقمان:١٤-١٥)، وقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).

وقوله ﷺ في أهل مصر: «**إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا**»[١].

وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْت أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: **نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ**[٢].

ومـا أجازه النبي ﷺ لأمان أم هانئ لمشركين من ذوي قرابتها عند فتح مكة[٣] إلا شاهد آخر على ما تقرر آنفاً.

كما يؤكد هذا المعنى، أشد الصحابة على الكفر وأهله عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين أهدى أخاً له مشركاً ثوباً[٤].

أما عن العلاقة بين المعاداة والبراء، فقد تلخص مما سبق بحثه، أن التبري في الأصل يكون لمعاني نبغضها لذاتها، أو لما يتلبس به الشخص مما يوجب بغضاً شرعياً، كمن ينصب العداء للإسلام والمسلمين.

فالنوع الأول من التبري، لا تلازم بينه وبين معاداة من تلبس بالمعنى المتبرى منه، كالمريض والمتهم وصاحب الدين ونحوهم.

وأما النوع الثاني؛ والذي يلحظ فيه قصد الانفصال من أجل السلوك المؤدي للكفر، فهو الذي رتب عليه الشارع الحكيم بغضه وبغض أهله، لأجل ذلك فقط،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، رقم ٤٦١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٤٣٧.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي النَّضْرِ، مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، أَنَّ أَبَا مُرَّةَ، مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أُمَّ هَانِئٍ بِنْتَ أَبِي طَالِبٍ تَقُولُ: ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي عَلِيٌّ أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ، فُلَانُ بْنُ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ.. قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ: وَذَلِكَ ضُحًى.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٥٥٢٣.

ولا يمنعه ذلك حق وجب أداؤه إليه، أو حسن معاملة اقتضتها مخالطة، أو وفاء أوجبه عقد ومعاهدة، أو مشاركة في منفعة دعت إليها مصلحة للمسلمين.

فـإذا تقرر هذا، أمكن القول: بأن الموالاة إذا كانت بمعنى المحبة للكفار، بما هم عليه من كفر، ومحالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، أو تفضيلهم عليهم، فهي الموالاة المنهي عنها، والتي حرمها الله بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ (آل عمران:٢٨).

ولم يستثن الشارع الحكيم إلا حالة واحدة، جاء ذكرها عقب الآية السالفة الذكر، وهي قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.. وحرمة الموالاة هنا توجب لا محالة وجوب البراء. وهذا المعنى؛ هو الذي تقتضيه الرسالة التي بعث بها محمد ﷺ إلى الخلق كافة، ألا وهو دعوتهم إلى الإسلام، ومجانبة الكفر والشرك، وأنى لمريد القيام بهذا الواجب إذا اعتزل الكفار، وأساء معاملتهم، وناصبهم العداء دون مبرر!! وتفرضه كذلك حاجة الناس بعضهم إلى بعض، لقيام مصالحهم، واستمرار عجلة الحياة بتعاونهم.

فمصاحبة الكافر، ومعاملته بالحسنى، وإفادته والاستفادة منه في أمور الدنيا، دون حقد ولا كراهية، لا يعني بأي حال من الأحوال موالاته شرعاً، وهذا يستلزم عدم مناصبة العداء والتبري منه لشخصه، إذا لم يناصب المسلمين العداء، ويعمل على الكيد لهم ولدينهم، فإذا فعل ذلك وجب البراء.

إن الإساءة لهذا «المصطلح» قد بدأت بعدم التمييز بين المعنى الشرعي له، وما دلت عليه الدلالة اللغوية.. ولما تبنى هذا الخلط أهل «المصطلح» أنفسهم، وجد أعداؤه فرصة لتمييعه، وتوظيفه لمحاولة التأثير به في قيم هذه الأمة، وإحداث الشقاق والفرقة بين أبنائها، فصدروا لنا «مصطلح» التسامح الذي يريدون، أو التعايش السلمي، أو التقريب بين الأديان، وغيرها من المصطلحات، وتأتي هذه الهجمة مع عجز إعلامي للمسلمين، لم يقدر على إيصال مصطلحات ومدلولاتها الصحيحة إلى (الآخر).

ثانياً: الإرهاب والأصولية

أ- الإرهاب:

تعريف: الراء والهاء والباء؛ أصلان: أحدهما يدل على خوف، والآخر على دقة وخفة [1].

ورهب خاف، وأرهبه واسترهبه أخافه، وترهبه توعده. والترهب التعبد، وراهب واحد الرهبان النصارى، ومصدره الرهبة والرهبانية[2] ومنه قولهم: «لا رهبانية في الإسلام».

فمادة «رهب» تدور على معنى الخوف بمختلف استعمالاته، سواء أكان ممارسة للتخويف «أرهب» و«رهّب»، أم خوفاً من الله سبحانه «فيترهب»، أم التوعد بالمكروه «ترهبه». ونلحظ أن الآثار المترتبة على هذه المعاني، تتفق في معناها العام، وإن اختلف وسائلها.

فالخائف يسعى بكل جهده لدفع ما خوِّف به، بكل وسيلة ممكنة، إيجابية كانت أم سلبية، فهو قد يهرب لدفع الخوف، وقد يستعد بما يدافع به عن نفسه، كمن دخل خوف الله قلبه، فيلجأ إلى العبادة والزهد، دفعاً لعقوبة الله تعالى، وطمعاً في مرضاته؛ أو استعد مادياً بالتسلح ونحوه لدفع مكروه خوِّف به.. وفي قوله تعالى: ﴿ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ (الأنفال:٦٠)؛ تخيفون أعداء الله وأعداءكم بذلك - أي الإعداد - ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ﴾ (الأنفال:٦٠).. وقد أقر مجمع اللغة العربية في القاهرة مادة «رهب» أساساً لكلمة «الإرهاب» بوصفه مصطلحاً

(١) انظر: ابن فارس، المرجع السابق، ٤٤٧/٢.

(٢) ابن منظور، المرجع السابق، ٤٣٦/١؛ الفيروزآبادي، المرجع السابق، ص١١٨.

حـــديـــثاً، وذكـــر أن «الإرهابيين» وصف يطلق على الذين يســـلكون ســـبيل العنف لتحقيق أهدافهم السياسية[١].

وهـــذا الوصـــف لا شك أنه مقتبس من معنى «الإرهاب» عند أصحاب هذا «المصطلح» «Terrorism» المشتقة من كلمة «Terror» فقد عرف قاموس أُكسفورد «الإرهـــاب» بأنـــه: «استخدام العنف، والتخويف بصفة خاصة، لتحقيق أهداف سياســـية»[٢].. وعـــرّفه قاموس روبير«Robert» الفرنسي بأنه: «الاستعمال المنظم لوســـائل استثنائية للعنف من أجل تحقيق هدف سياسي، مثل الاستيلاء، أو المحافظة على السلطة، أو ممارسة السلطة...الخ» [٣].

ولســـت هنا بصدد بحث تعريف جامع مانع «للإرهاب»، فقد ذكرت له أكثر مـــن مائة وخمسة وعشرين تعريفاً، اختلفت مدلولاتها بحسب اختلاف الأيديولوجيا والمصـــالح الاستراتيجية، والغرض من استعماله، والموروث التاريخي والحضاري لدى المعـــرِّف، بـــل لتســـليط الضوء على هذا «المصطلح» الوافد الذي مكّن له الإعلام الخـــارجي، حـــتى استعملته المجامع اللغوية والفقهية، والمؤسسات العدلية والأمنية، والساسة ووسائل الإعلام بمختلف أنواعها على السواء، بحيث لم يشذ أحد باستعمال غيره، ولن يشذ ولو فعل، لعُدّ ذلك منكراً من القول وزوراً.

إن المتأمل فيما صنف من أعمـــال عنف، تحت هذا المصطـــلح «الإرهاب»، يجد أن تراثـــنا الشـــرعي والفقهـــي قد حـــدد لكل صنف مـــما ذكر من جرائم إرهابية مصـــطلحاً خاصـــاً بـــه، وألحق بكل منها العقوبة المناســـبة له، فتجده يفرق بين من

---

(١) المعجم الوسيط، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ص ٣٩٠.

(٢) William Little Etal,The Shorter Oxford English Dictionary (London: Oxford University Press,1967) p 2155

(٣) انظر القيام، عادل، دراسة عن الإرهاب: مفهومه وأسبابه، جريدة البيان،١٣/٤/١٩٩٨م .

يخــرجون يرهبون الناس بالســلاح جهاراً، يأخذون أموالهم وأرزاقهم عنوة، فاصطلح عــلى تســميتهم «بالمحاربين»، أما الذين يخرجــون على الحــاكم في طائفة لشبهة عرضــت لهــم، ولهم شوكة فهم «بغاة»، فإن خرجوا في منعة وحمية بتأويل يكفرون الحــاكم، ويقاتلونه، ويستحلون دماء المسلمين وأموالهم، فهم «خوارج»[١]، فانظر إلى هــذا الثراء في «المصطلح»، والدقة في التفريق بين مختلف الجرائم التي تشترك في عنصر «ممارسة العنف».

ومــا كــنا بحاجة لاستيراد مصطلح «الإرهاب»، وإجهاد المؤسسات التشريعية لــتعريفه وتكيــيفه، ثــم تقرير العقوبات المناسبة لذلك، لو وجد في بلادنا جهات تعــتني بالكشــف عن المصطلح، ودراســته، ووضع معجم له، ثــم ممارسة سلطة إلزامــية لاســتخدامه في مختلف الدوائر، التعليمية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعــية والإعلامية وغيرها. إلا أن الغرب أعدّ مصطلح «الإرهاب»، ومارس علينا كل أنواع التأثير، بــما فيها «الإرهاب» الفكري، ليضــرب، ويضــرب بنا، كــل مــن يناوئ أو يشاغب على مكتسباته المادية في بلاده وبلادنا، ويمحو بثقافة العجــل وحضــارة العجل - على حد تعبير الأستاذ البوشيخي[٢]- ثقافتنا وتراثنا الحضاري، ويخلص في الأخير للقضاء على كل خصوصياتنا، لترفع الأجيال المرهوبة رأسها على خصوصياته، ولا يحتاج عندئذ أن يحمل علينا بخيل ولا ركاب، إذا صرنا كلنا جنده!

---

(١) انظر: تعريفات هذه المصطلحات عند ابن قدامــة، المغني؛ الزيلعي، تبيين الحقائق؛ الرصــاع، شــرح حدود ابن عرفة، الشربيني، مغني المحتاج.

(٢) البوشــيخي، الشــاهد، نحــو تصور حضاري شامل للمسألة المصطلحية، محاضرة ألقيت بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض في ٣٠شوال ١٤٢٢هــ، ص١٤.

ب – الأصولية:

هذا «المصطلح» أنشئ ليدل على الصورة الرافضة للعقل والعلم من قبل الرهبان الذيـــن يمثلون الكنيسة الكاثوليكية، ونتج عن ذلك الرفض قتل العلماء، واعتبارهم كفـــرة يجـــب أن تحاربهم الكنيسة، رغم أنهم أبناؤها، وقد قام الغرب بإطلاق هذا «المصـــطلح» لـــيمارس نوعاً من التماثل بين التوجه الرهباني الكنيسي المتشدد وبين الـــرجوع إلى أصول الإسلام ومنابعه، رغم خطأ هذا التماثل الذي يتعارض مع نهج الإســـلام الحـــاث على العلم وطلبه، وتشجيع العقل بممارسة وظائفه، والحث على الـــتفكير مـــن أجل إعمار الأرض وتحسين الحياة البشرية جمعاء، بما يؤكده القرآن الكريم والسنة المطهرة في مواقع كثيرة من حثٍ على التفكير والتأمل والتدبر والتبصر وإعمال الفكر.

إن هـــذا النوع من ممارســـة النمطـــية، والفهم الخاطىء للإســـلام، والمقارنة المغالطـــة التي يسوقونـــها لضرب المثال على مافعلته أوربا حين تحررت من سيطرة الكنيســـة ووصايتها ومن ثم حققت انطلاقها الحضاري، وما يقوم به الغرب عموماً من توظيف لإمكاناته الإعلامية وقدراته في الإقناع بترويج مصطلحاته – بما تشتمل علـــيه مـــن مفاهـــيم وقيم ومضامين فكرية – يقصد به إحداث تباين بالمجتمعات الأخـــرى، التي تـــمثل الثقافة المغلوبة، ليزداد مأزقها الحضاري عمقاً، لترسخ أقدام ثقافـــته في تربيتها، ولاسيما أن هذه المصطـــلحات تلقي بظـــلالها على اللغة حين تقحـــم في متـــنها ممن لا معرفة لديهم بأغوار اللغة، سواء كانت اللغة الأم أو اللغة المنقول منها.

كمـــا يـــؤدي تعـــدد ترجمات «المصطلح» الواحد إلى سوء التفاهم وانقطاع التواصـــل، إلى جـــانب ما يلحـــق اللغة من تشويه يفقدها جزالتها ودقة بيانـــها،

وهـذا ما دعى كثيرين إلى النظر إلى «المصطلحات» بوصفها أداة من أخطر أدوات الغزو الفكري والثقافي، التي استخدمتها الحضارة الغربية من أجل تغريب المجتمعات، وإعادة صياغتها وفق منظورها؛ وهي في استخدامها للمصطلحات تتخفى وراء شعارات وصياغات مقبولة اجتماعياً، تتخذها وسيلة للخداع الفكري.

ولا يقتصر استغلال «المصطلحات» في الخداع الفكري على محاولة اختراق البنى الفكرية والثقافية للأمم، من طريق ضخ أفكار جديدة في ثنايا هذه «المصطلحات» تتناقض مع مكونات هذه البنية وتتحيز لبيئة الثقافة الواردة منها، وإنما يتجاوز ذلك إلى التشكيك في الثوابت التي تنهض عليها تلك البنى، بإعطائها «المصطلحات» التي تتوارثها الأمم معاني جديدة وأبعاد أخرى مغايرة لدلالتها الأصلية، مما يفضي إلى البلبلة والحيرة في المجتمعات المستهدفة، قد تؤديان بها إلى تبني «المصطلحات» في صياغتها الجديدة.

ومما يساعد على استغلال «المصطلحات»، بوصفها أداة من أدوات الاختراق الفكري، أن اللفظة الواحدة قد تحمل في العادة معنيين أحدهما عاطفي «effective meaning» والآخر معنى حاوي للمعلومات (معلوماتي) «informative» مما يمكن من إعطاء «المصطلح» الواحد أكثر من دلالة، بل إن أي كلمة عادية حين تحمل أكثر من معنى فإن ذلك مما يجعل من الإمكان إعطاءها أكثر من تفسير، ونسوق مثالاً كلمة «شيوعي» فهي من ناحية إخبارية تعني للإنسان الغربي على سبيل المثال ذلك الشخص الذي يؤمن بمبادىء الشيوعية، أما من ناحية عاطفية فإنها تعني شخصاً يحمل مجموعة كبيرة من الصفات السلبية التي ترسخت في الذهنية

الغربية من خلال إعلام مكثف ركز على إبراز شخصية «الشيوعي» في صورة نمطية معيـــنة، في إطار التنافس الذي كان قائماً بين المعسكرين، الشرقي والغربي.. ولعل كلمة (عربي) تتخذ الصورة النمطية نفسها.

ومـــن خلال هذه النمطية «stereo type» ندرك المعنيين المتضادين للأصولية، فمعـــناه «المعلومـــاتي» المحايد عند المسلمين هو رجوع إلى أصول الدين ومصادره الأصـــلية.. ومن أجل تحقيق الغرض السياسي الاستعماري يعمد المتربص الغربي إلى اســـتعمال المعنى «العاطفي» المحرف، بإضفاء النظرة السلبية التي وظف فيها التماثل لموقف الرهبان المتزمتين، الذين ظهروا في القرن السادس عشر رافضين العلم ومغالين في ابتداع رهبانية لا تمت إلى الدين السماوي بصلة.

ويذهـــب بعض الباحثيـــن إلى أن الرؤية الغربية للعالم تقوم على مجموعة صور نمطـــية مشوهة تغاير الواقع تماماً، ولاســـيما أن كثيراً من تلك الصور لشعوب وأمم لهـــا جذورهـــا العريقة الممتدة في عمق التاريخ، ولاتزال تلك الأمم تمتلك المكونات الحضارية اللآزمة للنهوض والتقدم.

ويشـــكل تنميط الغرب لحيوات الشعوب الأخرى تغييباً للموضوعية في الحكم علـــيها وعـــلى ثقافتها وأنـــماط حياتـــها، مما يؤدي إلى أحكام جائرة بعيدة عن الواقع.. ولا تكون هذه الأحكام خاصة في الغرب وحسب، وإنما قد تصبح أحكاماً لشـــعوب أخرى تتأثر بالنظره الغربية في المجالات كافة، لما للغرب من آليات إعلام وإقـــناع واســـعة الانتشار، مع إمكانات هائلة في التأثير وفي تشكيل اتجاهات الرأي العام في العالم بأسره.

ثالثاً: الوهابية

«الوهابــية»، نســبة إلى الشــيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (١١١٥هـــ - ١٢٠٥ هـــ)، ولد ونشأ في العيينة بنجد، ودعا إلى التوحيد الخـــالص، ومحاربـــة الشرك ومظاهره، والدعوة إلى الاجتهاد، والقول بعدم وجوب التقليد.. تأثر بدعوته رجال إصلاح في مصر والعراق والشام والجزائر والهند وغيرها.

عـــرف من والاه وشدّ أزره في قلب الجزيرة العربية بأهل التوحيد «إخوان من أطـــاع الله»، وسمـــاهم مخالفوهم وخصومهم بـــ «**الوهابيين**»[1]، ثم صارت اللفظة الأخـــيرة مصطـــلحاً، يلحق بكل من يعـــترض على الممارســـات العقدية الخاطئة كالتوسل بالعباد، والتمسح بالأحجار، ليس في المملكة العربية السعودية فحسب، بل في كل العالم.

لم يكـــن الانـــتماء لعـــالم أو مصـــطلح، أو مرب بالأمر المستنكر عند جماهير المســـلمين، مـــنذ القرن الثالث الهجري إلى يومنا هذا، ولم يكن بسبة ولا معيرة بين العـــلماء والعـــوام على السواء، بل كان بعضهم إذا عرّف نفسه أو سجل اسمه على مؤلفـــه انتسب إلى أكثر من شخص؛ يمثل كل واحد علماً، أو منهجاً تربوياً معيناً، فـــيقول مـــثلاً: فـــلان بن فلان الحنفي الماتردي؛ وقال آخر: فلان بن فلان المالكي مذهباً، الأشعري معتقداً، الجنيدي طريقة؛ أو قال: الحنبلي مذهباً، السلفي معتقداً.

إلا أن «الوهابـــية» مصطلحاً، يطلق على جماعة بعينها، لم يكن بالنسبة البريئة، فقد نشأ للإساءة، وانتشر للإساءة، ووظف للإساءة.

---

(١) انظـــر: ابـــن بشر، عنون المجد في تاريخ نجد؛ عطار، أحمد عبدالغفور، محمد بن عبدالوهاب؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام.

أمـا **الأولى**، فقـد أطلقه جماعة ممن ينتسب للعلم – للأسف – في أجزاء من الجزيـرة العربية والشام ومصر والمغرب على طائفة من المسلمين، لقطعها عن جماعة المسـلمين، وتميـيزها عـن جمهورهم، وتصنيفها ضمن الفرق الضالة والجماعات المتبوعة.

أمـا **الثانـية**: فقد سلك خصوم هذه الجماعة شتى السبل، واستعملوا الوسائل الإعلامـية المتاحة آنذاك لإشاعة هذا المصطلح «الوهابية» الذي حمّله منشئوه مدلول ديانـة جديـدة على المسلمين، ومذهباً محدثاً بينهم، إذا أطلق تبادر إلى ذهن المتلقي انحراف المنسوب إلى هذه الجماعة عقدياً، وقد يصل إلى الكفر، لأنه يكفر المسلمين، ويتصف بالقسوة والجفاء تجاه النبي ﷺ، والعداء لأولياء الله والمصلحين، جرئ على الأئمة، والعلماء.

وقد استطاع المناوئون لهذه الدعوة إلى عهد قريب، الجمع بين هذا «المصطلح» وتلك الخصائص التي ألصقوها به، كذباً وزوراً في أذهان كثير من الناس، حتى دخل بعض معاجم الأوربيين على أنّه مذهب جديد في الإسلام، تبعاً لهذا الافتراء.

وأؤكـد هنا أن هذه الحملة كانت قوية وشرسة، إلى درجة بلوغ ما ألصق بهذه الدعوة وأصحابها قناعة لا تقبل النقاش عند العوام، ولا يجرأ العالم التراجع عما صرح به إذا تبيّن له أن الحق مع هذه الحركة، إضافة إلى عوامل أخرى. فعلى سبيل المثال، جمع موسم من مواسم الحج علماء من مصر والشام بعلماء من نجد، ممن ينسبون إلى «الوهابـية»، ودار في هـذا اللقـاء حوار عـلمي قوي، انتهى بالقناعة التامة بمشـروعية مـا يدعو إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وصحة معتقده، وصواب مـنهجه، إلا أن هذا التسليم والموافقة لم يتبعه تصريح ولا إعلان ولا جهر بالرجوع عما وصمت به دعوة الشيخ بين العوام.

ولعل الخوف من العوام، وفرق الدروشة، والطرق الصوفية المنحرفة، وسدنة القبور والمقامات، وبعض الحكام، والمنتفعون بذلك الوضع المزري، والحالة المتردية للبلاد الإسلامية آنذاك، التي عششت فيها الخرافة، وسيطرة الدجاجلة والمشعوذين على عقول الناس فاستعبدوهم، واسترهبوهم، وسرقوا أموالهم بعد أن سلبوا عقولهم، حال دون تبرئة هذا الشيخ ودعوته، والاعتذار لأولئك الأفاضل له وجه، إذا كان أتباع هذه الدعوة يتحرجون في وقت من الأوقات إطلاق هذا «المصطلح» عليهم، وحتى صار العقلاء ينأون بأنفسهم عن استعماله، لما يحمله من معتقدات وأوصاف ومعاني بعيدة كل البعد عن مبادئ الإسلام، وأخلاقه.

ولا شك أن هذا التوجس، وهذه الخلفية العالقة بالذهن عند استعمال هذا «المصطلح»، قد بدأت بالزوال عند كثير من العلماء، أصحاب الفكر والدعوة، ولم يصبح هجره مطلباً عند من لحق به، وذلك بعد انتشار هذه الدعوة بين المسلمين، ووقفوا على أصولها، وحقيقة ما تدعو إليه، وتبيّن لهم أنها لا تعدو أن تكون امتداداً لمعتقد السالف الصالح، الذي استمد أصوله من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وجاءت بعد فترة تمرغت فيها الأمة في أوحال الشرك والخرافة، تأخذ بيدها لتساعدها على النهوض، وركوب طريق التوحيد الخالص.

فكان من نتيجة ذلك، إضافة إلى الدعوة إلى التوحيد الخالص، إقامة الحسبة، وإحياء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما **الثالثة**، فكانت نتيجة متوقعة للاستعمال السيئ لهذا «المصطلح» من قبل المسلمين، فقد تلقفه أعداء الإسلام، ووظفوه غاية في السوء، وفي تشويه الإسلام من خلال الجلباب الذي ألبسه المسلمون لهذا «المصطلح»، وعمموا تلك الدلالات التي

حمّلوهـــا له على جمهور المسلمين، مستندين في ذلك إلى أن هذه الجماعة أفضل من يمـــثل الإســـلام، لوجودهـــا بالقرب من مهبط الوحي، ولإقامتها في بلاد الحرمين الشـــريفين، ولمرجعية علمائها لمعظم المسلمين، فوصفونا من خلال هذا «المصطلح» بالشدّة والقسوة، ثم بالعنف والتطرف، وأخيراً بالإرهاب.

وبهذا الأخير تمسكت دوائر فكرية، وتجمعات سياسية، لها نصيب لا يستهان به في الـــتأثير عـــلى القـــرار السياسي في الغرب، وتدفع بصناعته إلى مواقف غاية في الـــتطرف في تعامـــلها مـــع المسلمين؛ رغم ما أوضحه الكثير من المفكرين العرب والمســـلمين آنذاك، الذين أقنعتهم هذه الدعوة عندما قرأوها بعقول منفتحة وقلوب صافية فوجدوا أنها حركة تحرير نشطة للعقيدة الإسلامية مما تسلط وتراكم عليها من الخرافات والأوهام والوثنيات عبر مئات السنين وما ترتب على ذلك من قحط ثقافي وحضاري[١].

ومن أمثلة هؤلاء المفكرين الإمـــام محمـــد عبده الذي يلقـــب الشـــيخ محمد ابن عبدالوهاب بالمصلح العظيم، ويلقي بتبعة مالحق الدعوة من تعثر على أعداء هذه الدعوة[٢]، وكذلك الدكتور طه حسين في كتابه «الحياة الأدبية في جزيرة العرب»، إذ يقول: «...لأنه ليس إلا الدعوة القويمة إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية...» [٣]..

ويـــأتي من بين غير العلماء المسلمين والعرب صاحب أول كتاب في الغرب عن دعـــوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية وهو المستشرق الدنماركي «كارستل

(١) أمين السعيد، سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ناقلاً عن تلميذ الشيخ محمد عبده (حافظ وهبه، في كتابه خمسين عاماً في جزيرة العرب) .

(٢) أمين السعيد، سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ١٩٢.

(٣) طه حسين، الحياة الأدبية في جزيرة العرب (دمشق: مكتب النشر العربي، ١٩٣٥م).

نيبوهر»[1] وذلك في كتابه «وصف جزيرة العرب» الذي أوضح فيه - رغم مالديه من تشويش في فهم حقيقة الدعوة وأهدافها - ملامح هذه الدعوة وأثرها على أهل المـــنطقة، الذين كانوا في قتال دائم، فلما اعتنقوا الدين بفضل عبد الوهاب أصبحوا أصدقاء وإخوان، حسب تعبيره.

وفي عام ١٨١٠م، صدر في باريس كتاب: «تاريخ الوهابيين» للكاتب الفرنسي «أوليفيـــية ده كورانسيز» الذي كان عضواً في البعثة العلمية التي أرسلها نابليون إلى مصر، وكان قنصلاً لفرنسا في حلب، حيث درس هذه الحركة الإصلاحية طيلة ثماني أعـــوام، وقال: «كان المسلمون يمارسون أشـــكالاً غريبة من العبادات بحيث لو عاد محمـــد ﷺ إلى الدنيا لظن أن الإسلام زال منها ولرأى شيئاً عجباً.. فالصلاة نفسها صارت لها طقوس جديدة.. وعلى القبور تقام القبب والمباني.. ويزعم أن لأصحابها كرامات ومعجزات، وهناك وسطاء بين الله والناس يقبلون الرشوة، ومجانين يتنقلون في الـــبلاد بحرية، ولا يجرأ أحد على مقاومتهم لأنـــهم في مايزعمون من أصحاب (الســـر) أو أهل الحضون.. وأما القرآن الخالد فقد فسروه تفاسير مذهلة غابت فيها الحقيقة.. إلخ».[2]

وقد صعب على بعض المفكرين أن يتقبل هذا الواقع الجديد الذي بدأت تفرضه الدعـــوة، فعملـــوا جهدهم لتشويه مبادئها، وتأليب الناس عليها، بدعوى مخالفتها لتعالـــيم الديـــن. وذهب هؤلاء بدعاواهم وافتراءاتهم إلى أبعد مدى، إلى أن بلغت خـــارج شبه الجزيرة العربية، وصوروا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على أنها دعوة إلى مذهب جديد، ونعتوا أنصاره «بالوهابيين»، ورسخ دعاة البدع والمنتفعين

(١) راجع كتاب: منير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، ٣٢١/١.
(٢) انظر: ترجمة منير العجلاني، مرجع سابق.

مـــن الأباطيل والشعوذة هذه الدعاوى في الأذهان، خوفاً من أن تكون هذه الدعوة بداية نهضة حضارية للأمة الإسلامية، ولاسيما بعد أن امتد نفوذ الدولة السعودية إلى كثير من البوادي والحضر في شبه الجزيرة العربية.

وتوضح المصادر التاريخية التي اهتمت بدراسة هذه الدعوة الإصلاحية، أن الصور الذهنية السيئة التي تكونت عنها كان مرادها ما أشاعه المغرضون، وأسهمت في ذلك أيضـــاً دراسات بعض المستشرقين الذين بحثوا فيها من منطلق مفهوماتهم الغربية التي بـــاعدت بيـــنهم وبين الفهم الحقيقي لأصول هذه الدعوة ومقاصدها، فنسبوها إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب ظناً منهم أنها دعوة دينية جديدة.

ولا يـــنفي ذلـــك توافر سوء النية لدى بعض هؤلاء المستشرقين ممن دأبوا على تشـــويه الحقائق المتعلقة بعقيدة الإسلام، وحياة المسلمين، ورموزهم وأعلامهم، فلم يلـــتزموا الصـــدق والموضوعية في كتاباتهم، وإنما كان دافعهم إلى ذلك الحقد على الإسلام.

ومـــن الأســـلحة العديدة التي استخدمها هؤلاء لمحاربة هذه الدعوة الإصلاحية إطـــلاق اصطلاح «الوهابية» عليها، وقد أرادوا باستخدامهم هذا «الاصطلاح» أن يوهمـــوا الناس بأن الدعوة الإصلاحية كانت امتداداً لفرقة «الوهابية الرستمية»، التي هي فرقة محرفة لتعـــاليم الإســـلام، ظهرت قبل تسعمائة عام من مولد الشيخ محمد ابـــن عـــبد الوهاب، بعد أن نبش عنها هؤلاء - ومن بينهم يهود - وأثاروها لِيُلبسوا الثوبَ القديم، بما فيه من انحراف ومخالفة، للدعوة الجديدة التي جاءت لتصحيح العقيدة.

ويتضح ذلك مما جاء في أول بحث في الغرب (في القرن الثامن عشر) عن الشيخ محمـــد بـــن عـــبد الوهاب ودعوته، كما سبقت الإشارة، منسوب إلى المستشرق

الدنماركي «كارستل نيبوهر» وترجمه الدكتور منير العجلاني في كتابه «تاريخ البلاد العربية السعودية»، حيث قال هذا المستشرق:

«.. ومنذ بضع سنوات نشأت في العارض فرقة جديدة، بل ديانة جديدة، ستحدث مع مرور الأيام تغيرات واسعة في معتقدات العرب، وأسلوب حكمهم.. ومؤسس هذه الديانة هو محمد بن عبد الوهاب، الذي ولد في نجد، ودرس في شبابه علوم العرب في موطنه، ثم عاش بعد ذلك سنوات في البصرة، وقام برحلة إلى بغداد والعجم»[1].

ومما يؤكد هذا الفهم الخاطىء ما أورده «نيبوهر» على لسان أحد الذين تقصى منهم أخبار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب: «وأضاف محدثي: أن عبدالوهاب يرى أن محمد ﷺ والمسيح وموسى وسائر الأنبياء هم رجال عظماء وجديرون بكل إجلال، ولكنه لا يعتقد بوجود كتابٍ كُتبَ بوحيٍ من السماء أو أنزل بواسطة جبريل».

ولم تخل كتابات بعض المستشرقين من بعض الموضوعية في تناولها لدعوته، فيشير الدكتور العجلاني[2] في كتابه المذكور إلى أن الكتاب الأوروبي الأول عن هذه الدعوة، وهو - كما أسلفنا- للكاتب الفرنسي «أوليفييه ده كورانسيز»، وبعنوان: «تاريخ الوهابيين HISTORIE DES WAHABIS» وذلك في عام ١٨٨٠م، وقد استعمل مصطلح «الوهابية» بالرغم من موضوعيته في قوله: «أما الوهابيون فقد نقُّوا الإسلام مما أدخل عليه من تشويه، وأعادوه إلى بساطته الأولى وصفاته».

(١) انظر: ترجمة منير العجلاني، مرجع سابق.
(٢) مرجع سابق.

وعلى الرغم من كل الدعاوى والافتراءات التي لاحقت الدعوة الخالصة إلى عقيدة التوحيد، إلا أنها ظلت تمتد إلى مناطق كثيرة من الجزيرة العربية.. وقد أشار الأستاذ طاهر المدور[1] في كتابه «الديانات والحضارات» إلى سفر مندوبَيْن من نجد، قابلا والي مصر آنذاك محمد علي باشا، فأمر رهطاً كريماً من علماء الأزهر بفتح باب المناظرة بينهم وبين الشيخين، ونشر علماء الأزهر على أثر ذلك بياناً أعلنوا فيه أنهم لم يروا شذوذاً في المبادىء التي يدعو إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب؛ وصرح العلماء بعد ذلك قائلين: «إذا كانت الوهابية كما سمعنا وطالعنا فنحن وهابيون».

ويضاف إلى هذا ما ذكر أو كتب في «المقتطف» في مارس ١٩٠٩م، إذ يقول الكاتب، الذي وقع اسمه بإمضاء «باحث دمشقي»: «هم أولئك الطائفة الحنابلة، التي لم تتمذهب عنها قيد شبر، وهم يتبرأون من الشرك، ولا همَّ لعلمائهم إلا البحث في الأصول والفروع، وهم لا يأكلون لحم أخٍ بغيبة، ولا يمشون بنميمة، ولا تبدوا على ألسنتهم بوادر القذف؛ وهم ليسوا بثعالب رواغة، يمكرون أو يخدعون، وهم جادون في طلب العلم أينما حلوا، وحيثما وجدوا.. وبالجملة، فماذا يقال عن إخلاص قوم عرفوا إيماناً وإيقاناً»[2].

وكثير من المنافحين عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب يوردون ما أثر عن المؤرخ الجبرتي في «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» الذي قال، بعد أن استعرض ما يدعو إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأصحابه: «أقول: إن كان كذلك، فهذا ماندين به نحن أيضاً، وهو خلاصة لباب التوحيد، وما علينا من المارقين والمتعصبين».

(١) المدور، طاهر، الديانات والحضارات.
(٢) مجلة المقتطف.

ويتضمن عدد (المقتطف) الصادر في أغسطس ١٩٠٠م، مقالة تحوي الاستشهاد بمـــا قاله الجبرتي.. وقد كانت (المقتطف) من المنابر التي تحاور عبرها الفريقان، فقد نشرت في عدد سبتمبر ١٩٠٢م رداً كتبه صالح بن دخيل بن جاد الله النجدي على مقالـــة نشـــرت للقس المستشرق «زويمر»، فند فيه أسباب وصف «الوهابية» الذي يطلـــق على الشيخ وأتباعه، ومما قاله: «أني وقفت على ماجاء في مقتطفكم في المجلد الســـابع والعشرين، في الجزء الثالث، عن مقالة القس الدكتور زويمر، التي تليت في جمعية فكتوريا الفلسفية، في أصل الوهابية، وتاريخهم وعقائدهم، واطراباته في ذلك، فأحببـــت أن أنـــبه على مقالته؛ فأما أصل الوهابية ونسبتهم لوالد صاحب الدعوة التجديدية العلامة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لقبه وأتباعه بذلك بعض معاصريه، بغـــياً وحســـداً، ليعمي على الجهال أنهم مبتدعة ضالون، ليستوحش السالك على أثـــرهم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون، وترك نسبتهم لاسم الشيخ نفسه...

إن محـــاولات الـــتحريف والتشـــويه والدعاوى والافتراءات تلقى بعض الآذان الصاغية في عالمنا العربي والإسلامي، في وقت أوجدت له فيه بنيته السياسية ومناخه الفكـــري ومن ثم زرعت بذور إضعافه والهيمنة عليه بفكر مقلد، لأنه عندما يكون الفكر الإســـلامي في حـــالة أفول - كما أوضـــح ذلك مالك بن نبي، رحمه الله- فإنـــه يغرق في التصـــوف وفي البهم، وفي عـــدم الدقـــة، وفي النـــزعة إلى التقليد الأعمـــى، وفي الإعجـــاب بـــما عند الغرب، الأمر الذي يســـعى إليه أعداء الأمة جاهدين في تقديم الإســـلام الذين يرغبون، والنهج الذي يرتضون، من أجل تحقيق مآربهم وطموحاتهم.

خاتمة

وفي الأخير، أعود لأنبه إلى أننا أمام حرب حقيقية، ومن ثمّ فإن موضوع «المصطلح» يحتاج إلى كبير عناية، تضطلع بها جهات متخصصة عدة، تعمل على ما يأتي:

أولاً: إحـــداث هـــزّة إعلامـــية، تقوم بواجب البلاغ بخطورة هذا الأمر داخل المجتمع، وبين الفئات الفاعلة فيه.

ثانـــياً: حـــث العلماء والباحثين في التخصصات المختلفة، على العمل الدؤوب لإعداد منهج علمي لتحديد «المصطلح».

ثالـــثاً: القـــيام بعملية مسح للتراث لاستخراج «المصطلح»، وقد كفانا الأوائل جزءاً كبيراً في هذه العملية.

رابعاً: تحييد «المصطلحات» التراثية، التي تسيئ لثقافة الأمة، ولا تصلح.

خامســـاً: مســـح «المصطلح» الوافد، لاستيعاب الضروري منه، خدمة لمصالح الأمة، واستبعاد السامّ منه، حفاظاً على كيانها.

سادســـاً: إعداد الجهاز المستقبل «للمصطلح» الوافد، إعداداً قوياً، بحيث يفهم «المصطلح» بلغة قومه، ثم يقومه تقويماً صحيحاً، ثم ينقل الضروري منه بلغة أمته نقلاً سليماً.

ســـابعاً: تبني مشروع «المصطلح» الإسلامي، و«المصطلح» المختار من الجهات المتخصصة، وإصدار أنظمة ملزمة للجهات التعليمية والإعلامية، بتوظيفه.

ثامـــناً: إقامة مؤسسة رقابية على استعمال «المصطلح» من قبل الجهات سالفة الذكر، مع الدعوة إلى رقابة احتسابية من أهل الشأن في هذا الخصوص.

فـــإذا أعددنـــا أنفسنا لهذه الحرب، بمثل هذا، استطعنا رد هذه الهجمة العدائية الشرسة، بل وتمكنا من هزيمتها، وحافظنا على هويتنا، وقيمنا الحضارية.

و الله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على سيدنا محمد.

بن لادن على الخط السريع

الدكتور نديم محمد عطا إلياس (*)

إن المحافظة على سلامة المجتمع في الغرب جزء من المحافظة على سلامتنا، وإن واجب التعاون من أجل الأمن العام واجب إسلامي، إضافة إلى كونه من واجبات المواطنة، وإن الانفتاح على المجتمع والتواصل معه هو من مقومات ضمان حقوق المسلمين وبقائهم، والطريق المنطقي للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف.

لعل من المفيد، كمدخل للموضوع، أن نذكّر بحوادث قد تعطي الصورة الحقيقية للواقع النفسي بعد أحداث سبتمبر، إضافة إلى رسم صورة ميدانية لتطور الأحداث.

اتصل سائق حافلة بالشرطة من هاتف الطوارئ على أحد الخطوط السريعة في ألمانيا قائلاً: «لقد رأيت أسامة بن لادن في سيارة تجاوزتني على الخط السريع». وسرعان ما تعقبت سيارات الشرطة السرية السيارة المذكورة إلى داخل مدينة فرنكفورت بالقرب من مسجد في شارع (لرشن). وبنفس السرعة صدر قرار إدارة الأمن بمداهمة المبنى دون انتظار إذن قاضي التحقيق، كما ينص القانون الألماني،

(*) رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا.. (ألمانيا).

واقتحم حوالي مائتين من رجال الشرطة الخاصة بمقاومة الإرهاب مدججين بالسلاح والخوذات والسترات الواقية مبنى المركز الإسلامي هناك ودنسوا مسجده بالأحذية، وكسروا أبواب غرفه، وأتلفوا أسقفه المعلقة، وصادروا ما وجدوا من ملفات وكتب وحاسوبات. لكنهم لم يعثروا على أسامة بن لادن. وتبين بعد هذه العملية الاستعراضية أن الشرطة أخطأت في العنوان.. فالمركز يقع في شارع (آيشن) وليس هو المسجد المقصود في شارع (لرشن)! ثم تبين من استجواب سائق السيارة المشتبه بها أنه أوصل ضيوفاً خليجيين من همبورج إلى فرنكفورت في مكان قريب من المسجد الأول، وأن كلا المسجدين لا علاقة له بأي إرهاب أو عنف. وحاولت الشرطة أن تحفظ ماء وجهها بقولها: «لقد عثرنا على الأقل في المسجد على جهاز راديو مسروق من سيارة»!!

هذا مثال صارخ لجو التوتر والذعر الذي بدأ بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ولا تزال آثاره باقية إلى الآن. فعلى الرغم من مبادرة المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا بالتنديد بالعمل الإرهابي في نيويورك يوم حدوثه، وإعلانه أن الإسلام لا يدعو إلى إرهاب ولا يقبل تقتيل الأبرياء وترويعهم، إلا أن حملة عنيفة من السباب والشتائم والتهديدات انهالت على المجلس الأعلى هاتفياً وإلكترونياً وبريدياً، فاق عددها المئات، ووصلت إلى حد التهديد بالحرق والقتل، مما دعا سلطات الأمن إلى فرض رقابة.

واشتملت الخطابات الإلكترونية التي استلمها كثير من المساجد تهديدات وشتائم مثل: «سنقتل بكل أمريكي عشرة آلاف مسلم حقير»، «سوف نحطم مكة على رؤوسكم»، «عودوا إلى بلادكم أيتها المومسات المسلمات»، «كان ينبغي أن يحرق هتلر المسلمين قبل ستين عاماً بدلاً من اليهود»، «لا تستغربوا إذا وجدتم منزلكم ومكتبكم غداً حطاماً ورماداً». ولم تفلح الشرطة في تعقب مصدر الرسائل، وقفل المدعي العام ملفات القضايا التي رفعها كثير من المسلمين ضد مجهول.

ذعر وهوجائية

لقـــد تعرضت سائر مؤســساتنا ومســاجدنا إلى تـــهديدات وشتائم مشابهة، كما تعرض كثير من المسلمين- وبشكل خاص المسلمات المتحجبات- إلى اعتداءات كلامـــية بشـــكل مكثف. ولم يسلم الأطفال من ذلك في الحافلات، بل وفي أفنية المـــدارس. وبلـــغ مكتبنا معلومات عن عشرات الحالات من اعتداءات يدوية على النساء والأطفال.

- تعـــرض طبيب عربي الأصل في مدينة «ايرلنجن» على سبيل المثال، إلى تهديد كلامي واعتداء على سيارته. وعندما استدعى الشرطة لم تمسك بالمعتدي بل قامت بحجـــز الطبيب العربي لأكثر من ثلاث ساعات، وفُتح ملف جنائي له بتوثيق صورته وبصـــماته وأوصافه عارياً. ولم تسمح له الشرطة باستدعاء محاميه أو تسجيل أسماء المحققـــين. وقام المعتدى عليه برفع قضية ضد ثلاث مخالفات قانونية من قبل الشرطة، إلا أن المدعي العام قام بقفل الملف.

- تعرضت أسرة من الجزيرة العربية لتفتيش بيتها في برلين في الرابعة صباحاً من قبل قـــوات الشرطة المدججة بالبنادق الرشاشة، وقامت باصطحاب رب الأسرة إلى المخفر واستجوابه عدة ساعات. ثم تم إطلاق سراحه وتبين أن خطأهم راجع لانتسابه إلى قبيلة يحمـــل كل أفرادها الذين يعدون بعشرات الألوف نفس الاسم. واحتج مترجمه ومحاميه على هذا التهاون الذي أدى إلى ترويع النساء والأطفال والجيران.

- كمـــا لطخـــت الجدران الخارجية للمركز الإسلامي في «ميونيخ» بعبارات عنصرية وصلبان معكوفة.

- ووضعت عبوة حارقة أمام مسجد آخر، وحطم زجاج مسجد في مدينة «هلدن»، وتعرض مسجد في مدينة «كولن» إلى إطلاق ثماني عشرة رصاصة من قبل مجهولين.

- لقـــد قام وزير الداخلية الاتحادي بتمرير مجموعتين من القوانين الأمنية، وقام الـــبرلمان بالموافقـــة عليها عام ٢٠٠٢م. تشمل هذه القوانين: (التحري الشامل دون شبهة)، و(رفع الحصانة عن الجمعيات الدينية)، و(مراقبة السيولة المالية)، و(السماح بالمراقـــبة الهاتفـــية والـــبريدية ومراقبة التحركات والاتصالات)، و(توثيق البصمات والمواصفات البيولوجية قبل إعطاء التأشيرات من دول معينة). ولا يخفى أن المقصود بهذا كله هم العرب والمسلمون.

وقـــد أدت إجـــراءات (الـــتحري الشامل) إلى تمييز عنصري واضح انحصر في العـــرب، نظـــراً إلى أن مواصفات التحري تشمل في المستوى الأول: عربي، مسلم، شـــاب، طالـــب، دون شبهة. والمستوى الثاني يشمل: تخصص هندسي، كيميائي، طيران، أعزب، كثير السفر.

وأحجـــم، بالإضـــافة إلى ذلك، كثير من أصحاب المساكن عن تأجير الغرف للطلـــبة العرب، مما أوقع الكثير منهم في مشكلات حادة منذ بداية الفصل الشتوي ٢٠٠١/٢٠٠٢م.

وتعرض عدد من العمال والموظفين العرب إلى طردهم من العمل أو عدم تجديد عقـــود عمـــلهم. وتركـــز ذلك بشكل خاص على العمال والموظفين في المطارات وشركات النقل.

- قـــام وزير الداخلية الاتحادي، بناء على رفع الحصانة الدينية عن الجمعيات، حـــتى الآن بحظر (٣٩) تسعة وثلاثين جمعية إسلامية تابعة لرابطتين، وقفل المساجد الـــتابعة لهـــا، كما قام بتفتيش حوالي مائة مسجد آخر، وتفتيش حوالي (١٦٠٠) منـــزل ومكتب تابع لإدارتها. وضرب الوزير هكذا الرقم القياسي بتفتيش (١٤٠٠) منـــزل ومكتب في ليلة واحدة، بكثافة لم يسبق لها مثيل منذ الحرب العالمية الثانية.

نـــال الحظـــر في المرحلة الأولى جمعيات (دولة الخلافة الإسلامية)، وهي رابطة تركـــية ترفض سيادة القانون الألماني وتدعو لإقامة الخلافة الإسلامية في ألمانيا. وعلى الرغم من تفهمنا لحظر هذه الرابطة إلا أن قرار الحظر تم تطبيقه ليلة السابع والعشرين من رمضان ١٤٢٢هــ. حيث تم قفل تلك المساجد ومصادرة سجادها ومصاحفها وســائر ممــتلكاتها. وأدى هــذا إلى نقد شديد من قبل الصحافة – غير الإسلامية كذلك– لافتقاده لأدنى حدود الذوق واللياقة ولعدم مراعاته مشاعر المصلين في تلك الليلة المباركة.

ودعـــا رئيس المجلس الأعلى إلى مؤتمر صحفي في برلين لتوجيه أنظار الصحافة والـــرأي العـــام إلى حالة الذعر وانعدام الأمن التي تعاني منها جميع المساجد وسائر العـــرب والمســـلمين لاحتمال تعرضهم إلى مداهمات وتفتيشات عشوائية دون مبرر قـــانوني. وضـــربنا مـــثلاً بمداهمـــة الشرطة في الرابعة صباحاً لمسجد باكستاني في «همـــبورج» لمجرد إخبار مجهول «باحتمال وجود شخص باكستاني يعتقد أنه أحد المطلـــوب القبض عليهم». وشارك في العملية (٢٨٣) مائتان وثلاثة وثمانون شرطي قـــاموا بتفتيش مسجدين آخرين دون سبب لمجرد وجودهما في نفس المركب البنائي، ودنسوا المساجـــد بالأحذية، وكسروا عـــدداً من الأبواب، ولم يعـــثروا على أحد أو شيء يمت للإرهاب بصلة. وقد علق بهذا الصدد مسؤول من حزب شل على انتقاد الصحافة بقوله: «يجب أن نثبت وجودنا، وأن نوحي للمواطنين بسيادة الأمن».

وعلى الرغم من الموقف العدائي إلا أن المسلمين كانوا ولا يزالون يسعون لإيجاد جـــو تفاهم ووئام أفضل بين المسلمين وموطنهم الألماني، ولإيقاف التمييز العنصري والديـــني والهوجائـــية الإداريـــة المرتبطة بذلك والمتنافية مع النظام الأساسي لألمانيا، دولـــة القانون والنظـــام.

هول المفاجأة

لقد سبقت مرحلة الذعر والهوجائية السابق ذكرها مرحلة أولى بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر مباشرة. اتسمت تلك المرحلة - بعد أن أفاق العالم من هول المفاجأة — بشعور عام من التوجس وعدم التمكن من معرفة موقف المسلمين في ألمانيا من تلك الأحداث، وعدم التمكن من تقدير ردة فعل الساحة الإسلامية في هذا البلد.

لقد وصل الجهل العام بواقع المسلمين في ألمانيا، على الرغم من مرور خمسة عقود على وجودهم المعاصر، إلى درجة تخوف بعض المسؤولين من تبني المسلمين لتلك العمليات، وخروجهم في مظاهرات لتأييدها، وتصادمهم مع فئات المجتمع الأخرى، أو قيام بعضهم بعمليات إرهابية مماثلة على التراب الألماني. خمسة عقود تمر دون أن يتعرف المجتمع على المسلمين القاطنين فيه - المواطن منهم والوافد - ودون أن تتولد الثقة بهم، ودون أن تتوثق اللحمة الكافية لتجنيب المجتمع من صدع داخلي ومواجهات وصراعات!

لا يقع اللوم في ذلك على الآخرين، بل ينصب بدرجة كبيرة على المسلمين، الذين عاش معظمهم في عزلة عن المجتمع، وقصروا بذلك في حق المواطنة وحق الدعوة وحق أنفسهم دون أن يشعروا.

بادر جميع المسؤولين في الدولة بالتصريح بأنهم لا يخلطون بين الإسلام والإرهاب المنتسب للإسلام، وأنهم يميزون بين المسلمين والإرهابيين المشوِّهين لصورة الإسلام، وأنهم لا يحمّلون العمل الإسلامي في ألمانيا جريرة العنف والتطرف الذي قام به سواهم. تكررت هذه التصريحات في الفترة الأولى على لسان كل مسؤول حتى

كـادت تـأخذ طابع استرضاء المسلمين واستجدائهم. وكان لمبادرة المجلس الأعلى بإعلان موقفه بعد ساعات من حدث نيويورك أثر كبير في إعادة الطمأنينة والارتياح للمجتمع. وتجاوبت أجهزة الإعلام مع هذا الموقف، ومع أكثر من ثلاثمائة تصريح وبيان أدلى بها المجلس الأعلى، حيث كان يطلب منه تقويم كل تطور في ساعته لتُنقل آراؤه عبر نشرات الأخبار الرئيسة في التلفزيون والإذاعة والصحافة. وكان المعلقون والسياسيون يستشهدون بها في تحليلاتهم الخاصة ومداولاتهم البرلمانية ومناقشاتهم العامة، مستدلين بها على الموقف المعتدل للمسلمين في ألمانيا، الرافض لكل عنف، والمدين لكل ألوان الإرهاب.

وشهدت الأسابيع الأولى بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بروز أكبر شخصيات الدولة في أوساط إسلامية بشكل إعلامي استعراضي نادر المثال. فقد حضر رئيس الجمهورية «يوهانس راو» صلاة الجمعة في مسجد، وألقى كلمة بعد الصلاة قامت أجهزة الإعلام بنشرها. والجدير بالذكر أن هذه هي الزيارة الأولى التي يقوم بها رئيس جمهورية لمسجد ما.

كما قام رئيس برلمان المقاطعة بالمشاركة في حضور صلاة الجمعة في مسجد بلال بالمركز الإسلامي في «آخن» ووجه كلمة للمصلين.

وقام أسقف آخن بزيارة مسجد بلال للتعبير عن تعاطفه مع المسلمين، وأكد ثقته بهم، وحرصه على استمرار الحوار والتعاون الإيجابي معهم.

ونقل التلفزيون الألماني لأول مرة على الهواء مباشرة خطبة الجمعة، التي ألقاها رئيس المجلس الأعلى باللغة الألمانية وصلاة الجمعة من مسجد في «برلين».

كما تقدم رئيس الأساقفة الألمان ورئيس الكنيسة البروتستانتية ورئيس مجلس اليهود الألماني، بالإضافة إلى رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا، تظاهرة حاشدة في مدينة «دسلدورف» قامت أجهزة الإعلام بنقل أحداثها.

تسابق المسؤولون في الدولة على طلب اللقاء بممثلي المجلس الأعلى للتعبير عن موقفهم المفرّق بين الإسلام والإرهاب، وللاطمئنان على موقف المسلمين النابذ للعنف، ولإظهار اهتمامهم بهذه القضايا إعلامياً. وربما كان الهدف الأساس من هذه اللقاءات الإيحاء للرأي العام الإسلامي أن الدولة حريصة على تماسك المسلمين مع بقية المجتمع، ومحاولة امتصاص ردود الفعل المتخوف منه من قبل بعض الجهات الإسلامية. وكان للمجلس الأعلى موقف إيجابي تجاه الاستعداد الرسمي للحوار، على الرغم من تحذير بعض المسلمين من أن هذا الاهتمام الرفيع المستوى يهدف إلى استغلال المجلس الأعلى من قبل المسؤولين لمصالح وقتية جزئية، واستطعنا بدورنا أن نستفيد من اللقاء لصالح قضايانا وللتركيز على الجوانب المنهجية الأساسية في تعامل المجتمع معنا.

وبناء على طلب تلك الجهات التقى رئيس المجلس الأعلى خلال هذه المرحلة برئيس الجمهورية والمستشار الألماني ورئيس المجلس الاتحادي ووزير الداخلية الاتحادي وعدد من رؤساء الوزراء ورؤساء البرلمانات في المقاطعات، بالإضافة إلى رؤساء الأحزاب ومسؤولي الكنائس والطوائف الدينية وعدد كبير من المنظمات الشعبية.

أكدنا في لقائنا مع وزير الداخلية الاتحادي «أوتو شلي» في ٢٠/٩/٢٠٠١م تفهمنا لمشاريع القوانين الأمنية الجديدة على الرغم مما سيواجه المسلمين من جرائها من مضايقات ومتاعب، إدراكاً منا لأهمية أمن المجتمع وسلامته. وأبلغناه في لقائنا موافقتنا على سحب الحصانة القانونية من المنظمات الدينية بما يمكّن الدولة من مراقبة الجمعيات الإسلامية (فهي المقصودة دون غيرها) وبما يسمح بحظر بعضها. وذكرنا أن تنقية الصف الإسلامي من بعض الجمعيات الرافضة للدستور والمخالفة للقانون أو المؤيدة للعنف إنما هو في صالح المسلمين في الدرجة الأولى، حيث يمكّن المجتمع من التعامل بعد ذلك مع مؤسساتهم بما تستحق من احترام وتقدير، وبالأسلوب الإنساني المتحضر اللائق بالطرفين.

واقترح المجلس الأعلى على وزير الداخلية إنشاء مجلس استشاري يضم مندوبين من المجلس الأعلى بالإضافة إلى شخصيات محايدة من الوسط العام مثل رؤساء الجمهورية السابقين وممثلي الكنائس والنقابات وبعض المفكرين والأدباء، ليقوم بالنظر في شؤون المساجد المحظورة وينقل ملكيتها إلى عناصر موثوقة من رواد تلك المساجد، مع وضع شروط وضمانات تكفل عدم تطرفها. وذلك من أجل عدم حرمان عامة المسلمين من مساجدهم، ومن أجل تقوية ثقة المسلمين بالدولة الألمانية وتقوية لحمتهم بهذا المجتمع.

وحذرنا في لقائنا مع وزير الداخلية ولقاءاتنا ببعض المسؤولين الآخرين من الاكتفاء بالإجراءات الأمنية، ولفتنا النظر إلى ضرورة امتصاص ردة الفعل المتوقعة من جراء تلك التضييقات بوضع برنامج مواز لكسب ثقة المسلمين بأجهزة الدولة، وتوثيق ارتباطهم بالمجتمع الألماني، وتأييد تقدير الدولة للدور الاجتماعي الإيجابي الذي يقوم به المسلمون، واحترامها لعقيدتهم وشعائرهم. واقترحنا بشكل محدد:

١ – تنقية المناهج التعليمية والكتب المدرسية من الدس على الإسلام وتشويه صورته، وذلك من أجل تربية الأجيال المقبلة على روح الإنصاف والموضوعية والانفتاح على الأديان الأخرى.

٢ – إدخال مادة التعليم الإسلامي في المدارس النظامية، وذلك ليتمكن أبناء المسلمين من التعرف على دينهم بوجهه الحضاري الإنساني البعيد عن العنف والتطرف.

٣ – إيجاد فرصة تعلم اللغة العربية والتركية في المدارس النظامية كلغة أجنبية ثانية.

٤ – دعم التبادل الثقافي والرحلات المدرسية إلى الدول الإسلامية وتبادل الطلاب معها.

٥ – المحاربة الفعلية للتمييز والعنصرية التي يعاني منها المسلمون في سوق العمل والحياة العامة.

٦ – حل المشكلات المزمنة المتعلقة بالذبح الشرعي والحجاب.

٧ – دعم إنشاء مراكز ثقافية إسلامية ومساجد جامعة في أماكن متميزة في كبريات المدن الألمانية للتعبير الحي عن الوجه الحضاري الإنساني للإسلام.

٨ – القبول العملي بالمنظمات الإسلامية الجامعة، والتعامل معها كممثل للمسلمين، وكطرف ند في الحوار، وكمستشار قبل اتخاذ القرار.

٩ – تمكين المسلمين من المشاركة في مجالس مراقبة أجهزة الإعلام الرسمية، مساواة بالطوائف الأخرى، وتمكينهم من التمتع بالحقوق الأخرى المحجوبة عنهم لعدم حصولهم على صفة «مؤسسة الحق العام» كالكنائس.

١٠ – تسهيل إجراءات التجنس، وتمكين المسلمين من المشاركة في الحياة السياسية العامة من خلال قبولهم في الأحزاب السياسية، وإتاحة الفرص العادلة لعطائهم وتأثيرهم حسب قدراتهم وإمكاناتهم دون تمييز ضد دينهم وعقيدتهم.

١١ – إظهار التقدير والاحترام اللائق بالشعائر الدينية والحياة الإسلامية والمواطنين المسلمين من خلال:

– تهنئة المسلمين من قبل ممثلي الدولة في أعيادهم.

– زيارة المسؤولين للمساجد، وبخاصة في «يوم المسجد المفتوح» الذي ينظمه المجلس الأعلى كل عام، يوم الوحدة الألمانية.

– تكريم الكفاءات الإسلامية والشخصيات البارزة، وإيقاف استبعادهم الملحوظ من نيل الجوائز والأوسمة.

– مراعاة الشخصيات والأحداث الإسلامية التي ساهمت في صياغة الحضارة الأوروبية، من خلال لوحات تكريمية، أو نصب تذكارية، أو تسميات الساحات والشوارع والمؤسسات الرسمية.

الميثاق الإسلامي

ترسـخ اقتناع المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا بضرورة إصدار موقف واضح متكامل تجاه أسس المجتمع الألماني وقواعد دولته ونظامها الأساسي القائم على الديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان، بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، حيث لمسنا توجهاً لاتخاذ موقف سلبي تجاه المسلمين قد يؤدي إلى إقصائهم من المجتمع، وتوجهاً إلى استدراجهم إلى حوار جدلي حول جزئيات الشريعة والحكم الإسلامي والحدود وحول مظاهر التطرف والعنف والإرهاب. فكان لا بد من حصر دائرة الحوار جغرافياً في حدود الدولة الألمانية، وتحديدها موضوعياً في نطاق موقف المسلمين في ألمانيا من الدولة والمجتمع، وتجنب تحميلهم تبعة أعمال وتصرفات خارجة عن مسؤولياتهم. وقد تم ذلك من خلال «الميثاق الإسلامي» الذي أقره المجلس الأعلى بإجماع سائر المنظمات والمراكز والروابط التابعة له في ٢٠ شباط/فبراير ٢٠٠٢م.

إن تعايش المسلمين في المجتمعات الغربية، بأغلبيتها غير المسلمة، يقتضي أن يتعرف كل طرف على موقف الطرف الآخر من القضايا الأساسية التي تنظم علاقته بالطرف المقابل، وأن يطمئن إلى استعداد الطرف الآخر إلى التعامل معه بإيجابية وسلمية واحترام متبادل. ولا تتولد الثقة بين أطراف المجتمع إلا من خلال الارتياح التام لاحترام جميع شرائحه لقواعد التعامل الحضاري وأسس العلاقات البشرية.

ولقد عبرت الدول الأوروبية عن موقفها الأساسي تجاه سائر المواطنين والمقيمين من خلال دساتيرها التي تنطلق من احترام الحقوق الأساسية لكل فرد، وتحفظ له حرية المعتقد وحق ممارسة الدين وسائر حقوق الإنسان المتعارف عليها، وتأخر

المسلمون في إعلان موقفهم الرسمي الملزم تجاه مجتمعات استيطانهم وإقامتهم، مما أدى - ضمن أسباب أخرى - إلى عدم تولد ثقة المجتمع بهم، وعدم ارتياحه في التعامل معهم، وأدى كذلك إلى سوء الظن بهم في حالات عديدة، وإلى التجني عليهم دون حق في حالات أخرى.

وظن المسلمون أن موافقتهم الضمنية على أسس المجتمع وقواعده - من خلال قبولهم للإقامة أو التجنس أو من خلال نص دساتير جمعياتهم على احترام القانون - كافية لإزالة اللبس والغموض، إلا أن موقف أجهزة الدول الأوروبية المترددة في تعاملها مع المسلمين، وحذرهم الدائم من تمكين المسلمين من الحصول على حقوقهم، بالإضافة إلى مواقف الإعلام وتصريحات المسؤولين، تدل على شعور المجتمع بافتقاد موقف أكثر وضوحاً وإلزاماً من قبل المسلمين.

إن «الميثاق الإسلامي» يجب أن يفهم في حدود الظروف المكانية والزمانية التي صدر فيها. فهو ليس ميثاق الإسلام والمسلمين عموماً، وإنما- كما يوضح عنوانه- (الموقف الأساسي من الدولة والمجتمع الصادر عن المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا). ويتكون «الميثاق الإسلامي» من واحد وعشرين بنداً ضمن ستة فصول.

يوضح الفصل الأول المنطلقات الإسلامية الأساسية، ويتعرض باختصار للعقيدة، والوحي، والنبوة، والعبادة، والتكليف الشامل، ويوم الحساب.

ويوضح الفصل الثاني وسطية الإسلام ورسالته الاجتماعية.

ويوضح الفصل الثالث واجب الأقليات المسلمة، وموقف المجلس الأعلى من النظام الأساسي لألمانيا الاتحادية ومن الدولة الإسلامية.

ويعالج الفصل الرابع حقوق الإنسان والحضارة الغربية والهوية الإسلامية في الإطار الأوروبي.

ويحدد الفصل الخامس مهمة المجلس الأعلى وواجبه الشامل تجاه المجتمع الألماني، متعرضـــاً للانفـــتاح والحـــوار والتعاون، ومؤكداً على حاجات المسلمين الراهنة ومطالـــبهم المـــتعلقة بتعليم الإسلام وبناء المساجد وإنشاء المقابر واحترام الأعياد الإســـلامية وإنشـــاء الكراســـي الجامعية ومراعاة حق المسلمين في الذبح الشرعي والحجاب وغير ذلك..

ثم يقـــرر الفصل الأخير الحياد الحزبي السياسي للمجلس الأعلى، والمقاييس التي يراعيها المسلمون في الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات.

ولعل بنود الفصل الثالث توضح رسالته السياسية المهمة، والتي نصها:

«١٠- واجب الأقليات المسلمة:

يجـــوز للمسلمين أن يعيشـــوا حيثما شاءوا من أرض الله، ما لم يفتنوا في دينهم ومـــا لم يمـــنعوا مـــن تأدية فرائضهم. وتفرض الشريعة الإسلامية على المسلمين في مغـــترباتهم الالتزام بأنظمة الدولة التي يعيشون بها، ومراعاة قوانينها، واحترام العهود والمواثـــيق التي تربطهم بها؛ وتشكل تأشيرة الدخول إلى بلد ما، وتصريح الإقامة به، والتجـــنس بجنسيته، عهوداً ومواثيق يجب على الأقليات المسلمة والمواطنين المسلمين الالتزام بها.

١١- النظام الأساسي:

يحترم المسلمون المثلون من خلال المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا - من حمل مـــنهم الجنسية الألمانية ومن لم يحملها - النظام الأساسي لجمهورية ألمانيا الاتحادية، وما يرتبط به من أسس النظام الديمقراطي الحر لدولة القانون وتوزيع السلطة وتداولها بهـــا، وما ينبثق عنه من تعددية حزبية وحق الانتخابات للجنسين، وحرية الدين التي

تشـــمل حرية اعتناق دين أو تغييره أو عدم اتباع دين.. حرية دون قهر ولا إرغام، فهذا يتعارض مع حظر الإكراه في الدين، كما ينص على ذلك القرآن الكريم.

١٢- لا نهدف إلى إنشاء دولة:

لا نهدف إلى إنشاء دولة دين إكليروسية «ثيوقراطية» ونحيي نظام جمهورية ألمانيا الاتحادية الذي توفرت فيه علاقة منسجمة بين الدين والدولة».

ويوضح البند الخامس عشر توجه المجلس الأعلى للاستفادة من الاجتهاد المعاصر وفقه الأقليات:

«١٥- هوية إسلامية في إطار أوروبي:

الإسلام دعوة متجددة للإنسان، وتكليف مستمر له باستخدام عقله، والاستفادة مـــن حواســـه ولـــبه. ولقد سبق الإسلام عصر التنوير، فقد حث على العلم ودعم الاجتهاد، وألزم بفهم النصوص في إطار العصر والحاجات. ولذا فإننا نعمل من أجل إيجـــاد فهـــم معاصر للنصوص الإسلامية يراعي مشكلات العصر وحاجياته، ويفرز شخصية إسلامية متميزة ضمن الإطار الأوروبي المعاصر».

وتعبر نصوص المادتين (١٧) و(١٨) عن التوجه الإيجابي البناء في الإطار الغربي:

«١٧- الحوار من أجل البناء:

من أهم واجبات المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا إيجاد قاعدة من الثقة المتبادلة بين المسلمين والعناصر الأخرى في هذا المجتمع، لضمان تعايش مثمر بناء مع الأقليات الأخرى ومع الأغلبية الألمانية غير المسلمة في هذا المجتمع. والسبيل إلى ذلك هو نبذ الأحكام المسبقة من خلال قيام المسلمين بواجب التوعية والانفتاح والشفافية والحوار الإيجابي.

١٨- واجبنا تجاه المجتمع:

يشعر المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا بواجبه تجاه المجتمع الألماني، ويسعى للقيام بواجبه بالتعاون مع جميع عناصر المجتمع من أجل تحقيق التسامح وترسيخ المثل والأخلاق وحماية البيئة والحيوان. كما يندد المجلس الأعلى بانتهاك حقوق الإنسان في كل مكان، ويبدي استعداده للتعاون من أجل مكافحة العنصرية والعرقية والإباحية الجنسية».

أدت بعض العبارات الواردة في البند (١١) إلى تساؤلات حول شرعية قبول الأقلية المسلمة بنظام غير إسلامي وقبول الديمقراطية وما ينبثق عنها من أسس ومبادئ. ويوضح البند (١١) شرعية هذا الموقف و(جواز عيش المسلمين حيث شاءوا ما لم يفتنوا في دينهم وما لم يمنعوا من تأدية فرائضهم) وأن الشريعة الإسلامية تفرض عليهم (الالتزام بأنظمة الدولة التي يعيشون فيها ومراعاة قوانينها واحترام العهود والمواثيق التي تربطهم بها).

ولقد أكد هذا المعنى المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث الذي يضم ثلاثين عالماً وفقيهاً من العالم الإسلامي ومن أوروبا، على رأسهم رئيس المجلس فضيلة الشيخ د. يوسف القرضاوي، وذلك في دورته الثانية والثالثة المنعقدتين في ٩-١١/١٠/١٩٩٨م في مدينة دبلن، و١٩-٢٢/٥/١٩٩٩م في مدينة كولون، واللتين تضمن بيانهما الختاميان:

«كما يوصي المجلس هؤلاء الأخوة المسلمين ويشدد الوصية بالالتزام بما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وبما أجمع عليه فقهاء الإسلام، من وجوب الوفاء بمقتضيات عهد الأمان، وشروط الإقامة، والمواطنة، في البلاد الأوروبية التي يعيشون فيها؛ ومن أهم ما يجب عليهم: ... أن يحترموا قوانين هذه البلاد التي آوتهم وحمتهم

ومكنتهم من التمتع بكل ضمانات العيش الكريم، وقد قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (الرحمن: ٦٠) أ. هـ ».

كما التبس على بعضهم أن النظام العلماني القائم يمنع الأديان ويرسخ الكفر.. والناظر إلى النظام الألماني يدرك أن هذا النظام يمنع تبني الدولة لدين ما، دون أن يمنع الأفراد اعتناق ما يرون من أديان ومعتقدات، بل هو يحمي حرية الدين والمعتقد، ويمكن للمؤسسات الدينية مركزاً اجتماعياً لائقاً. وهذا يسري من ناحية الأصل على الدين الإسلامي وأتباعه كذلك.

والبند الحادي عشر، الذي ينص على احترام المجلس الأعلى (لحرية الدين، التي تشمل حرية اعتناق دين أو تغييره أو عدم اتباع دين) لا يعني تحبيذ المجلس الأعلى لارتداد المسلمين عن دينهم أو الرضى بالكفر أو الشرك، فلن يرتد مسلم لمجرد حماية القانون الأساسي لحق عدم اعتناق دين. ولا يخفى على أحد أن الإسلام لا يعطي المجلس الأعلى أو أي مؤسسة أو فرد حق إسقاط عقوبات أو إقامة حدود، بل يربط هذا بالسلطة التشريعية والتنفيذية في إطار الدولة والحكم.

وعندما يؤكد المجلس الأعلى في البند (١٢) أنه لا يهدف إلى إقامة دولة، فهو يقرر حقيقة نصت عليها أهدافه ودستوره، وهو يقرر الواقع الذي يعيشه، وينطلق من الموقف الإسلامي الشرعي الذي سبق ذكره.

والنص الوارد في البند (١٣): (وإلزام قواعد الشرع بمراعاة القوانين المحلية لهذا المجتمع ينضوي على قبول القوانين المنظمة لشؤون الزواج والإرث والمرافعات القضائية) أدى إلى بعض التساؤلات التي تزول إذا علم السائل أن هذه القوانين تحترم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها في بلاد المنشأ، ولا تمنع من توزيع التركة وفق الشريعة الإسلامية إذا أوصى المتوفى بذلك.

يبدو من ذلك كله أننا على ارتياح تام لهذا الموقف الصادر في الميثاق الإسلامي وثقة كاملة بمراعاته لقواعد الشرع الحنيف.

ولقد سعى المجلس الأعلى إلى تعميم الميثاق الإسلامي في الوسط الإسلامي وغير الإسـلامي، وتم توزيعه على نواب البرلمان الاتحادي والبرلمانات المحلية وعلى الجهات الرسمية والشعبية والإعلامية، كما قمنا بترجمته إلى اللغات العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية والإسـبانية. وقمنا بتزويد السـفارات الإسلامية والجمعيات والاتحادات في أوروبـا بالترجمات اللازمـة. وكان هدفنا من هذا التعميم الشامل الاستفادة من أراء كـل الجهـات والأفراد، وحثهم على الدخـول في حـوار موضـوعي بناء حول محتوى الميثاق.

وقـد وجد الميثاق الإسلامي ترحيباً كبيراً في جميع الأوساط، وأصدرت بعض الأحزاب بيانات رسمية تعبر فيها عن إكبارها لهذه الخطوة الإيجابية الجريئة من المجلس الأعـلى، وأثنت وزيرة العدل الاتحادية على الميثاق، ورحبت بصدوره في التلفزيون الألمـاني. وأولت الصحافة الميثاق اهتماماً كبيراً، إذ نشرت مئات الأخبار والمقالات والتعلـيقات علـيه، وقامت كبريات الصحف الألمانية بنشر نصه كاملاً، وأقامت أكاديميات حزبية وكنسية مؤتمرات للتعريف بالميثاق ومناقشة محتواه، وصدرت عدة دراسـات مستفيضـة- زاد بعضـها على الثـلاثين صفحة- تتضمن نتائج تلك الدراسـات. وعقـدت عـدة جهات جلسات مغلقة لمناقشته داخلياً، منها وزارة الداخلـية الاتحاديـة والكنيستان وإدارة حماية الدستور في بعض المقاطعات. والتقى المجلـس الأعـلى لهـذا الغـرض بوزير داخلية مقاطعة «بافاريا» ورئاسة الكنيسة البروتستانتية، والكاثوليكية، وهيئات رسمية وشعبية عديدة.

أصولنا في التعامل مع الغرب

لم يجعل الإسلام الأصل في التعامل مع المجتمعات غير المسلمة التقوقع والعزلة، بـــل جعل الأصل مخاطبتها وجدالها وفتح أبواب التواصل معها ومد جسور العلاقة بها، و لم يشرع الإسلام الهجرة من الأوطان والبلاد لمجرد كفر أهلها أو فسادهم، بل جعـــل الأصل محـــاولة هدايتهم وإصـــلاحهم، ما وجـــدوا إلى ذلك سبيلاً، فإذا استحال ذلك أذن لهم بالهجـــرة ليتابعوا الدعـــوة في مجتمع آخر غير مســـلم، قد يكون أقل ظلماً أو أكثر عدلاً، وليقوموا بواجب دعوته من خلال العيش في نطاقه والتواصل معه.

و لم يجعل الإســـلام الأصل مقاطعة المجتمع بخيره وشره، بل جعل الأصل الإفادة ممـــا بقي في تلك المجتمعات من عادات صالحة وأعراف سليمة والتعاون مع عناصر الخـــير فـــيه لإحـــداث إصـــلاح أو لدرء فســـاد في المجتمع، على الرغم من كفر أغلبيته أو فسادها.

و لم يشرع الإسلام تقتيل الآمنين وترويع المدنيين المسالمين لمجرد مخالفتهم للدين، بل أوجب دعوتهم واحترام اختيارهم، دون قهر وقسر.

وينطلق تعاملنا مع مجتمعاتنا الغربية من عدة أسس منها:

أولاً: معرفة الذات والمـــحافظة على الهـــوية. وهذا الأساس لا يقبل مساومة ولا مداهنة، فالإيمان الراسخ بالله عز وجل، واليقين الثابت بصحة هذا الدين، عنصر المفارقـــة مع هذا المجتمع، وهما الصفة البارزة المميزة لهذه الأقلية، ويقينها بهذا الدين

يـتجاوز اعـتقادها بصحته لجماعتها فحسب، فهو الدين الذي ارتضاه الله للبشر كافـة.. بل للكون جميعاً: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٣) وهو الدين الذي لا يرضـون بديلاً سواه، ولا يرون طريقاً غيره: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥).

والانـتماء إلى الإسلام يرتبط – سواء كان المسلمون في الغرب أو في أي مكان آخـر– باتباعهم له وانصياعهم لأوامره وتطبيقهم لمنهجه، فهم لا يكتفون بالإيمان وبالإسـلام دون العمل به، ولا يقبلون بمقولة بعض المفكرين المنسوبين للإسلام في الغـرب، والمنادين بحصره في النطاق الفردي وتقليصه إلى نطاق العقيدة فحسب، بل يـرون وجوب تطبيقـه كلاً لا يتجزأ، أفراداً ومؤسسـات وجماعـات.. عقيدة وعبادة، وسـلوكاً ومعـاملات، فهذا هو العمـق الحقيقي للإسـلام وللعبودية لله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

والانتماء إلى الإسلام يفرض على المسلمين في الغرب وعلى مؤسساتهم وجوب العـلم به: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (محمد:١٩) وطلب العلم هذا الذي هو فريضة على كل مسلم – ذكر أو أنثى – هو تكلـيف لمؤسسات المسلمين في الغرب بالمطالبة بحقوقهم التي تمكنهم من القيام بهذا الواجـب في المجـتمع الغربي، وهو تكليف لهم بإنشاء سائر المؤسسات وإيجاد جميع الوسائل اللازمة لذلك.

ويقع ضمن مسؤولية المؤسسات الإسلامية في مجتمع الأقليات، والجاليات بشكل خاص، المعرفة بجوانب الإسلام الخاصة ببيئتهم في الغرب، ومعرفة أصول التعامل مع

مجـــتمع الأغلبـــية من منظور إسلامي صحيح، كما يقع على عاتقهم واجب توعية المسلمين بهذه الجوانب اللازمة للتواصل والانفتاح.

ثانـــياً: تواصل الدعاة بمجتمعاتهم، وهو قسم من أقسام الدعوة إلى الله، وينبغي أن يلتزم بأصول الدعوة وآداب المعاملة والنهي عن المنكر.. ومن أهم ما يجب الالتزام به في التواصل:

حســـن المعاملة ولين القول: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥)، ولا يليق بدعاة الإسلام وأبنائه الداعين إليه في الغرب معاملة مجتمعاتهم بالغلظة والشدة، التي لا تنفر غير المســـلمين فحسب، بـــل تنفر المسلمين بعضهم من بعض، وربما نفر أتباع الأنبياء منهم لو سلكوا ذلك المسلك: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وتحدد نصوص الشرع قواعد التواصل مع غير المسلمي:

- ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠)، فكرامة الإنسان – كل إنسان أياً كان أصله وجنسه أو عقيدته– مصونة بتكريم الله لبني آدم.

- ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هـــود:١١٨-١١٩)، فالاختلاف سنة من سنن الله، وله في ذلك حكمته.

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النســـاء:١)، فالـــناس كلهم أبناء أب واحد وأم واحدة، وهم إخوة في آدميتهم وبشريتهم: « **وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَاب**». [1]

(١) من خطبة الفتح الأعظم، أخرجه الترمذي في جامعه، ج٤-١٨٦.

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣) فمقياس التفاضل بين البشر أعمالهم وليس أصلهم أو لونهم: «... **فَالنَّاسُ رَجُلان: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّه، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّه...**»[1]؛ «**ألا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إلا بِالتَّقْوَى**»[2].

- ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ (البقرة:٢٥٦)، وما أرسل المرسلون لإكراه أحد على دين أو عقيدة: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩)، وقرر القرآن المكي هذه القاعدة في الوسط المشرك: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦) كما قررها القرآن المدني في سورة البقرة بشأن أهل الكتاب.

- ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٦)، فالله إله المسلمين والنصارى واليهود والناس أجمعين، وهو ربهم ورب الكون جميعاً، والإيمان بما أنزل الله من وحي وكتاب وبمن بعث من نبي ورسول من أركان إيمان المسلمين ومن أصل عقيدتهم.

- ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت:٤٦)، فحوار أهل الكتاب مأمور به أصلاً، وأسلوبه مقرر بنص الكتاب وبهدي السنة: ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وقد نُهينا عن سبهم وإيذائهم: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ ﴾ (الأنعام:١٠٨)، ناهيك عن قتلهم وترويعهم.

---

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) من خطبة الفتح الأعظم، أخرجه الإمام أحمد.

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ (المائدة: ٨) والعدل دون مرتبة الإحسان، وهو وإن كان الحد الأدنى من حسن المعاملة المأمور بها تجاه غير المسلمين، إلا أنه في حد ذاته قدر عظيم بمقاييس هذا العصر وكل عصر، وقد حرم الله الظلم، وأكد رسول الله ﷺ تحريمه ولو كان تجاه غير المسلمين: «... **دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ...**».(١)

ثالثاً: الإسلام دين العدل والسلام، وشريعته شريعة الرحمة والأمان، وأمته أمة الدعوة إلى الخير والإصلاح: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، وكم شوه وجه الإسلام العظيم من خلال تحامل أعدائه وأخطاء أبنائه، وكم عجز الدعاة عن إبراز وجهه الناصع وإبراز عناصر الخيرية التي كانت ولا تزال هي سمته المميزة وبطاقة تعريفه الأولى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (النحل: ٣٠)، ولقد كانت دعوة الإسلام هي دعوة كل نبي والمادة الأولى التي يعرضها على قومه: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨).

يجب من خلال الانفتاح على المجتمعات غير المسلمة إبراز الجوانب الإنسانية البشرية الحضارية الكامنة في الشريعة الإسلامية، ويجب التعاون مع جميع عناصر المجتمع من أجل تحقيقها، والإسلام كله خير: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

ﭐلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٣)، ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام:١٥١).

رابعاً: أراد الله الإسلام هدى ورحمة للعالمين، و لم يجعله سيفاً مسلطاً على رقاب البشر، يستبيح باسمه من شاء ممن ينتسب إليه قتل العباد وإفساد البلاد. جعل الله سمة عباد الرحمن في كتابه العزيز: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ ... ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ (الفرقان:٦٣-٦٩)؛ وشرع الله لنا كما شرع لمن قبلنا: ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة:٣٢)؛ ووضع الشرع قواعد لحل الخلاف بين الأفراد وقواعد لحل الخلاف بين الأمم والأقوام، فمن خالفها خالف الشرع واستحق عقاب الله في الدنيا وغضبه في الآخرة: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٣).

ليبلوكم أيكم أحسن عملاً

الحكـــم الموضـــوعي على واقع المسلمين في ضوء أسس الإسلام الحنيف وهديه القـــويم يـــدل عـــلى بون شاسع لدى بعضهم - إن لم نقل أكثرهم- بين الأصول والمـــبادئ المذكـــورة وبين فهمهم وتطبيقهم لها. وكم أدى حب بعضهم للإسلام وحميـــتهم له إلى تجـــاوز حدوده وتشويه قيمه أو استغلال نصوصه وإنزالها في غير موضعها. فيؤدي فهم بعضهم للولاء والبراء إلى حمية عمياء في جانب وحرب شعواء في الجانب الآخر. ويؤدي فهمهم لدفع الظلم والعـــدوان إلى تخريب وتقتيل لم يأذن به الله. ويؤدي فهمهم لضرورة التميز بالإسلام والمحافظة على الهوية إلى تقوقع وعزلة يـــتعطل واجـــب الدعـــوة بهما، أو إلى تعصب وغلظة يمتسخ وجه الإسلام السمح معهمـــا. ولم يسلم المسلمون في الغرب من كثير من هذا، وإن غلب على معظمهم الاعـــتدال والإنصـــاف وإحسان العمل الذي لا يتم إلا إن كان خالصاً وصواباً في الوقت نفسه.

وقد دعانا نقدنا الذاتي لمساجدنا وروادها إلى وضع مخطط لتفعيل الحوار الداخلي ضـــمن كل مسجد، يشتمل على طرح المواضيع المختلف حولها، ومناقشة الأفكار الـــتي يروج لها بعضهم، وتفسير الآيات التي يستغلها الآخرون لتحريض العامة على الشـــدة والعنف. وقمنا بهذا الصدد بإعداد دورات تأهيلية للأئمة والخطباء ومسؤولي الجمعـــيات لحضهم على مراعاة التوازن والاعتدال والحكمة في سائر برامجهم، بدءاً بمـــناهج تعلـــيم الأطفال وأساليب التربية وطرق التوعية العامة وموضوعات الخطب والندوات والمحاضرات، وانتهاء بالوسائل اللازمة لمنع تسرب الأفكار الهدامة المخالفة للشـــرع والقانون، وطرق الوقوف أمام المروجين لها في نطاق المساجد؛ وتم التأكيد

عـــلى أن المحافظـــة على سلامة المجتمع جزء من المحافظة على سلامتنا، وأن واجب التعاون من أجل الأمن العام هو واجب إسلامي، إضافة إلى كونه واجباً من واجبات المواطـــنة والـــتعايش بـــين البشر، وأن الانفتاح على المجتمع والتواصل معه هو من مقومـــات ضـــمان حقوق المسلمين وبقائهم في مواطنهم الغربية، علاوة على كونه الطريق المنطقي للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والحكـــم الموضوعي على واقع المجتمع الغربي في ضوء أسس النظام الأساسي في ألمانيا والحقوق الأســـاسية التي ينص على ضمانـــها لكل مواطن ومقيم، وفي ضوء ما صرح به المسؤولون من عدم أخذهم أحداً بجريرة عمل سواه... الحكم الموضوعي يدل على بون شاســـع في هذا الجانب أيضاً بين النظرية والتطـــبيق.

إن المرحلة التي لا نزال نمر بها الآن منذ عامين لم تتخلص بعد من آثار ردة الفعل الأولى. ولا يـــزال الأصـــل في التعامل مع كل ما هو إسلامي التوجس والحذر بل الشـــك والاتهـــام في كـــثير من الأحيان. وأصبح التضييق على كل مظهر إسلامي ومعاداة كل بروز إسلامي منظم مصدراً لكسب أصوات الناخبين وتأييد الجماهير. ويكفـــي أن نذكّـــر أن عملـــيات التحري دون شبهة والتمشيط وعمليات اقتحام المســـاجد وتفتيش المساكن والمكاتب لم تأت- بالرغم مما صرف عليها من ملايين- بـــأي نتيجة تذكر. وهذا باعتراف القائمين عليها! وبالإضافة إلى ذلك ومع ما بدر فـــيها مـــن تجاوزات قانونية أثبتتها المحاكم، إلا أن صوتاً واحداً من العامة لم يرتفع معترضاً عليها، و لم يسقط بسببها وزير أو يعزل مسؤول.

إن الـــتوازن الـــذي دعونا إليه باتخاذ الدولة موقفاً إيجابياً تجاه عامة المســـلمين، معـــدلاً للصورة الأمنية التي قد تكون ضرورية في بعض جوانبها، لا يزال مفتقداً إلى يومنا هذا.

بـــل نرى بدلاً من ذلك منذ أكثر من عام حملة شعواء لتشويه سمعة المؤسسات الإســـلامية ولإلصـــاق التهم والادعاءات بعدد من ممثلي المسلمين دون دليل وبيّنة. وتجرأ القاصي والداني من السياسيين والإداريين والصحفيين والكتاب على كل ما هو إسلامي. وعلى الرغم من وقوف فئة من كبار المسؤولين والمفكرين ورجال الكنيسة وقفة إنصاف ومناصرة للمسلمين، إلا أن الأمل قد خاب في كثير من أطراف الحوار التي انشغلنا بالحوار معها أكثر من ثلاثين عاماً.

سيبزغ الفجر من جديد:

إن المرحلة الثالثة قادمة لا محالة بإذن الله، وستعود النفوس إلى هدوئها والأعمال إلى اعتدالها. لقد كان المسلمون في ألمانيا في هذه الأزمة مثالاً لضبط النفس واحترام القـــانون وللتمســـك بقيم دينهم ومثله. ولقد جسدوا هذه القيم والمثل فكانوا مع تمسكهم بدينهم وعقيدتهم مواطنين صالحين، وكانت مؤسساتهم عناصر تعاون فعال في أحلـــك أزمة مرت بها ألمانيا الحديثة. سيدرك ذلك كل منصف، وسيشعر المجتمع الألماني بصلاح عناصره المسلمة، وسيعترف المسؤولون بفضل المنظمات الإسلامية في هـــذه الأزمة وبأهمية دورها لتجنب كل أزمة، وبحاجة المجتمع بكامله إليها، جسوراً للحوار، وقنوات للاتصال، ورفقاء عون وخير.

الخطر الإسلامي.. عصر الحصون

الأستاذ آلان غراش(*)

ترجمة: سامية تواتي؛ مراجعة: د.العربي كشاط

إن مجموعة من اليمين باتت تسعى جاهدة لاختراع عدوّ جديد. فالعديد من «الدبابات المفكرة Think Tanks»، الذين جعلتهم نهاية الحرب الباردة يبحثون لأنفسهم عن تأهيل جديد اشتغلوا بهذه الفكرة. وكان على الجيش ومختلف أجهزة المخابرات أن تجد لأنفسها أيضاً وظيفة جديدة، وإلاّ فإن القروض الضخمة التي تحصلت عليها لمحاربة الشيوعية ستُلغى.

إن موضوع «الخطر الإسلامي» الذي كثيراً ما تم تهييجه عبر القرون (من الحروب الصليبية إلى الاستعمار) أصبح ذا بعد لا سابق له منذ سقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفياتي. والعديد من المعلقين الذين يبحثون عن مفاهيم جديدة لفهم العالم، ويسعون وراء عدو جديد حتى يبقى الغرب مستنفراً ضده، يعلنون أن «الإسلاموية» هي وريثة الشمولية. وقد قرأنا في مقال «للنيويورك تايمز» في سبتمبر ١٩٩٣م: «أن الأصولية المسلمة سرعان ما أصبحت تشكل أهم خطر على السلام العام والأمن ... وهذا الخطر شبيه بالنازية والفاشية في الثلاثينيات، ومختلف الشيوعيات في الخمسينيات»(١).

(*) رئيس تحرير «لوموند ديبلوماتيك».. (فرنسا).

(١) Clare Hollingworth, « Another Despotic Creeds Seeks to Infiltrate the West », *nternational Herald Tribune*, 9 september 1993

كمـــا أن الجـــريدة نفسها عنونت صحيفتها يوم ٢١ يناير ١٩٩٦م بـــ: «أن الخطر الأحمر قد ولّى، وها هو ذا الإسلام».

وقـــد دافع «دانيال بايبس»، الذي اشتهر بتجديده المستمر «للقائمة السوداء» للجامعـــيين الأمـــريكان الذين يعتبرهم معادين لإسرائيل، عن فكرة «الشَّبه» هذه، حيث قال: «إن الإسلام الراديكالي أقرب، من حيث الفكر، إلى حركات كالشيوعية والفاشية منه إلى دين تقليدي»[١].

وحتى مصطلح «صراع الحضارات» الذي روجه «صاموئيل هنتنغتون» في مقاله الشهير في «الفورين-أفيرز» ثم في كتاب[٢]، فقد اخترعه «برنارد لويس»[٣]، للتعبير عـــن التعارض الموجود بين الغرب والإسلام، منذ سبتمبر ١٩٩٠م، أي بفترة كبيرة قـــبل بروز «القاعدة».. ومنذ ١١سبتمبر٢٠٠١م، خرج هذا الجامعي المعروف من عزلته ليصبح مستشاراً للمحافظين الجدد في إدارة «بوش».

وكالعـــادة، فـــإن الكُـــتّاب المبدعين يفهمون الأمور أحسن من المحلّلين الذين يدرســـون الأمـــور ببرودة. وفي رواية مستقبلية كتبها «بيار بورداج» واصفاً فيها كوكباً أُضرمت فيه نيران حرب ضروس تدور بين كتائب المَلَك «ميكائيل» – التي اســـتولت على الحكم في الغرب – و«الأُسامات» أي المسلمين، يقول أحد أبطال الرواية الأمريكي:

«كان من الممكن تفادي هذا الجنون لو أن بلادي وبعضاً من حلفائها الأوربيين لم يـــزيدوا النار زيتاً. فقد أجابوا على أحداث ١١ سبتمبر٢٠٠١م بالحرب. تحدّثوا أولاً عن حرب على الإرهاب، ثم عن حرب وقائية على الدول المارقة، ثم استعملوا

(١) Cited by Edward Said, *Covering Islam*, Vintage, Londres, 1997 (reviewed edition, original text published i 1981), p. XVIII

(٢) Samuel Huntington, *Le Choc des civilisations*, Odile Jacob, 1997.

(٣) « The Roots of Muslim Rage », *Atlantic Monthly*, september 1990

مصطلحي الخير والشر، وأبرزوا أناجيلهم وصلواتهم وأعلنوا أن الله ينصرهم، وأعادوا بعث مفهوم الحروب الصليبية القديم... لقد استعدوا لضربتهم هذه بتشبيههم المسلمين بإرهابيين، وبتلاعبهم بمخاوف الناس.. عرفوا كيف يكسبون المساندة الكلية للرأي العام. حينها بدأ الجميع في انتقاد المسلمين: رجال السياسة، ورجال الدين، والمثقفون، وأشباه – الفلاسفة، والفنانون؛ ونادى الجميع أن الإسلام لا يتماشى مع قيم الديمقراطيات الغربية. وقد تم صنع السيف الإسلامي البتار في المصهر العراقي، والسعودي، والإيراني، والسوري، والفلسطيني». (١)

لقد تجسد هذا التصور لعدوّ جديد في التسعينيات، إذ تخلّصت الولايات المتحدة الأميركية من عدوّ استراتيجي بعد زوال الاتحاد السوفياتي ومعاهدة «فارسوفيا». لكن هل من الممكن العيش دون عدو؟ إن مجموعة من اليمين المتطرف تظنّ ذلك مستحيلاً، ولذا باتت تسعى جاهدة لاختراع عدوّ جديد. فالعديد من «الدبابات المفكرة think tanks»، الذين جعلتهم نهاية الحرب الباردة يبحثون لأنفسهم عن تأهيل جديد اشتغلوا بهذه الفكرة. وكان على الجيش ومختلف أجهزة المخابرات أن تجد لأنفسها أيضاً وظيفة جديدة، وإلاّ فإن القروض الضخمة التي تحصلت عليها لمحاربة الشيوعية ستُلغى. وقد اقتاتت هذه النظرة على تصرفات «القاعدة»، هذا التنظيم الذي ترعرع في ظل التحالف المعادي للسوفيات، الذي أعدّته الولايات المتحدة في نهاية السبعينيات.

وإذا كان العالم أثناء الحرب الباردة، وخاصة في فترتها الجديدة بين عامي ١٩٧٩م و١٩٨٩م، شبيهاً برقعة شطرنج مقسومة إلى معسكرين، وكان الأمر يتعلق بمحاولة منع الخصم من الاستحواذ على مواضع استراتيجية، فإنه اليوم ينقسم إلى «حصون منيعة مُعدّة لأن تكون مناطق آمنة لأقصى درجة، وحواليها أراض بور، ومناطق

(١) Pierre Bordage, *L'Ange de l'abîme,* Au Diable Vauvert, Vauvert 2004, pp. 368-369.

محـــرمة no man's land تُقَدَّر بالخطر الكامن الذي تمثله على أمن الحصون: موجات الهجـــرة، تصاعد العنف، أو الانهيار الاقتصادي» بتعبير الصحفية «فلورنس أوبناس» والفيلسوف «ميشال بن الصياغ»؛ اللَّذَيْن يواصلان فكرهما قائلين:

«إن تركيب السلطة هذا موجود بطريقة تقسيمية، أي أن هذا الشكل الوحيد، أو التوزيع الجغرافي، يتكرر إلى مالانهاية، من الأكبر إلى الأصغر، من المستوى العالمي إلى الســكن الفردي. هناك بلدان منيعة وبلدان تسود فيها المناطق المحرمة. وبداخل هـــذه وتلك ستكون المدن والأحياء مقسمة بنفس الطريقة. وإن كانت السلطة -في عهـــد المعســـكرين- تمـــارَس باسم خطر مباشر قادم من الخارج، ويسهل تحديده بوضـــوح، فلا أحد يعلم -في عصر الحصون- بأي شكل سيظهر الخطر. فهو يحيط بالحصـــون، ويحاصرها كلها، دون أن يُعرَف المكان الذي سيضرب فيه ضربته فعلاً من جديد. ومثل «الطابورالخامس» أثناء الحرب الباردة، فإن الخطر يحوم أيضاً حتى في داخـــل القـــلاع: المخدرات، والأغراب، والأمراض، والمتسولين في الشوارع... ويدّعـــي الحكّـــام أن هذا هو الذي يبرر صرامتهم. فقائمة الأخطار ممتدّة -أو حتى لامتناهية- امتداداً كافياً لأن يبرر التطويق الذي تتعرض له بمجمل أبعاد الحياة اليومية. فينـــتهي الأمر بكل شخص أن يعيش وكأنه حصن صغير، تحاصره كل من البطالة، والتغذية، والتعرّض لأشعة الشمس وللماء أو للهواء..».(١)

ويستخلصـــان أن فكرة «اللا أمن» تنتظم في هذا السياق: «إن الأمر يتعلق في معظم الأحيان بحالات حقيقية، بتحديات يجب مواجهتها فعلاً. لكن التعسف يكمن في الخلـــط؛ في هـــذه الطـــريقة التي يتم بها جمع كل شيء -من البقرة المجنونة إلى الاعتداءات- تحت عنوان واحد هو «اللا أمن».

(١) Florence Aubenas, Michel Benasayag, *La Fabrication de l'information,* La Découverte, 1999, pp. 43-44.

وعلينا أن نضيف أنه حتّى وإن كان «للا أمن» أوجه عديدة، فإنه اليوم يُختزَل بالإســـلاموية، وهـــي عدو متعذر الإمساك به في الخارج، ويناوبه في الداخل طابور خامس ذو تهديد متزايد، إذ هو في نفس الوقت «غريب عنا» لكنه شديد الشبه بنا.

وتلعب وسائل الإعلام أحياناً دوراً مهماً في إيقاد هذه المخاوف، وهي لا تتردّد في اســـتعمال سياسة الكيل بمكيالين، حسب الظروف. ففي ربيع عام ١٩٩٩م في ألبانيا، كان هنالك ستة معسكرات للاجئين تتكفل بها بلدان مختلفة. وكان أحدها تحت رعاية الإمارات العربية المتحدة. يقول «ميشال بن الصياغ» و«فلورنس أوبناس»:

«قـــام الجنود الإماراتيون منذ الشهر الأول ببناء مسجد، وأهدوا إلى كل امرأة حجابـــاً، مع بقاء كل منهن حرة في أن ترتديه أو تتركه. وسارعت بجمل الصحافة الغربـــية على الفور – وخاصة التلفزيونات الأميركية – إلى التنديد بما اعتبرته عملاً دالاً عـــلى الـــتطرّف المناضـــل، أو حـــتى على باكورة حرب مقدّسة. وعلى بعد كيلومـــترين مـــن هناك، كان للجنود الإيطاليين معسكر آخر، يقام فيه كل أسبوع قُـــدّاس بكـــامل شكله التقليدي.. وكم طاف فيه القسيسون مرتدين أثوابهم الدينية المميزة دون كلل، ولم يتركوا فيه أدنى فرصة دون استغلالها للدخول إلى الخيم والقيام بالتبشير. لكن هذا لم يُكتَب أبداً كموضوع لأي مقالة ولو صغيرة. وعلينا أن نذكر أن الكوسوفيين الألبان يدينون بالإسلام. فمن وجهة نظرهم كان تصرف الكاثوليك الإيطاليين أكثر عداء ومدعاة للاستنكار من تصرف الإمارتيين».(١)

ولـــنذكر حالـــة أخـــرى، هي حالة العراق «المتحرر» الذي يقوم فيه مبشرون أمريكان ومسيحيون إنجيليون بفتح كنائس، وتطوير سياسة تبشيرية، لم تُندّد بها أي وسيلة من وسائل الإعلام الغربية(٢).

(١) Aubenas, Benasayag, *La Fabrication op. cit.*, pp. 46-47.

(٢) *The Washington Times*, 21 march 2004.

حرب عالمية جديدة

لاقت فكرة «الخطر الإسلامي» -التي أُعدّت قبل ظهور «القاعدة» والإرهاب الذي تمارسه- نجاحاً باهراً مع أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، التي رسّخت هذه الأطروحة بكل تأكيد. وكتب غداة هذه الأحداث «دُني جمبار» و«ألان لويو» في صحيفة «لكسبرس»[١]: «لقد بدأت الحرب العالمية الثالثة يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر على الساحل الشرقي للولايات المتحدة. إنها حرب عالمية من نوع جديد، لا مثيل له في التاريخ، تدور بين الإرهاب - وهو لا شك إسلاموي حسب ما يبدو- والغرب».

ويستمر الصحفيان قائلين: «إن العجرفة الغربية التي وُلدت على أنقاض جدار برلين، وضخّمتها المسيحية التقليدية الأميركية، أدّت إلى ردّ فعل تسلسلي عند المسلمين (ولنلاحظ كيف يستعملان هذا اللفظ الجامع): المرور من الشعور الإسلامي البسيط إلى الالتحام الإسلاموي. هذه الظاهرة قوية لدرجة أنها تعبر حدود الدول العربية، وهي حدود رسمت أغلبيتها دول غربية. سيحقّق الدين إذن ما فشلت الحكومات العربية في تحقيقه، وهو ظهور هوية تتجاوز الدول، وتُستعمَل كخميرة للإرهاب الذي يستهدف اليوم الولايات المتحدة والغرب المتحجر».

ويختتمان بقولهما: «صحيح أن العدو يتعذر الإمساك به، لكنه من الضرورة بمكان إيجاد طرق ووسائل للرد عليه دون الوقوع في نزاع عام. وللأسف فإن التاريخ يدل على أن القوة هي الردّ الوحيد على القوة. ومن أجل هذا فإن شهر سبتمبر

---

(١) 13 septembre 2001.

الأســود لأمريكا هذا يضع الألفية الثالثة على درب مخيف، مؤدٍّ إلى حرب جديدة، ستختلف أشكالها عن أشكال الماضي، وعليها أن تواجه - مهما كان الثمن- الكراهية العمياء التي تسببت في حِداد أميركا.» وهكذا إذن انتشرت فكرة حرب عالمية جديدة تتبع نموذج محاربة النازية أو الشيوعية.

وقد صرح «جان لوي بروغيار»، الذي أصبح منذ ١٩٨٦م زعيم فرقة القضاة المكافحين للإرهاب، والذي -حسب صحيفة لكسبرس- «كانت طرق عمله تتعرض أحياناً للنقد قبل ١١سبتمبر ٢٠٠١م لكنها أصبحت اليوم تشكل مرجعاً»، بما يلي: «لا أحد ينكر اليوم أن الخطر الإرهابي هو أحد أهم رهانات القرن الحادي والعشرين».

ويقول: إن هذا الإرهاب لا علاقة له بالإرهاب السياسي للسبعينيات، الذي كان له مطالب سياسية، مثل حزب الجيش الأحمر الألماني أو الكتائب الحمراء الإيطالية (وهذا خطأ إذ أثبت الباحث أوليفيي روا، عن حق، وجود أوجه شبه بين الإرهاب اليساري المتطرف والقاعدة)، «بل نحن نواجه أيديولوجية راديكالية ذات طابع عَدَميّ تدعو فقط إلى تدمير الآخر تدميراً شاملاً (...) وفي نظر هذه الحركة المتطرّفة والمتعصّبة فإنه لا يوجد حلّ آخر سوى موت الخصم. فإن لم يتم السيطرة على هذا الوضع سنعيش حرب المئة عام في العصور الحديثة. إن مصالح مكافحة الإرهاب الغربية تحارب عدواً متعدد الأشكال، وذا بنى متفجّرة، وهو في نفس الوقت موجود في كل مكان، ولا وجود له في أي مكان (...) إن الخطر الآن يحوم حول الكوكب بأسره، و«المجاهدون» يختفون في داخل البلدان المستهدفة. إنّهم يوظّفون أناساً جدداً في هوامش مدننا الكبرى، في تلك «المناطق الرمادية» التي

يعـيش فـيها سـكان مهمّشون، وبعضهم في حالة غير قانونية.»[1] وبعد أن قال «بروغـيار»: «إن الـنوع الجديد للإرهاب الذي تمارسه «القاعدة» ليس له هدف سياسـي قابل للتفاوض»، وهذا صحـيح، أكّد أن فرنسـا تسـتمدّ تجربتها من مكافحتها للإسـلامويين الجزائريين (وهذا في الحقيقة لا علاقة له بالموضوع، إذ أن الجماعة الإسلامية المسلحة، والجبهة الإسلامية للإنقاذ، كلتاهما كانتا تستهدفان أخذ عنان الحكم).

وقد لاحظ «بول جينيفسكي»، الذي كان في فرنسا من أكثر المدافعين حماسة عن نظام الأبرتايد الجنوب - إفريقي: «أن العالم ومواطني عالمنا يعيشون حرباً عالمية رابعة، بل يعانون منها، سواء علموا بذلك أو حاولوا تجاهله. وما زال الوقت مبكراً لمعرفة كل أبعاد هذه الحرب ووصف كل جبهاتها وأطرافها واحتمالاتها. إنها ظاهرة مـتحركة مـتعددة الأشكال، وقد طوّقتنا باعتداءاتها المادية والمعنوية الأيديولوجية: الاعتداء على مركز التجارة العالمي والبنتاغون في سبتمبر ٢٠٠١م؛ حربَيْ أفغانستان والعراق الناجمتين عنها؛ اعتداءات الإسلامويين في أندونيسيا، والهند، والمملكة العربية السـعودية، وتركيا، والمغرب، والجزائر، وفي مختلف بلدان إفريقيا وأوربا؛ هجومات حمـاس والجهاد الإسلامي وحزب الله على إسرائيل؛ الاعتداءات المطارِدة لليهود في الغرب وخاصة في فرنسا ... إلخ ...إلخ. إننا نتبيّن في ظل تفاقم هذه الهجومات التي تعـددت أشكالها وأحجامها حرباً شعواء تشنها مختلف أشكال التطرف الإسلاموي عـلى الحضـارة الغربية أو الحضارة الديمقراطية أو الليبرالية، أو على الحضارة بكل بسـاطة. ورهان هذه الحرب هو إمّا استمرار البشرية وإمّا خضوعها - حسب تعبير

(١) *L'Express*, 12 december 2002.

بعــض عــلماء السياسة- «لطاعون أخضر» أو «لفاشية إسلامية» ذات طموحات عالمية مثل طموحات وأهداف الطاعون الأحمر والأسمر». (١)

وكان الشخص نفسه، يبرر منذ ٢٠ سنة، دفاعه عن نظام «الأبرتايد» الجنوب إفــريقي بأنه على البلدان الغربية المدافعة عن العالم الحرّ أن توحّد صفوفها من أجل مواجهة الشيوعية.

وفي خضمّ هذا النداء إلى حرب صليبية جديدة، رأينا بعض المعلّقين يَبرُزون من العَــدم، بعــد أن توّجــتهم وسائل الإعلام الجهولة بصفة «خبراء». وهكذا انتمى «ألكســندر دلفــال» طــيلة شــهور بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م إلى «دائرة الخبراء الســحرية» الــتي كانت تُدعى باستمرار إلى التلفزيون. ويرى هذا الشخص، الذي تحــوّل بين عشية وضحاها من اليمين المتطرّف المعادي للأمريكان وللصهيونية، إلى مدافــع بحماسة عن سياسات واشنطن وتل أبيب (وتبقى النقطة الوحيدة الثابتة لديه هي كراهيته للإسلام)، أن العالم يمكن تحليله بسهولة ودون أدنى تعقيد كالتالي:

«إن مــبدأ «رفــض السلطة الكافرة» كفيل بأن يشرح أغلب النــزاعات التي تفصل بين المسلمين و«الكفار» في كشمير، والسودان، وأرمينيا، والشيشان، وحتى في كوسوفو ومقدونيا التي أصبح المسلمون يشكلون أغلبية سكانها». (٢)

وقــد يجرؤ بعضهم على الاعتراض، لأن مطالب الكوسوفيين والآزريين كانت قومــية وليســت دينــية، لأنهــم تأثروا بالعلمانية، لكن ذلك خطأ في نظره، لأنهم «بيولوجياً» مسلمون، وذلك كافٍ.

(١) « *La quatrième guerre mondiale, Israël et les juifs* », by Paul Giniewski, supplément au *Lien*, n° 220, Grenoble, 19 december 2003

(٢) *Le Figaro*, 25 septembre 2001.

لقـــد دافع «ألكسندر دلفال» عن الحروب التي شنها «سلوبودان ميلوسفيتش» عـــلى المســـلمين، وشـــنتها روســـيا عـــلى الشيشان، والحكومة الإسرائيلية على الفلسطينيين، وروّج أطروحة ضبابية عن تحالف الولايات المتحدة مع الإسلاموية ضد أوروبـــا، وها هو الآن يبدي الآمال التي جناها من الأزمة الحالية: إنه يأمل أن توقف واشـــنطن «الحرب على أوروبا والأرثوذكسية» (يقصد بها الدول الأرثوذكسية من روسيا إلى صربيا).

وهـــا هو يشرح من جديد: «لمواجهة الشمولية الخضراء، بات ضرورياً أن يُعاد تركيب عالم ما بعد الحرب الباردة: يجب التحالف دون أي شقاق مع روسيا ثم مع الهـــند، اللـــتين تواجهـــان تمردات إسلاموية مسلحة متعلقة ببؤرة الزلزال الأفغاني- الوهـــابي، وذلـــك لإزالـــة مفعول الموقد الإسلاموي الذري الباكستاني، كما يجب التقارب مع الصين (...) حتى يُكسر المحور الإسلامي- الكنفشيوسي».

ويدعو أيضاً إلى «مساندة ضحايا الوحشية الإسلاموية الأوائل، ابتداءً من الجزائر ومصـــر وتونـــس، وهـــي بلدان عادة ما لُطِّخَت سمعتها بالوحل لأنها «تضطهد» الإســـلامويين».(1) لمـــاذا وضع لفظ «تضطهد» بين علامتي التنصيص؟ إن التعذيب والاخـــتطاف والتوقـــيف التعسفي عُملة كثيرة التداول في هذه البلدان الثلاثة، لكن ذلـــك لا يهم ما دام الأمر يتعلق بالإسلام، فالغاية تبرّر الوسيلة؛ ومفعول الخطابات التي تتحدث عن الديمقراطية وحقوق الإنسان يزول.

إن العديـــد من المعلّقين يستعملون فكرة الحرب العالمية الثالثة (أو الرابعة) للربط بـــين المسلمين الأوروبيين وهذا الخطر المحدق. ولم يكن لقضية الحجاب في فرنسا أن

---

(1) Alexandre del Valle, *Politique internationale*, Paris, spring 2002.

ولمعرفة المزيد عن ألكسندر دلفال:

Témoignage Chrétien, Paris, 6 june 2002.

تنال كل هذا الاهتمام إلا باعتبارها جزءاً من الهجوم الإسلامي على الغرب. وهكذا، بعد اعتداءات مدريد يوم ١١ مارس ٢٠٠٤م، كتب «لوران مورافيك»، وهو مدير أبحاث بمعهد هودسن (واشنطن): «إن المتطرفين للإسلام لا يتهجمون على الغرب من أجل ما يفعله، بل من أجل ذاته. ولا داعي لمداهنة التطرف العربي الإسلامي لتجنب غضبه، وهذا ما أثبتته التهديدات الموجّهة لفرنسا منذ قانون «الحجاب». وعلى مجزرة مدريد أن تُفهم أوربا ما فهمته أمريكا من مذبحة منهاتن: إنها الحرب»! [١]

ويمكننا تعديد الشواهد التي تؤكّد الرسوخ العميق لفكرة مواجهتنا خطراً من نفس النوع الذي واجهه الغرب في الثلاثينيات مع النازية، أو بين الخمسينيات والثمانينيات مع الشيوعية. وأصبح يدافع عن هذه الفكرة عدد كبير من «صناع الآراء» بعدما كانت في البداية حكراً على اليمين المتطرف، وهذا ما يشرح بلا شك السهولة التي يجدها بعض مفكري هذا الاتجاه في إعادة تأهيل أنفسهم.

لكن علينا التذكير بملاحظتين حول هذا التشبيه الفاتن والخاطئ في آن واحد. فلنذكّر أصحاب الذاكرة القصيرة أولاً أن «الخطر السوفياتي» تعرّض إلى مبالغة وتضخيم واسعين في الثمانينيات، قامت بهما إدارة «ريغن»، وكرّر ذلك في فرنسا بعضُ المثقفين وبعض أجهزة الصحافة. فقد كانت حصة «الحرب التي نواجهها»، مع «إيف مونتان» وفقاً لسيناريو «جان كلود غيبو» و«لوران جوفران»، جديرة بأن تجعلنا نعتقد بكل جدية ودون مزاح أن غرب أوربا يتعرض للغزو، وبثّت الحصة على القناة الفرنسية الثالثة يوم ١٨ أبريل ١٩٨٥م، لا إنها لم تكن أكذوبة أبريل[٢].

(١) *Le Figaro*, 12-20 march 2004.

(٢) بثت هذه الحصة في الوقت الذي وصل فيه ميخائيل غرباتشف إلى الحكم. ونحن اليوم نعلم أن المخابرات الأمريكية بالغت كثيرا في قدرات القوة السوفياتية.

وما عدد المثقفين الفرنسيين الذين ساندوا المجاهدين الأفغان دون أدنى روح انتقادية (خاصة حول نظرة هؤلاء المجاهدين للإسلام) باسم محاربة «الخطر السوفياتي»؟ وما عدد أولئك الذين أكّدوا أن الغرب كان على أبواب هزيمة تاريخية؟

ومن جهة أخرى، فإن معنى مصطلح «الخطر الإسلامي» لم يكن أبداً محدّداً بدقّة. ما المقصود به؟ أيقصد به الجماعات التي تقوم بعمليات تقتيل المدنيين تقتيلاً أعمى؟ أم المنظمات الإسلاموية المتمسكة بالفهم الحرفي للنصوص؟ أم المسلمين كلهم؟ ولا أحد ينكر أن «القاعدة» والمنظمات الأخرى التي تستعمل العنف الأعمى ضد المدنيين خطيرة، وتستحق أن تُكافَح وتُدمَّر بكل الوسائل البوليسية الممكنة. لكن الأمر يتعلق بمعرفة ما إذا كانت هذه الجماعات تمثل بالنسبة للغرب خطراً «استراتيجياً» من النوع الذي جسدته النازية والشيوعية.

إن هذه الجماعات لا تمثل سوى أقليات بين المسلمين، وبالمقارنة مع الشيوعية على سبيل المثال، فهذه الجماعات عاجزة عن أن تجلب إلى صفّها جزءًا مُهمّاً من الرأي العام الغربي. ومن ناحية أخرى فإنها لا تستند إلى سلطة أي دولة من الدول كما فعلته النازية (مع ألمانيا هتلر) أو الشيوعية (مع الاتحاد السوفياتي والصين). والعالم الإسلامي يعاني من الضعف والتفرقة والخضوع في أغلب الأحيان لحكام فاسدين مما يجعله لا يفكر في الدخول في صراع تاريخي مع الغرب. ورغم كل هذا فإن أي نشاط «للقاعدة» - مثل الاعتداء الأثيم على مدريد يوم ١١ مارس ٢٠٠٤م- من شأنه مضاعفة مخاوف الغربيين وتبرير السياسة الحربية الأميركية. وكأن «بوش» و«ابن لادن» بطلان لرواية غنائية (أوبره) يتناوبان فيها الكلمة باستمرار.

قيمنا وقيمهم

حاول «توماس ل. فريدمان» كاتب افتتاحيات «النيويورك تايمز» أن يجيب عن الاعتراض التالي[1]: «كيف يمكن تشبيه «القاعدة» بالاتحاد السوفياتي الذي كان يملك آلاف الرؤوس النووية»؟

وها هو الجواب: «رغم شدة خطورة الاتحاد السوفياتي إلاّ أنه كان دائماً من الممكن ردعه عن طريق جدار الدفاع، وعن طريق الأسلحة النووية التي بحوزتنا، إذ في النهاية، كان السوفيات يحبون الحياة أكثر مما كانوا يكرهوننا. ورغم خلافاتنا معهم فإنّنا كنّا وإيّاهم متفقين على أساس واحد من القواعد الحضارية. أما مع الجماعات الإسلاموية المناضلة، فنحن نواجه أناساً يكرهوننا أكثر ممّا يحبّون الحياة. عندما يكون هناك عدد كبير من الناس على استعداد لأن ينتحروا، وعلى استعداد لأن يفعلوا ذلك متحوّلين إلى قنابل بشرية... فهذا بمثابة اختراع سلاح غير قابل لا للردع ولا للرصد ولا حتى للفناء. وهذا يطرح مشكلاً أهم بكثير من الجيش الأحمر السوفياتي، لأن القنابل البشرية تدمّر أهم شيء في مجتمع منفتح ألا وهو الثقة».

ويواصل حديثه قائلاً: إنه لا يوجد اتفاق حول «ما هو خارج العالم المتحضر. والإرهابيون الإسلامويون، خلافاً للاتحاد السوفياتي، ليسوا دولة يمكن ردعها بالوسائل المتداولة أو بالقواعد الدولية، ولا حتّى أفراداً يمكن ثنيهم بتخويفهم من الموت. وغالباً ما عجز مجتمعهم الأصلي عن تصنيف أفعالهم بأنها «مخزية»، بل وكثيراً ما أضفى عليهم قادتهم الروحيون غطاءً دينياً، وأمدّتهم المنظمات الخيرية بالمال. ولهذا فإن عدد القنابل البشرية يتضاعف».

---

(1) Thomas L. Friedman, « The war of ideas », International Herald Tribune, Paris, 9 january 2004

لكـــن هـــذه الحجـــج مبنـــية على عدّة غلطات. أولاً: ما المقصود من عبارة «الجماعـــات الإسلامية»؟ أهم الإخـــوان المســـلمون الكويتيون؟ أم «القاعـــدة»؟ أم حماس؟ أم الجماعات المتمســـكة بالفهم الحرفي للنصـــوص التي تدعو إلى العنف؟ أم هل يُظنّ أن كلّ هذه الجماعات تتساوى دون تمييز، وأنها كلها مجنّدة لشن هجوم عـــلى الغرب؟ إن خلطاً كهذا لا علاقة له بالواقع، ليس فقط لعدم وجود أي تنسيق بـــين كـــل هذه الحركات بل لأن مواقفهم مختلفة في العديد من المسائل، لكل منها استراتيجية ومنطق – وطني غالباً– وطرق نشاط مختلفة.

وحجـــة أن أعداءنا لا يقاسموننا نفس القيم حجة قديمة لا جديد فيها، ويكفينا لذلك أن نطالع الدعاية المعادية لألمانيا في فرنسا، زمن الحرب العالمية الأولى. وأشكّ أن «تومـــاس فـــريدمان» كلّف نفسه عناء إعادة الإطلاع على ما كتبته الصحافة الأميركية عن «الخطر الشيوعي» النابع من «إمبراطورية الشر» شارحة أن الشيوعيين ليس لهم نفس قيمنا، وكذلك الأمر مع النازية، وإن كان ذلك أكثر صحة.

وأخـــيراً، هـــل اللجوء إلى «الانتحاريين»، أي الأشخاص المستعدين للتضحية بحياتهم، يغيّر شيئاً من قوانين الحرب؟ أهذا هو فعلاً سلاح الفقراء النووي؟ إن الطرق التي اعتمدتها «القاعدة» جعلت منها تنظيماً في غاية الخطورة، ويجب أن يقاوَم بكافة الوســـائل البوليســـية. لكن هذه الطرق لا تمكّن «القاعدة» إطلاقاً من تهديد الغرب تهديداً ذا بال، ولا من اجتياح أراضيه، أو تحطيم قواه.

وقد اعتمد «فريدمان» على الخلط ليدعم حججه، إذ أكّد أن المجتمعات المسلمة تتعاطف مع «القنابل البشرية»، وهو يعلم جيّداً أن هذا خطأ، إلا في حالة فلسطين. فلـــنذكّر أن هذا النوع من الاستشهاد غائب تماماً في التاريخ الإسلامي. لقد حدث أول اعـــتداء انـــتحاري شُـــنّ باسم الإسلام في بيروت، في ديسمبر ١٩٨١م حين

هاجمت جماعة شيعية تسمى «الدعوة» السفارة العراقية، متسببة في مقتل ٢٧ شخصاً (وهذه الجماعة هي اليوم عضو في المجلس الانتقالي للحكم في العراق الذي نصّبه الأمريكان في بغداد). ثم استعمل «حزب الله» هذا الشكل من النشاط (في الثمانينيات، لكن ليس في مقاومته للاحتلال الإسرائيلي في التسعينيات) وبعدها امتدّ إلى العالم السُّنيِّ في فلسطين من جهة، وفي اعتداءات المجموعات التابعة «للقاعدة»، أو التي تدَّعي ذلك من جهة أخرى.

لكن يجب معرفة الظروف التي برزت فيها هذه العمليات الانتحارية التي يشمئزّ منها الغرب. أولاً: إن المشكلة لا تكمن في التضحية بالنفس، بل في مَن المستهدَف مِن العملية. ففي كل الحروب، من أسبانيا بين ١٩٣٦م و١٩٣٩م، إلى المقاومين للنازيين، لدينا آلاف الأمثلة عن رجال ونساء ضحوا بحياتهم، ونحن نمجدهم عن جدارة.

وفي فلسطين التي تعاني من ويلات الاحتلال والاضطهاد منذ مدة طويلة، مع وجود عشرات القرارات الأممية التي بقيت حبراً على ورق، فإنه كثيراً ما يُلجأ إلى هذا السلاح، وهو يُستعمَل خاصة ضد مدنيين إسرائيليين، ممّا يجعله مذموماً، أوّلاً لأسباب أخلاقية، وثانياً لأسباب سياسية أيضاً. فمفعول هذا النوع من العمليات يميل إلى محو التعاطف الموجود مع القضية الفلسطينية. لكننا لا نستطيع إنكار هذه العمليات دون أن ندين إرهاب الدولة الذي يمارسه كل من الجيش والحكومة الإسرائيليين.

ومنذ عدة سنوات لجأت كل الجماعات الفلسطينية إلى هذا النوع من العمليات، بما فيها الجماعات العلمانية. فعدد المتطوعين للانتحار قد تزايد، لكن هذا لا يدل على التطرف الديني بقدر ما يدل على يأس لا متناهٍ زاد في حدّته قلة التعليمات الصادرة عن الإدارة الفلسطينية. وإن حظي هذا النوع من العمليات في فلسطين بدعم واسع في العالم العربي والإسلامي، فإن الوضع يختلف فيما يخص «القاعدة».

الإسلام والعنف

﴿... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ (المائدة:٣٢)، لم أذكر هذه الآية لجعل الناس يعتقدون أن «القرآن رسالة حب»، فقد كان بإمكاني اختيار آية أخرى لأثبت أن «القرآن رسالة كراهية». إن ما يهمنا هنا هو معرفة ما يقوله الفقهاء المسلمون في ما يخص النزاعات الحالية. وعلى عكس ما أشار إليه «فريدمان» فإن الأغلبية العظمى منهم أدانت نشاطات «القاعدة».

وقد أدان الشيخ يوسف القرضاوي، وهو من الدعاة الأكثر شعبية في العالم العربي، وهو قريب من تيار الإخوان المسلمين، من جملة ما أدانه، الاعتداء على المعبد اليهودي في جربة (١١ أبريل ٢٠٠٢م) والذي راح ضحيته حوالي ٢٠ شخصاً: «إن المدنيين من أمثال السواح الألمان لا يجوز قتلهم ولا احتجازهم كرهائن؛ ولا يجوز قتل اليهود الذين ليسوا في صراع مع المسلمين؛ إن أيّ شخص اقترف فعلاً من هذه الأفعال استحق العقاب وفقاً للشريعة الإسلامية، وقد ارتكب جريمة قتل النفس التي حرّم الله، وجريمة الإفساد في الأرض». (١)

ونشر محمد حسين فضل الله -الأب الروحي لحزب الله- في أيار (مايو) ٢٠٠٣م فتوى تدين كل الاعتداءات التي تعصف بأرواح المدنيين، سواء في مراكش أو الرياض، فإنه من غير المقبول أن يُستهدَف مدنيون أبرياء «دون مبرّر كالعدوان أو الحرب». (٢)

(١) Islamonline.net, june 2003 .

(٢) *Al Hayat*, Beyrouth, 21 may 2003.

وكذلـــك تخلّت عن العنف بعض الجماعات التي دخلت في مقاومة الدول التي تنتمـــي إليها. فقد أدانت إدارة الجماعة الإســـلامية من ســـجنها بمصر اعتداءات ١١ ســـبتمبر ٢٠٠١م، بـــل وقدمت اعتذاراتها للشعب المصري، ووافق على هذا الموقـــف الشـــيخ عمر عبد الرحمن، زعيمها الروحي المسجون بالولايات المتحدة. وأعلـــن هؤلاء المسؤولون أن لا علاقة لمنظمتهم «بابن لادن» الذي كانت له روابط مع بعض فرق الجهاد. ومن السجن أيضاً قام كرم زهدي، أحد زعمائهم التاريخيين بكـــتابة رسالة نشرتها صحيفة المصور يوم ٨ أغسطس ٢٠٠٣م أكّد فيها على هذا النقد الذاتي، ودعا إلى إعادة تقويم مسار تفسير وفهم القرآن والسنة. وفيها فنّد فكرة الســـلطة الدينية، إذ لا يوجد مسؤول «يمنح لنفسه العصمة ويجعل من نفسه وسيطاً بين العبد وربه». ويضيف أن التاريخ الإسلامي ليس مصدراً من مصادر التشريع وأن عدم وجود أحزاب سياسية في التاريخ الإسلامي لا يعني وجوب مواصلة تحريمها[(١)].

ولكـــن، صحيح أن خطاب «القاعدة»، وخاصة نشاطاتها، قد تلقى عند بعض المسلمين صـــدىً وشـــعبية. فهم – وإن لم يقرّوا بالضـــرورة تنظيم «ابن لادن»– لا يفوّتون فرصة الشعور بأن «القاعدة» أخذت «بثأرهم» من الولايات المتحدة، في وقـــت عجزت فيه حكوماتهم عن أدنى ردّ على واشـــنطن. وقد رأينا أن خطابات «ابـــن لادن» تـــثير الاهـــتمام حتى بين المسلمين في الغرب، وخاصة عند جزء من الشباب الذين يشعرون بأن البلاد الغربية المستقبلة لهم تخلّت عنهم.

ولاشـــكّ أن هذا هو السبب الذي جعل المنظمات الإسلامية الكبرى في ألمانيا وبريطانـــيا تديـــن الإرهاب بقوة أكبر بعد اعتداء مدريد يوم ١١ مارس ٢٠٠٤م. وهكـــذا أعلن المجلس المركزي لمسلمي ألمانيا والمجلس الإسلامي للجمهورية الألمانية

(١) *Al Ahram Weekly*, Cairo, 14-20 august 2003 .

الفدرالـــية : «إنّ الذي يتساهل مع جرائم كهذه أو يوافق عليها أو يغطيها يكون قد ارتكـــب جريمة التواطؤ معها. وليس لمرتكبي هذه الأعمال ولا للمتواطئين معهم أي تفهّم أو مكان أو دعم بيننا»[1].. وذهب مجلس مسلمي بريطانيا إلى أبعد من ذلك، حيـــث دعا كل إطارات المسلمين -المتدينين منهم وغيرهم- إلى التعاون مع الشرطة ضد الإرهاب.

وبالمقابل، صحيح أيضاً أن العديد من المسؤولين الدينيين المسلمين، بل أغلبيتهم، يوافقـــون على العمليات الانتحارية ضد الاحتلال الإسرائيلي، بما فيها تلك التي تمس المدنـــيين. وقد دار حوار في يناير ٢٠٠٣م بين المشايخ في المؤتمر السنوي الرابع عشر للشريعة الإسلامية، الذي انعقد بالإمارات العربية المتحدة. وفيه صرّح الشيخ حسن سفار، وهو سعودي شيعي، أن الفقه الإسلامي يدين عمليات كتلك التي تستهدف الأسواق؛ لأنها تعصف بأرواح الأبرياء، وشرح أن هذه العمليات الانتحارية لا تعدّ مخالفـــة للإسلام فحسب، بل هي سياسياً غلطات فادحة إذ تمنح الإسرائيليين فرصة التشكيك في شرعية المقاومة الفلسطينية ونعتها بالإرهاب.

لكـــن القرضـــاوي عارض هذا الموقف، فهو وإن وافق على أن الإسلام يدين اختطاف طائرة مليئة بالأبرياء، يظن أن العمليات الاستشهادية الموجّهة ضد قوة تحتل أرضاً مسلمة، مثل فلسطين، تدخل في إطار «الجهاد الدفاعي».

وتبقى فلسطين في رأي أغلبيـــة العرب والمســـلمين حالـــة خاصـــة، حيث الاخـــتلال الصارخ في موازين القوى وخرق إسرائيل للقانون الدولي، يبرّران هذا النوع من العنف.

(١) Dépêche AFP, 5 april 2004.

سلاح الإرهاب

بالموازاة مع «الخطر الإسلامي» فإن عبارة «الحرب على الإرهاب» هي إحدى العبارات التي تستعملها إدارة «بوش» لتبرير استراتيجيتها، وقد استعملت بلدان الاتحاد الأوربي والعديد من الدول في العالم العبارة نفسها لإضفاء الشرعية على أنواع مختلفة من السياسات. وما تزال صور الاعتداءات الدموية التي جرت في نيويورك والرياض والدار البيضاء ومدريد، بمواكب ضحاياها الأبرياء، عالقة كالأشباح بأذهاننا. لكن ما معنى «الإرهاب»؟ أهو أيديولوجية تجعلنا نستطيع تعريف العدوّ؟

أثناء صائفة ٢٠٠٣م قام التيار المكافح للإرهاب، والذي يجسده القاضي «جان لوي بروغيار»، بتحركات ضد مجاهدي الشعب الإيراني، والكورسيكيين، وبعض الإرهابيين الإسلامويين، وإبراهيم كوليبالي المعارض الإيفواري الذي تم اتهامه بـ«المشاركة في جمعية أشرار ذات علاقة بمشروع إرهابي» قبل أن تقضي غرفة التفتيش لمحكمة الاستئناف بتحريره.

لكن ما العلاقة بين كل هذه الأحداث؟

ما الذي يجمع بين الوضع في ساحل العاج والوضع في كورسيكا؟

لاشيء سوى الرغبة في إقناع الرأي العام بأننا مُحقّون في الشعور بالخوف، وأنه لا يوجد أي مكان يمكننا أن ننعم فيه بالأمن. فهل علينا أن نستغرب عندما يمزج الاتحاد الأوربي في جدول أعمال واحد النقاط التالية: «الهجرة غير الشرعية؛ الإرهاب؛ تفاقم الجرائم الكبرى»؟

إن لم يكـــن الإرهاب أيديولوجية، فهل هو نوع من المقاومة يمكن تعريفه؟ هذا لـــيس أكـــيداً، إذ يجـــب أن لا نخلط بين الإرهاب واستعمال العنف. ألم يكن حقّ «مقاومـــة الطغـــيان» من أوائل الحقوق «الطبيعية وغير القابلة للتقادم» التي أعلنتها الثورة الفرنسية وإعلان حقوق الإنسان؟

صـــحيح أن بعض المنظمات التي تمارس مقاومة شرعية تلجأ أحياناً، في ظروف تتميز باختلال توازن القوى اخـــتلالاً صارخاً، إلى وسائل إرهابية، سواء في الجزائر (١٩٥٤-١٩٦٢م) أو في مقاومة نظام «الأبرتايد» في إفريقيا الجنوبية. وهكذا أصبح «إرهابيو» الأمس حكّاماً معترفاً بهم لبلدانهم اليوم؛ فلنذكّر أن «نلسن منديلا» كان قد اعتبره كل من «رونالد ريغن» و«مارغرت تاتشر» إرهابياً.

وقـــد فشل القانون الدولي في تعريف «الإرهاب» فاكتفى بإدانة بعض الجرائم المعينة كاختطاف الطائرات أو الاعتداء عليها.

ومؤخّراً أنكرت بعض الاتفاقيات الدولية الاعتداءات التي تســـتعمل المتفجرات (١٩٩٧م) كما أدانت تمويل الإرهاب (١٩٩٩م)، وهي تقصد به:

«كل (...) عمل يهدف إلى التسبب في موت أو في إلحاق ضرر جسدي مهم بـــأي شخص مدني، أو أي شخص آخر لم يشارك مباشرة في العدوان أثناء صراع مســـلح، إن كان هـــذا العمل - إما بطبيعته أو بالظرف الذي يتم فيه - يهدف إلى تخويف السكان، أو إرغام حكومة ما أو منظمة دولية ما على القيام بشيء ما، أو على عدم القيام به»».

لكن محاولات تعريف الإرهـــاب قضائياً، خاصـــة منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، لم تكلّل بالنجاح، لكنها تُستعمَل خاصة لتبرير بعض السياسات القمعية، من الجزائر إلى روسيا مروراً بمصر.

ويمكننا بطريقة شبه بدهية أن ننعت بالإرهاب أعمال العنف التي تمس المدنيين الأبرياء بهدف إنشاء حالة رعب ولا أمن حتى يتسنى تحقيق بعض الأهداف؛ وهي عادة سياسية لكن ليس دائماً. ويمكن تطبيق هذا التعريف على الدول أيضاً، وليس فقط على المنظمات. وهذه العمليات التي غالباً ما يمكن إدراجها في «جرائم الحرب» أو «الجرائم ضد الإنسانية» تستحق أن تدان بصرامة وأن تُحارب.

لكن كيف لنا أن نصنِّف ضمن نفس المجموعة التحليلية عملية تسميم مترو طوكيو بالغاز، التي قامت بها طائفة أوم، والسيارات المفخخة التابعة للمنشقّين عن الجيش الإيرلندي الجمهوري؟

وهل اتبعت ميليشيات اليمين المتطرف الأميركي المسؤولة عن مجزرة أوكلاهوما نفس منطق قنابل حركة إيتا الباسكية؟

وما القاسم المشترك بين هذه العمليات والاعتداء على المركز العالمي للتجارة والبنتاغون؟

لقد لاحظ «أدريان غالك»(١) الخبير الجنوب-إفريقي أن مفهوم الإرهاب بدأ يفقد معناه، بل هو يؤكّد على أنه تعرض للانحلال وذلك لكثرة استعماله في وصف أنواع مختلفة من العنف، والتي منها ما ليس له أي هدف سياسي، خاصة على الصعيد الداخلي.

ويجب أن لا ننسى أن مصطلح الإرهاب وُلد لوصف سياسة الدولة الفرنسية أثناء الثورة الفرنسية. لكننا كثيراً ما نتجاهل الإرهاب الذي تمارسه الدول،

(١) *The Age of Terrorism*, I. B. Tauris, Londres, 1995, p. 182.

والـــذي نجـــــد منه الكثيـــر في الشرق الأوســـط: القصـــف الأعمى، والتهجير الجمـــاعي، والســـيارات المفخخـــة التي استعملتها القوات الإسرائيلية، والسورية، والعراقية، والإيرانية... إلخ.

ويمكنـــنا التميـــيز بين عمليات تسمى إرهابية تعكس أزمات سياسية (إيرلندا، منطقة الباسك، فلسطين...إلخ) ويجب أن تكون مقاومتها مصحوبة بالتفكير في حل سياســـي للأزمة (كما ثبت من التجربة الإيرلندية)، وإرهاب «تبشيري» من النوع الـــذي تمارسه «القاعدة» والذي يرفض أي «تفاوض»، حتى وإن علمنا أن رفضها للتدخلات الأميركية يساهم في شعبيتها.

لكن إذا كانت إزالة كل «الأسباب الموضوعية» للإرهاب لا تكفي للقضاء على احـــتمال قيام جماعة متطرفة بعملية ما، فهي كفيلة بالمساهمة في تخفيف المياه العكرة، التي تترعرع فيها هذه الجماعات وتجد فيها الدعم والتواطؤ.

دعوة إلى
تحرير المفاهيم والمصطلحات الشرعية

الدكتور سعيد عبد الله حارب (*)

إن اجتهاداً جديداً لطبيعة العلاقة بين المسلمين وغيرهم، سيعيد هذه العلاقة إلى أصولها الشرعية، وسيحقق رسالة الإسلام في الوصول إلى الناس ودعوتهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجعل للمسلمين حضوراً إنسانياً وعالمياً واضحاً.. إن ذلك لا يعني أن يذوب المسلمون في غيرهم أو يكونوا تبعاً، بل يعني أن ينقل المسلمون رسالتهم إلى الناس كافة.

المقدمة:

واجه المسلمون- بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر- حملة ضارية استهدفت الوجود الحضاري للمسلمين، كما استهدفت عقائدهم ومبادئهم وحياتهم، بل امتدت الحملة إلى الإسلام ذاته، فقد انطلقت حملات الدعاية والتضليل والتشويه لكل صور الحياة الإسلامية، وامتلأت وسائل الإعلام الغربية بصور عدة من تلك

(*) نائب مدير جامعة الإمارات لشؤون خدمة المجتمع.. (دولة الإمارات العربية المتحدة).

الحملة التي قادها بعض السياسيين ورجال الدين المتعصبين، الذين وجدوا في أحداث الحادي عشر من سبتمبر سبباً لإظهار عدائهم للإسلام والمسلمين، ذلك العداء المخزون منذ الحروب الصليبية والذي قعدّه ووضع أصوله بعض المستشرقين خلال القرون الخمسة الماضية وما حملته دراساقم وأبحاثهم من تشويه لصورة الإسلام والمسلمين، أمثال جولد تسيهر، و لين موير، وهنري لامنس، ولوي ماسنيون، وآرثر جيفري، وغيرهم[1].

فقد عمل المستشرقون خلال تلك القرون على تصوير الإسلام بصورة مشوهة أمام الغرب في محاولة لصده عن التعرف على الإسلام، ووقف وصوله إلى شرائح واسعة من المجتمعات الغربية، إلا أن تلك الحملات لم تستطع أن تمنع المنصفين من الباحثين الغربيين من دراسة الإسلام دراسة علمية أصيلة، كما لم تمنع بعض أبناء الغرب من اعتناق الإسلام والدفاع عنه.. ومع دخول العالم نهاية القرن الميلادي الماضي - القرن العشرين- وانهيار الاتحاد السوفيتي الذي كان يمثل الكتلة الشيوعية الكبرى، انطلقت أبواق الدعاية الغربية تبحث عن عدو جديد، فوجدت ضالتها في العدو القديم الجديد، ألا وهو الإسلام، فظهرت الدراسات والأبحاث التي تعنى بالإسلام والمسلمين وتضعهم في موقف العداء من الغرب، مثلما فعل صموئيل هنتجتون، وفرنسيس فوكاياما، وغيرهم.

لكن ذلك لا يمنع من القول: إن في الغرب عدداً من الأصوات المنصفة في تعاملها مع الإسلام والمسلمين، وتنظر إلى العلاقة معهم نظرة واقعية منصفة.. يقول انجمار كارلسون: «إن تحول الإسلام إلى عدو للغرب إنما يتوقف في المقام الأول

(١) محمد البهي، انظر الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار.

علينا نحن الأوروبيين، ذلك أن العنصرية، وعدم التسامح، والقومية المتزمتة، تستفحل بشدة في سائر أنحاء أوروبا كرد فعل على الهجرة.. لقد - انتبه السياسيون ووسائل الإعــلام في الغرب غداة انهيار الشيوعية إلى القيمية التسويقية للإسلام كخطر جديد يهــدد الغرب، فظهرت موجات من المقالات الصحفية والكتب والبرامج التلفزيونية تتــلخص موضــوعاتها في «الخطــر الأخضــر» و«الأصولية العالمية» و«التحدي الإســلامي» و«ســيف الله» و.. «الإسلام ضد الحداثة» و«الانتفاضة العالمية». إن الإحســاس بالخوف من الدين الذي يسود في مجتمعنا الأوروبي- العلماني والتجاري بصــفة عامة قد امتد واشتمل العالم الإسلامي كله ككتلة موحدة، وكنتيجة طبيعية لهــذا الإســقاط أصبحت نظرتنا على أي عمل من أعمال العبادة والتقوى وممارسة الشعائر سلبية، نظراً لأنها ترمز إلى التطرف والتعصب حتى ولو كانت هذه الأعمال تقتصر على أداء الصلوات في المساجد»[1].

إن مــثل هــذه الرؤى المنصفة للإسلام في الغرب كانت تعبر عن حالة واقعية لاســتيعاب الوجــود الإســلامي في الغــرب القريــب (أوروبا) أو الغرب البعيد (الأمريكتين)، لكن هذا الوجود تراجع كثيراً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حيث استدعيت كل مواقف الصراع والخلاف مرة أخرى.

لقــد كانــت تلك الأحداث نقطة تحول في حياة المسلمين عامة والمسلمين في الغــرب خاصة، إذ كانوا هدفاً مباشراً لحملات الاعتداء والتشويه والاضطهاد التي مارستها بعض السلطات في الدول الغربية، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، على الرغم من دعوات حقوق الإنسان، والمواطنة، والحقوق المدنية.

(١) أنجمار كارلسون، الإسلام وأوروبا، ص٧٦.

إن المسلمين في الغرب يمرون بمرحلة حرجة من تاريخ وجودهم في ذلك العالم، إذ يتوقف هذا الوجود على طبيعة تعاملهم مع المتغيرات الكبرى التي طرأت على الساحة الدولـية بعـد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.. ولا يتوقف التحدي الذي يواجهه المسـلمون في الغـرب على التحدي الخارجي، بل إن التحدي الداخلي يشكل قوة ضـاغطة على التجمعات الإسلامية في الغرب، فعدا عن الأسئلة التي تطرحها الأجيال الجديدة منهم حول كثير من أحكام الحياة، فإن هناك سؤالاً كبيراً مازال يتردد بينهم، ولا يجد له إجابة واضحة: فهل هم غربيون مسلمون، أم مسلمون غربيون؟

مـن خلال الإجابة عن هذا السؤال يتم تحديد هويتهم ومدى استجابتهم للواقع الـذي يعيشون فيه، إذ مازال كثير منهم يعيش في عزلة شبه تامة عن المجتمع الذي يعيش فيه مفضلاً التجمعات الإسلامية الضيقة، مما عزلهم عن التأثير في المحيط حولهم، الـذي بـادلهم هذه العزلة بنظرة شك وريب متخوفاً من وجودهم ذي الخصوصية المـنغلقة، عـلى الرغم من محاولات المجتمعات الغربية دمج الوجود الإسلامي فيها بصورة شبه كاملة، وزادت أحداث الحادي عشر من سبتمبر من عزلة كلا الطرفين وخوفـه مـن (الآخر)، بل إن تلك الأحداث أبرزت ظاهرة جديدة في التجمعات الإسـلامية في الغرب تمثلت في نشوء حركات رفض لهذه المجتمعات، بل حركات تدعـو لمقاومة تلك المجتمعات ورفض التعامل معها بدعوى عدائها للإسلام، أو أنها مجتمعات ليست إسلامية، على الرغم من استفادتها من وجودها في الغرب واستغلالها للقوانين والأنظمة المطبقة هناك، وللحريات العامة السائدة في المجتمعات الغربية.

ونقلـت هـذه الحركات كثيراً من المشكلات السائدة في المجتمعات الإسلامية لتصبح ميدان عمل وخلاف بين التجمعات الإسلامية في الغرب، وكان من أبرز آثار

هـــذه الظاهـــرة أنها نقلت مفاهيم ومصطلحات تخص المجتمعات الإسلامية وأنزلتها مـــنـــزلة التطبيق في المجتمعات الغربية، على الرغم من اختلاف البيئات والأشخاص والأزمـــنة، فطرحـــت مفاهيم ومصطلحات مثل الولاء والبراء، ودار الحرب ودار الإســـلام، والجهـــاد والتكفير، والبدعة والشرك، وأحكام الأسرى، وفقه الضرورة، والعـــزلة الشـــعورية، وغيرها من المصطلحات والمفاهيم التي لا يصلح العمل بها في بيئات ومجتمعات لم تأت هذه المصطلحات والمفاهيم لتطبق فيها، ولا تتوفر الشروط الواجب العمل بها حتى يمكن الأخذ بآثارها وأحكامها.

إن طـــرح مصطلحات ومفاهيم في غير موضعها، كمثل استنبات شجرة في غير بيئـــتها، فالمجـــتمعات الغربية لا تنطبق عليها أحكام الإسلام العامة، بل إن المسلمين الذيـــن يعيشون في الغرب لا يمكن مطالبتهم بتطبيق تلك الأحكام العامة خاصة في مـــيدان السياســـة الشـــرعية أو الفقه العام، وجل ما يمكنهم العمل به هو الأحكام الشخصـــية في العبادات والمعاملات بما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية في هذا المجال، ومن هنا فإن المصطلحات والمفاهيم ذات الدلالة العامة لا يمكن أن يطالب بها المسلمون في الغرب، لأن ذلك حرج عليهم في حياتهم، وغير مطابق لواقع حياتهم.

وفي هذا البحث سنناقش ثلاثة من هذه المصطلحات والمفاهيم:

١-الولاء والبراء.

٢- دار الإسلام ودار الحرب.

٣- الجهاد.

أولاً: الولاء والبراء

إن مفهـــوم الـــولاء والبراء من المفاهيم التي تستقر في قلوب المسلمين وعقولهم، وهـــو أمر ثابت في الشرع، وردت النصوص الشرعية به، مما لا يجعل مجالاً للحديث عن وجوب أو عدم وجوب الولاء والبراء، فقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (البقرة:٢٥٧).

وقـــال تعـــالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٧١).

وقـــال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (آل عمران:٢٨).

قـــال ابن جرير الطبري في تفسير الآية: «ومعنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفـــار ظهراً وأنصاراً توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين .. وتدلونهم على عوراتهم»[1].

ففهـــم مـــن هـــذه الآية أن الموالاة في الدين واتباع غير المسلمين ومناصرتهم وإعانتهم على المسلمين هي الموالاة الممنوعة، وليس المنع من الموالاة منعاً مطلقاً إذا لم يكن ذلك على حساب الدين.

(١) تفسير الطبري، ٣/١٧٨ .

وقولـــه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (الممتحنة: ١).

وقـــال رسول الله ﷺ: « **إنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ** »[(١)].

وقال ﷺ: « **مَثَلُ الْمُؤْمنينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[(٢)].

وقـــال ﷺ: « **لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِـــنُوا، وَلا تُؤْمِـــنُوا حَتَّى تَحَـــابُّوا، أَوَ لا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ** »[(٣)].

وغـــير ذلك من الأدلة الصريحة على الولاء والبراء، وقد سارت الأمة على هذا المفهـــوم القـــائم على الحب للمؤمنين والبغض لأعداء الله من المشركين وغيرهم من الذين يناصبون دين الله الحرب والعداء، وهذا شأن كل أمة وشعب، إذ لا يتصور أن تقـــوم علاقة محبة ومودة بين إنسان وعدوه، أو شعب وشعب محارب له، فإذا غابت العـــداوة أصـــبح الحب والبغض شأناً قلبياً لا يمنع المسلم من أن يتعامل مع (الآخر) بالحسنى، بل هو مأمور بذلك لإظهار محاسن دينه، إذ الولاء يدل على معنى الأخوة، والنصـــرة، والمحـــبة، والإكرام، والمحالفة، والاتباع، والاحترام، والإجارة، والتقرب، والدنو، والمتابعة، والطاعة[(٤)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.
(٢) أخرجه مسلم، ١٦/١٤٠ .
(٣) أخرجه مسلم.
(٤) انظر لسان العرب، لابن منظور، ٣/١٨٥.

وأمـــا البراء فتدور معانيه حول المجانبة، والتباعد، والأعذار، وعدم إظهار المودة إلى درجة العداوة والبغض أحياناً[1].

لكن الولاء والبراء بمعناها السابق لا يمنع من المعاملة الحسنة مع غير المسلمين، بل إن المســـلم مأمور بذلك لما فيه من المصلحة الكبرى في التعريف بالإسلام ومحاسنه، وقـــد جـــاءت الآيات الكريمة التي تأمر المسلم بحسن المعاملة مع غير المسلم كقوله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨).

قـــال الطبري : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقـــاتلوكم في الدين من جمـــيع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم والله عز وجل عَمَّ بقوله ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ جمـــيع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض»[2] .

بل ذهب المفســـرون إلى أكثر من ذلك، فقد قال القرطـــبي في تفســـيره للآية: أي لا يـــنهاكم الله عن أن تبروا الذين لم يقاتلوكم، وهم خزاعة، صالحوا النبي ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً، فأمر ببرهم والوفاء لهم إلى أجلهم. ﴿ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به من العدل، فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ العادلين المحقين[3].

فالقســـط والـــبر والعدل سمات إسلامية يأمر بها المولى عز وجل في التعامل مع الآخرين، و لم يمنع مفهوم الولاء والبراء التعامل بهذه السمات، إذ الولاء والبراء شعور

(١) انظر لسان العرب، لابن منظور، ١/١٨٣ .
(٢) تفسير الطبري، ٣/١٧٨.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٨/٥٢.

قلــبي يدعو المسلم إلى الرضا والقبول بمعتقدات الإسلام الذي يؤمن به، ويأمره أن يحمــل الحب والمودة للمسلمين وحسن المعاملة لغيرهم، فالإسلام لا يقسم الناس إلى مسلمين وأعداء، بل ينظر إليهم نظرة واحـــدة، فهو يعتبر الناس جمـــيعاً أمة واحدة لا تفرقها الألوان، ولا الأقاليم، ولا الجنسية.

وإذا كـــان الناس أمة واحدة فإن الأخوة الإنسانية ثابتة يجب وصلها، ولا يصح قطعهـــا، وقد أمر الله تعالى بأن توصل القلوب بالمودة، وإن الإسلام لا ينهى عن بر كـــل من لا يعتدي على المسلمين، ويصرح بذلك القرآن الكريم في كثير من آياته، فالبر ثابت للمسلم وغير المسلم.

وإن المـــودة الموصلة لا تقطعها الحرب، ولا الاختلاف، وإنه يروى أنه في مدة الحديبـــية – وهي الهدنة التي كانت بين المسلمين وغيرهم- بلغ النبي ﷺ أن قريشاً أصـــابتهم جائحـــة، فأرسل مع حاطب بن أبي بلتعة، رضي الله عنه، إلى أبي سفيان خمسمائة دينار ليشتري بها قمحاً، ويوزعها على فقراء قريش.

وإنـــه في أثناء الحرب تنقطع العلاقات بين المسلمين والمحاربين بالفعل، أما رعايا الأعـــداء الذيـــن لا يشتركون في القتال فإن (صلتهم) لا تنقطع وإن قامت أسبابها، ولذلـــك لا يمنع قيام الحرب وجود مستأمنين يقيمون في الديار الإسلامية ولا يمسون في أموالهـــم ولا أنفســـهم، والمستأمنون هم الذين يقيمون في الديار الإسلامية مدة محدودة وأمان بعقد للاتجار وتبادل البضائع[1].

إن مفهـــوم الـــولاء والبراء لا يعني غمط الناس حقهم وظلمهم وسلب أموالهم بحجـــة المخالفة، لأن الإسلام شرع لغير المسلمين حقوقاً ثابتة لا يمكن مخالفتها، ومن ذلك:

(١) محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، ص٤٢.

١- العدل في معاملة غير المسلمين:

إن كفـــر الكافر لا يبيح دمه، كما يقرر ذلك الفقهاء، ولذلك فإن فهم الولاء والبراء في حقيقته إنما يؤكد على أهمية العدل في معاملة غير المسلمين، وذلك يعبر عن حقيقة الإسلام وتسامحه مع الآخرين.

قـــال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء:١٣٥).

قـــال ابـــن جرير الطبري: «يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل بين أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكـــامكم وأفعـــالكم، ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي واعملوا فيه بأمري»[١].

قال الفخر الرازي : «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين : إنـــها عامة.. والمعنى لا يحملـــنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم، بل اعدلوا فيهم وإن أشاؤوا عليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم»[٢].

وقـــال الجصـــاص: «تضمن الأمر بالعدل على المحقق والمبطل، وحكم بأن كفر الكافرين وظلمهم لا يمنع من العدل عليهم» [٣].

وقال القرطبي: «دلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل معه، وأن يقتصر بهـــم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا أو أطفالنا وغمونا بذلك، فليس لنا أن نقتلهم بمثله قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم»[٤].

(١) تفسير الطبري، ١٤١/٦.
(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٨٠/١١.
(٣) أحكام القرآن الكريم، الجصاص، ٣٩٧/٢ .
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١١٠/٦ .

ويخـــبر المصطفى ﷺ عما أعد الله سبحانه وتعالى للعادلين في حكمهم وحياتهم مع أصدقائهم وأعدائهم، فيقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي يرويه مسلم: « **إِنَّ الْمُقْسِـــطِينَ عِنْدَ اللَّه عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِين الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»[(١)].

ولذلك فإن العدل من المقومات التي يقوم عليها بناء الأمة المسلمة، بل هو سبب وصفها بالخيرية، وقد أخبر عن ذلك رسول الله ﷺ حين قال: «**لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت، وإذا حكمت عدلت، وإذا استرحمت رحمت**» [(٢)].

ولقـــد سارت هذه الأمة بوصية المصطفى ﷺ، فجعلت من العدل أساساً لملكها وحكمهـــا، حتى أشاد بها الأصدقاء، وأقر بذلك الأعداء، لأنهم وجدوا آثار العدل أمامهم، فدلتهم العقول الســـليمة على أن هذا الأمن والأمان والخير والبركة ليست إلا ثمـــرة من ثـــمار العدل، ولذلك قال (المرزبان) – القائد الفارسي – حين وجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه نائماً تحت شجرة: «عدلت، فأمنت، فنمت»[(٣)].

وكتـــب عـــامل لعمر بن عبد العزيز على حمص إلى عمر: «إن مدينة حمص قد تَهدَّم حصـــنها، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إصـــلاحه.. فكتب إليه عمر: أما بعد، فحصّنها بالعدل، والسلام» [(٤)].

وقال معاوية رضي الله عنه: «إني لأســـتحي أن أظلم من لا يجـــد عليَّ ناصراً إلا الله» [(٥)].

وقد أثمر عدل المسلمين بين الناس محبة واستقراراً، ونصراً مؤزراً من الله سبحانه وتعالى.

(١) أخرجه مسلم.
(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٤١/١.
(٣) أدب الدين والدنيا، للماوردي، ص١٥٣.
(٤) ابن قتيبه الدينوري، عيون الأخبار، ١٣/١ .
(٥) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٥/٦.

ولـــذا فإنـــه لـــيس من المستغرب ترحيب الأعداء بالفاتحين، لأنهم ليسوا ككل الفـــاتحين. وهذا ما سجله التاريخ البشري واعترف به المنصفون من أهل العلم، فقد ذكـــر المستشـــرق «توماس أرنولد»، أن الجيش الإسلامي حين بلغ منطقة (فِحْل) بـــالأردن، وكـــان الجيش بقيادة أبي عبيده، «كتب الأهالي المســـيحيون في هـــذه الـــبلاد إلى العرب - المسلمين- يقولون: يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكفّ عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا.

وغلّق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الرومان وتعسفهم»[1] .

ويسجل هذا المستشرق إقراره وإعجابه بالعدل الإسلامي حين يقول: «ومما يتفق مـــع هذه الروح التي تنطوي على حسن معاملة عمر لرعاياه من أصحاب الديانات الأخرى، ما أثر عن عمر من أنه أمر أن يعطى مجذومون من النصارى من الصدقات، وأن يجـــرى عليهم القوت. وهو لا ينسى الذميين حتى في آخر وصاياه، إذ عهد إلى من يخلفه بما ينبغي القيام به في هذا المنصب السامي.

ويصـــل العـــدل الإسلامي قمته حين يأمر خليفة المسلمين رجلاً ليس منهم بل يخـــالفهم في العقيدة أن يقتص من أمير مسلم لأنه اعتدى عليه، فعن أنس بن مالك قال: «كُنا عند عمر بن الخطاب إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هـــذا مقـــام العائذ بك، قال : وما لك؟ قال: أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر فأقبلـــت فرس لي فلما رآها الناس قـــام محمد بن عمرو فقال: فرسي ورب الكعبة، فـــلما دنـــا مني عرفته فقلت: فرسي ورب الكعبة، فقام يضربني بالسوط، ويقول: خذهـــا، وأنا ابن الأكرمين.. قال فو الله ما زاد عمر على أن قال: اجلس، ثم كتب إلى عمـــرو: إذا جاءك كتابي هذا فاقبل واقبل معك بابنك محمد. قال: فدعا عمرو

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٧٣ .

ابـــنه، فقـــال: أأحدثت أنت جناية؟ قال: لا، قال فما بال عمر يكتب فيك؟ قال: فقدما على عمر. قال أنس: فو الله إنا لعند عمر بمنى إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء، فجعـــل عمـــر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه فقال: أين المصري؟ فقال ها أناذا. قال: دونك الدرة اضرب ابن الأكرمين، قال: فضربه حتى أثخنه. ثم قـــال: اجعلها على صلعة عمرو فو الله ما ضربك إلا بفضل سلطانه. فقال: يا أمير المؤمـــنين لقد ضربت من ضربني، فقال أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ ثم التفت إلى المصري. فقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب لي»[١].

بمـــثل هـــذا العدل ساد الإسلام وانتشر وأقام ميزان الحق بين الناس، وبمثل هذا العـــدل عاش الناس- مسلمهم وكفارهم – في أمن وطمأنينة .. وإذا كنا نستشهد بوقـــائع وأحداث حدثت في عهد ابن الخطاب رضي الله عنه فما ذلك إلا لأن هذا العهـــد شـــهد فـــتوحاً وانتصارات ودخول الناس في دين الله أفواجاً، واتصالاً بين المســـلمين وغيرهم من الشعوب والأمم، فكثرت الأحداث والوقائع التي تدل على عـــدل الإسلام، ولا تخلو بقية العهود الإسلامية من مثل هذه الصفحات الناصعة في عدل المسلمين مع أعدائهم.

وقـــال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه اشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم»[٢].

فالدولة العادلة وإن كانت كافرة تستقيم لها أمور الحياة ويعيش الناس في رغد من العيش بظلها، ألا أنه بسبب العدل الذي تقيمه فإن الله سبحانه وتعالى – بسنته- يقيم لهـــا أمور الحياة، وأما إذا ظلمت وطغت فإن مصيرها إلى الزوال، ومن يراجع تاريخ البشرية القديم والحديث يجد نماذج عدة من الدول التي دالت بسبب ظلمها وطغيانها.

---

(١) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص١١٩.

(٢) ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية، ص٨١.

٢- حفظ العهد الذي بين المسلمين وغيرهم:

إذا كـــان العدل حق مع كل إنسان فإن من كان بينك وبينه عهد أو ميثاق فإن حقـــه يكون أوسع وأكبر، فالعهد والميثاق رابط للعلاقات بين الناس لتنظيم شؤون حـــياهم، ولا يتناقض ذلك مع الولاء والبراء، إذ الوفاء بالعهد صفه واجبة على كل مسلم، وأما الغدر فهو من الصفات التي ذمها الإسلام ونهى عنها.

وقـــد حث القرآن الكريم على الالتزام بالعهود فقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل: ٩١) .

قـــال ميـــمون بن مهران: «من عاهـــدته وفّ بعهده مســـلماً كان أو كافراً، فإنما العهد لله تعالى» [١] .

وقـــال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وأوفوا بميثاق الله إذا واثقتموه، وعقده إذا عاقدتموه، فأوجبتم على أنفسكم حقاً لمن عاقدتموه به وواثقتموه عليه»[٢].

وقال تعالى موجباً الوفاء بالعهد: ﴿... وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: ٣٤).

قال الفخر الرازي: «كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد»[٣] .

وقال الزجاج: «كل ما أمر الله به ونـــهى عنه فهو من العهد، فيدخل في ذلك مـــا بين العبد وربه وما بين العباد وبعضهم البعض، والوفاء بالعهد هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي إلا إذا دل دليل خاص على جواز النقض» [٤].

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٠٧/٢٠.
(٢) تفسير الطبري، ١٦٥/١٢.
(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٢٠٥/٢٠.
(٤) الشوكاني، فتح القدير، ٢٢٦/٣.

وقال الطبري: «وأوفوا بالعقد الذي تعاقدون الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام وفيما بينكم أيضاً»[1].

وقد ذمّ الله سبحانه وتعالى الذين ينقضون العهود، وجعل من يفي بعهده مع الآخرين كمن يفي بعهده وميثاقه مع ربه، وتصف الآية الأخرى في صورة بليغة موقف الذين ينقضون العهود بصفة فيها من الرهبة والتخويف كمنظر المرأة التي تنقض غزلها الذي تعبت في صنعه وغزله، وهذا فيه دليل وإشارة إلى الأسلوب الأحمق الذي يتبعه ناقضو العهود والمواثيق، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (النحل:٩٢).

قال ابن تيمية: «وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكاثاً»[2].

وقال الفراء: «لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم، أو لقلتكم وكثرتهم، وقد عزرتموه بالأيمان»[3].

قال مجاهد: «كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف أولئك ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز، فنهوا عن ذلك»[4].

ولذا فإن القوة التي تستند عليها بعض الدول المعاصرة في نقضها للعهود والمواثيق لا تصلح في الإسلام سبباً للنقض مهما كانت هذه القوة، لأن الالتزام بالعهود والمواثيق في الإسلام لا يقوم على القوة والضعف بل يقوم على مدى الالتزام بأوامر الله سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير الطبري، ٨٤/١٥.
(٢) الشوكاني، فتح القدير، ١٩٠/٣.
(٣) المصدر السابق، ٣٥١/١.
(٤) تفسير مجاهد، ٣٥١/١.

وكتب عمر، رضي الله عنه، إلى عتبة بن غزوان: «أعزب الناس عن الظلم، واتقوا، واحذروا أن يدال عليكم لغدر منكم أو بغي، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه، وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم، فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً» (١).

وكتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الأشتر النخعي: «إن عقدت بينك وبين عدوك عقداً أو ألبسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وراع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت، فإن ليس من فرائض الله شيء الناس أشد اجتماعاً عليه مع تفرق أهوائهم من تعظيم الوفاء بالعهود، فلا تغدرنّ بذمتك ولا تخيسن بعهدك» (٢).

وقد روى أبو داود: «كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ، وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بلادهمْ حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ، فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ، أَوْ بِرْذَوْنٍ، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَفَاءٌ لا غَدَرَ.. فَنَظَرُوا فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلا يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**، فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ». (٣)

أما الغدر فقد حرمه الإسلام ونهى عنه، فقد أقام المصطفى ﷺ علاقاته مع غير المسلمين على عدم الغدر أو الغيلة أو الخيانة، وأوصى الجيش بوصايا عديدة، كانت وصيته بعدم الغدر أو الغيلة من أبرز هذه الوصايا، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: **اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا، وَلا تَغُلُّوا،**

---

(١) محمد أحمد عاشور، خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه، ص٩١.

(٢) نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، ص٦٢١.

(٣) سنن أبي داود، الحافظ المنذري، ٦٣/٤؛ وانظر: سنن الترمذي، ١٤٣/٤؛ ومسند الإمام أحمد، ١١٣/٤.

وَلا تَغْـدِرُوا، وَلا تَمْثُلُوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[1].. قال النووي: «في هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها، وهي: تحريم الغدر وتحريم الغلول» [2].

وحـذّر عليـه الصلاة والسلام من الغدر، وتوعّد الغادرين بما أعد الله لهم يوم القـيامة مـن الخزي والعار حين يرفع لهم لواء يعرفهم الناس به فيفضحهم الله يوم القـيامة أمـام الخلائق؛ فقال عليه الصلاة والسلام: « **لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُعْرَفُ بِهِ**» [3].. قال ابن حجر: «في الحديث غلظ تحريم الغدر»[4].

وجعـل المصطفى ﷺ الغدر من صفات المنافقين الذين يبغضهم الله، فقد روى الـبخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»[5].

بـل جعل الله سبحانه وتعالى من نفسه خصماً لمن يغدر ويخون تشديداً وتغليظاً لهـذا الذنب، وقد أخبر عن ذلك النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي يرويه الـبخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللَّهُ: ثَلاثَـةٌ أَنَـا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**»[6].. وفي رواية ابن ماجه والإمام أحمد: « **وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ**»[7]، أي غلبته في الخصومة.

---

(١) أخرجه مسلم؛ وانظر: عون المعبود، لأبي داود، ٢٧٣/٧؛ وسنن الترمذي، ١٢٠/٥؛ وسنن الدارمي، ٢١٥/٢؛ وسنن ابن ماجه، ٩٥٣/٢، ومسند الإمام أحمد، ٣٥٨/٥.

(٢) صحيح مسلم، بشرح النووي، ج٢، ص٢٧.

(٣) أخرجه البخاري؛ صحيح مسلم، ٤٣/١٢؛ سنن أبي داود، ٦٢/٢؛ سنن الترمذي، ١٤٤/٢؛ مسند الإمام أحمد، ٤١٧/١.

(٤) العسقلاني، فتح الباري، ٢٨٤/٦.

(٥) العسقلاني، فتح الباري، ٨٩/١؛ وانظر: صحيح مسلم، ٤٦/٢؛ وسنن أبي داود، ٤٢٣/١٢؛ وسنن الترمذي، ٢٠/٥؛ وسنن النسائي، ١١٧/٨؛ ومسند الإمام أحمد، ١٨٨/٢.

(٦) العسقلاني، فتح الباري، ٤٧٨/٤.

(٧) انظر: سنن ابن ماجه، ٨١٦/٢؛ ومسند الإمام أحمد، ٣٥٨/٢.

ولم يُعـــرَف عنه ﷺ الغدر أو الخيانة حتى مع أعدائه وفي أصعب الظروف التي مرت بها الدولة، فعلى الرغم من الاضطهاد الذي وقع على المسلمين قبل هجرتهم ثم المحن والحروب التي شنها الكفار عليهم، إلا أنهم لم يلجأوا إلى الغدر أو الغيلة في الرد عـــلى أعدائهم، حتى أقر هؤلاء الأعداء بفضل هذه الصفة وتميزها في المسلمين بعامة وفي رسول الله ﷺ بخاصة، فهذا أبو سفيان بن حرب – قبل إسلامه- يدعوه هرقل حين جاءه كتاب رسول الله ﷺ ويسأله عن صفاته، وكان مما سأله:

«قَـــالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا.. قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ» (١).

وبهذا الالتزام بالعهد تعامل المسلمون مع غيرهم على الرغم مما واجهوه من غدر وخيانة من أعدائهم وجرائم ارتكبت ضدهم.

وقـــد اعترف المنصفون من مفكري الغرب بهذه الجرائم التي ارتكبها بنو قومهم باسم التحرر وتحقيق المصالح، أو القضاء على الإسلام والمسلمين، فالتاريخ يذكر أن الصـــليبيين حاصروا بيت المقدس- في حملاتهم- وشددوا الحصار، فطلب أهل بيت المقـــدس من قائد الحملة الصليبية (طنكرد) الأمان على أنفسهم وأموالهم، فوافق لهم عـــلى ذلك، وأعطاهم راية يرفعونها على المسجد الأقصى لتدل على أمانهم، ولكن الصليبيين غدروا بهذا الأمان وقتّلوا بالمسلمين.

ويصـــور المـــؤرخ (ريموند داجيل) – راهب مدينة لوبري – ما حدث في القدس فـــيقول: «حـــدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبرجها، فقد قُطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم! وبُقرت بطون بعضـــهم فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في الـــنار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يُرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن

(١) فتح الباري للعسقلاني، ٣٥/١؛ وانظر صحيح مسلم، ١٠٥/١٢؛ ومسند الإمام أحمد، ٢٦٣/١.

هذا لم يكن سوى بعض ما نالوه .. وكان- أول ما بدأ به (ريكاردوس) أن قتل صبراً أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير مسلم سلموا إليه أنفسهم بعد أن قطع لهم عهداً بحقن دمائهم، ثم أطلق لنفسه العنان في اقتراف أعمال القتل والسلب»[1] .

وعلى الرغم من الجرائم التي ارتكبها الصليبيون إلا أن المسلمين لم يقابلوا ذلك بالمثل فلم يغدروا بهم و لم يخونوهم، بل على العكس من ذلك، فقد التزم المسلمون بالخُلُق الإسلامي الرفيع في التعامل معهم.. «فبعد ٩٠ سنة من هذه المجزرة فتح صلاح الدين بيت المقدس، فماذا فعل؟ لقد كان فيها – القدس- ما يزيد على مائه ألف غربي بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم، وأعطاهم مهلة للخروج أربعين يوماً، فجلا منهم أربعة وثمانون ألفاً لحقوا بإخوانهم في عكا وغيرها، ثم أطلق كثيراً من الفقراء من غير الفدية، وأدى أخوه الملك العادل الفدية عن ألفي رجل منهم، وعامل النساء معاملة لا تصدر عن أرقى ملك منتصر في العصر الحديث. ولما أراد البطريرك الإفرنجي أن يخرج، سمح له بالخروج ومعه من أموال البيع والصخرة والأقصى والقيامة مالا يعلمه إلا الله. واقترح بعض حاشية صلاح الدين عليه أن يأخذ ذلك المال العظيم، فأجاب السلطان (لا أغدر به) و لم يأخذ منه إلا ما كان يأخذه من كل فرد»[2].

إن هذه المعاملة هي ما يقرره الإسلام في العلاقة مع غير المسلمين، فإذا كان هذا وقت الحرب فكيف بوقت السلم، بل كيف بمن يعيش بين غير المسلمين ويتعامل معهم ويستفيد من أنظمتهم وقوانينهم، ويمارس شعائره وعباداته، ثم يقر لنفسه بعد ذلك أن يخالف هذه القوانين والأنظمة!! إن ذلك ليس إلا صورة من صور الغدر.

إن الغدر بغير المسلمين، أو ظلمهم، أو أكل أموالهم بالباطل، أو إباحة دمائهم، بزعم الولاء والبراء، إنما يتناقض مع أسس الإسلام وقواعده وأحكامه.

---

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٤٠٢.

(٢) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ص١٠٤.

٣- حسن معاملة غير المسلمين:

إن مبدأ الولاء والبراء لا يعني سوء معاملة غير المسلمين، سواء كانوا في بلادهم أم في بــلاد المســلمين، بــل لهم كامل الحقوق الإنسانية ما داموا ملتزمين بالنظام والقــانون، وقــد حــث الإسلام على حسن معاملة غير المسلمين، وحرمة أموالهم ودمائهم، فقد قال النبي ﷺ: « **مَنْ أَمنَ رَجُلاً عَلَى دَمه فَقَتَلَهُ فَإِنَّهُ يَحْملُ لوَاءَ غَدْرٍ يَــوْمَ الْقِيَامَة** »[١].. وقال ﷺ: « **مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائحَةَ الْجَنَّة، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَة أَرْبَعِينَ عَامًا**» [٢].

وقد سار النبي ﷺ مسيرة العدل والإنصاف في معاملته لغير المسلمين، حتى وإن كانوا في بلادهم، فقد أوصى عليه الصلاة والسلام خيراً بأهل مصر، على الرغم من أن مصــر لم تكن في ذلك الوقت قد دخلت الإسلام فقد ذكر عليه الصلاة والسلام ذكــر بقوله: «**سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا**» [٣].

وحــين دخل النبي ﷺ يثرب (المدينة المنورة) كان أول عقد عقده مع اليهود، وحــدد فيه طبيعة العلاقة بين الطرفين، وحفظ لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم، بل وحريتهم الدينية، فقد جاء في نص العهد «لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم»[٤].

وقد قال الله تعالى:﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة:٢٥٦). وقال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩).

قال ابن عباس: «نزلت هذه الآية- في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يُقــال له الحصيني، وكان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجل مسلم، فقال للنبي ﷺ: ألا استكرهما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك»[٥] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه.
(٢) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ٢٦٩/٦.
(٣) صحيح مسلم، ٩٦/١٦ .
(٤) انظر نص العقد في: محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص١١ .
(٥) أحمد عمر الحوفي، سماحة الإسلام، ص٨٧.

وقد عقد النبي ﷺ لأهل نجران من النصارى عقداً أثبت لهم فيه حقوقهم، فقد كان في ذلك العقد: «لأهل نجران وحاشيتهم جوار الله، وذمة محمد النبي ﷺ، وعلى أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وبيعهم، وصلواتهم، لا يغيرون أسقفاً عن سقيفته ولا راهباً عن رهبانيته».

وقد تعامل النبي ﷺ مع غير المسلمين معاملة إنسانية راقية، يجهلها كثير من المسلمين اليوم، فقد كان يحضر ولائم أهل الكتاب، ويغشى مجالسهم، ويواسيهم في مصائبهم، ويعاملهم بكل المعاملات التي يتبادلها المجتمعون في جماعة يحكمها قانون واحد، وتشغل مكاناً مشتركاً، فقد كان يقترض منهم نقوداً ويرهنهم متاعاً، ولم يكن ذلك عجزاً من أصحابه عن إقراضه، فإن بعضهم كان ثرياً وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله، وإنما كان ذلك تعليماً للأمة وتثبيتاً عملياً لما يدعوا إليه من سلام ووئام، وتدليلاً على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم»[1].

بل إن الخلفاء كان يوصي بعضهم بعضاً بحسن معاملة غير المسلمين، فهذا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول: « ... أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي ... وَأُوصِيه بِذِمَّةِ اللَّـهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَأَنْ لا يُكَلَّفُوا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ »[2].

وقد حفظ الإسلام لغير المسلين حقهم ولم يفرق بينهم وبين المسلمين في ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[3].

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ٢٥٦/٣.
(٢) أخرجه البخاري، ١٦٨/٦.
(٣) مسند الإمام أحمد، ٤١٢/٣.

وقد حذر النبي ﷺ من الظلم ولو كان المظلوم غير مسلم فقال: « **اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ** »[(١)].

وقد فهم المسلمون هذا التوجيه النبوي على وجوب حماية حقوق الناس وعدم ظلمهم، ولا أدل على ذلك مما فعله علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين «تنازع في درع له مع نصراني وجدها، فاختصم إلى القاضي شريح، قال علي: الدرع درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل القاضي ذلك النصراني فيما يقول أمير المؤمنين، فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكذاب، فالتفت شريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين هل لك بينة؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح، مالي بينة.. وقضى شريح للنصراني بالدرع، لأنه صاحب اليد عليها، ولم تقم بينة على خلاف ذلك، فأخذها هذا الرجل ومضى، لم يمش خطوات حتى عاد يقول: أما أني أشهد هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي لي عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله! الدرع درعك يا أمير المؤمنين. اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الأورق. فقال علي رضي الله عنه أما إذا أسلمت فهي لك»[(٢)].

ومن يتتبع التاريخ الإسلام يجد فيه صوراً ناصعة لمعاملة المسلمين لغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، تتجلى فيها سماحة الإسلام وعدله ورحمته، ولم يكن مبدأ الولاء والبراء حائلاً دون تلك المعاملة الحسنة، بل كان هذا المبدأ دافعاً لتلك المعاملة.

إن مفهوم الولاء والبراء من المفاهيم التي أسيئ استخدامها لدى بعض أبناء الإسلام، مما يحتاج معه إلى أن يتصدى أهل العلم لبيان حقيقة مفهوم الولاء والبراء ومدى تطبيقه على الواقع، في ظل فهم صحيح للنصوص الشرعية ودلالتها، من غير تعصب لرأي أو موقف، ومن غير تجاوز كذلك لمعنى الولاء والبراء.

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٣/٣١٤.

(٢) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي، ص٣٩.

ثانياً: دار الإسلام ودار الحرب

استخدم الفقهاء قديماً مصطلح « دار الإسلام ودار الحرب » للتفريق بين بلاد المسلمين والبلاد الأخرى، حيث كان المسلمون بصفة عامة يعيشون داخل منطقة جغرافية محددة لها صفاتها ومكوناتها القائمة على العقيدة الإسلامية، وقد استخدم هذا المصطلح في سياق السياسة الشرعية التي كان المسلمون عليها في ذلك الوقت، وسنعرض تعريفات لكلا المصطلحين:

١- دار الإسلام:

قال الجمهور: «دار الإسلام هي التي نزلها المسلمون وجرت عليها أحكام الإسلام، وما لم تجر عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام وإن لاصقها» [١].

وقد عرفها الكاساني بقوله: «تصير دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها»[٢].

وعلى هذا فدار الإسلام هي الدار التي تسود فيها أحكام الإسلام، ويمارس فيها المسلمون شعائرهم الإسلامية دون خوف أو فتنة. وهذه الدار يجب أن يحافظ عليها المسلمون ويدافعوا عنها.

واشترط الفقهاء أن تكون الدار محكومة بالإسلام، و لم يشترطوا أن يكون جميع سكانها من المسلمين.

بل ذهب بعض الفقهاء إلى أن الدار قد تكون دار إسلام «حتى لو لم يكن فيها مواطن مسلم ما دام حاكمها مسلماً ويطبق أحكام الإسلام، وفي هذا المعنى يقول

(١) ابن القيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ص٣٦٦.

(٢) الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ١٣٠/٧.

بعــض الشــافعية «وليس من شرط دار الإسلام أن يكون فيها مسلمون بل يكفي كونها في يد الإمام وإسلامه»[1].

«وتعتبر الدار دار إسلام حتى ولو كان أهلها فاسقين، فما دامت شعائر الإسلام ظاهرة بها، فإنه لا يسلبها هذه الصفة أن يفسق أهلها» [2].

وبهــذا يتــبين رأي الجمهور بأن الدار لا تعد دار إســلام إلا بظهور أحكام الإسلام عليها.

وذهب أبو حنيفة ومن معه إلى أنها تعتبر دار إسلام إذ كان فيها مسلمون يأمنون على أنفسهم وأعراضهم، وكانت هذه الدار متاخمة لدار الإسلام.

أما إذا انتفــى الأمــان ولــم تــكن الدار ملاصــقة لدار الإســلام فتعتــبر دار حرب[3].

والواقــع المعاصــر يشير إلى أنه لا أهمية للمجاورة والملاصقة فقد تغيرت سبل الاتصــال، إذ يســتطيع الإنســان أن يصل إلى أبعد نقطة في العالم في أقرب وقت كما أن هيبة الأمم والدول لم تعد بمظاهر القوة التي يراها الناس، بل أصبحت القوة العســكرية أحــد عناصر القوة، وليست جميعها، فقوة الدول تقاس بقوة اقتصادها، ودورها السياسي، وعلاقاتها بالدول الأخرى، وقوتها العلمية، وتقدمها التقني، وغير ذلك من أسباب القوة.

---

(١) الرافعي، فتح العزيز.. شرح الوجيز، ١٤/٨.

(٢) مصطفى كمال وصفي، مصنفه النظم الإسلامية، ص٢٨٦ .

(٣) انظر: حاشية ابن عابدين، ١٧٥/٤؛ الكاساني، بدائع الصنائع، ١٣٠/٧؛ الزحيلي، آثار الحرب، ص١٧٠؛ محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، ص٥٣.

٢- دار الحرب:

وهي الدار التي لا تسودها أحكام الإسلام الدينية والسياسية ولا يكون فيها السلطان للحاكم المسلم، بل يكون فيها السلطان والمنعة للكفار وظهرت فيها أحكام الكفر. وذهب المتأخرون إلى اشتراط أن لا يكون بينها وبين الدولة الإسلامية عهد أو علاقات سلمية، وقد اختلف الفقهاء في تعريف دار الحرب إلى رأيين:

الرأي الأول: يرى أن دار الحرب هي التي تظهر فيها أحكام الكفر ولا يكون السلطان والمنعة فيها للمسلمين، ولا تطبق فيها أحكام الإسلام، وليس بينها وبين دار الإسلام عهد، وهذا رأي الجمهور[١].

يقول الكاساني: «تصير دار الكفر بظهور أحكام الكفر فيها»[٢].

ويقول ابن القيم: «وما لم تجر عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام وإن لاصقها»[٣].

وعلى هذا الرأي فإن الاختلاف بين دار الإسلام ودار الحرب يكون بظهور المنعة والسلطان، فأيما دولة ظهرت للإسلام فيها منعة وسلطان فهي (دار الإسلام) وإن لم تظهر للإسلام قوة أو سلطان فهي (دار الحرب).

الرأي الثاني: وقد ذهب إلى هذا الرأي أبو حنيفة والزيدية، ومذهبهم من ذلك أن الدار لا تصير دار حرب إذا كانت المنعة والسلطان لغير المسلمين، بل لا بد أن تتوافر فيها ثلاثة شروط:

- أن تظهر فيها أحكام الكفر.
- أن تكون متصلة بدار الحرب.
- أن لا يبقى فيها مسلم أو ذمي آمناً بالأمان الأول (أي بالأمان الإسلامي الأول)[٤].

---

(١) انظر: ابن قدامه، المقنع، ١/٤١٥؛ والفتاوي الكبرى، ٤/٣٣١.
(٢) الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ٧/١٣٠ .
(٣) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ٢/٣٦٦.
(٤) انظر: الكاساني، بدائع الصنائع، ٧/١٣١؛ وحاشية ابن عابدين، ٢/١٧٥؛ والفتاوى الهندية، ٢/٢٣٢.

ولم ينظر أصحاب هذا الرأي إلى المنعة والقوة والسلطان وإنما نظروا إلى الأمان بالنسبة للمسلم وللذمي، ويترتب على هذا الرأي أن هناك نوعاً من الديار لا ينطبق عليهم حكم دار الإسلام ولا دار الحرب وهي:

- الدار التي لا يتحقق للمسلمين فيها سلطان أو منعة.
- الدار التي تتاخم المسلمين.

٣- دار العهد:

ظهرت فكرة دار العهد بعد استقرار الدولة الإسلامية وتنظيم أمورها، وتطورت هذه الفكرة مع تطور علاقاتها وبظهور أحكام وظروف جديدة للدولة الإسلامية .. فبعد أن كانت الحروب قائمة ولم يكن للدولة الإسلامية علاقات (غير حربية) مع الدول الأخرى نشأت ظروف جديدة، كان من بينها استقرار الدولة الإسلامية، واتساع رقعتها، واتصالها بدول وشعوب مختلفة، لذا فقد توجه الفقهاء لبحث هذه الحالة، فهذه «الدار» لم يحكمها المسلمون حتى تطبق فيها شريعتهم، ولكن أهلها دخلوا في عهد المسلمين وعهدهم على شرائط اشترطت وقواعد عينت، فتحتفظ بما فيها من شريعة أحكام، وتكون شبيهة بالدول التي لم تتمتع بكامل استقلالها لوجود معاهدة معها.

وترتبط دار العهد - أو دور العهود- بالدولة الإسلامية بمواثيق وعهود، كما تنصرف تسمية دار العهد إلى البلاد التي لم تحارب المسلمين أو تعاديهم بحيث تشمل دور العهد جميع البلاد التي ترتبط بمواثيق تنظم العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها، إلى جانب أنها تشمل البلاد الأخرى التي لا توجد بينها وبين المسلمين عهود أو مواثيق إلا أنها لم تحاربهم أو تساعد محاربيهم[1].

---

(١) انظر: فؤاد النادي، موسوعة الفقه الإسلامي، ص١٥٤.

وإذا كان هذا رأي الفقهاء قديماً، فما هي الرؤية نحو تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب؟

نجـــد من المهم طرح بعض التساؤلات للإجابة عنها حتى تلامس واقع المسلمين بعيداً عن الفهم المحدد للمصطلح: دار الحرب ودار الإسلام، ومن ذلك مدى ضرورة الالـــتزام بهـــذا التقسيم، أي: هل تقسيم العالم إلى دار حرب ودار إسلام يدخل في أبواب الأحكام الشرعية الثابتة التي لا تجوز مخالفتها؟!

فقد ذهب عدد من الفقهاء إلى أن هذا التقسيم لا دليل عليه من الكتاب والسنة، وإنمـــا استمد قوته من الواقع التاريخي الذي عاشه المسلمون الأوائل، حيث فرضت علـــيهم الظـــروف التي مروا بها ودولتهم الناشئة وما واجهته من حروب، وكذلك ســـيادة الحرب بصفة عامة بين الدول في تلك الحقبة التاريخية، إلى أن يقسموا العالم إلى دار إسلام ودار حرب[1].

«إن هـــذا التقسيم مبني على أساس الواقع، لا على أساس الشرع، ومن محض صنيع الفقهاء في القرن الثاني الهجري، وأنه من أجل ترتيب بعض الأحكام الشرعية في المعاملات ونحوها، وأن الحرب هي السبب في هذا التقسيم، فيمكننا أن نقول: إن دار الحرب هي مجرد منطقة حرب ومسرح معركة بالنسبة لدار الإسلام التي فرضت عليها الأوضاع في الماضي أن تتكتل، وأن تعتبر البلاد غير الإسلامية في مركز العدو الـــذي برهنت الأحداث على نظراته العدائية للمسلمين، فهو تقسيم طارئ بسبب قـــيام حالـــة الحرب أو الحرب نفسها، فهو ينتهي بانتهاء الأسباب التي دعت إليه. والحقيقة أن الدنيا بحسب الأصل هي دار واحدة كما هو رأي الشافعي.

فليس المراد من التقسيم أن يجعل العالم تحت حكم دولتين، أو كتلتين سياسيتين، إحداهمـــا: تشـــمل بلاد الإسلام تحت حكم دولة واحدة، والأخرى: تشمل البلاد

(١) انظر: وهبة الزحيلي، آثار الحرب، ص١٦٧؛ محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، ص٥١.

الأجنبية في ظل حكم دولة واحدة، وإنما هو تقسيم بحسب توافر الأمن والسلام للمسلمين في دارهم، ووجود الخوف والعداء»[1] .

ويدل على ذلك أن الفقهاء عدلوا عن التقسيم «الثنائي» للعالم إلى تقسيم «ثلاثي» وهو دار الإسلام ودار الحرب ودار العهد، ولو كان الأمر حكماً لازماً لما تجاوزه الفقهاء، وهنا يأتي السؤال الآخر: هل يجب الوقوف عند هذا التقسيم؟ أم يمكن الاجتهاد فيه وإعادة بحث دلالته، إذ طرح بعض الفقهاء المتأخرين تقسيمات جديدة مثل أمة الدعوة وأمة الإجابة، ونظر إلى العلاقة بين المسلمين وغيرهم باعتبارها علاقة دعوة قائمة على تبليغ الرسالة الإسلامية، فالسلام والحرب ليسا هما العلاقة الطبيعية بين المسلمين وغيرهم وإنما هما منهجان في العلاقات الدولية، قديماً وحديثاً، يأخذ بهم المسلمون وفقاً للحاجة في ضوء الضوابط الشرعية الحاكمة لهما.

كما طرح آخرون مصطلح دار الإسلام حكماً وحقيقة، ودار الإسلام حكماً لا حقيقة، ودار الحرب[2] باعتبارها تقسيماً جديداً في زمن حدثت فيه تحولات كثيرة في العلاقات الدولية المعاصرة تأثر بها المسلمون، سواء كانوا في بلدانهم أم في البلدان الأخرى، مثل البلاد التي يعيش فيها المسلمون باعتبارهم أقلية، على الرغم من كثافتهم وعددهم الذي يتجاوز عدد المسلمين في مجموعة من الدول الإسلامية، مثل المسلمين في الهند والصين وروسيا وغيرها من بلدان العالم، كما أن هناك حالة من الهجرة والتنقل لأسباب شتى يصبح فيها المسلمون مواطنون في بلدان غير إسلامية.

ويقوم هذا التقسيم على المزج بين الرؤية القديمة للعالم والرؤية المعاصرة، إذ نظر إلى العالم بفئات ثلاث، وهي:

البلاد الإسلامية التي يعيش فيه المسلمون ويتعاملون فيما بينهم معاملات إسلامية وتطبق أحكاماً إسلامية في معظم أو بعض جوانب الحياة كالاقتصاد والقانون

(١) وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص١٩٦.
(٢) انظر: سيف عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام، مدخل القيم، ٢/٣٧٢ .

والأسرة وغيرها، فأطلقوا عليها مصطلح (دار الإسلام حقيقة وحكماً) أي أنها دار إسلامية في حقيقتها وحكمها.

أما الدار الأخرى، وهي الدار التي لا يكون غالبية سكانها من المسلمين، ولا تطبق فيها أحكام الإسلام السياسية أو الاقتصادية أو القانونية أو الاجتماعية، لكن المسلمين الذين يقيمون فيها يتمتعون بحقوق تمنحهم ممارسة عقائدهم وعباداتهم، ومعاملاتهم الشخصية، كما أن القوانين والأنظمة السائدة في تلك الدار لا تجبرهم على مخالفة دينهم، فنظر الفقهاء إلى هذه الدار باعتبارها (دار إسلام حكماً لا حقيقة) أي أنها ليست دار إسلام حقيقة لكننا نعاملها حكماً معاملة دار الإسلام للوصف السابق لها، وهذا النوع من الدور يمكن أن يطبق على البلدان التي تقيم فيها الأقليات الإسلامية، مثل الدول الغربية التي يعيش فيها مجموعات من المسلمين لا يشكلون أغلبية، وفي هذه الحالة فإن تطبيق هذا التقسيم يلزمهم بالتعامل مع هذه الدول معاملة إسلامية من حيث الالتزام بالقوانين والأنظمة وعدم مخالفتها مع احتفاظهم بشخصيتهم الدينية.

إن هذا التقسيم يخرج المسلمين في الغرب والدول الأخرى التي يشكلون فيها أقلية من العزلة التي فرضت عليهم بسبب تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب، إذ أنهم بسبب ذلك يعيشون حالة من الاضطراب، فهم يعيشون في دول ومجتمعات توصف بأنها مجتمعات غير إسلامية، كما أنها لا تمنعهم من ممارسة حقوقهم سواء كانوا من مواطنيها أو من المهاجرين المقيمين فيها.

إن هذا التقسيم دفع ببعض المسلمين إلى استغلال حالة الاضطراب، واختاروا وصف (دار الحرب) على البلدان التي تقيم فيها الأقليات الإسلامية مما يعني ممارسة أحكام دار الحرب، من استخدام للعنف والقتل والتدمير، وهذا ما حدث في بعض البلدان الغربية، ودفع بالمسلمين – هناك- إلى ساحة المواجهة مع مجتمعاتهم أو العزلة عنها، بل – هذا الفعل- أساء للإسلام والمسلمين بصفة عامة.

إن دراســـة وافـــية لهذا المصطلح الجديد (دار الإسلام حكماً لا حقيقة) تشكل بدايـــة لمشـــروعية الوجود الإسلامي في الغرب، وحلاً لمشكلة الانتماء والهوية لدى المســـلمين الغربـــيين الذين تتنازعهم هوية الانتماء الجغرافي لأوطانهم وهوية الانتماء الديني لإسلامهم.

وإلى جانب الأقليات يمكن تطبيق هذا التقسيم على البلدان الإسلامية التي وقعت تحـــت ســـيطرة القـــوى الاستعمارية أو الاحتلال المباشر وتكون السيادة فيها لغير المســـلمين، وهي الأراضي التي يطلق عليها الفقهاء مصطلح (دار الاسترداد) أي أنها تفقـــد صـــفة دار الإسلام بصفة مؤقتة ويعمل المسلمون على استردادها، فمثل هذه الديار يمكن أن تطبق عليها أحكام (دار الإسلام حكماً لا حقيقة).

ومثل ذلك أيضاً المناطق التي تسيطر عليها القوى الخارجة على النظام السياسي أو مـــا يســـميه الفقهاء بـــ (البغاة) وما يصطلح عليه حالياً بالقوى الانفصالية التي تفرض سيطرتها على تلك المناطق وتطبق فيها أنظمتها وقوانينها في محاولة للانفصال غير المشروع عن الدولة الأم.

إن مثل هذه الحالات يـــمكن أن يطبق عليها أحـــكام (دار الإســـلام حكماً لا حقيقة).

ولعـــل ســـائل يســـأل: ما أهمية هذا التقسيم ونحن نعيش في عالم تداخلت فيه الأنظمة والقوى و لم يعد هناك فرق كبير بين أقسام العالم؟ والإجابة عن ذلك تعيدنا إلى القول: بأن هذا التقسيم تترتب عليه أحكام لدى المسلمين، فهمها بعضهم فهماً خاطـــئاً يتطلـــب تحديدها ووصفها الوصف الشرعي الصحيح حتى لا ينحرف فيها الفهـــم، وتخـــتل الموازيـــن، ويبرز من يبرر تطبيق أحكام لم تشرع أصلاً لمثل تلك الحالات، فيطبق أحكام خاصة بوقت الحرب على المجتمعات الإسلامية أو المجتمعات الأخـــرى الـــتي ليست بدار حرب وليس بينها وبين المسلمين حرب، بل يجد فيها المسلمون أمنهم وأمانهم.

ومثل هذه الدعوات برزت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر حين تم تقسيم العالم إلى (فسطاطين) فسطاط الحق وفسطاط الباطل، وأن على المسلمين أن يختاروا بين الفريقين، وترتب ذلك أحكام أباحت دماء الغربيين كافة بزعم أنهم جميعاً (صليبيين) أعداء للإسلام!! وأن قتلهم واجب، سواء من حارب منهم أم لم يحارب!! بل تم توجيه المسلمين في الغرب إلى (التمايز) عن (الكفار) في السكن والعمل والعلاقة حتى لا يصيبهم ما يصيب (الكفار) من القتل والجرح والأذى.

إن مثل هذه الدعوات لقيت صدى عند بعض المسلمين الذين ساءهم ما يلقون من ظلم واضطهاد في أماكن كثيرة، مثل فلسطين وغيرها من البلاد الإسلامية، واستجابةً لدعوات العنف والقتل والتدمير.

إن مثل هذا الموقف ناشئ عن فهم خاطيء للأحكام الشرعية، ولا بد من الرجوع إلى مصادر هذه الأحكام والتيقن منها والحرص الشديد على عدم الاستجابة لدعوات تعطي جانباً من الحكم وتغفل جوانب كثيرة.

إن هذا الالتزام نابع من حرص المسلم على أن يعمل بالإسلام وأحكامه كما شرعها الله سبحانه وتعالى، وأن لا يتبع هواه أو أهواء الآخرين، كما أن التزامه ليس ردة فعل، لعمل الآخرين، فهو لا ينظر إلى تقسيم العالم إلى (محور الشر) و(محور الخير) ولا يكون موقفه من (الآخر) قائم على أن (من ليس معنا فهو ضدنا)، بل ينطلق موقفه من الحكم الشرعي القائم على الدليل.

إن مثل هذه الآراء وغيرها تدفع بالمسلمين إلى الاجتهاد مرة أخرى في رؤيتهم للعالم وما قام عليه التقسيم القديم (دار الإسلام) و(دار الحرب)، بل تعيد النظر في التقسيم ذاته ومدى ملاءمته للواقع المعاصر للمسلمين ولغيرهم من الشعوب، ثم ما هو الموقف من تعدد الدول الإسلامية، ومصطلح وحدة الأمة وتعدد الدول؟

بل إن فكرة تقسيم العالم إلى دارين أو ثلاث فكرة يصعب اعتمادها طريقة

وحـــيدة للتعامل مع العالم، بل حتى مع واقع المسلمين، إذ أن هذا التقسيم قائم على وحدة الأمة ووحدة الدولة، أي أن المسلمين كانوا يعيشون في دولة واحدة تمثل أمة واحـــدة، تعـــبر هـــذه الأمة أو الدولة عن حالة واحدة يعيشها المسلمون في كافة أرجائهـــا، بل حتى في فترات ضعف الدولة (الأمة) وقيام كيانات شبه مستقلة داخل هـــذه الدولة، لم تكن هذه الكيانات تعبر عن حالة جديدة، أو دولة أو أمة جديدة، بـــل كانت تعبر عن موقف يتخذه حاكم أو حكام هذه الأقاليم التي اصطلح عليها تاريخـــياً بـــالدول لكنها في واقع الحال كانت تعتبر نفسها جزءاً من الدولة (الأمة) وكـــان يعبر عنها بمواقف عدة أبرزها الدعاء (لخليفة المسلمين) الحاكم العام في تلك المـــرحلة باعتـــباره ممثلاً للدولة (الأمة) ولم تكن هذه الأقاليم أو الدول شبه المستقلة داخـــل الدولة الإسلامية الواحدة تمارس دوراً سيادياً أو تعبر عن حالة منفصلة لدولة ذات شخصية قانونية مستقلة.

ولعـــل ممـــا يشـــير إلى هـــذا المفهـــوم (الدولة – الأمة) أن الانتماء إلى الدين (الإسلامي) كان يمثل جنسية الأشخاص المنتسبين لهذه الدولة، فلم يكن هناك جنسية مرتـــبطة بالإقليم وإنما كانت الجنسية مرتبطة بدين الدولة حتى عند غير المسلمين من رعايـــا الدولة الإسلامية فإن تسميتهم بـــ (أهل الذمة) وهو مصطلح ديني إسلامي كـــان يعبر عن جنسيتهم أو انتمائهم إلى الدولة الإسلامية لأن غيرهم كانوا يحملون صفة أخرى مثل المستأمنين، أو المحاربين، أو المعاهدين، وكانوا ينسبون إلى أقاليمهم.

لكـــن نظـــرة إلى الواقـــع تشـــير إلى غياب مفهوم (الدولة–الأمة) إذ انفصل المصـــطلحين ليغطـــيا دلالات متعددة فمفهوم الأمة الإسلامية المعاصر لا يدل على وحدة الدولة وإنما هو رباط يقوم على أساس الدين، ويجمع دولاً مختلفة ذات سيادة، تلتقي في مصالحها أحياناً مع غيرها من الدول الإسلامية، وتختلف في مواضع أخرى، بـــل يصل الخلاف أحياناً إلى الحرب والاقتتال مثلما حدث بين إيران والعراق ما بين ١٩٨٠ – ١٩٨٨م، والحـــرب الـــتي دارت بين باكستان وبنغلاديش (والتي كانت

تسمى باكستان الشرقية قديماً) وذلك عام ١٩٧١م، وغيرها من الحروب والصراعات التي نشبت بين الدول الإسلامية، ولعل الصورة التي تعبر عن تجمع المسلمين ودولهم تمثلت في قيام منظمة هي منظمة المؤتمر الإسلامي التي تجمع معظم الدول الإسلامية، لكن المنظمة لا تمثل (الأمة) بمفهومها السياسي والسيادي، بل تمثل نقطة التقاء بين المسلمين شأنها شأن المنظمات الدولية الأخرى.

والواقع أن الخلاف بين مفهوم وحدة الأمة والدولة أو افتراقها يرتبط بالتاريخ والسيرورة العملية لحياة المسلمين أكثر من ارتباطه بالنصوص القطعية، إذ أن ورود النصوص الشرعية بوحدة الأمة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٩٢)، يمكن أن يستدل به كلا المعنيين، أي أن الأمة والدولة هما شيء واحد، وأن الأمة بمعناها الواسع الذي يفيد الانتماء إلى الدين وليس الإقليم، والفيصل في كلا الأمرين هو التطبيق العملي لهذا المفهوم؛ والإسلام لا يمنع أو ينفي قيام الدولة على أساس مفهوم الأمة الواحدة وإن اختلفت مكوناتها الجغرافية والبشرية، بل يطلب ذلك ويعمل له.

التاريخ المعاصر شاهد على قيام الأمة – الدولة، فهذه الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا والهند والصين وروسيا، وكلها أراض شاسعة، ودول واسعة الأطراف، متعددة الأجناس والديانات، ومختلفة الأقاليم، أي أن القول بالدولة الأمة، أو الدولة الواسعة أمر واقعي، لكن ذلك أيضاً لا يمنع من قيام الدول المتعددة ذات الانتماء إلى الأمة الواحدة، كشأن الدول الإسلامية اليوم.

والقول بوجوب وحدة الأمة الإسلامية في دولة واحدة يعني عدم مشروعية الدول الإسلامية القائمة حالياً، وهذا ما لم يقل به أحد من الفقهاء المعاصرين، لأن القول بعدم المشروعية يترتب عليه أحكام كثيرة، وهذا ما وقع فيه بعض أبناء الإسلام حين اعتمدوا أساليب العنف والتشدد والتطرف انطلاقاً من عدم مشروعية الواقع القائم لبلدان المسلمين.

وقـــد أدى هذا الخلل إلى شيوع مصطلحات كثيرة، كالتكفير، ووجوب الهجرة إلى دار الإسلام، أو جماعة المسلمين التي يسعى هؤلاء لإقامتها، أو إلى التجمعات التي أقاموها وأعطوها حكم دار الإسلام ووصفوا غيرها بدار الكفر أو الحرب أو الردة.

ولقـــد بحث عدد من الفقهاء المتأخرين حالة تعدد الدول الإسلامية مع انتمائها إلى أمـــة الإسلام، يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «لا يمكن في هذا العصر أن تكون حكومـــة إســـلامية واحدة، بل لكل إقليم دولته، وتلتقي جميعها على كلمة من الله تعـــالى: تنشر التعاون بين الناس، وتربط العلاقات على أسس من الوحدة الإنسانية العامـــة، ويكـــون المســـلمون فيها دعاة حق، يتحد اقتصادهم، وتتحد سياستهم، وتتحد أو تتقارب جيوشهم، وكل إقليم له رئيسه المختار اختياراً حراً من شعبه من غير أن تكون له موالاة لغير المسلمين»[1] .

ويقـــول الدكتور محمد طلعت الغنيمي: «إن الدولة الإسلامية الواحدة من قبيل المندوب في الإسلام وليس من قبيل الواجبات، إن الذي يأمر به الإسلام هو الأخوة بـــين المســـلمين، والأخـــوة لا تستدعي حتماً ولزاماً الوحدة، ومن ثم فإن نوعاً من الـــرابطة الـــتي تقوم على التآخي والود والمحبة هو الذي يربط بين الدول الإسلامية، وذلـــك هو الفرض على الدول الإسلامية، أما ما يتجاوز ذلك إلى رابطة أقوى فهو من الأمور التي ندب إليها المسلمون»[2] .

بـــل ذهـــب بعض الفقهاء المتقدمين إلى جواز تعدد الدول في الأمة الإسلامية المـــتحدة، فهذا إمام الحرمين الجويني يقول: «... والذي عندي فيه أن عقد الإمامة لشخصـــين في صـــقيع واحـــد متضايق الخطط والمخالف (أي متقارب المسافات والحـــدود) غـــير جائـــز، وقد حصل الإجماع عليه، وأما إذا بعد المدى وتخلل بين الإمـــامين شســـوع النوى (أي تباعدت المسافات بين البلدان) فللاحتمال في ذلك مجال، وهو خارج عن القواطع» [3] .

(١) الشيخ محمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، ص١٢٠.
(٢) محمد طلعت الغنيمي، الأحكام العامة في قانون الأمم، ص٥١.
(٣) إمام الحرمين الجويني، كتاب الإرشاد في قواطع الاعتقاد، ص٤٢٥ .

وهذا ما قرره عبد القادر عوده بقوله: «قد يظن البعض أن هذا يقتضي أن تكون البلاد الإسلامية كلها تحت حكم دولة واحدة، والبلاد الأجنبية كلها تحت حكم دولة واحدة، وهو ظن لا أساس له من الواقع، فالنظريات الإسلامية لم توضع على أسس أن تكون البلاد الإسلامية محكومة بحكومة واحدة، وإنما وضعت على أساس ما يقتضيه الإسلام، والإسلام يقتضي أن يكون المسلمون في كل بقاع الأرض يداً واحدة، يتجهون اتجاهاً واحداً، وتسوسهم سياسة واحدة، وأبسط الصور وأكفلها بتحقيق هذه الغاية أن تكون كل بلاد الإسلام تحت حكم دولة واحدة، ولكن ليست هذه هي الصورة الوحيدة التي تحقق الإسلام، لأن هذه الأهداف يمكن أن تحقق مع قيام دول متعددة في دار الإسلام ما دامت هذه الدول تتجه اتجاهاً واحداً، وتسير على سياسة واحدة، ولا يتنافى هذا مع النظام القائم الآن في البلاد العربية بعد قيام جامعة الدول العربية التي تعمل على توحيد الاتجاهات والسياسات في الدول العربية المختلفة.

ولا يتنافى مع قيام جامعة إسلامية تتكون من كل الدول الإسلامية وتشرف عليها وتعمل على توحيد أغراضها واتجاهاتها، وعلى حل ما يثور فيها من نزاع داخلي، ولا يتنافى الإسلام مع أي نظام آخر ما دام هذا النظام يحقق الأهداف الإسلامية، وأن هذه الأهداف هي أن يكون المسلمون يداً واحدة على من عاداهم، وأن يكون اتجاههم واحداً وسياستهم واحدة»(١).

ولعل النموذج الأوروبي في التوحد من خلال الاتحاد الأوروبي يمثل صورة يمكن القياس عليها، حيث احتفظت الدول بسيادتها وشخصيتها القانونية في ظل سياسة عامة متقاربة أحياناً ومتطابقة أحياناً في القضايا الداخلية والخارجية، مع احتفاظ كل دولة بهامش من الحرية في اتخاذ القرارات والأنظمة والقوانين الخاصة بها، ويمكن أن تكون للعرب أو المسلمين تجربتهم الخاصة بهم لتحقيق صورة من صور التوحد في السياسات والمواقف مع احتفاظ كل إقليم بسيادته وشخصيته القانونية.

(١) عبد القادر عودة، التشريع الجنائي في الإسلام، ١/٢٩٠.

وهـــنا يأتي دور المؤسسات المشتركة التي تصبح محور رسم السياسة العامة لهذه الصورة من العلاقة بين الدول والمجتمعات الإســـلامية، أما أن يتم القفز على الواقع أو تجاهلـــه أو إطلاق الأحكام العامة بعدم مشروعية الواقع باعتباره يخالف ما سار عليه المسلمون خلال مرحـــلة تاريخـــية لهـــا خصوصيتها بتقسيم العالم إلى دارين، دار للإســـلام ودار للحرب، فإن ذلك لن يعالج واقع المسلمين ولن يحل مشكلاتهم، بـــل يمكـــن أن نقـــول: إنه يخالف ما قام عليه الإسلام من التعددية والتنوع في ظل الوحدة الدينية والفكرية.

«إن فاعلـــية هذا التقسيم (دار الإسلام ودار الحرب) حتى هذا الزمن غير مانعة من مراجعـــته وإعـــادة النظر فيه، من غير أن يحسب البعض أن ذلك انتهاك لحكم شرعي، فتغير البيئة الدولية وبروز متغيرات في النظام الدولي تتطلب جملة من العناصر الدافعة إلى المـــراجعة المنهجـــية، وتشير إلى مبررات حاسمة قد تدفع إلى ضرورة البحث في عناصر قسمة جديدة تستلهم عناصر «الواقع» وأصول الشريعة. لا شك أن بروز الدول القومية والمســـألة الشـــرقية وانهـــيار الدولة العثمانية والخلافة التي ارتبطت بها، وتبدل عناصر ومفاصل حاسمة، تفرض (قسمة جديدة) والتفكير بها تفكيراً منهاجياً عميقاً.

إن التقســـيم الـــدولي للمعمورة ليس كما يتصور تقسيم حدود ولكنه أعمق من ذلك وأوسع، فربما تكون فكرة الحدود أحد عناصره، ولكن تظل النقطة الجوهرية فيه هو أنه يشير إلى تصورات (أوصاف) وحالات (علاقات) ومآلات (تغيرات)، ومن ثم يجـــب إعـــادة الـــنظر في هذه الرؤية ضمن رؤى خاصة بالنظام الاقتصادي الدولي، وعملـــيات الاعـــتماد المتبادل، ورؤى التبعية ومسالك الاستعمار الجديد، والمنظمات الدولـــية غير الحكومية، وتغير مفهوم الحدود والدولة القومية والسيادة، وبزوغ مفاهيم مســـاندة لفكـــرة الكونـــية والعالمية، من المواطنة العالمية، والتعليم من أجل السلام، ومؤتمرات دولية النشاط والرؤى : السكان، التنمية الاجتماعية، المدن، والمجتمع المدني، والتدخل الدولي لحقوق الإنسان، وثورة المعلومات وسلطة المعرفة»[1].

(١) سيف الدين عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام، مدخل القيم، ٢/٣٦٤.

إن اجتهاداً جديداً لطبيعة العلاقة بين المسلمين وغيرهم، سيعيد هذه العلاقة إلى أصولها الشرعية، وسيحقق رسالة الإسلام في الوصول إلى الناس ودعوتهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجعل للمسلمين حضوراً إنسانياً وعالمياً واضحاً في العلاقات الإنسانية الدولية، إن ذلك لا يعني أن يذوب المسلمون في غيرهم أو يكونوا تبعاً لهم أو يغيروا من معتقداتهم وعباداتهم وأخلاقهم، بل يعني أن ينقل المسلمون رسالتهم إلى الناس كافة تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:٢٨).

إن الفهم الصحيح لمصطلحي دار الإسلام ودار الحرب، وإنزالهما منزلتهما الحقيقية يحقق للمسلمين حضورهم المعاصر ويجنبهم كثيراً من المشكلات.

وبغير هذا سيتم توظيف مصطلحا دار الإسلام ودار الحرب لتطبيق أحكام خاصة بظروف وحالات معينة على جميع الحالات، إذ أن تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب يترتب عليه بعض الأحكام التي ذكر الفقهاء كثيراً منها ، مثل العقود التي يعقدها المسلمون مع غيرهم في دار الحرب وهل يجب على المسلم الوفاء بها أم لا؟ أو العقود الفاسدة التي يعقدها (الحربيين) في دار الإسلام كالتعامل بالربا وغيره .. وكذلك إقامة المسلم في دار الحرب وإقامة غير المسلم في دار الإسلام، ومدى التزام كل طرف بالحقوق الواجبة عليه نحو (الآخر) كالدين والوكالة والكفالة وغيرها، والعقوبات التي يجب تطبيقها على غير المسلم (الحربي) في دار الإسلام، وكذا العقوبات التي يلتزم بها المسلم في دار الحرب، وهل يجب على المسلم التقاضي في دار الحرب، والموقف من أحكام القاضي الذي يوليه غير المسلمين في حالة ضعفهم وخضوعهم لغير المسلمين؟ وغير ذلك من الأحكام التي بنى عليها بعض المسلمين اليوم رؤيتهم للآخرين، فأفتوا بحل دماء وأموال غير المسلمين، واستباحوا سرقة

أموالهـــم، وهتك أعراضهم، وقتلهم، على الرغم من أنهم مواطنون في بلاد المسلمين وهم «أهل ذمة» كما يطلق عليهم في الشريعة الإسلامية.

وامتد الأمر إلى البلاد غير الإسلامية التي يعيش فيها مسلمون ويمارسون حياتهم وعقـــائدهم وعباداتهم دون تدخل من تلك الدول أو قمع، فأباحوا التهرب من دفع الضـــرائب باعتـــبارها «مكوساً» في دار الحرب، والامتناع عن كل التزام مالي تجاه الدولـــة أو الخدمات التي توفرها لهم برسوم مالية، كما أباحوا الاستفادة من العقود المحـــرمة مثل التعامل بالربا وبيع الخمور ولحم الخنـــزير وغيرها من المعاملات، بحجة أنهم في دار حرب.

وامتد هذا الفهم إلى طريقة التعامل مع مواطني تلك الدول، فأفتوا لأنفسهم بحل دمـــائهم، لأن حكومـــاتهم ليست حكومات إسلامية، وأن بعضها يحتل بعض بلاد المســـلمين، أو أن تلك الحكومات تعين «إسرائيل» أو غير ذلك من الأسباب، فأفتوا بإباحـــة دماء سكان تلك البلاد، بزعم أنهم شركاء مع حكوماتهم في تلك الجرائم، على الرغم من أن كثيراً من مواطني تلك الدول لا يقبل بسياسة حكومته، ويعارض مواقفها ضد المسلمين، وكثيراً ما خرج مواطنو تلك الدول في مظاهرات ومسيرات، وكتـــبوا، وتحدثـــوا عن معارضتهم لما تقوم به حكوماتهم.. ومع ذلك فقد اعتبرهم بعـــض المســـلمين (حربـــيين) تنطـــبق عليهم أحكام الحربيين .. فتعالت أصوات الانفجـــارات والـــتدمير، وتمزقت أجساد المسالمين من الرجال والنساء والأطفال في الشوارع والأرصفة والقطارات والمطارات والأماكن العامة، وخسر المسلمون، حيث كـــان الإســـلام ينتشـــر في بلدان ومجتمعات غربية وشرقية كثيرة وارتفعت أعداد الداخلين في الإسلام أو الدارسين له أو المهتمين بشأنه، وإذ به اليوم يتراجع أمام هذه التصرفات والأعمال التي لا يمكن أن توصف إلا بالأعمال المخالفة للإسلام.

ثالثاً: الجهاد

لعل من غير المتصور أن يعيد المسلمون بحث مشروعية الجهاد، إذا وردت الآيات الشريفة والسنة النبوية المطهرة، وتطبيقات ذلك في السياق التاريخي الإسلامي مما لا يدع مجالاً للحديث عن مشروعية الجهاد في الإسلام، إلا أن تحرير هذا المفهوم ليس في حقيقته ودلالاته لكن في الفهم المعاصر لدى بعض المسلمين، الذين ربطوا بين مفهوم الجهاد وممارسة العنف وخاصة أن هذا المصطلح ينفرد بإسلاميته الخالصة إذ لا يوجد مصطلح ديني متفرد للقتال في الأديان الأخرى.

فالجهاد كلمة إسلامية صرفه لا مثيل لها في مفردات اللغات الأخرى، ولذا فإن تفسيرها لدى الغربيين هو أن كلمة الجهاد تعني «الحرب المقدسة» علماً بأن هذا المصطلح «الحرب المقدسة» لا يدل على حقيقة الجهاد إذ ليست في الإسلام حرب مقدسة وحرب غير مقدسة، بل هناك الجهاد بدلالته اللفظية والعملية، لكن هذا المفهوم أو المصطلح أسيء استخدامه حين أطلق على العمليات التي توصف بالإرهاب مما جعل ارتباطاً بين مفهوم الجهاد والإرهاب، خاصة عند غير المسلمين، بل إن بعض الجماعات التي توصف بالإرهابية من مخالفيها تحمل اسم الجهاد الإسلامي أو الجماعات الجهادية، علماً بأن هذه الجماعات تمارس نشاطها وأعمالها في مجتمعات إسلامية، والأصل في الجهاد أن يتم لمقاومة أعداء المسلمين أو مغتصبي ديارهم ومقدساتهم لا أن يكون بين المسلمين أنفسهم؛ لأن القتال بين المسلمين ليس نوعاً من الجهاد، ولم يقل بذلك أحد من الفقهاء بل أطلقوا عليه لفظ «الفتنة» أو ما يسمى في العصر الحديث بالحرب الأهلية، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا

عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات:٩).

يقـــول ابن كثير: « ... أمر بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض فسماهم مؤمنين مع الاقتتال»[1].

ويقـــول الطبري: «... أن الله سبحانه وتعالى أمر النبي ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفـــتان مـــن المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بحكم الله حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهـــو باغ فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدوهم ويقاتلوهم حتى يعودوا إلى أمر الله ويقروا بحكم الله»[2].

وقـــال الطـــبري: قال العلماء: لا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما إما على ســـبيل البغي منهما جميعاً أو لا، فإن كان الأول فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بصلح ذات البين ويثمر المهادنة والموادعة، فإن لم يتحاجزا و لم يصطلحا وأقامتا على الـــبغي صـــير إلى مقاتلتهما، وإما إذا كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى، فالواجب أن تُقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينهما وبـــين المبغي عليها بالقسط والعدل، فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلـــتاهما عند أنفسها محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة والبراهين القاطعة على مرشد الحق، فإن ركبتا متن اللجاج و لم تعملا على شاكلة ما هديتا ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين .. والله أعلم[3].

و لم يقـــل أحـــد أن القـــتال بين المسلمين نوع من الجهاد، بل جاءت الآيات والأحاديـــث لتحدد معنى الجهاد المشروع وهو جهاد الأعداء الذين يسعون إلى هدم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢١١/٤.
(٢) تفسير الطبري، ٢٢١/١٠.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٦٨/١٦.

الإسلام أو قتل أبنائه أو احتلال أرضهم، فقتالهم واجب بإجماع العلماء و لم يتخلف عن ذلك أحد. قال أبو حنيفة: «الجهاد واجب على المسلمين»[(١)].

وقـــال السرخسي في المبسوط: «استقر الأمر على فرضية الجهاد مع المشركين وهو فرض قائم إلى قيام الساعة»[(٢)].

وقال ابن حزم: «والجهاد فرض على المسلمين»[(٣)].

ولســـنا هنا للحديث عن مشروعية الجهاد ولا فرضيته، كما أننا لا نبحث عن الخلاف القديم بين الفقهاء حول: هل الجهاد ابتداءً أم دفاعاً؟! إذ تتجه آراء كثير من الفقهـــاء المـــتقدمين والمتأخرين إلى أن الجهاد دائماً شرع للدفاع عن بلاد المسلمين ودمائهم وأموالهم «أما أن يفسر الجهاد على اعتباره حرباً هجومية أو دفاعية لا غير ففيه كثير من الإجحاف والإساءة لمدلول الكلمة والفلسفة القائمة وراءها. كما أنه مـــن الخطـــأ الافتراض بأن الجهاد هو الحرب المقدسة – كما يفعل ذلك التقليديون والمحدثون على حد سواء– وأنه وحده الأساس لعلاقات العالم الإسلامي مع غيره في عصـــور مـــا قبل الحديثة. وأن الجهاد قد فسر بأكثر من معنى عند الفقهاء الأوائل، وبيـــنما نجد الكتابات الإسلامية في العصور الحديثة تفسر كل أعمال الجهاد في مجال العلاقات الخارجية في التاريخ الإسلامي وخصوصاً العهد الأول منه على أنها أعمال دفاعـــية نـــرى أن كثيراً من الكتاب غير المسلمين يصفون نفس تلك الأعمال بأنها أفعـــال هجومية شنها المسلمون على الشعوب غير المسلمة لأسباب ودوافع داخلية محضـــة. وهذا الموقف «اللاموضوعي» لم يخلف أو يترك حكماً نهائياً على الأعمال التاريخية والتي تلقى قبولاً من جميع الأطراف المعنية»[(٤)].

---

(١) الإمام الشيباني، شرح السير الكبير، ١٨٧/١.
(٢) السرخسي، المبسوط، ٢/١٠.
(٣) ابن حزم، المحلى، ٥٢/١.
(٤) عبد الحميد أبو سليمان، النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية، ص٢٣٩ .

والجهـــاد لم يشرع بسبب كفر الكافرين أو مخالفتهم للإسلام، إذ القاعدة: «أن كفر الكافر لا يبيح دمه». قال شيخ الإسلام ابن تيميه، رحمه الله، في قاعدة في قتال الكفـــار: «اخـــتلف العلماء في قتال الكفار، وهل سببه المقاتلة أو مجرد الكفر، على قولـــين مشهورين للعلماء: أحدهما سببه المقاتلة أي الاعتداء على الدين وأهله وهذا هـــو قـــول الجمهور كمالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهم. والثاني أن سببه الكفـــر وهو قول الشافعي، وربما علل بعض أصحاب أحمد من أن السبب في القتال مجـــرد الكفر. وقول الجمهور هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠).

فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ تعليق للحكم بكونـــهم يقاتلوننا فدل على أن هذا علة الأمر بالقتال، وقوله: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ فسره بعض العلماء بقتال من لم يقاتل وبالمثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والرهبان والشيوخ وأصحاب الصوامع وتحريق الأشـــجار وقتل الحيوان. فدل على أن قتال من لم يقاتل أنه عدوان، وهذه الآية هي محكمة وليست منسوخة على قول الجمهور .. ثـــم استدل بقوله: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ قـــال: والفتنة أن يفتن المسلم عن دينه كما كان المشـــركون يفتنون كل من أســـلم عن دينة بصـــده عنه. ولهذا قال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ .

وقولـــــه: ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ وهذا يحصل إذا ظهرت كلمة الإسلام وكان حكم الله ورسوله غالباً فإنه قد صار الدين لله. وأما قوله: « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا**»، وهو ذكر للغاية التي يـــباح قتالهم إليها بحيث إذا فعلوها حرم قتالهم. وليس المراد منه أني أمرت أن أقاتل

الناس كل أحد إلى هذه الغاية، فإن هذا خلاف النص والإجماع فإنه لم يفعل هذا قط بل كانت سيرته أن من سالمه لم يقاتله.. انتهى».

وقال أيضاً في السياسة الشرعية: «وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين. وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والرهبان والشيخ الكبير والأعمى والزمنى ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء إلا أن يقاتل بقوله أو فعله.. لأن القتال هو لمن يقاتلنا إذ أردنا إظهار دين الله كما قال الله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وفي السنن أن النبي ﷺ مر على امرأة مقتولة في بعض مغازيه وقد وقف عليها الناس فقال: **ما كان هذه لتقاتل**. وفيها أيضاً عنه ﷺ أنه كان يقول: **لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة**.. انتهى».

إن الإسلام جعله الله رحمة للعالمين وقد حرم حرب الاعتداء والظلم، وقصر الحرب المشروعة على تقرير المصالح ودفع المفاسد.. لأن الإسلام هو دين السلم والسلام، ولا يمكن تمتع العالم بالسعادة والراحة والرحمة إلا بهداية الإسلام. وقد أمر الله عباده بأن يؤثروا السلم على الحرب .. فقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ لأن الإسلام يكره إراقة الدماء إلا لضرورة تقتضيها المصالح ودفع المضار والضرورة تقدر بقدرها»[1].

فإذا كان هذا الحكم في الجهاد المشروع الذي لا بد له من أسس وأحكام فصلها الفقهاء في كتب الفقه، ولعل من أبرزها أن تكون غايات الجهاد مشروعة، وأن يخلوا الجهاد من البغي والعدوان والتجاوز، وأن يأتي الأمر بالجهاد من حاكم الدولة ورأسها لا من عامة الناس وأفرادهم .. وغير ذلك من الضوابط التي تحكم الجهاد.

(١) الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، الجهاد المشروع في الإسلام، ص١٣.

فـإذا كان الأمر كذلك فماذا عن القتال بين المسلمين والذي تُطلق عليه بعض الفئات اسم الجهاد، وينطلقون من فرضيات خاطئة تارة تصف المجتمع بالكفر، وتارة أخرى تصف الحاكم بالكفر، وثالثة تكفر النظام دون الحاكم أو المجتمع وتصف كل ذلـك بالجهاد، إن المسلمين وهم كل من شهد الشهادتين، ولم ينكروا ضرورياً من ضـروريات الديـن على نحو يستلزم تكذيب النبي ﷺ، وجحد الرسالة بأن كانوا متأولين في إنكارهم لما أنكروه، فإن هؤلاء مسلمون وهم جزء من الأمة الإسلامية بـالمعنى السياسي - الاجتماعي. ولا يشرع الجهاد - بالمعنى المصطلح عليه - ضد المسلمين بوجه من الوجود.

وأمـا المنافقون فقد جرت سيرة النبي ﷺ على معاملتهم في الشأن السياسي والتنظيمي معاملة المسلمين، وثبتت السنة الشريفة على ذلك، وظواهر القرآن الكريم تقضي به، فما داموا مسالمين يعايشون المسلمين ولا يشهرون عليهم حرباً ولا يبغون فساداً في الأرض، ولا يرتكبون ما يوجب الحد، فإنهم عوملوا كما ينبغي أن يعاملوا باعتبارهم مسلمين جزءاً من الأمة، بالمعنى السياسي- الاجتماعي التنظيمي.

أمـا مشروعية استخدام العنف المسلح ضد الأنظمة الحاكمة الإسلامية في البلاد الإسـلامية، باعتبار أنه (جهاد) بالمعنى المصطلح يتوقف على الحكم بكفر أشخاص الهيئة الحاكمة وخروجهم عن الإسلام، وهذا ما لم يقل به أحد من العلماء والفقهاء الـثقاة، ومـن دون ذلك فلا يمكن القول بمشروعية محاربتهم وقتالهم بقصد قتلهم بعنوان أن ذلك (جهاد) بالمعنى المصطلح.

ولكـن الجهـاد بـالمعنى المصطلح لا يكون إلا ضد المحاربين، وهؤلاء الحكام وأعوانهـم مسـلمون معترفون بنبوة محمد ﷺ، ورسالته، فلا يمكن الحكم بكفرهم، وعلى هذا الأساس فقد حقن الإسلام دماءهم.

ومخالفـتهم للإسلام -باعتباره نظاماً سياسياً للمجتمع- من جهة كونهم يتولون الحكـم على أساس نظام غير إسلامي من حيث أساس ومصدر شرعية ذلك النظام،

ومـــن حيـــث القوانين الوضعية التي ينفذها، ليس سبباً كافياً للحكم بكفرهم المجوز شـــرعاً لجهادهم بالمعنى المصطلح، لأن موقفهم ليس كفراً مباشراً صريحاً وليس كفراً ناشئاً من تكذيب النبي ﷺ، لأن حالهم لا يخلو من أحد فروض، فهم:

إما معترفون بأن هذا النظام مخالف للإسلام، وهم يحكمون على طبقه عصياناً، أو ضرورة بدعوى عدم التمكن من تطبيق الإسلام.

فـــإن كـــانوا عصـــاة، فحكمهم حكم العصاة وليس حكم الكفار الذين يجوز جهادهم بالقتل والقتال.

وإن كـــانوا متأولين فإمّا أن يكون تأولهم استناداً إلى دعوى الضرورة فحكمهم حكم المتأولين وليس حكم الكفار الذين يجوز جهادهم بالقتل والقتال.

وإما أن يكونوا متأولين بأن هذا النظام موافق للإسلام، أو - على الأقل- ليس مخالفـــاً للإســـلام، فحكمهم أيضاً حكم المتأولين، ولا يمكن الحكم بكفرهم المجوز لجهادهم بالقتل والقتال، كما ثبت عند الفقهاء من أن المخالف للإسلام بتأول بعض أحكامـــه عن شبهة مع التصديق والإذعان بنبوة النبي ﷺ ورسالته، لا يحكم بكفره، بل يجب حواره ومباحثته لإزالة شبهته.

فتحصل من جميع ما تقدم أنه لا وجه من الناحية الشرعية الفقهية لاستعمال العنف المسلح باعتباره (جهاداً) بالمعنى المصطلح، ضد أشخاص الهيئات الحاكمة (الأنظمة) على أساس أنهم كفار يشرع جهادهم، لما عرفت من عدم إمكان الحكم بكفرهم.

وأمـــا العنف ضد الأجانب غير المسلمين في بلاد المسلمين فالمراد بالأجانب غير المســـلمين هـــنا: (الأشخاص، والسفارات، والهيئات الأخرى، والشركات التجارية وغيرهـــا) الموجـــودون في الـــبلاد الإسلامية بإجازات دخول وإقامة عمل من قبل حكومـــات البلاد الإسلامية، ولا تضر إقامتهم وعملهم بالمسلمين، ولا توجد حالة حرب فعلية بين المسلمين وبينهم.

إن هـؤلاء الأجانب (كفاراً) بالمصطلح الشرعي. وقد دخلوا إلى البلاد الإسلامية بمقتضى إجازات دخول وإقامة عمل من قبل سلطات تمثل البلاد الإسلامية ذات العلاقة.

وبهذا الاعتبار ينطبق عليهم ما ذكره الفقهاء جميعاً، وأجمعت عليه المذاهب الإسلامية من كونهم (أهل العهد، وأهل الأمان، وأهل الذمة)، وهم ليسوا -بهذا الاعتبار- موضوعاً للجهاد قطعاً.

وهذا العنوان يوجب شرعاً حمايتهم، وحفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ويعصمهم من كل اعتداء عليهم. وهذا واجب على الدولة وعلى سائر المسلمين.

ولا شك في أن كل ما دل من الكتاب والسنة على وجوب حماية وحفظ من دخل وأقام في بلاد المسلمين من الكفار الأجانب، يشمل الأجانب غير المسلمين الموجودين الآن في البلاد الإسلامية بإجازة من حكومات هذه البلاد.

وكون هؤلاء الأجانب ينتمون إلى حكومات تتبع سياسات مخالفة لمصلحة المسلمين، لا يجعلهم مسؤولين عن سياسة حكوماتهم بنحو يبرر قتلهم أو جرحهم أو أسرهم أو مصادرة أموالهم.. وهم بالنسبة إلى حكومات بلادهم على قسمين:

أحدهما: الأشخاص والهيئات والشركات التجارية والصناعية وغيرها، الذين يحملون جنسية البلد الأجنبي، ولكن لا علاقة لهم بالنظام الحاكم، وليسوا من أعضاء الهيئة الحاكمة في ذلك البلد.

ثانيهما: الأشخاص والهيئات الذين هم جزء من الهيئة الحاكمة من قبيل أعضاء السفارات والبعثات العسكرية، وما إلى ذلك.

فأما من كان من الأجانب غير المسلمين من القسم الأول: فلا يجوز الاعتداء عليهم بالقتل والجرح والأسر ومصادرة الأموال، بل يجب الوفاء لهم بالعهد والأمان بحفظهم وحمايتهم، ولا وجه لتحملهم وزر سياسات حكومتهم.

وهؤلاء من أظهر مصاديق الاستثناء في الآية الكريمة: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة:٤).

وأما من كان منهم من القسم الثاني، واقتضت مصلحة المسلمين قطع العلاقة مع حكومتهم ومخاصمتها، فإن غاية ما يقتضيه ذلك هو إخراجهم من البلد المسلم بالطرق والأساليب المتعارف عليها في المجتمع الدولي، وفي المهل المتعارفة حسب المعاهدات والمواثيق الدولية التي تنظم العلاقات بين الدول، والمسلمون في عصرنا ملزمون بمراعاتها من جهة التزامهم بالمواثيق المذكورة وعلاقتهم بمنظمة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى.

ولا يوجد أي مبرر شرعي لمعاملة هؤلاء الأجانب بالقتل والجرح والأسر والضرب، وإتلاف الأموال ومصادرتها، في حالة عدم ارتكابهم لجرائم تقتضي معاقبتهم. وفي هذه الحالة فإن مرجعهم هو القضاء لمحاكمتهم والحكم عليهم، من دون فرق بين أن تكون سياسة حكومتهم ملائمة أو غير ملائمة لمصالح المسلمين.

والخلاصة من جميع ما تقدم أن هؤلاء الأجانب – بقسميهم- ليسوا موضوعاً للجهاد، بالمعنى المصطلح، فيكون استعمال العنف المسلح ضدهم باعتباره جهاداً، أمراً غير مشروع.

ثم إن تقدير الموقف في هذا الحالة، والحكم بأن سياسة هذه الدولة الأجنبية أو تلك مخالفة لمصلحة المسلمين، وتقدير كيفية الرد على هذه السياسة، وأنه يكون بقطع العلاقات أو المحاربة أو غيرهما، لا يكفي فيه تقدير وفهم شخص واحد ورأيه، ولا مجموعة من الأشخاص ذات هوًى واحد ورؤية واحدة، ولا حزب من الأحزاب بمفرده، بل لا بد لذلك من (شورى) يشترك فيها أشخاص وهيئات متنوعون في رؤيتهم السياسية، من ذوي الشأن والأهلية من المسلمين في البلاد التي يقوم بعضهم فيها بالعنف المسلح ضد هؤلاء الأجانب.

ويدخل في تشخيص الموقف المناسب من الناحية الشرعية والسياسية جميع الآثار السلبية التي يمكن أن تنشأ من هذا العمل بالنسبة إلى المسلمين بوجه عام (على مستوى الأمة والمنطقة) وعلى مسلمي البلد الذي يبحث وضع الأجانب فيه.

وأما استعمال العنف المسلح ضد الأجانب في بلادهم، من قبيل قتل الأشخاص وأعمال التفجير والنسف ضد المحلات التجارية والمرافق العامة وخطف الطائرات والسفن وما إلى ذلك، فإن الأمر فيه كما تقدم، حيث إنه لا ينطبق عليه عنوان الجهاد، بالمعنى المصطلح، فلا يكون مشروعاً بهذا العنوان.

وقد نص الفقهاء – استناداً إلى الأدلة الخاصة والقواعد العامة – على أن المسلم إذا دخل إلى بلاد أهل الحرب بعهد وأمان منهم (وهما، في عصرنا، ما تعارف بين الدول من سمات الدخول، Visa، والإقامة التي تعطيها الحكومات للوافدين إلى بلادهما من البلاد الأخرى) فيجب عليه أن يكون ملتزماً ووفياً بالعهد والأمان لهم في بلادهم، ولا يجوز له أن يغدر بهم بسرقة أموالهم وإتلافها، فضلاً عن قتلهم أو جرحهم. وإذا أتلف لهم مالاً أو نفساً فهو ضامن لما أتلفه، ويجب عليه أداء الحق إلى أهله.

وأما القيام بأعمال العنف المسلح ضد محلات الخمور والمقامرة وسائر أماكن ومجالس اللهو المحرم والأعمال المحرمة، بنحو يسبب إتلاف الأموال والممتلكات، وقد يسبب القتل والجرح لممارسي الأعمال المحرمة أو لغيرهم ممن لا علاقة لهم بهذه المنكرات من سائر الناس، فلا شك ولا ريب من الناحية الفقهية في عدم انطباق عنوان (الجهاد) بالمعنى المصطلح عليه، ومن ثم فإن استعمال العنف المسلح باعتباره جهاداً لقمع هذه المنكرات خطأ في التطبيق.

فظهر من جميع ما تقدم أن استعمال العنف السياسي المسلح باعتباره (جهاداً) بالمعنى المصطلح في داخل البلاد الإسلامية، وخارجها في جميع الموارد، غير مشروع[1].

(١) بتصرف: الشيخ محمد شمس الدين، العنف المسلح في الإسلام، ص٤٦ وما بعدها.

دور مسلمي الغرب في الشهادة على الناس

الدكتور عبد المجيد عمر النجار(*)

كانت نازلة سبتمبر إحدى أكبر الأسباب التي أجّجت ذلك القلق في وضع الوجود الإسلامي بالغرب، ونحسب أنّ العلاج الناجع لهذا الوضع لا يكون إلاّ بأن يكون لهذا الوجود أفق حضاري بعيد المدى، يتجاوز به الأحداث اليومية والنوازل الطارئة، وينخرط به في المجتمع الغربي الأكبر على أساس شراكة حضارية.

تمهيد:

ظلّ الوجود الإسلامي في الغرب يتعرّض إلى مشاكل متعدّدة، ناشئة في مجملها عن التوجّس الذي يُقابَل به من طرف أهل الغرب الذين حلّ في ديارهم، وذلك بالرغم من أنّ هذا الوجود كان في مبادئه وفي كثير من أحواله باستقدام منهم لضرورات اقتصادية في الغالب. وكلّما توسّع هذا الوجود وتمدّد قابله ذلك التوجّس بتوسّع

(*) مدير مركز البحوث والدراسات، المعهد الأوروبي للدراسات الإنسانية، باريس.. (فرنسا).

وتمـــدّد أيضـــاً، واســـتُدعيت لتأجـــيجه مخزونات تاريخية من العلاقة بين المسلمين والأوروبـــيين فـــيما شهدته من أزمات انتهت إلى دورات من الصراعات والحروب ظلّـــت غالـــبة في المخيال الجمعي على ما كان في تلك العلاقات أيضاً من تواصل حضـــاري بـــين الطرفين استفاد منه كلّ منهما فوائد جليلة. كما كان يؤجّج ذلك التوجّس أيضاً ما كان يصدر عن بعض المسلمين المقيمين بالغرب من تصرّفات مسيئة جرّاء أســـباب من جهل وتدنّ في المســـتوى الثقافي والحضـــاري، وهي تصرّفات حُمّلت أيضاً في كثير من الأحيان أكثر ممّا تتحمّل في مضمار تعميم الأحكام واتّخاذ المواقف المضادّة.

ولّما حدثت أحداث ١١ سبتمبر زادت مشاكل المسلمين بالغرب استفحالاً جرّاء استشـــراء التوجّس الذي كان في نفوس الغربيين إزاءهم، كمّاً وكيفاً، إذ قد قامت تلك الأحـــداث مقام البرهان في تلك النفوس على أنّ ذلك التوجّس النفسي أصبح له في نظرهم مصداق عمـــليّ بيّن يدلّ على ما يمثّله الوجـــود الإســـلامي بالغرب مـــن خطر عليهم، بل على النســـق الحضاري الذي ارتضـــوه منهجاً لحياتـــهم[1]، وانـــتهى الأمر بالكثيرين إلى الانتقال من اســـتشعار الخطر في الوجود الإســـلامي متمـــثّلاً في المســـلمين أفراداً وجمـــاعة إلى اســـتشعار الخطر فيه متمثّلاً في الإسلام نفسه ديناً، وهو ما زاد الأمر تعقيداً ضاعفت منه أضعـــافاً الحمـــلات الإعـــلامية التي تديرها جهـــات مغرضة تغترف من حقد دفين، أو من مخزون عنصري، أو من حسابات سياســـية ضيّقة، وهي في كلّ ذلك تحرّف الحقـــائق في ذاتها، أو تنحرف

(١) كثـــيراً ما كان رئيس الولايات المتّحدة يردّد في خطبه أنّ هذه الأحداث المقصود منها ضرب النمط الحضاري الذي يعيشه الغرب بأبعاده المتعدّدة.

بها عن نصابها، لتنتهي بالوجود الإسلامي بالغرب إلى وضع بلغ فيه من الحرج ما لم يبلغه من قبل.

أسفر الوضع إذن فيما يتعلّق بالوجود الإسلامي في الغرب، بعد أحداث سبتمبر، إلى أن أصبح هذا الوجود في عيون الكثير من الغربيين في قفص الاتّهام، مسلمين وإسلاماً على حدّ سواء: ديناً معادياً للحضارة الغربية في قيمها الأساسية، قائماً على العنف في أسسه العقدية، عقيماً عن أن ينتج حضارة علمية متقدّمة، ومسلمين متخلّفين حضارياً، وكثير منهم غير قابل للتحضّر أصلاً، وعدد كبير منهم إن لم يكونوا إرهابيين بالفعل فإنّهم إرهابيّون بالقوّة.

إنّ هذه الصورة لئن لم تكن صورة معلنة على هذا النحو من الوضوح من قِبل عامّة المجتمع الغربي، إلاّ أنّها أصبحت صورة يعلنها بعض الأفراد ويضمرها كثير آخرون، وإن كان يوجد أيضاً من يتبرّأ منها صدقاً أو نفاقاً.

وهذا الوضع الجديد الذي انتهى إليه الوجود الإسلامي بالغرب من شأنه أن يزيد من ثقل المسؤولية الملقاة على عاتق المسلمين المنخرطين فيه، وأن يستدعي المزيد من الجهد الفكري والعملي المطلوب منهم كي يكون لهم دور إيجابي يتجاوز تصحيح الصورة عنهم، التي زادتها أحداث سبتمبر تشويهاً، إلى أن يكون لوجودهم بالغرب مشاركة حضارية حقيقية يتفاعلون بها مع المجتمع الذي يعيشون فيه، تفاعل أخذ وعطاء، ونفع وانتفاع، ليكونوا إذن قد قاموا ببعض من الدور المطلوب منهم ديناً، وهو دور الشهادة على الناس، ذلك الدور الذي لا يمكن أن يتحقّق بالتمنّي ولا بالعفوية والتلقائيّة، وإنّما يتوقّف تحقّقه على أقدار كبيرة من الوعي ومن الفكر ومن العمل.

فكـــيف يمكـــن أن يقوم المسلمون بالغرب بهذه الشهادة، في ظلّ هذه الظروف الصعبة، التي تكتنف وجودهم به؟

إنّه لســؤال كبير ليـــس الجـــواب عليه بالســـهل البســـيط، ولكن لا بدّ من المحاولـــة، فمســـافة الألف خطوة تبدأ بالخطـــوة الأولى، علماً بأنّ هذا الأمر يشغل مـــنذ بعض الزمن كثيراً من المهـــتمّين بالوجـــود الإســـلامي بالغرب، والعامـــلين مـــن أجـــل ترشـــيده، أفراداً وهيئات، وقد حصل فيه قسط من الأدبيات المكتوبة والأعمال المنجزَة.

وفـــيما يلي محاولة تنضاف إلى تلك المحاولات، وجهد ينضاف إلى تلك الجهود، وذلك بالإجابة عن أسئلة نراها أساسية في شهادة المسلمين بالغرب على الناس، وهي الأسئلة الأساسية التالية:

ما هي الشهادة المطلوب من الوجود الإسلامي بالغرب أداؤها كهدف له؟

وماذا تقتضي تلك الشهادة من فهم للواقع الذي تؤدّى فيه؟

وماذا تقتضي هذه الشهادة من مضمون؟

وماذا تقتضي من منهج في الخطاب يكون به الأداء؟

الشهادة على الناس هدفاً

إنّ الوجـــود الإســـلامي المشهود حالياً بالغرب حصل بالتنامي على مدى زمني مـــتطاول قد يكون تجاوز الآن قرناً من الزمن، وفي العشريات الأخيرة شهد تسارعاً كـــبيراً انتهى به كمّاً إلى ما يفوق خمسين مليوناً من الأفراد بأوروبا وحدها، شرقيّها وغربـــيّها، وانتهى به كيفاً إلى أن أصبح من حيث الأفراد يضمّ شرائح متنوّعة تجمع بـــين العمّـــال والمثقّفين والسياسيين والعقول المهاجرة، إضافة إلى المسلمين من أهل الغـــرب الأصـــليين، وأصبح من حيث النوع وجوداً ينـــزع إلى الاستقرار والثبات والمواطنة بعدما كان لفترات طويلة يعتبر نفسه وجوداً ظرفياً طارئاً لا يلبث أن يعود المســـلمون فيه إلى أوطانهم الأصلية بعدما يقضون أغراضهم التي هاجروا من أجلها، تحصيلاً اقتصادياً أو علمياً أو أمنياً.

وبهذه الطبيعة العفوية التلقائية التي نشأ بها الوجود الإسلامي بالغرب وتطوّر فإنّه لم يكـــن له أهـــداف مرسومة، وغايات محدّدة، كوجود إسلاميّ عامّ، تتجاوز تلك الأهداف والغايات المحدودة التي ابتغاها الأفراد من هجرتهم إلى الغرب، وإقامتهم به، وذلـــك على سبيل المثال كأن يكون وجوداً قاصداً إلى نشر الإسلام بالغرب، أو مدّ الجســـور الحضـــارية بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، أو غير ذلك من الأهداف الكبرى التي تتغيّاها بعض الهجرات ذات الطابع الجماعي من دائرة جغرافية ثقافية إلى دائـــرة أخرى، والتي تغيّاها على سبيل المثال الوجود الإسلامي الذي حلّ بأوروبا في القرن الثامن الميلادي واستقرّ بالأندلس قروناً، فقد كان وجوداً مبنيًّا منذ أوّل وهلة عـــلى غاية كبرى هي تبليغ الإسلام إلى أهل الغرب الأوروبيين، وإقامة حضارة على أساسه في الربوع التي حلّ بها.

والجهود التي بذلت من قبل مسلمي الغرب لتفعيل وجودهم الإسلامي وترشيده ظلّت منذ بداياتها وإلى وقت قريب لا تضع لها هدفاً إلاّ غايات قريبة، تتمثّل بالأخصّ في حفاظ المسلمين على هويتهم الدينية، بحفظ معتقدهم وإقامة شعائرهم التعبّديّة والتحلّي بأخلاقهم الإسلامية، وفي عصمتهم من الانحلال في المجتمع الذي حلّوا به والذوبان فيه بما يحمل من ثقافة مغايرة وقيم مناقضة؛ ولذلك لم تكن المناشط الإسلامية طيلة عقود تتجاوز ما يؤدّي إلى هذه الغاية، لا على مستوى الطرح النظري ولا على مستوى المنجزات العملية، وانحصر الأمر أو كاد في إقامة المصلّيات والنوادي الاجتماعية، وفي خطاب وعظي يُوجّه للراشدين من المسلمين، وخطاب تعليمي ديني بسيط يُوجّه للناشئة، تعريفاً لهم بالمبادئ الدينية الأساسية، معتقداً وسلوكاً، تماشياً مع الغاية المرسومة لحفظ الهويّة الدينية للمهاجرين.

ولكن لّما تبيّن أنّ طبيعة الوجود الإسلامي بالغرب بدأت تتغيّر من الظرفية إلى الدوام، ومن العرضية إلى المواطنة المستقرّة، وأنّ حجم هذا الوجود بدأ يتوسّع توسّعاً كبيراً، في كمّه وكيفه، نشأ شعور بأنّ أهدافه هي أيضاً ينبغي تبعاً لذلك أن تتغيّر، فتنتقل من أهداف جزئيّة صغيرة إلى أهداف أعلى وأشمل وأكبر، وهو ما يقتضي أيضاً أن توجّه الجهود المبذولة لترقيته وترشيده ليتلاءم مع تلك الأهداف الجديدة، وأن تكيّف في كمّها وكيفها بحسب ما يقتضيه التطوّر الذي طرأ عليها.

إنّ هذا الشعور بوجوب تطوير الأهداف بدأ يخالج المهتمّين بهذا الشأن من العاملين في الساحة الإسلامية بالغرب منذ بعض السنوات، وإذا كانت بعض الخطوط فيه بدأت تستبين لأولئك العاملين فبدأت تتغيّر على أساس ذلك الآراء والأعمال، إلاّ أنّ الصورة المتكاملة لهذه الأهداف بيّنة جليّة يبدو أنّها ما تزال غير

مستبينة بالقدر الكافي الذي يستدعي الهمم للانخراط في المناشط المناسبة لها، المتناسبة مـــع طبيعـــتها الجديـــدة، فما عسى أن يكون الهدف الأعلى الذي ينبغي أن يتغيّاه الوجـــود الإسلامي بالغرب في مرحلته الجديدة لتترشّد على أساسه المناشط، ويعمل من أجل تحقيقه العاملون؟

بمـــا أنّ البحث يتعلّق بوجود إسلامي فإنّ ذلك يقتضي بداهة أن تكون الصفة الإسلامية هي العامل الأساسي المحدّد لطبيعة الهدف المبتغى من ذلك الوجود، وذلك بمقتضـــى أنّ أيّما وضع يكون عليه المسلم أو جماعة من المسلمين إلاّ ينبغي أن يكون محكوماً بتوجيه إسلامي وفقاً لما تتّصف به تعاليم الإسلام من خاصّيّة الشمولية، التي بها يدخل كلّ وضع يجد المسلم نفسه فيه تحت حكم التوجيه الديني.

وفي هـــذا الصدد، فإنّنا نجد مبدأ من المبادئ الإسلامية الأساسية التي تحدّد مهمّة المجموعـــات الإسلامية أينما كانوا وفي أيّ وضع وجدوا، وهو مبدأ يمكن أن يكون محـــدّداً للهدف الأعلى من الوجود الإسلامي بالغرب الذي نحن بصدده، وهو وإن كان يتّصف بقدر كبير من العمومية إلاّ أنّه يمكن تحديده بما يتناسب مع هذا الوضع الـــذي علـــيه المسلمون بالغرب، وتكييفه بحسب ما تقتضيه طبيعته، ذلكم هو مبدأ «**الشـــهادة على الناس**» الذي يتضمّنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

وإذا كـــان تعبير الشهادة على الناس تعبيراً غنيّاً جدّاً بجملة من المعاني، فإنّ المعنى المباشر الأبرز من بين تلك المعاني هو معنى «**البيان**» الذي يتّجه به المسلمون إلى سائر الـــناس عـــلى ســـبيل التبليغ، لما يتضمّنه دينهم من قيم روحية ومادّية، عسى أن يدركـــوا ما فيه من الخير، ويقتنعوا به، فيعتنقوه ديناً، أو يستفيدوا منه بأيّ وجه من

وجـــوه الاستفادة إن لم يقتنعوا به ديناً، ويتّصل بهذا المعنى على سبيل الضرورة جملة من المعاني الأخرى التي يتوقّف هو في تحقّقه عليها، فيكون إذن متضمّناً لها.

ومن تلك المعاني التي تتضمّنها الشهادة على الناس ما يقابل معنى البيان التبليغي المبتَغى به عرض الخير على الناس للانتفاع به، من **تبيّن ما عند الناس** أيضاً من خير لأخذه والانتفاع به، إذ إذا كان المسلم مطالباً ديناً بأن يشهد على الناس بتبليغ الخير لهم فإنّه مطالَب ديناً أيضاً بأن يتبيّن ما عند الناس من حكمة ليأخذها وينتفع بها وفقاً لقوله ﷺ: «**الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**»[1].

ومـــنها مـــا يتوقّف عليه تبليغ الخير للناس وأخذه منهم من علم بهذا الخير المبلّغ والمـــأخوذ علماً دقيقاً، والعلم بواقع هؤلاء الناس من جهة ما يعين على التبليغ إليهم والأخـــذ مـــنهم، فكلّ تلك المعاني تقتضيها الشهادة في مظهرها الأعظم الذي نحن بصدده، كما تقتضيها في مظهرها الأصغر حينما يشهد الناس بعضهم على بعض في القضاء الذي يفصل فيما يشجر بينهم من الخصومات[2].

وإذا مـــا ســـعينا بهذا المبدأ العامّ مبدأ «**الشهادة على الناس**» لنطبّقه على حال الوجـــود الإســـلامي بالغـــرب، ونصوغ منه هدفاً لهذا الوجود تستهدي به أعمال الترشـــيد، فإنّه يمكن القول: إنّ الوجود الإسلامي بالغرب في طوره الجديد ينبغي أن يعمل من أجل أن يكون شاهداً على أهل الغرب بتقديم ما يتضمّنه الدين الذي يدين بـــه مـــن خير متمثّل في القيم العليا الشارحة للوجود، والمنظّمة للحياة، تقديماً بيانياً وعملـــياً، وبالاســـتفادة منهم لما حقّقوه هم من كسوب حضارية في مجال الإدارة

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) راجـــع بحثنا بعنوان: مصطلح «الشهادة على الناس» في القرآن الكريم وأبعاده الحضارية، منشور ضمن كتاب: ندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٦م.

والعلوم على وجه الخصوص، وذلك بالانخراط في المجتمع الغربي انخراط تفاعل تُتداول فيه المنافع بالأخذ والعطاء، بالإفادة والاستفادة، وذلك على نحو يمكن أن ينتهي إلى شراكة حضارية يسهم فيها الوجود الإسلامي بالغرب في مسيرة الحضارة الإنسانية بالتنمية والترشيد ونشر السلام والوئام في سبيل ما فيه الخير للإنسانية بصفة عامّة، وللعالمين الإسلامي والغربي بصفة خاصّة، وهو ما يمكن أن يكون هدفاً أعلى للوجود الإسلامي بالغرب تُسخّر كلّ الجهود من أجل تحقيقه. وهو هدف يرتكز كما أشرنا آنفاً على ركيزتين أساسيتين هما بالتعبير الإسلامي:

البيان التبليغي في طرف العطاء من معادلة الشراكة الحضارية، واكتساب الحكمة في طرف الأخذ من تلك المعادلة.

١- شهادة البيان:

لكي يكون للدور الذي حدّدناه للوجود الإسلامي بالغرب مصداقية، ينبغي أن نثبت صحّة طرفي المعادلة التي يتكوّن منها، وهو أنّ هذا الوجود يملك عطاءً نافعاً يمكن أن يدخل به في الشراكة الحضارية مع أهل الغرب، وأن نثبت أيضاً أنّ هؤلاء في حاجة إلى هذا العطاء في مسيرتهم الحضارية، وإنّما نطلب ذلك لأنّه قد استقرّ في كثير من الأذهان أنّ أهل الغرب هم الذين يقودون مسيرة الحضارة الإنسانية، وأنّ المسلمين بصفة عامّة يحتلّون المراكز الأخيرة في هذه المسيرة، فكيف لهم إذن أن يكونوا شركاء يقدّمون ما فيه نفع حضاري يحتاج إليه الروّاد الذين صنعوا هذه الحضارة القائمة؟

وفي الجواب الجملي عن هذا السؤال نقول: إنّ الدين الذي يقوم عليه الوجود الإسلامي بالغرب قد ثبت أنّه أحدث في الماضي حضارة مشهودة هي التي أفضت إلى الحضارة القائمة الآن، والمبادئ الأساسية والقيم العليا الروحية والمادّية التي

أحدث بـها هذا الدين تلك الحضارة ما زالت قائمة بذاتها لم ينلها تبديل أو تغيير، و لم تفقـد من قيمتها الذاتية شيئاً، وهي بالتالي قادرة إذا ما توفّرت لها شروط الفعل على أن تكون فاعلة مشاركة في مسيرة الحضارة الإنسانية بالتنمية والترشيد.

وأمّا المسلمون الذين يحملون هذا الدين، والذين يحتلّون في سلّم التحضّر راهناً مرتبة متخلّفة، فإنّ المسافة الحضارية التي تفصلهم عن روّاد الحضارة من أهل الغرب الآن ليست بأوسع من تلك المسافة التي كانت تفصل المسلمين الذين حملوا هذا الدين أوّل مرّة عن روّاد الحضارة آنذاك، ومع ذلك فقد استطاعوا أن يطوّروا بدينهم الحضارة الإنسانية لتبلغ ما بلغته على أيديهم من تقدّم مشهود، فلا يبعد على مسلمي اليوم من حيث المبدأ أن تكون لهم بإسلامهم مشاركة فاعلة في مسيرة التحضّر الإنساني يشهدون بها على الناس، كما شهد أسلافهم، إذا صدق الوعي وصحّ العزم.

وفي الجواب التفصيلي عن السؤال الآنف الورود تقول: إنّ مسلمي الغرب يمكنهم الانخراط في الشراكة الحضارية مع المجتمعات التي يعيشون فيها ليقدّموا في تلك الشراكة منظومة من المبادئ ذات القيمة الذاتية الباقية كما أثبتها التاريخ ويثبتها منطق العقل، وذلك على سبيل البيان النظري وعلى سبيل الأنموذجية العملية على حدّ سواء. كما يمكن أن يقدّموا أيضاً زخماً إنجازياً لما يشتركون فيه من القيم الإنسانية العامّة مع أهل الغرب، وذلك بالفكر والساعد معاً.

ومـا يمكن أن يقدّمه مسلمو الغرب في هذه الشراكة من هذا وذاك يحتاج إليه المجتمع الغربي أشدّ الحاجة، فهو إذن عطاء نافع باعتبار تلك الحاجة إليه وليس مجرّد إضافة سلبية متطفّلة ذات طابع مظهري فحسب؛ وذلك لأنّ المجتمع الغربي على الرغم من تطوّره الحضاري المادّي المشهود فهو يعاني من جملة من المشاكل يبلغ بعضها من الحدّة ما يصل به إلى درجة الأزمة، وهو ما كان مناط انشغال عميق من

قبل العديد من المفكّرين والفلاسفة الغربيين أنفسهم. ومن تلك الأزمات على سبيل المثال الأزمة الروحية، المتمثّلة ثقافياً في سيطرة المفاهيم المادّية على العقول والمشاعر، المنعكسة آثارها عملياً بصفة بيّنة على الروابط الاجتماعية وخاصّة منها الروابط الأسرية، وهو ما أصبحت به مؤسّسة الأسرة ذاتها تواجه خطر التلاشي والانحلال.

ومن تلك الأزمات ما هو ذو طابع عامّ، وذلك مثل المأزق الذي أضحت تواجهه الحداثة فيما بشّرت به من السعادة، أمناً واستقراراً وعدلاً ورخاء، والتي ظهرت آثارها بيّنة أيضاً فيما يمور به العالم من اضطراب منذر بخراب كبير، وفيما أصبح يغشى أهل الغرب أنفسهم من مظاهر القلق بادية في تفشّي ظواهر الإجرام والانتحار وتعاطي المخدّرات[1].

ومنها الأزمة الديموغرافية، المتمثّلة في التهرّم السكّاني لأهل الغرب بصفة عامّة، وفي التناقص العددي لمجموع الأفراد، ممّا أصبح يهدّد بجدّية القوّة الإنتاجية لكثير من المجتمعات الغربية، وذلك لتزايد أعداد الأفراد من غير المنتجين وتناقص أعداد المنتجين.

ومنها الأزمة البيئيّة، التي أصبحت تهدّد الحياة بأخطار حقيقية مرعبة[2].

إنّ كلّ هذه الأزمات يمكن أن تسهم منظومة القيم الإسلامية في معالجتها، ويمكن بالتالي لمسلمي الغرب أن يسهموا بها في تلك المعالجة، فهذه المنظومة تشتمل على معادلة دقيقة بين قيم روحية وقيم مادّية كفيلة بأن تقوّم الانخرام الحاصل في هذه

---

(١) راجع على سبيل المثال: ألبرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي (بيروت: ط دار الأندلس، ١٩٨٣م)؛ وآلان تورين، نقد الحداثة، ترجمة: أنور مغيث، نشر المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧م .

(٢) راجع في الأزمة البيئية: آل قور، الأرض في الميزان، ترجمة: عواطف عبد المجيد (القاهرة: نشر مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٤م).

المعادلة لدى أهل الغرب، فتحافظ على المتاع المادّي ولكنّها تشبع الأشواق الروحية الفطرية في الإنسان ممّا ينعكس إيجاباً على العلاقات الاجتماعية والأسرية، فتعود إلى وضـعها الطبـيعي مـن الدفء والحميمية ممّا من شأنه أن يشيع في الأنفس الأمن والأمـل. وفي الإسلام من قيم العدل والمساواة وحقوق الإنسان ما يمكن أن يسهم بأبعـاده الإنسـانية العامّة في معالجة الانخرام الحاصل في هذا الشأن جرّاء العنصرية والاستعلاء واستشعار التفوّق وما شابه ذلك.

وفي القـيم الإسـلامية من الجذور العقدية والثقافية في النظر إلى البيئة الكونية والـتعامل معها ما هو كفيل بالإسهام في معالجة الأزمة البيئيّة[1]، خاصّة وأنّ أصواتاً كثيرة بدأت ترتفع مطالبة بمعالجة هذه الأزمة معالجة ثقافية روحية[2]. والمسلمون في الغـرب، بمـا يحملون من قيم عقدية ثقافية في مجال الأسرة والنموّ الديموغرافي، فإنه لديهـم مـا يمكن أن يسهموا به في تشبيب المجتمع الغربي، والمحافظة فيه على المعدّل الطبـيعي للقوى المنتجة الذي يضمن تواصل النسـق التنموي دون انتكاس يسبّبه التهرّم السكّاني كما هو حاصل الآن في العديد من البلاد الغربية.

ومـن جملة ذلك يتبيّن أنّ الوجود الإسلامي بالغرب يملك من المقدّرات القيمية ومن المقدّرات الديموغرافية ما يمكّنه من أن يكون له عطاء للمجتمع الذي يعيش فيه، يسـهم به في مسيرة نموّه الحضاري، وهو عطاء يحتاج إليه ذلك المجتمع بصفة أكيدة ولـيس عطاءً متطفّلاً، ولكنّ الأمر يبقى موقوفاً على حسن الأداء لذلك العطاء من قِبل المسلمين، والاستعداد للقبول من قِبل الغربيين، وهو ما سنبحثه لاحقاً.

(١) راجع كتابنا: قضايا البيئة من منظور إسلامي (الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٩م).
(٢) هذا ما دعا إليه آل قور في كتابه الآنف الذكر: الأرض في الميزان.

٢ - شهادة الإفادة:

إذا كان ما يمكن أن يقدّمه المسلمون في الغرب من عطاء يسهمون به في الشراكة الحضارية أمراً قد يخفى على «البعض» فإنّ ما يمكن أن يستفيده هؤلاء من أهل الغرب قد لا يكون خافياً على أحد سوى نفر قليل هم أولئك الذين رأوا في الغرب ظلاماً مطبقاً لا خير فيه، وهو رأي بالإضافة إلى كون القائلين به هم في حكم الشواذّ، فإنّه لا يؤبه به، سواء بميزان الدين أو بميزان العقل والواقع.

إنّ الحكمة التي يمكن أن يستفيدها المسلمون في الغرب من أهله، بالإضافة إلى أهمّيتها من حيث ما تعود به عليهم من نفع يفضي إلى ترقيتهم ذاتياً والرفع من كفاءتهم في العطاء الذي ينخرطون به في الشراكة الحضارية، فإنّها تكون أيضاً أحد العوامل المهمّة التي تجعل منهم جسراً بين العالمين الإسلامي والغربي، إذ هم وإن كانوا من مواطني الغرب أو من المقيمين فيه فإنّهم منخرطون ثقافياً وروحياً في الأمّة الإسلامية، وهذا وضع يمكّنهم من أن يكونوا جسر تواصل بين الطرفين تنتقل به المنافع من جهة إلى أخرى، وتتوطّد به علاقات الأخوّة الإنسانية، وتمتدّ به حبال التعاون، وتتصرّم به أسباب النزاع والصراع.

وليس ما على المسلمين بالغرب أن يستفيدوه هو فقط كما يبدو في الظاهر هذا الكسب العلمي التكنولوجي الذي هو العنوان الأكبر والأظهر للحضارة الغربية، وإنّما يستفيدون أيضاً بصفة أساسية ما يُعتبر هذا الكسب نتيجة من نتائجه، وهو هذه النظم الإدارية الفاعلة التي تسير عليها دواليب الحياة في مختلف وجوهها، وهذه المؤسّسيّة التي تشتغل بها كلّ مناشط المجتمع، بل عليهم أن يستفيدوا أيضاً قيماً عليا هي موجودة في دينهم ولكنّها غير فاعلة فيهم، وذلك من مثل الإتقان في الأعمال،

واســـتثمار الزمن على الوجه الأفضل من الاستثمار، فيتعلّمون إذن كيفية تفعيل هذه المبادئ والقيم في وجهها العملي وإن كانت هي من صميم ما يدينون به من دين في وجهها الإيماني.

والمسلمون في الغرب مؤهّلون لأن يقوموا بهذا الدور في الأخذ والعطاء للمنافع في أعلى درجاتها، إذ هم وإن كانوا في وضعهم الحالي يبدون في أغلبهم من محدودي الـــثقافة والتكوين العـــلمي والنضـــج الاجـــتماعي إلاّ أنّهـــم يتطوّرون سريعاً في هذه المجـــالات كلّها، ويكفي أن نعلم بصدد ذلك أنّ العقول الإســـلامية المهاجرة إلى الغـــرب هي اليوم تعـــدّ بمئات الآلاف، وهي عقـــول ذات كفـــاءة عالية في مجـــال العلـــوم والاخـــتراعات دخلت بـــها إلى نيل الجوائز العـــالمية مثل جـــائزة نوبـــل، ويمكـــن أن تكون هذه العقول هي رائدة المسلمين في القيام بهذا الدور من الشراكة الحضارية(1).

وفي ســـائر المسلمين من القابلية للاستجابة ما يجعلهم إذا ما استُنهضوا قادرين عـــلى مسايرة هذا الدور بطرفي معادلته والمضيّ فيه بفاعلية، أليس من مبادئ دينهم المطالـــبين اعتقاداً بتطبيقها البلاغ من جهة، والأخذ بالحكمة أنّى وجدوها من جهة أخرى؟

وأليسوا هم أحفاد أمّة شهدت على الناس بحضارة عظيمة، أعطت البشرية عطاء ثرّاً، وأخذت بحكمة الحضارات السابقة جميعاً، فاستوعبتها، وانتفعت بها، وشهدت بها على الناس أيضاً شهادة البيان بما بلّغت منها إليهم؟

---

(1) راجع بحثاً لنا بعنوان: «البعد الرسالي في هجرة العقول المسلمة إلى الغرب» ضمن سلسلة «كتاب الأمّة»، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، عدد: ٩٢، الدوحة، ٢٠٠٢م.

التفقّه في الواقع المشهود

إنّ المجال الذي يُطلب من المسلمين في الغرب أن يؤدّوا فيه دور الشراكة الحضارية الذي شرحناه آنفا هو بالأساس واقع العالم الغربي، وإن كان العالم كلّه أصبح اليوم متداخلاً لا تكاد تفرّق فيه بين حدود. ومن البدهي أنّ التفاعل مع أيّ واقع تفاعلاً إيجابياً مثمراً يستلزم أوّل ما يستلزم الفهم العميق لذلك الواقع في ظواهره وخفاياه، لتُبنى على أساس ذلك الفهم السبل الناجعة للتعامل، وهو ما يصدق في حقّ الواقع المادّي، فما بالك بالواقع الإنساني بصفة عامّة، وواقع أهل الحضارة الغربية بصفة خاصّة وقد بلغ من التعقيد والتشابك والالتباس درجة كبيرة جدّاً، إذ كلّما ارتقت حضارة الإنسان وتطوّرت تقدّمت أيضاً في تداخل خيوطها وتشابكها وتعقيدها.

وقد يدّعي كثير من المسلمين أنّهم فهموا هذا الغرب وفقهوا أبعاده، وذلك بسبب إقامة لهم فيه، أو قراءة عنه، أو متابعة لوقائعه وأحداثه، أو حتى لتخصّص علمي في مجال من مجالاته، ولكن سرعان ما يتبيّن أنّ فقههم بالواقع الغربي ليس إلاّ علماً ضعيفاً إن لم يكن مضطرباً مدخولاً؛ وذلك لأنّه في الغالب يقتصر في أفضل الأحوال على تقصّي الظواهر لا يتجاوزها إلى الخوافي البعيدة والقريبة، كما يقتصر على وصف الألوان البادية لا يتجاوزها إلى تحليل أطيافها المتركّبة منها، فتأتي الصورة إذن منقوصة من حيث يُظنّ أنّها متكاملة.

إنّ الواقع الحضاري الغربي اليوم في مظاهره جميعاً، سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، ليس إلاّ حصيلة لعوامل تفاعلت عبر أطوار زمانية قد تمتدّ في الماضي إلى آلاف من السنوات، وتلاقحت فيها ثقافات وحضارات وديانات قديمة وحديثة

لتنتهي كلّها إلى هذا الوضع الحضاري القائم، متداخلة فيه الألوان، متشابكة فيه الخيوط، ممتدّة فيه الجذور إلى الماضي البعيد، متلوّنة بعد ذلك بما هو لاحق من العصور، فكيف يكون إذن فقه حقيقي في هذا الواقع الحضاري إذا لم يمتدّ النظر فيه إلى ما وراء ظواهره من عوامل وأسباب وملابسات، وإذا لم يقع الرجوع بالنتائج إلى مقدّماتها مهما كانت ضاربة في القدم أو متخفّية في المذاهب والثقافات والأديان؟

إنّ هذا الواقع الحضاري الغربي مهما بدا وليداً للحداثة فإنّ له نسباً وطيداً بالحضارة اليونانية ومحرّكاتها الفلسفية، وبالحضارة الرومانية ومبادئها الكلّية العامّة، وباليهودية والمسيحية ديناً وحضارة، وذلك بالإضافة إلى عروق تمتدّ بها إلى حضارات الشرق وأديانه وإن تكن عروقاً رقيقة قد لا تُرى إلاّ بالتأمّل العميق، ألا ترى على سبيل المثال نسباً بين ما يتردّد في حضارة اليوم من مقولة الصراع مع الطبيعة وغزو الفضاء وما أفضى إليه ذلك من أزمة بيئيّة وبين ما كان فاشياً في حضارة الرومان وما تشهد به آثارهم من الصراع بين الإنسان والحيوان كمظهر من مظاهر الطبيعة، وما كان لذلك من قيمة في آدابهم وفنونهم العمرانية؟ ثمّ ألا ترى نسباً أيضاً بين ما تقوم عليه هذه الحضارة الغربية من مركزية للإنسان تُقاس بها حقائق الوجود بما كان عند اليونان من مذهب فلسفي يعتبر الإنسان مقياس كلّ شيء ومرجعية كلّ الحقائق[1]؟

إنّ الحدّ الأدنى من الفقه في الواقع الأوروبي لا يمكن - فيما نرى- أن يحصل للناظر فيه إلاّ إذا فقه أمرين أساسيين:

---

(١) راجع في ذلك: حسن حنفي، مقدّمة في علم الاستغراب (بيروت: ط المؤسسة الجامعية للدراسات، ١٩٩٢م) ص٨١ وما بعدها.

أوّلهما الآراء الفلسفية الكبرى التي تُعتبر مرجعية أساسية تحرّك هذا الواقع وتوجّهه وتشكّل بنيته، مهما كان مظهره العملي وأحداثه الجارية وتفاصيله الجزئية، بحيث يمكن أن يُرجِع الناظر ما هو ظاهر منها إلى ما هو مرجع محرّك.

وثانيهما، البناء الثقافي العقلي الذي تشكّل عليه العقل الأوروبي، والذي أصبح يشكّل منهجه في السعي إلى معرفة الحقيقة، ومقياسه في القبول والرّدّ لما يُعرض عليه منها.

ومن البيّن أنّ الفقه في هذين الأمرين يستلزم تتبّعاً متّئداً دقيقاً للمقدّمات التي أفضت إليهما، وقد تكون تلك المقدّمات متشعّبة بعيدة الجذور كما أشرنا إليه آنفاً. ولّما كان لا يسمح لنا هذا المجال بذلك التتبّع فلا أقلّ من أن نشير تالياً بصفة سريعة إلى خلاصة لما نراه من ذينك الأمرين المشكّلين للواقع الحضاري الغربي الذي هو مسرح لشهادة مسلمي الغرب على الناس.

١ - التفقّه في الأفكار:

إنّ الأفكار الكبرى التي تنبني عليها الحضارة الغربية، وتحرّك هذه الحضارة وتوجّهها، لعلّها لا تتجاوز بضع أفكار كبرى، وإن كانت كلّ واحدة منها تتفرّع إلى فروع وتتفصّل إلى تفاصيل تسهم كلّها في الحراك الحضاري في جزئياته وتفاريعه، ولكن تظلّ تلك الأفكار الكبرى هي الأساس الأوّل للتأثير والتوجيه، حتى أنّ البناء الحضاريّ العامّ والأحداث اليومية الجارية تنطبع على حدّ سواء بطابعها وتتوجّه بتوجيهها.

وأوّل تلك الأفكار: تفسير الوجود على أنّه ذو بعد واحد هو البعد المادّي، متمثّلاً في عينيّة المادّة أو فيما تولّد عنها ونشأ منها، وأنّ ما سوى ذلك من غيب

ليس إلاّ مندرجاً ضمن الأوهام والأساطير. وينشأ من ذلك فكرة ثانية هي أنّ الإنسان هو مصدر الحقيقة وليس لها من مصدر خارج عنه، وعليه إذن أن يسعى إليها بذاته دون أن يترقّب شيئاً منها من خارجه، سواء تعلّق الأمر بالحقيقة الكونية أو تعلّق بالحقيقة الإنسانية الخاصّة بالمنهج الذي تجري عليه الحياة والقيم التي تحكمها وتوجّهها. وينشأ من هذا وذاك فكرة أنّ حياة الإنسان هي حياة ذات مرحلة واحدة تنتهي بالموت، فعليه إذن أن يغتنمها للرفاه والمتعة، وأن يجدّ بكلّ قواه العقلية والبدنية في أن يكتسب الوسائل التي توفّر له ذلك، إذ لو فاته الغنم في هذه الحياة الراهنة فقد فاته كلّ شيء.

وفكرة التغيّر المطلق هي إحدى الأفكار الأساسية المحرّكة لحضارة الغرب، فما من شيء يتّصف بالثبات المطلق، سواء تعلّق الأمر بالقيم والمبادئ، أو بالنظم والمناهج، أو بطبائع الموجودات، فهي في وجهها المادّي متطوّرة على الدوام كما ذهب إلى ذلك «دارون» وأتباعه، وهي في وجهها الإنساني ماهية يصنعها الإنسان نفسه حسب مشيئته كما انتهى إليه الوجوديون. ويتبع ذلك كلّه فكرة أنّ المنفعة هي التي ينبغي أن تقود الحياة فكراً وسلوكاً، فأيّما فكرة من الأفكار أو موقف من المواقف أو تصرّف من التصرّفات يجرّ للإنسان منفعة فهو الحقيقة التي ينبغي أن يتبنّاها الفكر ويجري عليها السلوك.

وحتى يعيش المجتمع في أمن وسلام، نشأت فكرة التوافق الاجتماعي الذي يخضع فيه جميع الناس لما يستقرّ عليه رأي أغلبيتهم من نظم وتراتيب، وتترك فيه الحرّية للأفراد مطلقة لا تقيّدها إلاّ الحدود التي ترسمها تلك الأغلبية، وذلك في مقابل أن تتحقّق لهم حقوق مادّية ومعنوية تكفل لهم الحياة الكريمة.

ولا شك أنّ الاقتصار على هذه الجملة من الأفكار في تحديد المرجعية الفلسفية لهذه الحضارة المعقّدة شديد التعقيد ينطوي على قدر من المجازفة، إلاّ أنّ ما قلناه يندرج ضمن الاختصار والتقريب كما يقتضيه المقام، وإلاّ فإنّه ليست هذه الأفكار هي الأفكار الوحيدة المتداولة في فلسفة الحضارة الغربية، بل إنّ أفكاراً أخرى كثيرة وكبيرة تُتداول أيضاً في تلك الفلسفة بشكل واسع وعميق، ومنها ما هو مخالف لها أو لبعضها إلى حدّ التناقض، ولكن مهما يكن لتلك الأفكار من تداول فإنّ التأثير الأكبر في المجرى الحضاري العامّ إنّما هو لهذه الأفكار الأساسية الكبرى التي ذكرناها، وتبقى سائر الأفكار الأخرى المخالفة لها ذات تأثير ضعيف، سواء في مجال الفكر أو في مجال السلوك، وإن كان النقد لبعض هذه الأفكار قد بدأ يتصاعد شديداً منذ بعض الزمن في الفلسفة الغربية، ولكنّه لم يبلغ بعد مرحلة أن يكون له تأثير تغييري فيها بحيث يكون ملحوظاً في وجهة مسارها العامّ.

٢ - التفقّه في منهجية الفكر:

وإذا كان بين الأفكار التي تستقرّ عليها الأمم وبين المنهج الفكري الذي تبنى عليه عقولهم جدلية تبادل يتأثّر فيها كلّ طرف بالآخر، فإنّ أهل الحضارة الغربية قد انتهت بهم مسيرة حضارتهم إلى عقلية ذات بناء خاصّ هو الذي تولّدت عنه هذه الحضارة، أو تولّدت هي عنه.

وبالخصائص المنهجية لهذه العقلية، أصبح أهل الغرب يفكّرون في مساعيهم إلى معرفة الحقائق، وإلى حلّ المشاكل التي تعترض حياتهم؛ وبتلك الخصائص أيضاً أصبحوا يتعاملون مع الآخرين من ذوي الثقافات المغايرة، وعلى أساسها تتحدّد مواقفهم من تصرّفات أولئك الآخرين وآرائهم قبولاً وردّاً.

ولعلّ من أهم تلك الخصائص المنهجية التي تنبني عليها العقلية الغربية اليوم أنّها **عقلية واقعية**، وذلك على معنى أنّها تنطلق في البحث عن الحقيقة من استقراء الواقع متمثّلاً في مظهره المادّي أو في مظهره الإنساني، فالمنطقية الصورية لم تعد لها سطوة على عقول أهل الغرب كما كان الأمر منذ بعض القرون، بلهَ كلّ ما له صلة بالخرافات والأساطير، وقد أفضت هذه الخاصّية إلى استحداث آليات منهجية كثيرة، وذلك مثل فنون التجربة، وطرائق الإحصاء، وأساليب التصنيف، وما إليها من الطرائق التي تتّخذ من الواقع منطلقاً أساسياً في البحث عن الحقيقة.

ومن تلك الخصائص **خاصّية النفعية**، وذلك على معنى أنّ العقل الغربي أصبح اليوم يزن الأفكار النظرية ويقدّر المواقف العملية فيما إذا كانت حقّاً يؤخذ به أو باطلاً يُبتعد عنه بحسب ما تحقّقه تلك الأفكار والمواقف من منفعة مادّية أو معنوية، وأمّا المقاييس النظرية الثابتة المطلقة التي توزن بها الأفكار لمعرفة الحقيقة فلم يعد يأبه بها العقل الغربي كثيراً، وإذا كانت الفلسفة النفعية الذرائعية التي اعتبرت المنفعة هي المقياس الوحيد للحقيقة قد ظهرت في الولايات المتّحدة أواخر القرن التاسع عشر وانتشرت فيها وسيطرت عليها (1) فإنّ العقل الغربي بمجمله قد تأثّر بوجه أو بآخر بهذه المنهجية تأثّراً كبيراً، إن على الصعيد النظري أو على الصعيد العملي.

ومن تلك الخصائص **خاصّية العلمية**، ونعني بها أنّ العقل الغربي أصبح من أهمّ موازينه في القبول والردّ ميزان الحقائق العلمية الكونية، فقد اكتسبت هذه الحقائق بالتراكم صفة من اليقينية نصّبت منها ميزاناً معيارياً للأفكار، وأصبحت تُستخدم

---

(1) راجع في ذلك: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة (مصر: ط دار المعارف،١٩٦٩م) ص٤١٦ وما بعدها.

مقدّمات في الجدل من أجل استبانة الحقائق حتى في المجال الإنساني؛ ولذلك فقد اصطبغت الدراسات الإنسانية بصبغة المنهج العلمي على معنى العلم الكوني. وإذا كانت هذه المنهجية التي تستخدم حقائق الطبيعة المادية ميزاناً للعلم المطلق قد أصبحت تتعرّض منذ بعض الزمن لنقد شديد، وذلك باعتبار ما استبان من نسبية الحقائق الكونية في ذاتها، وباعتبار التباين بين الطبيعة المادية والطبيعة الإنسانية(١)، إلاّ أنّها ما زالت تُعدّ إلى حدّ الآن إحدى الخصائص المميّزة للعقلية الغربية في التفكير(٢).

وكما ذكرنا آنفاً في الاقتصار على ذكر جملة من الأفكار باعتبارها مكوّنة للمرجعية الحضارية الغربية، فإنّ اقتصارنا هنا على ذكر هذه الخصائص المشكّلة لمنهجية العقلية الغربية ينطوي على قدر من المجازفة أيضاً، إلاّ أنّنا بهذا الصدد لا نقصد إلاّ رسم صورة عامّة لهذه العقلية دون استقصاء وتفصيل، وذلك لما يقتضيه هذا المقام من الاختصار والإجمال، إذ القصد هو بيان أنّ المسلمين في الغرب في سبيل مسعاهم إلى تحقيق الهدف من الوجود الإسلامي بالغرب، كما شرحناه، عليهم أن يكون منطلقهم الأساس في ذلك التفقّهَ في الواقع، الذي هو مسرح شهادتهم على الناس، وما ذكرناه في ما ينبغي أن يُعلم في هذا الخصوص ليس إلاّ نماذج أوردناها على سبيل التمثيل وليس على سبيل الحصر، سواء في ما يتعلّق بالأفكار أو في ما يتعلّق بالمنهجية.

---

(١) من ذلك ما قام به: الكونت دي نوي في كتابه: مصير الإنسان، وألكسيس كاريل في كتابه: الإنسان ذلك المجهول.

(٢) يطلق على ذلك أحياناً مصطلح «العقلية الديكارتية»، باعتبار ما ادّعاه ديكارت في بناء المعرفة من انتهاج منهج يقوم على الانتقال من يقين إلى يقين فلا يداخله إذن شكّ بحال، حتى أنّه تساءل في الحلقة الأولى من بنائه المعرفي عن حقيقة كونه موجوداً، وانتهى إلى اليقين الأوّل بقوله: أنا أفكّر إذن أنا موجود.

مضمون الشهادة

لا شكّ أنّ المطلوب من المسلمين بالغرب في شهادتهم على الناس هو البيان والبلاغ لما يعتقدون أنّهم يملكونه من حقّ الناس في حاجة إليه، وأن يأخذوا منهم الحكمة الحضارية التي يفتقرون إليها لتتمّ إذن الشهادة بتمام طرفيها، ويتحقّق معنى الشراكة الحضارية. والمسلمون يعتقدون أنّ كلّ ما جاء به دينهم حقّ نافع للإنسان، سواء ما تعلّق منه بالمعتقدات التي هي أساس الدين، أو ما تعلّق بالعبادات، أو ما تعلّق بالمعاملات، وتكليف المسلمين بالبلاغ يشمل بيان هذه الحقائق كلّها، وتبليغها للناس؛ لأنّ تبليغ الدين لا يكون إلاّ بتبليغها جميعاً.

وقد درج البلاغ الديني منذ الدعوة الأولى للنبيّ ﷺ على أن يكون الابتداء فيه بالعقيدة باعتبارها أساس الدين، ثمّ تتبعها بعد ذلك العبادات والمعاملات، وأصبح ذلك قاعدة عامّة في تبليغ الدين. فهل على المسلمين بالغرب اليوم في شهادتهم على أهله أن يبلّغوا إليهم دينهم على هذا النحو الذي أصبح قاعدة في الدعوة، أم يسعهم التغيير فيها بما تقتضيه الظروف؟

وفي الطرف الثاني من معادلة الشهادة فإنّ أهل الغرب قد توصّلوا في بنائهم الحضاري إلى منظومة كاملة ومتكاملة من الحكمة، متمثّلة في علوم وتقنيات وصناعات ونظم إدارية وسياسية واجتماعية وغيرها، فماذا على المسلمين أن يأخذوا من هذه الحكمة؟ هل يأخذونها منظومة متكاملة كما هي عند أهلها؟ أم يفصّلونها مفردات، ويضعون لهم موازين يستهدون بها في الأخذ بما ينفع وترك ما لا ينفع؟

١ - المضمون البياني:

لا بـدّ في تحديد الجواب عن الأسئلة الآنفة من أن نعود إلى العلم بواقع أهل الغرب، الذي جعلناه آنفاً شرطاً أساسياً من شروط الشهادة عليهم، لنستعين بذلك على ما يمكن أن يكون أنجع في أداء هذه الشهادة من حيث انتفاع المشهود بها عليهم، وذلك في طرف العطاء من طرفي الشهادة، ومن حيث انتفاعهم هم بما يأخذون منهم، وذلك في طرف الأخذ منها، وحينئذ فإنّ عرض الدين على أهل الغرب كما هو مرتّب حسبما تقتضيه قواعد الدعوة قد لا يكون مفيداً، بل قد يبوء بعكس المطلوب، إذ يحصل الرفض من حيث كان يُراد القبول لما أُريد أن يكون فيه منفعة للمعروض عليهم.

إنّ أهل الغرب بصفة عامّة استقرّ في أذهانهم، أو في أذهان الأغلبية منهم، أنّ البناء الحضاري الذي أقاموه في أبعاده القيمية والتنظيمية، وفي منجزاته المادّية والمعنوية، هو ذروة ما توصّل إليه الإنسان من الحضارات، وبالتالي فإنّ أيّ أنموذج قيمي آخر يُعرض عليهم سوف يقابل بالرفض إن لم يكن بالاحتقار والاستهجان، أو بردود الأفعال العدائية، وهذا هو المصير الذي سينتهي إليه البلاغ الإسلامي من قِبل المسلمين بالغرب لو قام هؤلاء فيهم بالدعوة إلى الدين متكاملاً كما هو مرتّب في انبناء العبادات والمعاملات على المعتقدات، خاصّة في هذه الظروف التي تسود العالم الغربي بعد أحداث سبتمبر؛ ولذلك فإنّه من الحكمة أن يتوخّى المسلمون بالغرب في الخطاب البياني للمجتمعات التي يعيشون فيها منهجاً في البيان يُعاد فيه ترتيب المضامين الدينية في العرض بحسب ما تجد من القَبول عند المخاطبين كما يقتضيه واقعهم الثقافي والاجتماعي.

وربّما يكون من القواعد المفيدة التي ينبني عليها هذا الترتيب في العرض ما يقتضي تقديم أنواع من القيم والأحكام الشرعية على غيرها، ولعلّ من أهمّ تلك الأنواع التي ينبغي تقديمها ما يلي:

أ- القضايا العملية:

من تعاليم الدين ما هو نظري متعلّق بالمفاهيم التصورية، مثل المعتقدات المتعلّقة بحقائق الوجود ومصير الإنسان، وهي الأساس في الدين الذي ينبني عليه كلّ ما بعده، ومنها ما هو ذو صبغة عملية تتعلّق بمجريات الحياة الإنسانية وضبط مساراتها في مختلف مناحيها، وحلّ ما يعترضها من مشاكل، علماً بأنّ الإسلام له توجيه في كلّ شؤون الحياة العملية بصفة مباشرة أو بتوجيهات كلّية عامّة.

وأهل الغرب اليوم أصبحوا لا يأبهون كثيراً بالقضايا النظرية ذات الأبعاد الفلسفية سوى القلّة من النخبة المتفلسفة، وأمّا عامّة الناس، بل عامّة المثقّفين منهم، فإنّ همومهم الأساسية هي هموم عملية تتعلّق بقضايا الحياة الجارية سعياً في الغالب لتحقيق الرفاه المادّي والأمن النفسي والاجتماعي وزيادة الإنتاج الاقتصادي وما شاكل ذلك من القضايا ذات الصبغة العملية، فإذا ما وُجّه إليهم خطاب ذو صبغة نظرية فلسفية فإنّه، بالإضافة إلى ما ذكرنا آنفاً من مقابلته بالاستعلاء، سوف لن يصادف من الناس همومهم التي تشغلهم، وهي هموم عملية، فيقابل إذن باللامبالاة إن لم يكن بالاستهتار، وأمّا لو خوطبوا بقضايا عملية تتعلّق بحياتهم الجارية فإنّ ذلك سوف يجد منهم استعداداً للسماع والتفهّم، ويبقى أمر القبول والاقتناع رهين البراعة في العرض والحكمة في الخطاب.

ولدى المسلمين من الأحكام الدينية في القضايا العملية المتعلّقة بمجريات الحياة ما هو من هموم أهل الغرب في واقعهم الراهن، فعرضها عليهم إذن بالمنهج المناسب

الـــذي سنأتي على بياته لاحقاً سيجد منهم اهتماماً مبدئيّاً. ويمكن أن نذكر في هذا الشـــأن عـــلى سبيل المثال تلك القيم الدينية العملية المتعلّقة **بالعلاقات الاجتماعية،** ابتداءً بالعلاقات الأسرية، وامتداداً إلى الروابط بين أفراد المجتمع وهيئاته وجماعاته، في مـــا تنـــبني عليه تلك العلاقات والروابط من معاني الألفة الروحية والتكافل المعنوي والمـــادّي، وللإســـلام في ذلـــك مـــنظومة قيمية متكاملة، وتراتيب عملية محدّدة، وضمانات أخلاقية وقانونية تضمن تطبيقها العملي ممّا يجعلها بحقّ مناطاً لعطاء كفيل بأن يحظى بالاهتمام.

ومـــن تلـــك المفردات العملية ما يتعلّق **بالدور الاقتصادي للمجتمع** متمثّلاً في المؤسّســـات الاقتصـــادية الاجتماعية الأهلية وعلى رأسها مؤسّسة الأوقاف، فهذه المؤسّسة تُعتبر في النظام الإسلامي ريادة حضارية ذات شأن، وقد ضبطت تشريعاتها، وحـــدّدت قوانينها على وجه دقيق، وأثبتت التجربة التاريخية نجاعتها في القيام بدور اقتصـــادي اجـــتماعي على قدر كبير من الأهمّية، وهو دور حفظ الأمّة في مسيرة تقدّمهـــا مـــن الاهتزازات والاضطرابات التي أصابتها في محطّات عديدة من تاريخها جـــرّاء أســـباب داخلية وخارجية، فهي بذلك تمثّل أنموذجاً عملياً في معالجة قضايا المجتمع مثيراً للاهتمام.

ومـــن تلك القضايا العملية ما يتعلّق بالأحكام التي تضبط **العلاقات بين الناس ذات الصـــفة المدنية:** عقوداً، أو معاملات مالية، أو منازعات ملكية على أسس من الحقـــوق والواجبات المتعادلة، وعلى قواعد من الضمانات والتحوّطات التي تضمن العدالة وتحقّق الأمن الاجتماعي، فللإسلام في ذلك تفصيل ثريّ جدّاً، ومتقدّم جدّاً، حـــتى أنّه ليُعتبر بحقّ إحدى المفاخر التي يمكن أن يقدّمها الإسلام للبشرية، وقد كان ذلـــك محلّ تنويه من قِبل كثير من كبار الفقهاء القانونيين العالميين، بل قد استفادت

مـــنه بعض القوانين الغربية أيّما استفادة، مثلما هو حاصل في القانون المدني الفرنسي على سبيل المثال.

فهـــذه القضـــايا يمكـــن أيضاً أن تُعرض على أهل الغرب في مقام البيان لما فيه مصلحة الأفراد والجماعات والمجتمع بأسره.

ب- القضايا ذات العلاقة بأزمات الغرب:

أشـــرنا ســـابقاً إلى أنّ أهـــل الغـــرب يعانون في حياتهم النفسية والاجتماعية والحضـــارية العامّـــة جملة من المشاكل يصل بعضها إلى درجة الأزمة، وذكرنا أمثلة لذلـــك، وفي ذات المواضـــيع التي طرأت عليها هذه المشاكل توجد في تعاليم الدين أحكام وتوجـــيهات وقيم من شأنـــها أن يكون فيها حـــلول لتلك المشاكل، وهو مـــا يقتضـــي أن يُـــتّخذ منها مادّة عرض وبيان، عسى أن تجد طريقاً إلى تفهّمها والاقتـــناع بها، فتكون إسهاماً إسلامياً من قِبل مسلمي الغرب في الشراكة الحضارية المبتغاة من وجودهم في تلك البلاد.

ومـــن تلك القضايا ما **يتعلّق بأحكام الأسرة**، والقيم التي تنبني عليها، والمقاصد الـــتي توجّهـــها، فقـــد اهتمّ التشريع الإسلامي بالأسرة كما لم يهتمّ بأيّ موضوع اجـــتماعي آخر، وضبط فيها من الأحكام المفصّلة، ومن القيم الموجّهة ما هو كفيل بـــأن يجعـــل مـــنها مـــناخاً نفســـياً واجتماعياً يوفّر بدرجة عالية الصحّة النفسية والاجتماعـــية، وذلك بما بُنيت عليه الأسرة من المسؤولية والاحترام والتكافل والمودّة والرحمة، بالإضافة إلى ما بُنيت عليه من ضبط دقيق للحقوق والواجبات.

وإذ تعـــاني الأسرة الغربية اليوم من الانحلال والتشتّت والفقر الروحي، بل من أخطـــار التلاشي، فإنّ هذه القيم والأحكام الدينية إذا ما عُرضت على أهل الغرب عرضـــاً نظرياً وعملياً حكيماً ستجد إلى عقولهم طريقاً للقبول، وثمّة كثير من عقلاء

الغـــرب أصـــبحوا اليوم متقبّلين لهذه القيم، كما ثمّة كثير من الناس أصبحوا قابلين عملياً للأخذ بها، وما تكاثر الزيجات بين المسلمين والنساء الغربيات، على الرغم من المناخ العامّ الذي تشوّه فيه صورة المسلمين بصفة عامّة، وصورتهم فيما يتعلّق بمعاملة المرأة بصفة خاصّة، إلاّ مظهراً من مظاهر ذلك، فالمرأة الراغبة في الزواج من مسلم، على الرغم من هذا المناخ المعاكس، إنّما تطلب القيم الأسرية الإسلامية التي تتعطّش إليها بحكم الفطرة، ولا تجدها في الأسرة الغربية.

ومـــن تلـــك القضـــايا أيضاً ما **يتعلّق بالبيئة الطبيعية**، فقد جاء الإسلام بنظام مـــتكامل في الـــتعامل معها، مبنيّ على قيم عقدية وثقافية، ومحدّد بأحكام قانونية، ومنضبط بتوجيهات أخلاقية، ومن شـــأن هذا النظام حينما يُعمل به أن يُجنّب كلّ مـــا عسى أن يكون فيه اعتداء على الطبيعة بأيّ شكل من أشكال الاعتداء، ويعصم إذن من أن تنشأ أزمة بيئيّة في خضمّ التعامل مع البيئة، وقد كان لتلك الخطّة الدينية في الـــتعامل البيـــئي تجـــربة تطبيقـــية في الحضارة الإسلامية اتّصفت بالثراء العملي والقـــانوني، كمـــا أفضـــت إلى نجاعة فائقة في النتائج بحسب ما وصلت إليه تلك الحضارة من تطوّر في علاقتها بالطبيعة[1].

ولا يخفى أنّ حضارة الغرب تؤرّقها اليوم مشكلة التلوّث البيئي أرقاً شديداً، وقد أصـــبحت يوماً بعد يوم تتعالى وتتكاثر الأصوات المنذرة بكارثة وشيكة جرّاء هذه المشـــكلة، وانـــتهى الكثير من أصحاب هذه الأصوات إلى أنّ العلاج الحقيقي لهذه الأزمـــة لا بـــدّ أن يكـــون علاجـــاً ثقافياً بدرجة أساسية، وذلك ما يرشّح الثقافة الإسلامية لأن تقوم بدور مهمّ في هذا الشأن، تعضّد فيه التجربة الحضارية ما جاء به الدين من قيم ومبادئ وأحكام، لو أُحسن العرض وأُتقن البلاغ.

(١) راجع كتابنا الآنف الذكر: قضايا البيئة من منظور إسلامي.

ومـــن هذه القضايا **ما يتعلّق بالأمن النفسي والأمل في الحياة**، فالتعاليم والقيم الإســـلامية تجعـــل من أولى مقاصدها إشاعة الأمن في النفوس، وإفساح الأمل لها، وإبعـــاد الـــيأس والقنوط عنها، ولعلّ أوّل ما يحقّق ذلك عقيدة البعث التي تجعل من الحـــياة مسرحاً ممتدّاً إلى ما وراء هذه الفترة القصيرة المنتهية بالموت، وهو ما يجعلها حياة لا تنتهي أهدافها مهما حقّق فيها الإنسان من إنجاز، فيشعر الإنسان إذن جرّاها بـــالأمن لاطمئـــنانه إلى المصير، كما يستشعر الأمل لإمكان تدارك ما قد يفوت في مـــرحلة منها سابقة في مرحلة لاحقة، وكلّ ذلك يُكسب الحياة قيمة كبرى تجعلها جديـــرة بحفظها والحفاظ عليها، ثمّ إنّ كلّ التشريعات العملية تؤكّد هذه الوجهة في استشعار قيمة الحياة التي ترسي مبادئها عقيدة البعث.

ومـــن أعوص المشكلات التي يعانيها أهل الغرب ما يشيع في أفراد كثيرين منهم مـــن **شـــعور بالخوف والقلق واليأس**، حتّى عبّر ذلك عن نفسه فلسفياً في نظريات تقـــوم عـــلى العدمية والعبثية والغثيان[1]، وعبّر عن نفسه عملياً في ارتفاع معدّلات الانـــتحار، وفي انتشار أنواع المخدّرات، وفي تفشّي أمراض الاكتئاب بشكل واسع، وما ذلك إلاّ بسبب الشعور بأنّ هذه الحياة القصيرة التي تنتهي بالموت قد استنفدت أغراضـــها الـــتي يجمعها غرض الرفاه المادّي، فإذا ما تحقّق هذا الرفاه، وهو الغرض الأعـــلى، فقدت الحياة قيمتها فلم تعد جديرة بأن يحياها الإنسان، وكذلك الأمر إذا فقـــد الأمل في تحقيق هذا الغرض؛ ولعلّ هذا ما يفسّر كيف أنّ أكثر البلاد الغربية رفاهـــاً ماديـــاً وإباحية جنسية هي أعلاها في معدّلات الانتحار وتفشّي المخدّرات، وإذن فـــإنّ العرض الإسلامي لعقيدة الأمن والأمل، والقيم والمبادئ، التي تعمل على ترســـيخهما في النفوس سوف يحظى باهتمام أهل الغرب، فيكون ذلك إضافة نافعة من قِبل مسلمي الغرب لمجتمعهم الجديد.

---

(١) منها على سبيل المثال الفلسفة الوجودية المنظّرة للقلق والعبثية كما أسّس ذلك جون بول سارتر وألبير كامو.

ج- القضايا المؤلِّفة:

يحـدّد الإسـلام العلاقـة بـين المسلمين وغير المسلمين بصفة واضحة ودقيقة ومنضـبطة، سـواء تعلّق الأمر بالأوضاع التي تكون فيها تلك العلاقة علاقة عداوة وخصـام، أو الـتي تكون فيها علاقة سلم ووئام، ولعلّ الدسـتور الحاكم في هذا الشأن والذي يُعتبر قيِّماً على كلّ ما سواه من الأحكام والتوجيهات هو قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الممتحنة:٨-٩).

ومـا دام المسلمون في الغرب باقين على صفتهم الإسلامية، وغيرهم باقياً على صـفته غير الإسلامية، والجميع يعيشون في وئام وسلم، ويشتركون في المواطنة، فإنّ القـانون الذي ينبغي أن يوجّه سلوك المسلمين هو قانون البرّ والقسط كما حدّدته الآيـة، وهو ما يقتضي أن يكون هذا السلوك مستجيباً لتوجيهات الدين من جهة، ومصاغاً بحيث يتلقّاه أهل الغرب بالقبول من جهة أخرى، وتلك معادلة دقيقة زلّت فيها أقدام كثيرين، كما نشاهده اليوم من تصرّفات بعض المسلمين الذين يعيشون في الغرب، بل كما ينظّرون إليه ويقدّمونه للناس[1].

ونحسب أنّ هذه المعادلة لا تستقيم إلاّ بأن يقدّم المسلمون في التعامل مع غيرهم تلـك القـيم والأحكام والضوابط التي تدعو إلى التآلف والتعارف والوئام والأخوّة

---

(١) نشـير هـنا إلى أولئك الذين يعيشون في الغرب من المسلمين، وهم يعتبرون هذا الغرب عدوّاً لهم، ولذلك فهم يـنظّرون لهذه العداوة، وينتهزون كلّ فرصة لإيذائه بمختلف أنواع الإيذاء، بما في ذلك استعمال العنف، فهؤلاء وإن كانوا قليلي العدد إلاّ أنّهم يمثّلون انحرافاً عن قيم الدين، فضلاً عن جهلهم في فقه الواقع.

الإنســـانية، وأن لا يكون مجال في بيانهم القولي والفعلي للعداء وما يترتّب عليه من التصـــرّفات؛ وذلك لأنّ الأحكام التي تتعلّق بوضع العداوة، وتضبط ما يترتّب عليها ليس لها مناط في حال المسلمين بالغرب، إذ هم أصبحوا مكوّناً من مكوّنات المجتمع الـــذي يعيشون فيه، يجمعهم جميعاً جامع المواطنة، وهو جامع يؤسّس للوئام ويلغي العـــداء وأسبابه. هذا وإنّ للمسلمين تجربة تاريخية مشرّفة في التعايش السلمي المنتج بين المسلمين وغير المسلمين، وهو ما يمكن استدعاؤه أيضاً لتتدعّم به الأحكام والقيم الدينية على المستوى النظري.

ومـــن القـــيم الـــتي يمكـــن أن تكون محلّ بلاغ في هذا الشأن **قيمة الاعتراف (بالآخـــر)** المخـــالف في الدين، بناء على حرّية المعـــتقد وممارســـة التديّن، وبصفة عامّـــة الاعتراف بالتنوّع الثقافي، واعـــتباره مـــبدأ في التعـــايش بين بني البشـــر، ومن ثمّة اعتبار المتعايشين مع المســـلمين من غيرهم بمقتـــضى المواطـــنة أو الجـــيرة أو المصـــاهرة أصـــبحوا يكتســـبون بمقتضـــى ذلك المبدأ حقوقاً هي واجبات على المســـلمين، مثل حقوق الوفـــاء بالعهـــد، ونصرة المظـــلوم، واحترام الجار ونجدته ورعايـــته، والمواساة في الأتراح، والمشاركة في الأفراح، وذلك بالإضافة إلى الحقوق المترتّـــبة على الأفراد والجماعات إزاء عموم المجتمع، مثل التكافل والتناصح والرعاية للمصلحة العامّة.

ومن تلك القيم في هذا الشأن، ولعلّها أعلاها، **قيمة وحدة الإنسانية**، أو الأخوّة في الإنسانية، وما يترتّب على ذلك من قيمة التعاون على الخير، ووجوب أداء العلم

لمـــن يطلبه ولمن لا يطلبه، إذ جحـــوده وكتمـــانه والضنّ به يُعتبر خطيئة دينية[1]، وفي الموقـــف الديـــني من هذا كلّه توجيهات كثيرة: قيماً كلّية، ومبادئ أخلاقية، وأحكاماً شرعية، ولعلّ المبدأ الدستوري العامّ الذي يشمل ذلك كلّه هو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾ (الحجـــرات:١٣)، فالـــتعارف إنّما هو التعاون، وهو ما لا يتمّ إلاّ بالتآلف والوئام، والاعتراف المتبادل بالتنوّع، بل والانطلاق منه في سبيل تبادل المنافع مادّياً، والانتظام في الوحدة الإنسانية الجامعة معنوياً.

وإذا كـــان أهل الغرب قد وصلوا في مجال حقوق الإنسان إلى تأسيس منظومة مـــتكاملة يفتخرون بها على الأمم، فإنّ المسلمين يمكن أن يكون لهم إسهام في إثراء تلـــك المـــنظومة وترشيدها؛ ذلك أنّهم وإن كانوا في واقعهم لا يرتقون إلى مستوى التطبـــيق لـــتلك المنظومة، إلاّ أنّ مبادئهم الدينية تتجاوز في الرشد المنظومة الغربية؛ وذلـــك لأنّ هذه المنظومة نشأت تاريخياً واستقرّت بعد ذلك على أساس من توازن القوى بين الفئات الاجـــتماعية، ولـــم تقـــم على مبادئ إنسانية كلّية ثابتة، وهو ما يعرّضها للاختلال والتراجع إذا ما اختلّ ذلك التوازن[2]، وأمّا حقوق الإنسان في المنظومة الإسلامية فإنّها قامت على المبدأ العقدي الدائم، وعلى الشمولية الإنسانية في مطلق الزمان والمكان[3].

---

(١) جـــاء فـــي الحديـــث النـــبوي قولـــه ﷺ: «من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» أخرجه الحاكم، المستدرك (بيروت: ط دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م) ١٨٢/١.

(٢) ممّـــا يدلّ على ذلك ما نراه اليوم ممارساً من قِبل بعض أهل الغرب من ازدواجية في المطالبة بحقوق الإنسان والعمـــل بهـــا، إذ يكـــون ذلك ملحّاً إلى درجة قد يُستعمل فيها العنف إذا ما كان في ذلك مصلحة، في حين يقع التغاضي عن الأمر بل مساندة خرق تلك الحقوق إذا كان فيه أيضاً مصلحة، وإذن فإنّ هذه الحقوق ليست إنسانية مطلقة، وإنّما هي دائرة مع المصالح ومختلفة بحسب الأوضاع والأجناس.

(٣) راجـــع فـــي حقوق الإنسان في الإسلام: إبراهيم المرزوقي، حقوق الإنسان في الإسلام (ترجمة: محمد حسين مرسي، ط أبو ظبي: ٢٠٠٠م).

إنّ هذه المفردات من المبادئ الدينية، التي يجمعها معنى التآلف والوئام والتعايش السلمي القائم على التعاون المثمر وما هو في حكمها، تمثّل مضموناً ينطوي على إضافة حضارية يمكن للمسلمين في الغرب أن يسهموا بها في الشراكة الحضارية مع أهل الغرب، وأمّا تلك الأحكام والتوجيهات التي تتعلّق بأوضاع العداوة بين المسلمين وغيرهم ممّن يخالفهم في الدين فليس لها في أوضاع المسلمين بالغرب من مجال، لانتفاء الوضع الذي هي مناطه، فإثارتها إذن خارج الدائرة التعليمية الواعية من شأنها أن تعكّر على الهدف الذي ينبغي على الوجود الإسلامي بالغرب أن يسعى إلى تحقيقه، كما شرحناه.

إنّ ما عرضناه من هذه المفردات، مضموناً لما يمكن لمسلمي الغرب أن يقدّموه في شهادتهم على الناس، لا نقصد منه تغييراً في ترتيب المبادئ الدينية من حيث انبناء بعضها على بعض، وإنّما هو ترتيب بياني فحسب، اقتضاه واقع المخاطَبين به، وهو وإن كان مضموناً عملياً ينبني على الأصل النظري المتمثّل في مبادئ الإيمان، إلاّ أنّ التفكّر فيه والاقتناع به والاستفادة منه قد تفضي في أغلب الأحيان إلى التفكّر في أصوله النظرية التي انبنى عليها، وقد ينتهي ذلك النظر إلى الاقتناع بها هي أيضاً، وإلى اعتناقها ديناً.

وقد بيّن واقع المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام من أهل الغرب أنّ أكثرهم كان ينتهي إلى الإيمان بالأسس العقدية من باب الاقتناع بالأحكام العملية حينما يشاهد عياناً منافعها في مجريات الحياة العملية؛ وحينما ينتهي الأمر إلى هذا الوضع فإنّ الترتيب بين الأصول والفروع سيعود إلى معادلته الأصلية.

٢- المضمون الانتفاعي:

لا شكّ أنّ المسلمين في الغرب مطلوب منهم، بمقتضى الدور المناط بعهدتهم، أن يستفيدوا من أهل الغرب ما يكتمل به دورهم في شقّه الثاني بعد العطاء، وهو ما يتعلّق بالأخذ والانتفاع. وعند أهل الغرب الكثير ممّا يعطون، وعند المسلمين حاجات كثيرة لذلك العطاء، وإذا كانت الشراكة أخذاً وعطاءً فإنّها لا يكتمل معناها إلاّ بتكامل طرفيها، إلاّ أنّه كما كان ذلك العطاء ينبغي أن يتمّ وفق ترتيب معيّن كما بيّنّاه، فإنّ الأخذ ينبغي أن يكون كذلك، وإلاّ فإنّه قد يعود على الشراكة الحضارية بالنقض، كأن يفضي مثلاً إلى أن يذوب المسلمون في أهل الغرب بأخذ كلّ شيء منهم دون تمييز، إذ حينئذ لا يبقى مجال لأن نتحدّث عن دور يقوم به المسلمون في الغرب، لأنّهم يصبحون إضافة كمّية لأهل الغرب، ليس لهم ما يقدّمون كإضافة حضارية، إذ هم قد يصبحون نسخة منهم، وهي على الأرجح ستكون نسخة سيّئة، وهذا مصير انتهت إليه بعض الشعوب حينما قلّدت الغرب في كلّ شيء، فلم يبق لها وجود.

والسؤال المهمّ بهذا الصدد هو: ماذا على المسلمين في الغرب أن يأخذوا من أهله، وما هو الميزان الذي عليهم أن يزنوا به ما يأخذون ليتمّ بذلك دورهم في الشراكة الحضارية على الوجه المطلوب؟

أشرنا سابقاً إلى أنّ أهل الغرب بلغوا في السّلّم الحضاري درجة عليا في مجالات العلم المادّي والتكنولوجي، وفي فنون الإدارة والمؤسّسية، كما أشرنا أيضاً إلى أنّهم انتهوا في مجالات أخرى من الحياة إلى مشاكل عويصة بلغ بعضها درجة الأزمة.. وبنظرة أوّلية يبدو أنّ على المسلمين أن يستفيدوا ممّا عند أهل الغرب من الحكمة العلمية النظرية والتطبيقية والحكمة الإدارية، وعليهم أن يتوقّوا الأسباب التي آلت بهم إلى المشاكل الأسرية والاجتماعية والبيئيّة وما شابهها، إلاّ أنّ الأمر في حقيقته أكثر

تعقيداً ممّا يبدو عليه هذا الميزان، إذ الحضـــارة الغربية كلٌّ متداخل ومـــتكامل بحيث لا يمكن فصل بعض عناصرها عن بعض، فيؤخذ هذا خالصاً نقيّاً ويُطرح ذاك لما فيه من دخـــل على نحو من السهولة واليسر؛ ولذلك فإنّه ينبغي البحث عن موازين دقيقة يمكن أن تفضي إلى المطلوب بأكبر قدر ممكن ممّا يحصل به المعنى الحقيقي للشراكة الحضارية.

ولعلّ هذه الموازين تنتهي إلى قاعدتين أساسيتين:

أ- الحكمة النظرية:

مهما يكن للإسلام من بيان شامل لشؤون الحياة، فإنّ تعاليمه جاءت في الكثير من تلك الشؤون كلّية عامّة، وتركت فيها مجالاً واسعاً للكسب البشري. وللحضارة الغربية كسب مشهود من الحكمة التي تندرج ضمن تلك القيم الإسلامية العليا التي جـــاءت كلّـــية عامّة. فمن القيم الإسلامية على سبيل المثال اكتشاف قوانين الكون واستثمارها لمصلحة الإنسان، وقد بلغت الحضارة الغربية في ذلك شأواً بعيداً، فهذا العـــلم بقوانين الطبيعة، وهذه التطبيقات التكنولوجية لاستثمارها التي كسبتها تلك الحضـــارة هي ممّا ينبغي على المسلمين في الغرب أن يبذلوا أقصى الجهد في العلم بها، والبلوغ فيها أعلى الدرجات فقهاً وتطبيقاً، إذ هو يعتبر من مقتضيات قيمهم الدينية، إلاّ أنّ ذلك ينبغي أن يكون مقيّداً بقيدين أساسيين:

أوّلهمـــا، التمييز بين العلم نظرياً وتطبيقياً وبين جذوره الأيديولوحية التي تطبعه بطابعها، وقد توجّهـــه بتوجـــيهها، فبعض المفردات العلمية قد تبدو قوانينَ طبيعية أو إنســـانية محـــايدة، ولكـــنّها في حقيقتها قد لا تتخلّص بشكل كامل من الذاتية لتتمحّض للموضوعية المطلقة، فإذا هي تحمل بصمات أيديولوجية مذهبية، تكون بها مناقضة إن قليلاً أو كثيراً للقيم الإسلامية، وذلك على نحو ما يتمثّل في قانون التطوّر في العلـــوم الطبيعـــية، أو في بعـــض القوانين في علم النفس وعلم الاقتصاد، فهذه المفـــردات العلمية ينبغي أن يدرسها المسلمون معروضة على ميزان النقد، ليتبيّن فيها

مـــا هو علمي موضوعي يندرج ضمن القيم الإسلامية ممّا هو أيديولوجيّ ثقافي قد يكـــون مناقضـــاً لها، علماً بأنّ كثيراً من هذه المفردات تتعرّض للنقد من قِبل أهل الغرب أنفسهم، وهم الذين أنتجـــوها ضمن كســـبهم الحضاري، وذلك من جهة ما يشوبها من منـــزع عقائدي يخلّ بموضوعيتها بل قد يخلّ بصفتها العلمية أساساً.

وثانـــيهما، التميـــيز بـــين المكتشـــفات العلمية وبين استعمالاتها المنافية للقيم الأخلاقية، فمن المفردات العلمية ما يكون في ذاته كشفاً عن قوانين الطبيعة مندرجاً ضـــمن القـــيم الدينـــية، ولكنّه يكون في ذات الوقت موجّهاً توجيهاً مناقضاً للقيم الأخلاقية والإنسانية، ويختلط هذا التوجيه فيه مع طبيعته الذاتية بحيث يصعب التمييز بيـــنهما، ومـــن ذلك على سبيل المثال ما يتعلّق بالكشوفات الذرّية وما يوجّهها من إرادة الدمار الشامل، وما يتعلّق بالكشوفات الجينية وما يكتنفها من إرادة التغيير في طبـــيعة البـــناء الإنساني، فهذه المفردات العلمية وما شاكلها ينبغي على المسلمين أن يـــزنوها بميزان أخـــلاقي في ما تفضي إليه من نتائج قد تفوق في خطورتها ما تفضي إليه من منافع، وأن يكون لهم تبعـــاً لذلك منهج قويـــم في التعـــامل معها في نطاق مـــا يســـتفيدونه من علوم أهل الغرب يقوم على الاحتراز من الأبعاد المناقضة للقيم الأخلاقية الإنسانية في بعضٍ منها.

ب- الحكمة العملية:

ثمّـــة قـــيم إسلامية كثيرة وقف بها التطوّر الحضاري للمسلمين عند مستويات ضـــعيفة في إجـــراءات التطبـــيق الفعـــلي وآلياته، وذلك إمّا لتوقّف النموّ في تلك الإجراءات العملية عند توقّف النموّ الحضاري الإسلامي بصفة عامّة، وإمّا لانحراف وقع في فهم ذات تلك القيم وتحمّلها انحرف بها عن مسالكها الصحيحة في التطبيق، ونذكـــر عـــلى ســـبيل المثال من ذلك ما وقع في قيمة الشورى التي هي قيمة دينية أساســـية، فقد ظلّت آلياتها التطبيقية عند المسلمين فقيرة طيلة تاريخهم؛ ولذلك فإنّها

بقيت قيمة نظرية في الغالب دون أن تنتهي إلى واقع معاش، وكذلك ما يتعلّق بالتعاون والعمل المشترك بين أفراد المجتمع وفئاته، فتلك أيضاً قيمة عليا في الدين، ولكنّ الآليات العملية التي تجعل من التعاون شرعة اجتماعية واقعة بقيت عند المسلمين ضعيفة محدودة لذات الأسباب تقريباً، فكانت الفردية في التفاعل الاجتماعي هي الصفة الغالبة.

وأهل الغرب بلغوا في مجال الإجراءات والآليات التطبيقية لتلك القيم مبلغاً متقدّماً جدّاً، سواء من حيث التنظير لها، أو من حيث التجربة الواقعية فيها، وقد بلغت تلك التجربة الآن من العمر بضعة قرون ممّا أكسبها النضج بالمراجعة والتحسين المتواصلين حتى أصبحت الآن مشهوداً لها بالصلاح في ترشيد الحياة، وهو ما يبدو على سبيل المثال في ما استُحدث من أساليب وطرق في إدارة الشورى، وفي ما سُلك في التعاون بين الناس عن طريق العمل الجماعي القائم على المؤسّسات، فضلاً عمّا وقع التوصّل إليه من فنون الإدارة في مختلف أوجه الحياة الاجتماعية. وقد أصبح كلّ ذلك ثقافة للمجتمع الغربي يمارسه بتسليم كامل فيما يشبه التلقائية، وهو أحد الأسباب الأساسية في التقدّم الحضاري الغربي.

وحريّ بالمسلمين في الغرب أن يكون لهم اتّصال وثيق بهذه الإجراءات التطبيقية لقيم هي من قيم دينهم ليأخذوا بها علماً، وليمارسوها تطبيقاً عملياً، ولتصبح لهم ثقافة عامّة في مختلف وجوه حياتهم، يديرون بها الشورى، ويتعاونون بها في المناشط، ويتقنون بها الأعمال، ويربّون عليها أبناءهم جيلاً بعد جيل، وينقلونها إلى المسلمين أينما كانوا، فإنّهم حينئذ سيكونون قد استفادوا من الغرب خيراً كثيراً، وسيكون بذلك قد تحقّق أحد وجوه الشراكة الحضارية المطلوبة منهم، دوراً يقومون به في وجودهم الإسلامي بالغرب.

منهج الشهادة

إنّ نجاح أيّ مضمون من مضامين الخطاب في أن يكون له قبول مؤثّر لا يتوقّف فقــط على ما في ذلك المضمون من الحقّ النافع، وإنّما يتوقّف أيضاً وبدرجة كبيرة عــلى المــنهج الذي يكون به الخطاب، فكم من مبادئ وأفكار تكون في ذاتها حقّاً يحمل من الصلاح للإنسان شيئاً كثيراً، ولكنّها لا يكون لها تأثير في المخاطَبين بسبب الخطأ في المنهج الذي تُبلّغ أو تؤخذ به، وهذا الأمر ينطبق على المسلمين في الغرب في شــراكتهم الحضــارية بطــرفي معادلتها، الأخذ والعطاء؛ وهو ما يستدعي أن يقع الاهــتمام كبيراً بما يتعلّق بالمنهج الذي ينبغي عليهم أن يعتمدوه في بيان ما شرحناه سابقاً من مضمون، سواء في طرف العطاء أو في طرف الأخذ.

وبالنظر إلى ما قرّرناه من أنّ بحمل هذه الشراكة ينبغي أن تكون مبنية على الفقه في الواقــع، الذي هو مسرح لها، وهو الواقع الغربي، فإنّ المنهج الذي يقتضيه ذلك الواقع ينبغي أن يكون متّصفاً بجملة من الصفات، لعلّ من أهمّها ما يلي:

١- العرض النفعي:

أشرنا سابقاً إلى أنّ العقلية الغربية أصبحت منذ زمن عقلية نفعية، على معنى أنّها لا تقتــنع إلاّ بما يجرّ منفعة تزيد في متعة الحياة أو تحلّ مشكلة من مشاكلها، وذلك بقطع النظر عن مفهوم تلك المنفعة أو حقيقتها أو معيارها؛ ولذلك فإنّ خطاب أهل الغــرب لإقناعهم بالمضامين القيمية الإسلامية التي يمكن للمسلمين أن يقدّموها لهم سوف لا يكون له وقع يذكر في النفوس وفي العقول إلاّ إذا كان خطاباً ينتهج منهجاً نفعــياً، وذلك على معنى أنّه يقدّم تلك القيم ببيان ما تجرّه عند الأخذ بها من منفعة مادّية أو معنوية، سواء كان ذلك باستدلال منطقي أو باستدلال تاريخي أو باستدلال

واقعي إحصائي، فإذا ما أُحسن ذلك الاستدلال بوجوهه المختلفة فإنّ العقول الغربية ربّما بدأت التفكير فيما يُعرض عليها بهذا المنهج، ومن ثمّة قد تأخذ طريقها إلى الاقتناع بما يُعرض عليها.

وهذا المنهج النفعي هو منهج قرآني، إذ بما أنّ كلّ ما جاء به الدين من قيم وأحكام هو من أجل مصلحة الإنسان فإنّ القرآن الكريم كثيراً ما كان إذا ما عرض عقيدة من المعتقدات أو حكماً من الأحكام يذيّلها في مقام الاستدلال على حقّيتها بما تفضي إليه في خصوص معتنقها من المنفعة المادّية أو المعنوية، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨)، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طـه:١٢٤)، فهذا المنهج إذن يمكن استدعاؤه من القرآن الكريم، وذلك بقصد الاستدلال على المنفعة التي تحصل للمخاطَب جرّاء أخذه بما خوطب به، والاستدلال على أنّ تلك المنفعة هي المنفعة الحقيقية وليست هي المنفعة الموهومة التي قد يتصوّرها بعض أهل الغرب حاصلة من أضداد ما يخاطبون به من قيم إسلامية، وذلك على سبيل المثال كما يبدو في تحريم الخمر من منفعة حقيقية يتوهّم بعضهم أنّ المنفعة إنّما هي في الخمر لا في تحريمه، ويبقى الأمر في ذلك متوقّفاً على قوّة الحجّة التي ينبغي أن يتوخّاها مسلمو الغرب في الخطاب البياني للعديد من القيم التي تحقّق المنافع الفردية والجماعية.

إنّ هذا المنهج النفعي في الخطاب كفيل بأن يجد القبول عند أهل الغرب؛ وذلك لأنّهم، كما أشرنا سابقاً، تعاني حياقم الحضارية من جملة من المشاكل التي يبحثون لها عن حلول عملية، وكثير من تلك المشاكل تجد لها حلولاً في القيم الإسلامية لو أُحسن الخطاب، ألا ترى أنّ الكثير منهم يبحثون عن أغذية للأرواح التي برّحت بها المنازع المادّية المجحفة، فإذا هم يسقطون في مذاهب روحية شاذّة أو مغالية من

عــبادة لآلهة موهومة، أو ممارســة لطقوس غريبة، أو جرياً وراء تهويمات خرافية[1]، ولــو خوطــب هؤلاء بالقيمة العقدية الإسلامية التي تعادل بين غذاء الروح وغذاء الجســد خطابــاً يقــنع بنفعية هذه القيمة لأقبلوا عليها إقبالاً، إذ هي مناسبة لفطرة الإنسان، وكفيلة بأن تحقّق له التوازن الذي بُنيت عليه تلك الفطرة.

٢- الخطاب العلمي:

إنّ عقلــية أهل الغرب تشكّلت عقلية علمية، على معنى أنّهــا لا تسلّم بالقبول إلاّ لخطــاب يســتعمل في حججه المقدّمات اليقينية أو القريبة منها، تأثّراً في ذلك بالمنهج الديكارتي الذي ابتدأه صاحبه في البناء المعرفي بإثبات كونه موجوداً، ثمّ جعل يقــيم عــلى تلــك الحقــيقة اليقينية كلّ الحقائق التي بعدها؛ ولذلك فإنّ الخطاب الإســلامي لأهــل الغرب لا يكون خطاباً فاعلاً إلاّ إذا كان قائماً على المقدّمات العلمية من قواعد منطقية، أوحقائق كونية، أو معطيات إحصائيّة، أو أحداث واقعية، وكلّمــا اتّســعت هذه المقدّمات اليقينية أو القريبة منها كان القبول أكثر حصولاً، وعــلى العكــس كلّما اتّسعت دائرة المقدّمات الظنّية والخطابية كان القبول أضيق وأقــلّ، وهو ما يستلزم أن يكون الخطاب الإسلامي من قِبل مسلمي الغرب منتهجاً الــنهج العلمي القائم على الحجّة المنطقية، والقوانين الطبيعية، والتحاليل الإحصائية، ومــا إلى ذلك من مسالك العلم في الخطاب، وأمّا لو بقي مجرّد بيان وعظي إرشادي يبشّر بالإسلام وقيمه، كما هو حاصل اليوم عند كثير من أهل الدعوة حتى في البلاد الغربــية، فإنّــه ســوف لــن يثمر شيئاً في خصوص الهدف الذي حدّدناه للوجود الإسلامي بالغرب.

---

(١) تطلــع علينــا الأخبار بين الحين والآخر أنّ جماعات في أوروبا وفي الولايات المتّحدة يتّخذون لهم نحلة دينية غريبة الطبيعة، فيها عبادة لآلهة مزعومة، وفيها طقوس وشعائر، وتنتهي أحياناً بنهايات مأساوية، مثلما حدث منذ سنوات بالولايات المتّحدة وبعدها بسويسرا من انتحار جماعي ذهب ضحيّته مئات من أتباع هذه النحل.

وكذلك الأمر فيما يتعلّق باستفادة المسلمين من حكمة أهل الغرب، فإنّ هذه الحكمة لا يمكن أن تُستفاد حقّ الاستفادة إلاّ بالمنهج العلمي الذي يعتمد أصولاً للبحث وقواعد أصبحت هي بذاتها علماً قائماً، وهو علم غايته أن يساعد طلاّب الحقيقة على الوصول إليها، وإذا لم يتمرّس مسلمو الغرب بهذا المنهج العلمي بحيث يصبح لهم ثقافة عامّة تشترك في بنيتها الأساسية عند جميعهم أو القسم الأكبر منهم، وتتفاوت بعد ذلك بين الفئات بحسب المسؤوليات والاختصاصات، فإنّهم سيبقون رهائن السبل السطحية والاعتباطية التي لا تثمر في مجال الاستفادة العلمية شيئاً كثيراً، بل قد ينشأ معها ظنّ بالاستفادة دون حقّ، وهو ضرب من الجهل المركّب الذي يسقط فيه اليوم بعض مسلمي الغرب ممّن تمظهروا بمظاهر الغربيين في المأكل والملبس والمركب ولكنّهم لم يحصّلوا من الأسباب العلمية التي أنتجت الحضارة الغربية شيئاً، واهمين أنّهم بمظاهرهم قد تحضّروا، وحقيقة أمرهم أنّهم باقون في وضع التخلّف.

ومسلمو الغرب في هذا الشأن حظوظهم في الإفادة والاستفادة أقوى من حظوظ سائر المسلمين؛ لأنّهم يعيشون مباشرة في المناخ الذي تسوده الثقافة العلمية، وأجيالهم المتتابعة سوف تتربّى علمياً على هذا المنهج في المؤسّسات التعليمية الغربية تلك التي تعتمد في برامجها على الحرّية في الفكر وعلى التعلّم الذاتي، وذلك كلّه يساعد على التطبّع بالمنهج العلمي، ولكن مع ذلك فإنّ اكتساب هذا المنهج العلمي لا ينبغي أن يُترك للتلقائية، بل ينبغي أن يكون مبنيّاً على وعي عميق بأهمّيته، وعلى سعي مخطّط تتضافر فيه الجهود بين الأسر والمؤسّسات ذات العلاقة.

ويجدر أن نلاحظ في هذا الصدد أنّ الثقافة الإسلامية السائدة هي ثقافة التلقين وليست ثقافة التفكير، وذلك ما يستلزم في سبيل التغيير جهوداً مقدّرة، ومسلمو الغرب تساعدهم الظروف أكثر من غيرهم على ذلك التغيير كيما يكون خطابهم خطاباً علمياً في اتّجاهي الأخذ والعطاء.

٣- التبليغ العملي:

لا شـــيء يؤثّر في مجال تبليغ الأفكار والقيم مثل التبليغ العملي، وذلك بأن تُرى القيمة أو الفكرة المعروضة أنموذجاً عملياً مطبّقاً في الحياة الجارية، وتُرى بالتالي ثمارها المرجوّة منها ماثلة للعيان. وأهل الغرب هم اليوم في أعلى ذروة من القابلية العملية في مجـــال الـــتدافع الفلسفي الفكري؛ ذلك أنّهم، كما أشرنا سابقاً، تشكّلت عقليتهم العامّة على صفة من الذرائعية التي تجعلهم لا يقتنعون إلاّ بما يحقّق لهم منفعة، والمنفعة لا تُـــرى جلـــيّة إلاّ إذا تمثّلـــت في أنموذج عملي، ولذلك فإنّ إقناعهم بأيّ خطاب يـــتوقّف إلى حدّ كبير على مشاهدتهم لمحتوى ذلك الخطاب جارياً في الواقع، محقّقاً لثماره النافعة بالفعل.

وبناء على ذلك، فإنّ مسلمي الغرب يتعيّن عليهم في سبيل تبليغ ما يحملون من قـــيم نافعة إلى أهل مجتمعهم الجديد أن يعرضوا تلك القيم عرضاً عملياً في تصرّفاتهم وأعمـــالهم الفردية والجماعية، وأمّا إذا كانوا يدعون إلى تلك القيم نظرياً، ويخالفونها في ســـلوكهم عملـــياً فـــإنّ شهادتهم على الناس سوف تُحسب على أنّها شهادة مغشوشـــة، وســـوف لن تثمر شيئاً من القبول، بل ستقابل بالرفض، بحجّة أنّها غير مثمرة عملياً.

ولعـــلّ التحدّي الأكبر الذي يواجه المسلمين في الغرب، في خصوص شهادتهم على الناس، كما شرحناها، هو هذا المنهج العملي في التبليغ.. فوضع المسلمين بصفة عامّـــة ومسلمي الغرب من بينهم هو وضع من يملك القيم العظيمة والأحكام النافعة ولكنّه لا يعمل بها ولا يطبّقها في الحياة الجارية إلاّ قليلاً، والحال أنّ العمل بتلك القيم

والأحكـــام، بالإضـــافة إلى كونه يعتبر من جوهر الإيمان الديني نفسه، فإنّ البرهان النظري يثبت نفعه، والشهادة التاريخية تشهد بثماره الحضارية لّما كان واقعاً في فترة مّا من التاريخ الإسلامي.

ومهمـــا يكـــن من أسباب أدّت إلى هذا الوضع، من تخلّف التطبيق الفعلي عن الإيمـــان النظري، فإنّ مسلمي الغرب يمكن أن يستثيرهم الوضع الذي هم فيه، أقلّيةً مسلمة في مجتمع غير مسلم مهدّدة بالضياع إذا لم تحافظ على هويّتها، والموقع الذي هم فيه مطـــالبون بشراكة حضـــارية تتوقّف على الأنموذجـــية العمـــلية في عرض مـــا يشاركون فيه بالعطاء، يمكن أن يستثيرهم ذلك ليكون عاملاً مهمّاً من عوامل التطبـــيق الفعـــلي لما يؤمنون به من قيم وأحكام، وحينئذ فإنّهم سيندفعون في طريق النهج الصحيح في الشهادة على الناس وهو النهج العملي [1].

وهـــذا المنهج العملي ينبغي أن يكون متوافقاً مع ما بيّناه سابقاً من أولويات في المضـــمون المطلـــوب تبليغه، إذ المسلك العملي للقيام بالشعائر الدينية التعبّدية، على الـــرغم من أهمّيته في ذاته في ميزان الدين، إلاّ أنّ تأثيره في الآخرين من أهل الغرب يكـــون تأثيراً محدوداً لما استقرّ في ضميرهم الديني من أنّ ذلك شأن شخصي لا يهمّ إلاّ صاحبه، ولكنّ التطبيق العملي على سبيل المثال للوفاء بالوعود، ولإتقان الأعمال، ولـــتحويل العلم النظري إلى تكنولوجيا عملية، وللتضامن الأسري، ولخدمة المجتمع، ولاحترام القوانين، وللحفاظ على البيئة، يكون له أثر بالغ في لفت الاهتمام إليه، ثمّ

(١) بيّن أبو الأعلى المودودي في كتابه «دعوة الحقّ» أنّ الشهادة على الناس هي شهادة بيانية قولية، وشهادة عملية فعلية، وهذه أبلغ في التأثير وأدعى للقبول .

في البحث فيه للوصول إلى ما مرجعيته الإيمانية، ومن ثمّة يكون التبليغ قد انتهى إلى ثماره المرجوّة[1].

وليس مقصودنا بالمنهج العملي ما يتعلّق بذات الأفراد المسلمين في الغرب أن يكون كلّ منهم في خاصّة نفسه عاملاً بالمقتضيات الدينية بصفة عملية، وإنّما مقصودنا بالأخصّ، إضافة إلى ذلك، أن يكون هذا المنهج العملي بادياً في تطبيق جماعي لتلك المقتضيات، كما حدّدنا أولوياتها سابقاً، ليظهر ذلك التطبيق أنموذجاً حضارياً بارزاً، يتمثّل على سبيل المثال في مؤسّسات تربوية تحفظ الناشئة، وجمعيات خيرية تخدم المجتمع، ومراكز علمية تقوم بالبحث العلمي، وشركات إنتاجية تسهم في تنمية الاقتصاد، ومناشط جماعية تعمل على حفظ البيئة، وما إلى ذلك من كلّ مظهر جماعي من مظاهر التطبيق للقيم الإسلامية.

إنّ هذا المنهج العملي لتطبيق القيم الإسلامية في هيئته الجماعية سيكون له وقع مهمّ في نفوس أهل الغرب، لما يتبيّن فيه من جدّية في تقديم المنفعة للمجتمع، ومن ثمار ماثلة في الواقع لتلك المنفعة، وهو لذلك باب مهمّ من أبواب الشهادة على الناس، التي على المسلمين أن يؤدّوها في نطاق الشراكة الحضارية، التي هي هدف وجودهم بالغرب، كما حدّدناه في صدر هذا البحث.

لقد شهد الوجود الإسلامي بالغرب، خلال مراحله السابقة ويشهد في واقعه الراهن، أوضاعاً من القلق جرّاء أسباب مختلفة، بعضها ينحدر إلى الماضي في ما يختزن من ذكريات الصراع بين المسلمين وأهل الغرب، وبعضها يعود إلى الحاضر في

(١) كثير من الشباب الذين يطلبون اعتناق الإسلام في فرنسا مثلاً، يكون ذلك بسبب ما رأوا في أترابهم المسلمين من تكافل أسري معنويّ ومادّي، وبما أنّهم يشعرون بفقر شديد في ذلك، وتتوق أرواحهم إليه بحكم الفطرة البشرية، فإنّهم يطلبون الانضمام إلى هذا المناخ الثقافي الحضاري الذي يوفّر لهم ما يطلبون.

مـــا يمـــور به العالم من أحداث، وقد كانت نازلة سبتمبر إحدى أكبر الأسباب التي أجّجت ذلك القلق في وضع الوجود الإسلامي بالغرب، ونحسب أنّ العلاج الناجع لهذا الوضع لا يكون إلاّ بأن يكون لهذا الوجود أفق حضاري بعيد المدى، يتجاوز به الأحـــداث اليومية والنوازل الطارئة، وينخرط به في المجتمع الغربي الأكبر على أساس شـــراكة حضـــارية، يســـهم بـــها معنوياً ومادّياً في تقدّم المسيرة الحضارية الغربية خاصّـــة والإنســـانية عامّة، عطاء للقيم المرشّدة والقوّة المنجزة، واستفادة للحكمة العلمية والعملية.

فهذا الوجود الإسلامي في الغرب، بتناميه المتسارع كمّاً وكيفاً، قد أصبح واقعاً أوروبـــياً لا يمكـــن حذفه، ولعلّ القدر قد هيّأه ليكون سبباً في التواصل بين العالمين الإســـلامي والغـــربي، تواصلاً يتحقّق فيه الهدف الأكبر من جعل الله تعالى الإنسانَ شـــعوباً وقـــبائل، وهو التعاون من أجل ما فيه خير الإنسانية، كما جاء في الذكر الحكـــــيم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ (الحجرات:١٣).

مؤسسات المسلمين في أمريكا الشمالية بين الدور الغائب.. والفاعلية المطلوبة

الدكتور مازن موفق هاشم (*)

في عصر الاتصالات العولمي، فإن الانعكاسات الجاهلة لمسلم في زاوية قاصية من الأرض، لا تفهم منطق العصر وذوقه، تُحسب سلباً على الأمة جميعاً.. فهل يلزم التذكير بأن الغضب والاحتدام لا يساعد الجاهلَ على التعلم، ولا يشجع الشاكَّ على التفهم، وأن الابتسامة سنةٌ ولو لعدسة التقرير المصوِّرة.

تحيط عبارة «مسلمي أمريكا» هالة ضبابية مبالغ فيها، مثل ما تحيط صورة هذه البلاد في أذهان الكثير من الناس.

صحيح أن مسلمي الغرب يحتلون موقعاً مميزاً، بحكم المنظومة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يعيشون فيها، إلا أنه تواجههم هذه المنظومة بتحديات

(*) متخصص في علم الاجتماع، يدرس في جامعة جنوب كاليفورنيا.. (الولايات المتحدة الأمريكية).

هائلـــة عـــلى المستوى الثقافي والعملي، وتطرح إشكالية الاستفادة والانسجام مع المحافظـــة عـــلى النسق الثقافي الإســـلامي، وإشـــكالية التفاعل والتكامل من غير الانحلال والذوبان.

ولقـــد حطّـــت في أمريكا هجرات مسلمة متعددة اختلفت خصائصها الذاتية وظروفها الموضـــوعية في إمكانية تأســـيس وجود مســـلم في هـــذه البلاد. ولكن تمـــيزت آخر هذه الموجات بأنـــها اســـتطاعت أن تتجاوز الوجـــود الفردي المحتم الذوبـــان وأقامت المؤسسات التي تحفز الهمم وتراكم الجهود وتحمي من الانطواء في عالم النسيان.

ويستفتح هذا الفصل المعالجة بالإشارة إلى محطات تاريخية مرَّ بها الوجود المسلم بقطاعـــيه الأفـــريقي قـــديم الوجـــود والمهاجر حديث القدوم، ثم يفصّل في تطور المؤسسات الإسلامية في العقدين الأخيرين.

كمـــا يناقش هذا الفصل التوجهات المتباينة للأعمال الإسلامية، ويختتم الحديث بتسليط الضوء على خيارات المستقبل.

لمحة تاريخية

ظروف إمكانية التماسك

مســـلمو أمـــريكا الشمالية ليسوا إلا من جملة مسلمي العالم المسلم، يشتركون معهم في أغلب الخصال والصفات. ولكن موقعهم الحياتي يفتح لهم فرصاً ويواجههم بـــتحديات مختلفة بطبيعتها وبكمونها عن المسلمين في بقاع أخرى. ولا بد أولاً من التذكير أنه بالنسبة للولايات المتحدة الأمركية فإن هناك كتلتين رئيستين للمسلمين، كتلة السكان الأصليين الأفارقة السود وكتلة المهاجرين، وتختلف الفرص والتحديات والخصال الثقافية والمواقع البنيوية اختلافاً شديداً بين هاتين المجموعتين.

ففـــي حين عانت مجموعة الأفارقة السود مشاكل الفقر والتفرقة العنصرية، فإن مجموعة المهاجرين تتميز بذخيرة ثقافية علمية ومادية أعلى بكثير رغم أنهم يواجهون تحديات التأقلم. ولا يقف التباين بين هاتين المجموعتين عند مسألة الإمكانات المادية -رغم محوريتها- بل ويشمل النمط الثقافي والمستقبل المرموق؛ وذلك لأن الإشكالية العرقـــية في تـــاريخ أمـــريكا لم تحلّ إلى اليوم، رغم كل الجهود الكبيرة التي بُذلت لمعالجـــتها. وإذا كـــان المسلم المهاجر يواجه اليوم التحيز والتهميش، فإنه على كلّ حال يأمل واثقاً أن أولاده الذين يُتقـــنون اللغة ويفهمون أســـرار الثقافـــة سوف لا يعانون كثيراً مما عاناه. ولكن المسلم الأفريقي الأسود لا يخامره شكّ بأنه رغم أنه ابـــن هـــذا البلد الذي عاش فيه قروناً فإن مصيره محكوم بمصير الســـواد العرقي في أمـــريكا والـــذي لا يتوقع أحد – وعلى رأسهم العلماء والباحثون – أنه في طريقه للحل والنهاية. (1)

(1) للتفصيل في توجهات المسلمين الأفارقة انظر:

Nyang, Sulayman. 1991. "Convergence and Divergence in an Emergent Community: A Study of Challenges Facing U.S. Muslims." In *The Muslims of America* ed. Yvonne Yazbeck Haddad. Oxford University Press. 237-239

أولاً: المسلمون الأفارقة:

لم تكـن معيشـة المهاجـر غير الأوربي يوماً سهلة، خصوصاً إذا رافقتها الرغبة بالحفاظ على الثقافة الذاتية. ولكن اختلفت الشروط الموضوعية التي تمكّن من المحافظة على الجذور الثقافية اختلافاً كبيراً بين المجموعات المسلمة المهاجرة. ولا يخفى أن هناك اخـتلافاً شاسـعاً بين ظروف المهاجرين طواعية للقرن الفائت وبين ظروف الترحيل القسـري للأفارقة في القرن السابع والثامن عشر. وإذا أردنا أن نلخّص القرون الأربعة التي عاش فيها الأفارقة في أمريكا، فيمكن تقسيمها إلى ستة مراحل لكل منها تحدياتها المتميزة في ما يتعلق بإمكانية المقاومة والحفاظ على الشخصية الثقافية. (١)

كانـت المرحلة الأولى هي مرحلة الخدمة الإكراهية في المزارع بعد الاختطاف من بلادهم الأفريقية والعيش في أمريكا المستعمرات المنثورة، وذلك قبل أن تصبح الولايات المـتحدة دولة بالمعنى الحديث. وفي مثل تلك البيئة القاسية والبلد النائية كانت المحافظة عـلى التماسك الثقافي من أعسر الأمور. ورغم أنه وجد من بين الأفارقة الأُول بعض ذوي العـلم والمعـرفة، إلا أن الغالبية كانت سكان قرى بسيطين يتعذر على أمثالهم الصمود. أضف إلى ذلك أنه انتمى هؤلاء الأفارقة إلى قبائل متفرقة ذات لغات مخـتلفة. ولذا كانت أغلب محاولات المقاومة مـحاولات فرار شخصية أو من ترتيب ثلة صغيرة. ويُقدَّر أن نسبة المسلمين من الأفارقة المختطَفين كانت بين السدس والخمس. (٢)

أما المرحلة الثانية فقد استهلت بأنظمة الاسترقاق القانوني بعد عام ١٦٥٠م في مـا يـزيد عـن قرنين من الزمن والعيـش في مزارع إقطاعية ضخمة. ورغم أن ممارسـات التفقير والتجهيل وتحريم تعلُّم القراءة والكتابة على الطموحين من السود ومعاقـبة المـتعاطفين من البيض الذين يحاولون تدريسهم، فإنه توفرت لهم ظروف

(١) تفاصـيل الوقائع التاريخية عن: McLemore, Dale, Harriett Romo, and Susan Gonzalez Baker. 2001. *Race and Ethnic Relations in America*. Allyn and Bacon.

(٢) عن: Edward L. Queen, III, Stephen R. Prothero, and Gardiner Shattuck, Jr. *The Encyclopedia of American Religious History*. (New York: Facts on File, 1996), p. 319.

مقاومــة لهــا علاقة بازدياد أعدادهم بسبب الأرباح التي كانت تُجنى من الاستعباد وجلــب المــزيد من الأفارقة بالإضافة إلى توفّر لغة مشتركة (الإنكليزية) بعد فترة مكــوث طويلــة. وهكــذا تمثلــت عملــيات المحافظة على الشخصية الثقافية في الاجــتماعات الدينية السرّية وفي محاولات الهرب الجماعي للجنوب في المكسيــك؛ وبــين أعــوام ١٦٦٠-١٨٦٠م جرت ٢٠٠ انتفاضة ربما من أصل ١٢٠٠ عملية خُطط لها و لم يُتمكن من تنفيذها.

أمــا فــترة ما قبل الحرب الأهلية الأمريكية وحتى الحرب العالمية الأولى كانت المرحلة الثالثة الحاسمة والتي شهدت تصدعاً في صفوف النخبة البيضاء الحاكمة، الأمر الذي قدم فرصاً لم تكن متوفرة من قبل. كما شهدت هذه المرحلة تغيرات اقتصادية مهمة في بداية التحول نحو التصنيع في الولايات الشمالية آنذاك (شمال شرق الولايات المــتحدة الــيوم) والرغبة فــي تغيير طريقة استغلال العمالة السوداء. وأخيراً فإنه شــهدت هذه الفترة تغيرات قانونية أســاسية بما فيها التعديــلات الدستورية رقم ١٣و ١٤و ١٥ والتي سمحت للسود بالمشاركة السياسية. ولكن شهدت هذه المرحلة أيضــاً أبشع عمليات التفرقة العنصرية البيضاء في الحياة اليومية، إلى جانب الاغتيال وحرق المحاصيل، وذلك بعد ازدياد التخوف من السود وهم في بداية تحررهم.

أمــا المرحلة الرابعة في تاريخ الأفارقة الأمريكيين فإنها اُستهلت منذ أيام الحربين العالميــتين وخدمة السود في الجيش وإلقاء كثير من العبء على أكتافهم. وكان لهذه التجربة أهمية في صهر السود في المجتمع، فها هم يدافعون عن نظام يستعبدهم، نظام يــريد أن يحــرر (الآخر) من العنصرية والفاشية ويتردد في تحرير قطاعات من ذات شعبه. وتدلّ التقارير أن الحكومة الأمريكية كانت تتابع بحذر صورتها الخارجية نحو الســود في نــزاعها السياسي العالمي مع اليابان وغيرها من البلدان.[1] وبشكل عام

(١) عــن: Isaac, Harold R. 1998. "American Race Relations and the United States Image in World Affairs." In Michael L. Krenn. *Race and U.S. Foreign Policy During the Cold War*. NY: Garland Publishing, Inc. pgs. 260-274.

فــإن مــرحلة الحربين العالميتين ومواجهة النازية دفعت بإشكالية العرق الى السطح وأصبح أمراً لا يمكن لأمريكا تجاهله.

ويمكــن أن يُــؤرخ للمرحلة الخامسة من وقت ظهور فكرة أن الدين الأصلي للأفارقــة هــو الإسلام في أعوام ١٩٣٤م، ولقد تزعم هذه الحركة «إيليجا محمد» وأطلــق علــيها اسم «أمة الإسلام»، والتي انتشرت انتشاراً واسعاً نسبياً في أعوام الســتينيات. وبالطبع فإن الأيديولوجية التي دعا اليها «إيليجا» تبدو اليوم خليطاً من عناصــر نصرانية بأسماء إسلامية، فلقد حوى خطابه على عناصر من الإنجيل وقومية أفريقــية وعنجهــية عرقية. وكان «إيليجا» يعلمهم بأن الرجل الأبيض الشرير هو الشــيطان العفــريتي [1] وأن الاغتصاب الذي تتعرض له النساء السوداوات يُنجب «نــيغرو» (تسمية الاحتقار التي كانوا ينادون بها) معجونين بالقيم البيضاء المُنْحَطّة. ودعــا «إيلــيجا» إلى الانفصال عن المجتمع الأمريكي وبناء مجتمع خاص للسود في غياهــب القارة الأمريكية ليُحيوا مجد قبيلة «شباز» التي كانت تنعم بالخير والسعادة وأعلى مستويات الحضارة في المدينة المقدسة مكة.

أما من ناحية البرامج العملية لــ«أمة الإسلام» فإنها تركّزت على أربعة محاور:

١- التعليم، مما سّموه دورة «حضارة عامة»، وكان للنساء صفوفاً منفصلة عن الرجال.

٢- التربية الصارمة شبه العسكرية بما فيها الطاعة والولاء والانضباط .

٣- الدعــوة الى الاعتماد على النفس والاستغناء عن شفقة المتعاطفين من البيض، تحت الاعتقاد بأنه لا يمكن أن يخدم القضية السوداء إلا السود. هذا بالإضافة إلى إعلاء فكرة الحجّ والذي تمحور عنده حول الحجر الأسود، وسود أمريكا هم ممثلو هذا الحجر.

---

(١) يلاحــظ أن مفهــوم الشــيــطان فــي الإسلام يختلف عن مفهوم الشيطان العفريتي الشرير (devil) السائد في المجتمعات الغربية.

٤- برامج اقتصادية محلية تزود السود بالمهارات وتتيح لهم استغناءً مالياً عن المجتمع. [١]

استهلّت المرحلة السادسة في تطور المسلمين الأفارقة بوفاة «إيلجا» عام ١٩٧٥م وتسلّم ابنه الحركة بعد ما توفرت فيها توجهات إسلامية أصيلة. وباشر القائد الجديد «وريث الدين محمد» بتغيير اسم الحركة ورفض المزاعم العرقية التي كان يدعو إليها «إيليجا»، ونادى بأنه لا يوجد مسلم أسود ومسلم أبيض؛ هناك مسلم وفقط. كما رفض «وريث الدين محمد» فكرة الانفصال عن المجتمع وعدم المشاركة في السياسة الأمريكية. وجاء هذا التحول السلمي لحركة المسلمين الأفارقة نحو الأصالة الإسلامية بعد دعوات «مالكوم إكس» الثورية والذي عاد من الحج في عام ١٩٦٤م ليقوم بالوعظ ضد «إيليجا» (بعد أن كان يده اليمنى) وليضع حركة الأفارقة السود برمّتها على مفرق طرق، دافعاً بذلك حياته إذ اغتيل بعد محاضرة له في عام ١٩٦٥م.

ويتعجب الإنسان من حكمة «وريث الدين محمد» الذي قام بخطوة عملية في غاية الأهمية، ألا وهي حلّ المؤسسة الاقتصادية التي يتحكم بها المتنفذون في إمبراطورية «إيليجا» إذ أنه يصعب تصوّر نجاح الفكرة الجديدة إذا بقي للمصالح المرتبطة بالفكرة القديمة مؤسسة تدرّ الأرباح. وبالفعل فقد عارض بعض الزعماء المتنفذين دعوة «وريث الدين» الجديدة التي تتطلع نحو الصفاء والاستقامة. وقامت تغيرات «وريث الدين بتحويل» الحركة المركزية مؤسسياً والمتحورة حول شخص يدّعي لنفسه نوعاً من القوى الخفية والغيبية إلى حركة ترتكز مرجعيتها في القرآن والسنة، ومساجد متعاونة منتشرة في القارّة يؤمها قادة محلّيون تحت ريادة رمزية لها شرعية تاريخية.

(١) للتفصيل انظر: Kepel, Gilles. 1997. *Allah in the West: Islamic Movements in America and Europe.* Translated by Susan Milner. Stanford, CA: Stanford University Press.

ثانياً: المسلمون المهاجرون:

يمكن تقسيم هجرات المسلمين الطوعية إلى أمريكا الشمالية إلى ثلاث موجات: موجة القرن التاسع عشر، وموجة فترة الحرب العالمية، وموجة السبعينيات وما بعدها؛ ولكل موجة خصائصها وظروفها المميزة. (١)

أما موجة أواخر القرن التاسع عشر فقد كان أكثر أعضائها شباباً عزّاباً ليسوا ذوي مهارات عالية، و لم يكونوا من أصحاب التخصصات المهنية والشهادات العلمية الرسمية، بالإضافة إلى أهم كانوا لا يتقنون الإنكليزية. وكانت الهوية الأمريكية يومذاك متمحورة بشكل صريح حول البياض والأصل الأنجلوساكسوني والدين البورتستانتي، وفي فترة عنجهية قومية عالية. ولقد ترك هؤلاء المهاجرون المسلمون بلادهم في أسوأ مراحلها، في فترة التراجع العثماني وبداية التدخل الأوربي المباشر. أضف إلى ذلك أنه كانت تميل نظرة هؤلاء إلى شمال أمريكا أنها محطة مؤقتة من أجل التحصيل المالي، وأنهم سيعودون يوماً إلى بلادهم. ولذا، ومن ناحية القدرة البسيطة لهذه الموجة على التماسك الثقافي يمكن أن نسميها «موجة التردد والتفادي».

أما الموجة الثانية للهجرات المسلمة عقب الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٦٧م فإنها تركت بلادها في سنوات النضال الوطني والاستقلال من الاستعمار. وكما هو معلوم فإن نهاية العهد العثماني قد ترافق مع ظهور التيارات القومية، واعتبارها الأساس المفضّل لترتيب المجتمع ونهج السياسة، بالإضافة إلى القناعة الكاملة في صواب تقليد التجارب العَلمانية وضرورة حصر الدين في أُضيق زوايا المجتمع، إن لم يكن استئصاله بالكلية، على أنه رمز التخلف والرجعية. ولقد كان كثير من

(١) التقسيم الثلاثي والصفات الديمغرافية مأخوذة عن: Waugh, Earle H. Sharon McIrvin Abu-Laban, and Regula Burchkardt Qureshi. Eds. 1991. *Muslim families in North America*. The University of Alberta press.

أصحاب الموجة الثانية طلاباً أو أصحاب مهارات فنّية وتحصيل علمي – خلاف الموجة الأولى– وينحدرون في الغالب من شرائح اجتماعية متميّزة في موطنهم الأم، وعلى معرفة باللغات الأجنبية. ولكن المنزع القومي لهذه الموجة، وعدم تركيزهم على الدين، وفقدان شبكة ترابطهم الاجتماعي، جعل انتماء أولادهم (أي الجيل الثاني من الموجة الثانية) للإسلام أضعف وأوهى؛ ولقد تزاوج هذا الجيل الثاني – مثل نظيره من الموجة الأولى– مع النساء المحليات من خارج المجموعة المسلمة المهاجرة، مما زاد في إضعاف ترابط هذه المجموعة وقدرتها على التماسك الثقافي. ولعله يليق وصف هذه الموجة بموجة «الاحتذاء والتقليد»، إذ أنه لم يكن همّها المحافظة على الجذور الثقافية بقدر الحفاظ على شاراتها، وقاموا ببناء بعض المؤسسات التي تُحيي الصفة الفلكلورية لثقافة بلد الأصل إلى جانب بعض الاهتمامات السياسية.

أما الموجة الثالثة – موجة «الاعتزاز والثقة» – في نهاية الستينيات فكان لها أكبر الأثر على المجتمعات المسلمة في أمريكا الشمالية، بسبب عددهم الكبير، وبسبب خصائصهم وسوية التزامهم الإسلامي، وطبيعة السياق الجيوغرافي السياسي الذي هاجروا خلاله. فبالنسبة لمهاجري البلاد العربية كانت فترة انجراح الضمير العربي بعد الحرب مع إسرائيل، وفترة اهتزاز الأيديولوجيات القومية التي كان يُنادى بها والتي أصبح يُنظر إليها على أنها شعارات فارغة لا تسمن ولا تغني من جوع. ومن ناحية أخرى قَدُم هؤلاء إلى أمريكا في ألين فتراتها الثقافية تعاملاً مع المهاجرين، وعقب الإنجازات القانونية لحركة الحقوق المدنية (التي شكّل الأفارقة قوامها). وكما سيأتي تفصيله فإن هذه الموجة كانت وراء النمو الباهر في النشاط الإسلامي، بغض النظر عما يمكن قوله حول نضجه وصواب خططه.

التحديات المؤسسية والبناء الداخلي

يعـــيش معظـــم المسلمين في بلادهم في مناخ اجتماعي فيه الكثير أو القليل من معطيات الإسلام، مناخ رغم احتوائه الكثير أو القليل من معطيات الإسلام واحتوائه على الشوائب والواردات، إلا أنه متأقلم لحدٍّ ما مع روح الإسلام ومتطلباته، أو مع ظاهـــره وشكله على الأقل. ويسري هذا القول على الثقافة العامة، وعلى الوسائط الـــتي تتحرك فيها هذه الثقافة. فمثلاً مساعدة الفقير المحتاج عنصر ثقافي له جذوره الإســـلامية، ويتحقق في الواقع - عندما يتحقق - من خلال شبكة علاقات طبيعية تتحســـس حوائـــج الناس. والمقصود هنا الإشارة إلى أن معظم العناصر الثقافية في مجـــتمعات المســـلمين تتحرك من خلال علاقات طبيعية فيها قدر كبير من العفوية ولـــيس بالضـــرورة من خلال مؤسسات رسمية. وبغض النظر عن دقة انطباق هذه الصـــورة عـــلى واقع المسلمين المعاصر، فإن هذا النموذج هو الذي كان سائداً في المجـــتمعات التقليدية. وإنه إذ تصدع هذا النموذج وتفكّك فإن الواقع المسلم يمشي أعرجاً بين أساليب تقليدية غير منسجمة مع الواقع الحديث المستورد وبين القليل من المؤسسات الخيرية غير المتبلورة والتي تحاول أن تفي ببعض حاجات الناس.

قدمـــت بهـــذه المقدمة لأنها تضع أيدينا مباشرة على الإشكال التنظيمي الذي يواجهـــه المسلمون المهاجرون إلى البلدان الصناعية الديمقراطية. وذلك أن كثيراً من الخدمـــات الاجتماعـــية في هـــذه البلدان تتحرك وفق نمط مؤسسات رسمية (مدنية وليســـت حكومـــية بالغالـــب)، وليس وفق النموذج التقليدي الذي يُفعّل شبكة العلاقـــات الطبيعية. وعلى هذا فإن التحدي الذي يواجهه المسلمون في الغرب هو فقدانهـــم لـــتلك الروابط الطبيعية التي ينعمون بها في بلادهم الأصلية، والحاجة إلى

تحركهم في مجتمع قائم على المؤسسات حتى في أموره الاجتماعية البحتة. وهذا لا يعني أنه ليس في المجتمعات الغربية علائق شخصية غير رسمية وروابط صداقة وتعارف، وإنما يعني أنه تتحقق كثير من هذه الروابط من خلال مؤسسات. فمن الرياضة إلى المطالعة إلى جهود الإعانة، تتم الانشطة الاجتماعية من خلال مؤسسات معترف بها قانونياً ولها مجلس إدارة وأعضاء وانتخابات ودستور ولائحة بأصول التصرف، وربما يكون أعزّ أصدقاء المرء هو ذاك الذي يلقاه في نادٍ من النوادي، ويسكن بعيداً عنه، وليس جاره الذي لا يكاد يعرف اسمه.

أما الحاجات الجماعية الرئيسة فيوجد في الولايات المتحدة مؤسسات خدمات عامة نصف حكومية، مثل المكتبات العامة والحدائق العامة والتي قد تحتوي على قاعة رياضية ومسبح ...إلخ؛ ولقد استعملت عبارة «نصف حكومية» رغم أنها حكومية؛ لأن للجمهور قولاً كبيراً في مسيرة هذه المؤسسات. وتوجد هذه المؤسسات في كل حي وتموّل غالباً من ميزانية الحي والمدينة. وقد يكون لها بعض الارتباط بجهاز الحكومة المحلية أو جهاز حكم المقاطعة (وقليلاً ما ترتبط بحكومة الولاية، ويندر أن ترتبط بالحكومة الفدرالية إلا من جهة هبات مالية). ثم إنه تكاد لا تكون هناك هواية (بما فيها الهوايات المنحرفة) إلا ولها جمعية خاصة بها، وغالب هذه المؤسسات لاربحية، تطوعية، إلى جانب بعض المؤسسات الربحية مثل الأندية الرياضية.

إن ديناميكية المجتمع الأمريكي إنما تكمن بالضبط في الطيف الهائل لمؤسسات المجتمع المدني، وهنا بيت القصيد. فالمهاجرون اعتمدت مجتمعاتهم على العلاقات غير الرسمية في تسيير أمورها وعلى تشكيلة المجتمع التقليدي التي فُكّكت معظم مؤسساته، بالإضافة إلى نظام إداري يحصر كلّ الخدمات العامة في حكومة غير قادرة على تلبيتها.. يأتي هؤلاء من هذه الخلفية الإدارية إلى مجتمع يعتمد بشكل كبير على

المؤسسات نصف الرسمية، والذي لا يمكن التحرك فيه بفاعلية من غير هذه المؤسسات. ويفسّر لنا هذا لماذا يعاني عادة المهاجرون من المدن صعوبات أقلّ في التأقلم مع أمريكا من أهل الأرياف، وهذا مثبت بين جميع الأقوام. ومردّ ذلك هو بالضبط اعتيادهم النسبي على العلاقات الرسمية غير الحميمة والأقرب إلى التعاقدية والتي تسود في المدن أكثر من الأرياف. ويُذكر هنا أن شدّة الحراك الاجتماعي لليهود يُعزى إلى حدٍّ كبير إلى تأقلمهم مع حياة المدن، واعتيادهم على العيش قريباً من هوامش المجتمع، والتأثير فيه بآن واحد.

والخلاصة، أن تحدي المهاجر هو تحدٍّ مزدوج: تحدي إمكان الاستفادة من الموجود من المؤسسات، وتحدي إنشاء المؤسسات الخاصة التي تخدم قضايا الجالية بالتحديد. ولقد انصب جهد المسلمين في بواكره على تأسيس مساجد، تلك المؤسسات التي تجمع شملهم وتوجّه نظرهم نحو أعمق بعد في هويتهم... وكان أول جهدٍ مدوَّن في هذا الاتجاه هو «معبد المغاربة العلمي» (كذا بهذه التسمية) بين عامي ١٩١٩- ١٩٢٩م، وتلاه مساجد أسست بين عامي ١٩٣٠-١٩٥٠م من قبل «أمة الإسلام» جماعة الأفارقة السود. وبالطبع فإن تأسيس هذه المساجد كان يعكس الحاجة الماسة لبلورة هوية تأبى جذوتها الإسلامية أن تنطفئ. ورغم العناصر الخرافية التي احتوت عليها دعوة «إيلجا محمد» بين السود، فإنه يجب أن توضع في سياق الظروف الرهيبة التي عاناها السود وافتقارهم المرجعية الواضحة والعلم الكافي بالإسلام.

كانت هذه هي البدايات التنظيمية الأولى والمتواضعة لمسلمي أمريكا، ومرّت بعدها بثلاث مراحل: مرحلة التجذير، ثم مرحلة التوسع، التي تلتها مرحلة التخصص، وهذا ما سوف يجري مناقشته بالتفصيل.

أولاً: فترة التجذير:

بقيت المنظمات الإسلامية حتى منتصف القرن العشرين منظمات محلية. أما أعوام ١٩٥٠م-١٩٦٠م فقد شهدت أول تأسيس لمنظمات على مستوى أمريكا، سواء في توسع نشاطات «أمة الإسلام» للأفارقة السود، أو في اتحادية الجمعيات الإسلامية للمهاجرين العرب.(١) ولقد عفى الزمن على هذه المؤسسات ودخلت في مرحلة جديدة بعد التغيير في مضمونها الأيديولوجي، حتى إذا حلت سنوات ١٩٦٠م-١٩٧٥م فكانت أول تاريخ لايجاد مؤسسات إسلامية ذات عمق أصالة إسلامي وذلك في تأسيس جمعيات الطلاب المسلمين (MSA) في كثير من الجامعات. ورغم جدّتها وضعفها، ورغم أن مؤسسيها لم يكونوا أكثر من طلاب قادمين إلى أمريكا بنيّة الدراسة والعودة إلى بلادهم، أصبح لهذه المؤسسات شأن في ما بعد في ما آلت إليه. وإنه لمن المفارقة أن يترك هؤلاء المهاجرون المؤقتون العابرون أكبر الأثر على صيغة الوجود المسلم في أمريكا. فمقابل الجيل الذي سبقهم -الجيل الذي يستحي من الإسلام وممارسات المسلمين- فإن جيل الثقة هذا معتز بالإسلام وبالنمط الاجتماعي الاسلامي، وبالتالي كان فاعلاً مجدداً ومنشأً لهذا النمط: نمط الالتزام الكامل بالإسلام ولكل أفراد الأسرة، بما فيه الالتزام بلباس إسلامي بالنسبة للنساء وإطلاق اللحى بالنسبة للرجال، بالإضافة إلى مَنْزِع حركي دَعَوي تملؤه الثقة بصلاحية الإسلام وحاجة العصر الحديث الماسّة له.

إن فيض هذه المشاعر القوية وضع بذوراً للوجود الإسلامي في كل موطئ قدم لطالب ملتزم، فلم تخل مدينة جامعية من مركز (أو مريكز على وجه التحديد)؛ ومثّلت هذه المراكز منارات إشعاع تحفظ على الطلاب دينهم وانتماءهم إلى

(١) للتفصيل انظر: Ahmed, Gutbi Mahdi.1991. "Muslim Organizations in the U.S." In *The Muslims of America* ed. Yvonne Yazbeck Haddad. Oxford University Press. P. 23.

الإسلام، بل وتستجلب الكثير من الطلاب الذين أتوا الولايات المتحدة غير متديّنين وعاينوا الغرب عن قرب فزالت عن أعينهم أغشية الإعجاب، وتفطنوا إلى منـــزلقاته الاجتماعية الخطيرة، فكان دافعاً لهم للالتزام بعدما رأوا السيوبة الأخلاقية ماثلة أمام عـــيونهم. وحيث إن كثيراً من جامعات أمريكا تنتشر في مدن صغيرة، فإنه لم يكن بالإمكان إحكام تنظيم تلك المؤسسات المتناثرة. ويجب أن لا ننسى أننا حين نتكلم عن أمريكا الشمالية نتكلم عن قارة كاملة، ولذلك فإن جمعيات الطلاب هذه مرت بكـــل أطـــوار النمو والاضمحلال. فمثلاً تقطن مجموعة طلاب نشيطين في مدينة جامعـــية صغيرة فيحوّلون الركن الصغير إلى شعـــلة نشاط، ثم ربما يتخرج أكثرهم ولا يرْفد الجامعةَ فوجٌ جديد فتنطفئ تلك الشعلة سنين حتى يأتي من يذكيها ثانية.

ثانياً: فترة النمو والاتساع:

بـــيد أنه إذ تخرّج هؤلاء الطلاب من الجامعات وتوجّهوا إلى المدن الكبيرة حيث تتوفر فرص العمل، فإنهم نقلوا بذور الوجود الإسلامي إلى سياقات اجتماعية جديدة وظروف موضوعية أكثر ثباتاً. لقد أسس هؤلاء مراكز جديدة في المدن التي حلّو بها، أو شـــاركوا في النشاطات القائمة ناقلين شعلة النشاط الحركي إلى مراكز جاليات نصف خاوية. ومرة ثانية تكمن المفارقة في أن شعور الغريب وعابر الطريق الذي تمتع به هؤلاء الطـــلاب مكّنهم من المحافظـــة على الإســـلام – ولو ضمن قوالب ثقافية لا تناســـب الأرض الجديدة – فقام هذا التوجه بتعديل كفّة الانزلاق التدريجي الذي كانت تمرّ فيه الجالية المسلمة الأقل التزاماً أيديولوجياً بالإسلام، والتي يشكّل الإسلام بالنســـبة لهـــا عادات وذكريات طيبة أكثر من مبادئ وأحكام قطعية. وهكذا دخل الفكر الإسلامي الحركي أمريكا وتأسس فيها، وبالذات امتدت تنظيمات الجماعتين الكبيرتين الإخوان المسلمين (العرب) والجماعة الإسلامية (الباكستان والهنود) بشكل عفـــوي غـــير منظّم إلى أمريكا الشمالية. أي أنه كانت السبعينيات مرحلة دخول

الالـــتزام الإســـلامي والـــتوجهات الحركية إلى أمريكا، دخولها بمنطقها إن لم يكن بمؤسســـاتها، فكانت كالإنزيم الوسيط الذي فسح المجال لتفاعلات جمّة أن تحدث في مجموع جسم الوجود المسلم في أمريكا الشمالية.

والســـؤال الـــذي يطـــرح نفسه هنا: هل أثّر هذا التيار على حركة المسلمين الأفارقـــة؟ لـــيس هـــناك دلائل على هذا، والتغيرات التي حدثت في توجيه الوعي الإســـلامي الإفـــريقي في أمريكا كان نتيجة عوامل داخلية محضة، من موت القائد الرمزي واستلام الريادة من بعده ممن اتصل ببلاد المسلمين. ولكن مع هذا فإن منطق الـــتأثير الاجـــتماعي يقتضـــي القول: إن حركة التأصيل والعمق التي بعثتها جموع الطـــلاب شكّلت مناخاً إسلامياً عاماً أعلى سوية من الطرح السائد آنذاك، وساعد على النضوج الإسلامي بشكل عام بين كل فرقه وألوانه.

ولكن لا بد من الإشـــارة إلى أن العقلية الحركية الطـــلابية التي حفزت الجهود لم تكن تعبأ كثيراً بمعضلة التكامل مع المجتمع، فساهمت بشكل غير مباشر في حجز الوجـــود الإســـلامي عـــن التفاعل الجادّ مع المجتمع المُضيف وعن محاولة التأثير في ســـيرورته، الأمـــر الـــذي كان قد توجّه إليه بعض أفراد الموجة الثانية والعرب غير المســـلمين مـــنهم بالخصوص. أي أنه انحصر اهتمام التيار الطلابي بإصلاح الذات. وكانت الثمانينيات بداية جديدة في الوعي الحركي وفي أهداف النشاط الإسلامي في المجـــتمع الأمريكي. وتمثّل هذا رسمياً بتحوّل جمعيات الطلاب (MSA) إلى «الإسنا» جمعـــية مســـلمي شمال أمريكا (ISNA). لقد كَبُر الطلابُ وتزوجوا، واهتمامات المـــتزوج تختلف عن اهتمامات الطالب الثائر غير المبالي بالمحيط الاجتماعي أو الذي يحرص أن يتميز عمن حوله.

ورفد هؤلاء الطلاب، الذين أصبحوا مهنيين متخصصين في مواقع عمل محترمة، أفـــواجٌ مـــن المهاجـــرين والمهجّـــرين الذين تركوا البلاد المسلمة بسبب الظروف

الاقتصادية والسياسية، فزادوا الوجود الإسلامي في أمريكا الشمالية عُمقاً وثباتاً. والأهم من ذلك أنه بدأ التوجه نحو خدمة الجالية المسلمة ورعاية حاجاتها الأساسية. وبشكل طبيعي فإن المؤسسة الثانية التي بدأ المسلمون التركيز عليها بعد المساجد هي المدارس، فلقد أصبح هناك جيل جديد من الأولاد يحتاج أن يُلقَّن الإسلام في مناخ المجتمع الكبير، الذي لا يسمح بتشرب الممارسات الإسلامية اليومية بشكل عفوي كما يحدث في بلاد الأكثرية المسلمة. ومن ذاك الوقت وحتى اليوم تبقى مسألة تعليم الصغار واليافعين أكبر تحدٍّ يواجه الجالية المسلمة، وأي جالية مغتربة تسعى للحفاظ على وجودها الثقافي.

ويحسن هنا التوقف لحظة لإعطاء صورة مجملة عن وضع المسلمين في الثمانينيات:

١- تدفق لأعداد كبيرة من المهاجرين المسلمين.

٢- توجه همّ الأعمال الإسلامية إلى خدمة قضايا الجالية بعد ارتياحهم وتأقلم شعورهم لفكرة أن هذه أرض مهجر لن يغادرها المسلمون، بل سيبنون فيها مستقبلاً للإسلام.

٣- تعاصر ثلاثة أنماط من الوجود المسلم: الوجود المسلم الأفريقي الذي شقَّ طريقه باتجاه الانتماء إلى الأمة متخذاً القرآن والسنة مصدراً له؛ وكتلة الجالية ذات الخلفية غير الحركية، التي دعت احتياجاتها إلى تأسيس أو المشاركة في مؤسسات ومراكز إسلامية لا تتميز عموماً بالعمق الإسلامي وتغلب عليها المرونة في المواقف والتي قد تصل إلى حدِّ الشطط؛ وكتلة مراكز الحركيين التي تتميز بالجدّية الإسلامية وقدر من التصلب في المواقف لا داعي له.

وإذا كان عقد الثمانينيات هذا هو عقد تجاوز الأفارقة لخصوصياتهم المحلية وتاريخ قهرهم وكلٍّ ما رافق ذلك من صبغ لمفاهيمهم، فإنه كان أيضاً عقد تجاوز

المهاجرين المسلمين لخصوصيات بلدان المنشأ، وكل ما يرافق ذلك من صبغ مفاهيم الإسلام وطرق التصرف بطابع بلدانهم العالم ثالثية، وبداية انسجامهم الواسع مع الوطن الجديد في أمريكا الشمالية.

ويتساءل بعضهم: لماذا احتاج المسلمون هذا الزمن لبداية استفادتهم من موقعهم الجديد في حين أن اليهودي يأتي إلى أمريكا فعالاً من أول يوم؟ ولكن يغفل هذا السؤال عن أن اليهودي إنما يتحرك في مناخ ثقافي اعتاده من جهة، ومنسجم مع إطار فلسفته الحياتية من جهة ثانية، بالإضافة إلى أن اليهود ساهموا في إنشاء هذا المناخ الثقافي أصلاً. أما في حالة المسلمين فلا بدّ من فترة تأقلم وتعلم. وكما هو معهود في عالم البشر، فإن مثل هذه التغيرات تحتاج إلى زمن تتدافع فيه الفعاليات ووجهات النظر داخل المؤسسات؛ وإذا كان المخاض لا بد وأن يمازجه دوافع مصلحية، لكن معظم الخلاف يأتي من عدم قناعة بعضهم بصواب التوجه الجديد أو في ترتيب أولويات التغيير وسرعته.

ففي حالة الأفارقة المسلمين كان لا بد أن يكون هناك مخاض فيه خلاف وبعض النزاع في توجه الأفارقة نحو الأمّة والسنّة... لقد وُجد من القادة من خالطه حبُّ منصبه فقاوم التغيير؛ لأنه سيسلبه موقعه الرمزي كنائب عن رئيس الجماعة السابق الذي يساوي نفسه بالأنبياء. ولكن إذا نحّينا مسألة المصالح جانباً فإن طريقة التحوّل أمر اجتهادي لا يتصور عدم اختلاف البشر حوله. فمثلاً كيف يمكن أن لا يختلف الأئمة الأفارقة حول سرعة التحول والإعلان الصريح بأننا لسنا «أمة الإسلام» المتميزة وإنما قوم من أقوامه وجزء من جسم الأمّة الكبير؟ وكيف لا يختلف قادة السود حول أهمية إشكالية العرق في حياتهم وهم يعيشيون حقيقة واقع هذه الإشكالية وتواجههم في كل يوم وحين.

فـإذا انتقلـنا إلى منظمة المجتمع الإسلامي لشمال أمريكا (الإسنا)، فإن التيارات الحركـية داخلها كان لا بد لها أن تتعارض وتتدافع حتى تستقر على وجه ما، فقوامها مهاجـرون مـن خلفـيات قومية ومذهبية وحركية متباينة. واعتركت هذه المنظمة لسـنوات عديـدة في تسوية الرؤى المتضاربة للتيارات الإسلامية داخلها، سواء من فصائل الإخوان المختلفة أو مع غير الميل الإخواني منهم. وكما نبّهت فإنه من الطبيعي أن يخـتلف الناس في ترتيب أولويات المرحلة الجديدة، ولو كانت قد اتفقت أن عليها أن تتجاوز مرحلة النشاط الطلابي وأن تُعنى اهتمامها بوجودٍ أكثر امتداداً واستقراراً .

وبالطبع فإنه رافقت هذه الخلافات خلافات ذكريات الماضي.. فبعض الناشطين في أمـريكا لهم خبرة سابقة في حركات إسلامية في بلد المنشأ، وللناس استطاعات متفاوتة في تجاوز أحلام الماضي وطرقه الراسخة ومواجهة الواقع الجديد ومستلزماته المسـتجدة. وكذلـك فـإن الناس تتفاوت في نظرتها نحو العادات المسلمة (وليس الإسـلامية) الـتي كانـت تمـارس قبل الهجرة: هل هناك فائدة من الحفاظ عليها كـ«مـِثال محلول» لمسألة إسلامية، أم يجب صياغة عادات مسلمة جديدة ضمن البيئة الحاضرة؟

وكانـت هذه إحدى خلفيات تباين الآراء في هذه المؤسسة الجامعة التي حوَت عـلى مسـلمين جُدُد (بيض من أصل أُورُبي) ممن عندهم شك في صلاحية عادات وتقاليد بلاد المسلمين. كما كان هناك محور آخر للخلاف، خلاف بين رؤية العرب وغـير العـرب داخل المؤسسة. فكل من هاتين المجموعتين لها قناعة بجملة ممارسات مبنـية عـلى الخـبرات السابقة التي ترى فيها صواباً مدعوماً بالتجربة، أو أنها مجرد ممارسـات اعـتادت عليها ولا يخطر ببالها وجوب التغيير والتعديل، فتمارسها عفواً بشكل يرتكس له من لا يأتي من نفس الخلفية الثقافية على أنها ممارسة فجّة.

ويجب التذكير هنا بأن مؤسسة المجتمع المسلم لشمال أمريكا ليست مركزاً إسلامياً في مدينة ما، إنما هي مؤسسة جامعة تمثل طيفاً من التوجهات والاهتمامات الإسلامية، بما فيها التوجه الإخواني بانتماءاته المتعددة، وتوجّه الجماعة الإسلامية في القارة الهندية بألوانه المتعددة. ولذا كان من الطبيعي أن يحتاج هضم العناصر المختلفة إلى سنوات من العمل المشترك الذي تصهر تجربته التباينات وتسدّدها نحو هدف عملي مشترك. وكان من جملة هذا التدافع في سنوات لاحقة أن قامت عناصر القارة الهندية التي تُفضّل أن تبقى قريبة من نمط تحرك الجماعة الإسلامية في باكستان أن تستقلّ بمجموعة خاصة «الحلقة الإسلامية لشمال أمريكا، ICNA» في حين أن «منظمة المجتمع الإسلامي لشمال أمريكا، ISNA» طامنت من انتماءاتها التاريخية وأضحت تركّز بالكلية على شؤون المسلمين في أمريكا مستقطبة جنسيات وخلفيات متباينة.

وأنبه أيضاً إلى أن التركيز الزائد على منظمة «الإسنا» خطأ، إذ كما قدّمت هي مجرد منظمة جامعة لا تمثل قيادة مركزية للعمل الإسلامي في أمريكا. ولكن لزم ذكرها لأن التطورات والتغيرات فيها تعكس التطورات والتغيرات الجارية في الـ«شارع» المسلم في أمريكا، إن صحت التسمية. وليس «للإسنا» سلطة إدارية محققة بقدر ما تمثل رمزاً معنوياً يُريح الكثيرين. ويجب التأكيد بأن هناك العديد من المراكز المستقلة بالكليّة؛ وبالطبع يخصّ هذا الكلامُ مراكز المهاجرين، أما مراكز الأفارقة فلها تشكيلتها الخاصّة بها. ومرّة ثانية فإن التفريق بين المراكز المتعاطفة مع «الإسنا» وغيرها من المراكز تفريق لا يخلو من الاعتباطية، فكل المراكز تعمل في مناخ متشابه وتواجه تحدّيات متشابهة، كما أن كلاً منها مستقلٌ قانونياً تجاه الدولة، ومستقلٌ اقتصادياً بتمويل المتبرعين المحلّيين، ومستقلٌ إدارياً بقيادة ثلة من الناشطين.

ثالثاً: عقد التخصص:

أطـلّ عقد التسعينيات على اتساع وتنوع شديد في المنظمات الإسلامية. حيث يلاحـظ بـزوغ المؤسسـات المتخصصة التي تُعنى بجانب محدَّد من حياة المسلمين. وصحيح أن بعض الاهتمامات المركّزة المحدودة مثل المؤسسات الاقتصادية للتمويل غير الـربوي للمشـاريع، وشراء البيوت، كانت قد بدأت منذ عقد مضى، إلا أن ما يميّز التسـعينيات هـو مشـاريع وأنشطة صغيرة، ربما أتت كجهدٍ مقصود ملّ التهلهل التنظـيمي للأعمال القديمة ذات الأهداف الشاسعة غير الواقعية. وتتراوح طبيعة هذه المؤسسـات بين كونها ذات أثر محلي بحت، مثل إنشاء مستوصف مجاني لفقراء المدينة، أو ذات أثر عام من خلال معالجة مسألة مخصوصة تهمّ الجميع. ومثال ذلك مؤسسة الـ(CIE) التي أُسّست عام ١٩٩٠م بهدف مراجعة تغطية الإسلام في الكتب المدرسية الرسمية في الولايات المتحدة. وهناك مثلاً مؤسسة الـ(ING) التي تأسست عام ١٩٩٣م والتي تهدف إلى تدريب المسلمين على الحديث عن الإسلام والمسلمين وشرحه بطريقة مفهومـة ومقبولة قانونياً (إذ أن الحديث عن الإسلام في مدرسة عمومية مثلاً يجب أن يأتي من زاوية حضارية ثقافية، لا من زاوية تدريس تعاليم دينية؛ لأن هذا يتعارض من مـبدأ فصـل الدين عن الدولة). وهناك مؤسسة (MPAC) السياسية التي تسعى لبناء علاقات طيّبة مع السّاسة المحليين وكوادر الإعلام، والتي تَوسَّع نشاطُها في الثمانينيات وكـان لها جهود مبكّرة ومتميّزة في تطبيع الوجود المسلم في أمريكا. وهناك المنظمة السياسـية المعـروفة (CAIR) التي بدأت في عام ١٩٩٥م مدفوعة بالرغبة في خدمة قضـايا المسـلمين بعد فشل الطرق التقليدية الحركية، متبنّية وسائل أكثر أمريكانية، وساعية إلى حماية الحقوق المدنيّة القانونيّة للمسلمين.

وأخـيراً، فـإن أهم عنصر جديد في عقد التسعينيات كان دخول السلفية والصوفية ساحة العمل الإسلامي. وصار لكل من هذين التوجهين مؤسسات تتكلم باسمهم، ولكن

يبدو أن أثرهم المباشر بقي هامشياً، من الناحية التنظيمية والحركية على الأقل. وإذا كان عقد التسعينيات عقد الفرصة الذهبية فإنه أيضاً كان بمثابة فترة الهدوء قبل العاصفة. وأحسب أن عقدي ما بعد عام ٢٠٠٠م سوف يُسجَّل بأنهما عقدا الجيل الثاني من الموجة الثالثة، جيل المولودين في أمريكا، ومرحلة ريادة المسلمين غير المهاجرين.

ولا بد هنا من التعريج والاعتراف بفضل جهود المسلمين ذوي الأصول الأوربية والذين تحوّلوا للإسلام بمحض إرادتهم. وإن إغفال ذكرهم في ما سبق من العرض لا يعني أنه لم يكن لهم أثر هام في مسيرة الوجود المسلم في أمريكا، بل لقد مثل هؤلاء دور المرشد الداخلي والناقد الذاتي الذي ينبّه المسلمين لمزالق الأرض الجديدة، فهم أبناء هذه الأرض وأدرى بشعابها. وبالذات فقد كان هؤلاء أول من نبّه إلى أنه من الخطأ حصر الإسلام في تجلياته الثقافية التاريخية والمحلية المرتبطة ببلاد المسلمين التي أتت منها هجراتهم، وكانوا من أوائل من دعا إلى تنزيل مفاهيم الإسلام الكبرى وعمومياته على الواقع الجديد، وكانوا في طليعة الركب في الدعوة إلى إعطاء حاجات المسلمين الحاضرة في البلد الجديد الأهمية الأولى، وكانوا جادّين من اليوم الأوّل في الإشارة إلى أن انتماءات ما قبل القدوم إلى أمريكا إنما تُضعف التماسك المسلم وتصرف النظر عن واجب الوقت والمكان، بغض النظر عن ثمانة تلك التجربة. أما الكتب التي ألّفوها عن الإسلام والمسلمين فهي أحسن الكتب مخاطبةً للأمريكيين وللذين يعيشون ظروف وعقلية هذا البلد.

ولقد تحلّى هؤلاء المسلمون الجُدد بالصبر الجميل تجاه التمحورات الإقليمية لكثير من المهاجرين، والانغلاق الثقافي الذي يُعلي من قيمة عادات وأنماطة حياة ليست من صميم الإسلام. كما كان عليهم أن يتعاملوا مع رؤى فقهية وفتاوى ليس فيها شيء من الفقه ودراية الواقع. ولكن لعل أكثر الأمور إيلاماً بالنسبة لهؤلاء المسلمين ذوي الأصول الأوربية هو النظر إليهم شذراً على أنهم لا يفهمون الإسلام. ورغم أنه

يغلب أن يكون هؤلاء قد بذلوا الجهد سنيناً يقرأون عن الإسلام حتى اكتمل انشراح صـــدورهم وقناعة عقولهم، فإن عربياً مسلماً مهاجراً عنده القليل من العلم وتختلط ممارسته الحياتية بعناصر بيئة محلية يشعر بنوع من الامتياز بمعرفته البسيطة للّغة العربية، مُنَحِّياً آراء هؤلاء على أنها لا قيمة لها.

بـــل ولقد تحمل هؤلاء المسلمون الجدد أنواعاً من غياب أصول التعامل ولباقته، كالتـــناجي بالعربـــية في مجلـــس وتركهم يُحوِّلون أنظارهم في الجدران لا يدرون أيضحكون حُمقاً مع النُكات التي لا يفهمون لغتها، أم يبكون لقلة ذوق أفراد يُنتظر منهم أن يحملوا أخلاق الإسلام إلى الموطن الجديد.

وممـــا فـــات ذكـــره أيضـــاً، الإشارة خصوصاً إلى مساهمات النساء في العمل الإســـلامي والساعات الطويلة والجهود الجمّة التي كنّ يقمن بها، سواء كان ذلك في أكثر النشاطات أهمية من التدريس في مدارس نهاية الأسبوع، أو في الخدمات الجليلة التي قُمْن بها في المناسبات والاحتفالات. وإنه إذا كانت الألقاب والشارات والشهرة تذهب عادة إلى الرجال – وإلى المدّعين المتسلّطين منهم بالخصوص – فإن إسهامات النســـاء في الأنشطة الإســـلامية وفي تثبيت الوجود المســـلم في أمريكا الشمالية أمر لا يمكن أن يغفل في التحليل، وإن كان يُسقط عادة من الإثبات والتأريخ.

وأخـــيراً، يجـــب لفـــت النظر إلى ناحية مهمة جداً وهي أن الكتب والأدبيات الإســـلامية لمرحلة ما قبل التسعينيات كان أكثرها قد أُلّف من قِبَل مهاجرين ليست الإنكليزية لغتهم الأم، فكان إن سَلِم المضمون واستوفى الأبعاد العالمية للإسلام، فإن طـــريقة العـــرض لم تكـــن بالتي تناسب هذه البلاد. وإن من أهم ما شهدته الآونة الأخيرة من النشاطات المتخصصة المركّزة هو المؤلفات الجيدة التي تخاطب احتياجات الجالـــية الحاضـــرة أو تـــناقش مبادئ الإسلام وتوجيهاته بشكل يجمع بين الأصالة والمعاصـــرة؛ ومرة ثانية فإن جهود النساء كانت بارزة في هذا، بالإضافة إلى جهود المسلمين غير المهاجرين .

لقـــد قدمت بأنه يبدو أن العقد الحالي عقدَ المسلمين غير المهاجرين، سواء من أبـــناء وبنات المهاجرين، أو من المسلمين أوربيّ الأصل الذين تحولوا للإسلام، أو من الأفارقـــة المســـلمين. لقد أفل العهد الأموي لمسلمي أمريكا، عهدَ المغامرة والنشاط والتأقلم الكيفي والمصلحي مع الواقع... عهد التأكيد على العادات العربية واعتبارها المـــثال الأوحـــد للممارســـة الإسلامية. ولقد دخلنا عصر العباسيين بتلوّن أعراق المســـاهمين فـــيه وتدفـــق التيارات الفكرية والفلسفية من كل جانب. وصحيح أن أعاجم اليوم لم يُتقنوا العربية كما حدث في تاريخنا، إلا أنه طُوِّرت اليوم مصطلحات باللغة الإنكليزية (ما زال بعضها يحتاج إلى صقل) تُمكّن من التعامل قريب المأخذ من الإسلام ومصادره ، ولاسيما بعد توفّر كتب جيّدة عن مبادئ الإسلام العامة.

ونـــتعامل اليوم مع أجيال ترى أن الأرض الجديدة هي ساحة دعوتها وجهادها، ولـــيس لها ارتباط حميم مع بلاد المسلمين، وإنما لها ولاء عام للأمة (وليس للأرض). وقـــد أنتجت تفاعلات التوجهات الإسلامية المختلفة مع التربة الأمريكية ثمراً مختلفاً متنوعاً يمكن أن نميّز منه أربعة على الأقل.

فهـــناك في الأجيال الجديدة توجّه نصيّ مذهبي أعجمي، يجد في حرفية النصوص مرجعية مُطمئنة في عصر الاختلاط وتلاطم الأمواج والدعوات الفكرية التي يدّعي كلٌّ مـــنها لنفســـه الصواب. ولكنها نزعة نصيّة مقصورة على نطاق معين من الممارسات الشـــخصية لا تحجز أصحابـــها عن العيش في غمار المجتمع الأمريكي ولا ترى غرابة في ارتداء قبعة الصلاة مع سروال الجينـــز أو قبعة الرياضة مع الجلابية.

وهـــناك ســـلفية أمريكـــية، ملّت القيل والقال، وتتطلع إلى نقاء مصدر صريح للإســـلام تســـمع مـــنه أحاديث الأمر والنهي، وتطبّقها مباشرة في حياتها وحسب اجتهادها المحلي.

وهناك صوفية أمريكية، تنْفر من الحركة وضجيج الخطاب السياسي، وتتوق لأن تـــركن إلى ما يُهدّئ النفس في عالم مادي شرهٍ ، تتخذ من الحب ناظماً لعلاقتها مع المـــادة التي تغادرها بمغادرة العمل الرسمي اليومي، وناظماً لعلاقتها مع غير المسلمين الذيـــن تتعامل معهم يومياً وتجد في نمطهم المعاشي تقارباً شديداً مع نمطها في ما عدا المآثم والمنكرات.

وهـــناك التوجه البراغماتي لمعظم أبناء الجالية المولودين في الوطن الجديد، والذين يريدون أن يتحركوا بأقصى فعالية من خلال مؤسسات المجتمع الأمريكي. وربما يتبنى هــؤلاء قضايا الجيل الذي قبلهم -بما فيها القضايا السياسية للعالم الإسلامي— ولكن يعالجونهـــا بطـــريقة مخـــتلفة. والأهم من هذا وذاك هو عدم تأكيدهم على مسألة الأصـــالة والنقاء في الفكر والصياغة، فالذي يحدّد إسلامية أمر ما بنظرهم هو مدى لصـــوقية الأنشطة بحياة المسلمين، وليس انتظامها الفكري أو العلمي برؤية إسلامية شاملة أو مشروع غامر متكامل.

ولكن التحول إلى الفترة العباسية لم يكتمل بعد، فما زالت المؤسسات الإسلامية بـــيد الجيل القديم من المهاجرين أو بيد الأفارقة المسلمين (وكما ذكرت فإن الأفارقة ســـوف تبقى لهم خصوصيتهم ما دامت أزمة العرق راسخة في المجتمع الأمريكي). ومـــن ناحية عملية بحتة فإن الموارد التمويلية لمنظمات المهاجرين متركزةٌ في جيوب الجـــيل الأول الـــذي يغلب أن تكون قد ازدهرت مصادرهم المعيشية بعد سنين من العمـــل، مقارنة باليافعين من أبنائهم الذين ما زالوا في أول طريق كسبهم المعاشي. وبالتالي، فإن القرارات العملية للأنشطة الإسلامية تراعي قناعات الفريق الأول.

وإذا أنعمـــنا النظر في العوامل الفاعلة اليوم في الساحة الأمريكية، لوجدنا خليطاً لـــيس من السهل توقّع نتيجة تفاعلاته المرتقبة. فهناك عنصر الجيل الجديد الذي ملّ طـــرق الآبـــاء، وهـــناك إدراك عام بوجوب إعطاء الأولوية لقضايا الجالية في هذه

الأرض، والتقليص من الفهم السياسي للإسلام، ولكن هناك أيضاً شعور زائد بوجوب حماية الحقوق المدنية لمسلمي أمريكا، والتي تمرّ من خلال المنظمة السياسية. وهناك أيضاً تعاطف كبير مع قضايا المسلمين العالمية التي صارت تنعكس على وضع المسلمين الداخلي في أمريكا، تعاطف لا يمكن أن يأخذ برنامجاً عملياً واحداً وربما يسري في دائرة المشاعر لا العمل.

وهناك تيارات فكرية متلاطمة... وبالذات فإنه تجب الإشارة إلى كتابات غير المسلمين التي قد يرى فيها الجيل الجديد تحليلات متينة منظمة رغم أنه تعوزها الأصالة.

وأخيراً، لا بدّ من التذكير بأنه يفتقد المسلمون غير الأفارقة في أمريكا قيادة معتبرة بين الجميع. فالأفارقة لهم احترام كبير للريادة التي قادت مسيرتها من الهامشية الإسلامية إلى وسط الإسلام (والتي ربما بدأت بالذبول)، أما بالنسبة لغيرهم من المسلمين فليس هناك بطل واحد. فكل مركز إسلامي له أعلامه الذين نهض العمل على أكتافهم، وبعضهم ليس مهيأً للقيادة البتة، كما أن بعض هؤلاء على خبرة في إدارة الأمور العملية وليس عندهم رؤية شاملة تتجاوز محلتهم وظرفهم الخاص. وحتى قيادات «الإسنا» التي كان لها شأن وصيت حين لّمت شمل التوجهات المتباينة، لم تعد أسماؤها تستجلب معظم المسلمين، لا سيما الجيل الناشئ، فالجيل الناشئ مأخوذ ببعض الشخصيات غير المسنّة من المسلمين الذين تحولوا للإسلام، سواء كانوا بيضاً أو سوداً، والذين يجمعون بين بلاغة التأثير بالإنكليزية والمعرفة الجيدة للعربية وللمسائل الفقهية التقليدية. كما أنه ليس في قارّة أمريكا الشمالية عالم فقيه تنظر الناس (بشقيهم الأفريقي والمهاجر) إليه بمطلق الثقة.

وبالطبع فهناك بعض المتخصصين الجامعيين الذين لهم احترام ولكن لا يمكن بحال وصفهم بأنهم قيادة على مستوى أمريكا كلها، أو حتى على مستوى ولاية بأكملها.

أي أنـــه يمكـــن وصف الوضع الريادي في أمريكا بأن لكل مدينة مجموعة من الأشـــخاص بـــرزت أسماؤهم بسبب جهودهم المميّزة والتي مكنتهم من أن يُعرفوا خـــارج محلّـــتهم، وربما يُدعَون للمحاضرة في كثير من الأمكنة ولكنهم ليسوا قادة يترأسون مؤسسات تتجاوز المحلّة والموقع.

وإذا أردنـــا أن نأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية والنضوج الثقافي لرصد أداء المهاجـــرين المســـلمين، فإنه يمكننا القول: بأن الواقع المسلم في أمريكا الشمالية تحرّك ضمن جدليات أربع:

جدلية التقية- الوثوق في الاحتراز من سطوة تيار المجتمع الغالب، ونزعة الاعتزاز التي لا تهاب الغربة والاغتراب، وتنسج للمسلمين ثوباً جديداً لوجودهم، تحكمه من سدى مفاهيم الإسلام ولحمته.

وهناك جدلية الثلة – المؤسسة، التي تعمل على صهر تجارب الماضي وتجاوزها، وتســـتفيد مـــن متانة عصبية الثلّة للارتقاء إلى مؤسسة لها ديمومة أطول، ولها شمول أوسع، يسع الأطياف المتعددة للمسلمين.

وثالـــثاً هـــناك جدلية العادات – الأصالة، والتي تتطلب نضوجاً يُدرك المحدودية الزمانية والمكانية للمخرجات الثقافية التي جاءت استجابة لواقع معين، والتي قد تصبح عبأً وقيداً عند مجابهة واقع جديد يتطلب تقليب النظر بين الأصل والأرومة، وبين الواقع والمثال، لتنسج نمطاً جديداً يجمع بين الإسلامية واعتبار متطلبات المكان والزمان.

وأخيراً، فإن جدلية الانحلال – التكـــامل، التي تجلّت في تلك المؤســـسات التي ما فترت تحاول تطوير وسائلها، وإتقان خدماتها، وتصويب خطابها، لكي يحمي من ضغوط الانحلال الاعتباطي في المجتمع الهادر، محدّدةً بنفس الوقت مساحاتٍ للتشارك مع المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون ويأكلون ويشربون.

توجهات العمل الإسلامي

هناك ثلاث رؤى للعمل الإسلامي في أمريكا الشمالية تملؤ المخيال الإسلامي: الأولى ترى المسلمين مجتمعاً دينياً، والثانية ترى دور المسلمين الأساسي العمل السياسي، والثالثة تراه دور تطبيع وتأقلمٍ تدريجي. ولكل من هذه التوجهات أهدافها الخاصة، ووسائلها المحددة، وميزاتها ورزياتها.

أولاً: المسلمون كجالية دينية:

يهدف هذا التوجه إلى الاعتراف بالمسلمين كجالية أو أقلية ذات دين مختلف. فكما أن هناك نصرانية معترف بها، وكما أن هناك يهوداً وبوذيين وغيرهم من أتباع الأديان، فإن هذا التوجه يريد أن يسمع باسم الإسلام ويرى رسمه في كل ناحية من نواحي الحياة الأمريكية.

فمثلاً يهتم هذا التوجه بمسألة الاعتراف بالأعياد الإسلامية، والإشارة لها، وإلى رمضان في الإذاعة والتلفزيون وما شابهها من وسائل الإعلام. ومن الأمور التي يهتم بها هذا التوجه أن يكون للمسلمين أئمة معترف بهم يقومون بخدمة المسجونين من المسلمين. وهذا الاعتراف في بلد مثل أمريكا أمر متعدد الأوجه، حيث يمكن أن يتمثل على مستوى البلدة أو الولاية أو على المستوى الفدرالي. وتحقيق هذا يحتاج إلى جهود مختلفة وخطاب مختلف. فمصلحة المستوى الفدرالي في الاعتراف بالمسلمين مختلفة عن مصلحة الولاية أو المحلة.

وهنا لا بد من التنبيه إلى أن قضية الاعتراف بالمسلمين رسمياً قضية رمزية بحتة في سياق الولايات المتحدة الأمريكية (خلافاً لكندا). فالتعامل مع مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة في الولايات المتحدة لا يسمح بتدخل الحكومة في شؤون الناس الدينية.

ولكن حتى إذا كان الأمر بسيطاً، مثل معرفة تعداد المسلمين، فإنه غير ممكن بطريقة مباشـــرة، ولذا فإن تعداد المسلمين في أمريكا مثلاً يقدّر تقديراً من خلال مؤشرات بديلة، إذ لا يمكن سؤال الناس عن دينهم في الإحصاء الرسمي للدولة. كما لا يسمح القـــانون دعـــم الدولة لأي مؤسسة دينية، ولكن هناك قوانين بشأن التبرعات تعفي المؤسســـات غـــير الربحية من الضريبة، سواء كانت مؤسسات دينية أو غير دينية. وبالطبع فإن هذا الوضع مختلف جداً عن كندا أو بعض البلدان الأوربية، الذي ينتج عـــن الاعـــتراف بالمسلمين كدين رسمي في البلد استحقاقات مالية أو دعم في تمويل مـــدارس الجالية وتطوير مناهجها وما شابه ذلك. وهناك في أمريكا اعتبارات خاصّة للأقلـــيات المظلومة، ولكن لا ينطبق هذا الوصف إلا على الأقليات العرقية المعترف بهـــا، والتي عانت من التفرقة تاريخياً (سكان البلد الأصليين ممن كانوا يسمون الهنود الحمر، والأفارقة، واللاتين، وما يسمون بالآسيويين، أي سكان شرق آسيا) بالإضافة إلى فئة النساء في بعض الحالات.

وترتكز وسائل ومساحات تحرك هذا التوجه، بالمرتبة الأولى، على ضبط المراكز الإســـلامية وتنميـــتها وتنمـــيطها ما أمكن، لأنه يعتقد أنه من خلال هذا التنميط التوحيدي تنبثق شخصية إسلامية متميزة، يشكّل مجموعها أقلية دينية أو تجمعاً دينياً. وبالطـــبع فـــإن هذا التوجه لا يفترض وجود كل المسلمين في مكان واحد أو مدينة واحدة، وإن كان يحلم أن يرى في كل مدينة رئيسة حياً مسلماً، فيه مسجد ومتجر ومدرسة ومقبرة... إلخ.

ولمـــا كانت الصفة الدينية الظاهرة هي التي يرفعها هذا التوجه، فإنه سوف يهتمّ حُكمـــاً بالطوائف الدينية الأخرى، إذ أنها تشترك في مشاكل متشابهة، والتحاور معها يُفيد في تدعيم خبرات المسلمين. ومن جهة أخرى فإن التحاور مع المجموعات الدينية الأخـــرى ضـــروري مـــن ناحية نفي الصورة الانغلاقية عن الدين. وينطبق هذا على

المسلمين كما ينطبق على غيرهم، وذلك أنه في المناخ الثقافي الليبرالي لا يُنظر بكثير احترام لمجموعة نصرانية - مثلاً- لا تتحاور مع أي دين غير نصراني. وأنشطة الحوار عبر الديني هذه ليست سجالات حول العقيدة والمبادئ وإنما نوع من التأكيد على بعض المساحات المشتركة مثل ضرورة الأخلاق في المجتمع. ومن ناحية عملية بحتة، فإن التعاون مع منظمات أديان أخرى ضروري من وجه تأمين عدد كاف من الناس يُعلُون أصواتهم بأنهم لا يحبُّون أمراً ما أن يحدث في حيّهم مثلاً، أو أنهم يسجّلون موقفاً أخلاقياً ضد الحرب، أو مع الفقراء، وما شابه ذلك. ولا يخفى أن جزءاً من هذه الأنشطة هي ممارسات رمزية لا بد من القيام بها. ويضع توجه المجتمع الديني مسألةَ تعليم الصغار في أعلى سلّم اهتماماته، ويُذكّرنا باستمرار أن هوية الناشئة لا يمكن أن تتبلور إلا إذا اعتزت بالإسلام ورأته ماثلاً في واقع الحياة ولو على مستوى مُصغّر.

وتحمل هذه الرؤية في طيّاتها كثيراً من عناصر فكر وممارسات الجماعات الإسلامية في بلاد المسلمين، والتي اعتركت مع مفهوم الجماعة - الأمة، وتخيّلت نفسها الأمة أو الممثل الحقيقي لها. وإذا كانت هذه نظرة مُشكلة في بلاد المسلمين، إذ أنها تغبن إسلامية غير الملتزمين بالجماعة، فإن هذا الإشكال غير وارد في حالة العيش في وضع أقلية. وهذه نقطة مهمّة يجب استحضارها، وهي أن العمل الإسلامي في الغرب يضمّ لزوماً أكثر قطاعات المسلمين وليس مقصوراً على الملتزمين الجادّين. ويعتبر هذا الأمر من أهم الفرص والتحديات بآن واحد، فالعيش في مجتمع غير مسلم يجعل كل مسلم بالضرورة عنصراً من عناصر هذا المجتمع الصغير في الصورة الذهنية الخيالية للمجتمع. فالمسلمون على اختلاف مستويات التزامهم وقربهم من سلوكيات الإسلام سوف يشاركون هذا المجتمع الصغير في شيء من اهتماماته ونشاطاته، ورغم أن بعضهم قد يكون بعيداً عن الإسلام لكنه ربما يرغب في تسجيل ابنه في مدرسة إسلامية عندما يرى أولاده ينزلقون في المفاسد وينفرون من أي شيئ يربطهم

بأصل موطنهم. هناك من لا يتجاوز انتماؤه للمجتمع المسلم في المهجر غير المشاركة في يوم العيد، وربما يحرص أن لا تفوته نزهة يوم العيد لا أكثر. وحيث إن البعيدين الذين لا يتصلون بمؤسسات الجالية أي اتصال يبدو أنهم قلّة، فإن حلم الجماعة - الأمة لا بدّ وأن يدغدغ خيال فرد الأقلية الدينية. أضف إلى ذلك أن كثيراً من المسلمين الهامشيين الذين يهاجرون إلى بلد مثل أمريكا يكتشفون أنفسهم فجأة أنهم إسلاميون، من باب النسبة. إنهم نسبة لأقرانهم في بلد المسلمين أشخاص عاديون ليس لهم من الإسلام إلا بعض العادات التي ورثوها وتأقلموا معها، أما في بلد المهجر فإن مجرد رسم هذه العادات يجعلهم يشعرون أنهم متميّزون عن الفرد الأمريكي، وأنهم فعلاً مسلمون، بل وملتزمون، إذ أنهم لا يقترفون المآثم -كشرب الخمر- التي تعتبر عادية في هذا المجتمع.

ومرة ثانية فإنه تُشكّل هذه النقطة موضع تحدٍّ للمراكز الإسلامية، حيث تختلف المراكز الإسلامية في ما بينها في الحد الأدنى المتوقع من السلوك الإسلامي المطلوب للمشاركة في أنشطة المركز. وبشكل عام، فإن المراكز التي بدأت طلابية تحرص على درجة التزام أكبر في الأفراد الذين تتعامل معهم. ومن ناحية عملية فإن خط الاحتكاك في هذه المسألة يرتكز على قضية العلاقة بين الجنسين ومظهر المرأة. وهناك مؤشرات واضحة أن هذه المسألة التي كادت أن تشكل معضلة كبيرة في مسيرة المراكز الإسلامية شهدت انفراجاً كبيراً وقبولاً بالواقع. أي أن المراكز وجدت أنه من غير المعقول أن يكون جميع المشاركين على مستوى كامل من الالتزام، فصار هناك نوع من مراعاة الظروف.

ورغم الانفراج الواضح في التعامل مع الالتزام غير العميق مع الإسلام، فإن هذه ما زالت - وسوف تبقى- معضلة المراكز الإسلامية. وتعجز كثير من المراكز الإسلامية عن استقطاب عناصر الجالية بسبب عتبة التزامها العالية، ولا سيما أن

كثيراً من المسلمين الذين عندهم خبرات كبيرة في التحرك في هذه البلاد إنما هم من أصحاب الالتزام الاسمي، بل وربما كان التزامهم الخفيف أحد الأسباب التي مكّنتهم من اكتساب الخبرات. وإن الرفع من مستوى الحدّ الأدنى المطلوب من الالتزام أمرٌ واردٌ ضمن الجماعة - الشلة، فالالتزام والصفاء الأيديولوجي هو من أبرز خصائصها. أما بالنسبة للمؤسسات الشعبية فإن تحديد مستوى الالتزام الأدنى المطلوب أمر صعب؛ لأن شريحة خطاب هذا النوع هي بالضبط أولئك الأقل التزاماً. وإذا أضفنا إلى هذه النقطة قضية تمويل المراكز الإسلامية، انجلت الصورة بشكل واضح. وذلك أن تخفيف حد الالتزام المطلوب يُكثّر من عدد المتبرعين، الأمر الذي تحتاجه المراكز الإسلامية وتتوق إليه. بل إنه إذا كان الهدف جمع الناس وشمل أكبر عدد من الجالية فإن النشاطات الاجتماعية التي ترتبط بالعادات أكثر مما ترتبط بالإسلام نفسه هي أشدُّ ما يجلب جمهور المسلمين من جيل المهاجرين.

ويُذكر هنا أن تجربة كثير من المجموعات الدينية تُشير إلى أن تسييب أمر الالتزامات الدينية أمر يُغري في أوّله ولكنه ينعكس سلباً على المدى الطويل، لأسباب عدة، أهمها أن مستوى التضحية وبذل الجهد والاستمرار إنما يمشي جنباً إلى جنب مع توقع مستوى عالٍ من الالتزام والمطالبة بهذا الالتزام في السلوك والتصرف. ويبدو أن أكثر المراكز الإسلامية قد وصلت إلى نقطة توازن معقولة. ولا يعني هذا أنه لم يعد هناك حاجز أمام البعيدين عن الالتزام، وإنما أن هناك تنوعاً في المراكز الإسلامية يغطي درجات متفاوتة من الالتزام، خصوصاً في المدن الكبرى. ولكن ما زالت ممارسات كثير من المراكز تتميّز بالتشنج ولا تفسح مجالاً مريحاً للنساء يشجعهن على المشاركة الفعّالة.

وأخيراً، فلا بد من الإشارة إلى أن خيال مجتمع مسلم صغير خيال قائم في تجربة مسلمي القارة الهندية بالذات، ولا يمكن أن ننسى أن دولة الباكستان قد تشكلت

مـــن خلال هذه الرؤية بالضبط. ومسلمو الهند ما زالوا يعيشون كمجتمع أقلية بين أكثرية غير مسلمة، ولذا فهم متأقلمون مع الشروط النفسية لهذه المعيشة، ومدركون كـــل الإدراك لـــبداهة الحاجـــة إلى مؤسســـات منفصلة للمسلمين تخدم حاجاتهم الخصوصـــية بنفس الوقت الذي تتعايش فيه مع الأكثرية غير المسلمة. وينسجم هذا الـــتوجه مع دعاوى إحياء عادات البلاد المسلمة؛ لأن العادات والطقوس تساعد في رســـم حدود حول المجموعة، وتعطيها صفتها وطابعها، ومن ذلك استجلاب القراء والأئمة في رمضان، أو دعوة بعض من عندهم شيء من العلم أو القدرة على الوعظ وتقديمهم للجالية على أنهم علماء راسخون.

ثانياً: توجه العمل السياسي:

التوجه الثاني الذي يداعب خيال بعض المسلمين في أمريكا هو النشاط السياسي والتأثير على المؤسسات الحكومية وممثليها. ويرجو هذا التوجه أن يحوّل المسلمين إلى جماعة لها مطالب سياسية واضحة، ولها ثقل سياسي تستطيع من خلاله حماية نفسها كأقلـــية في هذه البلاد. وبشكل طبيعي فإنه تنحصر تحركات هذا التوجه في العراك ضـــمن القـــنوات السياسية - القانونية المتوفرة وتسخيرها لحساب ما يرونه مصلحة الجالية، كإغراء المرشحين بالأصوات والاقتراع والانتخاب ورفع الدعاوى القضائية. ولما كان الفعل السياسي هو أولاً وآخراً تحركاً مدعوماً بمال، تتحول المعضلة بالنسبة لهـــذا الـــتوجّه إلى معضلة تأمين موارد ماليّة كافية للمناورة، ولا سيما أن المال في الولايات المتحدة يقبع دوماً خلف الطروحات الأيديولوجية والمبادئ السياسية.

ويمكـــن للعمل الســـياسي أن يتـــحرك على ثلاثة مســـتويات في نظام مـــثل نظام الولايات المتحدة، إذ أنه يمـــكن أن يتحرك على مســـتوى المدينة، أو الولاية، أو المستوى الفدرالي.

ويمـــتاز العمـــل على مستوى المدينة بأنه قريب المأخذ، سهل المنال نسبياً، وله مردودية عالية بالنسبة للجالية المسلمة. ومطالب المسلمين على مستوى المدينة تتوافق

مـــع كـــثير من مطالب الأحياء الأمريكية التقليدية، مثل الحرص على مناخ أخلاقي نظـــيف، وتحسين وضع المدارس، ودعم أنشطتها وحاجاتها، وتحقيق الأمن، والضغط عـــلى تجـــارة المخدرات؛ والتجربة المسلمة في ذلك طريفة وذات عبرة. فالمسلمون الأفارقـــة معـــروفون بمقدرتهم الفائقة على تنظيف الأحياء من مشكلة المخدرات، وخـــبرتهم في ذلك معروفة منذ أيام «إيليجـــا محمد»، وجهد الجماعة وقدرتها على استنقاذ نفسها من خلال محاربة الهبوط والمخدرات، قدرة تفوق قدرة الشرطة؛ لأنهم يعـــتمدون على الضبط الداخلي والوسائل غير الرسمية، وجهد المسلمين الأفارقة في ذلك في مدينة نيويورك معروف.

وقـــد تكـــرر هذا الأمر في مدينتي شيكاغو ولوس أنجلُس بشكل أكثر عفوية، ورغم أن المهاجرين ليس لهم خبرة في مكافحة الجنوح، فقد أعلمهم مكتب الشرطة أنهم لاحظوا انخفاضاً في عدد الجنايات والسرقات وما شابهها في الأحياء التي زحف إلـــيها المســـلمون وزادت نسبة عددهم، انعكاساً لتأكيدهم على القيم، وانعكاساً لـــترابطهم المعاشـــي. ولكن يجب التنبيه أن هذه حالات خاصة؛ لأن الواقع المعاشي يفرض أن يعيش المسلمون متناثرين.

ورغم أن هناك حوادثاً كثيرة مشابهة، وفي مناحي مختلفة من الحياة الأمريكية، والتي تشـــهد بإمكانية التعايش مع المجتمع الأمريكي (والتي يجب أن تسجّل بالنسبة للمنظومة الأمريكـــية اللامركزية) والتي يدركها المسلمون القادمون إلى أمريكا أكثر فأكثر... إنه رغـــم كـــل هذا، فإن طموحات المسلمين تدفعهم نحو القضايا السياسية الكبرى التي تُتداول على المستوى الفدرالي، مع أن تركيز العمل على هذا المستوى فيه نظر.

إن العمـــل عـــلى المستوى الفدرالي أمر مُغْرٍ إلى أبعد الحدود. وكيف لا يكون ذلك والمهاجر المغترب يرى نفسه يخاطب من يدير دفة القوى العالمية على المستويات السياســـية والاقتصادية والحربية. ولما كان ضمير المسلم مليئاً بشعور الظلم وبشعور بداهة مطالبه وحقوقه، فإن ذلك يدفعه إلى رغبة الإفصاح عن هذه المطالب والمظالم

ووضـــعها أمام أعين النخبة الحاكمة. وطبعاً فإن العمل على المستوى الفدرالي يستند ضـــمناً إلى اعـــتقاد بأخلاقـــية هذا المنظومة والتزامها الحثيث بالمبادئ والمُثل، وهي الصورة التي يطرحها النظام عن نفسه وتعكسها الاعتقادات الشائعة، وهو أمر يفتقر إلى الدليل والسابقة.

ويبدو أن تفاعل عدة عوامل هو الذي دفع المسلمين بقوة – نسبياً – نحو العمل الفـــدرالي بعـــيد المنال. ولعل أحد هذه العوامل هو عدم إدراك الفرق بين منظومة سياســـية تتوجه نحو تحقيق العدل وبين تلك التي تتوجه إلى تمثيل أفراد من المجموعات المظلومـــة وإعطائهم قضمة أكبر من فطيرة المصالح الضخمة التي تحركها آليات مالية ربحية هي بذاتها تؤسس وترسّخ واقع الاستغلال.

ولا شـــك أن أحد العوامـــل التي دفعت باتجـــاه العمل على المستوى الفدرالي هو القراءة الخاطـــئة لأســـس النفوذ اليهودي في أمريكا، والذي يفهمـــه الأكثرون – سذاجة – أنه مجرد وصول إلى مركز حسّاس. وينسى هؤلاء أن اليهود كان لهم مشـــاركات بارزة في حركة الحقوق المدنية، وهم إلى اليوم نشيطون أشدّ النشاط في المجالات الاجتماعية والثقافية والأدبية والفنية. ولعله يصحّ القول أيضاً: إن التوجه نحو المستوى الفدرالي يعكس النظرة الفردية للحكم والتأثير السياسي والمترسبة في العقول بســـبب النشـــأة في مناخات أنظمة فردية، إلى جانب أن العمل الإسلامي متمحور حول أفراد أيضاً.

وسواء كان العمل السياسي على هذا المستوى مدفوعاً باعتقاد الأخلاقية الكاملة لهـــذه المـــنظومة، أو كـــان مدفوعاً باعتقاد إمكان شراء الأصوات بالفلوس وإثارة الضجيج، أو كان مدفوعاً بشكل عفوي لمواجهة المواقف التي يرونها غير عادلة بحق المسلمين في عقر دار صناعة هذه القرارات، فإنه يواجه ثلاثة تحديات:

التحدي الأول: هو أن المسلمين - إلى الآن - لا يمثلون كتلة انتخابية متماسكة، حيث إنهم منقسمون في ذوقهم السياسي. فيستبعد أن يُقلع الأفارقة المسلمون عن تعلقهم ببرامج الحزب الديمقراطي التي تترك أثراً مباشراً في حياتهم اليومية. ومن جهة أخرى فإن طبيعة عقلية المهاجرين الذين يمارسون الأعمال التجارية الاستثمارية توجّه الكثير منهم إلى برامج الحزب الجمهوري. وهناك أصحاب الاختصاصات الفنية (من المهاجرين) وكثير من الجيل المولود في أمريكا الذين يفضّلون برامج الأحزاب الصغيرة، كحزب الخضر مثلاً.

التحدي الثاني: هو أن طرح المسلمين أنفسهم كجالية مخصوصة قد يثير التوجس من جهة؛ ومن جهة أخرى فإنه أمر يصعب الإقناع به، إذ أن حكومة الولايات المتحدة لا تشعر أنها مدينة للمسلمين أو العرب بشيء يؤهل للمطالبة والاعتراض. فقضايا المسلمين ليست من نوع قضايا الأقليات الأخرى، ولا يمكن أن تُساوى بقضية السود أوقضية اللاتين أو قضية المجموعات الآسيوية، أو قضية السكان الأصليين. وإنه إذا كان لا بد أن يعالج النظام الفدرالي قضايا تلك المجموعات الإثنية الأربع التي تعترف بها الولايات المتحدة فذلك لأنها جزء لا يتجزأ من تاريخ هذا البلد، ويشعر الناس عموماً نحوه بالأسى لما حدث من مظالم يصعب أن ينكرها عاقل. أما المسلمون - كغيرهم من المهاجرين الجدد - فإنهم محظوظون و لم يتعرضوا عموماً للظلم داخل أمريكا كما حدث تاريخياً لغيرهم. بل لقد أتوا الى أمريكا واستفادوا من جهود الأقليات الأربع من قبلهم ومن حركة الحقوق المدنية الليبرالية والتي رسّخت ضوابط وقوانين وإجراءات تتصل بحقوق الإنسان وتساعد على حماية الأفراد من سلطة القانون المطلقة، تلك الضوابط التي تضعضعت بعد صدور ما سُمِّي بـ«القانون الوطني» الأخير، والذي لا يرى صوابه الكثير من أبناء هذا البلد. وإنه إذ يشاركهم المسلمونَ في هذا الرأي، ويمكنهم أن يعترضوا عليه معهم،

فإنـــه يجـــب لفت النظر إلى أن التحيز في تطبيق هذا القانون إنما مصدره الانطباع السائد والصيت الذائع عن المسلمين لا الشروط الفنية القانونية له. أي أن المشكلة في أساسها مشكلة ثقافية قبل أن تكون سياسية.

التحدي الثالث: أنه إذا كان المقصود بالتركيز على المستوى الفدرالي هو التأثير في السياسة الخارجية، فإن هذا أمر ليس مفتوحاً للتصويت أصلاً. ويبدو أن المسلمين أدركـــوا هـــذا - رغم تجربتهم القصيرة- وبدأوا يطردون من خيالهم إمكانية التأثير الكبير في مثل هذه القضايا.

وعـــلى كـــل حال، فقد وجد المسلمون أنفسهم في واشنطن وفي يدهم لائحة شـــكاوى طويلـــة، كان على رأسها قضية فلسطين، ومخلوط معها الحقوق الفردية للمسلمين بعد الحدث الأكبر، وممزوج معها محاولات شرح الإسلام ومبادئه لمن ليس لـــه اهتمام بالمبادئ النظرية؛ وهذا خليط عجيب ليس من السهل تحويله إلى منـــزع سياســـي واضح البرامج والمطالب. ولذا لعله يصحّ وصف العمل السياسي المســـلم اليوم بأنه تكتيك يفتقد الاســـتراتيجية، يعرف كيف يتحرك ولكن ليس متأطداً في ما يريد الوصول إليه.

ثالثاً: توجه التأقلم التدريجي:

وهذا توجه مختلف بالكامل عن سابقيه، وأهم ما يميزه أنه لا يطرح رؤية شاملة بديلـــة، وليس له مطـــالب كبرى، ولا يطرح نفســـه على شكل مجموعات كبيرة وإنما على شكل أفراد ومسائل مخصوصة.

ففي حين يركّز توجه المجتمع الديني على تأسيس نفســـه على أنه كيان منفصل ذو خصوصـــية ثقافـــية ودينية، فإن توجه التأقلم يركز على أنه ليس إلا لوناً زاهياً من جملة ألوان أمريكا، يزيدها نضارة وحسناً. كما أنه لا يرى حاجة في أن يستقل بنفسه في الـــبرامج والمؤسســـات، لأن خطابـــه صالح كل الصلاحية لأن يتحرك من خلال

المؤسســـات الموجودة ومن خلال الأقنية العادية لهذا المجتمع. وفي حين أن توجه العمل السياســـي يترقّب إحداث ضربات أو صفقات بالغة التأثير، فإن توجه التأقلم يرى أن الـــتأثير إنما يأتي عبر اللمسات الناعمة التي تستديم وقتاً كافياً والتي تتلاقح بشكل شبه عفوي مع استعدادات ثاوية في ساعة صفوها وانفتاحها. أما من الناحية الفكرية فإنه يسعى إلى أقلمة المفاهيم الإسلامية مع الواقع الغربي عموماً والأمريكي خصوصاً.

ولا يخفـــى أن هـــذا المدخل يثير الأقل من الاحتكاكات في المجتمع. ويجب أن يُذكر هنا أن التأقلم مع الاحتياجات المختلفة للناس جزء من التوجه الليبرالي والثقافة الأمريكية، وعنصر أكيد من عناصر الحياة في البلاد الغربية ذات النظام الرأسمالي. بل إن ديناميكـــية الحياة هنا تستند إلى حدٍّ كبير إلى إدراك حاجات الناس وخدمتها من ناحـــية، والاستفادة منها واستثمارها من ناحية أخرى. وإن مجرد وجود كتلة بشرية كبيرة لها ذوق مميز يدفع فعاليات السوق إلى تلبيتها.

إن الاســـتجابة لـــلحاجات الخاصـــة للناس متأصل في العقد الاجتماعي للبلاد الغربية، وترتكز شرعية النظام على فكرة الاستجابة للمطالب. وتختلف الديمقراطيات الحديـــثة في مـــا بينها في طرق التعامل مع الأقليات. فهناك نموذج التعددية الفردية، وهناك نموذج التعددية الجماعية، ويسود الأول في الولايات المتحدة والثاني في كندا. ويميل الأول إلى تفتيت المطالب الجماعية وحصر الاستجابة في الأذواق الفردية، بينما يمـــيل الآخر إلى التعامل مع المطالب في حيزّها الجماعي. وفي حين أن نمط التعددية الفـــردي يحاول أقصى جهده تحقيق نزعات الأفراد والاعتراف بأدنى حاجاتهم تحت شـــعار حقـــوق الإنسان، فإنه يعجز عادة عن الاستجابة الفعّالة للمطالب الكبرى للإثنيات والأقليات. وهكذا فإن نمط التأقلم التدريجي له ميزة الاستفادة من استجابية النمط التعددي الفردي ولكنه محدود بمحدودية المنظومة ذاتها.

وكخلاصة، فقد يكون من المفيد إجراء بعض المقارنات بين توجهات العمل الإسلامي الثلاثة، وإلقاء الأضواء على مواضع قوتها وضعفها. ولا بد من التنبيه أيضاً إلى أن هذه التوجهات ليست متنافية ضرورة، ولذلك سميتها «توجهات» لأنه يمكن أن يكون هناك مركز إسلامي يسعى إلى تأسيس ديني ولكن يعمل بنفس الوقت على التأقلم والتطبيع.

تكمن ميزة توجه «المجتمع الديني» في تشكيله المؤسسات، وقيامها بأنشطة يرتاح إليها الضمير المسلم، وتحتاج إليها الممارسة الإسلامية ضرورة، وخاصة على مستوى البناء النفسي والتعاضد الاجتماعي. والمثال التطبيقي لهذا التوجه هو المراكز الإسلامية المنتشرة في القارة، والصورة التي تعكسها عن نفسها من أنها تمثل مجموعة من الناس ذووا قيم دينية أخلاقية عالية. ولكن تكمن خطورة المبالغة في هذا التوجه هو عزل المسلمين التام عن المجتمع، وانكفائه على نفسه، وحرمانه من الاستفادة من المؤسسات العامة الموجودة، وتعميق شعور الغربة واستدامته بشكل غير صحيح، وحشده لكل الطاقات في بوتقة لا تسع هذه الطاقات، وغير قادرة على تفعيلها، وتحرم انطلاقها بإيجابية أكبر نحو خدمة المصالح الكبرى للمسلمين.

أما ميزة توجه «التأقلم التدريجي» فهي أنه أكثر التوجهات قبولاً في المجتمع الأمريكي، حيث إن طرائقه تمثل ولوجاً حكيماً لطيفاً ومؤدباً ليس فيه ادعائية وتمنن. ولا يخفى أنه يُفضل هذا التوجهَ كثيرٌ من المسلمين البيض ذوي الخلفية الأوربية، إلى جانب العديد من أبناء الجالية، أو من مهاجري الطبقة الأرستقراطية، أو الذين ليس لهم التزام بالإسلام إلا التزاماً عابراً، يرون في أساليب هذا التوجه أساليب «حضارية» لا تثير الزوابع والإزعاجات. وإني لا أقصد هنا أن المسلمين الجدد قليلو الالتزام بالإسلام، وإنما أن انسجام بعضهم الكبير مع المنظومة التي تربوا وترعرعوا فيها يجعلهم يرون فيها مكامن خير ومواضع تأثير يصعب على الآخرين رؤيتها؛

كما أن لهم ارتباط عاطفي بممارسات يصعب عليهم رؤية إشكالياتها. ولا يخفى أن الإشكالية الكبرى لهذا التوجه لا تكمن في مناسبة مدخله والحاجة الماسّة إليه وإنما في كونـه كثير الهامشية، جانبي المعالجة، الأمر الذي لا يحدث حراكاً يولّد طاقة كافية لحمل الجالية ورفع مستواها وخدمة احتياجاتها الأساسية.

أما ميزة «العمل السياسي» فإنها تكمن في قدرته على استغلال الفرص، وتحقيق مكاسـب للمجموعة المسلمة، ومعالجة بعض القضايا والإشكاليات المحددة، بما فيها محاولـة القيام باسترداد حقوق بعض الأفراد الذين ظُلموا بسبب انتمائهم الديني أو الإثـني. ولكن المفارقة أن نوعية هذه المطالب تُرسخّ أحياناً فكرة أن المسلمين غير أمريكيين فعلاً، وأنهم لا يخاطبون الاهتمامات الرئيسة للشعب الأمريكي، وأنهم حقّاً عابرون، ويجب أن يعاملوا على النحو التهميشي الذي يعاملون فيه.

وبشـكل عام، فإن المشكلة الرئيسة للعمل السياسي (غير الملتزم) تكمن في أنه يأزم بعض القضايا الضيقة، ويضطر لتضخيمها من أجل فرصة تحقيق النصر الرمزي. وبـذاك فقد يحيد عن معالجة قضايا أكثر أهمية، ويلتفت إلى معالجة قضايا جزئية لها جاذبـية وذات ضـجيج عالٍ. وقد يجرّ هذا النوع من العمل إلى ضرب من الأنانية والتمحور حول النفس. وعلاوة على كل هذا، فإنه يغلب أن تغيب عن هذا التوجه قدرةُ منظومة الولايات المتحدة الأمريكية الكبيرة على الاحتواء والامتصاص. وإن أي قراءة متأنية لتاريخ الإثنيات لتوضح هذا بشكل ساطع، وإن أغنى مؤسسات الأفارقة وأكـثرها امـتلاكاً للمكاتب الدائمة والطواقم العاملة في واشنطن هي أقلها تقديماً للخدمات المصيرية لهذه المجموعة.

وأخيراً، فإنه يجب أن لا ننسى أبداً محدودية المدخل القانوني وانتصاراته، فالذي يتحصّـل بالقـانون يومـاً يمكن أن يُفقد بالقانون يوماً آخراً؛ وإن حشد إمكانات

المســـلمين المحدودة في هذا المجال قد يستنـــزف الجهود المتوجهة للواجبات الأساسية الأخرى في البناء الداخلي، وتغري بانتصارات لا تغيّر من واقع المسلمين، وتوهم بأن العائق في وجه نمو الوجود المسلم هو عائق خارجي فحسب.

- استراتيجيات المشاركة السياسية:

وهـــناك ثلاث استراتيجيات للمشاركة السياسية - على الأقل- يمكن للمسلمين أن يختاروا واحدة منها: استراتيجية التعريف، واستراتيجية النفوذ، واستراتيجية الخدمة.

أمـــا استراتيجية المشاركة التعريفية فهي التي تهدف إلى إنشاء الوصلات اللازمة بـــين المسلمين -كمجموعة بشرية جديدة في هذا المجتمع- وبين المؤسسات الرسمية التي تصوغ وترسم السياسات والخطط. وفي مثل منظومة الولايات المتحدة فإن كثيراً من هذا يحدث على مستوى إدارة المحلّة أو حكومة الولاية، لا الحكومة المركزية.

الاستراتيجية الثانية هي استراتيجية الركض وراء المكاسب، واستخدام أساليب الضغط، وإتقان التلاعب السياسي لتحصيل النفوذ والحظوة.

والثالـــثة هي استراتيجية الخدمة، التي تسعى إلى إصلاح واقع الحياة الأمريكية، وتـــبني قضايا ومعضلات المجتمع، واقتراح مداخل الحلول من منظور جديد؛ ويطرح المســـلمون أنفسهم ضمن هذا من خلال برامج مميزة ليست متمحورة حول الجالية ومصالحها وإن كان المسلمون يرتاحون لنتائجها على أرض الواقع.

ولا يخفـــى أن نشاطات الاستراتيجية الأولى تمثل الحدّ الأدنى للفاعلية السياسية وتقف كشرط لإحداث التكامل مع المجتمع، كما أنها ضرورية للمنع من تشكّل تيار مـــتطرّف ضارّ. أما الاستراتيجية الثانية فهي غير أخلاقية. وأما الاستراتيجية الثالثة التي تتحرك وفق منطق ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ (هود:٨٨) فهي التي تليق بأصحاب المبادئ وبأمّة الرسالة الخيرية.

خاتمة

لقد حاولت في هذا الفصل أن أرصد تطور العمل المؤسساتي لمسلمي أمريكا من خلال إلقاء الضوء على كمون المجموعات المسلمة، وعلى الظروف الموضوعية التي يتحركون فيها، كما لفتّ النظر إلى الفرق الكبير بين ظروف المهاجرين وظروف الأفارقة. ثم بيّنت توجهات ثلاثة في استراتيجية عمل المؤسسات تتجاذب ضمير المسلم الغيور في هذه البلاد: توجه «بناء مجتمع صغيرٍ» ذي صفة دينية، هَمُّه الأكبر تأمين مناخ معقول للحياة وفق تعاليم الإسلام، والذي يحرص على تنزيل متطلبات الإسلام على الواقع الجديد، وما يتطلب ذلك من مراعاة الواقع واعتبار المقاصد، ويسعى بنفس الوقت لأن يحافظ على أكبر قدر من سمت الثقافات المسلمة وتجلياتها في بلاد المسلمين، بناء على أنها تجارب شائعة القبول، تُضفي شعور الأمة الواحدة الأنيس.

ويقابل هذا توجه التأقلم المطلق مع معطيات أمريكا والحداثة والثقافة العالمية (الغربية) المعاصرة، والذي يحاول - من وجه - أقلمة مفاهيم الإسلام مع الواقع المعاش، منطلقاً من معطيات التفكير الثقافي الأمريكي، ساعياً لبيان أن تعاليم الإسلام تنسجم في روحها مع كثير من هذه المعطيات؛ ومن جهة أخرى فإن هذا التوجه يحرص على عدم استجلاب شيء من الممارسات الثقافية والتجربة التاريخية المسلمة، بناء على أنها مجرد تجربة بشرية في واقع مخصوص، ليس لها أي حُجِّية إسلامية.

ثم هناك توجه «العمل السياسي» الذي قد اتكأ في بدايته على رصيد الانتماء لبلد مسلم سابق والحرص على خدمته ولو من بعيد، ولكن سرعان ما تحوّل هذا الحرص إلى حرص على تأمين مساحة كريمة للجالية المسلمة في بلد تضطر فيه أن تُدعِّم بعض أوجه وجودك بشكل رسمي قانوني.

لقــد أزّمت الأحداث الأخيرة، والتوضع العالمي الجديد، ممارسة هذه التوجهات بشكل أكيد، وذلك لأن مناخ الولايات المتحدة بعد الحدث الأكبر مناخ جديد رغم أنــه لم يــتغير شيء يذكر في المؤسسات الأساسية لتلك الدولة الرأسمالية الصناعية الديمقراطــية المقتدرة؛ وكذلك لم يتغير شيء يذكر في الأطر الثقافية والتصورية لهذا المجــتمع ذي الخلفية الثقافة الأوربية المسيحية اليهودية الحداثية المُعَلْمنة. وكلّ الذي غــيّره الحــدثُ هــو تفعيّل هذه الخلفيات وزجّها باتجاه معين. وبالذات، فقد أزّم الحدث مشكلة تعامل أمريكا مع (الآخر).

وإنه من المفيد إدراك شدّة الصدمة التي تركها الحدث الأكبر على حسٍّ مواطن الولايــات المــتحدة وعلى تصوره نحو حياته الحاضرة، ذاك الأثر الهائل الذي أفزع الحاسّــة السادســة لــلهوية الأمريكية السادرة في عقد اجتماعي قوامه الاستخدام والاســتمتاع. ولقــد عاش الحلم الأمريكي تاريخه محميّاً بين محيطين لم يهاجمه عدو خــارجي قط إلا في لحظة الهجوم الياباني الذي أتى في سياق حرب عالمية. إنه من المطلــوب تفهّــم القدرَ الذي أزعج الحدث الأكبر لعام ٢٠٠١م رتابة حُلْم الرفاه والــتلذذ. ولقــد تــناغم هول الحادث مع الخيال الغربي المجذّر في خرافات اليونان وهجــوم الأشــرار والسيطرة على الطبيعة، ذلك الخيال المُحَدْثن في فكرة الاستنفار التكــنولوجي؛ ولا عجــب أن نرى انعكاسات هذين الخيالين في مواضيع الأفلام والقصص الشائعة. ويتناغم هذا أيضاً مع ملاحم الإنجيل واعتقادات الخراب الكوني في ألفيات التاريخ.

ويجــب أن يشار إلى أن فداحة الحدث استُشعِرت على أنها اعتداء على الهيمنة البيضــاء بالذات، وأعطت مبرراً وفرصة لردّ الاعتبار لهذه الهيمنة واستنقاذها من جو الإهانة والحيرة تجاه مطالب الإثنيات المظلومة. فلقد ملّ الضمير الأبيض الأمريكي من

الشفقة على المظالم التاريخية ضدّ غير البيض، والتي عجزت برامج المساعدة عن حلّ آثارهـا، فأعطاه الحدثُ مبرراً لتأكيد تفوقه الأخلاقي على أنه باني أمريكا المتحضرة لا مستغلّ الشعوب والأقوام، ولا سيما أن الاعتداء جاء من أبناء عالم ثالث، وكلّ ذلك يبرر الانتقام دفاعاً عن النفس.

ورغم أن الحدث دفع المثقفين بالخصوص للتعرف عن الإسلام من خلال القراءة عنه، إلا أننا يجب أن لا نأخذ هذا بسذاجة، فلقد ولّدت هذه المعرفة أسئلة يعجز متوسط المسلم عن الإجابة عنها؛ وعلينا أن نتذكّر أن أكثر الذي يُكتب عن الإسلام والمسلمين يكتب من قِبَل غير المسلمين ومن منظور الثقافة العالمية الليبرالية. وإن أخطر ما يواجه الوجود المسلم في الغرب هو الطروحات التي تحاول حشر المسلمين في خندق دفاعي اعتذاري تُرمى فيه قمامات الاتهامات التي تُحقِّر الثقافة المسلمة وممارسات المسلمين، كما تقدح في أخلاقية دعاويهم، وتُصورهم قاصري النضج، غير مؤهلين للمسؤولية، وجديرين بالتهميش إلى حدِّ الازدراء.

وفي عصرنا «العولمي» هذا فإن أي حادث - ولو من خارج أمريكا- يمكن أن يسيس وينعكس على الأمة بكلّيتها. وبالذات فإن أحداث دارفور المؤلمة سوف تترك أثـراً هـائلاً يمنع من احترام قضايا العرب والمسلمين. هذا بالإضافة إلى دعوى أن مسلمي الغرب يتعذّر انسجامهم مع ثقافة المجتمعات الغربية.

وفي هـذا خلط بين الانحلال وبين التكامل، وفي حين أن رسوخ الثقافة المسلمة وتوازنها يحجزُ المسلمَ عن الانحلال الانسلاخي، يشهد التاريخ بأن عند المسلمين قدرة عالـية على التكامل المسالم. وتعلمنا تجارب الأقليات الإثنية في أمريكا أن التماسك الثقافي للأقليات المهاجرة يعدّ أهم عناصر حفظ التوازن، والذي بغيابه تندفع الأقلية إلى حضيض المجتمع لتصبح لعنة عليه.

وتجــاه الجهد المركّز لتهميش المسلمين، فإن هناك مهاماً تشكّل تحديات كبرى للمسلمين: مهمتين نحو الداخل، ومهمتين نحو الخارج، ومهمة واصلة في ما بينهما.

المهمة الداخلية الأولى: هي إحداث نقلة نوعية في تدريس الإسلام، سواء كان هــذا في مــدارس الجالــية أو في سويّة الخطاب العام. وإن الواقع ليشهد أن هناك إشراقات طيّبة في هذا المجال، قطع فيه المسلمون مسافات شاسعة استطاعوا فيها إنتاج كتــب ومؤلفات تتحقق فيها شروط الأصالة والمعاصرة بآن واحد. ولكنه لم تتوقف بعدُ سيول الفكر الجمودي و لم تنحصر في أضيق الزوايا. وإنه إذا كان هناك تحسن عام في مستوى تعليم الصغار وفي مســتوى خطاب الكبار، فإن فترة الشباب اليافع مــا زالت ثغرة مفتوحة لا يكاد يُغطّيها جهدٌ يُذكر. وإنه إذ يرتاح المسلم حين يرى السخاء في العطاء والتبرع لمشاريع إسلامية كثيرة ومتنوعة، فإنه لا يمكنه إلا التعجب والقلــق مــن نســيان هذه الشريحة العمرية واحتياجاتها – التي لا تستطيع الانتظار والتأجيل– وتطلبها لمستوى مخصوص من الإمكانات البشرية والتأهيل العلمي. وإنها حقاً لخسارة أن تستنفد مغامرات النشاط الإسلامي الموارد المتوفرة لدى الجالية دون إعطاء الجيل اليافع نصيباً مفروضاً .

أما **المهمة الداخلية الثانية** فهي إحداث نقلة نوعية في مسيرة المنظمات الإسلامية في الضبط الإداري والانفتاح الفكري، تُكمل التحول الرمزي من الفترة الأموية إلى العباسية. ويبدو أن هناك أربعــة شروط عملية مطلوبة لتيسير هذا التحول إذا كنا لا نريد انتظار مدة جيل كامل:

الأول أن يــتولى الــريادة أهــل البلد قبل المهاجرين؛ الثاني مبدأ تعدد الشرائح العُمــرية في مجلس الإدارة التنفيذي للمؤسسات الإسلامية، وعدم خدمة الشيوخ فيه (ويُقــترح سنّ الخمسين كحدّ أعلى) وتحوّلهم للخدمة في مجلس الأمناء؛ الثالث مبدأ

وجوب الإشراك الجدّي للنساء في التخطيط للجالية؛ والرابع رفض استقدام الوعاظ والمحاضرين ممن ليس لهم معرفة مفصّلة بالثقافة الغربية. وأقول متفائلاً: إنه بدت بوادر هذا التحول وإن ما زالت شعاعاته خافتة.

ثم هـــناك مهمتان نحو الخارج يجب أن تتناغما مع مهمتي الداخل. ولقد أشرت إلى ثلاثـــة توجهات بارزة للنشاط المسلم، وأقترح هنا توجهاً رابعاً: «توجه ترشيد المـــنظومة»، الذي أرجو أن يأخذ مكانه الأكيد في الجهود الإسلامية. ويهدف هذا التوجه الى معالجة قضايا أمريكا الكبرى من منظور إسلامي عالمي إنساني، ولا يحصر اهـــتمامه في العمل السياسي ولا في عمل بناء مجتمع منفصل خاص، وإنما يعمل على مداولة المعضلات الإنسانية الكبرى وتجلياتها في الواقع الأمريكي. وبالذات فإن أربع معضلات تشكل أرضية كل التوترات السطحية التي تشهدها أمريكا:

الأولى هـــي تراجع وضمور المجتمع المدني، والثانية هي الانقسامات والحزازات الإثنية، والثالثة هي الفوارق الطبقية، والرابعة هي التآكل الأخلاقي.

ولا يخفـــى أن هذه المسائل الأربع تمثل معضلات عالمية، ولكنها بالذات متأزمة أي تـــأزم في واقـــع مجتمعات الحداثة بشكل عام والمجتمع الأمريكي بشكل خاص. وعلى هذا فإنه يلتقي هذا التوجه مع هموم المصلحين من شتى الاتجاهات والمشارب.

ويمتاز هذا المدخل بأنه أشمل المداخل وأكثرها صدقاً مع المجتمع المُضيف – حين يـــنظر إلـــيه ويقـــيّم تقييماً تاريخياً بعد سنين – وهو أكثرها التزاماً أخلاقياً عالمياً، يُخاطب المشاكل الإنسانية ولا يحتكر لنفسه الحقوق والميزات والمطالب.

وإذا كانـــت مـــيزته الكبرى أنه عميق التأثير، يعمل على مستوى الجذور عملاً مـــنـــزهاً، إلى حدٍّ كبير، عن الدوافع الفئوية، فإن مشكلته أنه شديد طول الأمـــد، لا يعالج القضايا الراهنة التي يكابدها المسلمون في حياتهم اليومية. كما أنه من أصعب

الأمـــور أن تُحـــرِّك الناس نحوه، إذ يحتاج إلى امتلاك أفقٍ ثقافي عالٍ ودراية بالتاريخ وبتقلّب الأحوال؛ ولا يخفى أنه الأقل من القليل من المسلمين من يتكلم بهذا. وليت المســـلمين الناشطين يدركون أن التمكّن السياسي من غير عطاء ثقافي أمر خطير في مـــنطق الـــتاريخ، وأمر غريب عن ناظم المسيرة العامة للأمة المسلمة، ووضع يورث الكراهية والترقّب. وإنه إذا كان العمل السياسي أمر مهم ولا بد منه من أجل تنظيم عمليـــة الـــتكامل مع المجتمع، فإني لأرجو أن لا تستأثر به الوصولية والرؤية النفعية، اللتان تقودان بالنهاية إلى حتف غير محمود.

أما المهمة الثانية نحو الخارج فإنها مهمة الإنتاج الثقافي، وأعني به الإنتاج الفكري والأدبي والفني. وإنه من غير المعقول أن نَكِل واجب الكتابة عن فلسفة حياتنا ورؤانا الثقافية وأنساق سلوكنا المتميزة إلى الآخرين، وإن واجب المسلمين الأكيد وضع كل ذلـــك في أوعية مفهومة ومن ذوق الزمان. وأُسارع القول: إن الكثير من المسلمين يتكلم عن نفوذ اليهود في أمريكا، ويتخيله نفوذاً سياسياً بحتاً، ويفسره تفسيراً تآمرياً أقرب إلى خيالات القصص البوليسية. ولكن بالقدر الذي يتمتع اليهود حقيقة بنفوذ فإنـــه نفوذ مستند إلى عطاء ثقافي، سواء في الإنتاج الفني والأدبي أو في إطار العطاء الفلســـفي والقِـــيَمي. إن التحدي الأكبر للمسلمين هو الإنتاج الثقافي الفريد الذي يعكس وسطية الإسلام.

وإنه إذ تتميز المنظومة الأمريكية بالاستهواء – مثل رقاص الساعة الذي لا يعرف الاتزان – لا تفتأ التقليعات تأخذ بلبابها، فإن خطاب رشدٍ إسلامي له مكانه الأكيد في المجتمع الأمريكي دائم الفوران. بل إنه إذ تعترك أمريكا مع نفسها في التعامل مع العناصر المتضاربة في تاريخها وثقافتها: النـــزعة الدينية والنـــزعة الليبـــرالية، الهوس بالمســـاواة التطابقـــية من جهة والفوارق الطبقية الشاسعة من جهة أخرى، الشعور

التاريخي بالانعزال والمحاولة الدائمة للانفتاح...إلخ؛ إن خطاباً إسلامياً راشداً غير مُسيَّسٍ وغير مصوغٍ صياغة تقليدية لقادر على العطاء في هذه الأرض الجديدة. وحتى على المستوى السياسي، فإن طرحاً راشداً يستصحب منطق الإسلام ومقاصده يستطيع تقديم معقولية راجحة، حاجّة، تتجنب التخندق المعروف بين قطبي الحزبين الحاليين في أمريكا، ذلك التخندق الذي لا يلبث أن ينتج شططاً يمجّه الناس بعد حين.

وما بين الواجب الداخلي المحتّم والواجب الخارجي بداهة، هناك التعامل اليومي والأثر الذي لا يمكن تكذيبه ومحوه من أخلاق الأسوة الحسنة والشهادة على الناس، أخلاق الثقة بلا ترفع ولا ادعاء، والشهادة الدائبة التي لا تسأل أجراً ولا مكسباً. وليت المسلمين يتذكرون أنه مهما تكن عند امرئٍ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم.

وشعب الثقافة الأمريكية، وإن لم يكن عنده صبر على قراءة فلسفة (الآخر) لكن عنده شغف ورحابة صدر ليبرالية في قراءة الممارسات اليومية للثقافات الأخرى، وعينه في هذا نقّادة مُمحِّصة. وإن أفراد الشعوب الغربية لتقرأ تصرفات المسلمين من أصغرها إلى أكبرها، وذوقهم في هذا شديد الرهافة. وإن البصير منهم يرى في أنساقنا الثقافية بساطة بريئة، ومحبة مغروسة، وسلامة طوية مريحة، وجمالاً غير متكلّف؛ ولكن من غير المعقول توقع البصيرة الخارقة في غالب الناس. ولقد استطاع المسلمون في أمريكا إلى اليوم المحافظة على توازنهم الثقافي والدفع بأبنائهم للتحصيل العالي مما يجلب الاحترام والتقدير.

ولكن ترافق هذه الصور المشرقة تصرفات ناشزة من قبل بعض المسلمين، ومن المهاجرين منهم بالخصوص. والذي يُحزن أنها تصرفات صغيرة تتعلق بمناسبة

الأسلوب ولطفه في ثقافة شديدة الحساسية للإزعاجات الشخصية، الأمر الذي يعكّر الصورة الناصعة التي يحاول الآخرون جلاءها.

والمسلمون اليوم يتحركون تحت مجهر ثقافي يقارن كلّ سلوك لهم مع دعاواهم الكمال والتفوق. وفي عصر الاتصالات العولمي فإن الانعكاسات الجاهلة لمسلم في زاوية قاصية من الأرض، لا تَفهم منطق العصر وذوقه، تُحسب سلباً على الأمة جميعاً. وفي هذا الصدد يلزم التفريق في الفهم والحديث بين أمريكا الدولة والسياسة الخارجية وبين الفرد الأمريكي. وإنه يغلب ألا يعرف الفردُ الأمريكي الكثيرَ عن المسلمين، وإن كان له انعكاس سلبي فيغلب أنه ليس مبنياً على تعدٍّ مقصود وإنما على تغطية إعلامية غير صديقة ولا صادقة. فهل يلزم تذكير المسلمين أن الغضب والاحتدام لا يساعد الجاهل على التعلم، ولا يُشجّع الشاكّ على التفهم؟ وهل يلزم التذكير بأن الابتسام سنّة ولو لعدسة التقرير المصوِّرة؟

لقد دفعت الأقدار المسلمين إلى شواطئ ما حسبوا أنهم بالغوها، وظن الأكثرون أن توفّر المتاع وتيسّر سبل المعاش هي الغاية، ولكن النظرة الواقعية تشير إلى أنه كُتب على الإسلام أن يدخل أرضاً جديدةً، وأن يواجه تحديات حضارة غالبة في أرضها، وسوف يتابع المسلمون قيامهم بدور الشهادة باقتدار يتزايد رشادُه ونضجه. ولقد كان الأستاذ الفاضل عمر عبيد حسنه قد نادى منذ بضعة عقود بوجوب تجاوز العمل الإسلامي مجرد ترديد المبادئ إلى إحكام البرامج؛ فهل نشهد تحقق هذا النداء عملياً في هذه الأرض الجديدة؟

أرجو أن أكون قد قدّمت في هذا المقال مداخل صالحة لبداية فهم وضع المسلمين ومستقبلهم في أمريكا. وإن مسلمي أمريكا هم أولاً وآخراً جزء من الأمة، والتعرف على الإخوة والأخوات أمر حميد، وتفقّد أحوالهم واجب أكيد، وعدم التدخل في شؤونهم أمر حكيم.

المسلمون في الغرب
قبل وبعد الحادي عشر من سبتمبر

الدكتور مالك بن إبراهيم الأحمد[*]

المشكلة تكمن في أن حكومات بعض البلدان الأوروبية لا تعرف من تخاطب من المسلمين؟ فالكل يدعي أنه يمثل الإسلام، والكل ينشىء مؤسسات بمسميات إسلامية، كما أن كثيراً ممن يدعون إلى الإسلام في الغرب قد يعانون من الجهل بالإسلام، سواء في فهمه، أو تدريسه، أو سبل التكيف مع الواقع.

لم يكن الحادي عشر من سبتمبر (٢٠٠١م) حدثاً عادياً، بل أصبح جزءاً من التاريخ المعاصر، بل هو أهم حدث في القرن الحادي والعشرين، مثله مثل الحرب العالمية الأولى والثانية في القرن العشرين.

أصبح هذا التاريخ علامة فارقة بين واقع غربي متساهل (إلى حد كبير) ورؤية جديدة غاضبة حانقة متشددة، ليس على الجميع بل على فئة معينة تسبب بعض أفرادها في هذا الحادث الجلل.

(*) باحث أكاديمي.. (المملكة العربية السعودية).

ورغم الحديث الضافي عن تأثيرات الأحداث على علاقات الدول بعضها ببعض وما سببته من تحطيم أنظمة والاستيلاء على بلدان، ونشر الرعب بين العالم، وظهور سطوة أمريكا وإذلالها للكثير من البلدان الضعيفة (المسلمة على وجه الخصوص) وتسلطها على الكثير من الشعوب، إلا أن واقعاً جديداً ظهر في الأفق الغربي قلما اهتم به، وندر رصد تفاصيله، ألا وهو واقع المسلمين في الغرب حالياً بعد هذه الأحداث.

إن هذا الرصد مطلوب وبشدة وباستقصاء، لارتباط ذلك بالمسلمين «**كالجسد الواحد**»[1] وتأثير هذا الأمر على واقعهم هناك وارتباطه ببقية بلدان المسلمين.

في الورقات التالية سيتم استعرض واقع المسلمين في الغرب قبل وبعد أحداث سبتمبر، مع إفراد الإعلام، لأهميته وتأثيره. ونظراً لتباين الواقع وتأثيره على المسلمين في الغرب فسيتم عرض ثلاثة نماذج:

- أمريكا؛ لأنها بلد الكارثة.
- السويد؛ كأقصى ما يكون التسامح والانفتاح.
- فرنسا؛ كنموذج للعدوانية والكراهية.

أيضاً سنعالج بعض المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بوجود المسلمين في الغرب، وعلاقتهم مع الدول التي يقيمون فيها، استكمالاً للرؤية وتأصيلاً للجانب الشرعي.

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه عَنْ عامرٍ عن النُّعْمَان بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».

الوجود الإسلامي في الغرب

الوجود الإسلامي في الغرب على نوعين: الأول مستوطن قديم كما هو في البلقان نتـيجة للفـتح الإسلامي لهذه المناطق، والثاني هجرة جديدة ابتدأت منذ أواخر القرن التاسـع عشر وازدادت بعد الحرب العالمية الثانية، وتسارعت ابتداءً من الستينيات من القرن العشرين.

الهجرات الأولى غالبها اقتصادي بحت، وكان الهدف منها جمع ثروة ثم العودة للبلد الأم، لكن من عاد كانوا قلة والأغلب استوطنوا، سواء عن طريق استحضار أزواجهم أو - بعض الأحيان - الزواج من أهل البلد، وهذا أثر بشكل كبير في الأجيال الجديدة ومدى قربها أو بعدها عن الإسلام.

وهناك تفاوت ملموس من بلد غربي لآخر، من حيث جنسية المهاجرين وأعدادهم ودورهم الاجتماعي والاقتصادي.

الهجرات في المراحل المتأخرة (ابتداءً من الثمانينيات) غلب عليها الجانب الإنساني والسياسي (لجوء) وأحياناً تتم لأسباب علمية، حيث فضل بعض حملة الشهادات العليا من الدول العربية الاستقرار في تلك البلدان لأسباب علمية بحتة.

ويُلاحـظ[1] أنّ الهجرة إلى العالم اللاتيني الجرماني، فرنسا وألمانيا خصوصاً، يغلب علـيها الطابع الاقتصادي، وأنّ الهجرة إلى العالم الأنجلوساكسوني، بريطانيا والولايات المـتحدة وكندا، يغلب عليها الطابع العلمي. أما الهجرة السياسية فهي منتشرة في كل البلاد الغربية، بقدر تأزّم وضع حقوق الإنسان في البلاد العربية-الإسلامية.

(١) محمد الغمقي، رابطة مسلمي سويسرا، مقال .

- أعداد ومنظمات المسلمين في الغرب:

أغلب المسلمين يتوزعون بين أوربا وأمريكا الشمالية، ولا توجد إحصاءات دقيقة، خصوصاً أن الكثير من البلدان لا يذكر الدين في الإحصاءات الرسمية.

وتشير التقديرات إلى أن عدد المسلمين في أوربا يقارب الخمسين مليوناً، نصفهم في أوربــا الغربية، وأكثرهم يتركز في فرنسا، حيث يقترب عددهم من الستة مليون. نصف هــذا العــدد - تقريباً- مولودون على الأرض الغربية، مما يؤهلهم لحمل جنسيتها. في أمريكا هناك تفاوت كبير في عدد المسلمين لكن الأرجح أنه يقترب من سبعة ملايين.

في المراحل الأولى للهجرة[1] تركز اهتمام المسلمين المهاجرين على توفير احتياجاتهم الأساســية، ولأجــل ذلك ظهرت بينهم «مجموعات تشاور» على شكل لجان لمتابعة شــؤونهم وقضــاياهم الخاصــة بهم، وبمرور الوقت أخذت أعداد المسلمين بالازدياد، فتحولــت هذه اللجان إلى منظمات وتشكيلات أكبر حجماً، إلاّ أنها لم تحمل في بداية قــيامها صــيغة إسلامية صرفة، بل أخذت تمارس نشاطها باعتبارها منظمات عرقية. ولكنها كانت على علاقة وصلة بالمساجد، وتقوم بنشاطات تعليمية يسيرة.

بعــض المنظمات الإسلامية المعروفة في البلاد الأصلية أسست مكاتب وفروعاً في بــلاد المهجــر، وقد استطاعت من خلال ما تتمتع به من تنظيم وما تمتلكه من تجارب عملــية ســابقة، أن تكسب إلى جانبها في فترة زمنية قصيرة، المجموعات والمنظمات الابتدائية في المهجر.

ومــن العراقــيل والعقبات التي واجهت المسلمين في تأسيس المنظمات الإسلامية، المتطلــبات القانونــية التي تضعها الدول الغربية أمامهم، إذ أن معظم الدول الأوروبية تؤكد أن تمر عملية تأسيس الجمعيات والمراكز التعليمية والثقافية، وحتى الدينية، بمراحل وخطوات قانونية قبل أن يكون بالإمكان إضفاء الصبغة الشرعية عليها وتسجيلها لدى

(١) جورجن نيلسون، مسلمو أوربا الغربية، ترجمة محمود عبدالكريم .

الحكومه بشكل رسمي، لذا كان عليها أن تقدم شرحاً حول تشكيلاتها الإدارية وقائمة المســـاعدات المالـــية الشهرية، وإيجاد مقر مناسب لمكاتبها وفروعها، واعتماد أسلوب الاقتراع المباشر لاختيار الأعضاء وفي إطار القوانين والضوابط الحكومية.

المصـــادر المالـــية لهذه المنظمات تعتمد على تبرعات الأعضاء بشكل جزئي وعلى الدعـــم الخـــارجي بشـــكل أساسي، ذلك أن معظم أبناء الجالية لا يزالون في وضع اقتصادي غير مساعد وليس بوسعهم أن يسدوا احتياجات هذه المراكز.

ولقـــد ظهـــرت في أوروبـــا[1] مـــنذ قيام الاتحاد الأوروبيّ في أوائل التسعينيات، مؤسسات إسلاميّة ذات طابع أوروبيّ، تهتمّ بأحوال المسلمين في القارّة الأوروبيّة كلها، مـــثل «مـــنظّمة رابطة الجاليات المسلمة في أوروبا» التي تأسّست في فرنسا، و«مجلس الإفـــتاء الأوروبيّ» الـــذي يتّخذ من مدينة كولن الألمانية مقرًا له، و«الفيدراليّة العامّة لمسلمي فرنسا»، كما اتّجه بعض المثقّفين المسلمين في أوروبا إلى إصدار وسائل الإعلام المختلفة التي تُخاطب المسلمين في أوروبا كافّة، مثل مجلّة «الأوروبيّة» وقناة «المستقلّة» التلفزيونيّة، اللتين تستهدفان بالدّرجة الأولى المسلمين المقيمين في أوروبا.

- واقع المسلمين في الغرب ومشكلاتهم:

الـــزواج المخـــتلط (بين المسلم والمرأة الغربية) مشكلة أساسية، والذي يتم غالباً لأســـباب تـــتعلق بالإقامة، وكثيراً ما ينتهي بالطلاق، حيث يتعلق الأبناء بوطن أمهم باعتبار أنّهم لا يعرفون شيئاً عن وطن أبيهم، بل إنّ هذا الأب ربما يكون قد حدّث بنيه عن وطن تسوده الديكتاتورية والفوضى، عن وطن بوليسي مرعب، باعتبار أنّ العديد من الأباء العرب والمسلمين هاجروا إلى الغرب لدوافع سياسية أو اقتصادية، وفي الوقت نفسه، فإنّهم يرون بأم أعينهم وطناً يوفّر لهم الأمن والطمأنينة والسلام، ويوفّر لهم راتباً من الصغر يتيح لهم شراء حاجياتهم.

(١) الشيخ يحيى عبدالواحد، مدير معهد التعريف بالإسلام في إيطاليا، في حوار مع «الإسلام اليوم».

والأدهى هو زواج المسلمة من الغربي، وهذا انتشر في هولندا بشكل خاص، بسبب نشأة الفتاة المسلمة في البيئة الغربية وعدم قدرة الأب السيطرة عليها.

ومن المشكلات أيضاً انتشار الجهل بالإسلام وبتعاليمه، خصوصاً إذا علمنا أن أغلب المهاجرين، لا سيما الأجيال الأولى، كانت هجرتهم لأسباب اقتصادية، وهم من بيئات فقيرة، ويجهلون كثيراً عن الإسلام في بلدانهم، فما بالك إذا انقطعوا عن بلدهم الأم؟!

واقع المسلمين في الغرب هو انعكاس لخلفيتهم في بلدانهم، إضافة إلى عملية الدمج التي حدثت مع المجتمع الغربي، مما أثمر نوعية من الناس متباينة فيما بينها أشد التباين، ويزداد هذا الأمر عبر الأجيال الجديدة التي نشأت في هذه البلدان.

إن مما يُخْجِل، في النشاط التجاري لبعض المسلمين في الغرب، أن معظم المحلات التي يملكها عرب ومسلمون لا تستنكف أن تبيع المجلات والأفلام الخلاعية والسجائر المهربة[1]، وأمّا بيع المخدرات فقد تخصص فيه العديد من العرب والمسلمين. وهذا لا يعني أنّه لا يوجد طبقة ملتزمة بأخلاقيات حضارتهم وتحاول تأكيد العكس عما يشاع عن العرب والمسلمين، لكنّ المشكلة تكمن في أنّ تكرر الأعمال الإجرامية من بعضهم يشوه الصورة عن الجميع.

من الطرائف أن شرطياً سويديّاً أوقف في يوم من الأيام سائقاً مسلماً لإجراء فحص التأكد من عدم شربه للخمر وهو يسوق سيارته، فقال هذا السائق المسلم للشرطي السويدي: أنا مسلم، فأجابه الشرطي السويدي بقوله: لقد قالها غيرك كثير قبل هذا وكانت بطونهم ممتلئة بمختلف أنواع الخمور.

لقد أساء بعض المسلمين في الغرب إلى دينهم أكثر مما أساءت إليه المنظمات المتخصصّة في نحر الإسلام.. التصرفات السيئة والمشينة لبعض المهاجرين من المسلمين في الغرب: من تورط في شبكات الجريمة والاتجار بالمخدرات، أو العيش عالة على دافعي الضرائب الغربيين، والتحايل على القوانين، والركون الطوعي إلى البطالة، والعيش على الإعانات الاجتماعية،

(١) يحيى أبو زكريا في حوار مع صحيفة كومال الكردية.

أو الانخـراط في عصـابات الجريمة المنظمة، أو في جماعات دينية أو سياسية متطرفة... تلك التصرفات تشعر المجتمعات الغربية بأنها مهددة في أمنها وهويتها الثقافية والدينية والاجتماعية، بما يزيد من تغذية المخاوف لديها من الأجنبي ومن أبناء الأقليات.

- نظرة الغربيّين إلى العرب والمسلمين:

في السابق[1] وعندما كان الغربيون يريدون معرفة أي تفاصيل تتعلّق بالعالم العربي والإسـلامي، أو السـلوك الاجـتماعي للعرب والمسلمين، كانوا يعودون إلى المراجع الفكـرية والثقافية التي وضعها المستشرقون، الذين احتكوا بالجغرافيا العربية والإسلامية وكتبوا انطباعاتهم عما شاهدوه في الشرق، الذي يظن بعضهم في الغرب أنّ علاء الدين وفانوسـه السـحري مايـزال يقيم فيه، ولم تساهم هذه الدراسات في تبيان الصورة بشكلها الصحيح عن العرب والمسلمين، وظلّ الغربيون العاديون يعرفون النـزر اليسير عن العرب والمسلمين.

ومع تدفق العرب والمسلمين المهاجرين على الغرب، واستيطانهم بشكل ملفت للنظر في المـدن والعواصـم الغربية، بات في وسع الغربيين أن يحتكوا بالحالة العربية والإسلامية بشـكل مباشـر، وأن يطلعوا عن كثب على سلوك وأخلاق ونفسية العرب والمسلمين، وللأسـف الشديد يمكن القول: إنّ الغربي الذي كانت في ذهنه صورة سلبية عن العرب والمسلمين جرّاء قراءات معيّنة، فإنّ هذه الصورة ازدادت رسوخاً وتأكدت بشكل كامل.

المـناهج الدراسـية في الغرب تقدم صورة مقلوبة بمعنى الكلمة ومشوهة جداً عن الإسـلام ورسوله ﷺ ونعته بالتعصب والتخلف ومحاربة مظاهر التمدّن، وذلك بهدف رسـم صـورة سـلبية عن المسلمين في أذهان الرأي العام الغربي، ومن ثم غرس روح الكراهية لديه إزاء الإسلام، كما تستهدف زرع بذور التشكيك لدى أطفال المسلمين إزاء دينهم، وجعلهم يشعرون بالنقص بسبب انتمائهم للإسلام.

(١) يحيى أبو زكريا، مجلة أفق.

- المسلمون والعمل السياسي:

يتمتّع المسلمون الذين يعيشون في الغرب[1]، سواء الذين يحملون جنسية البلد الغربي الذي يقيمون فيه أو المقيمون إقامة دائمة فيه، بنفس المزايا الدستوريّة والقانونية والحقوق التي يتمتّع بها الإنسان الغربي بالكامل وبدون نقصان، ويحقّ للمسلمين الانضمام إلى أكبر الأحزاب السياسيّة الفاعلة، سواء تلك التي في الحكم أو في المعارضة، كما يحقّ للمسلمين الذين يتمتّعون بحق المواطنة تأسيس أحزاب سياسيّة أو جمعيات ثقافية واجتماعيّة وغيرها، أو تأسيس جرائد ومجلات ووسائل إعلامية مسموعة ومرئيّة، كل ذلك متاح وتكفله القوانين التي لا تضع أيّ قيد في طريق العمل السياسي أو الإعلامي أو الثقافي.

وعلى الرغم من كل هذه الحريّة المتاحة والمعطاة لكل من يحمل حق المواطنة الغربيّة، إلاّ أنّ المسلمين المقيمين في الغرب لم يستفيدوا من هذه الأجواء والفضاءات السياسية الحرّة إلاّ بمقدار اثنين بالمائة، كما تفيد العديد من البحوث الغربيّة.

لا شك أن هناك مشكلة أساسية حالت دون الإفادة المطلوبة، وهي أن الكثير من المسلمين المقيمين في الغرب يفتقدون الثقافة التي تؤهلهم للمشاركة السياسية، والكثير منهم من أصول عمالية بالكاد يجد لقمة العيش، والسياسة - في نظرهم - ترف.. وهناك رأي آخر يذهب إلى حرمة المشاركة السياسية، ويؤصل لذلك شرعياً، على أساس أنها ديار كفر ولا يمكن أن يكون المسلم جزءاً من النسيج السياسي الكافر.

وهناك بعض آخر من قيادات المسلمين في الغرب يرى أن المشاركة السياسية يجب أن تكون ضمن أحزاب إسلامية، حتى تحقق أهداف المشاركة، وهذا الأمر متعذر حالياً لضعف ثقافة المسلمين وقلة عددهم.

---

(١) يحيى أبو زكريا، المسلمون في الغرب، صحيفة أراب تايمز .

تأثير أحداث سبتمبر على المسلمين

تحـــول اقتصاد المسلمين بعد الأحداث إلى اقتصاد حصار، وتوالت عمليات الحظر والتجمـــيد.. معـــاملات المســـلمين في الغرب التي تعرضت للتجميد والمصادرة تعد بـــالملايين، ويكفـــي الاشـــتباه أو الاتهام بالعمل لحساب «القاعدة» أو تبييض أموال لصالحها لمصادرة المال.. جميع الشركات التي تقوم بتحويلات من المسلمين المقيمين في الغـــرب لحســـاب أقـــاربهم في البلدان الإســـلامية تعرضت للإيقاف، وحساباتـــها للتجمـــيد، بحجة استخدامها غطاء لتمرير أموال لحســـاب الإرهابيين.. فرص العمل أيضـــاً بـــدأت بالـــتقلص، والعنصرية بدأت بالظهور، فالتضييق على طالبي العمل من المسلمين وطرد بعض العمال (وإن كانت حالات ليست كثيرة) والتشدد في الترخيص لشركات المسلمين.

على المستوى الشخصي، تعرض المسلمون لاعتداءات متعددة تراوحت بين الشتم والســـباب والاعـــتداء اليسير والضرب، وفي حالات نادرة القتل.. أحياناً يتم التعرض لحجـــاب بعض المسلمات بالنـــزع أو بالإشارة السيئة باليد.. «كير» رصدت ٦٢٥ اعـــتداءً في الأســـابيع الثلاثة الأولى بعد الانفجارات في أمريكا.. الاعتداءات لم تكن قاصـــرة على الأشخاص، وإنما امتدت إلى بعض المؤسسات الإسلامية، وحتى المساجد، ففي ألمانيا مثلاً تم دهم أكثر من خمسين مسجداً، وغالباً بمبررات سخيفة ووشايات. في فـــرانكفورت اقتحم أكثر من خمسين عسكرياً مسجداً بزعم وجود «أسامة بن لادن» فيه، كما وصلتهم المعلومات!!

عـــلى المســـتوى الأمـــني، سخرت الأجهزة الغربية كافة إمكاناتها لمراقبة الوجود الإسلامي على أراضيها، وأصبح هناك ملف أمني لأغلب المسلمين، خصوصاً المهاجرين

منهم والذين لم يحصلوا على الجنسية. جميع المراكز والمساجد ومؤسسات المسلمين أصبحت تحت الرصد الكامل لأجهزة الاستخبارات، حتى التجمعات والمؤتمرات وخطب الجمعة أصبحت تسجل ويستند عليها لاتهام أشخاص. عملية التنصت تشمل الاتصالات الهاتفية، وكذلك البريد الإلكتروني، حتى تلك الصادرة بلغات أخرى (كالعربية مثلاً)، لذلك جندت أجهزة الاستخبارات بعض المسلمين من ذوي النفوس الضعيفة للعمل كمخبرين على إخوانهم، بالترغيب المادي أحياناً، أو بالتهديد لانتهاكهم القوانين، أو بالتهديد بالطرد.. جيش المترجمين في الاستخبارات الغربية بدأ ينمو بشكل مضطرد بعد الأحداث، خصوصاً للغات المسلمين الشائعة كالعربية والفارسية والأردو.. أيضاً أجهزة الاستخبارات العربية، أصبحت مفتوحة للغربية، تقدم لهم أي معلومات يحتاجونها خصوصاً تلك المتعلقة بالإسلاميين.

جزء من الأرشيف الأمني الغربي بدأ يتكون من المسلمين طالبي الهجرة أو اللجوء، الذين يقدمون أي معلومات عن أشخاص وجهات يعرفونها يطلبها الجهاز الأمني الغربي، لتسهيل حصولهم على الإقامة في هذا البلد الغربي.

حتى المسلمين من أصول غربية – الذين أسلموا – أصبحوا تحت المجهر، بما في ذلك كتاباتهم ولقاءاتهم وحتى مواقع «الإنترنت» الخاصة بهم وجمعياتهم.. بعض الحركات والأحزاب الإسلامية تم حظرها ومصادرة ممتلكاتها.

لقد أثمرت الأحداث تقارباً كبيراً ومدهشاً بين محور الديكتاتوريات ومحور الديموقراطية، وتناست العواصم الغربيّة منطلقاتها وثوابتها، فباتت تستقبل ملفات الأجهزة الأمنية برحابة صدر، وخرجت من دائرة العمل بالبيّنة إلى دائرة العمل بالشبهة، ويكفي أن يكون المشتبه فيه مقيماً للصلاة، متوجهاً للكعبة المشرفّة في صلواته الخمس، قارئاً للقرآن، لتثبت الشبهة، ويصبح تحت دائرة الضوء، مجرداً من الحقوق،

كل الحقوق التي أقرّها القانون الغربي نفسه. وكثيراً ما كان المحققون الأمنيون الغربيون يسألون المشتبه فيهم: هل تؤدّي الصلاة؟ هل تشرب الخمر؟ ما هو مذهبك الديني؟ هل أنت ملتزم بالإسلام وتؤدّي فرائضه أم أنت مسلم بالاسم؟ هل أمك محجبة، وزوجتك وبناتك محجبات؟ ما هي الكتب التي تقرؤها؟ ما رأيك في هذا الشيخ وذاك الشيخ، وماذا تعرف عن الخلاف الفقهي بين هذا وذاك؟

ولقد تعرضت المؤسسات الخيرية في الغرب إلى ضربة قاصمة، فبعض المؤسسات تم حظرها بالكامل (جمعية الأقصى في ألمانيا، الأرض المقدسة في أمريكا) بعضها الآخر أصبح تحت الرقابة بالكامل، وأموالها تحت التدقيق، علماً بأن الأقليات المسلمة في الغرب نجحت في تأسيس شبكة من المنظمات الخيرية، معاملاتها تصل لمئات الملايين من الدولارات، جلها لخدمة أبناء المسلمين في الغرب، وجزء منها لدعم المسلمين في مناطق الكوارث (أفغانستان، البوسنة، فلسطين...)

وضمن الحملة الرسمية وشبه الرسمية أصبحت بعض التخصصات العلمية الحساسة محرمة على المسلمين، ليس فقط القادمين من البلاد الإسلامية بل حتى المقيمين في البلدان الغربية، بناء على توجيهات من الاستخبارات الحكومية.

أحداث سبتمبر أخذت بعداً آخر في نظر الغربيين للإسلام، فلم يكتفوا بالنماذج التي تعيش بينهم، ولا الرؤية المترسخة في أذهانهم، بل انطلق الكثير منهم في البحث عن هذا الدين وحقيقته.

وكانت العديد من وسائل الإعلام البريطانية، على سبيل المثال، قد ذكرت أن أحداث ١١ سبتمبر دفعت فئات كبيرة من الشعب البريطاني إلى الاهتمام بالإسلام والوعي بقيمه وتقاليده.

وقالـــت صـــحيفة «الجارديـــان» في ٢٠٠٢/٩/١م: إن كل أماكن بيع الكتب الإســـلامية ودورات الدين المقارن التي تنظمها الجامعات شهدت إقبالاً متزايداً من غير المســـلمين بعد أحداث سبتمبر، لاكتشاف المزيد حول مبادئ الإسلام والسيرة النبوية، كمـــا ارتفعت نسبة مبيعات النسخ المترجمة للإنجليزية من القرآن الكريم خلال الأشهر الثلاثة التي تلت ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

بعـــد ١١ ســـبتمبر أصـــبحت أوروبا وأميركا أكثر صرامة بشأن تعاليم الإسلام الأصـــولي الســـلفي.. وبسبب الخوف من الإرهاب فإن الغرب الآن مهتم بجعل تعاليم الإسلام – التي تمارس ويجري تعليمها في الغرب على الأقل- غير معادية للقيم الغربية، وخصوصاً مبدأ التعددية والعلمانية.

كانـــت السمة البارزة للمجتمع الغربي عقب أحداث ١١ أيلول (سبتمبر)[١] هي إظهار العداء للإسلام والمسلمين. غير أن قاعدة في علم الاجتماع تقول: بأن الأحداث الاجتماعـــية لا تـــتمخض عن نتيجة واحدة، لقد أصبح الحديث عن محاسن الإسلام وهويـــته الحقيقـــية موضوع الساعة في الكثير من البلدان الأوربية وأمريكا. وفي هذا الإطار، قامت صحف كثيرة بإعداد تحقيقات وتقارير مفصلة عن الإسلام، بالإضافة إلى قـــيام صحف أخرى بتخصيص خمس من صفحاتها أحياناً لمفهوم الإسلام ونظرته إلى بعض المواضيع الرئيسة. وأكبر دليل على تزايد الاهتمام بفهم الإسلام هو البيع القياسي للمصـــاحف القرآنية. وتأتي الدول التي تتميز بتعدد الثقافات – مثل السويد وسويسرا وهولندا وبلجيكا وبريطانيا- على رأس قائمة البلاد التي يحتل القرآن الكريم فيها المركز الأول دائماً بين قوائم أكثر الكتب مبيعاً.

(١) نوازت صواش، الإسلام والغرب، إسلام أونلاين.

كمـــا تم إعـــداد محاضرات تحت اسم «تينغ تانك»[1] تناقش العلاقة بين الإسلام والإرهـــاب، وتهدف إلى فهم التفاسير المختلفة للإسلام، في العواصم والمدن الكبرى، وخُصـــص لذلـــك عدد من أكبر صالات الاجتماع، لكثرة إقبال الناس عليها. وبث شبكة «أرت» التلفزيونية الألمانية الفرنسية برنامجاً وثائقياً، بعد الأحداث، يتحدث عن حـــياة وشخصية نبي الإسلام ﷺ، بينما كان من المقرر أن يذاع البرنامج بعد سنتين. والعـــامل الرئيسي في تقديم تاريخ بث البرنامج يرجع بلا شك إلى رغبة الناس في تعلم الإسلام في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر. وقد تمت إذاعة البرنامج ثلاثة أيام على التوالي – في أكثر الساعات مشاهدة– محققاً رقماً قياسياً في نسبة المشاهدة.

لذلك يصح الانطباع القائل: [2] إن المسلمين أصبحوا عمومًا تحت الخطر في بلدان الغرب، وإن الاعتداءات عليهم باتت يومية؛ ففي ذلك تهويل من شأن ما شهدته الأيام والأسابيع التالية للتفجيرات، أي الفترة التي يمكن أن نتوقع أن تسجِّل ذروة ردود الفعل الانفعالـــية عـــلى مستوى الشارع الغربي. ولا يعني ذلك التهوين من شأن ما وقع من اعتداءات وتحرشات؛ فمجرد وصول ذلك إلى مستوى قتل عدد من الأفراد –كما كان في الولايات المتحدة الأمريكية– كافٍ للتنويه بحجم الخطر، إلا أن تقويم الوضع بصورة موضوعية ينبغي أن يقوم على استحضار الأرقام.

المفكـــر الغربي المسلم مراد هوفمان[3] يرى أن أحداث ١١ سبتمبر كانت لصالح الإسلام، وستخدم مصلحة الإسلام بشكل عام. والدليل أن الناس بدءوا يحاولون فهم الإســـلام، ويســـعون إلى البحـــث عنه وتفهمه؛ حتى أن ترجمة معاني القرآن التي قام بتنقيحها باللغة الألمانية بيع منها ٤٠ ألف نسخة خلال سنة واحدة.

---

(١) نوازت صواش، الإسلام والغرب، إسلام أونلاين.
(٢) نبيل شبيب، مسلمو الغرب بعد التفجيرات، إسلام أونلاين.
(٣) في حوار مع إسلام أونلاين ٢٠٠٤/١/١٤م.

أمّـــا ذروة ما يمكن وصفه بردَّة الفعل الإيجابية على التداعيات السلبية الأولى بعد الـــتفجيرات[1]، فكانـــت في يوم «الباب المفتوح» للمساجد الإسلامية كما حدث في ألمانـــيا يوم ٣/١٠/٢٠٠١م، الذي يصادف يوم عطلة (ذكرى إعادة الوحدة الألمانية). فقـــد نظَّم القائمون على المساجد عملية (استقبال الزوار)، وتهيئة المحاضرين والمحاورين الأقـــدر مـــن ســـواهم على عرض الإسلام وإجابة الاستفسارات عنه باللغة الألمانية. وبالمقـــابل شـــهدت المساجد في العام التالي أضعاف الزوار الذين كانت تستقبلهم في مرات ماضية منذ إطلاق هذا التقليد السنوي عام ١٩٩٦م.

رغـــم واقـــع المسلمين السيء – في الجملة – إلا أن نشاط بعضهم، ودور بعض المراكـــز الإسلامية، وحملة التعريف المستمرة بالإسلام، خصوصاً بعد أحداث سبتمبر، أثمرت دخولاً متواصلاً في الإسلام لم يتوقعه حتى القائمون على أمر الدعوة في الغرب. وقالـــت صحيفة «صنداي تايمز» البريطانية في عددها الأسبوعي نقلاً عن الدراسة التي أعدها الباحث البريطاني المسلم يحيى بيرت (جوناثان بيرت سابقا):

أكـــثر من ١٤ ألف بريطاني بينهم عدد من كبار ملاك الأراضي ومشاهير المجتمع اعتـــنقوا الإســـلام. ورغم قلة الإحصاءات الدقيقة عن عدد الذين أسلموا بعد أحداث ســـبتمبر إلا أن مـــن المؤكد أنهم أكثر بكثير من أعدادهم فيما يقابلاها من السنوات السابقة، كنتيجة حتمية للتعرف على الإسلام من قرب، بعيداً عن الصورة المشوهة التي غذاها الإعلام في عقول الغربيين.

(١) نبيل شبيب، مسلمو الغرب بعد التفجيرات، إسلام أونلاين .

مسلمو الغرب والإعلام

يتقاســم الــتأثير عــلى عقل الإنسان الغربي اثنان: الأول التربية المدرسية والثاني الإعــلام. لم يكــن الإســلام - كما يعرض في مدارس الغرب- إلا بعض الطقوس والخزعبلات منسوبة إلى بدوي في الصحراء التقى بعض اليهود والنصارى ونقل عنهم بعض النصائح والإرشادات، و لم يتوان هو شخصياً عن التمتع بالنساء، وكانت الحرب هدفاً بالنسبة إليه، منها يقتات وعلى هديها يسير.

في جانــب الإعــلام لا تخرج الصورة عن الإسلام عن المتداول في المدارس، مع إضافة خاصة بواقع المسلمين المعاصر، من تخلف، وأخلاق رديئة، وحب للدماء، وبطش بالمــرأة، ومعــاداة لحقــوق الإنسان، ووحشية وهمجية قلما يخــلو منها مجتمــع من مجتمعات المسلمين. ولايكاد يخلو كتاب أو برنامج تلفزيوني أو مقال ينشر عن الإسلام إلا وتحدث بإسهاب عن الجهاد، وكأنما أصبحت كلمتا «إرهاب» و«جهاد» مرادفتين لكلمة إسلام.

الإعــلام الغــربي يقــوم على ترسيخ صور نمطية عن الذات و(الآخر)[1]: الذات باعتــبارها رمــزاً للــتقدم والنجاح والتحضر، و(الآخر) باعتباره أقرب إلى التوحش والبدائــية وقلة الحضارة. وتقوم وسائل الإعلام في معظم الدول الغربية بالتركيز على العديد من القضايا التي توقظ المشاعر العنصرية في الضمير الأوروبي، مثل قضايا اللجوء، والهجــرة، والجماعات المتطرفة في الغرب، وتصوير المجتمعات الأصلية للأقليات العرقية والدينــية - الــتي تعيش في الغرب - باعتبارها مجتمعات للحروب والتخلف والعنف

(١) الملف السياسي، صحيفة البيان الإماراتية ٢/١/٢٠٠٤م.

والإرهاب، تصنع هالة من التوجس والخوف والانطواء تجاه الأجنبي «البربري» أو «المتوحش» القادم إلى قلب الجنة الغربية من أجل إفسادها وتدميرها.

وتعتبر صورة العرب والمسلمين المشوهة[1] - والمقترنة في الإعلام الغربي بكل ما هو قبيح وسيئ - أحد أبرز المظاهر على دور الإعلام والتعليم ومختلف أجهزة الثقافة الشعبية في إنتاج الكراهية والحقد على العرب والمسلمين لدى الغربيين. وهي الظاهرة التي تعرف اليوم في الدراسات الاجتماعية الغربية باسم «الإسلاموفوبيا»، أي الخوف والتخويف من الإسلام، وتصويره باعتباره بعبعاً يهدد الحضارة الغربية.

بعد أحداث سبتمبر أصبح الإسلام والمسلمون هو الشغل الشاغل للإعلام الغربي. في الأيام التالية لوقوع التفجيرات، بدأت الصحف البريطانية والأمريكية تتحدث عن شبكة إرهاب إسلامية ربما تكون منتشرة في أوروبا. وقد ركزت وسائل الإعلام والتقارير الصحافية على أنباء الاعتقالات وحملات التوقيفات، التي طالت عناصر إسلامية في مختلف الدول الأوروبية.. ففي بروكسيل كما أظهرت الصور، أوقفت الشرطة أربعة أشخاص ينتمون للتيار الإسلامي، وكذلك أوقفت شخصين في روتردام بهولندا. وقامت السلطات في هامبورج[2] بمداهمة عمارة سكنية يقطنها إسلاميون؛ وظهرت لقطات امرأة منقبة تحمل طفلها تسير في حراسة الشرطة لترد على الاستجوابات المعروضة أمامها. ورغم أن معظم الأشخاص الموقوفين ثبت - فيما بعد- أنه لم يكن لهم أية علاقة بالهجمات على مركز التجارة العالمي، فإن ذلك لم يحتل أي أهمية تذكر بالنسبة للصحافيين الذين اكتفوا بالإشارة للتوقيفات من دون ذكر نتائج التحقيقات.

---

(١) نور الدين العويديدي، الأقليات في الغرب، إسلام أونلاين .

(٢) أميمة عبداللطيف، الإسلام والغرب، إسلام أونلاين.

الكثير من العبارات المهيجة ذكرتها وسائل الإعلام الغربية مثل: «المسلمون قادمون»، «الغزو العربي لأوربا»، «أكره الإسلام»، و«الحفاظ على قيم الغرب التي يهددها الإرهابيون»، «الغرب المتحضر الديمقراطي في صراع ضد القوى الظلامية التي تحتقر الغرب»، «القرآن والعنف»، «الإسلام والسيف»، «استيقظ يا محمد فقد أصبحوا مجانين»، «الإرهاب الإسلامي».

صحيفة بريطانية جادة (تلغراف) نشرت سلسلة مقالات لمدة عشرين يوماً عن الإسلام – كديانة– ولا تفرق بينه وبين المسلمين، وفي إحداها يشير الكاتب إلى قواسم مشتركة بين المسلمين والكلاب[1]، وأن الأقلية المسلمة ربما تهدد الغرب.

مثلاً عندما يتم اعتقال أشخاص يوصفون بأنهم مسلمون، لأنهم ينتمون إلى الإسلام يعلن ذلك على الصفحات الأولى، مثلاً في بريطانيا تم اعتقال ٥٧٠ مسلماً بشبهة ارتكاب أعمال ضد القانون، لم توجه التهم إلا إلى ٩٧ منهم، ولم يدن إلا ١٤ منهم بقانون مازال سرياً لا نعرفه، وأدينوا لتهم غير الإرهاب، التأشيرات والهجرة. أيضاً الإعلام البريطاني يضخم أشخاصاً لا يمثلون المسلمين ولا غالبيتهم.

لقد أصبح الهجوم على الإسلام في الإعلام الغربي – عقب أحداث سبتمبر– وسيلة سهلة لزيادة التوزيع، فالصحافة الفرنسية زادت مبيعاتها بنسبة تفوق ١٥% للأعداد التي تتضمن هجوماً على الإسلام والمسلمين، مما دعا أشهر صحيفة فرنسية (لوموند) لتخصيص ملف عن الإسلام نشر في عدة حلقات، وكذا صحيفة لوبوان (البحث عن الحقيقة) تضمن هجوماً شرساً على الإسلام والقرآن.

(١) قناة الجزيرة، برنامج بلا حدود.

ورغم حيادية وسائل الإعلام الغربية - كما تدعي- إلاّ أنها دائماً تميل لمصلحة تشويه الإسلام. أذاعت القناة الثانية السويدية[1] برنامجاً حول الحجاب بمشاركة العديد من المحجّبات من أصول عربية وإسلامية، والعديد من السافرات أيضاً من أصول عربية وإسلامية، وفيما كانت فتيات مسلمات يدافعن عن حجابهنّ كانت سافرة إيرانية ترأس تحرير مجلة نسوية مغمورة في السويد تتهم الحجاب بكونه ليس فريضة إسلامية بل شعار سياسي لمجموعة من المتعصبين الذين لا يؤمنون بالديموقراطية.

وعندما يتصل الأمر بتصحيح ما نشرته وسائل الإعلام فإن كثيراً من الجرائد الغربيّة لا تقبل بتاتاً نشر مادة تصحيحيّة لمادة إعلامية نشرت عن الإسلام، أو قضيّة تتعلق بالإسلام، كقضية الحجاب أو الجهاد ومغزاه في الإسلام.

بالطبع ليس الجانب الإعلامي مظلماً دائماً، فقد أتيح عرض الإسلام أحياناً بطريقة موضوعية من قبل بعض القيادات الإسلامية في أوربا، ولا يكاد يمضي يوم واحد دون برنامج إذاعي أو تلفازي؛ وخصَّصت بعض الإذاعات مساحة زمنية واسعة لبثّ برامج تضمنت ترجمة معاني سور كاملة من القرآن الكريم، مع بيان أهم نقاط الاحتكاك مع الديانات الأخرى وما يتعلق بالجهاد. وتعدَّدت الملاحق المخصصة للإسلام، وبعضها بمشاركة أقلام من المسلمين كما حدث في ألمانيا، في الصحف اليومية والأسبوعية الرئيسة.

(١) يحيى أبو زكريا، الإسلام في السويد، مجلة أفق.

المسلمون في أمريكا

رغم الإشارات المتعددة لحضور المسلمين منذ اكتشاف أمريكا وما أعقبه من جلب للعبيد (ومنهم بعض المسلمين والذين ذابوا بعد ذلك في المحيط النصراني) إلا أن الهجرة الحقيقية بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، خصوصاً من بلاد الشام، ثم تباطأت بعد ذلك، لكن بعد الحرب العالمية الثانية بدأ وصول بعض المسلمين من أوربا الشرقية والقليل من القارة الهندية.

في الستينيات حدثت فورة في الهجرة لأسباب اقتصادية، لكن رافقها الجانب التعليمي لدى بعضهم، وكان المهاجرون من بلدان عربية وإسلامية مختلفة. وفي الثمانينيات اندفعت موجات جديدة من العراق وإيران لأسباب إنسانية وسياسية.

وفي التسعينيات هاجر بعض المسلمين من ماليزيا وأندونيسيا وكذلك من الهند وباكستان وأغلبهم من التقنيين والعلماء.

أما أصول المسلمين، فحسب دراسة صدرت عن مركز هارد فورد للأبحاث الدينية في أمريكا[1] فهم كالتالي:

عرب ٢٥% ، القارة الهندية ٣٣%، أمريكيون أفارقة ٣٠%، أوربيون مسلمون ٢%، جنوب شرق آسيا ٢%، أخرى ٥% .

أما المسلمون السود فقصتهم تستدعي الإشارة. عندما أسلم «أليجا محمد» لم يحمل من الإسلام إلا اسمه وبعض الرموز اليسيرة، وكان يرى الإسلام دين السود، وهو النبي المرسل لهم.. كانت النقلة لـ «أمة الإسلام» عندما اهتدى «مالكوم إكس» إلى الإسلام وبدأ بالطرح الصحيح للدين، مما تسبب في مقتله بعد فترة يسيرة. كان خليفة «أليجا» ابنه قد اكتشف بعد موت والده خطأه وصواب «مالكوم إكس» مما دعاه إلى إحداث تغيير في «أمة الإسلام» نحو النهج الصحيح، لكنه لم يصادف نجاحاً كبيراً

(١) مجلة الوسط، العدد ٥٤٦، ٢٠٠٢/٧/١٥م.

فانقســـم الأتباع وبقي بعض منهم على خرافاته وضلاله، لكن الحركة - بوجه عام- بقيـــت ذات حضـــور في وســـط السود، وإن غلب عليها التقوقع عن بقية المسلمين والانعزال عنهم.

في مدينة نيويورك، كان الإسلام حاضراً وظاهراً لمدة تزيد عن قرن كامل، وكانت مقراً لمجموعة متنوعة كبيرة من الجماعات الإثنية، وكان من بين سكانها المسلمين بحارة سفن تجارية، وتجار، وأصحاب أماكن تسلية، ومهنيون، وموظفو شركات، وأصحاب مشاريع تجارية رئيسة. شيكاغو، بولاية إلينيوي، كانت مكان سكن مُبكر للمهاجرين المســـلمين، ويدعي بعضهم أنه كان يقطنها عدد من المسلمين في أوائل القرن العشرين أكثر من عدد المسلمين في أي مدينة أميركية أخرى.

وتشـــير دراســـة أمريكية[1] إلى أن من بين الملايين السبعة المسلمين هناك ٣٦% معـــتدلون، ٢٧% ليـــبراليون، ٢١% محـــافظون. أكثر من ثلثهم ولدوا في الولايات المتحدة، وهم من بلدان متعددة تصل إلى ٨٠ بلداً.

ونظراً للخلفية الثقافية والعلمية للكثير من المهاجرين المسلمين إلى أمريكا (بخلاف أوربـــا) فإن البعد المؤسساتي في العمل وتنظيم شؤونهم بدأ منذ وقت مبكر وتطور مع الـــزمن. وهـــي من الكثرة بحيث يصعب حصرها، فأغلبها جمعيات محلية صغيرة، لكن هناك بعض المؤسسات السياسية والإسلامية العامة مثل: مجلس الشؤون العامة الإسلامية MPCA، المجلـــس الإســـلامي الأمريكي AMC، مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية CAIR، التحالف الإسلامي الأمريكي AMA ، التجمع الإسلامي IQNA.

تأســـيس هـــذه المؤسسات جاء أيضاً إيذاناً ببدء مرحلة جديدة من مراحل وجود المسلمين في أمريكا، مرحلة تتخطى الاستجابة للحاجات الدينية والاجتماعية الأساسية، مـــثل المســـاجد والمـــدارس والمؤسسات الاجتماعية والثقافية، إلى بناء القوة السياسية

(١) قناة الجزيرة، ٣/١٠/٢٠٠٤م.

والإعلامية للمسلمين الأمريكيين والتحرك الدؤوب لتنفيذ برنامج عمل مشترك وواضح يقوم على أربعة محاور رئيسة، هي:[١]

١- مكافحة محاولات تشويه صورة الإسلام والمسلمين بالإعلام الغربي، واستبدال الصور السلبية بأخرى إيجابية.

٢- زيادة وعي المسلمين الأمريكيين بحقوقهم المدنية وخاصة فيما يتعلق بحقهم في ممارسة دينهم بمختلف المؤسسات العامة الأمريكية، والدفاع عن تلك الحقوق من خلال جهد منظم وعملي.

٣- تشـجيع المسـلمين الأمريكيين على المشاركة في الحياة السياسية الأمريكية واسـتخدام حقوقهم المكفولة دستورياً، خاصة حقوق التصويت وحرية الرأي والتعبير وحرية التنظيم السياسي والترشح لتولي المناصب السياسية.

٤- العمـل على التأثير على السياسة الخارجية الأمريكية لتطوير الموقف الأمريكي من قضايا المسلمين المهمة وعلى رأسها قضية فلسطين وقضية كشمير وقضايا الأقليات المسلمة المظلومة في بلدان كيوغسلافيا السابقة وروسيا.

- انعكاسات أحداث سبتمبر:

كانـت الأحداث صدمة للجميع، وبالأخص المسلمين؛ لأن من قام بها –حسب زعـم الإدارة الأمريكية– هم من المسلمين ممن يحملون فكر الجهاد ضد الغرب الكافر وعـلى رأسـه أمـريكا. بالطـبع كان الشأن الأمني هو الهاجس، وكان المسلمون مستهدفين.

في المـرحلة الأولى كانـت الصدمة والذهول من الحدث مع البحث المضني عن الفاعل ودوافعه. المرحلة الثانية: بناءً على ما رشح من وسائل الإعلام والتقارير الرسمية بارتـباط الحـدث بمجموعـة شرق أوسطية (مسلمة) متطرفة كان رد الفعل الغضب

(١) علاء بيومي، مسلمو أمريكا، إسلام أونلاين.

والهيجان الشديد والدعوات المتكررة بالرد العسكري (ولم تدخر الإدارة وسعاً في ذلك، فقد هاجمت حكومة طالبان وقضت على آلاف الأفغان) . أيضاً وقعت اعتداءات على أفراد مسلمين[1] (أكثر من ٤٠٠ اعتداء في الأسبوع التالي لأحداث سبتمبر) أو حتى آسيويين، ونزع حجاب بعض المسلمات، وتكسير محلات لبعض المسلمين، وإيذاءات جسدية جسيمة لبعض آخر، فضلاً عن الازدراء وألفاظ السب والشتم، وفي أدنى الأحوال التخوف والريبة من المسلمين.

بالطبع منظماتهم أصبحت محل شبهة، وأعمالهم الخيرية محل اتهام، وأنشطتهم محل متابعة.

– التوسع في تعريف السلوك الإرهابي ليشمل بعض السلوكيات مثل «إرسال أموال لمنظمات إرهابية» والتوسع في تعريف الضالعين في أعمال الإرهاب ليشمل الأفراد الذين ساعدوا من ارتكبوا أو خططوا للقيام بعمليات إرهابية، سواء كانت تلك المساعدة عن علم أو كانت على غير علم.

– التوسع في التنصت الهاتفي والإلكتروني على المشتبه بضلوعهم في عمليات إرهابية، مراقبة التجمعات الجماهيرية اليومية، وتسجيل صور المشاركين فيها وخصائصهم في قواعد معلوماتية ضخمة ومقارنتها بصور المشتبه بهم.

– الحفاظ على سرية الأدلة التي يتم على أساسها القبض على المشتبه بهم[2] والتحقيق معهم، وخاصة في قضايا الهجرة.

– التعقب والقبض والترحيل للمهاجرين المقيمين بصفة غير قانونية بالولايات المتحدة دون أدلة معلنة، ودون المرور بالمسار القضائي العادي؛ لأن هؤلاء المهاجرين – في ظن وزارة العدل الأمريكية – أكثر استعداداً للقيام بسلوكيات تضر بالأمن القومي الأمريكي أو تسهيل مثل تلك السلوكيات.

(١) علاء بيومي، قناة الجزيرة.

(٢) رشدي سعيد، العرب الأمريكيون وأحداث سبتمبر، جريدة مستقبليات الإلكترونية.

من جانب آخر أشارت صحيفة واشنطن بوست (١٩/٥/٢٠٠٢م) إلى أن العديد مـــن المسلمات أقبلن على ارتداء الحجاب بعد أحداث سبتمبر، والسبب الرئيسي هو تعـــرض الدين الإسلامي للسباب، وهذه الظاهرة أوضح ما تكون في الجامعات، حيث أثـــارت الحملة الدعائية ضد المسلمين اهتمامهن بدينهم فأسرعن للتعرف على الإسلام وارتداء الحجاب.

ورغم إطلاق بعض المســؤولين عبارات تنم عن التسامح مع المسلمين الأمريكيين أو المقـــيمين منهم إلا أن الواقع أن هناك العديد من التصريحات العنصرية من أعضاء في الكونغـــرس وشخصيات دينية (مثل الأب غراهام الذي وصف الإسلام بأنه دين شرير وعنـــيف ولا يدعو إلى الرب نفسه، والقس فاينـــز الذي قال: إن محمد كان شاذاً مع الأطفال ومصاباً بمس من الشيطان). أيضاً تم احتجاز أكثر من ١٢٠٠[١] عربي ومسلم عـــلى خلفية الاعتداءات، كما قام FBI بإجراء مقابلات مطولة مع أكثر من ٨٠٠٠ شخص من أصول عربية وإسلامية.

- الجانب الإيجابي للأحداث:

بالطبع ليست جميع الأمور سيئة، فالأزمة كان لها وجه إيجابي:

أولاً: كشـــفت الأزمة عن بعض الإيجابيات الراسخة في علاقة المسلمين والعرب الأميركيين بمجتمعهم الأميركي، تمثلت في رسائل التأييد والتشجيع التي تلقتها المنظمات المســـلمة والعربية من قبل السياسيين الأميركيين، وباقات الزهور التي سارع المواطنون الأميركـــيون بوضـــعها أمام المساجد بمختلف أنحاء أميركا، وبعض التغطية الإعلامية الإيجابية لجهود المسلمين والعرب الأميركيين في مساعدة بلدهم أميركا على الخروج من أزمـــتها رغـــم مـــا يتعرضون له من موجة عداء مضاد مدانة، وأهم من ذلك نشاط المسلمين والعرب الأميركيين غير المسبوق بمختلف الولايات الأميركية في تقديم قضيتهم

(١) عبد الوهاب خضر، الأمن القومي في زمن جورج بوش، موقع زجار.

العادلة للإعلاميين والسياسيين الأميركيين أثناء الأزمة الراهنة، والتفافهم حول منظماتهم المحلية والوطنية، وإحساسهم المتزايد بضرورة تفعيل دورهم الإعلامي والسياسي في أميركا لاستئصال جذور العداء للإسلام والمسلمين من المجتمع الأميركي.

لقد فتحت الأزمة أمام المنظمات المسلمة الأمريكية أبواب أكبر المؤسسات السياسية والإعلامية الأمريكية[1]، بل إن الرئيس الأمريكي نفسه التقى بالمنظمات المسلمة الأمريكية مرتين خلال الأسابيع الثلاثة التالية للحادي عشر من سبتمبر، أضف إلى ذلك تمييز الرئيس الأمريكي والعديد من مساعديه بين الإسلام وبين مرتكبي الحوادث الإرهابية الأخيرة.

ثانياً: أوجدت الأزمة شعوراً بالتوحد والتحدي داخل المجتمع المسلم الأمريكي، وعلى الرغم من أن التحدي الذي خلقته الأزمة قد يخيف العديدين ويدفع بعضهم إلى ترك الولايات المتحدة، إلا أنه زاد من ارتباط العديد من المسلمين والعرب بعضهم بعضاً والتفافهم حول مؤسساتهم، كما ظهر في إقبال المسلمين الكبير على تلبية دعوة منظماتهم ومساجدهم لهم في أكثر من مناسبة أو حدث خلال الأسابيع الأخيرة.

ثالثاً: مثلت الأزمة فترة انقطاع في عقلية المواطن الأمريكي (المسلم وغير المسلم) جعلته يفكر في علاقته بالإسلام والمسلمين بشكل جديد وغير مسبوق، فقد تحدثت جريدة USA Today الأمريكية الشهيرة في عددها الصادر يوم السابع عشر من سبتمبر عن نفاذ الكتب المتعلقة بالإسلام والشرق الأوسط من مكتبات الولايات المتحدة، مشيرة إلى اهتمام الأمريكيين المتزايد بمناقشة الإسلام وعلاقة الشعب الأمريكي بأبناء الشعوب الإسلامية.

الأمر نفسه حدث مع العديد من المسلمين المقيمين في الولايات المتحدة، فقد دفعتهم الأزمة وما تضمنتها من هزة إلى مراجعة المصادر والمؤسسات الإسلامية للبحث عن أجوبة لما أثارته الأزمة من تساؤلات عن الإسلام.

(١) نهاد عوض، مدير كير في حوار مع محيط.

- تحديات سياسية:

على الجانب الأخر[1] خلقت الأزمة أمام مسلمي أمريكا تحديات سياسية كبيرة، من ذلك:

أولاً: أوجدت الأزمة ما يشبه حالة طوارئ غير معلنة تسيطر على تصرفات وعقول المواطنين الأمريكيين، وأصبحت مقولة «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» أحد المقولات الأساسية المحركة للرأي العام الأمريكي خلال الفترة الراهنة، وخلال فترات الطوارئ يصعب التنبؤ بالسياسات، وتقل أهمية المحافظة على الحقوق والحريات الفردية؛ ويبرر السياسيون لأنفسهم سلوكيات كان يستحيل عليهم التفكير فيها قبل الأزمة. وقد صيغت خلال هذه الأزمة العديد من القوانين المتعلقة بتحقيق أمن أمريكا على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ثانياً: أوجدت الأزمة «عدو شعبي عام» للشعب الأمريكي وهو المتطرف أو الإرهابي المسلم، الذي أصبح يمثل لرجل الشارع الأمريكي أحدث أساطير العداء والشر، وقد تستخدم تلك الأساطير لتخويف رجل الشارع الأمريكي البسيط من الإسلام والمسلمين، بل إنها قد تستخدم لتخويف كبار السياسيين من كل ما هو إسلامي أو مسلم.

ثالثاً: الأزمة فتحت الباب للوبي المعادي للإسلام لإخراج ما في جعبته من اتهامات للإسلام والمسلمين، وقد زادت تلك الاتهامات بعد مقابلة الرئيس الأمريكي مع قادة المنظمات المسلمة الأمريكية، حيث شن هذا اللوبي حملة انتقادات واسعة ضد الإدارة الأمريكية لمقابلتها المنظمات المسلمة، وعلى المنظمات المسلمة وقادتها، مستخدمة نفس الحجج الواهية التي طالما استخدمت في الماضي لتشويه السمعة، والتي لا تعدو أن تكون تلاعباً بالألفاظ والأفكار واتباعاً لمنطق اللوبي الإسرائيلي في نقد المنظمات المسلمة الأمريكية.

---

(١) علاء بيومي، التطور السياسي لمسلمي أمريكا، أراب ميل.

المسلمون في السويد

السويد ليست من دول أوربا القديمة، فهي من دول أوربا الشمالية المنعزلة، وشبه الجزيرة التي تضمها مع فنلندا كانت موطن «الفايتنج»، الشعوب القبلية المتوحشة والتي عاثت في أوربا قديماً تخريباً وتدميراً.

الوجـــود الإسلامي في هذا البلد حديث، مقارنة بدول أوربا، لكن أحد الرحالة المسلمين وصل منذ بضعة قرون لهذه البلاد ووصف حال أهلها ومدى وحشيتهم.

كانـــت البداية بعد الحرب العالمية الثانية بأفراد قلائل من التتار لكن في الستينيات بـــدأت هجرة عمالية كبيرة من الأتراك واليوغســـلاف خصوصاً فاق عددهم خمسة عشـــر ألفاً في نهاية العقد. في السبعينيات ازدادت موجة الهجرة وشملت دولاً عديدة، عربية وإســـلامية من بنغلاديش شرقـــاً حتى لبنان غرباً، حيث تجاوز عددهم الخمسين ألف نسمة.

استمرت الهجرة في الثمانينيات وشملت دولاً جديدة مثل إيران والعراق حتى تجاوز عـــدد المســـلمين المائة وخمسون ألف نسمة. في التسعينيات استمرت الهجرة وشملت الـــبلدان ذات الكـــوارث مثل الصومال والبوسنة. وبينما كانت الهجرة الأولى عمالية كانت التي تليها سياسية بالدرجة الأولى، والأخيرة نتيجة العوامل الإنسانية.

ويقدر عدد المسلمين حالياً ٤٠٠ ألف نسمة، وفي الإحصاءات الرسمية يجاوز ٣٥٠ ألـــف نسمة، حيث يمثل المسلمون ٦% تقريباً من عدد السكان الذي يقارب التسعة مليون نسمة.

تم تأســـيس أول اتحـــاد إســـلامي في مدينة مالموا جنوب السويد عام ١٩٧٥م[١] واعترفت الحكومة به رسمياً.

---

(١) عبد الكريم لعلام، منتدى التاريخ.

مع تكاثر المسلمين وتنوع مذاهبهم وأعراقهم وبلدانهم شكلوا العديد من الجمعيات الإسلامية للحفاظ على هوياتهم وجمع شتاتهم، لكن الحكومة السويدية اعترفت بثلاث فقـط بناء على تقصي لواقع الجمعيات، وهي: رابطة الجمعيات الإسلامية في السويد؛ اتحاد مسلمي السويد؛ واتحاد المراكز الثقافية الإسلامية، وتم تشكيل مجلس تعاوني يضم هذه المؤسسات للاستفادة من الدعم المالي الذي تقدمه الحكومة لهذه الجمعيات.

وتـوج النشـاط الإسلامي بافتتاح المركز الإسلامي والمسجد الجامع في العاصمة اسـتوكهولم منتصـف ٢٠٠١م، وسط ترحيب شعبي وحفاوة رسمية واهتمام إعلامي بـالغ. لقد كان لهذا الصرح الشامخ أثره الملموس، حيث المشاركة الرسمية في الافتتاح، فقـد صـرحت وزيرة الثقافة السويدية:[١] «لقد كنا متشوقين لرؤية بناء كهذا يكون مـلاذاً للصلاة والدعاء وواحة للحوار والتفاهم بين الجميع». حتى الكنيسة السويدية رحبـت بافتـتاح المركـز، حيث إنه سيساهم في منح الدين المزيد من الحضور على المستوى العام في مجتمعات الشمال، حسب وصف المطران «هام».

وتوافـد السويديون على المركز حتى فاق الزوار الأربعين ألفاً خلال الستة أشهر الأولى التي أعقبت الافتتاح.

وقد شهد العمل المؤسسي في صفوف مسلمي السويد قفزات بارزة في الثمانينيات مـع تـزايد عددهـم وتحسن أوضاعهم العامة وإمكاناتهم، في الوقت الذي بدأت فيه علاقات المسلمين مع الحكومة والسلطات والأحزاب السياسية تنضج بالتدريج، خاصة من خلال المجلس السويدي والعديد من الهيئات التخصصية التابعة له.

وسـرعان ما تطورت العلاقة إلى الحد الذي مكن من المطالبة بالحقوق الإضافية التي يتطلع مسلمو السويد إلى التمتع بها، كما بزغت بوادر للمشاركة السياسية للمسلمين، من خـلال الـتعاون المباشر مع الأحزاب، والعضوية في اللجان التخصصية التابعة للحكومة

---

(١) عبدالله بن ياسين، منتدى التاريخ.

والـــوزارات، خاصة من خلال الوزارة المتخصصة في النظر بتعديل القوانين، حيث تمكن المسلمون[1]«من التأثير في العديد من مشروعات القوانين قبل طرحها على البرلمان».

الســـويد دولـــة علمانية، والدين شأن شخصي، والإلحاد ينتشر، والدين ينحسر، والإســـلام يمـــثل حالياً الديانة الثانية بعد البروتستانتية. القانون يسود الجميع، والدولة تعامل الجميع من مواطنين ومهاجرين على قدم المساواة، ونظراً لكثرة الأجانب أنشأت الدولة وزارة خاصة لإدماج هؤلاء المهاجرين في المجتمع.

الحكومـــة –كما هو واضح في سياساتها– تعامل الإسلام كثقافة وتراث حضاري أكثر منه كدين، لذلك لا تعطي قيمة بالغة للقيم الإسلامية، وتطالب المسلمين الالتزام بالقيم الغربية بصفتها عماد المجتمع.

يقـــول مصطفى خراقي، رئيس المجلس الإسلامي السويدي[2]: إن سياسة السويد قامـــت في الســـابق عـــلى تذويب الأجانب في المجتمع، وظهر لاحقاً أن هذه ليست بالسياســـة المجديـــة، وخاصـــة مع المسلمين، ولذا فقد جرى تبني سياسة أخرى هي الاندمـــاج الإيجابي، التي تعني الحفاظ على الهوية الذاتية مع الانفتاح على المجتمع، وقد تشـــكلت وزارة باســـم وزارة الاندماج، تتولى التعامل مع الأجانب ككل. والحصول عـــلى الجنسية السويدية للمسلم (وغيره من المهاجرين) يكتسب بعد الإقامة لمدة خمس ســـنوات، وحـــتى قـــبل ذلـــك يحق للمهاجر المشاركة في الانتخابات البلدية وتلقي الإعلانات مثله مثل السويدي.

والواقـــع أن المســـلمين لم يجـــدوا صـــعوبة في أداء مناسكهم، وإحياء شعائرهم الإســـلامية، وإقامة مساجدهم على امتداد المحافظات السويدية، فالبرلمان السويدي أقر قـــانون حرية الأديان وحق أصحاب الديانات في أداء مناسكهم كاملة دون خوف من

---

(١) المصدر السابق .

(٢) نفسه.

أحـــد، ولـــتأمين هـــذا الحق أوجد البرلمان السويدي قوانين رادعة لمن يقفز على هذا القانون، الذي استفادت منه كل الأقليات.

في الجانـــب الثقافي، تولي الحكومة اهتماماً بالمهاجرين، ومن خلال ميزانية تتجاوز عشرات الملايين من الدولارات تحصل الجالية الإسلامية (كثقافة وجنسيات) على الكثير مـــن الدعم.. بل حتى صحف ومجلات المهاجرين (ومنهم المسلمون) تحصل على دعم وزارة الثقافة السويدية.

ونظـــراً لاهتمام الحكومة السويدية بالإسلام، فقد خصصت[1] مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ كرونة سويدية لترجمة جديدة لمعاني القرآن الكريم، وكانت وزيرة الخارجية قد صرحت قائلة: إن الإسلام في طريقه ليصبح ديناً سويدياً مثل المسيحية واليهودية.

كما أن وزارة التربية والتعليم تقدم دعماً مالياً كبيراً للمدارس العربية والإسلامية، ولا تخلـــو مدينة سويدية من مدرسة عربية إسلامية أو من حضانة إسلامية. ومن جهة أخـــرى فـــإن أبـــناء العرب والمسلمين الذين يدرسون في المدارس السويدية تقدم لهم وجبات طعام إسلامية حفاظاً على معتقداتهم، كما يعطى أبناء المسلمين دروساً في اللغة العربـــية حـــتى يحـــافظوا على اللغة الأم. وتندرج هذه السياسة في نطاق ما يعرف في السويد بمجتمع متعدد الثقافات والمعتقدات.

ويحـــق للمسلم أن يلجأ إلى المحاكم إذا شعر أن هناك استهدافاً لدينه وعقيدته على صعيد البرامج الإعلامية والثقافية وغيرها.

إلا أن المســـلمين هـــناك يواجهـــون، كغيرهم من مسلمي شمال أوربا على وجه الخصـــوص، مجتمعاً منفتحاً يعاني من الترف وما يتبعه من انحرافات أخلاقية كالشذوذ، والدعـــارة المنظمة، والروابط المفككة، وعليه أن يتعامل بصبر وأناة مع تلك المشكلات للتغلـــب عليها. وإلى جانب ذلك فإن المسلمين يواجهون أيضاً مشكلاتهم الداخلية التي

(١) يحيى أبو زكريا، الإسلام دين رسمي في السويد، إسلام أونلاين .

تلاحقهم في كل شبر من خريطة العالم، ونعني بذلك فرقة الصف، والخلافات الداخلية التي ترجع إلى أسباب مذهبية أو قومية، وأحياناً لغوية.

فالأتـــراك لهم مساجدهم وتجمعاتهم، ومسلمو الصومال عالم قائم بذاته، وكذلك عرب بلاد الشام، فضلاً عن الإيرانيين والأكراد، وحتى مسلمي الباكستان وبنغلاديش. الفرقة قد تكون أكبر مشكلة تواجه المسلمين، فهم يتحركون ككيانات وليس كتجمع واحد، مما يحرج الحكومة في التعامل معهم. كذلك هناك الانغلاق عند بعضهم والعيش في أحياء مغلقة كتلك التي في ضواحي العاصمة.

التعـــثر الاقتصـــادي في البلد انعكس أثره بشدة على المسلمين، فالفقر بدأ ينخر بينهم، وطابور العاطلين منهم يصل إلى عشرات الألوف. وهذا الأمر ليس قاصراً على أصحاب المهن اليدوية البسيطة بل حتى أصحاب الكفاءات العلمية يعانون بشدة لدرجة اضـــطرار بعضهم للعمل برواتب متدنية وبظروف قاسية، بل اضطر بعضهم إلى تغيير أسمـــائهم إلى أسمـــاء سويدية للحصول على فرص عمل. وهناك أسباب مهنية وليست عنصرية تمنع بعض الكفاءات من الحصول على فرص عمل مناسبة كالاعتراف بالشهادة العلمية والخبرة العملية وإتقان اللغة السويدية.

في الجانـــب الـــثقافي، يعـــيش المسلمون أزمة حقيقية، فاللغة تمثل عقبة أساسية، والاطـــلاع عـــلى الـــثقافة المحلـــية ترف، حتى الجمعيات الثقافية التي أنشأها العرب والمســـلمون أصـــبح جـــل هدفها الحصول على مساعدات من الحكومة وليس تطوير ثقافتهم وتحسين تواصلهم مع المجتمع السويدي.

في الجانب الأخـــلاقي، بدأ يدب في أبناء المهاجرين الانفـــلات الأسري والمخدرات – رغم حرص جيل الآباء – ولذلك تكررت حوادث الشرف (الانتقام والقتل) تجاه الأبناء (البنات بشكل خاص) اللواتي آثرن العيش مع أصدقائهن من الشباب السويدي، وتجاوزت قضايا القتل والضرب ومحاولة القتل المعروضة أمام المحاكم السويدية العشرات.

في الجانـــب الفقهي، هناك اختلافات واسعة بحسب خلفية الجالية ومذهبها، فهناك تـــباين في مواعيد الصلاة بالذات، العشاء خصوصاً، في الصيف، حيث لا يتجاوز الليل ثلاث ساعات. وحتى الانشطار المذهبي تم نقله إلى السويد، ففي العاصمة استوكهولم، عـــلى ســـبيل المـــثال، يوجد مسجد للسنة ومسجد آخر للشيعة، حتى أن السلطات الســـويدية احتارت في بداية الأمر، ولما ازداد حجم الظاهرة الإسلامية مع من تتعامل، وتساءلت عمن يمثل المسلمين؟!!

ومـــا يؤسف له حقاً تندر بعض المثقفين العرب في السويد بتقرير سويدي يتحدث عن أن أفشل وأكسل جالية في السويد هي الجالية العربية، إذ أن أفراداً عديدين من أبناء الجالـــية العربـــية يقدمـــون شـــتى الأعذار لمكتب العمل ومؤسسة الضمان والمؤسسة الاجتماعية آخر الشهر، وهكذا دواليك إلى آخر حياتهم.

كما ظهرت أفكار متطرفة تعتبر السويد دار حرب يحل بها كثير من الأشياء المحرمة بطبيعـــتها، مـــثل السرقة والغش والخداع والربا والطلاق بنية تحسين الوضع المالي مع استمرار العشرة الزوجية، بدعوى أن الطلاق في المحاكم السويدية لا يقع.

وفي الوقـــت الـــذي تعترف فيه النخبة المثقفة في السويد بحضارية الإسلام، إلا أن بعـــض المحسوبين على العالم الإسلامي أعلنوا إلحادهم وكفرهم، وباتوا في طليعة الدعاة إلى حـــرمان المســـلمين من ممارسة شعائرهم في السويد، ومن هؤلاء من دعا إلى حظر الحجـــاب في الســـويد وتحديداً على بنات المدارس من المسلمين، علماً أن مبدأ حرية الأديـــان هـــو مـــبدأ مقدس في السويد وبموجبه يحق لكل أتباع الديانات أن يمارسوا شعائرهم دون تفرقة عنصرية.

يضـــاف إلى ذلك أن إقدام المئات من المسلمين على الجنح والإجرام والصراعات والسطو والاتجار بالمخدرات والتحايل على مؤسسات الدولة السويدية، وعدم البحث الجاد عن العمل، والاكتفاء بالعيش على حساب المؤسسات الاجتماعية، أدى إلى بلورة صورة سلبية عن الإسلام.

في الجانب السياسي، فإن مشاركة المسلمين محدودة جداً ولا تتناسب مع عددهم السكاني، وجزء من المشكلة ثقافي.

والجالية المسلمة تفتقد لرؤية واحدة أو مشروع واحد يخدمها ككتلة، وهي تفتقد الأحزاب السياسية –رغم إمكانية تكوينها– التي تمثلها وتعبر عن قضاياها رغم حرص الدولـــة على مشاركة المهاجرين السياسية كجزء من الحرص على إدماجهم في المجتمع، أيضـــاً تفتقد الجالية المسلمة المنابر الإعلامية التي تعبر عنها وتتكلم باسمها، رغم الدعم المادي المتوافر من وزارة الثقافة لمثل هذه الأعمال.

ورغـــم انتشار الإلحاد وضعف النصرانية في السويد إلا أن الشأن الثقافي ذو أهمية بالغـــة، وهـــذا يتضح من عدد الكتب المنشورة والصحف الصادرة، فضلاً عن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقدرة بالعشرات.

المجـــتمع السويدي يعيش – كالكثير من المجتمعات الغربية – حالة انهيار اجتماعي وتفكـــك أســـري وانتشـــار للمخدرات، ولذلك فهو في أمس الحاجة إلى دين يهدي وعقيدة تمنحه الاطمئنان (وهذا ما تفتقده النصرانية اليوم) مما جعل الإسلام محل اهتمام ومتابعة من الشعب السويدي. يقول «ين ساموبلون» المستشرق السويدي في كتاب له عـــن الإسلام في السويد: بأن الإسلام أصبح حقاً ليس ضمن المعادلة السويدية فحسب بل بات جزءاً من المعادلة الأوربية.

والإشـــكال، كمـــا يقـــول بعـــض المثقفين السويديين: ليس في الإسلام، بل في المســـلمين، الذيـــن لم يقدموا النموذج الناصع لدينهم، فهم – أي المسلمين– بدل أن يعطونا محاسن حضارتهم أعطونا مساوئ مجتمعاتهم؛ وبدل أن يأخذوا منا المحاسن أخذوا منا المساوئ، وتلك المفارقة !!

عـــندما وقعـــت أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية أصيب المسلمون في السويد بارتباك شديد خوفاً على مستقبلهم وعلى وجودهم بشكل

عــام في الســـويد. وقد سارع المسؤولون السويديون[1] في بعث العديد من الرسائل السياسيّة إلى المسلمين عبر وسائل الإعلام السويدية المرئيّة والسمعية والمكتوبة، كما أنّ وزيـــرة الإندمـــاج السيدة «مني سالين» قامت بزيارة إلى مسجد ستوكهولم المركزي والتقـــت بالمشـــرفين عـــلى المسجد، وطالبت في كلمة لها المسلمين السويديين بأداء شـــعائرهم وممارســـة واجـــباتهم الدينية دون خوف أو رعب من أحد؛ لأنّ القوانين السويدية المركزيّة تولي الحريات الدينيّة أهمية كبيرة. وبعد ذلك قررّت وزيرة الخارجيّة الســـويديّة الســـيدة «آنا ليند» أن تطبع وزراة الخارجيّة كتاباً للتعريف بالإسلام يتمّ توزيعه على الطلاّب السويديين، الذين يجب أن يعرفوا أنّ نصف زملائهم من المسلمين، ويجـــب أن يعرفوا أنّ دينهم الإسلامي متسامح وحضاري، كما ورد في الكتاب الذي طبع منه ٣٠٠,٠٠٠ نسخة. كما أنّ السلطات السويديّة لم تقطع مساعداتها الماديّة عن المدارس العربية والإسلامية والمساجد المنتشرة في كل المحافظات السويديّة.

والسويد لم تتاثر بزوابع سبتمبر عدا بعض التحقيقات التي أجرتها الأجهزة الأمنيّة مع بعـــض الأشخاص، الذين كانوا يجمعون أموالاً لتنظيم «القاعدة»، وتجميد حساب جمعية البركة الصوماليّة بأمر من الولايات المتحدة الأمريكية بتهمة علاقة هذه الجمعية الماليّة التي تقـــوم بتحويل مبالغ مالية من المهاجرين الصوماليين في السويد وإلى ذويهم في الصومال. و لم تسجّل اعتقالات على الإطلاق في الوسط الإسلامي، كما حدث في أمريكا.

وقـــد استمرّت المدارس العربية والإسلاميّة في أداء عملها بكل حريّة وبدون تدخّل من السلطات السويدية وكأنّ شيئاً لم يحدث. بل حتى أتباع تنظيم «القاعدة» في السويد، الذين أحصت المخابرات السويدية عددهم بخمس عشر شخصاً [2] لم يجر اعتقالهم رغم أنهـــم تدربوا في أفغانستان، وقد نقلت صحيفة «إكسبرس» نقلاً عن «باتريك جوتون» المسؤول في المخابرات الســـويدية أنّ المنتمـــين إلى «القاعدة» لن يجري اعتقالهم؛ لأنّهم

(١) يحيى أبو زكريا، هل تأثر مسلمو السويد بأحداث سبتمبر، الإسلام اليوم .
(٢) نفسه .

لم يخـــرقوا القوانـــين الســـويدية. وقد طالبت بعض الأحزاب السويدية بسحب السفير الســـويدي في واشنطن بسبب السويدي المعتقل في «غوانتانمو» وهو من أصول جزائريّة والذي ترفض واشنطن إطلاق سراحه رغم الطلب السويدي الرسمي بضرورة تحريره. هذا عـــلى الصعيد الرسمي السويدي، أمّا على الصعيد الشعبي فقد أقبل آلاف السويديين على دراسة الإسلام، إلى درجة أنّ معاهد الدراسات الشرقيّة والإسلامية باتت مكتظة، ويجب على أي طالب حجز مقعد قبل سنة من بداية العام الدراسي ليحظى بدراسة الاستشراق، وقـــد أسلم مئات السويديين في خضمّ هذه السنة، وازدادوا إقبالاً على دراسة الإسلام، وخصوصـــاً بعـــد أن أصبح الإسلام والمسلمين مادة إعلامية يدعى لمناقشتها في وسائل الإعلام الرسميّة أكفأ المتخصصين من السويديين والعرب.

وعلى صعيد الجاليّة العربية والإسلامية، فقد نضج وعي إسلامي جديد وسط هذه الجاليّة، وبدأ يترسخّ مبدأ الانتماء الحضاري للإسلام، وقد تمثل ذلك في الاهتمام المتزايد بأخـــبار العـــالم العربي والإسلامي وحسن المتابعة لتطورات الأحداث في البلاد العربية والإســـلامية، كما تمثل في الإقبال المتزايد على المساجد والمدارس العربية والإسلامية، والمشـــاركة الفعاّلـــة في التظاهرات المناصرة للقضية الفلسطينية، التي بات يشارك فيها آلاف السويديين.

وقـــد أدىّ شعور مسلمي السويد بأنّهم مستهدفون أيضاً وأنّ دورهم قد يأتي في أي لحظـــة، إلى مشاركتهم المكثفة في ترشيح أنفسهم للانتخابات التشريعية السويدية، وهي مشاركة لم يسبق لها مثيل في تاريخ السويد، ولسان حال كل المرشحين العرب والمسلمين هـــو الدفـــاع عن القضايا العربية والإسلامية تحت قبة البرلمان السويدي، كما أنّ علاقة المســـلمين بوســـائل الإعلام تضاعفت، الأمر الذي أدّى إلى تخصيص كبريات الصحف الســـويدية صـــفحات عـــن الإسلام والمسلمين، ويوجد إلحاح من قبل النخب السياسية الحاكمـــة والمـــثقفة في السويد على ضرورة أن يسود مبدأ حوار الحضارات وتحديداً بين الإسلام والغرب، ومعروف أنّ السويد استضافت مؤتمراً بهذا العنوان سنة ١٩٩٤م.

المسلمون في فرنسا

إذا كانت السويد نموذجاً أوربياً فريداً في التسامح تجاه المسلمين، فإن فرنسا على العكس، من أسوأ النماذج الأوربية تجاه المسلمين، رغم العلاقة القديمة خصوصاً مع المغرب العربي.

يعود بداية الوجود الإسلامي في الأراضي الفرنسية إلى عام ٧١٦ م[١]، عندما دخلت أول مجموعة من الجنود المسلمين العرب القادمين من الأندلس، بعد أن قطعوا جبال البيرنيه، إلى مدينة ناربون، ووضعوها تحت الحماية الإسلامية، وتم تحويل كاتدرائية المدينة إلى مسجد (هدم فيما بعد). وفي عام ٧٢١م، وصلت القوات الإسلامية بقيادة السميع بن مالك إلى مشارف مدينة تولوز الفرنسية، واشتبكت مع قوات الكونت أود الفرنسي. وبعد ذلك بخمسة أعوام وصلت القوات المسلمة إلى مدينة ليون وسط فرنسا، واستولت في عام ٧٣١ م على مدينة بوردو. إلا أن الكونت أود تحالف مع شارل مارتل، وهزموا القوات الإسلامية بالقرب من مدينة البواتييه في أكتوبر من عام ٧٣٢م. وتوقفت الفتوحات الإسلامية في الأراضي الفرنسية، ونقل بعض الأسرى العرب إلى شمال فرنسا، واستقروا فيها، واعتبروا بمثابة أول الوجود العربي المسلم الفعلي الذي استقر في فرنسا.

كما حدثت هجرة عربية أخرى إلى فرنسا، بعد سقوط الأندلس، حيث هاجر حوالي ١٥٠ ألف عربي، استقروا في جنوب فرنسا.

وأما الهجرات الحديثة، فقد بدأت منذ مطلع هذا القرن (العشرين)، بسبب الحروب الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي، ووصل طلائع العمال العرب من الجزائر والمغرب ما بين ١٩٠٠م – ١٩٠٥م، وبلغ عددهم حوالي ٣٠ ألفاً. وكانت السلطات الفرنسية تشجع هجرة العمال خلال الحرب العالمية الأولى، بسبب حاجتها

(١) أحمد نوفل، دور العرب في أوربا، صحيفة الوطن العمانية، ١٠/١٠/٢٠٠٤م.

لهم للعمل في مصانع الأسلحة، والاستفادة منهم في حروبها الاستعمارية في الهند الصينية وأفريقـيا والنورماندي، وعمل العمال العرب في وظائف دنيا، ويقال بأنهم هم الذين حفروا أنفاق المترو الضخمة في باريس وليون، وارتفع عدد أفراد الجالية العربية ما بين الحـرب العالمية الأولى والثانية إلى ١٣٢ ألف نسمة، مما دفع الحكومة الفرنسية إلى بناء مسجد في وسط العاصمة الفرنسية في عام ١٩٢٦م.

كانـت السـمة الغالبة لهؤلاء المهاجرين عدم التخصص العلمي، وضعف الوعي السياسي، وقلة الزاد الثقافي والديني، ونتيجة لهذه المواصفات، ألقيت على الجيل الأول أعـباء القيام باقتصاديات فرنسا، وخاصة في مجال إقامة الجسور والطرقات والأنفاق، وأدناهـا في السـلّم الوظيفي من قبيل التنظيف والصيانة والحراسة . وقد عاش هؤلاء معاناةً قاسيةً تمثّلت في البداية أن يعيش المهاجر بمفرده بعيداً عن عائلته وذويه، وما ينجم عن ذلك من مضاعفات على الصعيدين النفسي والاجتماعي.

وبقي الأمر كذلك حتى صدر قانون «التجمع العائلي» الذي يبيح لأفراد عائلات المهاجـرين الانضـمام إلـيهم، وكان ذلك نتيجة مطالبات منظمات إنسانية ونقابية احـتجاجاً على الوضع المأساوي الذي يعيشه هؤلاء العمال.. وعلى الرغم من إصدار هـذا القانون، فإن حياتهم تحولت إلى معاناة من نوع آخر، تمثلت في حشر عدد كبير مـنهم في مجمعات سكنية مكتظة ومعزولة لا تتوفر فيها أدنى متطلبات الحياة.. وما زاد مـن تفاقم مشكلة هؤلاء المهاجرين، حياة التردد التي سادت في أوساطهم بين أن يعود المهاجر إلى وطنه أو أن يبقى على مضض في البلد المهاجر إليه، ولكن الظروف كانت قد أملت على معظمهم البقاء في تلك البلاد والاستقرار فيها.

ويـتراوح عـدد أفـراد الجالية الآن، ما بين ٥ و٦ ملايين، معظمهم من الجزائر والمغـرب وتونس، وتوجد بعض التنظيمات العربية والإسلامية في فرنسا، أهمها اتحاد المـنظمات الإسـلامية الذي تأسس عام ١٩٨٣م، ويضم ٢٠٠ جمعية إسلامية، تقوم

بالدفاع عن المهاجرين العرب والمسلمين أمام السلطات الفرنسية، والرد على عنصرية بعض المؤسسات الفرنسية المعادية للأجانب.

ومشكلة العرب في فرنسا، هي كثرة الخلافات بين الجمعيات التي يشكلونها[1]، والتي تكون في معظمها قائمة على أساس قطري، لأن كل جالية عربية تشكل جمعية باسمها تكون مرتبطة بالدولة الأم. وبما أنه توجد خلافات بين تلك الدول، فإنها تنعكس على أبناء الجاليات العربية في المهجر وعلى علاقاتهم مع بعضهم بعضاً.

إلى جانب ذلك يوجد نوعان من الجمعيات: الأول يتكون من المعارضين لنظام الدولة العربية القادمين منها، والذين هاجروا إلى فرنسا لأسباب سياسية وهرباً من النظام السياسي الموجود في الدولة الأم؛ والثاني، من الذين هاجروا إلى فرنسا لأسباب اقتصادية ويريدون استمرار العلاقة مع دولهم، وهذا يؤدي إلى إضعاف الجمعيات العربية، ويفتت قدراتها على التصدي للتحديات التي تواجهها في المهجر.

منذ أكثر من ٢٠ سنة[2] ووزارة الداخلية الفرنسية تطالب بإنشاء هيئة مركزية تمثل المسلمين؛ لأن الدولة الفرنسية متعودة على العلاقات مع الكنسية التي تضبط كل الأمور الدينية وتحتكر القضايا الدينية.

يقول د. فؤاد العلوي، الأمين العام لاتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا [3]: كانت هناك محاولات عدة لتنظيم وضع الإسلام والمسلمين في فرنسا، وكل هذه المحاولات باءت بالفشل، والمبادرة التي قام بها وزير الداخلية لإيجاد هيئة تمثيلية للمسلمين، مثلت مرحلة طويلة من المفاوضات. يقول د. محمد بشاري: رئيس الفدرالية العامة لمسلمي فرنسا[4]: الغرض من إنشاء هذا المجلس هو إيجاد مجلس تمثيلي للدين الإسلامي يمكن أولاً أن يكون المخاطب الأساس للحكومة الفرنسية، والسهر على تنظيم أحوال

---

(١) أحمد نوفل، دور العرب في أوربا، صحيفة الوطن العمانية ١٠/١٠/٢٠٠٤م.
(٢) صادق سلام، حوار في قناة الجزيرة .
(٣) حوار في قناة الجزيرة.
(٤) المصدر السابق.

المسلمين في ممارستهم للشعائر التعبدية.. ولماذا وزارة الداخلية؟ لأنها الوزارة المكلفة بالأديان؛ وتنص بنود الاتفاقية على حق المسلمين في حرية التدين وممارسة شعائر دينهم في أمان تام، إلى جانب حرية لبس الزي الإسلامي، وأكل اللحم الحلال، وبناء المساجد والمقابر الخاصة بموتى المسلمين، والحق في بناء المدارس الإسلامية.

ولكن ما تحقق لم يلغ مشاعر القلق والخوف المتبادل بين المسلمين وبعض التيارات السياسية الفرنسية، وهذا ما بانت ملامحه بوضوح في أعقاب فوز من وصفوا بأنهم أصوليون في انتخابات مجلس إسلامي يمثل المسلمين في فرنسا الكاثوليكية، حيث عبر وزير الداخلية «نيكولاس ساركوزي» عن هذه المفارقة، من أن بلاده لن تسمح بأن يتحوَّل المجلس الجديد المنتخب إلى ما أسماه مكاناً للإسلام الثوري، وهو يقصد الإسلام الذي يحتفظون له بصورة سلبية في أذهانهم، وتصويره على أنه يرتكز على العنف وممارسة الإرهاب ضد (الآخر)، ولذلك فإن القوانين الإسلامية - برأيه - لن تطبَّق في أيِّ مكان؛ لأنها ليست قوانين الجمهورية الفرنسية.

عانى المسلمون في فرنسا[1] من مشكلات متعددة طوال السنوات الماضية وكانت الجالية الإسلامية من أكثر الجاليات تعرضاً للاضطهاد، وواجه عدد كبير من أبنائها اتهامات متباينة، سواء من قبل اليمين المتطرف بزعامة «لوبان» الذي نادى بطردهم، أو من قبل اللوبي اليهودي الذي أصبح قلقاً من تنامي المسلمين في المجتمع الفرنسي، وتغلغل مجموعة كبيرة من أبنائهم في النسيج الوطني، من خلال احتراف بعض المهن العلمية الدقيقة أو المشاركة في تنمية الاقتصاد الوطني، عبر عدد من المشروعات الاقتصادية والتنموية. الأمر الذي يتقاطع مع الصورة التي أراد أعداء الإسلام الترويج لها، وتقوم على اتهام الإسلام والمسلمين بممارسة العنف والحض على التطرف وحصره في دائرة ضيقة لا تخرج عن الشعائر والعبادات.

(١) جريدة الرياض، تقرير ٣٠/١٠/٢٠٠٣م.

ومن المشكلات التي يعانيها المسلمون هناك الضغوط الرسمية للاندماج، بمعنى التزام قيم العلمانية وعدم إظهار الشعائر الإسلامية وسط الفرنسيين، وهذا ما توج بقانون منع الحجاب في المدارس الفرنسية الذي يرى أنه يناهض قيم الدولة العلمانية وتم تنفيذ هذا القانون بكل صرامة.

وإذا كانـــت الحكومة والمعارضة في فرنسا تتواجهان حول كل شيء تقريباً، فإن قـــرار المجلـــس التأديبي[1] بفصل أختان محجبتان (من أب يهودي وأم جزائرية)، كان موضـــع ترحيـــب من الحكومة والمعارضة الاشتراكية على السواء. و لم تُسمع أصوات الاحتجاج إلا من قبل منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان، علماً بأن أكثر من ٩٠٠ حالة طرد لفتيات محجبات تمت خلال عام واحد.

وفي ضـــواحي المـــدن تعيش الغالبية العظمى من الجالية الإسلامية في «غيتوهات» عنصـــرية، تجد أن مدارس الأطفال التي سميت بمدارس العزل العنصري، تحفل بالملونين وخالـــية مـــن الأطفـــال الفرنسيين، وتعاني تدنياً في الخدمات التعليمية وفي مستويات الدراسة والإهمال الإداري مما يرفع من نسب الإخفاق المدرسي وكثرة المشاكل.

فرنســـا هـــي الدولـــة الأوروبية الوحيدة التي ترفض منح المسلمين موافقات لبناء مساجد لهم. وتشير الإحصاءات إلى عشرات الطلبات لبناء المساجد تنتظر منذ سنوات دون موافقـــة البلديات المعنية. كما أقدم أحد رؤساء البلديات على هدم مسجد كبير بالـــبلدوزر، أمـــا رئيس بلدية نيس فقد كتب صراحة[2] «ضقت ذرعاً بالمسلمين ولن أسمح ببناء مساجد في دولة علمانية».

ويهـــدف الرسميون الفرنسيون من وراء حملتهم لتطويق ظاهرة الحجاب إلى إدماج المسلمين بشكل كامل في المجتمع الفرنسي والثقافة الفرنسية، وهذا ما يفسّر فتحهم كل الأبـــواب لـــلمطربين والممثلين والفنانين والكتّاب من أصل مغاربي ومسلم من الذين

(١) شبكة النبأ الإخبارية ١٥/١٠/٢٠٠٣ .

(٢) قيس العزاوي، صورة الإسلام والمسلمين في فرنسا، موقع بيانات ١/١٠/٢٠٠٤م.

انســلخوا عن قيمّهم الحضارية ومبادئهم الإسلامية وصاروا أكثر انحرافاً في مسلكيتهم الأخلاقيّة من الفرنسيين، ليكونوا قدوة للأجيال الإسلامية المهاجرة والمولودة في فرنسا.

وطــردت فرنسا في الشهر الماضي إماماً فرنسياً لقوله: إن الاسلام يسمح للأزواج بضــرب زوجاهم غير المخلصات، وطردت إماماً آخر؛ لأنه قدم مواعظ عن الإسلام الأصولي ودافع عن تفجيرات قطارات مدريد .

ويقــول الخبراء:[(١)] إن حوالي ١٠ في المائة من الأئمة بفرنسا مواطنون فرنسيون، وحــوالي نصــف الأئمة في البلاد يتحدثون الفرنسية، ومعظمهم يأتون من دول عربية حيث تدرب بعضهم على وجهات نظر إسلامية تتصادم مع القوانين العلمانية الفرنسية.

المستقبل الإسلامي ليس سيئاً تماماً، فهناك ما يقارب ٢٠٠٠ مسجد ومصلى، منها الضــخم ومــنها الصالات الصغيرة، وهناك حركة وعي وعودة للإسلام بين المسلمين (بعــد سبتمبر).. ومع اضطراد عدد الملتزمين بإسلامهم في فرنسا وإقبال المسلمين على أداء فروضهم وواجباهم الدينيّة، أصبحت الظاهرة الإسلامية في فرنسا ملفتة للنظر، بل إنّ المســلمين أصبحوا رقماً مؤثّراً في المعادلة السياسية الفرنسية. لكن الدوائر العلمانية، ســواء في مراكز القرار أو الإعلام، استطاعت تشريع قانون منع الحجاب في المدارس كجزء من ردة الفعل تجاه التحرك الإيجابي للإسلام في فرنسا.

وذكرت مجلة «لوموند» الفرنسة في استطلاع لها أن ٦٩% [(٢)] من الشعب الفرنسي يهتمون الآن بالإسلام، وأن أكثر من ٥٠% منهم يعتقدون أن محمداً ﷺ نبي مرسل.

في الســنوات الأخيرة أخذ الإسلام ينتشر بين الأوساط الفرنسية[(٣)] إلى درجة أن الذيــن اعتــنقوا الإســلام من الفرنسيين بلغ ٤٠,٠٠٠ فرنسياً من مختلف الاتجاهات والشرائح، وجزءاً لابأس به منهم أسلم بعد أحداث سبتمبر.

---

(١) وكالة رويترز للأنباء، ٢٠٠٤/٤/٥م.

(٢) جريدة الرياض، تقرير عن الجاليات الإسلامية في أوربا، ٢٠٠٤/١٠/٣٠م.

(٣) يحيى أبو زكريا، المسلمون في فرنسا، الإسلام اليوم، ٢٠٠٢/٤/١٤م.

مستقبل المسلمين في الغرب

مـــن المستبعد أن يصبح مستقبل الوجود الإسلامي في الغرب «مظلماً» على المدى المتوســـط أو البعيد، بل على النقيض من ذلك ولأسباب عديدة[1] في مقدمتها ما يمكن وصفه بالمناعة الذاتية، وهي من العوامل الرئيسة التي سبق وحافظت على وجود المسلمين ورسخت هويتهم الإسلامية داخل الغرب، ما بين مرحلة الضياع أو الضعف الشديد إبان الحـــرب العالمـــية الثانية والوقت الحاضر، أي في حقبة لم تنقطع خلالها سلسلة المخاطر المتوالـــية التي هددت الوجود الإسلامي من الأساس، من خلال الجهود المبذولة لتذويب المســـلمين في المجتمع، عقدياً وثقافياً وسلوكياً، فضلاً عن الجهود المباشرة للقوى الكنسية والعلمانية للتضييق على العمل الإسلامي. ويمكن تسجيل بعض المؤشرات الإيجابية:

- ارتفاع نسبة المسلمين من ذوي الأصول الغربية ارتفاعًا مطّردًا.
- انتشار التوجّه الإسلامي في صفوف الصغار.
- ارتفاع نسبة العاملين في مواقع اجتماعية واقتصادية ذات تأثير كبير.
- تطوُّر العمل الإسلامي في اتجاه التقارب، والخروج من «عزلة التميّز» في العقود الماضية، والعمل على «تواصل اجتماعي» من خلال انفتاح متوازن.

غـــير أن المشـــكلة تكمن في أن حكومات بعض البلدان الأوروبية لا تعرف من تخاطـــب مـــن المســـلمين؟ فالكل يدعي أنه يمثل الإسلام، والكل ينشيء مؤسسات بمســـميات إســـلامية، كما أن كثيراً ممن يدعون إلى الإسلام في الغرب قد يعانون من الجهل بالإسلام[2]، سواء في فهمه، أو تدريسه، أو سبل تكييف الإسلام مع الواقع.

---

(١) نبيل شبيب، مستقبل المسلمين في الغرب، إسلام أونلاين.

(٢) مرزوق عبدالله نائب رئيس الجامعة الإسلامية في هولندا في حوار مع صحيفة الوطن القطرية.

لذلـــك يمكن القول: إن المسلمين في الغرب يواجهون في المرحلة المقبلة عدداً من المخاطر في وقت واحد:[1]

- توجيه ضربات محتملة إلى مكامن قوة الوجود الإسلامي في الغرب، لا سيما في ميادين التنظيم والتواصل مع البلدان الإسلامية والميدان المالي.

- نشـــر موجـــة جديـــدة مـــن المخاوف من الوقوع في شبهة «الإرهاب» في أوساط المسلمين، لعزل العمل التنظيمي الضروري عن مصدر الطاقة البشرية التي تمثل عموده الفقري.

- مضـــاعفة سلبيات العلاقات المتفاوتة ما بين الإهمال والاحتواء والخصومة وحتى الملاحقـــة، بـــين قطـــاع كـــبير من الوجود الإسلامي في الغرب وحكومات البلدان الإسلامية، وذلك من خلال توظيف «شبهة الإرهاب» في تعزيز التناقضات القائمة من الأصـــل بين تلك الحكومات - لأسباب عديدة معروفة - وسواد القائمين على العمل الإسلامي من الوافدين إلى الغرب خلال العقود الماضية.

- إحـــداث نكســـة يمكـــن أن تكون مستهدفة بحد ذاتها على طريق تطوّر فعالية الوجود الإسلامي في الغرب، وما تحقق عبر العقود الماضية من تقدّم ملموس في صفوف العمل الإسلامي، وظهور البوادر الأولى لتأثيره على صناعة الرأي العام وصناعة القرار.

- محاولـــة الحكومات الغربية إدماج المسلمين في مجتمعاتهم بقيمها الغربية وبمبادئها العلمانـــية وإطارها النصراني العام، ومثال على ذلك ما تطلبه الحكومة الهولندية اليوم[2] مـــن كـــل الأئمة المسلمين من تعلم اللغة الهولندية، ويتوجب عليهم أيضا أخذ دروس حـــول الـــتاريخ الهولندي والقيم السياسية والاجتماعية الهولندية حتى يفهموها فهماً كاملاً. وفي حال إخفاق هؤلاء الأئمة ورسوبهم في الامتحانات المقررة لن يحصلوا على ترخـــيص بممارسة الوعظ والخطابة، ولن يحصلوا على تأشيرات الإقامة. وهكذا يعتقد

(١) نبيل شبيب، مستقبل المسلمين في الغرب، إسلام أونلاين.
(٢) غراهام فولر، المسلمون والتعددية الثقافية، موقع الجزيرة.

الأوروبيون بضرورة أن تكون للمواطنين في مجتمعاتهم قيم واحدة، هي تلك القيم التي تشكل الثقافة الغربية والمجتمع الغربي.

يرى «تيموثي» الديبلوماسي الأمريكي[1] (مجلة واشنطن كوارترلي) أن التحدي الإسلامي الذي تواجهه أوروبا اليوم له بعدان: داخلي وخارجي.

التحدي الداخلي، يقتضي من أوروبا إدماج الأقليات الإسلامية التي تعيش في عزلة (في الجيتوهات)، إلا أنها تتزايد ديموجرافياً، بشكل سريع جداً، وهو ما يعتبره كثير من الأوروبيين مهدداً للهوية الجماعية الغربية، ولقيم المجتمع الأوروبي. ويعتقد الدبلوماسي الأمريكي أن التمنع عن الاندماج والوصول إلى صيغ مثلى للتعايش، في وقت تحدث فيه تحولات ديموجرافية داخل أوروبا، وأهمها تنامي عدد المسلمين، من شأنه أن يسلم أوروبا إلى حالة من الاضطراب، والاهتزاز الاجتماعي، بل ويفتح الأبواب أمام صراعات داخلية، تجعل أوروبا ضعيفة أمام التحديات الدولية. ولقد كشفت استطلاعات للرأي عن تنامي أنصار الحركات العنصرية في أكثر من بلد أوروبي. وبالرغم من أن هذه الحركات لم تصل بعد في العديد من الدول الأوروبية إلى أن تصبح خطراً داهماً، فإن التوقعات تشير إلى أنه سيكون لهذه الحركات المتنامية خطر حقيقي في السنين اللاحقة إذا لم تتخذ الإجراءات الكافية للوقوف في وجهها.

علاقة المسلم بغير المسلم:

يقرر الإسلام العلاقة بين البشر[2] بأنها للتعارف، يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات:١٣)، وأن تعايش المسلم مع غير المسلم ليس

---

(١) الدراسة ترجمت ونشرت في العديد من المواقع العربية، نقلاً عن المجلة الصادرة في صيف ٢٠٠٤م.

(٢) عصام البشير، مؤتمر الإسلام والغرب، الخرطوم، ديسمبر ٢٠٠٣م؛ فيصل مولوي، المفاهيم الأساسية للدعوة الإسلامية في بلاد الغرب .

بمستنكر مادام في إطار العلاقة العادية دون تهديد للمسلمين أو اعتداء على الدين، وبيّن سبحانه وتعالى أساس هذا التعايش بقوله: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨). بل قد يتطور التعايش إلى أن يكون تعاوناً إذا كان الداعي له أمر خير ونفع للناس، يقول رسول الله ﷺ «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبّ أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**»[1].

وقرر الإسلام علاقة القومية والوطن، بمعنى انتماء الإنسان إلى بيئته وبلده، ما لم يتحول الآخرون إلى أعداء لهذا الدين ومحاربين له، لذلك وصف القرآن بعث الأنبياء إلى أقوامهم بالأخوة (الإنسانية): ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ (الأعراف:٦٥) (هود:٥٠)، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (الأعراف:٨٥) (هود:٨٤) (العنكبوت:٣٦).

كما أيد الإسلام البر بالوالدين رغم كفرهما، إبقاء وتأييداً للرحم، رغم أن ذلك يعني المحبة والصلة والعطف، ولكن هذه العاطفة الإنسانية والعلاقة البشرية وليست الحب الإيماني والذي خص به المسلمون. وهذا عبدالله بن عبدالله بن أبي ابن سلول يهدد أباه إن لم يعتذر للرسول ﷺ رغم اعترافه بحبه له وبره به، لكن ليس على حساب الدين.

ومن هذا أيضاً جواز الزواج من الكتابية وما قد ينتج عنه من محبة رغم كفر الطرف (الآخر)، لكن المحبة هنا فطرية وليس دينية، بمعنى أنه لا يسمح لها بالتجاوز، وقد ذكر الله حب المؤمنين –العفوي– لغيرهم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ (آل عمران:١١٩).

وعلى هذا الأساس – أي التفريق بين أنواع الحب من جبلي فطري وإيماني عقائدي– تكون العلاقة مع غير المسلم، بمعنى الحب له والصلة به، وهذا يؤكده أيضاً

(١) سيرة ابن هشام، والكلام عن هذا الحلف ذكر في البداية لابن كثير بإسناد صحيح.

فطـــرة الله الناس على حب الشهوات . قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران:١٤). ويقول رسول الله ﷺ: « **حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**».(١)

والمحـــبة على أســـاس الدين هي الأصل وهي أعلى درجات الحب، وهذا يقتضي التـــبرأ مـــن أعـــداء الدين، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾ (المجادلة:٢٢).

فالمودة التي نهى الله عنها في هذه الآية هي لمن كفر وحادّ الله ورسوله، وليس فقط لمن كفر، بل هو من زاد على كفره أنّه يحادّ الله ورسوله، ويحارب الإسلام والمسلمين.. ذكر الشوكاني في تفسيره، أن هذه الآية نزلت في أبي عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، عندما قتل والده في غزوة بدر.

ويبقى السؤال: هل كل كافر حربي؟ هناك من طرح هذا المفهوم وأصله وما ينتج عـــنه من إباحة دمه وماله ومعاملته بأخلاق الحرب كجواز الكذب والاحتيال. الكافر الحـــربي –كما قرر فقهاء الإسلام– هو من أعلن المسلمون الحرب عليه أو على دولته، وخـــلاف ذلـــك، فالأصل في حال الكافر أنه غير حربي. وأحياناً تقع معاهدات بين المسلمين والكفار مما يوجب على جميع رعاياهما (بما فيها المسلمون) الالتزام بها. وهناك حالة ثالثة للكافر وهي (خلاف الحرب وخلاف العهد) احتمالية الحرب.

(١) أخرجه الترمذي وأحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي في السنن.

يذكر كثير من الفقهاء أن[1] (الأصل في العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين الحرب) ولكنهم لم يريدوا بذلك ما يتوهّمه كثير من الناس اليوم. ولو أردنا أن نمحّص مقصود الفقهاء في عصرهم حسب لغة عصرنا لقلنا: إنهم يقصدون بتلك العبارة (أن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين احتمال الحرب) وليس حتمية الحرب. وذلك واضح مما يذكرونه من أحكام تتعلّق بنزع صفة الحربي لأقل سبب.

وعند تمحيص علة القتال (للكافر) نجد أنها الحرابة وليس الكفر، بمعنى أنه لا يستحق القتل لكفره، ولو كان هذا صحيحاً ما ترك المسلمون في البلدان التي فتحوها أي مخالف للإسلام، ولأبادوهم عن بكرة أبيهم. لذلك فالإسلام ينطلق في تعامله مع (الغير)، ولو كان كافراً، من أنّ الأصل في العلاقة معه هي السلم لا الحرب. وقد ورد في ذلك الكثير من النصوص الشرعية، قال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ (النساء:٩٠)، وقوله تعالى: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ (الأنفال:٦١)، فالإسلام لا ينزع للحرب ابتداءً، إلا أن يكون ظلمٌ واعتداءٌ ومنعٌ من تبليغ رسالة الإسلام للناس، أما ما عدا ذلك فلا إكراه في الدين؛ فالباعث على القتال هو الاعتداء، وليس مجرد المخالفة. والإسلام يكره الحرب، ويعتبر كفّ المؤمنين عن القتال من المنن التي يمن الله بها على عباده: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ ﴾ (الأحزاب:٢٥).

بل كان النبي الكريم ﷺ، يغيّر من أسماء صحابته الذين تسمّوا بحرب ومرة[2]، لكراهته للحرب وأسمائها، فهذا هو الاتجاه العام أو المسار الذي يضبط علاقتنا مع غير المسلمين. وإلى هذا ذهب كثير من الفقهاء، مسترشدين في ذلك بكتاب ربهم تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ

(١) فيصل مولوي، المفاهيم الأساسية للدعوة الإسلامية في بلاد الغرب.

(٢) ونيس المبروك، المسلمون في الغرب، أستاذ الفقه بالكلية الأوربية للدراسات الإسلامية، منتدى التاريخ.

شَنَـَانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨)، وبقول الرسول الكريم ﷺ: «**أَلا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

أما واقـــع بلاد الغرب – بالجملة – فليست دار حرب، كما زعم بعضهم، ذلك أن المعـــوّل عليه أن الغرب يميل إلى أن يكون دار عهد ودعوة – بالجملة– رغم غياب دار الإسلام بالمعنى الحرفي لها، وانعدام دار الحرب في الواقع الحقيقي المعاش.

ولمزيد إيضـــاح القضـــية ننقل هنا باختصار شـــديد بحث للشـــيخ عبد الرحمن ابن عبد العزيز العقل حول الموضوع:

«أن الأصـــل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم، فأما الأدلة من كتاب الله فهي على أربعة أنواع:

– **النوع الأول**: الآيات التي أمر الله تعالى فيها بالسلم، وحث فيها على قبوله من الكفار، حين اللجوء إليه، كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ ﴾ (البقرة: ٢٠٨)، وقولـــه: ﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ (الأنفال:٦١)، وقولـــه: ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ (النساء:٩٠)،

– الـــنوع الـــثاني: الآيات التي قيد الله فيها الأمر بقتال الكفار في حال اعتدائهم وظـــلمهم للمســـلمين، كقوـــله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (الـــبقرة:١٩٠)، وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾ (الحج:٣٩-٤٠).

---

(١) أخرجه أبو داوود.

– النوع الثالث: الآيات التي أباح الله فيها صلة وبر الكفار الذين لم يقاتلونا كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨).

– النوع الرابع: قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: جمهور السلف على أنها ليست بمنسوخة ولا مخصوصة، وإنما النص عام، فلا نكره أحداً على الدين، والقتال لمن حاربنا، فإن أسلم عصم ماله ودينه، وإذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله، ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله ﷺ أكره أحداً على الإسلام، لا ممتنعاً ولا مقدوراً عليه، ولا فائدة في إسلام مثل هذا، لكن من أسلم قبل منه ظاهر الإسلام.[1]

أما الأدلة من السنة فكثيرة، منها قول النبي ﷺ: « **لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ** » أخرجه البخاري في صحيحه حيث نهى النبي ﷺ عن الرغبة في الحرب وتمني لقاء العدو، وهذا يدل على أن حالة الحرب حالة طارئة، لا يشرع للمسلم أن يتمناها إلا إذا قامت أسبابها.

حروب النبي ﷺ التي خاضها ضد المشركين، كان المشركون فيها هم المعتدين أو المتسببين بأسباب مباشرة أو غير مباشرة، وهذا يؤكد أن الأصل مع الكفار السلم لا الحرب، ولو كان الأصل معهم الحرب لكان النبي ﷺ يبدؤهم بذلك، والمتواتر من سيرته ﷺ أنه لم يبدأ أحداً بالقتال[2]. رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، ودعوته لهم بالدخول إلى الإسلام يدل على أن الأصل السلم، ولو كان الأصل الحرب لما أرسل إليهم رسائل، وإنما بعث إليهم جيوشاً للمحاربة؛ وأيضاً الإجماع، حيث نقل اتفاق المسلمين.[3]

---

(١) السياسة الشرعية، ص ١٢٣– ١٢٥.

(٢) ابن تيمية، رسالة القتال، ص١٢٥..

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢٨/٤١٤.

عملاً بالثابت من السنة، أنه لا يجوز قتل النساء والصبيان – وزاد الحنفية والمالكية والحنابلة: الرهبان والشيوخ، والعميان، والزمنى، والعجزة، والأجراء، والفلاحين في حرثهم، إلا إذا قاتلوا أو شاركوا برأي أو إمداد، قالوا لو كان الأصل مع الكفار الحرب لحملهم على الإسلام، ما ساغ استثناء هؤلاء، واستثناؤهم برهان على أن القتال إنما هو لمن يقاتل دفعاً لعدوانه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الصواب أنهم لا يُقَاتَلون، لأن القتال هو لمن يقاتلنا، إذا أردنا إظهار دين الله فلا يباح قتلهم لمجرد ذلك.

إن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو دعوتهم إلى دين الإسلام كمرحلة أولى، فإذا ما قامت بهذا الحمل الدعوي الكبير، ودعت أمم الكفر لدين الإسلام، ففي هذه الحالة ينقسم الكفار إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: من يستجيب منهم لدعوتنا، ويعتنق ديننا، فهؤلاء إخواننا، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (التوبة:١١) .

القسم الثاني: من لا يقبل الدخول في الإسلام، لكن لا يقف في طريق دعوته، ولا يقاتل من يدعو إليه، ويلقي إلينا السلم، سواء كان من أهل العهد أو لم يكن، فهؤلاء الأصل في حقهم المسالمة، ما لم يعتدوا بقول أو فعل، وعلى هؤلاء تحمل الآيات التي أمر الله فيها بالسلم، وأباح فيها الإحسان للكفار، كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨).

القسم الثالث: من يرفض الدخول في الإسلام، ويقف في طريق دعوته، أو ينقض عهداً مع المسلمين، أو يعتدي على أحد منهم بقول أو فعل، أو يخطط لذلك مستقبلاً، فهؤلاء الأصل في حقهم الحرب – وهي المرحلة التالية لدعوتهم إلى دين الإسلام –

وعلى هؤلاء تحمل الآيات الواردة بقتال المشركين كقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة:١٩٣)، وقوله: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ...﴾ (التوبة:٢٩)، وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة:٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: القتال هو لمن يقاتلنا، إذا أردنا إظهار دين الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠).

وقال الإمام النووي، رحمه الله: «الناس صنفان، فأما الذين قاتلوا أهل الإسلام أو أجلوهم عن أوطانهم أو أعانوا على شيء من ذلك فمن الظلم المنهي عنه أن يتولاهم المسلمون، ويحسنوا إليهم، وهؤلاء وأمثالهم شرع القتال ليفسحوا للدعوة سبيلها، وأما الذين لم يفعلوا شيئاً من ذلك فلا على المسلمين في الإحسان إليهم والبذل لهم، ولو كان هؤلاء ممن أمر بقتالهم لما ساغ ذلك، فعسى أن يكون فيه قوة لهم، مع أن إضعاف العدو بكل وسيلة من أخص ما يعنى به المحاربون». (١)

وبناء على ذلك، فإن طبيعة العلاقة بين المسلمين المقيمين في الغرب وشعوب تلك البلدان تقتضي التزام قوانينهم - في ما لا يخالف قواعد الإسلام وأحكامه- كجزء من عهد الإقامة بين ظهرانيهم.. وعلى الرغم من أن هناك بعض الأصوات التي تحذر من الإسلام في الغرب وتهوّل من صراع الحضارات (رغم أن الإسلام منتصر لا محالة كما بيّن ذلك الصادق الأمين ﷺ) إلا أنه ليس من المصلحة إظهار هذا الأمر، بل قد يكون من الأنسب - لهم- العمل على إزالة الحواجز بينهم وبين الغرب الكافر، ليسهل عليهم البقاء من جانب وإيصال رسالة الإسلام باطمئنان وأمان دون تهديد ووعيد من جانب آخر.

---

(١) شرح مسلم، ٩٨/١.

حتّى ننتهي من العلاقة الخطرة بين الإسلام والمرأة

الدكتورة جوسْلين سيزاري[*]

ترجمة: سامية تواتي؛ مراجعة: د.العربي كشاط

بُنِيَت النظرة الغربية للإسلام على شكل طبقات متتالية، منذ المواجهات الأولى المتمثّلة في الحروب الصليبية.. يُضاف إلى ذلك بروز الإسلام على الساحة الدولية، بحيث أصبحت علامات التدين الإسلامية لا تُفسَّر إلاّ بكونها علامات للشغب السياسي والاجتماعي، الأمر الذي جعل النظر إلى أشكال الانتماء للإسلام من الزاوية الأمنية وحدها، وجعل أية ممارسة لهذه الديانة مشكوكاً فيها.

لقد أصبح الإسلام – وهو الدين الثاني في العالم – العدو الأوّل للغرب. وحتى قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، فقد كان هذا الدين، من العراق إلى مصر مروراً بفلسطين وأفغانستان والجزائر، يعتبر أهمّ خطر يستنفر كل حكومة إلى الاحتراس منه في داخل وخارج حدودها.

وهكذا، منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، أصبحت التعابير التي كانت موجودة قبل الاعتداء على «مركز التجارة العالمي» و«البنتاغون» والدالّة على الصدام بين الإسلام

**) أستاذة باحثة في المركز القومي للبحث العلمي.. (فرنسا)؛ وفي جامعة هارفارد (الولايات المتحدة الأميركية).

والديمقراطية، أو بين الإسلام والغرب، أو بين الإسلام والحداثة، أكثر رسوخاً من أي وقت مضى، بل أصبحت هي المعيار الذهبي لفهم وتحليل الإسلام. لكن هذه التعارضات تعود جذورها إلى أفكار مُسبَقة يناهز عمرها آلاف السنين، تروي المُخيِّلة الجماعية إرواءً يجعلنا نشكّ في إمكانية اجتثاثها يوماً ما، إذ لا يزيدها كل نزاع جديد إلاّ رسوخاً.

وقد بُنِيَت النظرة الغربية للإسلام على شكل طبقات متتالية، منذ المواجهات الأولى المتمثّلة في الحروب الصليبية، والتي تبلورت بشكل دائم مع حرب التحرير الجزائرية. وبهذا الصدد، فإن الأفكار السائدة عن الإسلام في فرنسا يعتَورها بوضوح داء «ما بعد-الاستعمار»، وهو جرح لم يندمل بعد في الذاكرة الوطنية؛ وهذا ما يجعل بعضهم يعتبر ترسّخ المسلمين في فرنسا ظاهرة غير مفهومة بل حتّى غير عادلة.

وتُضاف إلى هذه الأسباب الخاصّة بفرنسا أسباب أخرى متعلّقة ببروز الإسلام على الساحة الدولية كتعبير عن المعارضة السياسية[1]. والنتيجة هي أن علامات التدين الإسلامية صارت لا تُفسَّر إلاّ بكونها علامات للشغب السياسي والاجتماعي. وهكذا فإن النظر إلى مختلف أشكال الانتماء للإسلام من الزاوية الأمنية وحدها، وفقاً للفكرة المُسبَقة السائدة، يجعل أيّ شكل من أشكال ممارسة هذه الديانة أو المطالبة بها مشكوكاً فيه. وهكذا، فحتّى آليات الاندماج النفيسة التي يزخر بها هذا الدين تصبح عرضة للشكّ.

ومن نتائج النقاش المصطنع حول «صراع الحضارات»، عدم الشعور بمدى أهمية التحديات الحقيقيّة التي يطرحها الإسلام اليوم، مثل التفكك التدريجي للغرب، والحداثة، أو الاعتراف بالتعددية.

(١) انظر: ج. سيزاري، «هل علينا الخوف من الإسلام؟»، باريس، ١٩٩٧م.

Cesari, J., *Faut-il avoir peur de l'islam ?*, Paris, Presses de Science Po, 1997.

النساء المسلمات كموضوع للحديث الجوهري (essentialiste) عن الإسلام:

يُـــنظَر إلى العلاقة المركّبة بين المرأة والإسلام والأصوليانوية[1] عبر نفس المؤشر المُشَوِّه. فالنـــزعة الغالبة على الرأي العام، وأحياناً حتى على التحاليل السوسيولوجيّة (الاجتماعـــية) الـــتي تهتمّ بالنساء المسلمات في فرنسا، تجعل الصحوة الدينية مُرادفةً دائمـــاً للأصـــوليانوية وللـــتطرف[2]. وباعْتبار الدين والأصوليانوية متلازميْن بهذا الشكل، أصبح البحث في الاختلافات الموجودة بين الدول الأوروبية بخصوص مكانة المرأة بصفة عامة، والمرأة المسلمة بصفة خاصة، يبدو عديم الفائدة. ولهذا فإن الجهل بهذه الاختلافات الاجتماعية والثقافية يعود إلى التصور المُسبَق عن الإسلام والمسلمين كعناصـــر غـــير متماشية لا مع حداثة الغرب ولا مع دُنْيَويَّته. ومنطقيٌّ إذن أن يقوم هـــؤلاء المحلّلـــون بربط تحرّر المرأة المسلمة الاجتماعي والثقافي بالمروق من الإسلام والـــتدين. وفي أغلب الأحيان فإن هذه التحاليل تعتمد على قراءة سطحية للنصوص أو لخطابـــات بعض الفقهاء، دون النظر إلى الظروف الاجتماعية والتاريخية الملابسة لحياة النساء المسلمات.

ولحسن الحظ توجد طرق تحليل أخرى[3]، تحاول تجاوز هذه النظرة المصطنَعة إلى مكانة المرأة المسلمة، وتأخذ بعين الاعتبار التاريخ والثقافة والسياق الاجتماعي. وفي

---

(١) انظر ص ٤٥٦.

(٢) انظـــر كمثالٍ حديثٍ عن هذا: ميشال تريبالا وهلين كالتنباخ، الجمهورية والإسلام بين الخوف والعمى، باريس، ٢٠٠٢م.

Tribala, Michèle et Kaltenbach, Hélène, *La République et l'Islam entre crainte et aveuglement*, Paris, Gallimard, 2002.

(٣) انظـــر: فرانســـواز غاســـبار وفرهد خسرخافار، الحجاب والجمهورية (باريس، ١٩٩٥م)؛ نيلوفر جول، مسلمات وعصـــريات.. الحجاب والحضارة في تركيا (باريس، ١٩٩٣م)؛ نانسي فينل، مسلمات فرنسيات: متدينات متحجبات في الجامعة (باريس، ١٩٩٩م)؛ نادين فيبل، من وراء الحجاب: نساء مسلمات في أوروبا (بروكسل: ٢٠٠١م).

Gaspard, Françoise et Khosrokhavar, Farad, *Le foulard et la République*, Paris, la découverte, 1995 ; Göle, Nillufer, *Musulmanes et Modernes, Voile et Civilisation en Turquie*, Paris, la découverte, 1993 ; Venel, Nancy, *Musulmanes Françaises, des pratiquantes voilées à l'université*, Paris, L'Harmattan, 1999 ; Weibel, Nadine, *Par delà le voile : Femmes d'islam en Europe*, Bruxelles, Complexe, 2001.

إطـــار المجتمعات الإسلامية، أثبتت هذه الدراسات أن الحجاب أصبح يرمز أثناء فترة الاحـــتلال إلى المقاومـــة الثقافية، وصار موضوعاً للتحدّي الأيديولوجي القائم بين الإســـلام كمســـتودع لِقيَم السكان المستعمَرين، والغرب كقوة استعمارية. فتحوَّلَ الحجاب إلى رمز للمقاومة وللأصالة الثقافية للمُضطَهدين.

وحتّى في أوروبا الـــيوم، أكّدت بعـــض الدراســـات، مـــثل تلك التي قـــام بهـــا «خُسْرُخافار» و«غاسبار»، تعدّد معاني الحجاب، بعد أن سلّطت الأضواء على هـــذه المعـــاني الرمـــزية المختلفة باختلاف الطبقة الاجتماعية، والسِّن، والظروف السياسية... إلخ.

ويذهـــب آخرون إلى الربط بين الحجاب ونوع من النشاط التحرري النسوي الإســـلامي، إذ يعتبرونه شكلاً خاصّاً من أشكال تحرّر المرأة في العالم الإسلامي[1]؛ حيـــث إنـــه يســـمح بكلّ تأكيد بمواكبة التغيّرات الاجتماعية العميقة الناجمة عن التمدين. فالعديد من الفتيات والنساء الشابات في العالم العربي يرتدين الحجاب حاليّاً في المـــدن الكبرى. وغالباً ما يكون العمل والتنقّل وركوب المواصلات أسهل للمرأة المتحجِّـــبة، بسبب العدوانية التي قد تتعرض لها المرأة التي تغامر في الأماكن العمومية بـــرداء خفيف نوعاً ما. فالحجاب يكون علامةً وضماناً للسلوك المحتشم، ولذا فهو يســـمح للفتاة بالخروج من البيت والذهاب إلى الجامعة وإلى عالم الشغل، دون إثارة مخاوف العائلة والمجتمع أو ردود فعلهما السلبية.

فيـــبدو الحجاب رمزاً للحفاظ على التقاليد، ممّا يجعل المسلمين لا يشعرون أنهم فقـــدوا كـــل مقوّماتهم الثقافية في مهبّ رياح التغير التي تعصف ببلدانهم منذ ثلاثين ســـنة. وقد أصبحت مكانة المرأة رهاناً كبيراً في خضمّ هذه الرغبة في الحفاظ على

(١) انظر: ن. جول، المذكور سابقا.

الهويــة الثقافــية. ولا يتعلق الأمر، في كثير من الأحيان، بمحاولة الرجوع إلى الوراء حيث اقتحمت النساء ميدان الشغل خلال هذه الفترة، وتولّين أدواراً جديدة بالمقارنة مــع وضــعية أمهاتهنّ أو جدّاتهنّ. لكن على هذه التغيرات أن تستخدم لغة التقاليد وتندرج في الاستمرارية حتّى لا تُصدَم بها الجماهير.

وهكــذا، فالحجاب هو الذي يتولّى بطريقة رمزية مهمّة الانتقال هذه: إن كان الســلوك في الأسرة أو في الجامعة أو في العمل يتغيّر، فإن ذلك لا يحدث إلاّ باحترام الطــرق والأشــكال الثقافية الخاصة بالتقاليد الإسلامية، بفضل الحجاب. ومن هذا المــنظور، يمكــن اعتباره وسيلة نسوية وإسلامية نمطية للوصول إلى الحداثة، أي هو جواز سفر للحرية. ويصبح الحجاب حينها ليس مرادفاً للرجعية بل دالاًّ على الأدوار الجديدة التي ما كان للنساء القيام بها لولاه، أو كان عليهن أن يقاومن من أجلها في جوّ مشحون بالعداوة.

أمّــا في حالــة وجــود الإسلام كأقلية، فإن الهوية الإسلامية مرتبطة بتشكيل الطوائــف الدينية والعرقية، وبقدرة المرأة على التحرّر في ظروف كهذه. وأما النساء الحديــثات عهــد بالهجرة فإن الحجاب يسمح لهن بالمحافظة على طريقة العيش التي ألِفْــنَها في بلدانهنّ الأصلية، وعلى علاقتهنّ ببلدانهنّ. ولهذا نجد أن أكثر المهاجرات اللواتي استمررن في ارتدائه مُسِنّات وذوات أصل قُرَويّ. وحتّى طريقتهن في ارتدائه تبقى تقليدية: إنه الحجاب أو «الحايك» الذي يغطي الشعر وأسفل الوجه؛ وهو يدلّ على استمرار وجود رابط يربطهنّ بمجتمع آخر، حتى وإن كنّ قد تعوّدن العيش في المجــتمع الفرنسي، ويعرفن من أمور هذا المجتمع الجديد ما يعجز بعض الرجال عن فهمــه. والحفــاظ عــلى حجابهن يرتبط أيضاً بالعلاقات الموجودة بين سائر الأسر المســلمة في الحــيّ الذي تعيش فيه، حيث يوجد ضغط اجتماعي من شأنه تشجيع

ربـــات الأسر على ارتداء الحجاب، كدليل على شرفهنّ وحسن سلوكهنّ أمام باقي أعضاء الجماعة.

وأمّـــا المراهقات اللاتي وُلدن أو درسن في فرنسا، فإن الحجاب يكتسب معهنّ معـــاني مختلفة تماماً. أوّلاً، منهنّ مَن ترتديه استجابةً لأمر والديها، وبذلك فقد تشعر بأنّه ظلم واضطهاد ولا تستطيع فعل أي شيء لتغيير وضعها. والفتيات اللاتي فُرض عليهنّ الحجاب فرضاً دون رغبتهنّ تخلعنه عندما تخرجن من وصاية أسرهنّ عليهنّ. لكن هناك فتيات أخريات تُجرِّبْنَ استخدام الحجاب كضمان للتحرّر، إذ هو يسمح فعـــلاً بالخروج والذهاب إلى المدرسة دون أن تمارس العائلة رقابة صارمة جدّاً ودون إثارة شكوكها. فهو يلعب دور الجسر بين المحيط الأُسَري والمجتمع الفرنسي، إذ يجعل المـــرور بين هذا وذاك يتم دون صَدَمات تشعر بها العائلات أو الفتيات. وهو يسهِّل أيضاً حلّ المشاكل المتعلقة بالمرور من سنّ البلوغ إلى سنّ الرشد، وهي مرحلة صعبة تشعر فيها الفتيات بعدم الارتياح ســـواء بخصوص التغيّرات الطارئة على أجسامهنّ أو بخصـــوص العلاقات مع الجنس الآخر. وتلعب المدرسة دوراً مهمّاً في هذا العبور بـــين الأوساط والقيم المختلفة. وهكذا، فإن تصرّف بعض المعلمين المتّسم بالإقصاء وعدم التسامح قد يؤدّي إلى رفض هذه الفتيات لقيم المجتمع الفرنسي وجعل بعضهنّ يملْنَ إلى الراديكالية.

وأخـــيراً، هناك الحجاب الذي لا علاقة لارتدائه وتحمّل أعبائه بالوسط العائلي. إنـــه حجـــاب فتيات من الواضح أنهنّ قطعن أشواطاً لا يستهان بها في الاندماج في المجـــتمع الفرنسي. وهو يمثّل الملجأ للمحافظة على الذات في مجتمع عجز عن تقديم معـــالم وقواعـــد توجيهـــية لأبنائه. وهذا الحجاب عادةً ما يكون مصحوباً بتوجيه

الانتقادات للإسلام التقليدي الذي يمارسه الأبوان، والتي قد تصل إلى رفضه نهائياً. إنّه يدلّ على تديّن من نوع جديد لا مثيل له في الوسط الثقافي والاجتماعي الفرنسي. وقد يبلغ اهتمام هذه الفتيات بالإسلام حدّاً يجعلهنّ يناضلن في سبيل الحجاب ويطالبن به في الفضاء العمومي، إذ هو يمنحهنّ فرصةً للتميّز في عالم غير متميّز، ويثير أسئلة حول القيم التي بُنِيَ عليها الرابط الاجتماعي الفرنسي.

ولا يرتبط ارتداء الحجاب دوماً بالتطبيق الشديد للإسلام، ففي ما يخصّ المراهقات، منهنّ من لا تقيم الصلاة، أو قلّما تفعل، وهن يعترفن بأنّهنّ يجهلن الكثير من أمور الدين، لكنّهن جميعاً يصمن رمضان. فحجابهنّ يدلّ على أنّهنّ يحاولن التموقع في المجتمع الفرنسي. أمّا الشابات اللائي يرتدينه عن قناعة ذاتية، فارتباطهنّ بالدين أوثق، وهنّ أقدر على النهوض بأعبائه. ولنذكر مثالاً:

الآنسة «ن.» وعمرها ٢٦ سنة، قررت ارتداء الحجاب في ديسمبر ١٩٩١م، وهي تظن أن حرب الخليج زادتها شعوراً بالوعي واليقظة. وتم تحوّلها هذا من خلال مراحل عديدة: فلقد كان التحاقها بالجامعة بداية للتفكير والحديث مع أصدقائها في موضوع الدين، وشيئاً فشيئاً شرعت في تطبيق تعاليم الإسلام: بدءًا بالصلاة، ثمّ الامتناع عن تناول المحرمات الغذائية، ثمّ الحجاب: «صحيحٌ أنني لم آكل قطّ لحم الخنزير، لكنني لم أكن آبه إن كان اللحم حلالاً أم لا، فكنت لا أجد مانعاً في تناول وجبة تحوي لحماً ما لم يكن لحم خنزير. لكن أصعب شيء كان تغطية رأسي، ولكن ذلك تمّ حين اقتنعت بالفكرة».

إنّ هؤلاء النساء الشابات يتميّزن بالاستقلالية، ويرفضن جعل مصيرهن بأيدي عائلاتهن أو أزواجهن. ونادراً ما أُكرِهن على الزواج، بل غالباً ما يتمّ زواجهن بمحض اختيارهنّ، بعيداً عن الوساطات والتقديمات الأسرية. وهنّ يؤكّدن أيضاً في

حياتهنّ الزوجية على أنّهنّ شريكات حياة، بكل معنى الكلمة، ويتعاملن مع أزواجهنّ علـــى أساس المساواة. ومنهنّ من ترفض تعدّد الزوجات مُذكّرةً أنّ الزواج بالزوجة الثانـــية مشـــروط بموافقة الأولى. فهنّ إذن لا يشعرن بوجود أي تناقض بين كونهنّ فرنسيات وكونهنّ مسلمات.[1]

وهكـــذا، أدّى ارتداء مواطنات فرنسيات للحجاب إلى زلزلة الركن «المقدس» للعلمانـــية، لكن ذلك أظهر جـــلياً أنه بات من الضـــرورة بمكان الشروع في حوارٍ - طالما أُجِّل أو طُرِح بطريقة خاطئة - بين الإسلام والجمهورية (الفرنسية).

الحجاب ومفعوله المُذيب للأيديولوجية الدنيوية:

تعـــود جذور النظرة الأيديولوجية للدَّنْيَوَة «sécularisation» إلى صميم فلسفة الأنوار. وتبـــدو نظرة «أوغســـت كونت» في كـــتابه «الدين والإنسانية» (١٨٥١م) مثالاً جيّداً على الإيمان بالقوة الْدُنْيَوَة التي تجسّد انتصار الفرد العاقل على القـــوى الدينية، والتي تكون بمثابة النموذج المضاد للاعتقاد الديني. ألم يتحدّث عن «قسّيســـي الإنسانية»، ومهمتهم نشر التطور ونصر السوسيوقراطية (حكم المجتمع) على الثيوقراطية (حكم الدين)؟

ومـــن المؤكَّـــد أن عهد الوضعية قد ولّى، وأن المعارك ضد الكنيسة قد انتهت، لكن لا ينبغي التهاون بمدى تأثير ماضٍ كهذا على التصور الحالي للظاهرة الدينية في المجـــتمع. ويكمن القاسم المشترك بين مجمل بلدان أوربا الغربية في إقصائها للدين من العلاقـــات الاجتماعية بين المواطنين، أو تجريده من أي مسوّغ شرعي. والدليل على هذا التفكير الدُّنيوي هو الانتشار الواسع في أوروبا لفكرة أن الدين لا يمكنه الإسهام

---

(١) مقتبس من: كتاب ج.سيزاري، أن تكون مسلماً في فرنسا اليوم (باريس: ١٩٩٧م) ص ١٥٨-١٦١.
Cesari, J, *Etre musulman en France aujourd'hui*, Paris, Hachette, 1997, p 158-161.

في الخـــير العـــام للمجـــتمعات، وذلك مهما كان نوع العلاقة التنظيمية بين الدولة والديـــن. وقـــد أدّى هـــذا التجريد للدين من أية شرعية، إلى جعل مختلف مظاهر الإسلام في أوروبا لا تُقبَل إلاّ بصعوبة إن لم تُرفض رفضاً قاطعاً.

وتتسبّب المطالب الإسلامية – والتي تُعتَبَر مُسبَقاً مشكوكاً فيها دائماً، ومُتخلّفة أحياناً– في ردود أفعال انفعالية للغاية. فارتداء الحجاب يُفسَّر كعلامة لرفض التقدم والـــتحرر الشخصي للمرأة، ويثير غضب الجماعات الأكثر دفاعاً عن الأيديولوجية الدُّنـــيوية: المعـــلمين، والمثقفين، والنسويين، والموظفين، وأدّى دخول الإسلام إلى الفضـــاء الأوربي إلى إثارة صراع ضدّ كلّ الأديان، كما أثبتته تلك الجمعية النرويجية الملحدة التي طالبت بالحق في الإعلان كلّ يوم ولمدة بضع دقائق أن الله لا وجود له، وذلك لِتُنافس مؤذن أوسلو(١).

ولقـــد بلغت هذه الدّنيوة الأيديولوجية ذروتها في فرنسا، حيث أصبحت جزءاً مـــن ســـير منظوماتها، كما تدلّ عليه قضية الحجاب. فبتأثير من الوضعية اكتشف الجمهوريون المؤسسون للعلمانية كياناً جديداً ألا وهو الكائن الاجتماعي الجماعي، وجعلوا من خضوعهم الاختياري لمعطيات العلم الوضعي ولتطورات البشرية مبادئ للنشـــاط الجمهـــوري. فهم إذن أبطال انقلاب «ابستيمولوجي» حقيقي مصحوب برفض قاطع لأيّ مفارقة.

وهذا الرفض لا يخصّ حرية الآخرين وحدها، ولا المساواة المدنية أو الحياد، بل هـــو عـــبارة عن «رغبة وضع الإنسان كمنبع ومركز لكل الضرورات». وبسبب الظروف التاريخية الخاصة بالجمهورية في فرنسا، فإن هذا الرفض لأي مفارقة أضحى

(١) لقد منحتها الحكومة هذا التسريح في نفس الوقت الذي سمحت فيه لجمعية إسلامية تسمى وورد إسلاميك ميشن، برفع الأذان، انظر الخبر في: BBC News, 30 march 2002.

راديكالــياً. ونــتج عن ذلك تصوّر صارم جدّاً للعلمانية، إذ ينبغي على العلامات الدينية، وفقاً لهذا التصور، أن تُقصى من الأماكن العمومية. فلم تُلغَ الدروس الدينية من المدارس العمومية فحسب -وهذا وحده يجعل من فرنسا استثناءً مقارنة مع باقي الديمقراطــيات- بل أصبح حمل العلامات الدينية موضوع مجادلات. فكان من نتائج دخول الحجاب إلى المدرســة الجمهورية إحياء النقاشات الحادّة حول العلمانية، التي لم تُطــرح في المجتمع الفرنسي منذ الفصل بين الكنيسة والدولة. وهكذا أيضاً سُلّط الضــوء عــلى الــتفاوت المُغرض بين النظرة الاجتماعية الثقافية السائدة المتمسّكة بالعلمانية من جهة، وبين مضمونها القانوني من جهة أخرى.

وبتعــبير آخــر، فإن الطريقة التي يفهم بها معظم الفرنسيين العلمانية لا توافق العلمانية كما تنصّ عليها القوانين. وبالفعل، فالقوانين تعني فصل الدولة عن الأديان، وبالــتالي حــياد الخدمات العمومية من جهة؛ ومن جهة أخرى، فالعلمانية تعني أن السـلطات تضــمن كل التعابير الدينية. وكان على مجلس الدولة، وهو الهيئة المعنية بالحفــاظ على القانون، أن يشير مراراً إلى هذا التفاوت، مُذكّراً منذ حكمه المؤرخ يوم ٢٧ نوفمبر ١٩٨٩م، أن القانون حول العلمانية يرغم **عُمّال** الخدمات العمومية على الحياد الديني وليس **المستفيدين** منها.

قانونياً إذن، فإن الحجــاب – ويا له من حجاب شهيرا- كرمز للانتماء الديني لا يعيق احترام واجب الحياد بأي شكلٍ من الأشكال. ولهذا فقد ذكّر مجلس الدولة، بعبارة شــاملة تتجاوز حالة الحجــاب، بأنه «لا يمكن اعتبار حملَ أي علامة دينية شــيئًا غير متماشٍ مع القانون»، والحظر الوحيد الذي يمكن تطبيقه، يتعلّق بالإخلال بالنظام العام.

لكن حكم مجلس الدولة هذا يناقض التصور السائد اجتماعياً حول مكانة الدين في المجتمع؛ وهذه هي نقطة الضعف فيه. فقانونياً يقوم مبدأ العلمانية بتنظيم حقّ كل الأديان دون تمييز في الوصول إلى الفضاء العمومي، ويمنع الدولة من التدخّل في هذا النظام. لكن الرغبة الاجتماعية السائدة لا توافق على هذا. فُيراد من العلمانية أن تصبح جهازاً ينزع شرعية التأكيد العلني للانتماء إلى الأديان بصفة عامة، وإلى دين (الآخر) بصفة خاصّة. والدليل على هذا، كل الإنذارات التي وجّهها مجلس الدولة بإلغائه لقرارات إدارية تعسفية لم تحترم مبدأ العلمانية.

مثلاً يوم ٢ نوفمبر ١٩٩١م حيث كان عليه إلغاء قرار المحكمة الإدارية لباريس التي أكّدت على شرعية النظام الداخلي للمدرسة الإكمالية لبلدية «مونفرماي»، وهو نظام داخليّ ينصّ على إقصاء كل تلميذة ترتدي الحجاب. وقد برّر مجلس الدولة إلغاءه لحكم المحكمة بأن أي حظر قاطع -خاصة وإن كان فيه تمييز ضد علامة دينية ما (بما أن الحجاب كان العلامة الدينية الوحيدة المذكورة)- ينافي مبادئ العلمانية.

وعرفت هذه الحرب المدرسية أحداثاً جديدة مع تعليمة وزير التربية «فرانسوا بايرو»، بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩٩٤م، الموجَّهة إلى مديري المدارس والتي تنصّ على أن «حمل أي علامة رِيائيَّة للانتماء الديني، أو السياسي أو الفلسفي ممنوع في داخل كل مؤسسات التعليم العمومية»، إذ ما المقصود بـ«العلامة الرِّيائيَّة»؟ أليست كلّ علامةٍ ريائيّةً في حدّ ذاتها؟ أم هل الحجاب هو الوحيد الذي يشار إليه بالأصابع؟

إن دخول الإسلام في الفضاء العلماني الفرنسي ساهم في إضعاف الوظيفة التجديدية للجمهورية. إن مهمة المدرسة الجمهورية تتعدى مجرد تبليغ العلم إلى نشر عالمية الأخلاق المبنية على العلم، خلافاً لخصوصية الأديان. وهي بذلك ترسم أبعاد

«الدولـــة المُجـــدِّدة» أي تلك الدولة التي، مع كونها لادينية، تأمل في تحويل الفرد والمجـــتمع المدني خلال برنامج سياسي-تربوي طموح. فهي تعمل ككنيسة مُضادّة تطمـــع في أن تصـــبح احتكارية، جاعلة من عقيدة العلم لاهوتها. لكن هذا لم يعد ممكـــناً؛ لأن هذه البنى المثالية للحداثة باتت تنهار، مثيرةً التساؤل حول أساس الرباط الاجتماعي بشكل درامي.

ففـــي مجـــتمع مُدمَّـــر، أصبحت فيه فكرة التحقيق والاكتمال والتطور عرضة للانهيـــارات، مـــا الشـــيء الـــذي يصلح لأن يكون أساساً لجعل الأفراد يجتمعون ويـــتطارحون مشكل مصيرهم المشترك، وفي نفس الوقت مشكل ذاكرتهم المشتركة أيضاً؟ وللأسف ليس بمقدور المدرسة العمومية أن تجيب نهائياً عن هذا السؤال.

ولقد برزت المجادلات بخصوص الحجاب في أوربا كلها، ذلك لأن الإسلام اليوم بلـــور أخيلة مُنَفِّرة حول وضعية المرأة. فوضعيتها في الإسلام تبدو فعلاً مناقضة تماماً لمـــبدأ عـــدم التمييز الذي ينظم علاقات الأفراد في المجتمع الفرنسي. وهذا التصور الســـلبي يؤدّي إلى اعتبار الحجاب وبعض العلامات الأخرى كالصليب النازي على قدم المساواة. وقد ذكَّر عن حقّ أحد أعضاء مجلس الدولة في تصريح أثار نزاعاً بعده، أن الحجـــاب في حـــدّ ذاته لا يعبّر عن أيّ شيء، ولذلك فلا يمكن بأي شكل من الأشكال اعتباره مثل العلامات الاستفزازية كالصليب النازي والتي هي دعوة مباشرة للكراهـــية. ولهذا فإن الحجاب لا يُعتبر عدواناً على كرامة المرأة إلاّ بعد اللجوء إلى بـــناء **تصوّري** لما نعلمه أو نظن أننا نعلمه عن الدين والحضارة الإسلاميين. غير أن هذا التفسير للرموز الدينية دون أي اعتبار لأولئك الذين يؤمنون بها، هو في حدّ ذاته طعن **لحرية الاعتقاد**.

المواطنة
من الذاتوية التدميرية إلى الكينونة التعميرية

الدكتور العربي كشاط(*)

يوم يتآلف مسلمو الغرب، ويشاركون في تأليف مجتمع جميل التأليف، متماسك الأعضاء، غزير الإنتاج، مبارك التوزيع، محقّقٍ للتكامل الإنساني، مُنَمٍّ لبواعث المحبّة، ساعٍ نحو الخير العميم، والكمال المرموق، يومئذٍ يقول مواطنونا من غير المسلمين: «إنّا نراكم من المحسنين»، ويومئذٍ يسعد المسلمون في دنياهم، وسيحمدون -إن شاء الله- في الآخرة عقباهم.

في كل بقعة من بقاع الأرض ترتفع العقائر مطالبة بتحسين أوضاع الإنسان، والذَّوْدِ عن كرامته، وحماية يومه وغده من مُنَغِّصات العيش، وكُدورات الحياة.

يحسن التنبيه إلى أن انشراح الصّدر بمثل هذا التعاطف، وإسداء الثّناء إلى أعضاء «حلف فضوله» والتشرف بالانتساب إلى ناديه، وتبنّي مضمونه، وتزكية

(*) باحث أكاديمي جزائري.. (فرنسا).

موضوعه، وتفعيل شكله، لا يمنعنا ونحن نكرِّر «**ما أحبّ أن لي به حُمْرَ النَّعَم**» مـــن الـــتذكير بأنّـــه ينطلق من منطلقات خَاصَّتُها الأساسية تجزيء الكينونة الإنســـانية، وتمـــزيق وحدها إلى مزق لا صلة لها بما يهَشّ له الحس السّليم من الحقائق المتصادية في طوايا الضمائر، والشواهد الماثلة للعيان.

وفي سياق هذه المطالب النبيلة يتنادى العقلاء من بني آدم مؤكّدين ضرورة التعريف بالمواطنة فهماً سليمًا، وممارسة كريمة، وياله من تأكيد نبيل! ويالها من دعوة لا تصدر إلا من نوايا طيبة، ورغبة في الإصلاح الاجتماعي متنامية! لولا أن دعاها درجوا على إدراجها في أدراج مباحث العلوم السياسية؛ وإن في زوايا هذه الأدراج لخبايا، ومن خباياها هذه نشتق مآخذنا على هذا المنهج، وما هذه المـــآخذ إلا تطرف هذا المنهج تطرفاً مسرفاً في عملية لا أنسنة الفرد، أي تمحّل سلخه من خصائصه الإنسانية، وامتهان أشواقه السّامية، وازدراء تطلعاته الراقية، وتكلّف فصم ما بين أبعاده المتعدّدة من روابط، وإقحامه في فَشْفاش[1] المواطنة.

وتجـــدر الإشارة إلى أن الذي زجّ **بالمجتمع المدني** في أتون هذه التخريقات، وجحـــيم هذه الاختلاقات، إنما هو نزُوع مَرَضيّ إلى الانتباذ عن (الغير)، ونبذ (الآخر)، واعتبار التعدّدية الثقافية نُبْزَة تستوجب تضريب أصحابها بضروب من الألقاب المسيئة، وإقذاعهم بألوان من المقذّعات المُهينة.

ومـــثل هـــذه الشنائع تسوقنا إلى أن نُعالِنَ بأنّ هذا المنهج قد جاء بالعُجَرِ والبُجَر، ومازال يكذب ويتحرّى الكذب حتى كُتب عند الله وعند ذوي الحِجى

---

(١) الفشفاش = كساء غير محكم النّسج، رقيق الغزل.

كذّابــاً؛ وهـــاهو يُـــزكِم العقول بمناتنه[١] المنبعثة من سَوْآءٍ[٢] تقطيعه لأوصال الكيـــنونة الإنســـانية؛ تلك التي نَستشف ملامحها من خلال اللوحة الأفلاطونية ثلاثـــيةً متـــناغمةَ العقل والقلب والطبيعة، تَنَاغُم وعْي عارف، وشعور إدراك ووجود ونزوع، وغرائز حافظة مُنمية؛ تتناسق فتتّقي الانغمار في غمرات عنف تُذْكِـــي أُوارَه حيوانيةٌ متعرِّمة، وتُصعق خُوارَه شهوات مُصْطَفِقة[٣]، وترتفع إلى سماوات استلهام العقل الذي يستمدّ نور هدايته المحكومة من ضياء شموس حقائق الوحي الحاكمة.

وفي ضـــوء هـــذه الحقائق تستعلن[٤] هذه العُجَر والبُجَر، فإذا هي شعبذة شَعْراء[٥]، وحيلة صلفَاء[٦] تتوكّأ على مِنسَأَتها المتأكّلة كلّ الديمقراطيات الحديثة عساها أن تبلغ مبتغاها من الإجهاز على إنسانية الإنسان.

ويتمثّل ذلك الإجهاز في :

- تَتْريبه[٧] لينحشر دون عناء في القالب المُقَوْلب المعروف بالمواطنة،

- وَسْـــلَنَته[٨] لإجبار البيئة الطبيعية والاجتماعية على التماهي مع المفاهيم التأحيدية التي فَسْفَسَ[٩] المشروع الثقافي الغربي في ابتعاث فَسْفَاسها[١٠]، وبهرجة

(١) المَناتِن - خبث الرائحة.
(٢) السوآء - الخلة القبيحة.
(٣) مُصْطَفِقة - مضطربة.
(٤) استعلنَ الأمر - تعرّض لأن يعلن به.
(٥) شعراء - شديدة، عظيمة.
(٦) سحاب صَلِف - كثير الرعد، قليل الماء.
(٧) ترَّب - اعتبر البعد الترابي في الإنسان على حساب بعده الروحي.
(٨) وَسْلَنة الإنسان - اعتباره مجرد وسيلة.
(٩) فسفس فلان - اشتد حمقه.
(١٠) الفسفاس - حشرة مُضِرّة خبيثة الرائحة.

خطاباتها، وخطف الأبصار بتهاويلها، وإلهاء شمال الأرض وجنوبها بالاستجارة من رمضاء أحقابها بنار ألقابها.

وفي هــذه الأجــواء المتلــبدة بتعكُّب الهموم وازدحامها، أجْلَبَ شياطين التهشــيم وتألــبوا، وتتابعــت جَوالب[1] تقصيب الفرد وتقطيعه إلى ما ورائية خافية، وطبيعة ظاهرة، وأرخت ليالي العبثية ولا جدوى الحياة سدولها الخانقة، فــإذا الإنسان خَنيق، وادلَهمت الهموم فأهمّت الإنسان وأثارت اهتمامه فإذا هو كــمٌّ مُهْمَل مقذوف به وسط أَهْمامٍ[2]، تيهان، ضيَّع بَوْصَلته السماوية فتاةَ في «الأرض اليباب» وتيّه ذاته، وفقد الوعي بكينونته.

وعــندما أُغلقــت دارة التَشَــرْنق، واشْتَغَرَت[3] الأمور تشَغْرَ[4] أساطين التفكيك في ارتكاب فواحــش حَيْوَنة[5] الإنســان، فانفتحت أبواب التبريرات عــلى مصاريعها، وارتكست اللاهوتيات الدّينَوِّية[6] تفتري على الله الكذب: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ (الــبقرة: ٧٩)، وتعجرفت اللاهوتية الإنسانوية، وهاجت تصاريف رياحها المتقلّــبة، وتعاشــق الدّين المحرَّف بالعقل المُخرِّف، وتمخَّض تسافحهما عن يوم ســوء؛ يــوم اقــتلاع الإنسان من مرابع وطنيته الكينونية فهامَ على وجهه في

(١) الجالبة =الآفة والشدّة.
(٢) الهِمّ = القديم المتكسر.
(٣) اشتغر= اتسع وتفاقم.
(٤) تشغّر في القبيح = تمادى فيه.
(٥) حَيْوَنة الإنسان = اعتباره حيواناً.
(٦) الدّينوِيّة = نسبة إلى الدين الباطن.

متاهات الاغتراب، تارة يُطيّره في فراغات ميتافيزيقية استفرغت مجهوده فيما أنحل الأشباح، وآدى الأرواح، وأحياناً يُتَيِّهه في مفاوز أيديولوجية لم يفز منها إلا بما فوَّز وأهلك؛ وذلك قليل من كثير من أشائم[١] فكر قاطعَ السماء فانقطع إلى الأرض، فلم يجن من تلك المقاطعة وذلك الانقطاع إلا تقطّع الكينونة الإنسانية التي لا سبيل لاستنقاذها إلاّ بتجفيف منابع تصوّرات هذه الثقافة المقطوعة القطعاء.

أجل، لقد انقطعت هذه الثقافة عن منابعها السّماوية فتسفّلت تسفّل تَسَعْسُعٍ[٢] وتسفيف، وما هذا التسفيف إلاّ تسكّعها في مساكع[٣] الأفكار الخَرماء[٤] وركوب تعاسيف[٥] التصوّرات الهوجاء[٦]، والتخبّط في حَلائب[٧] الأعمال الخرقاء؛ ومن البدائه أن ضلال الأفكار ينتهي حتماً إلى طَيَشان السِّهام، وأنّ الأظانين الواهية مزلق إلى الهاوية، وأنّ بلايا هذه الثقافة من خَيَلاها وخُيَلائها[٨].

فلقد خُيِّل إلى هذه الثقافة المختالة الخبلاء[٩] أنّها أنجزت إنزال اللامتناهي من سماء المفارَقة إلى أرض المحايَثة، فلم تجنِ من خَيَلاها وخُيَلائها إلا انطلاق عنان

(١) أشائم = ج. مشؤوم.
(٢) تَسَعْسُع = انحطاط.
(٣) مساكع = ج. مَسكعة = موضع التسكّع ومدعاة الحيرة والاضطراب.
(٤) خرماء= ضعيفة.
(٥) تعاسيف = اللامستقيم.
(٦) الهوجاء = الحمقاء.
(٧) حَلائب = ج. حلبة = موضع الملاكمة والمصارعة.
(٨) الخُيَلاء = التكبر والعُجب.
(٩) الأخبل = فاسد العقل.

هذا اللامتناهي المستأرِض يصلى نار فيافي لانهائيةِ المتناهيات المتطاحنة في أدغال محايَــثة، قلبت ظهر المِجَن لحقائق مخابرها وروابط مناظرها، وسفّهت مُسلَّمات عَقْلَنَتها، وطلسمت بَداءَةَ مفاهيمها، وسفّلت ثريّات الفكر فتمحّض للسُّفليات، ودحرجـــت الـــتجوهر الأنطولوجي إلى مستنقع الصيرورة، ومرّغت قيم الحق والخير والجمال، في أوصال أذواق ليس لها من حقيقة الذوق إلا اسمه، وليس لها من شكله إلا رسمه.

خُيِّل إلى هذه الثقافة المختالة الخبلاء، أنّ هَامَانَها قد بنى لها صرحاً فاطّلعت إلى ما تتوهّمه متعالياً فخلّصته من ربقة مُفارَقته، واستلّته من بين أنياب حمودِيَّته، وكشــفت عــنه حجب ضبابيَّته، فلم تجن من خَيَلانها وخُيلائها سوى تخدير الأحاسـيس، وغيــبوبة الضمائر، وتكوّر شمس الحقيقة، وانكدار نجوم الرشاد، وانطمــاس معالم الهداية في عالم وصفه نيــتشه بأنّه «...فقد ثقة المتعالي مُفارِقاً ومُحايِثاً» فتهاوى إلى مهاوي «إرادة القوة أو الاقتدار».

خُيِّل إلى هذه الثقافة المخـــتالة الخبلاء، أنّها طوت نــهائياً صفحة المتعالي، فلم تجنِ مِن خَيَلانها وخيلائها سوى تورّطها المضني في تلفيق أسماء ما أنزل الله بهـــا من سلطان، فلا «فكر» هيجل ولا «حياة» شوبنهور ونيتشه وبرغسون، ولا «كمـــال» ديكارت، ولا «ارتواء» فرويد، وغيرها من التهاتر[1] المُتَجَعْجِعَة ولا طحين، اســتطاعت أن تقطع الصــلة الحميمية بين الفـــطرة وبين مصدر إيجادها وإمدادها.

(١) التهاتر = الشهادات .

خُيِّل إلى هذه الثقافة المُختالة الخبلاء، أنّ مفاصَلَتها البائنة للمتعالي المفارق قد أخرجـــتها مـــن الضيق إلى السّعة، ومن الجور إلى العدل، فلم تجنِ من خيلائها وخـــيلائها إلا الانـــهماك المُخزي في مضايق المقتنيات، ومخانق المـــتلكات، ومكبّات الاستهلاكات.

خُـــيِّل إلى هـــذه الثقافة المُختالة الخبلاء، أنها بلغت أشدّها واستوت حين كفرت بإلهـــ(ها) البرّاني، المتجافي عن جوّانيتها، المطلق، المتصامم عن حاجات محدوديـــتها، الثابت، لا يأبه لمقتضيات تطورها، فلم تجن من خيلائها وخيلائها ســـوى تعـــثّرها في غياهب إنسانية نسيت إلهـــها فأنساها نفسها، ويالَفضاعة الفســـوق! ويالمهانة الذات ! ذات «فيورباخ» الذي لا يرى الدين رزقاً تجود به السماء على الأحياء، بل إفرازات أحشاء، وتلفيقات أهواء.

خُيِّل إلى هذه الثقافة المُختالة الخبلاء، أنها وثبتْ وثبات رافعة حين هشّمت الأغصان التي كانت ترتفع عليها، فلم تجن من خيلائها وخيلائها سوى ارتطامها بجلامـــيد الـــنُّظُم الاجتماعية تستبقي مما تعتبره ديناً شكلانيته لشرعنة سلطانها، وتهدئة روع رعاياها، الذين شعر الشاعرون منهم بلَذَعات جَوْعة العقيدة فراحوا يتساءلون عن النبأ العظيم، نبأ نوع الصلة بالمغايرة المفارقة (الله سبحانه وتعالى) والمغايرة المحايثة (الطبيعة والإنسان).

خُيِّل إلى هذه الثقافة المُختالة الخبلاء، أنّها بلغت أوج عظمتها حين فجّرت ثورة التَّعَلْمن الذي آذن السماء بالحرب، وجاهر باعتباره المرجعية الإلهية رجعية لا تليق بمقامه، فلم تجن من خيلائها وخيلائها سوى تعمّق أخاديد الفراغ، تملؤها أشباح العَدَمية الوجودية المتهارشة في الكهوف العلمانوية.

خُيِّل إلى هذه الثقافة المُختالة الخبلاء، أنها نَسَخت حديث الدين بأحداث الدنيا، فلم تجن من خيلاها وخيلائها سوى انجرافها العُصَابي إلى ما يُروي غُلّتها إلى الدين كحاجة حيوية، وضرورة اجتماعية؛ ونلفت الأنظار إلى أن استشعار هذه الحاجة يتجلّى من خلال كثير من الظواهر، من أهمّها:

- اهتمام المراكز العلمية بدراسة ظاهرة تأصّل التدين اهتماماً يركّز على قليل من جوانبها المضيئة، وكثير من جوانبها المعتمة كغوغائية الأصوليانوية[١].

- تكاثر حوادث التعصب الديني الذي يَنمُّ على استبعاد (الآخر) المختلف.

- هيمنة الأساليب العنفيّة التي يسوِّد بها المتعالمون العلمانويون صفحات وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة والمرآوية.

- اضطراد مظاهر حوادث التلاكمات الشعبوية.

- استكشاف سجلات الديانات العريقة، ولفت الأنظار إلى تراثاتها المُغنية المُسغبة، وإثارة بعض زوايا زوائدها المظلمة الظالمة من فاشية تفشّت قروحها، ونازية انتزت على الأنفس فأعدمتها، وعلى الأرواح فأزهقتها، وشيوعية صحّرت البلاد، وأدْقَعت[٢] العباد.

خُيِّل إلى هذه الثقافة المُختالة الخبلاء، وهي في شؤبوب علمانويتها، أنها استأصلت شأفة المفارقة، وأنزفَت معين المرجعية الدينية، فلم تجن من خيلاها

(١) الأصوليانوية: كلمة للتعبير عمّا يُسمّى خطأً بالأصولية، إذ النسبة إلى الأصول شيء محمودٌ، ويُقصد بها شيء مذموم هو التشدّد والتطرف في فهم الأصول والمطالبة بالعودة إليها بأسلوب بعيد عن الحكمة. فأضفنا إلى كلمة «أصول» ألفاً ونوناً للتعبير عن الزيادة السرطانية الفائقة، إذ العرب تقول مثلاً نسبة إلى اللحية: «لحيي»، وتقول: «لحياني» لعظيم اللحية، أما الواو والياء والتاء المربوطة فقد أضيفت للتعبير عن مبدأ فكري أو أيديولوجي، وتقابلها بالإفرنجي اللاحقة «Suffix»: «-ism».

(٢) أدقع=أذلّ.

وخيلائها سوى انجحارها في جحور سفاهة ألهنة الإنسان؛ قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٣).

خُـيِّل إلى هـذه الثقافة المُختالة الخبلاء، وقد بلغ سيل اغترارها الزّبى، أنها قادرة على الأرض، فلم تجن من خيلائها وخُيلائها سوى استوبائها واستوخامها؛ وصدق الله في كتابه العزيز: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١).

خُيِّل إلى هـذه الثقـافة المُخـتالة الخـبلاء، التي لا ينـتهي العَجَب من إيـثارها للعوراء على العـيناء، أن ما لا تراه عيونـها الحولاء، لا وجـود له وإن وثّقـه خرَاريـت فجاج الغبراء، وأكّده نحارير بروج السماء، فلم تجن من خـيلائها وخـيلائها إلا أن تتزنّر بزنانير التقديس، تتّقي بـها حَمَارّة القيظ المنبعـث مـن كفـرانـها بإنسانية الإنسان، وإهـدارها لقيمته المتقوِّمة بقيم الإيمان، وتجهّمها للمشـيئة المطـلقة، وحرصـها على حياة منطلـقة مع تيار الحتميات المُجعفة[1].

خُيِّل إلى هذه الثقافة المُخـتالة الخبلاء، التي اعـتقلت العقل دون تـهمة ولا محاكمـة، أن الصـواب ما استصوبه الفكر الذي لا يستمد قيمته إلا من فاعلـيته، وما فاعليته إلاّ إبداعـاته، وما هـذه إلا ممهِّدات لتوكـيد الذات لا لتحقـيقها، وما توكيدها سوى هيمنتها على كل مفردات الوجود، فلم تجن

(١) أجعفه = صرعه.

مـــن خـــيلانها وخـــيلائها ســـوى الكفر بالفكر ذاته، ولم تعد من هذا العمل المكفور[١] إلاّ بأفائك[٢] تأليه هذا الفكر العفين[٣]، يَرْتَمُّ حُثالة عقل أفين.

خُيِّل إلى هذه الثقافة المُختالة الخبلاء، أن فكرها هذا الذي تؤلّهه يملك قدرة خارقة على تشـــكيل الواقع تشكيل تمطية وتمديد، أو تشكيل تقبُّض وتقميط، فلم تجن من خيلانـــها وخيلائها إلا ما يجنيه المســـتجير من الرمضـــاء بالنار، وما الرمضاء المُرمضة الموجعة المُحرقة إلا تفاقم ظواهر العنف الذي يتفنن الإعلام التّلعيـــبـــي في إثـــارة روامِس[٤] أكاذيبه، عساها أن ترمس بواعثه الخسيسة، وتطمس فواقره[٥] الكاسرة.

ويُـــزَخِّفُ سماســـرة الثقافة في الكلام ويكثرون، وتَتَزَخَّف هذه البواعث وتتزيَّن، وكلّما تزخّفت وتحسَّنت، انبعث زَخَمُها رائحةً خبيثة مُنتنة؛ ولّما تفرَّى اللـــيل عـــن صـــبحه وانشقّ، وأدبرت ساعة التغشية، وأقبلت ساعة التحلية، افتضـــحت الفـــرية، فرية اختلاق هوية تتشبث بقولبة الواقع على هواها، تَشْنَأُ الاختلاف وتبغضه، وتتفانى في إلغاء (الآخر) المغاير، إلغاء ترويع تارةً، وتطويع أخرى، وإفناء جسدي أحياناً، ومعنوي دائماً.

وشـــواهد هذا الإلغاء أكثر من أن تُحصى، تتشابك حلقاتها الحالقة فتنتسج مناســـج جـــرباء، تتهـــلهل شَنَآناً يعدل بضحاياه عن طريق العدل والاعتدال،

(١) المكفور = الذي لا يُحمد.
(٢) أفائك = ج. أفكة = الكذبة العظيمة.
(٣) عفن الشيء = فسد وتغيرت صفاته.
(٤) الرّامسة = الريح التي تثير التراب، و تدفن الآثار.
(٥) الفاقرة = الداهية.

وكراهيةً تستكره أحلاسها على الكرائه، وتعصُّبًا اعْصَوْصَبَت عصائبه لتعصيب المستضعفين وتجويعهم وإهلاكهم.

خُــيِّل إلى هــذه الــثقافة المُختالة الخبلاء، أنها قادرة على صعصعة الفطرة وإكــراهها عــلى جحود بارئها، فلم تجن من خيلانها وخيلائها إلا الاجتياس والــتردد، ولمّا أنهكها صدورها[1] عن وِرد الإيمان والأمان، استسلمت مذعورة إلى فكــرة الــتقديس، تَتَنَسَّــم من خلال مُنتَفذه نسيم وساعة الآفاق الرّوحية والمعــنوية، وتستشــفي طبيــبه من علّة خَوانيق[2] النظرة الطبيعانوية للإنسان، وتصوّره المُفَحْلَس[3] لعلاقته بالله سبحانه وتعالى، في شكل عبارات متفاحشة[4] تُخَربِشُــها أقــلام مُــثَلَّخَة[5] بأقذار الفَسالَة[6]؛ لا يلفظها إلا لسانٌ أَقْذَع[7] «كلســان فيورباخ»: «الإله صورة لماهية الإنسان اللامتناهية»، ولسان كل من تقمّص مثل هذا السلوك الأرعن من كل مصدور خِمِّير.

خُــيِّل إلى هذه الثقافة المُختالة الخبلاء، أنها بارتكابها أضلولة أنسنة الإله قد قرّبت المسافة بين إلهــ(ها) ذلك المتباعد في عليائه وإنسانــ(ها) هذا المتسَكّع في بيدائه، فلم تجن من خيلانها وخيلائها إلا لعنة التعثّر في عواثر[8] المحايثة.

---

(١) صدورها = انصرافها.

(٢) خوانيق = ج. خُناق = داء يمتنع معه نفوذ النَفَس إلى الرئة.

(٣) المُفَحْلَس = القبيح، السمج.

(٤) متفاحشة = شديدة القبح.

(٥) مُثَلَّخَة = ملطّخة بالقَذَر.

(٦) الفَسالَة = الضعف وسوء الرأي وقلّة المروءة.

(٧) الكلام الأقذع= القبيح السيّء.

(٨) العاثر = حبالة الصائد.

ومـــا المحايـــثة إلا رفـــض للترفّع، وتمحّض للتسفل، واختشاش[1] لخِشاش الزّرائـــب[2]، زرائب المادّيّة الصلداء[3]؛ فتعلقمت وجدانات الآحاد، وتحنظلت علاقات الجماعات؛ وأوجس أمثال «غوستاف لوبون» من طوارق البربرية التي لـــن يـــأتي برابرها «من الخارج، بل يخرجون من تلك الجموع التي تخلّفت عن اللّحاق بالحضارة، وهي سائرة في طريق رقيها».

وزمجرت عواصف هذه البربرية فأضرمت فحيح[4] المعايب النفسية، ولهّبت وقود المثالب الاجتماعية، وسنّنت حبائل اليأس وأسباب القنوط، ونعقت نواعق الفتنة على لسان «نيتشة» نعيق تحسّر وإنذار: «تلك حياتي: إحراق واحتراق».

ولا ريـــب أن اســـتتباب جوائح الإحراق والاحتراق إنّما هو نتيجة حتمية لجنون معاندة الأشواق الفطرية، أشواق السّموّ والارتفاع، ونهاية مُزرية لسفاهة مهاودة شذوذات التسفّل والانبطاح[5].

وتكشّـــفت أفاعيل مدابرة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فإذا هي عَجْزٌ عـــن الصعود، وإعجاز في الهبوط؛ وتلك لفحة من لوافح الثقافة المختالة الخبلاء الـــتي مَفْهمَـــت مفاهيمها الفصامية، وشكّلت ممارساتها الافتراسية حول أقنوم، الغـــربانوية[6] الـــتي تكثّفـــت حول أساطير المركزانوية العنصرانوية والدِّينوية والأيديولوجـــية الـــتي اســـتفحلت نوائـــبها باستنـــزال اللامتناهي اللاهوتي

(١) اختشّ من الأرض – أكل من خِشاشها (حشرات الأرض).

(٢) الزّرائب – ج. الزّريبة – حفرة الصائد، حظيرة الماشية، مأوى السّبُع.

(٣) الصلداء – الشديدة الصلابة.

(٤) فحّت الأفعى– صوّتت.

(٥) الانبطاح – الانكباب على الوجه.

(٦) الغربانوية – تغريب العالم بكل وسائل العنف.

ومَحْيَثَته[1]؛ تلك التي جسّدها **الإنسان الأبيض** الذي نصّب ذاته مركزاً تفنّن في تحويـــل مـــا عداه إلى محيطات طبيعية يستملكها ويسيطر عليها، وإنسانية يقلّم أظافـــر «بربريتها» بتمدينها!! ذلك التمدين الذي اعتمر[2] قلنسوة الاستعمار فخرّب العمران؛ وقصد[3] إلى المســـتعمرات فأقصـــد[4] اقتصادها؛ وثاقف[5] من استخفّهم فأعطب مفاصل ثقافتهم؛ وتغوّل في استيعاب (الآخر) واستهلاكه واستنـــزافه...

ودالـــت دولـــة الاســـتدمار، وتمالكت الحدود الجغرافية، وفقدت الذاتوية الـــتدميرية مبرّرات وجودها؛ وانفتحت العيون على تمازج الشعوب، وتشابك الثقافات، وطلع نهار الكينونة التعميرية.

وآن للمســـلمين الغربيين أن يعبّروا من خلال تجسيد التصورات الإسلامية، أنّ المواطـــنة ليســـت قطعة أرض يتعفّر المتعفّرون بترابها، ولا أديم رقعة يتطيّن الطينـــيون بطيـــنها. ولكـــنها فكرة سماوية الأصول، فطرية الفروع.. تحرّر من دواعي الأهواء، وتنعش العلاقات الاجتماعية برحيق الفضائل الخلقية، وتكيّف التصرفات تكييفاً يوائم بين مصلحة الفرد والجماعة، ويفجّر طاقات التعاون في مـــدار البرّ والتقوى، ويشحذ الهمم فتتنافس في تحقيق مقتضيات حقوق العباد، وما هي إلاّ المصـــلحة الخاصّة، وحقـــوق الله سبحانه، وما هي إلاّ النفع العام أو المصـــلحة المجتمعية، وتعمق الوعي بالاضطلاع بمهام الاستخلاف في الأرض،

---

(١) المحْيَثَة = إضفاء صفة المفارقة على المحايثة.

(٢) اعتمر = لبس العَمارة.

(٣) قصد = توجّه عامداً.

(٤) أقصد(ه) = طعنه فلم يخطئ مقاتله.

(٥) ثاقف = جالد بالسلاح.

ومـــا هـــي إلاّ التزامات إيجابية بمطالب الشريعة التي مبناها جلب المصالح ودرء المفاسد، ومشروعية تقديم درء المفاسد على جلب المصالح.

ويـــوم يتآلف مسلمو الغرب، ويشاركون في تأليف مجتمع جميل التأليف، متماسك الأعضاء، غزير الإنتاج، مبارك التوزيع، محقّق للتكامل الإنساني، مُنَمٍّ لبواعث المحبّة، ساعٍ نحو الخير العميم، والكمال المرموق، يومئذٍ يقول مواطنونا من غير المسلمين: «إنّا نراكم من المحسنين»، ويومئذٍ يسعد المسلمون في دنياهم، وسيحمدون -إن شاء الله- في الآخرة عقباهم.

المراجع:

(1) BATAILLE Georges, «Théorie de la religion», ed. Gallimard, Paris, 1973.

(2) FERRY Luc, «L"Homme-Dieu ou le sens de la vie », Paris,1997.

(3) HEIDEGER Martin, «L"Etre et le temps», ed. Gallimard, Paris,

الإسلام والديموقراطية
تناغم أم تنافر؟

الدكتور مراد فيلفرد هوفمان(*)

ترجمة: سامية توابي؛ مراجعة: د.العربي كشاط

مـــازال الغــــرب بعجرفته المعهودة يعتبر نفسه الحارس العالمي للأخلاق، ويطلب من العالم بأسره أن يوافق على حقوق الإنسان ويمارسها حسب التعريف والصياغة الأوروأمريكيّيْن.. وفي سياق المساعدة من أجل تنمية العالم الثالث، يتم استعمال حقوق الإنسان أحياناً كهراوة.

لقد أصبح العالم الإسلامي والغرب منذ الحادي عشر من أيلول(سبتمبر)٢٠٠١م يعيشـــان أكـــثر من ذي قبل في مواجهة ثقافية، إن لم تكن عسكرية. لكنّ أساس النـــزاع ليس عقائدياً ولا فلسفياً. فمع ممثلي الحـــداثة أو مابعد الحداثة فإن الجدال لا يـــدور حول وجود الله أو عدم وجوده، ولا عن صورته، بل عن قضايا أخلاقية واجتماعـــية. ومـــن خلال هذه التبادلات فإن المسلمين عادة ما يجدون أنفسهم في وضـــعية دفاعـــية فيما يخص ثلاث قضايا كبرى هي: الديموقراطية؛ حقوق الإنسان

(*) سفير سابق.. اعتنق الإسلام (ألمانيا).

عامّةً؛ وحقوق المرأة، بوجه أخصّ. ولست أبالغ إن جزمت بأن مستقبل الإسلام في الغرب متوقف على الأجوبة المعطاة في هذه الميادين الثلاثة.

إن المسلمين عادة ما يلاحظون – مندهشين – عند شروعهم في التحاور حول حقوق الإنسان أن زملاءهم الغربيين يعتقدون أنهم أصحاب فكرة حقوق الإنسان أساساً، كأنهم هم الذين اخترعوها أو وجدوها بمفردهم. والأسوأ من ذلك أن المسلمين يكتشفون أن زملاءهم في الغرب مقتنعون أن حقوق الإنسان لا تُحتَرم سوى في الغرب، وأنها تُنتهَك في الشرق بصفة مطلقة.

ويمكن فهم أوّل هذين الخطأين أكثر من الثاني. ففي الحقيقة، فإن صياغة دستور لحقوق الإنسان قد تم إنجازها فعلاً في الغرب، وخاصة في إنجلترا. في ذلك الوقت كان الأمر يتعلّق خاصّة بحماية المواطن من تعسّف الدولة. وكان الكلام حينها يدور حول «الحرية» من شيء ما، أي عدم الخضوع لسلطان ذلك الشيء، ولم يكن التفكير بمطالب قانونية موجهة للدولة تخصّ «حرية فعل» شيء ما أو الحصول عليه، معروفاً بعد.

إن مراحل هذا التطور التاريخي الفريد معروفة:

في بريطانيا، هناك الوثيقة العظمى للحريات (Carta Libertatum Magna, 1215) متبوعةً بقانون الإحضار(Habeas Corpus, 1679) وقانون الحقوق(Rights of Bill, 1689)؛ في الولايات المتحدة الأمريكية إعلان الاستقلال (١٧٧٦م)؛ وفي فرنسا الإعلان الشهير لحقوق الإنسان والمواطن (١٧٨٩م). هذه الوثائق تمثل الأساس الذي تم الاعتماد عليه في الصياغات اللاحقة لحقوق الإنسان، مثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان للأمم المتحدة (١٩٤٨م) والمعاهدتين الدوليتين للحقوق المدنية، السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية في ١٩ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٦م.

غير أن هذا التطور لم يحدث بفضل المسيحية، بل على العكس لقد تمّ على الرغم مـــن معارضـــة الكنائس والفاتيكان الشديدة لفكرة حقوق الإنســـان في حدّ ذاتها، كمـــا لم يحـــدث في فضاء ثقافي فارغ. وأمّا الفقه الإسلامي، الذي أساسه القرآن والســـنة، فإنّه لم يكن يجهل فكرة وجود حقوق لفائدة الفرد. وإنّها فعلاً لشتيمة أن يـــتم الإصرار على أن البلدان الإسلامية عاجزة جوهريًّا عن احترام حقوق الإنسان. وفي الواقـــع لو أردنا استخلاص دروس من التاريخ العالمي، فإن الأشخاص البسطاء كانوا تقريباً في كلّ مكان وكلّ زمان ضحايا للأثرياء وللأقوياء. واليوم كذلك هناك انتهاكات فظيعة لحقوق الإنسان المقنّنة، وذلك ما نراه ليس فقط في الصين أو كوريا الشـــمالية، وإفريقـــيا الســـوداء أو أميركا اللاتينية، بل حتّى في روسيا (الشيشان)، والولايـــات المـــتحدة الأميركـــية (خليج غوانتانامو) وإسرائيل. إن البلدان المدعوة بـــ«الإسلامية» لا تحتلّ المقدّمة في هذه القائمة.

ولكـــن لا يستطيع أحد أن ينكر أن حقوق الإنسان عادة ما ينتهكها مسلمون، ليس فقط أولئك الذين يوصفون بالإرهابيين. فكثيراً ما نجد بين المسلمين: التعذيب، إرهاب الدولة، القمع البوليسيّ، تزوير الانتخابات، الرقابة، ومنع الرأي الحر. غير أنه يجب التأكيد أن الإسلام لا يدفع إلى أيّ من هذا كله، ولا حتّى يبرّره.

ولـــو أجريـــنا مقارنـــة، بين الاعتداءات والتطبيق السيء لحقوق الإنسان عند المســـلمين وعـــند (الآخر)، فإننا لا نستطيع غضّ النظر على أنّ أكثر الانتهاكات لحقوق الإنســـان فتكاً وفظـــاعةً كان الغربيون هـــم الذين قاموا بـــها، في القرن الماضـــي. إنّي أتحدّث عن الحربين العالميتين، واستعمال الأسلحة الكيماوية والنووية،

والرعب الستاليني (في شبه جزيرة الكولاك)، والإبادة الجماعية في ألمانيا، والمجازر الأخيرة التي قام بها الصرب في البلقان (سربرينيشه) أثناء حملتهم للتصفية العرقية مستهدفين الكروات والمسلمين في البوسنة وكوسوفو. إنّ أيًا من هذه الفظائع لم يقترفها بلد إسلامي.

ومازال الغرب بعجرفته المعهودة يعتبر نفسه الحارس العالمي للأخلاق، ويطلب من العالم بأسره أن يوافق على حقوق الإنسان ويمارسها حسب التعريف والصياغة الأوروأمريكيّيْن.

وفي سياق المساعدة من أجل تنمية العالم الثالث فإنه يتم استعمال حقوق الإنسان أحياناً كهراوة. هذا الذي جعل «بارفز منظور» يقول سنة ١٩٩٤م: «إن الحديث عن حقوق الإنسان حديث عن القوة». (أي أنه حديث متسلّط)، هذا يعني أنه كلّما ذُكِرَت حقوق الإنسان فذلك في الواقع تذكير بالقوة السياسية والعسكرية.

ولكن لن يجني المسلمون شيئاً من ملازمتهم للشكوى أو من صياغة إحدى نظريّاتهم المَرَضيَّة حول مؤامرة عالمية ضدّهم. بل يجب عليهم أن يقفوا موقفاً واضحاً من حقوق الإنسان: معها أو ضدّها.

إنّ أول موقف اتّخذه المسلمون، بل أقول أوّل خط دفاع، كان يتعلّق بعلاقة التلازم الموجودة بين الحقوق الأساسية المدنية من جهة والحقوق الأساسية الاجتماعية والاقتصادية من جهة أخرى. وبالطبع، فإنه من غير الممكن أن تكون هناك انتخابات حرّة وديموقراطية حقيقةً في مجتمع، أغلبية أفراده أمّيين، على سبيل المثال. وبتعبير آخر، فإن الديموقراطية تحتاج إلى مجتمع مدني، وهو بدوره يحتاج إلى حدّ

مـــن الرفاهـــية الاقتصـــادية. بهـــذه الطريقة، تمكنت دول العالم الثالث من إدخال «حقوقهـــا» الخاصـــة في تقنين حقوق الإنسان، بإضافة حق الإنسان في العمل، في التعليم، وفي القوت.

وكانـــت هذه الدول تأمل أن تتمكن من إيقاف الهراوة المذكورة، بأن تثبت أن حقوق الإنسان ليست كلها عالمية. بل هي بالعكس تصور قانوني مركزاني- عرقيّ، بـــل مركـــزاني – أوروبي، وهو غير متجانس إطلاقاً مع العالم الإسلامي إن لم يكن مضـــاداً لطبيعته. علينا أن نعلم أن هناك بعضاً مما يُدَّعى أنه حقـــوق للإنسان، وهو في الواقـــع مضخّم، مثل «الحق في الشـــعور بالخوف»، أي حق معارضة ســـياسة التســـليح النووي بسبب قلق شـــخصي. كما ســـبق أن دار نقاش حـــول «الحق في التســـمّم»، أي حق تناول المخدّرات؛ و قد طالب مثليو الجنس بالحق في زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة.

غير أن الحديث عن عالمية حقوق الإنسان لا يُقصَد به هذه الحماقات، بل النواة الصـــلبة للحقوق الحقيقية، مثل الحق في الحياة، وحرية الرأي، والاعتقاد، والسكن، والحـــق في منع التعذيب. فإن أنكر المسلمون بشدّة القوة القانونية لهذه المعايير فإنهم يضرّون أنفسهم بأنفسهم. إنه من الأحسن استراتيجياً للمسلمين أن يتبنوا إشكالية حقوق الإنسان على أساس قيمهم، أي في الإطار الإسلامي.

ولـــنلاحظ أوّلاً أن مصـــطلح «حقوق الإنسان» لم يبرز لا في اليهودية ولا في المســـيحية ولا في الإســـلام. ففكرة «حقوق الإنسان» لاتوجد في أيٍّ من الكتب السماوية.. كما أن فكرة أن يكون واحـــد من مخلوقـــات الله هو المالك الأصـــلي لحـــقٍّ من الحقـــوق فكرة يكون ردّ فعل الإنســـان المؤمن بالنســـبة لها حساساً؛

وجود حقّ ربانيّ للإنسان نعم، أمّا حقّ الإنسان مباشرة فلا. وليس من الصدفة أن يعود مصطلح حقوق الإنسان إلى عصر الأنوار، أي القرن الثامن عشر، وهو العصر الذي ساد فيه الاقتناع (لأول مرة في الغرب) بأنّ الإنسان هو المعيار المستقلّ لكل شيء آخر، وتبًّا لأولئك الذين يحتفظون بروابط عليا مع حقيقة فوق-طبيعية، أي مع الله!!

إن الفقهاء المسلمين لم يطوّروا فكرة حقوق الإنسان لسبب إضافي : ذلك أن القوانين الإسلامية بما أنها مستمدة من القرآن المنزّل والسنة النبوية الصحيحة، فإن إعداد ترتيب تدريجي للأحكام، بحيث تكون هناك معايير ربانية عليا وأخرى دنيا، يعدّ تقريباً نوعاً من الإشكالية[1]. وبدلاً من ذلك فإن كل كبار الفقهاء المسلمين عرضوا كل عناصر الشريعة على قدم المساواة. فعوضاً عن أن يفصل الفقه الإسلامي بين مقاييس القانون الدولي، وبين القواعد الدستورية والقوانين والمراسيم والقرارات الإدارية بنظام تدريجي للقيمة القضائية كما في الغرب، فإنه يعرض كل المواضيع والأحكام بطريقة متساوية: من قواعد الوضوء، إلى حدود الجرائم وتحريم الربا... وهكذا، فإنه لا مكان لفكرة أن «حقوق الإنسان» معيار أعلى من سائر المعايير في نظام قضائي منزّل كهذا.

غير أن غياب مصطلح وفكرة حقوق الإنسان لم يكن له أن يعيق تطوّر مدوّنة قانونية حول هذا الموضوع في الإسلام بهذه الصفة المطلقة. ولسوء الحظ، فإن هذا التطوّر لم يحدث، والنتيجة هي أن الإسلام يثير الشكوك حول كونه

(١) قد يبدو في هذا التصور الكثير من الغرابة والمغالطة، ففي الأحكام الشرعية مراتب، من فرض، وواجب، وسنة، ومندوب، ومباح، ومحرم، ومكروه... وهكذا، وفي العقوبات مراتب، وفي الجرائم والاعتداء مراتب، وهكذا سائر الأحكام الشرعية .

معارضاً بطريقة أساسية لفكرة حقوق الإنسان أصلاً. وقد كان الأجدر والأسهل إثبات أن الإسلام لا يعرف هذه الحقوق من حيث جوهرها منذ ١٤٠٠ سنة قمرية فحسب، بل إن هذه الحقوق راسخة بثبات في القرآن الكريم أكثر منها في الصياغات الورقية الغربية.

وها هي خطّة للحجج التي كان على الفقهاء المسلمين اتّباعها:

مثلاً كان من السهل أن يكون موقف المسلمين مؤيّداً لأن يكون لكل شخص الحق في الحياة، إذ أن الله تعالى يحرّم قتل النفس، ويشبّه قتل نفس واحدة بجريمة ضد الإنسانية جمعاء، قال تعالى: ﴿ ... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾ (المائدة:٣٢)، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا... ﴾ (النساء:٩٢)، فالحق في الحياة هو انعكاس لحرمة القتل.

وبالطريقة نفسها، فإن الله تعالى يأمر أن تدار أمور المجتمع بواسطة الشورى، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى:٣٨)، فنستطيع أن نستنتج من هذا: الحق في المشاركة السياسية. وبما أن الخلفاء الثلاثة الأوائل تم انتخابهم بطريقة أو بأخرى دون أن تربطهم بالرسول ﷺ روابط دمّ، فنستطيع استخلاص أن الدولة الإسلامية يمكنها أن تكون ديموقراطية.

فعلينا إذاً أن نتجنّب التعثّر في مصطلح حقوق الإنسان حيث إنه من الممكن إيجاد تصوّر إسلامي لجوهره.

إنّ حقوقاً مستوحاة من الشريعة، منحها الله تعالى لعباده، ويكون عزّ وجلّ هو الشهيد على احترامها من عدمه، لَراسخةٌ بِعُمق أكبر من حقوق أساسُها معاهدة

أو اتفاقية بين الدول، ذلك أن العهود والاتفاقيات – وهي منتوجات إنسانية – عُرضة لأن يلغيها الدبلوماسيون، إما بالإجماع أو حتّى بقرار أحادي الطرف؛ كما أن خرق معاهدة دولية لا تنجم عنه النتائج الخطرة التي تنجم عن خرق أمر من أوامر الله.

وعلى كل حال، فإن الإنسانية لم تنجح أبداً في الاتفاق على نظام لِما يسمَّى بالحقوق الطبيعية يعتمد على العقل البشري. ولْنَقُلْ بوضوح: إن الإنسانية عاجزة عن ذلك لولا وجود الوحي.

ومؤخّراً جدّاً، لكن قبل فوات الأوان، اتّفق في مؤتمر المنظمة الإسلامية يوم ٥ آب (أغسطس) ١٩٩٠م على إعلان القاهرة حول حقوق الإنسان في الإسلام. وللأسف كان هذا الإعلان سياسياً محضاً دون أدنى قيمة قانونية. وقد كان هناك إعلان إسلامي سابق بخصوص حقوق الإنسان أصدره مجلس إسلامي في أوروبا يوم ١٩ أيلول(سبتمبر) ١٩٨١م، لكن أهميته كانت أقل بكثير من إعلان مؤتمر المنظمة الإسلامية.

وهناك شخصيات مسلمة ذات علم ومكانة اجتماعية رفيعة، أعلنت عن موقفها بخصوص موضوع حقوق الإنسان بصفة إيجابية. فقد صرّح الأمير الحسن: «فيما يتعلّق بحقوق الإنسان نحن نحتاج إلى إجماع شامل... إن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يبرز الضابط الأدنى للوجود الإنساني. إنني أعتقد أن ديني، الإسلام، له نفس الهدف. وكل مادة من المواد الثلاثين للإعلان لها ما يقابلها في القرآن والحديث وسنة الرسول». وكانت أول نتيجة لهذا المؤتمر هي أن: «كل الناس يحملون في أنفسهم حقوق الإنسان».

وهناك مسلمون آخرون شاركوا في شرح وضعية الإسلام في النقاش عن حقوق الإنسان.

وبفضل هذه الأعمال التمهيدية، فإنه من السهل اليوم تقديم الاختلافات القليلة، التي تبدو موجودة بين فهرسي حقوق الإنسان الغربي والإسلامي، وهي متعلقة بـــ:

١-الردة.

٢- الرق.

٣- وضعية الذمّي.

٤- حقوق المرأة.

٥- الحدود الجسدية.

وبفضـــل الاجتهاد المعاصر لشخصيات إسلامية مؤثرة فإن الفارق بين النظامين أصبح أقل فداحة مما كان يُظَنّ.

فيما يخصّ **الرّدّة**، فليس في الموضوع خلاف إطلاقاً. بل إن القرآن يتحدّث عن حـــالات عديدة لارتدادات عن الإسلام كهذه دون أن يربطها بأيّ عقاب دنيوي. فحرمة الإكراه في ميدان الاعتقاد ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ تطبّق بنفس الشكل سواء عـــلى العلاقـــات بـــين المسلمين وغير المسلمين، أو على علاقات المسلمين بعضهم بـــبعض. ووفقاً للســـنة الشريفة، فإنّ المرتدين عن الإســـلام الذين تعرّضوا للعقاب هـــم فقط أولئك الذين شرعوا بعد ارتدادهم في أعمـــال معادية للدين الإســـلامي أو للمســـلمين. فجريمتهم إذاً ليست الكفر بحـــدّ ذاته بل التمرّد والخيانة العظـــمى كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ

فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٣). والعقاب - بمقتضى قانون العقوبات- على الخيانة أثناء الحرب بالعقوبة القصوى شيء معمول به في العالم بأسره. صحيح أن من نتائج الردّة أيضاً فقدان المرتدّ حقه في الميراث، ذلك أن المسلم لا يرثه إلا مسلم. لكن هذا التمييز يبدو لي مقبولاً لو قبلنا أن قانون الميراث يتأثّر بجنسية الوارث، وهذا شيء طبيعي. وهنا يجب المقابلة بين الإسلام وفكرة الجنسية. وهذا ما نفعله غالباً حين نترجم كلمة «أُمّة» بـ «قومية nation».

وليس في **الرِّقّ** مشكلة أيضاً. إننا لن نمحو طبعاً من نص القرآن الآيات التي تذكر الرّقّ. المُهِمّ أن القرآن يتحدّث عن الرّقّ بوضوح كشيءٍ مصيره الزوال شيئاً فشيئاً. ولأجل هذا فإن أي دولة مسلمة تستطيع المصادقة اليوم على المعاهدات الدولية التي تحرّم الرّقّ دون أي مشكلة. ولكن في الأماكن التي بقيت فيها العبودية موجودة بالفعل، فإن على المسلمين أن يحافظوا على حقوق أولئك المساكين باحترام المكانة التي منحهم إياها الإسلام، وهي مكانة أعلى بكثير من وضعية الرق، التي أعلن أنها ضد القانون، في روما في العصورالقديمة، أو في الولايات المتحدة الأمريكية إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر. وهذا سبب آخر جيّد لعدم المساس بالآيات القرآنية المذكورة.

أما حماية الأقليات الدينية (**أهل الذمّة**) في الإسلام فهي قوية جداً، بل هي أقوى حتّى من وضعية الأقليات في المعاهدات الدولية الأكثر حداثة. إذ أن الأقليات المحمية اليوم، محرومة من الجنسية الكاملة، فهي تأسف لكونها دائماً في مكانة «من الدرجة

الثانـــية». والشـــريعة لا تعـــارض، حسب فتحي عثمان، المواطَنة الكاملة للأقليات المحمية، إن اعتبرت الدولة المسلمة نفسها كقومية، على غرار القومية الأوروبية[1].

ولاشـــيء يمـــنع الدولة المسلمة من منح كل الحقوق الحديثة المتعلقة بالجنسية، شريطة أن يطالب الذميون بذلك. وفي حالة كهذه، فإنه من الطبيعي أن يخضع غير المســـلمين لنفس الضريبة العامة والخدمة العسكرية التي يخضع لهما المسلمون. ولقد قامت مصر والسودان، بالسير على هذا الدرب منذ مدة.

هـــذا الـــتطور يثير السؤال التالي : هل يمكن لغير المسلم أن يصبح رئيس دولة مســـلمة ؟ وهذا السؤال افتراضي جدًّا؛ لأن احتمال انتخاب غير مسلم على رأس مجتمع مسلم ضئيل جداً. وفي نفس الوقت علينا أن نعرف أن حتى الولايات المتحدة الأميركية لا تسمح لأي أمريكي بأن يكون رئيسها. فالمواطنون الأمريكان المولودون في الخـــارج كلهم مقصون بمقتضى دستور البلاد. وبخلفية كهذه، من يستطيع اعتبار جعل وظيفة رئاســـة الدولة في بلد إســـلامي حكراً على المسلمين، شيئاً غير قانوني أو غير دستوري؟

ولنـــتطرق الآن إلى (**حقوق المرأة**)، إنه من المفيد منذ البداية أن نذكّر أن مبدأ المســـاواة يقتضـــينا أن نساوي في معاملة شيئين متماثلين. وهكذا فإن الأشياء غير المتماثلة يجب، مبدئياً، أن تُعامل بطريقة خاصة. وعلى كل حال، علمياً، فإن الرجل والمـــرأة مختلفان، ليس فقط جسدياً بل نفسياً أيضاً، فإن المسلمين والمسلمات يقبلون أن الجنسين غير متطابقين. وبشكل واضح، يقرِّر القرآن أن الذكر ليس كالأنثى، قال تعـــالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ (آل عمران:٣٦). ولهذا فإن وجود قوانين خاصة بالرجال أو بالنســـاء شيء شرعي ما دام ينبثق من الفـــوارق البيولوجـــية الحقيقية.

(١) Fathi Osman, The Children of Adam - An Islamic Perspective on Pluralisme, Washington 1996.

لكـــن المذهـــب الغربي لحقوق الإنسان يتغاضى عن هذه الفوارق، ويفضّل الاعتماد عـــلى الخـــيال القـــانوني للمســـاواة التامّة التي يدافع عنها بحزم أنصـــار الحركات النسوية. ولكن من حيث التطبيق، فإن الخلاف بين النظامين الغربي والإسلامي ليس ضخماً إطلاقاً.

وفقاً لقانون الميراث الإسلامي: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ...﴾ (النساء:١١)، فإن حصة الأخت تعادل نصف حصة أخيها فقط[١]. ووفقاً للفقه الإسلامي فإن المورّث لا يملك أن يغيّر نظام القسمة المبدئي لفائدة ابنته. ورغـــم هذا فإن المسلمين لا يرون في ذلك أيَّ تمييز جائر على المرأة لفائدة الرجل، ذلـــك أن قـــانون الأسرة في الإسلام يجعل واجب القيام بالأعباء المالية والاقتصادية للأسرة كلها حكراً على الذكور من الأبناء دون الإناث.

وحســـب قـــانون الإجراءات المدنية الإســـلامي، واعـــتماداً على قوله تعالى: ﴿... وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ ...﴾ (البقرة:٢٨٢-٢٨٣)، فإن شهادة امرأة تعدل نصف شهادة رجل.

لكـــن هاتين الآيتين تصوران حالة خاصة، وهي نشوب خلاف تجاري بسبب معاملة أساسها دَيْن. إذاً فالقضية تخص ميداناً أكثر المتعاملين فيه هم رجال التجارة، سواء أكان ذلك اليوم أو في عصر الرسول ﷺ. وبالمناسبة، فإن القرآن لا يعرف أي تمـــيز ضـــد شهادة المرأة في الإجراءات الخاصة بالعقوبات، وهذا يؤكّد أن العنصر الفيصل في القضية هو كفاءة الشاهد أو الشاهدة وليس جنسه.

(١) إنني أتحدث هنا عن أبسط الحالات: وجود أخ وأخت فقط حتّى أشرح هذه النقطة.

وفي الماضي كان تصور تقسيم الأدوار بين الزوجين مبنياً على القراءة التقليدية لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٢٨)، وقوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ ... ﴾ (النساء:٣٤).. ففي أولى هاتين الآيتين، يبدو أن الرجال يتمتعون «بدرجة» أعلى من النساء. لكن هذا، للأسف، هو تعميم مغرض وإخراج للنص من سياقه. فآية سورة البقرة لا تتحدث البتة عن مكانة المرأة في الأسرة، بل تعالج حالة خاصة بالطلاق. وفي هذا السياق، فإن الآية تؤكد فقط على حق الرجال - إن رغبوا في الصلح- في إرجاع نسائهم خلال أشهرالعدة الثلاثة ، ولا شيء أكثر من ذلك.

أما آية سورة النساء، فلطالما فُسِّر قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ بطريقة ذكورية. أجل، فقد كانت الرغبة النمطية شديدة في فهم القوامة على أنها «سلطة» للرجال على النساء، أي أن الرجل هو «مدير» المرأة أو «رئيسها». ونجد هذه النزعة مثلاً في ترجمات القرآن إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية التي قام بها كل من: ماكس هانينغ، لازاروس غولدشميدت، رودي باريت، محمد رسول، مرمدوك بيكتهال، محمد حميد الله، حمزة أبوبكر، دنيز ماسون، وباسل تيجاني.

ولحسن الحظ، فإننا نجد، أكثر فأكثر، ترجمات للقرآن بهذه اللغات الثلاث يكون فهمها للكلمات الأربع المذكورة سابقاً مختلفاً تماماً: «الرجال يسهرون على رعاية النساء» أي ليست وضعية الرجال أعلى من النساء، بل عليهم أن يكونوا في وضعية

حمايـــة لهن. ونحن هنا أيضاً بصدد قاعدة تطبيقية وليست قاعدة تأسيسية. ونجد هذا التفســـير عند عصبة من المترجمين منهم: يوسف علي، محمد أسد، ت.ب. آيرفينغ، الهـــلالي ومحسن خان، جاك بيرك، أحمد فون دنفر، أمير زيدان، وترجمة نديم إلياس وعـــبد الله فرنك بوبنهايم وهي بالألمانية وقد نشرت سنة ١٤٢٢هـــ بالمدينة المنورة: وفي هذا دليل على النجاح الفائق الذي تحققه هذه النـــزعة الجديدة. من هذه الزاوية إذاً فإن الآيتين، آية البقرة (٢٢٨) وآية سورة النساء (٣٤) متماشيتان جدّاً مع فكرة المساواة بين الرجل وزوجته في الزواج.

وبقيـــت هـــناك قضية الزواج المختلط، أي زواج المسلمين بالنصارى أو اليهود والعكـــس، التي يعامل فيها الفقه الإسلامي المرأة بطريقة خاصة. فالفقهاء المسلمون يرفضـــون زواج المســـلمة بنصراني أو يهودي، وفقاً للاستنتاج المنطقي بعدم وجود مقابل نسوي لما تقتضيه آية سورة المائدة: ﴿... وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ...﴾ (المائدة:٥)، في الوقت الذي يقـــبلون بزواج الرجل المســـلم بنصرانية أو يهودية. إنّ هذه النتيجة تعكس الدور التقليدي للرجل. إن كان الزوج هو الزعيم المطلق في الأسرة، فكيف للزوجة المسلمة أن تنتظر من رجل نصراني أن يقدّس دينها ورسولها؟.

أما تعدد الزوجات فهو في المخيلة الغربية أكبر عائق في الإسلام، دون أيّ مبرر. وبالتأكـــيد فـــإن الشرق لا يتّسم لوحده بتعدد الزوجات، ولا الغرب يتّسم لوحده بالـــزواج بامـــرأة واحدة. ففي الواقع تعدد الزوجات في الشرق نادر جداً، أمّا في الغرب فعدد الزيجات التي تستمرّ لمدة طويلة يتضاءل يوماً بعد يوم. والأغلبية العظمى من المسلمين يتزوجون بامرأة واحدة لأســـباب اقـــتصادية، ولكن هذه الأســـباب

لا تكفي لشرح القضية، بل ما يشرحها هو إرادة الله عز وجل: إذ أن السماح بتعدد الزوجات في القرآن مشروط، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (النساء:٣).

والسياق الذي وردت فيه الآية يتعلق بالإحسان إلى اليتامى، والآية واضحة في هذا المجال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا ... ﴾ وإنه لأمر رهيب أن نجد دائماً مقالات تتحدث عن الموضوع وتقتصر على ذكر الآية بالطريقة الآتية: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ .

وبهذا الشكل، فهذه الآية تتعرض للبتر، ليس فقط في بدايتها، بل في نهايتها أيضاً، إذ يتم ترك الجملة المتممة: ﴿ ... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً... ﴾؛ وهكذا، فعدم الإدراك الكامل للنص القرآني كريهٌ جداً خاصة وأن الآية (١٢٩) من السورة نفسها غالباً ما تُنسى تماماً، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾!

وأمام هذا الدليل، لنا أن نتساءل: كيف أمكن أن يكون للنساء ذلك الدور الذي اضطلعن به في تاريخ الإسلام؟

ولكن علينا أن نذكر تلك الحالات المعزولة التي يصبح فيها السماح بتعدد الزوجات بَرَكة حقيقية. بعد الحرب العالمية الأولى مثلاً، انخفض عدد الرجال انخفاضاً هائلاً في ألمانيا إذ قتل منهم خمسة ملايين أثناء الحرب. في تلك الفترة لم يكن من النادر أن تتقاسم امرأتان الرجل نفسه، طبعاً بشكل غير رسمي. وليس من الصعب تصور حالات أخرى يكون فيها تعدد الزوجات المحدود والاستثنائي أفضل حل

لعلاج أزمة عائلية. والمسلمون سيدافعون دائماً عن الرسالة القرآنية بكل ما تحتويه، ليس فقط من أجل هذه الحكمة، بل من حيث المبدأ. وبهذه الخلفية التي شرحتها يستطيع المسلمون أن يدحضوا تهمة أن القرآن – في آيته الثالثة من سورة النساء– مضادّ للحقوق العالمية للإنسان.

لكن هذه التهمة لا يمكن تفاديها فيما يخص (**الحدود الجسدية**) المذكورة في القرآن، بما أن أي حدٍّ منها يعتبر اليوم أساساً كعقاب قاسٍ ومُقبِّح. ويا للغرابة! إن الولايات المتحدة الأمريكية، وهي ترى نفسها المرشد الأخلاقي للعالم، تقبل بل وتطبق العقاب الجسدي الأكثر قساوة وتقبيحاً: الإعدام.

إن أكثر ما يشتكى منه، عن حقّ، هو رجم الزناة في الإسلام. أقول عن حق؛ لأن رجم الزاني موجود في الكتاب المقدس، ولا وجود له في القرآن الذي لا يذكر بخصوص حد الزنى إلاّ الجلد بالسوط لكن دون القتل: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ...﴾ (النور:٢). وزيادة على ذلك، يمكن إثبات عدم شرعية إعدام الزاني بالرجوع إلى نص الكتاب الذي يؤمن به المسلمون، والذي ينص على أن الزاني العبد يعاقب بنصف حد الزاني الحر (٤:٢٥). فما هو نصف عقوبة الإعدام ؟

إننا لن نستطيع الحديث عن العقوبات الجسدية حديثاً مفيداً دون معرفة نظام الحماية الاجتماعية في حضارة تكون فيها المجوهرات والنقود، خاصة الذهبية منها، الضمان الوحيد والحماية الأكيدة للوضعية المالية للمرأة المتزوجة، بعيداً عن الحسابات والكنوز البنكية. ففي مجتمعات كهذه، تكون السرقة ضربة موجهة إلى نظام الحماية الاجتماعية كله.

لكنه يمكننا السفر في أرجاء العالم الإسلامي لمدة سنين دون العثور على شخص مقطوع اليد. هذا لا يدل على انعدام السراق، بل على فقه رحيم عرف كيف يفرغ القضـية مـن خطورتها من خلال تعاريف دقيقة محددة ومحدودة، وقواعد واضحة لإجراءات العقوبات.

فالسـرقة بـالمعنى القـرآني هي نزع شيء غالٍ محميّ موجود داخل ملكية فردية لشـخص مـا (وليس ملكا للدولة). فالسطو غير الخطر لا يعتبر سرقة. وفي سنوات الجدب، في عهد الخليفة عمر، رضي الله عنه، بعد أن طالت المحنة العامة وعمّت المجاعة.. تمّ تعليق تطبيق حدّ السرقة، وهذا هو المعمول به عادةً. وحتى من غير مجاعة.. لهذا فإن المحاكمات على السرقة نادرة، والأندر منها تطبيق الحدّ.

وهـا أنـا ذا أقرر من جديد أن الخلاف بين النظامين القانونين أقل أهمية مما نظن. لكنني أعرف أيضاً أن المسلمين حين يحاورون الغرب يجدون أنفسهم عادةً في وضعية لا رابح فيها، فإن اقتنع الناقدون بأن المعايير القرآنية نموذجية ولا غبار عليها -كالآية ٢٥٦ مـن الـبقرة: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ... ﴾ أو الآية ٤٨ من المائدة: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ ...﴾ - يقولون لنا: إن ما يهم ليس النظرية بل التطبيق، ولـيس القـانون بل الواقع؛ لكنهم إن وجدوا التطبيق، أي الواقع مقبولاً في العالم الإسلامي، كما هوالحال في موضوع تعدد الزوجات والسرقة، يقولون لنا: إن المعايير غير المقبولة للإسلام هي التي تهمّهم.

وفي نظـري، عـلى كـل حال، هذه النظرة السريعة على حقوق الإنسان في الإسـلام تبدي لنا أن الفوارق بين النظام الغربي والإسلامي ليست ضخمة، دون أن

تكون قزمة. لكن الفوارق الكبرى موجودة في تصور كل واحد للآخر. وبالفعل فإن الإسلام يستطيع، لو أردنا ذلك، أن يصبح نظاماً مُتمِّماً لحماية حقوق الإنسان. وقد رأينا أن بعض المجتهدين المعاصرين تمكنوا باجتهاداتهم من التقليل من التشنجات التي لم يسبّبها الإسلام بل سبّبتها الحضارة الإسلامية في الماضي.

لكــن لهــذه الطريقة حــدود، لأن الشريعة الإسلامية هي في الأساس نتيجة لتشريع رباني يجب الالتزام به إلى الأبد. فعلينا أن نعيش إذاً بشيء من التنافر بانتظار أن تهب ريح معاكسة للحداثة أو لما بعد – الحداثة فتديرها باتجاه مابعد – مابعد – الحداثة post-post-modernité !

وهذا ما يحدث فعلاً مع السرعة التي يتغير بها الرأي العام بخصوص العلاقات بين الــرجال والنســاء، على سبيل المثال. إن مؤشر الميزان لا بد وأن يعود يوماً ما إلى الوســط، إلى الفطــرة السليمة. ومن هذا المنظور، علينا أن نتحلى بالصبر. ألم يكن الصبر دوماً الميزة الأساسية للمسلمين؟

المراجع

- Le Saint Coran, al-Madina : complexe du Roi Fahd, 1410 A. H.
- Ahmad, Mumtaz, Islam and Democracy, in : Middle East Affairs Journal, Vol. 2, No. 4, 1996, pp. 29 ff.
- Ali, Yusuf, The Meaning of the Holy Qur'an, Beltsvill, MD : amana, 8th ed. 1996.
- Asad Muhammad, The Message of the Qur'an, Gibraltar 1980.
- Bielefeldt, Heiner, Schwächlicher Werterelativismus ? Zur Notwendigkeit des interkulturellen Dialogs über Menschenrechte, in : Kai Hafez, Der Islam und der Westen, Frankfurt : Fischer 1978, S. 56 ff.
- Denffer, Ahmad von, Der Koran, München : Isl. Zentrum 1996.
- Doi, 'Abdur Rahman I., Shari'ah : the Islamic Law, London : Ta HA, 1984.
- Elyas, Nadeem. / Abdullah Bubenheim, Der edle Qur'an, al-Madina : King Fahd Komplex, 1422 A.H.
- Engineer Ashar, The Rights of Women in Islam, London : Sterling Publ. 1992.
- Ghannouchi, Rachid, Towards Inclusive Strategies for Human Rights Enforcement in the Arab World, Encounters, Vol. 2, No. 2, 1996, p. 190.
- Hamidullah, Le Saint Coran, Beltsvill, MD : amana 1989.
- Hicks, Nell, Islam and Human Rights, in : Muslim Politics Report. No. 12, N.Y. : Council on Foreign Relations, 1997.
- Hilal, Muh. / Muhsin Khan, Interpretation of the Meanings of the Noble Qur'an, Riyad : Dar-us-Salam 1993.
- Izetbegovic, Alija, Islamic Declaration, 1979 (anonymous).
- Jaweed, Najma, Human Rights in Islam, in : Al-Mizan, Vol. 2, No. 1, 1996, pp 65.
- Lemu, Aisha, and Fatima Heeren, Women in Islam, Leicester. Islamic Council of Europe 1978.
- Little, David et al., Human Rights and the Conflicts of Culture, Univ. of South Carolina Press 1989.
- Masson, Denise, Le Coran, Paris : Pléiade 1967.
- Masrul, Ali, Islam and the End of History, in : The American Journal of Islamic and Social Sciences, Vol. 10, No. 4, Herndon, VA, 1993, p. 534.

- Masrul, Ali, Human Rights between Ruanda and Reparations, in : Encounters, Vol. 2, No.1, 1996, pp.3.
- Masrul, Ali, Islamic and Western Values, in : Iqra, Vol. 18, No.1, 1998, p. 13.
- Manzoor, Parvez, Human Rights : Secular Transcendence or Cultural Imperialism, in : The Muslim World Book Review, Vol. 8, No.3, Markfield, LE, 1994, pp. 3.
- Muzaffar, Chandra, Human Rights and the New World Order, Penang : JUST 1994.
- Na'im, Abdullah, Human Rights in Cross-Cultural Perspective, Philadelphia : Pennsylvania Press 1992.
- Naseef, Fatima, Droits et Devoirs de la Femme en Islam, Amman : Tawhid 1997.
- Ophuls, William, Requiem for Modern Politics, Boulder, CO : Westview 1997.
- Osman, Fathi, Sharia in Contemporary Society, Los Angeles : Multimedia Vera International 1994.
- Osman, Fathi, the Children of Adam, Washington : Georgetown Univ. Press 1996.
- Osman, Fathi, Human Rights on the Eve of the 21st Century, London : Islam & Modernity, 1996.
- Pichtahll, Marmaduke, The Glorious Qur'an, Istanbul Cagri Yayinlari 2002.
- Rassoull, Muhammad, Al-Qur'an al-Karim, Köpln : Islam. Bibliothek, 26th ed., 2000.
- Schmidt, Helmut, Allgemeine Erklärung der Menschenpflichten, Munich : Piper 1997.
- Sinnar, Reflections on the 50th Anniversary of the Universal Declaration of Human Rights, in : Commentary, No. 19. Petaling Jaya, Selangor, Malaysia, Dec. 1998, pp. 1-5.
- Turabi, Hassan, Women, Islam and the Muslim Society, London : Milestones 1991.
- Zaidan, At-Tafsir, Offenbach : ADIB 2000.

الفرق الإبراهيمية وملتقيات الإسلام
نماذج للحياة المشتركة في أوروبا

الدكتور يورغن مكش(*)

ترجمة: د.نديم محمد عطا إلياس

تقتصـــر معرفة المجتمع الألماني بالإسلام والمسلمين على التعريف المتحيز الذي تعج به الكتب المدرسية، وتجنّي كتـــب التاريخ على الإسلام ووصفه بالتحدي والتهديد.. فالجهل بالآخر هو أكبر معوقات التعايش.. ولدى الأديان رصيد كبير يؤهلها لتأصيل العدل وترسيخ السلام، وهذه رسالتها ومهمتها التي أرادها الله لها. لذا فإن الواجب الملقى على عاتقها هو دعم التعايش الإيجابي في كل مجتمع، ودرء المخاطر والأهوال عنها.

لقد كان من آثار الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، ازدياد الاهتمام بالإسلام، في ألمانـــيا وفي سائر الدول الأوروبية الأخرى.. اهتمام متزايد بالإسلام في الإذاعات والتلفزة والصحـــافة، وعقد لقاءات متكررة لحـــوار الأديان. وما لبث هذا الاهتمام أن ضَـــمُر بعد قليل. كانت لقاءات الحوار محـــدودة العدد والأثر، ولم يصل تأثيرها إلى الأعماق.

(*) رئيس مجلس التبادل الحضاري.. (ألمانيا).

وعلى الرغم من تأكيد المسلمين المتكرر أن الفرص المتاحة لنشاطهم وبروزهم الديني في ألمانيا تفوق الفرص المتاحة في معظم دول العالم الإسلامي، وأن الحرية الدينية التي يتمتعون بها مُفتقدة في مواطنهم الأصلية، إلا أنهم يعانون من كثير من صور الرفض والتمييز، في ألمانيا وفي أوروبا. إنهم يلمسون بوضوح أنهم غير مرغوب فيهم، ويواجهون مختلف المصاعب من الإدارات البلدية لمنعهم من بناء مساجدهم، ويفاجأون بمبادرات شعبية تتأسس خصيصاً لإفشال مشاريع بناء المساجد.

وعلى الرغم من تصريحات رؤساء حكومات جميع المقاطعات بضرورة إدخال مادة التعليم الإسلامي، إلا أن جهود المنظمات الإسلامية المطالبة بتحقيق تلك المطالب تجد نفسها أمام رفض متكرر مدعوم بحجج واهية تحول دون ذلك.

وإذا ما أرادت مسلمة أن تلتزم بقواعد لباسها الإسلامي أو التقليدي وجدت رفض توظيفها، بشكل خاص في المدارس أو المستشفيات، بحجة لباسها الشرعي. ولقد مرت إحدى المسلمات بهذه التجربة حيث رفض ناد رياضي توظيفها، بسبب حجابها الإسلامي. وقامت بعض المحاكم فوق ذلك بإضفاء القانونية على هذا السلوك التمييزي.

لقد استمرت العلاقات الحسنة، حيث كانت قائمة قبل الحادي عشر من سبتمبر بين المسلمين وغير المسلمين، دون أن تتأثر سلبياً. إلا أن الحادي عشر من سبتمبر شكل شرارة تفجير ومعول هدم للصلة بين المسلمين وسواهم في الأوساط التي افتقدت تلك التربة المهيئة سابقاً، وزاد في إحجام الآخرين عن مواصلتهم، وزاد في الريبة والشك فيهم.

لقد لفتنا النظر في دراستنا الصادرة بعد الحادي عشر من سبتمبر بعنوان: «الإسلام في القرى الأوروبية» إلى أن عدداً من المساجد قد حرق في هولندا، وعاني

المســـلمون في دول أخرى مما أطلقنا عليه مصطلح «الرفض الصامت»، و«التهميش الاجتماعي»، و«بتر براعم الحوار الغضة». وسبب ذلك كله الجهل بالإسلام وبأبنائه القاطنين معنا.

لقد اقتصرت معرفة المجتمع الألماني بالإسلام والمسلمين – على الرغم من وجود أكثر من ثلاثة مليون مسلم في ألمانيا، مليونان منهم من تركيا- على التعريف المتحيز الــذي تعج به الكتب المدرسية، وتجنِّي كتب التاريخ على الإسلام ووصفه بالتحدي والــتهديد، الــذي يتربص بأوروبا. وهذا لا يخدم بالطبع الصلة الإيجابية والتعايش المشترك.

والوافدون – من جهة أخرى – لم يكونوا مهيئين لمثل هذه الظروف، فكان رد فعــل الكثير منهم التخوف من المجتمع الجديد ورفض المواطن الأوروبي. لقد كانت معلومــاتهم عن النصرانية محدودة للغاية، وجزئية غير متوازنة، ولم تكن لديهم غالباً أي تجربة سابقة مع النظام الديمقراطي، وفوجئوا بمظاهر ترفضها نفوسهم، وتصرفات نابــية مــن الشــباب والنساء في الوسط العام. دفع هذا الكثير منهم إلى الانكماش والــتقوقع. وزاد مــن عزلتهم إلغاء كثير من الحصص الإذاعية التي كانت مخصصة بلغات الوافدين، مما دفعهم إلى الاعتماد على إذاعات مواطنهم الأصلية والتي لا تهتم بخصوصيات هذا المجتمع الجديد، ولا تعمل على ربط صلتهم به.

كــل هذا يزيد من مشكلات التعايش.. ويزيد الطينَ بلّة الأخبارُ المروجة حول أعمال العنف والإجرام، التي يقوم بها بعض من ينتسب للإسلام.

ما أحوجنا في ضوء ذلك كله إلى نماذج جديدة للتعايش الإيجابي البناء!؟

أولاً: الفرق الإبراهيمية

انهالت عليَّ الطلبات بعد الحادي عشر من سبتمبر لإلقاء محاضرات عن الإسلام، وكان أحدها من مُدرِّسة كاثوليكية في مَدْرَسة في مدينة (هاناو)، وعندما أبديت استعدادي لإرسال محاضر مسلم أجابت المدرسة بكل ذعر: « إن أبناءنا وآباءهم في خوف شديد من الحرب ومن المسلمين عموماً». واستطعت بعد إلحاح شديد إقناعهم بقبول ثلاثة محاضرين: نصراني ويهودي ومسلم.. وعدَت المدرِّسةُ بإعادة النظر والحديث مع أولياء الأمور.. لم أتلق رداً من هذه المدرسة.. ولكن نشأت بذلك فكرة «الفرق الإبراهيمية» المكونة من متخصصين أكفاء من النصارى واليهود والمسلمين، والتي تقوم بإلقاء محاضرات مشتركة عن أديانهم، والدخول في حوار ونقاش عام - كل من وجهة نظره - وكان اختيار التسمية «الإبراهيمية» لهذه الفرق انطلاقاً من التقاء الأديان الثلاثة في إبراهيم، أبي الأنبياء، عليه السلام.

خضنا التجربة الأولى في ٢٩ نوفمبر ٢٠٠١م في مدرسة بمدينة (ماينز)، وتركزت أسئلة الخمسين طالباً وطالبة، الذين شاركوا في هذا اللقاء، على المحاضر المسلم (أمير زيدان)، وكانت تجربة شيقة لهؤلاء الطلبة الذين تمكنوا من طرح أسئلتهم بكل وضوح وصراحة، وزاد إعجابهم تجاوبه مع طلبهم ترتيل بعض الآيات من القرآن الكريم. وبالمقابل تركزت أسئلة المدارس الأخرى ذات الأغلبية العربية والتركية على المحاضرين النصراني واليهودي.

عالجـــت «الفـــرق الإبراهيمـــية» مواضيع شتى أثناء تجوالها، كان أهمها قضايا التعايش المشترك. ولكنها تطرقت كذلك لأسئلة حول مفهوم كل دين لإبراهيم عليه السلام، ومفهوم النبوة، ودور المرأة، وتفسير النصوص الدينية، ومفهوم الخير والبشر، ومفهـــوم الحرب والسلام، ومستقبل حوار الأديان، والتعايش في المجتمعات المتعددة الأديان والثقافات.

تم الاتفـــاق بينـــنا على أن نجيب عن سؤال واحد فقط - إذا ما طرح - حول القضـــية الفلسطينية، وأن نلفت النظر بعد ذلك إلى أن هدف الحوار إنما هو القضايا المتعلقة بالتعايش في هذا المجتمع الألماني.

وقـــد نظم «مجلس التبادل الحضاري» إلى الآن أكثر من مائة لقاء لهذه «الفرق الإبراهيمـــية» في المـــدارس وروابط الآباء والكنائس والأكاديميات ودوائر الشرطة وثكـــنات الجـــيش والجامعـــات. قـــام بهذه الفعاليات أكثر من ستين محاضراً من الشخصـــيات الإسلامية واليهودية والنصرانية ذات الكفاءة والتجربة على المستوى الاتحادي بكامله.

وجـــدت هـــذ «الفـــرق الإبراهيمية» اهتماماً كبيراً وإعجاباً خاصاً، نظراً لجو الـــتفاهم والانسجام والصداقة الذي يربط المحاضرين من الأديان الثلاثة، والذي نشأ من خلال تجربة الحوار السابقة.. ونمى لدى المحاضرين الاستعداد لمعالجة قضايا حرجة .بموضـــوعية وانفـــتاح.. وساهمت هذه التجربة في تعميق التفهم والاحترام بين أبناء الأديان الثلاثة.. اليهودية والنصرانية والإسلام. وقام مجلس التبادل الحضاري بالتعاون مـــع جمعية (غروبن) الخيرية، والكنيسة البروتستانتية في «هسن» و«ناساو»، ووزارة

الداخليـة الاتحاديـة، والمفوضـية الأوروبية، بتغطية نفقات هذه الفعاليات لعجز المؤسسات المستضيفة عن تغطية نفقات سفر المحاضرين.

- الأممية الإبراهيمية:

لقـد برزت الفروق بين اليهودية والنصرانية والإسلام بما يكفي خلال القرون الماضـية، وينـبغي أن نركز في القرن الحادي والعشرين بشكل واضح على القواسم المشـتركة بين هذه الأديان. ومن أهم ما تلتقي عليه هذه الأديان الثلاثة أن إبراهيم عليه السلام هو أب العقيدة لليهود والنصارى والمسلمين، الذين يعبدون كلهم ربَّ إبراهيم عليه السلام. ولقد ورد دعاء إبراهيم لخلفه في التوراة والإنجيل والقرآن. ومن الممكـن، بـل ومـن الضروري، أن ندعو لنشوء وحدة إبراهيمية في أوروبا، التي انصـبغت بصبغة هذه الأديان الثلاثة، وحيث يقيم في نطاق الوحدة الأوروبية مئات الألوف من اليهود وحـوالي عشرين مليون مسـلم وأكثر من سبعين مليون مسلم في حـدود أوروبـا الجغرافـية. ويعد تحجـيماً تاريخياً لأوروبا أن نصفها بأوروبا النصرانية اليهودية .

لقـد لعب الإسلام دوراً مهماً في تاريخ أوروبا.. عاش المسلمون عدة قرون في الأندلـس، ويعـيش المسلمون التتر إلى يومنا هذا في فنلندا ودول البلطيق، واستمر الحكم الإسلامي قروناً عديدة في دول شرق أوروبا، ولا يزال قسم كبير من مواطني قـبرص مسلمين.. والبوسنا وألبانيا وكوسوفا وتركيا أقطار مسلمة. فأوروبا صبغت ثقافياً ودينياً بالأديان الإبراهيمية، اليهودية والنصرانية والإسلام. ويشكل الإسلام في يومنا هذا الدين الثاني في أوروبا، بعد النصرانية.

تلـــتقي أديـــان التوحـــيد الثلاثة على عناصر دعوة إبراهيم، فالعدل من قيمها الأساسية وواجباتها الرئيسة، وكذلك مكافحة الفقر، وهم جميعهم يعملون على إقرار الســـلام بـــين البشـــر، وينطلقون من قيم أديانهم لدرء الحرب والمحافظة على البيئة والخلـــيقة، والوصايا العشر المتأصلة في أديانهم هي أساس حقوق الإنسان المعمول بها عالمـــياً، وإكرام الضيف ومحاربة العنصرية والعرقية من أسمى قيمهم.. وحيث تكون هذه القيم العليا فلا مكان لصراع الحضارات والثقافات.

- الروحانية الإبراهيمية:

نعـــم هناك روحانية إبراهيمية مشتركة تمكّن من الالتقاء على التذكير بالأسس المشتركة في الأديان الثلاثة والمنصوص عليها في كتبهم. ومن الممكن عقد احتفالات إبراهيمية كالاحتفال الذي عقد لأول مرة في ديسمبر ٢٠٠١م في مطار فرانكفورت بمناســـبة عـــيد الفصـــح الـــيهودي وعيد الميلاد النصراني وبمناسبة رمضان. ومطار فرانكفورت يتيح الفرصة لذلك، حيث يوجد في القاعة الثانية معبد يهودي وبجواره كنيســـة نصـــرانية ومسجد، فقام أبناء الأديان الثلاثة بزيارة المعبد اليهودي وإشعال الشموع بمناسبة العيد اليهودي، ثم توجهوا إلى الكنيسة حيث رتل قساوسة كاثوليك وبروتســـتانت نصوص عيد الميلاد، وتوجهوا بعد ذلك إلى المسجد حيث أقام الإمام صـــلاة المغرب ودعا الجميع إلى إفطار مشترك. واختتم الحفل بجلسة ثقافية، تحدث فـــيها ممـــثلو الأديان حول أهمية تلك المناســـبات لديهم، ثـــم استضافتهم إدارة المطار في عشـــاء مشـــترك، واســـتمر إحياء هذه المناسبة كل عام منذ ٢٠٠١م في مطار فرانكفورت.

ومـــا أكـــثر المناسبات التي يمكن أن يستفاد منها لمثل هذه الاحتفالات، ومنها مناســـبة «يـــوم المســـجد المفتوح» ومناسبة رمضان، حيث تترك دعوات المسلمين لجيرانهم ومعارفهم للإفطار أو لزيارة المسجد أكبر الأثر في نفوسهم.

لقـــد نشـــأ الكثير من فرص التلاقي الروحي انطلاقاً من الروحانية الإبراهيمية المشـــتركة، ولا تزال تتكرر عاماً بعد عام، ومنها تبادل التهاني بالأعياد، والمشاركة فيها بإلقاء الكلمات، والترحيب بالأئمة والقساوسة الجدد في أماكن عملهم.

- واجبات المجتمع:

التواصل بين الأديان يعود بالخير على المجتمع ككل، وعلى الطوائف ذاتها. إلا أن الدور الأساس لكل طائفة إنما هو المحافظة على الذات والهوية. وساورت بعض كبار المســـؤولين في الطوائـــف شكوك ومخاوف من أن الحوار والتواصل يدعو إلى فقدان الذات وإضعاف الهوية. إلا أن التجربة تؤكد بكل وضوح أن الحوار يعمق إيمان كل طرف ويزيد من ثقته بنفسه وفهمه لدينه، ونلمس حالياً توجهاً لدى بعض المسؤولين عن الكنائس، بشكل خاص، إلى رفض العمل المشترك والتعاون خوفاً على المكاسب التاريخية التي حصلت عليها الكنيسة وخوفاً على صدارة مركزها.

إن دعـــم «الفرق الإبراهيمية» يتم في الدرجة الأولى عن طريق جمعيات خيرية وإدارات محلـــية واتحاديـــة، وعن طريق المفوضية الأوروبية. ومن المفيد أن يتم تبادل الخـــبرات المكتســـبة مـــن هذا النموذج الإيجابي ليتم نشره بشكل سريع في النطاق الأوروبي، وأن يتم تبادل الخبرات حول نماذج مشابهة في العالم الإسلامي.

- الملتقى الإبراهيمي في ألمانيا:

«الملتقى الإبراهيمي» في ألمانيا مؤسسة تابعة «لمجلس التبادل الحضاري» في ألمانيا، ويتم دعمه من قبل (جمعية غروبن الخيرية) وهو يشكل شبكة حوار وتلاق لشخصيات من المجلس الأعلى لليهودية في ألمانيا، والمجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا، واتحاد الكنائس الألمانية، واتحاد الجمعيات التركية الإسلامية، ووزارة الداخلية الاتحادية، وجمعيات خيرية وعلماء وعاملين في مجال التواصل والحوار بين الأديان الثلاثة.

- أهداف الملتقى الإبراهيمي:

١- التعايش المشترك، المنطلق من الثقة المتبادلة، والاحترام، والصداقة بين البشر بمختلف أديانهم، والشبيبة بشكل خاص.

٢- كسب الخبرة في التعامل والتعارف والاعتراف المتبادل.

٣- العمل الإيجابي الفعال والتواصل الأوروبي.

٤- مواجهة الأحكام المسبقة والمخاوف المجحفة ضد اليهودية، والنصرانية، والإسلام بشكل خاص، ومكافحة العنصرية والعرقية.

- الوسائل:

١- المشاريع التربوية والثقافية الإبراهيمية في رياض الأطفال والمدارس والجامعات.

٢- الأعياد الإبراهيمية والمناسبات الدينية.

٣- الندوات الثقافية ولقاءات الحوار حول القيم المشتركة.

٤- الملتقيات الأخرى والنشاطات المختلفة في مجال التبادل الشبابي.

وكـــان أول أهداف «الملتقى الإبراهيمي» في ألمانيا إنشاء «ملتقيات إبراهيمية» محلية لتعميق التعايش على المستوى المحلي. ولكن هذا الهدف ووُجِه بصعوبات كبيرة. كـــان منها إعراض الطائفة اليهودية عن المشاركة بسبب قلة عدد أفرادها العاملين، وانشـــغالهم بشـــؤون اليهود الوافدين بأعداد كبيرة من روسيا. وكان هناك إحجام بسبب مشكلات القضية الفلسطـــينية والخـــلاف الإسرائيلي.

ومـــن الجانب النصراني، كان يُفسر الإحجام بسبب الحرص على تنمية الذات والهوية قبل الدخول في حوار وتلاق مع الأديان الأخرى، بالإضافة إلى الأثر السلبي لتجارب سابقة غير موفقة.

وأدى تعـــدد المؤسسات الإسلامية وتفرقها إلى الحذر من التعامل مع بعضٍ منها دون الآخـــر لما يسبب ذلك من امتعاض لدى كل طرف، بالإضافة إلى عدم تمكن معظـــم الأئمة من اللغة الألمانية وافتـــقارهم إلى التـــكوين الديني المؤهِّل للحوار مع الأديان الأخرى.

مشكلات شتى على الصعيد المحلي، تتطلب صبراً ووقتاً وجهداً لإنشاء الملتقيات الإبراهيمية المحلية.

ولقد أثبتت التجارب إلى الآن، على الرغم من ذلك كله، أن التعايش والتواصل بين أبناء الأديان الإبراهيمية أمر يمكن تحقيقه، وهناك معطيات إيجابية متوفرة في ألمانيا تسمح بالتعاون والتنسيق، ويمكن تنميتها مستقبلياً.

هـــناك إقبال وطلب متزايد على ندوات لمعالجة موضوعات يشارك في معالجتها يهـــود ونصـــارى ومسلمون في آن واحد. ويمكن معالجة قضايا الأخلاق والتاريخ

والعبادات والمعاملات والتربية والطب - التي تشغل كل إنسان في وقتنا هذا - من وجهة النظر اليهودية والنصرانية والإسلامية. وأثبتت التجربة تجاوب الشخصيات من سائر الطوائف مع هذه المتطلبات الاجتماعية. ومن شأن هذه اللقاءات المشتركة إزالة الأحكام المسبقة ضد المسلمين وضد اليهود كذلك، والتي تجد رواجاً كبيراً في مجتمعنا. وتتيح هذه اللقاءات الفرصة لاتخاذ موقف ناقد من التطرف السياسي المنسوب للأديان عموماً.

فما أحوجنا إليها لدعم الأمن الداخلي والسلم الاجتماعي!؟

ويجب التنويه في هذا المضمار إلى وجود «ملتقيات إبراهيمية» في بعض الأقطار الأوروبية الأخرى، حيث يوجد في فرنسا، منذ عام ١٩٦٧م، ما يسمى بـ «الأخوة الإبراهيمية Franite d'Abrahem» والتي تضم كبار الشخصيات من الأديان الإبراهيمية، والذين أخذوا على عاتقهم واجب «دعم وتنمية القيم الروحانية والأخلاقية والثقافية المنبثقة عن التراث الإبراهيمي».

ونشأ في بريطانيا «ملتقى الأديان الثلاثة Three Faith Forum» الذي يضم شخصيات دينية مرموقة. ويوجد في «سرايفو» بالبوسنا والهرسك «مشروع إبراهيم» الذي يعمل ضمنه شباب من الأديان الثلاثة بوجه خاص.

ونأمل أن تنمو هذه البدايات في أوروبا، وأن يتم تبادل الخبرة بينها وبين أمثالها في العالم العربي.

ثانياً: ملتقيات الإسلام

لقــد كــان واضحاً قبل الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م أن هناك خط تماس مليئاً بالمشكلات بين المواطنين المسلمين والمواطنين غير المسلمين في ألمانيا.. ازداد هذا الأمــر وضــوحاً بعــد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وتُعمق الموقف الرافض للمسلمين أكثر من ذي قبل، وساعد على تعميقه الكثير من المقالات والبرامج ذات الــنظرة المتحاملة الجزئية. كما ساعد على ذلك ما كان موجوداً من قبل من مخاوف وأحكــام مسبقة. ولمسنا انكماشاً من قبل بعض المنظمات الإسلامية عن المجتمع، مما أســاء إلى التواصل بين كلا الطرفين. وازدادت المخاوف من أن هذا الموقف السلبي قــد يــنمي بدوره التوجهات الإسلامية المتطرفة لدى بعض الجماعات، مما يزيد هو الآخر من مخاوف المجتمع من الإسلام.

تحدثــت بعــد عــدة أشــهر من الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م مع بعض المســؤولين عن الجمعيات التركية والحكومة الاتحادية والنقابات والإعلام عما يمكن عملــه لكسر هذه الحلقة المعيبة. وكان نتيجة المشاورات أن توصلنا إلى فكرة إنشاء ملــتقى يتــيح فرصــة الحوار بين المسلمين وغير المسلمين، ويمكِّن من مناقشة سائر القضايا الحرجة الساخنة مع مسؤولي الدولة في نطاق ضيق وبشكل صريح منفتح.

ولعــل هذا يمكِّن ممثلي المنظمات الإسلامية من مفاتحة المسؤولين بما يجدون من مشــكلات، وما لديهم من حلول تساعد على الاندماج وتعمل على وضع مخطط متوسط وبعيد المدى لتنفيذ ذلك.

عُقــد اللقــاء الأول «للملتقى الإسلام» في ٢٦ يونيو ٢٠٠٢م في فرانكفورت، وكان من مظاهره الإيجابية السارة أن شارك فيه كبار الشخصيات الممثلة للمنظمات

الإســـلامية التي يُعتد بها، حيث شارك فيه المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا، ورابطة المراكـــز الإسلامية (VIKZ)، واتحاد المراكز الإسلامية التركية في أوروبا (ATIB)، ورابطـــة المسلمين الألمان ، ومجلس المواطنين الأتراك المتجنسين، والجماعة التركية في ألمانيا. وكان أطراف الحوار من الجانب (الآخر) مسؤولين رفيعي المستوى من وزارة الداخلـــية الاتحاديـــة، ووزارات الداخلية للمقاطعات، والنقابات، والطوائف الدينية الأخـــرى، وعـــدد مـــن العـــلماء. وطُرحـــت موضوعات للنقاش مثل «الدستور والإســـلام»، «الديمقراطية والإسلام»، «المسلمون والدولة الألمانية.. نقاط الخلاف وتطلعـــات المســـتقبل»، «المخابرات والإسلام والجماعات المتطرفة» بالإضافة إلى مشكلات التعليم والحجاب.

ولا تـــزال «ملتقيات الإسلام» تعمل منذ يونيو ٢٠٠٢م على دعم الشخصيات المستعدة للحوار في النطاق الإسلامي.

لقـــد كانت دعوة المجموعات الرافضة للديمقراطية والدستور موضع خلاف منذ الـــبداية، لذلـــك لم ندع ممثلي منظمة (مللي غوروش) الذين لا يزالون متمسكين بـــالمخطط السياســـي لرئيس الوزراء السابق نجم الدين أربكان، ولكننا قمنا بدعوة رئـــيس «مجلس الإسلام» والذي كان أميناً عاماً سابقاً لهذه الجماعة في ألمانيا. وكان هذا موضع نقد من بعض الجهات. إلا أننا وجدنا أن وجود مجموعات أخرى تعمل ضـــمن «مجلس الإسلام» وتعارض في الوقت نفسه التوجهات الرافضة للدستور يبرر دعوتـــنا له. ولا يزال الأمر هذا في حاجة إلى نقاش أعمق. فالنقاش الصريح المنفتح بإمكانه إيجاد جو أفضل من التفاهم المتبادل وتفويت الفرص على القوى المتآمرة على الديمقراطية والدستور.

لقد شجعتنا التجربة الإيجابية في مجال «ملتقى الإسلام»، على المستوى الاتحادي، عـــلى إنشاء ملتقيات مشابهة على مستوى المقاطعات، حيث يمكن التغلب على كثير من المشكلات اليومية بين المسلمين وغير المسلمين على الصعيد المحلي بشكل أسرع وأكثر فعالية مما لو طرحت في الصعيد الاتحادي.

وهكذا أُنشئ في مقاطعة (شمال الراين- وست فاليا) وهي أكبر مقاطعة في ألمانيا «ملتقى للإسلام» في ١٠ سبتمبر ٢٠٠٣م، وبعد شهر من هذا التاريخ أُنشئ «ملتقى الإســـلام» في مقاطعـــة (هسن) بفرانكفورت. وفي نوفمبر ٢٠٠٣م أنشئ «ملتقى الإســـلام» المحلي في مدينة (دورن) . وفي يونيو ٢٠٠٤م أنشئ «ملتقى الإسلام» في مديـــنة (لا يـــبزغ) ليغطي حاجات المقاطعات الشرقية التي انضمت إلى ألمانيا بعد توحيدها، حيث تلتقي شخصيات من تلك المقاطعات عدا مقاطعة (برين). ولا تزال الجهود قائمة لإنشاء ملتقيات أخرى.

لقـــد أظهـــرت التجربة أن للمسلمين اهتماماً ورغبة كبيرة للمشاركة في هذه الملتقـــيات، فهـــي تتيح لهم الفرصة للحوار المباشر مع المسؤولين، وتطرح اقتراحات لحلـــول مشاكلهم على مستوى الدولة والمقاطعة والمدينة. وهي تتيح في الوقت نفسه الفرصـــة لمواجهة المسلمين ومنظماتهم بالعديد من الأسئلة الحرجة التي تشغل المجتمع والدولة، ليزداد تفهم المسلمين لحاجات محيطهم ومخاوف مجتمعهم. وكثيراً ما يدور الـــنقاش بشكل حاد متصادم، إلا أن هذا يفتح أمام المسلمين فرصة أخرى – سوى القضاء – ليصلوا إلى مطالبهم من خلال كسب تفهم الآخرين ونيل تأييدهم.

ثالثاً: تأهيل الأئمة

يعـــد تأهيل وتكوين الأئمة والدعاة من أكبر مشكلات التعايش في هذا المجتمع، فمعظمهـــم لا يجيدون إلا اللغة التركية، و لم يتم إعدادهم للتعامل مع الظروف القائمة في ألمانـــيا. وهـــم يُستقدمون من تركيا عن طريق أكبر رابطة تركية (الاتحاد التركي الألمـــاني لإدارة الشؤون الدينية) (DITIB) ثم يُستبدل بهم سواهم من تركيا بعد أربع ســـنوات. وهـــم لا يستوعبون الوسط الذي يعيشون فيه، ولا يمكنهم تفهم ظروف الشـــبيبة الناشئة في هذه البلاد، ولا مخاطبتهم، فهم بذلك يُصَعِّبون اندماج هذا الجيل بدلاً من أن يكونوا عامل إنجاحه وتسريعه.. وتجد الجهات الألمانية صعوبات كبرى في الاتصال بهؤلاء الأئمة، مما يدعو إلى قطع الصلة واستمرار المخاوف والأحكام المسبقة.

ولقـــد لفـــتُّ نظر إدارة الشؤون الدينية في أنقرة إلى هذا الوضع، خلال زيارتي لتركـــيا في أكـــتوبر ٢٠٠٢م، ووجدت تفهماً لديهم واستعداداً لحل المشكلة. وتم الاتفاق مع الإدارة على تأهيل الأئمة قبل مجيئهم إلى ألمانيا، للتكيف مع محيط عملهم وعلى إقامة مؤتمرات لهم في ألمانيا لتحسين صلتهم بالمجتمع الألماني.

وهكذا أقمنا في يونيو ٢٠٠٣م أول مؤتمر لأئمة هذه الرابطة، شارك فيه (٥٥) إماماً، بالإضافة إلى شخصيات من الطائفة اليهودية والنصرانية وشخصيات حكومية لمناقشة تحسين التعايش في المجتمع الألماني.

واعتبر هذا المؤتمر الذي شاركت الحكومة الاتحادية في تغطية نفقاته مؤتمراً مفيداً وناجحـــاً. وخطـــط لعقد أربعة مؤتمرات أخرى يتم خلالها ترجمة المداولات ترجمة فورية باللغتين التركية والألمانية.

ومـــن مســـتلزمات تأهـــيل الأئمة والدعاة، بالإضافة إلى تعلمهم اللغة الألمانية، معرفتهم بأساسيات الدين والدولة والمجتمع في هذا المحيط الجديد.. وإذا لم يتم تأهيلهم بهذا المستوى فإنهم سيلجأون إلى الانكماش من المجتمع الأوروبي والانطلاق دونه.

لـــذا فإنـــنا نقدر أن لهذا التأهيل أولوية كبرى، ومن الضروري كذلك إنشاء كراسي لتعليم الإسلام في الجامعات الألمانية تمكّن من تأهيل وتكوين الأئمة ومدرسي مادة الإسلام في المدارس الألمانية.

وهناك بوادر في هذا المجال في جامعة «فرانكفورت» وجامعة «مونستر».

يجـــب على المستوى البعيد تأهيل وتكوين الأئمة في ألمانيا، أو في أقطار أوروبية أخـــرى، فهذا وحده مظنة إيجاد جو من التفهم الناقد للمجتمع الألماني وللجماعات الإسلامية المقيمة فيه، ومظنة تبين طريق التعامل والتعايش المشترك.

رابعاً: مهام وواجبات

الجهل بالآخر - وهو موجـــود لدى الطرفين - هو أكبر معوقات التعايش، لذا لا بـــد مـــن إجـــراء حملة توعية مكثفة في المدارس والمساجد والكنائس والجامعات والإعـــلام. ولا يمكـــن الاستغناء عن التبادل الحضاري والحوار الديني للقضاء على المخـــاوف ولإزالـــة الأحكـــام المســـبقة. وهذا يؤكد أهمية «الفرق الإبراهيمية» و«ملتقيات الإسلام» و«مؤتمرات تأهيل الأئمة»، ويؤكد كذلك أهمية «يوم المسجد المفتوح» والدعوات المتبادلة في رمضان وعيد الميلاد والأعياد الأخرى.

وهناك مستلزمات أساسية لضمان نجاح الجهود من أجل التعايش المشترك:

١- **يجـــب القبول بأسس الدستور**، وقواعده الأساسية، وفصل الدين عن الدولة، وعـــدم محاولة نقض هذه الأسس.. وحرية الدين الشاملة لإمكانية اعتناق دين، أو تغيير الدين، أو عدم اعتناق أي دين، هي من الحقوق التي يضمنها الدستور لكل إنسان.

٢- **يجـــب احـــترام تعددية الثقافات في ظل النظام الديمقراطي.** فألمانيا مجتمع متعدد الثقافات ومتعدد الأديان، وهذا حال معظم الأقطار الأوروبية الأخرى. وهذه التعددية سمة المجتمع الحديث، ويجب احترامها.

٣- **الحــوار الصــريح حول سائر المشكلات** أمر لا بد منه. فمن الطبيعي أن تنشأ تصورات مختلفة في المجتمع التعددي، ويجب أن نتعود على العيش في مجتمع يضم تصــورات عديدة وقد تكون متعارضة. وهذه التعددية هي صورة معبرة عن حيوية هذا المجتمع ومرونته.

٤- **يجب أن يدور الحوار بين ممثلي الأديان على قاعدة التساوي بين الجميع**، فليس للكنائس النصرانية أفضلية لمجرد اعتمادهم على أغلبيتهم العددية، ولا يجوز أن يُضَّطهد المسلمون لكونهم أقلية.

٥- **يجــب مقارنـــة المثل بالمثل والتطبيقات بالتطبيقات**، وليس من المقبول أن يخلط بين ذلك أثناء التحاور والنقاش.

٦- **الإخـــلاص وحسن النية** من مقومات نجاح الحوار، وكل ما يجانب ذلك مرفوض، ولا أمل في نجاحه؛ وليس من الصدق والإخلاص أن يطرح في مجال الحوار من الحجج والآراء عكس ما يطرح خلف الأبواب المغلقة. وكثيراً ما تتولد الصراحة والصدق والإخلاص من خلال التجربة على موائد الحوار.

٧- **يجب أن تتولد الثقة بين أطراف الحوار**، وأن توضع القواعد لحوار مستمر فعـــال. ولن يستمر الحوار ويكتب له النجاح إلا إذا وجدت الثقة المتبادلة بين ممثلي كافة الأطراف.

٨- يجــب أن يوجد **الاستعداد للنقد الذاتي، وإعادة النظر في الموقف الديني الذاتي**، ففي تاريخ جميع الأديان إنجازات عظيمة خالدة، وفيها كذلك أحداث مظلمة يجب الحديث حولها بكل انفتاح وصراحة.

٩- مـــن مقومات نجاح العيش المشترك والحوار البناء **رفض التطرف والعنف والتميـــيز والعنصـــرية والعرقية**، وفي كل دين شيء من ذلك، مع شديد الأسف. ويجب أن يؤدي الحوار إلى كبح هذه التصرفات المغالية والمتطرفة.

الأديـــان معرضـــة لاســـتغلالها مـــن قبل (البعض) لتأجيج نار الخلاف ولتبرير الصـــدام.. ولدى الأديان رصيد كبير يؤهلها لتأصيل العدل وترسيخ السلام، وهذه رســـالتها ومهمتها التي أرادها الله لها. لذا فإن الواجب الملقى على عاتقها هو دعم الـــتعايش الإيجابي في كل مجتمع، ودرء المخاطر والأهوال عنها. وسيُحكم على كل دين بقدر نجاحه في القيام بهذا الواجب العظيم.

- المراجع:

- Micksch, Jürgen; Schwier, Anja: Islam in europäischen Dörfern, Frankfurt/M. 2002
- Micksch, Jürgen: Abrahamische und Interreligiöse Teams, Frankfurt/M. 2003

المسلمون في أمريكا
سبيل الخروج من تداعيات الكارثة

الدكتور محمد وقيع الله أحمد(*)

في أمـــريكا تقاس قيمة كل أقلية بمدى إسهامها في عالم الفكر والبحث والتأليف، وهي جوانب ما تزال ضامرة في نشاطات المسلمين، وتحتاج إلى جهد حتى تبرز، فيقرأ الأمريكيون لهـــم بدلاً من أن يقرأوا عنهم مـــا يكتبه «الغير».. إن مسلمي أمريكا يحتاجون إلى فقه دعوي، يستنبطه فقهاؤهم، الذين تعمقوا في العلم الشرعي، وعاشوا بهذه البلاد، ومارسوا الدعوة على هدى وبصيرة، واكتسبوا خبرات ثرة في هذا المجال.

مقدمة:

لقـــد أُتـــيح للإسلام أن ينداح بسرعة وسهولة نسبية إلى شتى أنحاء العالم، وأن يستقر فيها استقراراً راسخاً، وذالك فيما عدا استثناءات قليلة تمثلها الأندلس وبعض جزائـــر البحر الأبيض المتوسط. أما انتقال الإسلام إلى العالم الجديد فقد تأخر كثيراً واكتنفـــته ومـــا تـــزال تكتنفه صعوبات جمة، أخَّرت وما تزال تؤخِّر عملية تغلغله وتأصله في تلك الأنحاء.

(*) باحث أكاديمي.. أستاذ العلاقات الدولية بفرجينيا.. (الولايات المتحدة الأمريكية).

ولـــيس من غرض هذه الدراسة التعرض التفصيلي لأطوار وصول الإسلام إلى أمـــريكا، ولكـــنها تتخذ من أثر العوامل المعاكسة، أو المعوقات، التي أسهمت في تعطـــيل انتشار الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية، إطاراً نظرياً للتحليل، وذلك ليتسنى النظر فيما إذا كان الوقت الحالي - لا سيما في أعقاب أحداث الحادي عشر مـــن ســـبتمبر - هو الوقت الأنسب لدراسة تلك العوامل المعاكسة وتحديد ملامح الأســـلوب الأمثل للتعامل معها والحد من قوها التأثيرية السلبية، وفتح المجال من ثم لاستقرار الإسلام، سلمياً وحضارياً، وبلا مشاكل مزعجة في البلاد.

تأثير العوامل المعاكسة

إن المســـتقرئ لـــتاريخ موجات الهجرة الأولى التي جاءت بالمسلمين إلى القارة الأمريكـــية عمومـــاً، والولايات المتحدة خصوصاً، يلاحظ أنه قد صاحبتها ظروف عصـــية لم يتمكن أولئك المهاجرون من تطويعها، بل تمكنت من تطويعهم وتذويبهم في المصـــهر الأمـــريكي، حتى غدوا مواطنين أمريكيين بلا هوية أصلية يعتدون بها، والقلائـــل منهم ممن أُتيح لهم الاحتفاظ بشيء من معالم الهوية الأصلية فإن حديثهم عـــنها لم يعـــد ســـوى حديث الذكريات البعـــيدة التي يحمـــلها شتى المهاجرون المتأمركون عن أوطانهم الأولى.

- المستكشفون الأوائل:

لقد جاء المسلمون الأوائل إلى أمريكا مستكشفين لهذه الديار القصية عن العالم القـــديم، بيْد أنهم لم يأتوا في ظروف نهضة صـــناعية ولا أوضاع تفوق علمي باهر، ولا جـــاؤوا بأعـــداد كبيرة بحيث تتم لهم الغلبة التامة، والسيطرة على المحيط الذي انتهوا إليه.

وقـــد أكثرت الوثائق التاريخية من ذكر أخبار الأقوام الذين هبطوا العالم الجديد قـــبل كولومبوس، فتُحدثنا الوثائق الصينية القديمة التي تعرضت للحديث عن مختلف الهجـــرات العالمـــية التي انتهت إلى أمريكا، مفصلة القول في هجرة بعض العرب المسلمين من أتباع دولة المرابطين المغربية، التي دامت بين القرنين الحادي والثاني عشر الميلاديين، فتقول: إن تلك الهجرة قطعت بحراً كبيراً خالياً من الجزر، ومخرت أمواهه لأكـــثر مـــن مائـــة يوم حتى انتهت إلى ما يعرف اليوم بأمريكا. وتعرضت الوثيقة للحديث عن حجم السفن التي امتطاها العرب، فذكرت أنها كانت أضخم عشرات المرات من السفن التي أتى بها المستكشف الإيطالي «كريستوفر كولومبس» [1]. وبقية مـــا جـــاء من تفاصيل الوثيقة يتفق تماماً مع ما أورده المؤرخ الإسلامي «الشريف الإدريســـي» عن رحلة عربية أخرى في كتابه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، الـــذي نـــال شـــهرة ضافية في السنوات الأخيرة، بشكل خاص، في أوساط بعض الباحثين والمؤرخين الغربيين.

والواضح في أمر هاتين الرحلتين أن أصحابها رجعوا أدراجهم حتى بلغوا ديارهم، وحدثـــوا أهالـــيهم أنهم قد التقوا بأمريكا أقواماً، كانوا قد وصلوها قبلهم، وألفوْهم يتحدثون العربية مثلهم تماماً، وتولوا أمر الترجمة بينهم وبين السكان المحليين.. وهنالك تفاصـــيل أخرى اهتم بســـردها «الإدريسي» بخاصة لا تهمـــنا في هذا السياق [2].. ولم تـــتحدث أي وثيقة لا حقة عن مصير العرب الأوائل، الذين استوطنوا أمريكا منذ القـــرن العاشـــر الميلادي، فيما تثير الافتراضات المرجحة بأنهم ربما اندمجوا تدريجياً في

(١) راجـــع تفاصـــيل مـــا جاء في الوثائق الجغرافية الصينية القديمة، التي يرجع تاريخها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين في ترجمتها إلى الإنجليزية بقلم:

W. W. Rockhill & Friedrich Hirth, «Chau Ju-Kua: His Work on The Chinese and Arab Trade in The Twelfth and Thirteen Centuries», entitled: Chu – Fan Chi (St. Petersburg, 1911) .

(٢) الشـــريف الإدريســـي، صـــفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبع في مدينة لبيدن المحروسة، بمطبعة بريل، ١٩٩٨م، ص ١٨٣-١٨٥.

السكان المحليين، وفقدوا مقوماتهم وثقافاتهم الذاتية، أو ربما اندثروا بفعل الحروب الطاحنة التي كانت تدور بين المجموعات الإثنية بأمريكا في ذلك الأوان.

وفي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي طرقت بعثة استكشافية إسلامية إفريقية أخرى شواطئ أمريكا، يقودها ملكٌ من مالي يسمى «أبو بكر»، كان غنياً غنى أسطورياً تحدث عنه الرحالة «ابن بطوطة» والموسوعي «القلقشندي» والمؤرخ «ابن فضل الله العمري». وقد قرر ذلك الملك أن يستخدم تلك الثروة الأسطورية فيركب ثبج البحر ليكتشف ما وراءه من الآفاق، وقد حكى المؤرخ «ابن فضل الله العمري» أنه سأل الملك ابن أبي بكر هذا المسمى «منسا موسى» عن سرِّ انتقال المُلك إليه، فأفاده قائلاً: «إن الذي كان قبلي يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك، فجهز مئين سفن، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم، فغابوا مدة طويلة، ثم عاد منهم سفينة واحدة، وحضر مقدَّمها، فسأله عن أمرهم، فقال: سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة واد له جرية عظيمة، فابتلع تلك المراكب، وكنت آخر القوم، فرجعت بسفينتي، فلم يصدقه، فجهز ألفاً للرجال وألفاً للأزواد، واستخلفني وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك، فكان آخر العهد به وبمن معه»(١).

وقد حقق في تفاصيل ما جرى لهاتين البعثتين الاستكشافيتين الإفريقيتين عالم الأنثروبولوجيا المعاصر البروفسور «إيفان فان سيرتيما» فأكد أن البعثة الأولى تحطمت على التيار المائي الاستوائي الذي يجري داخل المحيط قرابة سواحل فلوريدا، ورجَّح بشواهد أثرية لقبور أشخاص سود ترجع إلى تلك الفترة بالتحديد وصول البعثة الثانية واستقرارها في نواحي فلوريدا والمكسيك واختلاطها بالهنود الحمر هناك(٢).

---

(١) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (القاهرة: دار الكتب الخديوية، ١٩١٥م) ٥/٢٩٤-٢٩٥.

(٢) Ivan Van Sertima, They Came before Columbus: The African Presence in Ancient America Random house, 1976.

وربما كان بقايا هؤلاء الرجال هم أولئك السود الذين التقاهم «كريستوفر كولومبس» وتحدث عنهم في مذكراته عن الرحلة الثالثة، ووصفهم بأنهم كانوا سود البشرة، ويحملون أسلحة مذهبة، وأنهم أغنياء بما لهم من متاع[(١)] وأدوات، وربما تمت إبادة هؤلاء السكان لاحقاً ضمن الأقوام والسكان المحليين الذين أجهز عليهم المهاجرون الأوربيون، الذين توافدوا على القارة الأمريكية على إثر «كولومبس». وربما كانت المساجد الأثرية التي اكتشفت في كل من «نيفادا» و«تكساس» و«المكسيك» من بقايا آثارهم.

وقد ذكر «كولمبس» أيضاً في مذكراته، بتاريخ الحادي عشر من أكتوبر ١٤٩٢م، أنه ربما رأى مسجداً بمنارة طويلة قبالة الساحل الكوبي[(٢)].. و«كولومبس» يعرف المساجد جيداً؛ لأنه أتى من الأندلس المسلمة في عام سقوطها في يد النصارى[(٣)]؛ فإن كان ما رآه مسجداً بالفعل فلعله كان أيضاً من آثار أولئك الأفارقة المسلمين الذين هبطوا أمريكا قبل «كولومبس».

وأما غناهم الذي وصفه «كولومبوس»، ووصفه من قبله ابن بطوطة والقلقشندي وآخرون، فمع أنه أوصلهم إلى حواشي العالم الجديد، إلا أنه ظل غنىً «شيئياً» - بلغة مالك بن نبي، رحمه الله - لم يغن عنهم شيئاً، إذ لم يتحول إلى مادة ثورة صناعية تنتج ما يقابل ويكافئ السلاح الأوربي الحديث، الذي استخدم لاستئصال وجودهم من على التراب الأمريكي!

---

(١) Samuel E. Morison, *Journals and Other Documents on the Life and Voyages of Christopher Columbus*, Heritage Press, New York, 1963, P. 237.

(٢) The Journal of Christopher Columbus, Translated By Cecil Jane, Clarkson N. Potter, New York, 1969, P. 41-42.

(٣) وكان كولومبوس في الحقيقة طليعة حملة صليبية جديدة، نوعية الطابع، رنت إلى الوصول إلى القدس عن طريق الهند، فوصلت من حيث لم تتوقع إلى ما يعرف بأمريكا اليوم! راجع في تفاصيل ذلك:

Rafael A. Guevara Bazan, Some notes For History Of Relations Between Latin America, The Arabs And Islam " The Muslem World, October, 1971, P. 286-287.

- آثار الموريسكيين:

وفي ظــروف التضييق على مسلمي الأندلس، من قبل محاكم التفتيش النصرانية، فــرت أعداد متكاثرة منهم إلى المغرب العربي، حيث استقروا هناك. بيد أن أعداداً وفــيرة أخــرى قطعت المحيط الأطلسي واستقرت في أمريكا. وهؤلاء وُجدت آثار لغــتهم العربية مختلطة - حتى اليوم!- بلغة الهنود الحمر، ســكان أمريكا الأصليين، كمــا أكد ذلك بشكل قاطع أستاذ جامعة هارفارد الأسبق البروفسور «ليو واينر» الذي كان معروفاً بإجادته لعلم اللغات وإجادته لأكثر من اثني عشر لغة عالمية.

وقــد ذكر «كولمبس» أيضاً أنه رأى أقواماً يشبهون أهل الأندلس، واستغرب مــن انتشار الحجاب في أوساط نسائهم. وذكر مكتشف أسباني آخر هو «هيرناندو كورتيز» أن أولئك النسوة كن يرتدين «البراقع» التي كانت ترتديها نساء الأندلس. وذكر المكتشف الإسباني «فيرناند كولومبس» أنهن كن يرتدين ملابس تماثل ملابس نساء غرناطة، بينما كان أطفالهن يرتدون أيضاً أزياء أطفال غرناطة. (١)

وبدهــي أن أمــثال أولــئك المستضعفين الفارين بدينهم ودنياهم لا يرتجى لهم مســتقبل آمن في ظل ما دهمهم بوصول حملات أعدائهم الأسبان إلى الدنيا الجديدة، فقــد استؤصــل وجودهم بعد ذلك بوقت قليل، وقد تم ذلك قبل أن يتم استئصال أصدقائهم الذين أنِسُوا بهم في الغربة من الهنود الحمر. فمن أولئك الأندلسيين المعذبين مــن اســتتيب، وقبل اعتناق النصرانية، على مستوى الظاهر على الأقل، ومنهم من أُعــدم حرقاً بالنار، ومنهم من أعيد إلى أسبانيا ليحاكم هنالك أمام محاكم التفتيش. فقد كان المطلوب، كما تقول الوثائق: «ألا يوجد أي مجال لنشر الدين المحمدي»(٢)

---

(١) Youssef Mrouch, Pre – Columbian Muslims in America, "The Message" July, 1997. P. 19.

(٢) جاء هذا النص في خطاب رسمي أرسله المسؤولون الأسبان إلى أحد ولاتهم بأمريكا، وقد ضمه الكتاب التوثيقي القــيم: «الموريســكيون الأندلســيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية (١٤٩٢-١٦٤٠م)» مع ملحق بدراسة عن الموريســكيين بأمريكا، من تأليف لوي كاردياك، ترجمة عبد الجليل التميمي (تونس- زغوان: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، ١٩٨٩م) ص ١٥٢.

عن طريقـــهم في أمريكا. وكما يقـــول «لوي كارديناك» فـــإن: «ديوان التحقيق لم يفتش فقط عن القضايا المتعلقة بالمسلمين، بل ما وراء كل أثر إسلامي لدى الفرد المسيحي» في العالم الجديد[1]. فكان المقصود في الجملة منع تأثير المسلمين في عقائد النصارى الأمريكيين ولو من بعيد.

- استرقاق الأفارقة المسلمين:

وبعـــد اســـتقرار أوضاع المهاجرين الأوروبيين على نحو ما في أمريكا، اجتلب هؤلاء، عن طريق تجارة الرقيق، ملايين السود الإفريقيين إلى هناك، ثم واصلوا مهمة اقتلاع الإسلام ولغته العربية من أوساط أولئك المسترَقين، فقد كان أكثر من نصف أولئك الأرقاء الأفارقة مسلمين، انتزعوا من ممالك غرب أفريقيا، التي كانت حواضر عامـــرة في ذلك الحين. وقد صمد أكثر أفراد الجيل الأول من المسترقين على دينهم، إلا أن أهـــوال الـــرق وأحكامه المذلة المهينة، التي بعثرت أسرهم وبددت وحداهم الصغيرة، بدأت تزعزع انتماء الأجيال اللاحقة منهم إلى دين الإسلام، و ذلك إلى أن اندثر انتماؤهم إليه نهائياً مع مطالع القرن العشرين!

وقـــد حفظت لنا وثائق قليلة سيراً ذاتية مثيرة، كتبت باللغة العربية، لأفراد من الجـــيل الإفريقي المســـلم الأول الذي اجـــتلب إلى أمريكا وحافظ على إيمـــانه[2]، كمـــا حفظـــت لنا وثائق أخرى قصص تحول ذراريهم عن دين الإسلام.. وتحفظ سجلات أسماء السود الأمريكيين الحاليين - وغالبيتهم من غير المسلمين- أسماءً عربية كثيرة في أوساطهم، تشير إلى أصولهم الإسلامية العربية القديمة المندثرة.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٢) يمكن مراجعة نماذج من السير الذاتية للرقيق الإسلامي في أمريكا في عدة كتب صدرت خلال العقدين الأخيرين أهمها وأوسعها:

Austin Allan D. African Muslims in Antebellum America: A Sourcebook, Garland Publishing, New York ,1984.

- الهجرات العربية الأولى:

وفي نهايـــات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين جاءت الهجرات العربية الأولى مـــن ســـوريا القديمــة «تعادل لبنان وفلسطين وسوريا والأردن في الجغرافيا الحالـــية» بأفواج كبيرة من الفارين من القهر السياسي التركي والراغبين في تحسين أوضـــاعهم المعيشـــية، وكانت غالبية أولئك المهاجرين من أشباه الأميين وأنصاف المتعـــلمين، وانخرط معظمهم في الأعمال الهامشية والتجارة بالمفرق، وتزوج الكثير منهم بالأمريكيات، وأنجبوا منهن جيلاً هشاً واهناً لم يتزود بالمقومات الثقافية العربية الإســـلامية الـــتي تكفـــي لصموده في بوتقة الإذابة الثقافية الأمريكية، وكان نفوذ الأمهـــات أكبر بكثير من نفوذ الآباء على ذلك الجيل، فلم يكتب لأكثره أن يحافظ على تراث الآباء.

وتذكـــر بعض الأدبيات التي تناولت بالتحـــليل أحوال ذلك الجيل، أن معـــظم أفراده لم يهتموا بشيء يذكر من الشعائر الدينية، ولو على سبيل المحافظة التقليدية على المظاهـــر والأعـــراف؛ ولما اتخذ بعض المحللين الاجتماعيين والأنثروبولوجيين من أداء صـــلاة الجمعة وصوم رمضان معيارين لأدنى درجة من درجات الالتزام الديني، كانت حصيلة ذلك الجيل منها ضعيفة للغاية، و بذلك ترشحوا بجدارة لقدر الذوبان[١].

ويذكـــر بعـــض من درسوا تلك المرحلة أن أبناء المسلمين فقدوا بسرعة ملكة التحدث باللغة العربية، واتخذوا أسماءً نصرانية اتقاءً لمشاعر التمييز، وتزوجوا من غير المســـلمات، وبخروج أولئك الأبناء عن نطاق أسرهم نســـوا كل ما يتعلق بالعروبة أو الإسلام، وكانت المحصلة أن هُجرت المساجد القليلة التي بناها جيل الآباء، بحيث لم تجد من يغشاها في أواخر الأربعينيات.

(١) Sameer Abraham & Nabeel Abraham, Eds Arabs in The New World : Studies on Arab American Communities, Wayne State University , Detroit , 1981 P. 114.

ويذكر البروفسور «نبيل إبراهام» الذي عاش منذ طفولته بديترويت أن مساجد تلـــك الناحـــية أضـــحت أماكن للتسلية واللهو والمكاء والتصدية والرقص، حيث استغلت ساحات المسجد الواسعة لتلك الأغراض(١). وقد أُتيح لكاتب هذه السطور في عـــام ١٩٨٩م أن يزور مسجدين قديمين بالشمال الأمريكي، بيع أحدهما وتحول جزء منه إلى صالة رقص، وآخر خصصت إحدى قاعاته للرقص المختلط. وقد تمكن المسلمون بحمد الله من تطهير المسجد الثاني، واستخلاصه للصلاة من جديد، وتبقى عليهم أن يستعيدوا المسجد الأول عن طريق الشراء، بعد أن باعه أحفاد المهاجرين الألبان تخلصاً منه، بعد أن هجروا فرض الصلاة واتبعوا الشهوات.

هذا وقد استغلت جهات التنصير الأوضاع اللاهية بالمساجد، كما يذكر بعض مـــن تابعوا تاريخ تلك الفترة، فدخلوها من أجل أن ينصروا المسلمين من داخلها، فكانت تلك ذروة المأساة أن يُلاحق المسلمون في مساجدهم، وأن يُذوّبوا من هناك في المصهر الأمريكي(٢).

- أمة الإسلام الضائعة في أمريكا:

وفي هذا الأوان، الذي شهد تساقط المسلمين المهاجرين و ذوبانهم، كانت تنشأ في أمريكا حركات إسلامية داخلية وسط الأقلية السوداء، فقد وجد الإسلام قبولاً لدى كثير من السود، الذين كانوا قد خرجوا لتوهم من ربقة الرق في العقود الأخيرة مـــن القرن التاسع عشر، وتأسست عدة حركات لنشر الإسلام وسطهم، من أهمها حـــركة المسلمين الموريسكيين التي تأسست بنواحي «نيو آر ك» في عام ١٩١٣م، وقد تزعمها «نوبل ودرو علي» الذي قام بترجمة القرآن ترجمة زائفة أفسدت مراميه

(١) Nabeel Abraham & Andrew Shryoch ,Eds. Arab Detroit :From Margin to Mainstream, Wayne state University Press , Detroit, 2000, P. 296.

(٢) El- Kholy, M. M. The Arab Muslims in the United States of America: Religion and Assimilation, College University, New Haven, Conn, 1966, p.296.

ومعانيه جلها[1]. ثم أفسد رسالته جميعاً بادعائه للنبوة بعد ذلك، زاعماً أنه رسول الله إلى السود مثلما كان محمد ﷺ، رسول الله إلى العرب!

و لم تخـــل بقـــية الحـــركات الإســـلامية وسط الســـود من مثل هذا التخليط الغليظ، لا سيما تلك الحركة التي حملت أسماء متعددة أهمها «أمة الإسلام الضائعة »، وقـــد تزعمها «أليجا محمد» في ديترويت، وقد تأسست في ١٩٣٤م على أساس رد فعل عنصري واضح يقول بتفوق الجنس الأسود على الجنس الأبيض، ويقصر اعتناق الرسالة الإسلامية عليه، حيث لا يجوز للبيض اعتناق الإسلام، ولا دخول «معابد» تلـــك النحلة العجيبة التي نزعت فيما بعد نحو العنف والتمرد وإنشاء مجتمع منعزل تماماً عـــن المجـــتمع الأمريكي الأبيض، وشوَّشت بتلك النـــزعات الوخيمة على مضامين الرسالة الإسلامية ومستقبل الدعوة إليها، حيث بدا لكثير من الأمريكيين أن الإسلام دين عنصري خاص بالجنس الأسود وحده.

وظلـــت الدعوة الإسلامية في أمريكا مرتبطة لزمان طويل بالأقلية السوداء، حتى توهم الكثيرون أن الإسلام دين عنصري المنـــزع، فعاق ذلك حركة انسياب الدعوة في أوســـاط البيض، كما عاقها أيضـــاً تَرَفُّع أوســـاط البيض في الزمان الماضي عن كـــل مـــا يتعلق بثقافة السود وأنماط ثقافاتهم وسلوكياتهم. و لم يقصِّر كثير من قادة الحـــركة الإســـلامية الـــتي تدعى «بالســـوداء» بدورهم في مجهود تنفير البيض من الإســـلام عندما أعلن بعض غلاتـــهم أن إسلام البيض غير مقبول على الإطلاق؛ لأنهم جنس «ملعون» عوقب ببياض اللون ومسخ خلقه بعد أن كان أسود سوياً يوم الخلق الأول.

---

(١) عنوان تلك الترجمة هو: « The Holy Koran of the Moorish Science Temple of America» والغريب أن بعض الدارسين يستخدمها على أنها ترجمة صحيحة للقرآن الكريم!

وقـد حـاول بعض الدعاة المسلمين الجسورين في صفوف البيض أن يتجاوزوا تلـك العقبات العصية، لكن من غير كثير توفيق. وأول هؤلاء بلا ريب هو الشيخ الداعية «محمـد الكسـندر رسل ويب، ١٨٤٧-١٩١٦م»، ذلك الرائـد الذي لم تدرس إسهاماته التاريخية جيداً حتى الآن.

ولـد «محمـد الكسندر» في نيويورك في عام ١٨٤٧م لأب كان يعمل بنشر الصـحف. ولمـا كان الوالد غنياً مقتدراً فقد بعث بابنه إلى المدارس الخاصة ذات المستوى التعليمي والتثقيفي الراقي، وهناك طور الابن حسًّا أدبياً متميزاً واستولى عليه غـرام القـراءة والكتابة البحثية والفكرية والأدبية. ونشر عدداً وفيراً من المقالات والأبحاث والقصص القصيرة، وورث مهنة أبيه في نشر الصحف، وزاد عليها بشرائه لصحيفة «The Missouri Republican» وهي إحدى كبريات الصحف الأمريكية في ذلك الأوان، وظل يصدرها لمدة ثلاث سنوات، ورأس تحرير عدة صحف بعد ذلك في كل من «سانت لويس» و«شيكاغو».

وفي عام ١٨٨٦م دخل في إطار خدمة السـياسة الخارجـية الأمريكية عندما عيـنه الرئيس الأمريكي «كليفلاند» قنصلاً بالبعثة الدبلوماسية الأمريكية في الفلبين، ولم يسـتغرق العمـل الدبلوماسي اهتمامات «رسل» جميعاً إذ طغى عقله الفياض فشـمل بتأملاته الأديان الشرقية التي تعرَّف عليها لأول مرة هناك، وانفعل بصورة خاصـة بعقـائد الديـن الإسـلامي ومبادئه التشريعية، فخصَّها بمزيد من الدرس والفحـص، وقـرر عـلى إثر ذلك أن يعتنق الإسلام، ولم يَرُدَّه عن ذلك لا منصبه الدبلوماسي الراقي، ولا وَهْلَة قومه البيض واستغرابهم لما اعتراه، وخطا خطوة أخرى باتخاذه قراراً بالاستقالة من العمل الدبلوماسي المرموق ليتفرغ بالكلية لنشر العقائد الإسلامية في الولايات المتحدة.

وقــد تزود «رسل» لتلك المهمة بزاد فكري وعلمي واسع، وعقد حلقة اتصالات شملت مفكرين إسلاميين هنود مثل الشيخ «بدر الدين عبد الله خير»، ودعاة من الجزيرة العربية مثل الشيخ «الحاج عبد الله عرب» وهو تاجر من المدينة المنورة تبرع بثلث ثروته لصالح مشروع نشر الإسلام في أمريكا.. وأنشأ «محمد» عقب رجوعه إلى بلاده منظمة خيريـــة دعوية سماها: «The American Islamic Propaganda» وألف كتاباً لطيفاً من نحـــو سبعين صفحة أسماه: «Islam in America»[1] كرسه بكامله لتعريف الأمريكيين بالإسلام ودحض الشبهات المنتشرة بينهم عن عقائد الإسلام وشرائعه.

ولكـــن عـــلى الرغم من قوة العارضة الفكرية لمحمد رسل، واقتداره الصحفي العـــالي، وكـــثرة الأموال التي كانت بحوزته، ومكانته الملحوظة في طبقات المجتمع الأمـــريكي، فقد كان حظ دعوته من النجاح ضئيلاً جداً، و لم يتمـــكن من تأسيس حـــركة إســـلامية يعتد بها، ولا بناء مساجد أو مؤسسات تعليمية ثابتة، و لم يخلف أنصـــاراً أقوياء يحملون دعوته من بعده. وكل ما بقي من آثاره هوكتابه ذو القيمة التاريخية، والأثر الريادي لتلك المحاولة الجسورة لاقتحام عالم البيض بدعوة الإسلام.

- مؤشرات التأسيس والتوطين:

وظـــل حـــظ الدعوات الإسلامية بكافة أطيافها من النجاح ضئيلاً في المعترك الأمريكي إلى ستينيات القرن الماضي، حيث بدأ نمط الهجرات الإسلامية إلى أمريكا يـــأخذ في التحول الإيجابي، فأصبح الغالب على المهاجرين أنهم من أصحاب التعليم الأفضـــل، حـــتى بالمقارنة مع المستوى الأمريكي العام، ونال الكثيرون منهم مراكز مهنية وعملية مرموقة، وتمتعوا بمستويات اقتصادية ممتازة. وقدكانت تلك هي الحقبة

---

(١) Mohammed Alexander Russell Webb, Islam in America: A Brief Statement of Islam and Outline of American Islamic Propaganda, Edit. by Muhammed Abdullah al-Ahari Bektashi Magribine Press of Chicago.

الـــتي انبثق وتعالى فيها نور الصحوة الإسلامية في المشرق، فحمله أخيار المهاجرين معهم إلى المغرب.

وعـــلى أيـــدي هؤلاء المهاجرين من أصـــحاب الحظـــوظ التعليمـــية العـــليا بدأت مجهـــودات تأســـيس وتوطين العمـــل الإســـلامي بالمهـــجر، حيث ترسخ وجوده بعد مجاهـــدات كثيرة بمنظمـــات قويـــة مـــثل اتحاد الطـــلاب المســـلمين «The Muslim student's Association of The United States & Canada »، والحلقـــة الإســـلامية لشمال أمريكا «The Islamic Circle of North America»، واتحاد العلماء الاجتماعيين المسلمين «The American Muslim Social Scientists»، واتحاد الأطباء المسلمين، «The Islamic Medical Association».. ونشأت المدارس الإسلامية ذات الدوام الكامل، من صف الحضانة إلى صفوف الدكتوراه.

وتوجـــد بأنحـــاء الولايات المتحدة الأمريكية اليوم نحو ثلاثمائة مدرسة إسلامية للتعلـــيم العـــام، وست مؤسسات للدراسات الجامعية وفوق الجامعية، هي الجامعة الأمريكـــية المفـــتوحة، والجامعـــة الإســـلامية العالمية، وجامعة الإنترنت، والجامعة الإسلامية بشيكاغو، ومعهد العلوم الإسلامية والعربية بأمريكا، ومدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية والإسلامية، كما توجد عدة مراكز بحوث متقدمة متخصصة في الفكـــر الإســـلامي بتجلـــياته السياسية والاجتماعية، أهمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بفرجينيا.

وازداد عـــدد المساجد والمراكز الإسلامية في خلال العشرين عاماً الماضية بأكثر مـــن مائـــتين بالمائة، حيث بلغ قريباً من ألفي مسجد ومركز إسلامي، وتزايد عدد حضور المؤتمرات الإسلامية الكبيرة متضاعفاً بنحو عشرة أضعاف عما كان عليه نحو عشرين عاماً فقط.

كارثة سبتمبر.. سبيل الخروج

ولكن عندما بدا أن الوجود الإسلامي قد أخذ يترسخ فعلاً ، ووجد الاعتراف المطلوب على الأصعدة السياسية والعلمية والدينية كافة، جاءت كارثة الحادي عشر من سبتمبر، لتصيب ذلك الوجود بمثل الهزة الصاعقة التي أصابت بها الأبراج والمباني الشاهقة التي دمرتها، وقد أصيب الوجود الإسلامي بمثل ما أصيب به المجتمع الأمريكي من علامات الحيرة والتخبط والتراجع، وأصبح المسلمون محل الاشتباه لفترة من الزمن، وتباينت رؤاهم وخططهم في سبيل الخروج من أجواء الأزمة المحدقة بوجودهم، والمهددة لمستقبلهم في الصميم.

وقد تباينت تلك الرؤى والخطط، من حيث التشاؤم والتفاؤل، ومن ثم من حيث اللجوء إلى العزلة، والحذر، أو الإقدام نحو ساحة الدعوة والتفاعل الحي مع المجتمع الواسع الذي يعيشون بين ظهرانيه. وفيما يلي نحاول رصد بعض الرؤى والخطط، ومتابعة بعض خطوات ردود الفعل الإسلامي على عقابيل كارثة سبتمبر، لنتبين بعض محاولات مسلمي أمريكا لتجاوز ذلك الحدث الفادح، ومعالجة سلبياته القاتلة.

لقد كانت أهم سبل الخروج من الكارثة تلك التي جاءت من طرف العقلاء، فقبل أن يفيق الأمريكيون من هول الحادي عشر من سبتمبر بادر بعض أعيان المسلمين ووجوههم بفتح باب التواصل والتفاكر مع مختلف الأوساط الأمريكية، واشتد السعي الحثيث لإقامة مؤتمرات الحوار عبر الأديان « Interfaith Dialogue »، وافتتاح جلسات الاستقبال في المساجد والمراكز الإسلامية « Open - Mosque»، وتكاثرت لقاءات المسلمين التداولية مع منظمات حقوق الإنسان، وجمعيات حماية الحقوق المدنية، والمنظمات المناهضة للتفرقة العنصرية، والمنظمات الكنسية واليهودية، وسارعوا بتقديم العون للفقراء، والتبرع بالدم للمصابين والمرضى، وأسهموا في بناء

بعض المساكن لمحدودي الدخل، وازداد اهتمامهم بشؤون السياسة الداخلية والشؤون المحلية والاحتكاك بالمواطن الأمريكي العادي، على مستوى أماكن الدراسة، والعمل، والسكن، والتسوق، وأبدوا اندماجاً أكبر في المجتمع الأمريكي، من خلال رفع الأعلام الأمريكية أحياناً على السيارات والمنازل وبعض المدارس والمراكز الإسلامية.

ولم يكن من اليسير على الجاليات الإسلامية بأمريكا أن تمضي قدماً في اتخاذ كل تلك الخطوات، إذ لم يخل الأمر من جدل شديد بشأن مشروعيتها، وجدوى استخدامها، ولكن تمخض الجدال بالحسنى في النهاية عن حلول وسطى ناجعة، وكان نتاج الجدال إيجابياً من ناحية أخرى مهمة، إذ أدى إلى منع الأقلية الإسلامية المتشددة والمتطرفة من احتكار تمثيل المسلمين بآرائها الشاذة وأفعالها الشنيعة على المستوى القومي الأمريكي، فتعرف الأمريكيون من ثم، على نحو واسع، وربما لأول مرة، على الآراء الإسلامية المعتدلة، وغير المنفعلة بأجواء العداء والصراع.

- نحو مزيد من الاتحاد:

وبينما ظلت غالبية المسلمين ينفتحون بإقدام على المجتمع المحيط، فقد قرروا كذلك تقوية صفوفهم من الداخل، وهكذا تمخضت رجَّة سبتمبر عن قدر كبير من التلاحم والتوحد بين مكونات المجتمع الإسلامي الأمريكي، حيث انتبه الجميع لوجود الثغرات وأوجه القصور، وتأهبوا لتلافي الأخطار والخطوب، ونأوا عن دواعي الفرقة والشتات التي مزقت صفوفهم شر ممزق في الماضي، وغدوا يصونون قوتهم بتلك الوحدة المكينة، ويقدمون بها أنموذجاً مثالياً في التآلف والتآخي للمجتمع الأمريكي.

وهذا جهد كان قد بدأ سلفاً ولكنه تطور كثيراً في الآونة الأخيرة، بحيث أصبح كل مسجد أو مركز إسلامي أميركي يشهد ما كان يسميه من قديم «مالكولم إكس» بعمى الألوان البشرية في الإسلام، حيث ترى في صف الصلاة الواحد الأشقر

يقف جنباً إلى جنب مع الأسمر والأصفر، والأخضر، والأحمر، هذا بينما لا تزال أكثر كنائس أمريكا منقسمة على أسس لونية وعرقية صارخة، فكنائسٌ للسود، وأخرى للبيض، وأخرى للصينيين، وأخرى لليابانيين وغيرهم، وفيما لا تزال أديان أخرى تختص بعناصر عرقية وقومية معينة لا تتعداها ولا تجد في معابدها سوى أفراد من تلك الأعراق والقوميات، وهنا يمكن أن نذكر في سياق هذه الملل ذات القومية الواحدة ملة منسوبة إلى المسلمين هي جماعة «أمة الإسلام The Nation Of Islam» بقيادة «لويس فراكان»، حيث لا تزال تصرُّ أن الإنسان الأبيض غير مؤهل لاعتناق الإسلام. ولكن تبذل جهود كبيرة من قبل المسلمين لحمل تلك النحلة المتعصبة على التخلي عن ذلك التعصب العرقي الذميم، بحسبانها نحلة محسوبة على الإسلام والمسلمين في النهاية، ويمكن أن يؤدي تطرفها في هذا المنحى إلى ضرر شديد بدعوة الإسلام.

وفي سبيل تدعيم جهود التلاحم والتوحد بين المكونات الإسلامية الأمريكية انعقد في أول سبتمبر ٢٠٠٤م، أضخم مؤتمرين في تاريخ الوجود الإسلامي بأمريكا، الأول هو مؤتمر الحلقة الإسلامية لشمال أمريكا: «Islamic Circle of North America» والثاني: مؤتمر الجمعية الأمريكية الإسلامية «American Society of Muslims»، وقد حضرهما معاً نحواً من ثمانين ألف مسلم، وكان الهدف الأكبر من عقدهما في وقت واحد، ومكانين متقاربين، على بعد ثلاثة أميال من بعضهما بعضاً، بمدينة شيكاغو، تمكين أفراد كل مجموعة من التعرف الوثيق على ما يدور في المجموعة الأخرى من أفكار ونشاطات، وتنسيق الجهود السلمية القانونية لمحاولة تعديل القوانين الأمنية الجديدة التي تستهدفهم أو تضيِّق عليهم، والعمل على تحديد محاور العمل المشترك في سبيل الدعوة، مع مراجعة الخطاب الدعوي مراجعة جادة أمينة، بحيث لا يتخلى عن الثوابت الشرعية، ولا يتقوقع في دوائر الجمود المشتط.

- الغلو في مفهوم البراء:

وقد تجلى واضحاً أن كفكفة الخطاب الغالي يأتي كمتطلب قبْلي لاستئناف مسار الدعوة كما كان، فهنالك طائفة من أهل التشدد، بعضها من المسلمين الجدد الذين لم تستقر حقائق الإسلام على نحو صحيح في أذهانهم، وبعضها من القدامى من هواة الغلو ومدمنيه، تنحو نحو إقامة الفوارق بين الإسلام وأنماط الحياة الأمريكية، حتى المقبول منها، وتجاوز ذلك لتنكر على الأمريكيين ركائز حياتهم السياسية والاجتماعية. ولا يكاد يحس بعض هؤلاء بأنهم أضياف طارئون على المجتمع الأمريكي، ولا أنهم سبق ووقّعوا على تعهدات باحترام دستور البلاد وقوانينها، ولذلك تراهم لا يجدون فرصة سانحة إلا وعبروا عن شجبهم واستهجانهم للديمقراطية، والإبانة عن اختلافها عن النظام السياسي الإسلامي، وأن التصويت كفر، و ما أشبه ذلك من الفتاوى الجزافية.

وتتجاهل هذه الطائفة كل ما يجمع بين المسلمين وغيرهم، وتشكك في أي مسعى للتفاهم مع أهل الديانتين الكتابيتين بدعوى أنها تتضمن تفريطاً في حق الإسلام ومبادئه، وذلك على الرغم من أن المشتركين في تلك الملتقيات الحوارية ما فتئوا يحرصون على الإعلان في كل لقاء عن أن تلك اللقاءات لا تهدف إلى مزج الأديان بعضها ببعض، ولا لتقديم التنازلات المتبادلة للوصول إلى حلول وسطى، وإنما للتعاون فيما يتفق فيه الناس ابتداءً كمقاومة الفواحش وعلى رأسها الخمر، والمخدرات، والشذوذ الجنسي، ووباء حمل اليافعات، وعصابات الإجرام التي يقودها الأحداث الجانحون، وغير ذلك مما يتأذى منه جميع المؤمنين المحتشمين المحافظين.

وليس لطائفة التشدد من أهل الإسلام أدنى حجة لوقوف ذلك الموقف المعارض، طالما أن لرسول الله ﷺ سنة ماضية فيه، في حلف الفضول، الذي وقف فيه مع كفار

قـــريش لمنع الظلم، وأعلن ﷺ بعد النبوة: أنه لو دعي إلى مثله في الإسلام لأجاب، وطالمـــا اتضـــحت فوائـــد التفاهم مع أهل الأديان الأخرى لصالح المسلمين، حيث يـــتعرف غير المسلمين عبر تلك الطرق على طرف من أدبيات المسلمين وأفكارهم وتوجهـــاتهم في مكافحـــة الفســـاد، بوصفهم مواطنين مسؤولين مثلهم مثل سائر المواطنين الحادبين على مصالح البلاد التي يقطنونها.

ولطالمـــا اشـــتطت مواقـــف هؤلاء الغلاة وعلت أصواتهم في صخب شديد في شـــجب الآخـــرين المبادرين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحسنى في المجتمع الأمـــريكي. ولطالمـــا اعتقدوا أنهم وحدهم الممثلون للإسلام الصحيح، ودأبوا على نصـــب أجندة الخلاف والشقاق والدعوة إلى البراء، والتميُّز، والاستعلاء، والمنابذة، والاســـتعداء، وطـــرح القضايا غير المألوفة بين الناس، وذلك إلى أن دهمتهم عقابيل أحداث سبتمبر فأدركوا حينها أنهم مجرد ظاهرة صوتية ما عاد المجتمع الإسلامي يأبه لهـــا ولا يرجو منها خيراً كثيراً، بل يحذر من شرها على توجهاته ونشاطاته السلمية الإيجابية في الوسط الحضاري التعددي الأمريكي.

هذا وإذا كان استشراء خطاب الغلو (الغالين) قد انكمش بتهديد العامل الأمني في المقـــام الأول، إلا أن فكره الكامن يبقى في حاجة إلى علاج جذري. فالمعالجات الجزئـــية المقدمة لبيان حدود مفاهيم ومرامي ودلالات قضايا الولاء والبراء، والعزلة الشعورية، هي معالجات نظرية لا تنظر إلى الواقع المحيط ولا تلامسه إلا قليلاً. ويحتاج مســـلمو أمريكا إلى فقه دعوي جديد، يستنبطه فقهاؤهم المحليون، الذين تعمقوا في العـــلم الشـــرعي، وعاشوا طويلاً بهذه البلاد، ومارسوا الدعوة على هدى وبصيرة، واكتسبوا خبرات كثيفة وثرة في هذا المجال. وتشتد الحاجة لذلك الفقه الدعوي على أســـاس أن مســـلمي أمريكا لا يزالون مجرد أقلية صغيرة تمارس حياتها في وسط غير

إسلامي، وتحتاج إلى أن تحدد علاقاتها بشكل صحيح مع ذلك الوسط، حتى تتحرك نحوه تحركاً محسوباً راشداً، وتتجنب بذلك مزالق الفهم الخاطئ للنصوص، ومواقف التطرف التي لا يجني منها المسلمون سوى المعاطب والخسران.

- أخطار العزلة:

وبجانب معالجة أخطار الغلاة المندفعين، فقد توجب على مسلمى أمريكا أن يعالجوا أيضاً وضع المنسحبين اليائسين.. فمن الآثار السلبية لكارثة سبتمبر أن بعض المسلمين أصبحوا يحجمون عن الإسهام في أي عمل إسلامي عام سوى الصلاة والاحتفالات الإسلامية، خوفاً من أن يتعرضوا للشبهات والاتهامات والملاحقات الأمنية، خاصة وأن كتابات مغرضة كثيرة طفحت بالعداء لكل مظهر إسلامي، وحرضت عليه. وصورت المسلمين على أنهم خطر داهم على الغرب ونمط الحضارة الحديثة، وأغرى ذلك بعض الرِّجرجة و الدهماء الأمريكية فغدت تتعرض للمسلمين بالعدوان، و لم تسلم حتى النساء المحجبات من تحرش وإرهاب هؤلاء.

وقد قام أحد المحللين بإعداد دراسة عن المجتمع الإسلامي بمدينة شيكاغو، وهي أحد أكبر مجتمعات المسلمين في أمريكا، خرج منها بأنهم أصبحوا بعد حوادث سبتمبر يحملون شعوراً متناقضاً حيال آراء الشعب الأمريكي حول المسلمين. فبينما تنادي طوائف من الشعب الأمريكي على المسلمين لكي يدخلوا في التيار العام ويصبحوا أعضاء فاعلين به، تدعوهم طوائف أخرى على أنهم متطرفون أصوليون ذوو تقاليد مناهضة لقواعد التمدن الأمريكي، وينسبون إليهم أي فعل متطرف يقوم به مسلم في أي مكان آخر من العالم. وهكذا تسرب إلى قطاع من مسلمي شيكاغو بأنهم مُراقبون حيث حلوا وتحركوا، وأنهم محكوم عليهم بمقاييس تختلف عن مقاييس

العدالة الأمريكية، وقد أثار وضعهم هذا قلق بعض جماعات حقوق الإنسان فسيرت بعض التظاهرات للاحتجاج على ما يلقون(١).

ومـا ينطـبق على مسلمي شيكاغو ينطبق على مجموعات أخرى من مسلمي أمـريكا، وربما بنسب أعلى، إذ يرجح أن ترتفع درجة التوجس والتردد والإحجام كـلما صغر حجم المجتمع الإسلامي بحواضر أمريكا الأخرى. وهكذا استبد الرعب بقطاعات مقدَّرة من مسلمي أمريكا، وتهاوى الإيمان من قلوبهم، حتى اختلط عليهم، واختـلط بعضـهم تـياراً جديداً قديماً هو تيار الاندماج إلى حد الذوبان في المجتمع الأمريكي مع الاحتفاظ بالإيمان في القلب، كما يزعمون.

وقد أصدرت إحدى ممثلات هذا التيار كتاباً عقب تلك الأحداث تحذر فيه من أن الإمعان في تطبيق الإسلام يؤدي إلى القطيعة والعداء مع المجتمع، وتقول: إن على مسـلمي أمـريكا أن يكونوا مثل مواطني أمريكا من أتباع الأديان الأخرى يقيمون ويغشون احتفالات الرقص المختلط، ويقرون ممارسة الجنس قبل الزواج، ولا يصدون عـنها أبناءهم وبناتهم، فإن ذلك مما لا يتصادم مع حقيقة الإيمان متى ما رسخت في القلب، كما تقول!

وعـلى هذ الدعوة الواهنة يرد المهتدي الأمريكي «يحيى إيميريك» قائلاً: «عندما أسمع مثل هذه الآراء تصدر من وسط إسلامي أكاد أن أصاب بارتجاج عقلي، ولكن عـندما أتذكـر جزءاً من تاريخي الثقافي، وأنا شاب نصراني، أستمع لبنـي قومي يسـخرون فيما بينهم من دينهم، حينها أتمكَّن من تفكيك أطراف المعادلة، وأدرك على وجه اليقين لماذا أمسى بعض المسلمين يسخرون علناً هنا من دينهم»(٢).

---

(١) Noreen S. Ahmed-Ullah, Don Terry and Ted Gregory ,Muslims Witness Support Amid Anger "The Chicago Tribune ", 15 September 2001.

(٢) Yahiya Emerick, What Kind of Islam Will Last in America, " The Message", July, 2004, p.51.

الـــذي ينـــبغي ألا يفـــرطوا فيه، إذ في القيام به دفعٌ للباطل المغرض، وإظهارٌ للحق الإسلامي، وانتصار له بأقل التكاليف.

وفي الأونـــة الأخـــيرة، بادر قطاع معتبر من المثقفين المسلمين، يظاهرهم عدد من المستشرقين الشرفاء من أمثال البورفسور «جون فول»، والبروفسور «جون سبوسيتو»، والبروفســـورة «إيفـــون حـــداد»، والبروفسورة «جين سميث»، والبروفسورة «ماري آرمســـترونغ» للتصـــدي للإرجاف الإعلامي حتى ألجأوه إلى بعض الحذر والاعتدال، فأصـــبح يُسمع للمسلمين وأنصارهم صوتٌ معقول يوازن - إلى حدٍ ما - ما يقولون، ويصوِّبه، ويجرحه، ويبين عُواره إن اشتط في النفور وفي اللجاج.

وفي المدى البعيد، فربما انصاع الإعلام الأمريكي، بفضل الضغط المتواصل عليه، للاعـــتراف بحق المسلمين، وتقديره، ورعايته، تماماً مثلما أُلجئت حركة الاستشراق القديمة أخيراً، بفضل الاعتراض عليها ونقدها، إلى بعض الموضوعية والرشد والتناول المعتدل الجاد لشؤون الإسلام والمسلمين، وأصبحت حركة أكاديمية تتقيد بالأعراف الجامعـــية، وتـــنأى شـــيئاً فشـــيئاً عن أهدافها القديمة في التبشير بالنصرانية، وتبرير سياسات الاستغلال السياسي والاقتصادي للقوى الغربية المهيمنة.

٣- جماعات المصالح ومراكز الضغط:

ومـــع تنامي الكثافـــة البشرية لمسلمي أمريكا، وتصاعد إمكانياتهم العلمية والمهنية والاقتصـــادية، فقد أصبحوا مؤهلين لممارسة الحياة العامة «بالميكانيزمات» التي يتواضع المجـــتمع الأمريكي على استخدامها، وهي «ميكانيزمات» الضغط والتدافع « Checks and Balances» الـــتي يعـــتمدها القوم للوصول إلى حالة التوازن والتوفيق بين مصالح ومطالب الفئات والجماعات والطبقات المختلفة، التي تكوِّن النسيج القومي الأمريكي.

ومراكـــز الضـــغط وجماعـــات المصالح هي مجموعات من الأفراد، تربطهم مع بعضـــهم أنســـاق معيـــنة من الرغبات الضيقة، التي لا تتعداهم، بل قد تتعارض مع رغـــبات سواهم من المواطنين، ولكن ليس إلى الحد الذي يسبب الصدام والخلل في

- مسلمون تقدميون:

وتقـدم ظاهـرة مـا يسمى بالمسلمين التقدميين مثالاً ساطعاً لما ينكره المسلم المهـتدى «يحيى إيميريك»، فمن ردود الفعل المتطرفة على مغبَّات الحادي عشر من سبتمبر ما تقوم به طائفة صغيرة ترأسها الصحفية الأمريكية من أصل هندي «إسراء نعماني» وهي طائفة تدعو للاندماج الكامل في المجتمع الأمريكي على غرار اندماج الطوائـف الدينـية الأخرى غير الإسلامية فيه. وتحظى هذه الطائفة بدعم كبير من الأوسـاط الأمريكية الرسمية والعامة، كما تحظى نشاطاتها بتغطيات إعلامية واسعة، بقصد ترويجها بين المسلمين.

وقـد شرحت «إسراء نعماني» قصتها على صدر صحيفة «واشنطن بوست» قائلـة: إنهـا تريد الحرية للجميع، وتريد إبطال العقد وسلاسل المحرمات والأحكام الشـرعية الـتي «تنكِّد» حياة المسلمين وتعزلهم وتميزهم عن غيرهم من المجتمعات المتحضرة. وقد تولدت تلك الدعوة لديها عقب ما أنجبت ابنها «شبلي نعماني»، من دون زواج، واضـطرت للهرب من موطنها بالهند خشية أن يقام عليها حد الرجم(١)، الـذي ذكـرت أنـه يقـام عـادة على النساء ولا يقام على الرجال، إذ أن النساء مضـطهدات في جمـيع أقطار العالم الإسلامي، ومضطهدات كذلك وسط مجتمعات الأقلية الإسلامية حتى في الولايات المتحدة الأمريكية، ولذلك صعدت «إسراء» حملتها مـن داخـل المساجد لتوحيد صفوف الصلاة وخلط النساء بالرجال(٢)، فيما أقامت تجربة لذلك في أحد مساجد فرجينيا بقصد تعميمها في المساجد الأخرى.

---

(١) Asra Q. Nomani, She Shouldn't Be Stoned to Death. None of Us Should, The Washington Post, 1 June, 2003; P. B01.

(٢) Asra Q. Nomani, Rebel in the Mosque: Going Where I Know I Belong, The Washington Post, December 28, 2003, P.1,5.

- مراجعة الخطاب الدعوي:

وظهـــرت ردود أفعـــال أخرى أخذت مظهراً أمريكياً واضحاً و لكن من غير تفـــريط في الجوهر الإسلامي، فمن أكثر آثار كارثة الحادي عشر من سبتمبر إيجابية توجـــه الكثير من مسلمي أمريكا إلى مراجعة الخطاب الدعوي، والعمل على تعميقه لمخاطبة الوسط الفكري الأمريكي بمستواه. ونتج عن ذلك عدة أدبيات فذة لم تشهد الســـاحة الإسلامية الأمريكية مثيلاً لها من قبل، وبعضها كتب له الانتشار والذيوع على مستوى قومي متسع.

وقـــد كـــان آية من آيات التوفيق أن عهدت جامعة «هارفارد» العريقة لأحد طلابها المسلمين أن يلقي بالنيابة عن زملائه خريجي عام ٢٠٠٢م كلمتهم في احتفال التخريج فسماها «جهادي الأمريكي، My American Jihad» وأبان فيها عن معنى هـــذا المصـــطلح الإسلامي، الذي أسيئ فهمه في الغرب من قديم الزمان، وذكر أن كـــلمة «جهـــاد» في معناها الحقيقي النقي، الذي يرنو جميع المسلمين الحقيقيين إلى الـــتحقق بـــه، هو العزم لإنجاز الأعمال الشريفة القويمة، وإثبات دعائم الحق المحض الممحـــص، حـــتى ولـــو كـــان ضد مصالح الفرد الشخصية، وأنه نضال على عدة مســـتويات لتوعية الذات وتنقيتها وتسخيرها لخدمة العدالة وخدمة المجتمعات، على المســـتويات المحلـــية والقومية والعالمية، والتعاون مع البشر من كل الأعمار والألوان والمعـــتقدات مـــن أجل السيطرة على مراكز اتخاذ القرارات الكبرى، ليس في سبيل الحصول على قطعة أرض أو ابتزاز وطن، وإنما في سبيل توفير الأمن والدواء والطعام لكل محتاج، وذلك ما يتعهد الإسلام بإنجازه للبشرية بمختلف قطاعاتها[1].

وقد أتيح لتلك الكلمة المتعمقة أن تذاع من محطات التلفزة الأمريكية المختلفة، وأن تـــنعقد حولهـــا النقاشات ما بين مستغرب ومستفسر ومؤيد ومنكر ومخاصم، و لم يجد المخاصمون سوى أن ينكروا معرفة هذا الفتى بالإسلام ومعرفة مدير جامعة «هارفارد»

(١) يوجد نص الكلمة كما توجد تعليقات ومناقشات حولها على عشرات المواقع على الإنترنت. راجع على سبيل المثال: http://www.beliefnet.com/story/107/story_10725_1.html.

بمـا يقول الفتي المسلم، رغم أن مدير الجامعة اطلع على الخطاب مسبقاً، وأجازه، ونال رضى مجلس الجامعة، ونال استحسان القطاع الأوسع من الرأي العام الأمريكي.

وقـد جـاءت مخاطبات إسلامية شتى تخاطب الأمريكيين بما يفهمون، فهنالك فرقة «آخر الشعراء» الفنية التي تقدم عروضها الغنائية بقيادة «سليمان الهادي» على بعـض مسـارح نـيويورك، وهي تتغنى بالقيم الإسلامية الطهور، التي تقي المجتمع الإسـلامي الأسـود مـن شرور الخمور والمخدرات والإباحية الجنسية، وتكافح الإرهـاب. وهـي عروض تلاقي إقبالاً شديداً من الجمهور، وكثيراً ما يعلن بعض الأفراد إسلامهم إثر استماعهم إليها، وقد أسلم سبعون شخصاً من أسرة قائد الفرقة تأثراً بالمعاني التي تبثها أغاني الفرقة. وتقتفي الفرقة بشكل عام تجربة «مالكولم أكس» الإيمانية في ذروتها، بعد أدائه لفريضة الحج، وتخلصه من آثار العنصرية والتعصب ضد البيض، واجتهاده في التطهر والتسامي بقيم الإسلام.

ويـرتدي أعضـاء الفـرقة أزياء مميزة، هي أقرب إلى أزياء المسلمين الشرقيين التقلـيدية، وعندما يصعدون على خشبة المسرح يحيون الجمهور بالتحية الإسلامية، ويـتحدثون قلـيلاً حديـث الوعظ، فيذكرون الله تعالى بالحمد والثناء، ويذكّرون الحضور بالآلاء الإلهية وبنعيم الجنة الموعود وبأهوال القيامة والحشر وضرورة الالتزام بعقائد الإسلام وشرائعه. ويقول «سليمان الهادي» في تبرير خطته الفنية: «إن رسول الإسـلام كان يقول: حدثوا الناس بما يفهمون. ونحن لا نفعل شيئاً غير ذلك. فإن أهـل أمـريكا يحبون الفن والغناء حباً جماً، ولذلك نصوغ لهم المواعظ في اللغة التي يحبونها ويحسنون فهمها». [1]

وعلى الصعيد السينمائي، يستمر التواصل مع الوسط الثقافي الأمريكي عبر أفلام قويـة، مـن حيث المحتوى والحبكة الفنية، حيث يتوقع صدور فيلم شامل عن تجربة إيمـان المسـتشـرق النمسوي «ليوبولد فايس» الذي تسـمى بـ «محمد أسد»،

(١) لأخذ فكرة عن خلفية و أفكار هذه الفرقة الفنية النيويوركية، راجع كتاب:
Steven Barboza, The American Jihad: Islam After Malcom X, Image Book, New York, 1994, p.33-35.

وذلك أخذاً عن سيرته الذاتية الروائية الرائعة التي صدرت في عام ١٩٥٤م في كتابه: «The Road to Mecca» المترجم إلى العربية ترجمة مثالية نفيسة بقلم البعلبكي بعنوان: «الطـريق إلى الإسـلام»، ويـتوقع أيضاً صدور فيلم آخر للمخرج السوري الشهير «مصطفى العقاد» عن جهاد البطل «صلاح الدين الأيوبي»، وهو فيلم يخاطب الضمير الغـربي مباشـرة باستعراضه لجرائر الصليبيين في اقتحام العالم الإسلامي وتذبيح أهله، وتصدي صلاح الدين لهم، وانتصاره عليهم، ثم عفوه عنهم، ومعاملته لهم بإحسان.

وقـد صـدر مباشرة بعيد عيد الفطر لهذا العام فيلم «محمد رسول الله» الذي أنتجـته شركة «Rich Crest Animation» لصالح مجموعة «بدر» [(١)] وهو وإن كان موجهـاً أساسـاً لأطفال المسلمين، إلا أنه موجه كذلك للأسر الإسلامية بكاملها، وموجـه كذلـك لـلجمهور الأمريكي العريض، حيث تم عرضه في كثير من دور العرض السينمائي على امتداد الولايات المتحدة الأمريكية. ومن الأمور ذات المغزى أن مـادة الفيلم تمت إجازتها في وقت واحد من قبل علماء مجمع البحوث الإسلامية بالأزهـر الشـريف، ومن قبل عَلَمين من أساطين حركة الاستشراق الحديثة وهما «د.جـون فول» و«د. جون أسبوسيتو»، الأستاذين بجامعة «جورجتاون» ومركز الحوار الإسلامي النصراني.

- الإسلام في الدوائر الثقافية والشعبية:

وقد قوبل هذا الانفتاح الأدبي الإسلامي على «الغير» بانفتاح أكبر من الأوساط الثقافـية الأمريكـية، فأصبح الإسلام بعد أحداث سبتمبر موضوعاً أساسياً للبحث والتسـاؤل الجـدي في الدوائر الثقافية والشعبية الأمريكية، لا سيما تلك التي تشهد وجـود تجمعـات إسـلامية كـبرى فيها، وتهافت الأمريكيون على قراءة الكتب الإسلامية، أو التي تتناول الظاهرة الإسلامية بالرصد والتحليل، وأصبح هذا النوع من الكتب من أشد الكتب رواجاً في سوق النشر.

(١) The Muslim Link , November 5, 2004, P. 1,5.

وبدلاً من أن تُرصد الكتب الإسلامية أو التي تتحدث عن الإسلام في نطاق كتب الأديان الشرقية، كما كان مألوفاً في الماضي، فقد غدت المكتبات التجارية الكبرى تفرد مكاناً خاصاً لعرض هذا النوع من الكتب تحت عنوان: «Islam»، وقد أحصيت في مكتبة تجارية واحدة هي دار نشر: «Barnes&Nobles» أكثر من خمس عشرة ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، فضلاً عن كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، القديم والحديث، وغير ذلك مما يندرج تحت هذا العنوان العريض.

وأتاحت تلك النشرات الكثيرة عن الإسلام مجالات أوسع لكي يتعرف الأمريكيون على هذا الدين، ويتواصلوا مع معطياته العقائدية والحضارية والاجتماعية بشكل موضوعي مركز. لكن يلاحظ على أكثر الكتابات التي نشرت مؤخراً عن الإسلام، أنها ركزت بشكل خاص على موضوع الإرهاب، وما إذا كانت له صلة قوية بالإسلام أم لا، وربما كان ذلك اهتماماً طبيعياً في ظل ما دهم القوم من خطب سبتمبر، أو باعتبار أن البحث ما زال في أشواطه الأولى. وعلى العموم، فبإمكان المؤلفين المسلمين أن يلحقوا بذلك الركب، ويسددوا وجهته، بتقديم أبحاث منهجية قوية، تستند إلى المصادر الشرعية القويمة، وتمسَّ قضايا العصر الحديث، ومشاغل الواقع الأمريكي بخاصة، بصورة مباشرة، وتنفذ إلى أعماق القضايا، وتقدم المعالجات الإسلامية بأسلوب مقنع.

وقد يتطلب ذلك وقتاً طويلاً، ولكنه أمر لا معدى عنه، فمجتمعات الغرب تعيش بالتوجيه الفكري بالدرجة الأولى، وفي الولايات المتحدة بخاصة تقاس قيمة كل أقلية عرقية أو دينية بمدى إسهامها في عالم الفكر والبحث والتأليف والتعليم الجامعي، وهذه بعينها هي الجوانب التي ما تزال ضامرة في نشاطات مسلمي أمريكا، وتحتاج إلى التفات خاص حتى تبرز اجتهاداتهم وآراؤهم بصورة واضحة للرأي العام، فيقرأ الأمريكيون لهم مباشرة بدلاً من أن يقرأوا عنهم ما يكتبه «الغير»، وأكثرهم مخاصمون!

توطين الإسلام في أمريكا

وقد أثار موضوع خطاب (الآخر) غير المحايد والخطاب غير الدقيق عن الإسلام، وخطاب المسلمين الدعوي غير المناسب لغيرهم مجدداً للبحث سؤال توطين الإسلام في التراب الأمريكي، وضرورة فهم الواقع والانطلاق منه، وأهمية الموازنة بين اهتمامات مسلمي العالم ومسلمي أمريكا، وبين اهتمامات المهاجرين والمواطنين من بين هؤلاء الأخيرين، ذلك أن ما جرى من عدوان كثيف على التراب الأمريكي عُدَّ في نظر بعضهم عدواناً حتى على مسلمي أمريكا.

فمن ناحية راح ضحية الهجوم على برجي «مانهاتن» قرابة الخمسمائة مسلم، أي ما يزيد على ١٥% من ضحايا ذلك الحادث المشؤوم. ومن ناحية ثانية تحمل مسلمو أمريكا عبئاً كبيراً في أعقاب الحادث، سواء على الصعيد الأمني أو الأدبي، إذ مال «البعض» إلى اتهامهم على الجملة على أنهم ظهير وطابور خامس للإرهابيين، ومورست ضدهم تحرشات وملاحقات أمنية كثيرة، حتى أن بعضهم طفق يخشى أن يلحق بالمسلمين الأمريكيين ما لحق باليابانيين الأمريكيين في أعقاب الهجوم الياباني على «بيرل هاربر» في أوائل أربعينيات القرن المنصرم، وراحوا يستعرضون مفاصل ذلك الحدث التاريخي الاستثنائي، ويدرسونه بجدية ليستلهموا منه الدروس والعبر لصالح حاضر المسلمين الأمريكيين(١) ومستقبلهم.

وكانت مشاكل عديدة عاناها مسلمو أمريكا قبل هزة سبتمبر قد طرحت سؤال توطين الدعوة في الماضي، ودعت إلى ضرورة تصفيتها من مجموع الآثار والتلوثات العالقة، التي اجتلبها بعضهم من الشرق، حيث حمَّل بعضهم الدعوة جملة من المفاهيم المختلة والإشكالات المصطنعة والأولويات المعكوسة التي تركز على غير قضايا

(١) Ama F.Shabazz, History's Lessons: Treatment of Japanese – Americans during W.W.II, The Message, July, 2004, P. 25-28.

المســـلمين الأمريكيين، بل تؤجج أحياناً النـــزاعات بين الأقطار الإسلامية في مناطٍ خارج على محيط تلك الأقطار.

وقـــد تـــأذت الدعوة كما تأذت المجتمعات الإسلامية الأمريكية كثيراً من تلك الـــرزايا والأوزار، وجـــاءت كارثة سبتمبر لتعجل بحسم ذلك السؤال الحاد، حيث تـــرجح بشـــكل قاطع مبدأ توطين الدعوة بأمريكا، وضرورة التركيز على أولويات مسلمي أمريكا، والواقع الأمريكي، لا سيما أن التحديات أخذت تتكاثر وتتكثف في الأفق، وذهب التصدي لها بمعظم الإمكانيات والجهود.

وأهم تلك التحديات، التي يدورحولها البحث والحديث، هي:

١- استكمال (مأْسَسَة) العمل الإسلامي:

حيـــث تفـــترض البيئة الأمريكية مأْسَسَة أيَّ عمل عام بشكل جيد. ولا يرجى عـــائد طيب لأي جهد في المجال العام مالم يصدر عن مؤسسات قوية راسخة ومرنة ومتطورة تستجيب للطوارئ و تتواءم مع المتغيرات.

وقـــد عَبَر المسلمون الأمريكيون خلال تاريخهم الحديث تجارب متعددة من العمل المؤسســـي وغـــير المؤسسي، وتبينوا جيداً فوائد العمل المؤسسي المتجافي عن الطابع الشخصي أو الحزبي أو الطائفي أو القومي، حيث تتضاءل هنا فرص الخلاف والشجار والانقسام وأثر العوامل الوبيلة المجلوبة من الشرق. وتحقق مسلمو أمريكا جيداً أن أكثر إنجازات العمل الدعـــوي قد تمت بسبب الالتزام بالمؤسســـية الراشدة، ومن ثم غدوْا لا يرتضون بها بديلاً، ومضوا في سعي جاد متجرد لاستكمالها وإحكامها، حتى تصبح سمـــة لسائر ضروب العمل الإسلامي، بدءاً بدور العبادة، مروراً بمدارس التعليم العام والعالي ومراكز البحوث ودور النشر، وانتهاءً بمؤسسات الوقف والاستثمار.

ويقع التركيز حالياً في مجال العمل المؤسسي على ترسيخ وتطوير مراكز البحث العـــلمي، حيـــث تأكدت الحاجة إلى وجود دوائر أبحاث متقدمة للتخطيط للعمل الإسلامي المتسع، والتنسيق بين أجنحته وفروعه المتكاثرة، وتحديد الأولويات بشكل

منطقي مقنع، وتقديم المشورة العلمية للمؤسسات الإسلامية الأخرى. والمأمول أن تتمخض هذه المؤسسات البحثية المتطورة عن سياسات عليا راشدة تحكم العمل الإسلامي في أمريكا، وتجنبه نزعات الغلو الهدامة، التي أنجبت مأساة سبتمبر وما دونها من المآسي التي عوقت مسار تقدم المسلمين الأمريكيين.

٢- الولوج إلى الساحة الإعلامية:

إن الإنسان الأمريكي العادي توجِّهُه الآلة الإعلامية إلى حد كبير، فهو يستمد منها معظم معلوماته عن النشاطات السياسية، والدينية، والاجتماعية، والفكرية، في بلاده وفي العالم أجمع.. وفيما يتصل بالإسلام، فإن تلك المعلومات تأتي في غالب الأحيان مغلوطة أو مصوغة بما يوحي بإيحاءات سلبية عن الإسلام والمسلمين، سواءً على مستوى النظرية أو التطبيق؛ ويستوي في استخدام تلك الأساليب الإعلام المرئي والمسموع والمقروء، فالمسيطرون عليه هم نخبٌ توظفهم مراكز مصالح وقوى ذات عداء راسخ للإسلام والمسلمين، وتحذر تصاعد نفوذهم، وسماع صوتهم، وتبيُّن أفكارهم للرأي العام الأمريكي.

وإذ لم يكن في إمكان مسلمي أمريكا، في الوقت الراهن، أن ينشئوا إمبراطوريات إعلامية تضاهي تلك المتخصصة في تشويه عقائدهم ومبادئهم، فإن في إمكانهم أن يتصدوا بالرد- قدر الإمكان - على ما يقال ويكتب عنهم، واستثمار أدنى فرصة متاحة للرد لتقديم معلومات إيجابية عن الإسلام، والقيام بالتشكيك في مصداقية تلك الإمبراطوريات الإعلامية في تناولها لشؤون الظاهرة الإسلامية، الأمر الذي يكشف خبيئتها لمستهلكي المواد الإعلامية الغافلين.

والحق يقال: فإن المواطن الأمريكي إنسان منفتح الذهن إلى أبعد الحدود، ومعتدل النظر، ويميل إلى الموازنة بين المصادر، وفحص المواد التي تقدمها له وسائط الإعلام؛ ولكن في غياب الردود النقدية الرصينة يتعذر عليه مضاهاة المواد المتلقاة وموازنتها بعضها ببعض، واتخاذ موقف عقلاني معين بإزائها، وهذا واجب المسلمين،

نظام المجتمع العام[1].. وكل ما يتطلبه تحقيق تلك الرغبات هو أن يتعاون أفراد كل مجموعة مصلحية معينة لتحديد تلك المصلحة تحديداً جيداً، وتبنيها للآخرين، والدفاع عنها بقصد تبرير مشروعيتها، ومن ثم المطالبة بتحقيقها، وممارسة الضغط السلمي على صناع القرار، في الجهازين التشريعي والتنفيذي، حتى يعتمدوها ويحققوها. وبذلك تختلف جماعات المصالح ومراكز الضغط عن تنظيمات الأحزاب السياسية، فالأخيرة تمثل قطاعات واسعة من المواطنين، وتنادي بتحقيق مصالح على المستوى القومي العام؛ وتلك تمثل قطاعات محدودة من المواطنين، وتطالب بتنفيذ رغبات لا تتعدى حدود تلك الجماعة الضيقة من الشعب.

وهذا الضرب من النشاط المصلحي هو أكثر ما يلائم وضع المسلمين، من حيث إنهم أقلية صغيرة في أمريكا، فيتعين عليهم من ثم أن ينشطوا في سبيل تكوين اللوبي الإسلامي النافذ لتمثيل رغبات المسلمين ومصالحهم، والمطالبة الملحة بها، وممارسة الضغط القوي على نواب الكونجرس وقادة الجهاز التنفيذي لإجبارهم على وضعها موضع القبول والاعتبار والتحقيق.

وقد نحت معظم جماعات الأقليات العرقية والدينية في أمريكا باتجاه إنشاء مراكز ضغط خاصة لتحقيق مصالحها، فتوجد جماعات أقلية صغيرة جداً، بالمقارنة بحجم الوجود الإسلامي في أمريكا، كجماعة الصينيين التايوانيين، والأرمن، واليونانيين، والقبرصيين، وغيرهم، تتمتع بنفوذ هائل على صناع القرار، وتعرف بتجاربها الطويلة كيف تستميلهم لتحقيق مطالبها، بل أحياناً تجد هؤلاء السياسيين هم الذين يسعون لاستكشاف رغبات ومصالح تلك الجماعات الصغيرة وتحقيقها ابتداءً وبمبادرة منهم، وذلك حتى يتفادوا ضغوطها وإحراجاتها وتهديداتها بحجب الأصوات عن النواب في أثناء الانتخابات.

(١) Richard H. Curtiss, American Muslims Ready to Fight Back Against U.S.A. Partriot Ac. Washington Report on Middle East Affairs, November, 2003, p. 29.

وأصـــوات المســـلمين الانتخابية ينبغي ألا تذهب هدراً، وإنما تجتلب بها المصالح الكبرى، لخدمة وجودهم، وحمايته، وتجذيره في التراب الأمريكي، فتلك هي الصفقة التي تتحقق بها مطالب الفئات في هذه البلاد .

وإذا كانت إسهامات المسلمين في المجال الانتخابي الرئاسي لم يحالفها التوفيق في التجربتين الانتخابيتين الأخيرتين، حيث صوتوا لصالح مرشح في آن، ثم صوتوا ضده في آن آخـــر، فلـــيس في ذلك أدنى ضير، فتلك هي طبيعة العمل السياسي بمفارقاته وملابســـاته الحـــرجة الحـــادة، ولـــيس للمسلمين الأمريكيين من رصيد التجارب مايسعفهم ليستخدموا الخيارات القليلة المبذولة أمامهم استخداماً أمثل، فلا يوجد في الســـاحة السياســـية ســـوى خياري الحزبين الرئيسين، وخيار الحزب الهامشي غير الواعـــد، وخـــيار حجـــب الأصوات الإسلامية وتعطيل واجب الإسلام في العمل السياسي الديمقراطي.. فتلك أربعة خيارات صعبة، يحتاج المسلمون إلى تأمل معطياتها وفحصـــها فحصـــاً متأنياً، ولا يؤدي الاستعجال فيها إلا إلى تنكُّب السبل، وإهدار الطاقات، وإجهاض النتائج. فعلى المسلمين أن يؤدوا واجبهم أولاً في هذا المقتضى، وهو واجب شاق مرهق، و بدونه لا يمكن أن يحصدوا النتائج المتوخاة.

وقبل هذا وبعده يظل التركيز على أداء اللوبي الإسلامي، الذي يستخدم وسائل الضغط المعهودة، أكثر تأثيراً، ويبقى مرجواً بصفة خاصة لدعم المجاهدات الاقتصادية والعلمية والدعوية لمسلمي أمريكا، وحمايتها من اجتراءات الخصوم الشانئين.

- المرأة المسلمة.. عطاء في سبيل التوطين:

هذا ولا يمكن إنهاء الحديث عن واقع الإسلام في أمريكا دون الإشارة إلى عطاء المـــرأة المسلمة، على وجه الخصوص، وهو عطاء يصب في النهاية في خدمة توطين الإسلام في أمريكا.. فللمرأة المسلمة الأمريكية نشاطات واسعة ملحوظة في خدمـــة الدعوة والمجتمـــع. والنساء في أمريكا أكثر إقبالاً على الإسلام من الرجـــال بكثير، وهـــن يكتشفن الإســـلام في العادة من خلال أزواجهن، حتى ولو لم يكونوا على

تديـــن شـــديد، حيث ما بقي من سليقة التدين في سجاياهم يكون كافياً في أحيان كـــثيرة لنيل إعجاب الزوجات، ودفعهن لمزيد من التقصي، لعقائد الإسلام وتعاليمه وشريعته، والانتهاء من رحلة البحث في الغالب باعتناق الإسلام عن اقتناع وحماسة متأججة لتأصيله في نطاق الأسرة ونشره على نطاق المجتمع.

وهكـــذا ظهـــرت داعيات على حظٍ كبير من قوة التفكير، يكثرن من التأليف والمحاضـــرة، في طليعتهن ولا ريب المفكرة «مريم جميلة» التي تعتبر أعظم المفكرات الإســـلاميات طـــرًّا في هذا العصر، وهي وإن لم تكن تعيش في أمريكا حالياً إلا أن نفوذها الفكري فيها من القوة بمكان، لا سيما كتبها في علم اجتماع الدعوة، ونقد المجتمع الأمريكي، وتقديم البديل الحياتي النفسي والاجتماعي الإسلامي.

وســـوى «مريم جميلة» توجد مفكرات إسلاميات كثر كـــ«أنجريد واتسون» التي تحـــتل مقعـــداً لـــتدريس الإسلام في جامعة قامت أساساً للتبشير النصراني «هارتفورد ســـيمناري»؛ و«ســـوزان دوغلاس» التي قامت بنخل مواد الدراسات الاجتماعية في المـــدارس الأمريكية، التي تتعرض تعرضاً مغلوطاً للإسلام، وقامت بإعداد مواد إرشادية تصـــحيحية اعتُمدت من قِبل المدارس، بل وأسهمت في صياغة كتابٍ يتناول الإسلام اعـــتُمد في كثير من المدارس الحكومية الأمريكية كمقرر إلزامي للطلاب، والبروفسور «عزيزة الحبري» أستاذة القانون، التي أخذت على عاتقها عبء الدفاع عن حقوق المرأة المسلمة، لاسيما بعد تكاثر الاعتداءات الأثيمة عليها بعد كارثة الحادي عشر من سبتمبر.

وتـــتولى النساء بصفة أساسية حمل عبء التعليم في المدارس الإسلامية النظامية، كما يتولين عبء التعليم الإسلامي غير النظامي للأطفال بالمساجد، ويتعرضن بسبب نشـــاطهن الدائب ومظهرهن الكاسي المميز للمتاعب والأخطار بأكثر مما يتعرض له الـــرجال، وقد كان نصيبهن من ذلك في الأيام التي تلت كارثة سبتمبر هو النصيب الأوفى، ولكن تلك أيامٌ قد تصرَّمت وانقضى أكثر ما احتملته من الشر، وبقيت المرأة المسلمة الداعية المثابرة أملاً ووعداً بعطاء كبير على مسار ومعترك الدعوة الأمريكي.

خاتمة

لقد استعصت ساحة العالم الجديد كثيراً على الإسلام، وصدَّت دعوته، واستحوذت علــى أتباعــه الذين ذابوا بالــتدريج في المصــهر الأمريكي الرهيب، كما عملت البيئة الأمريكية على مزج العقائد الإســلامية بما لا يتفق مع أصولها، كما تبدَّى ذلك في أصول العقائد التي تبنتها النحل الإسلامية الأمريكية التي ظهرت في العقود الأولى للقرن العشرين، كــنحلة «المعــبد الموريسكي» التي تولاها «نوبل درو علي»، ونحلة «أمة الإسلام» التي تزعمها «أليجا محمد»، ويتزعمها الآن «لويس فراكان».

ولكــن العقود الخمس الماضية أتت إلى الساحة الأمريكية بما تحدى تلك النحل التي كانــت تزعم تمثيل الإسلام، كما رفد ساحة العقائد الأمريكية، التي يتبارى الدعاة فيها علــى الــترويج لما يزيد عن خمسة آلاف نحلة ودين، بعقيدة جديدة برهنت على متانة ورصــانة وجاذبــية فائقة مكنتها من اكتساح النحل القديمة التي كانت تدعي النسبة إلى الإســلام، والقــيام بالدعوة إليه، ومكنتها كذلك من مباراة ذلك الكم الهائل من النحل والدعــوات، والتفوق عليها جميعاً، حتى أصبح الإسلام بذلك الدين الأكثر انتشاراً على الرقعة الجغرافية الأمريكية، مثلما هو الأكثر انتشاراً على الرقعة الجغرافية العالمية.

ولكــن جاءت نذر الصدام الحضاري مع الإسلام عقب حوادث سبتمبر، لتذكر بشــريط الــتاريخ الطويــل، ومحكَّات الشدَّة المتعددة التي ترامت فيه، ولتضع مسلمي أمــريكا مجــدداً في مواقف الحذر والتراجع والمراجعة. غير أنهم تعدوها- بحمد الله - تعدوهــا ســراعاً، ليــتخذوا على إثرها مواقف أجدى تمثلت في تنظيم صفوفهم في مؤسســات متساندة، تتبنى خط الاعتدال، والحكمة، والتخطيط طويل المدى، والمثابرة علــى الأداء، مع الاستفادة من معطيات العمل الإداري وتجارب المؤسسات الأمريكية المخــتلفة لصــالح مؤسسات تنافح عن قضايا الإسلام، وتلتزم بأحكامه ومثله العليا، وتقدمه في إطار حضاري متحرك لغير المسلمين.

وبذلــك أصــبحت الدعــوة الإسلامية تتوطن في أمريكا وتتعمق، وتتبنى قضايا المســلمين الأمريكيين بالدرجة الأولى، مع عدم إهمال قضايا العالم الإسلامي، وأصبح أكــثر دعاتها من أصحاب الخبرة الوثيقة بالواقع الأمريكي.. كما انبثق جيل جديد من

أبناء المهاجرين يتحدث الإنجليزية بطلاقة، ويكتبها بإجادة، ويتحاور باقتدار مع خصوم الإسلام وناقديه على الساحات الأكاديمية والفكرية والأدبية والإعلامية.

وتـــأتى مـــن ذلك الحوار السجالي دعمٌ قوي لصالح دعوة الإسلام، حيث أخرس خصوماً لُدّاً، واكتسب إلى الإسلام مساندة كبرى من أوساط الرأي العام.. ولعل نتائج آخـــر اســـتبيانات الرأي العام الأمريكي، التي أشارت إلى أن ربع الأمريكيين فقط هو الذي يحمل فهماً سلبياً للإسلام، هو أفضل دلاله على فاعلية تيار التواصل الإسلامي مع الأمريكـــيين، ســـواء على صعيد الحـــوار الفـــكري، أو الحوار الديني، أو التعامل الإنساني العام.

وهكـــذا برهن تيار التواصل مع «الغير» على فاعليته وجدواه، في مقابل تيار المفاصلة العدائـــية المســـتفزة، الذي أراد أن يهاجر بمسلمي أمريكا هجرة أخرى خاسرة في داخل أمـــريكا نفسها. وهو تيار لم يجن منه المسلمون سوى الأضرار البليغة، المادي منها والأمني والأدبي.. وقـــد نفر المســـلمون من دعاوى ذلك التيار، مثلما نفر منها الأمريكيون، فلم يعـــد له من مصير سوى أن ينـــزوي ويتضاءل وينحسر، أو يتشكل في إطار نحلة شاذة مســـتهجنة مثل النحل المتطرفة الأخرى، التي كانت تدعي قديماً احتكار تمثيل الإسلام في أمريكا، وليس له حتى بذلك منجاة من مصير التلاشي والزوال.

هذا وإن أكثر ما يمكن أن يُحكَم به في تقدير قوة التيار المؤسسي المعتدل، الذي يتعلق بـــه مســـلمو أمريكا حالياً، هو ذلك الدعم القوي الذي يتمتع به، والحضور الحاشد في مؤتمـــراته، وقد بلغ حجم ذلك الحضور، رغم المحاذير الأمنية الكثيرة، التي قد تزهد بعض الـــناس في القـــدوم والمشاركة، مستوى استثنائياً غير متوقع، حيث بلغ عدد الحضور في مؤتمرين أقيما بالقرب من بعضها بعضاً بشـــيكاغو قبل أشـــهر، قرابة ثمانين ألف شخص - كمـــا سلف القول - وهو رقم ضخم بكل المقاييس، وفيه الدلالة الأقوى على تكريس نهج الوسطية العقلانية الواقعية نهجاً أمثل للتعامل مع المجتمع الأمريكي، وهو النهج المرجو لتخليص المسلمين من عقابيل ذلك الحادث الوبيل، وتجاوزها جميعاً، والسعي بعد ذلك نحو تمكين الإسلام منارة للهدى والرشاد في هذ البلاد.

أحداث سبتمبر
دعوة للمراجعة.. وإمكانية التجاوز

الأستاذ عمر عبيد حسنه (*)

المسلمون في الغرب جزء من البناء الحضاري والنسيج الاجتماعي، وإسهاماتهم الحضارية واضحة للعيان.. والأمل معقود، رغم الإصابات، التي لحقت بهم، والنزعات العنصرية التي تحاصرهم، أن يشكلوا جسور التواصل الثقافي والحوار الحضاري، ويصوّبوا ذهنية تلك المجتمعات، لتراهم من المحسنين.. وإن أخشى ما نخشاه ألا تأخذ أحداث سبتمبر ما تستحقه من التحليل والدراسة والمراجعة، على مستوى الذات و(الآخر)، والتعرف إلى الأسباب الحقيقية والموضوعية التي تكمن وراءها، واكتشاف الفجوات والعمل على تجاوزها.

أرى، شأن الكثير في العالم، أن أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) شكلت زلزالاً ما تزال حممه تجتاح العالم بأكمله، ومنعطفاً تاريخياً ما تزال ملامحه تظهر وتتضح شيئاً فشيئاً. لكن هذه المرة بشكل متسارع الإيقاع والآثار، بسبب ما تمتلك الدول الأقوى من تكنولوجيا الاتصال والأدوات الإعلامية المتفوقة، إلى درجة يمكن القول معها: إن هذا الحدث سوف يعتبر بداية لحقبة تاريخية عالمية جديدة واضحة البصمات على مسيرة الحضارة العالمية، والعلاقات الإنسانية عامة، قد

(*) مدير مركز البحوث والدراسات.. (دولة قطر).

لا تقـــل في أهميتها وتأثيراتما عن الحربين العالميتين اللتين أعادتا تشكيل العالم، ورسم خـــرائطه السياســـية والجغرافية والتربوية والاجتماعية والمفاهيمية وفق إرادة الأقوى المنتصر وتحقيقاً لمصلحته.

وقد لا نجافي الحقيقة ونقع في التهويل والمجازفة الفكرية إذا قلنا: إن أحداث أيلول (ســـبتمبر) كانت إيذاناً باندلاع الحرب العولمية أو العالمية الثالثة وإيجاد مسوغاتما، وإن اختلفـــت أدواتمـــا وأسلحتها ووسائلها وأهدافها، وميادينها، وأن هذه الحرب سوف تشمل العالم كله والمجالات كلها بشكل أو بآخر، إن لم تكن وصلتها بعد.

فهل يمكن لنا في ضوء الكثير من الحقائق والملحوظات والمعطيات أن نطلق عليها مصـــطلح حـــروب «العولمـــة» أو «عولمة» الحروب والهيمنة، سواء بالنسبة لمجالاتما المـــتعددة والشـــاملة أو أهدافهـــا التي لم تعد خافية على أحد؟ إنما حرب سياسية، وحرب فكرية واقتصادية وحضارية، حرب تغيير للعالم وإعادة تشكيله وتنميطه وفق إرادة الأقوى.

ولـــئن كـــان مـــيدان الحرب العالمية الأولى والثانية، في الأعم الغالب، الدول الأوروبـــية عـــلى وجه الخصوص، وإن امتدت نتائجها وآثارها إلى العالم كله، فإن مـــيدان هذه الحرب الرئيس هو العالم كله بشكل عام وعالم المسلمين بشكل أخص، حيـــثما كـــانوا، ولا نقول العالم الإسلامي جغرافياً، لأن مسلمي الغرب كانوا خط المواجهـــة الأولى، وإن كانـــت الصـــورة تبدو أكثر ظهوراً والأهداف أكثر تجلياً ووضوحاً في بعض أنحاء العالم الإسلامي الأخرى.

وقد لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن أحداث أيلول (سبتمبر) اعتبرت، عند بعض الحاقدين والعنصريين، واستغلت كفرصة عظيمة للثأر من المسلمين، وإنعاش الأحقاد التاريخـــية، وتجديد الذاكرة الغربية التي مرت بحقب من العنصرية والصليبية، ومحاولة

استرجاعها لمناخ الحروب الصليبية التي شنتها، ومن بعدها الاستعمار الحديث، ومن ثم صناعة العمالة السياسية والثقافية في عصر ما بعد الاستعمار على العالم الإسلامي.

لذلك يمكن، من بعض الوجوه، اعتبار هذه الأحداث وتداعياتها هي أشبه بالكواشف الكيميائية، التي تحدد خصائص وصفات وتفاعلات المواد، وتبرز الحقيقة الكامنة خلف الصورة المزيفة، وتسقط الأقنعة، وتسفر عن الوجه الحقيقي للكراهية والعداوة، وتخرج الأضغان، لذلك فهي تحتاج إلى المراقبة الدقيقة، شأنها في ذلك شأن معظم الأزمات الكبرى التي تخرج المخبوء عادة، بعيداً عن التكيف وصور النفاق الاجتماعي والسياسي، إنها تمثل المرآة الحقيقية للواقع، والزاوية الدقيقة للنظر والمعرفة، على الرغم من ادعاءات ودعايات الرحمة والإنسانية، واحترام حقوق الإنسان، وإشاعة قيم الحرية، والحرص على إشاعة الحرية الدينية، ونشر قيم الديمقراطية، والعدل، وعدم الاعتداء، وإقرار الحق في تقرير المصير، وعدم التدخل بالشؤون الداخلية للدول والشعوب، والجنوح إلى الحوار بديلاً عن المواجهة.

ونحن هنا لا نريد أن نعمم بأحكامنا هذه على سائر الحقب التاريخية وسائر الناس، شأن ساسة وقادة بعض الدول الغربية اليوم، الذين باتوا يجيشون الجيوش، ويحشدون الأقلام والإعلام والأموال لمعاقبة المسلمين جميعاً، وأخذهم بجريرة بعض الآحاد، أو بعض الأفراد، على شكل لا يمكن تفسيره إلا أنه محاولة لإحياء الروح الصليبية، وبعث الأصولية الحاقدة من جديد، وتغذية نزعات التعصب، والتعبئة ضد المسلمين، إلى درجة التشكيك بالإسلام ونبي الإسلام والقيم الإسلامية، وإشاعة أحاديث الإفك، ومجافاة الحقيقة التاريخية في الادعاء أن القيمة الإسلامية عاجزة ومتخلفة بطبيعتها عن صناعة الحضارة، بهذا الشكل المقيت والفج من عمى الألوان، الذي يقود إلى التعميم بالأحكام، ومحاولة رمي المسلمين بداء التعصب والعنصرية الذي يعانون هم منه.

مؤثرات مناخ الكراهية

وقــد يكــون من المفيد أن نفتح بعض النوافذ للإطلالة منها على المناخ الثقافي والسياســي، الذي يحكم الذهنية والإدارة الغربية المعاصرة، التي رضيت لنفسها أن تكــون، ســواء بفلــتات لســانها أو بممارساتها المتنوعة، وريثة الحروب الصليبية والاستعمار الحديث، وحاملة لواء الهيمنة على العالم باسم «العولمة»، وفرض الأنماط الغربــية في المجالات المتعددة، السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، التي باتت تمثل اليوم الاستعمار الأحدث.

وسوف نشير إلى بعض من خروج هذه الأضغان بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر ٢٠٠١م) حيث كثرت الكتابات الغربية عن علاقة الغرب بالإسلام، وجاءت تلك الكتابات تحت عدد من العناوين المتشابهة من أمثال: الإسلام والغرب، الصــراع بــين الحضارات، المسلمون خلف الحصار الغربي، انتهزوا الفرصة، ما بعد الحرب الباردة، ما بعد السلام، الأصولية الإسلامية، نهاية التاريخ... إلخ.

وقــد تزعّم تلك الحملات المسعورة وأوجد لها مسوغاتها الفكرية والاستراتيجية بعــض الكــتاب من أصحاب الخلفية التوراتية، من أمثال: برنارد لويس، وصموئيل هنتنجــتون، ومن موظفي الأمن والاستخبارات الأمريكية من أمثال: جراهام فوللر، وأيان ليسر.

ولعل ما صرح به «جون كالفن» السكرتير العام السابق لحلف شمال الأطلسي بعــد هــدم جــدار برلين - ولم تقع أحداث بعد - الذي اعتُبر نصراً للإمبريالية الرأسمالــية، يشــكل إشــارة واضحة لوجهة معظم منظري السياسة الغربية، الذين يقبضــون عــلى السلطة اليوم؛ يقول «جون كالفن» ما ترجمته: لقد كسبنا الحرب

الباردة بين الشـــرق والغرب، ولكن هناك خـــلافاً قديماً سوف يتجدد (إن عاجلاً أو آجلاً) بيننا وبين الإسلام، ولا ندري من الذي سيكسب المعركة؟!

ومـــا صرح به «مايكل سالا» من أساتذة الجامعة الأمريكية في واشنطن، الذي ذكر أن العلاقات بين السياسة الخارجية الغربية وبين الإسلام سوف تكون علاقات عدائـــية واستئصالية، على غرار الاستراتيجية التي اتبعتها الرأسمالية مع الشيوعية حتى اسقطت الاتحاد السوفيتي.

و«ســـالا» هذا مصاب بعمى الألوان أيضاً، فهو لا يرى إسلاماً متطرفاً وآخر معـــتدلاً، فالفرق بينهما عنده بالتكتيك لا أكثر، ومن ثم فإنه يرى، شأن عدد غفير مـــن الباحـــثين، ضرورة دعم حكومات المسلمين التي تقوم على قمـــع الحركات الإسلامية، لما لتلك الحركات من خطر – في زعمهم- على الحضارة الغربية.

وهـــذه الوجهـــه قد لا تحتاج إلى دليل، لأنه الواقع الذي يكاد يكون مشهوداً ومســـتمراً منذ إســـقاط الخلافة والإتيان بالعسكر للحكم، لأنـــهم الأقـــدر على ممارســـة الظلم والاســـتبداد السياسي، وإن اســـتبدلوا ألبســـتهم، لقمع حركات الوعي الإسلامي.

أما «هنتنجتون» صاحب كتاب «صراع الحضارات» فيحمل الولايات المتحدة المســـؤولية الأولى في انتشـــال الغرب من وضعه الراهن، وفي فرض الحضارية الغربية كحضارة عالمية.

ونعـــاود القـــول: إنـــنا بالإتيان على مثل هذه النماذج من المفكرين والساسة والـــزعماء، الذيـــن لا هـــمَّ لهم إلا إثارة الكراهية، وبعث الأحقاد، والإغراء بقتل المسلمين ومحاصرتهم، ومحاولة إقصائهم وإلغائهم حضارياً، ومواصلة الحروب الصليبية المقـــنَّعة، والترويج لها، والتحريض ضد الإسلام والمسلمين في المجتمعات التي تدعي

العلمانية، وإقامة ودعم أنظمة الاستبداد السياسي، وهي تدعي الديمقراطية، لا تهدف إلى المساهمة بصناعة مناخ الكراهية والتحضير للمواجهة، ولا حتى التعميم بالأحكام عـــلى أهـــل حضــــارة الغرب كلهم، وإنما هي نوافذ على حمَّالين الحطب، لإدراك السبب الحقيقي الكامن وراء المواجهة.

إننا لا نريد أن نقع بما وقعوا به من التعميم والحكم على العالم الإسلامي بأكمله والمســـلمين أينما كانوا، وتجريمهم، ومعاقبتهم، وغمط الحضارة الإسلامية بفعل نفر منهم، ذلك أن التعميم لا يخرج عن أن يكون ضرباً من العامية وعمى الألوان وعدم التميـــيز، حتى ولو كان يختفي وراء ألقاب علمية وفكرية، لأن التعصب والحقد هو المحرك، الذي كثيراً ما يجعل العلم والفكر مطية له، فالعلم مع التعصب يقود إلى البغي والتعسف والكثير من التجني.

وفي يقيننا أن هذه الموجة العاتية التي يقودها اليمين المتطرف -وإن صح التعبير: المتصهين- ضد الإسلام والمسلمين، سوف تتكسر، مهما طال بها الأمد؛ لأنها محض ظـــلم، وضـــد سنن الله في الأنفس والآفاق، وإن انتصرت إلى حين، والعبرة دائماً بالعواقب، حيث لا يصح إلا الصحيح، شأنها في ذلك شأن سائر العداوات التاريخية، ومصـــيرها سيكون ذات مصير سائر الإمبراطوريات التي حاولت الهيمنة والاستيلاء على العالم، لكن لا بد أن نشير إلى أن سنن الله سبحانه وتعالى إنما تتحرك من خلال عـــزائم البشر واستشعار التحدي والمدافعة الحضارية، فالعبء الأكبر يقع على عاتق المسلمين، وقدرتهم على فهم الصورة واستيعابها، وكيفية التعامل معها.

ولا شـــك أن مـــن التعمـــيم الشائن اعتبار أن هذه الموجة العاتية المتعصبة تمثل مجـــتمعات الغـــرب كلها، وإن كانت اليوم تطفو على سطحها، ذلك أن الكثير من العقلاء والمفكرين والعلماء وحتى أفراد الشعب العاديين باتوا يبصرون المخاطر كلها

التي سوف تترتب على هذه المسالك الرعناء، ويحذرون بكل ما يستطيعون من خطورة النتائج.

إن صور الحقد والكراهية للغرب باتت تتسع، حيث بدأ الغرب يفتقد مصداقيته في عمق الشعوب الإسلامية التي بدأت تشعر يومياً بإهانة الغرب لها بمختلف الصور، ولا عبرة هنا بالأنظمة الرسمية، التي تبدو موالية للغرب، ذلك أن الكثير من تلك الأنظمة الرسمية ما يزال يعتمدها الغرب، هذه الأنظمة وإن استطاعت أن تتحول إلى الغرب لكنها لم تستطع أن تحول شعوبها، الأمر الذي جعل المواجهة مع الذات، حيث باتت الدولة في مواجهة الأمة في كثير من بلدان العالم الإسلامي، مما أنهك الدولة وأنهك الأمة، وهيأ المناخ المناسب لنمو بعض تنظيمات التطرف والغلو واللجوء إلى المواجهة.

ذلك أنه بمعادلة بسيطة وساذجة من قبل المتطرفين، فإن الكثير منهم أصبح يتوَهم أن الدولة إنما تمارس القهر والغلبة والإقصاء بما تمتلك من السلطة والقوة، فلماذا لا يلجأ إلى استعمال القوة وممارستها للخلوص من حالة الإحباط واليأس والاحتقان والمحاصرة، فوقع بمعالجة الخطأ والانحراف بخطأ وانحراف، وبذلك قدم المسوغات والمبررات للدولة ومَنْ وراءها - دون أن يدرك - لمحاربة القيم الإسلامية باسم محاربة التطرف والإرهاب.

وليس هذا فقط، فقد تكون ممارسة التطرف والإرهاب صناعة دخيلة وغريبة عن الإسلام، وقد تكون ثمرة لاختراقات خارجية لتشويه صورة الإسلام وإيجاد المسوغ لمواجهته بعد أن تزايد عدد معتنقيه، ولتسويغ العدوان والاجتياح، باسم محاربة التطرف والإرهاب.

من محاذير الفكر الدفاعي

وفي غمـــرة هـــذه الهجمـــة الشرســـة، والصورة الضبابية، واختلاط الأوراق، والألوان، وعدم التمييز في المواجهة والمسؤولية بين البرئ والجاني، هنا قضية قد يكون مـــن المفـــيد بل من الضروري التوقف عندها ولو بقدر، على الرغم من الكتابات الكثيرة التي صدرت عن الداخل الإسلامي بعد أحداث أيلول (سبتمبر) لمواجهة كُلّ الاتهامـــات لعمـــوم المســـلمين وتجـــريمهم، وليس ذلك فقط بل محاولة إدانة القيم الإســـلامية، واعتبارها المسؤولة، الأمر الذي يدعو للشفقة ويتجاوز كل عقل وعدل ومـــنطق وتـــاريخ، ذلك أنه يمكن تصنيف جميع الكتابات والأدبيات الصادرة بعد الحادي عشر من سبتمبر في خانة الفكر الدفاعي، أو الأدب الدفاعي، الذي قد يصل أحـــياناً إلى مرحلة المرض، ويساهم سلبياً بغلبة العدو وتكريس الهزيمة والوصول إلى حالـــة مـــن الهوان التي يرضى فيها القتيل وليس يرضى القاتل، وأن الجريمة المرتكبة تنتهي دائماً بالقبض على القتيل.

وليس الغاية هنا أن نقلل من قيمة وأهمية الفكر الدفاعي لحماية القيم الإسلامية والدفـــاع عـــن الحقيقة وكشف الزيف والتجني ونصرة عالم المسلمين، ولكن الذي نـــريده أن لا يتجاوز الفكر الدفاعي المساحة المحددة والمقدرة حتى لا يُلقي (الآخر) القـــبض عـــلى عقولـــنا ويغتصبها، ويحدد نشاطها مسبقاً، ويتحكم بإنتاجها، على حســـاب الكـــثير مـــن قضايانا الملحة على الأصعدة المتعددة، كما اغتصب أرضنا وسياساتنا واقتصادنا، ذلك أن الاتهامات المتتابعة تجعلنا مشغولين فكرياً بما يشغلنا به، وهذه من أخطر دوائر التحكم الفكري والثقافي.

ونستطيع القول: إن إلقاء نظرة على الأدبيات الصادرة في عالم المسلمين، خلال الســـنوات الـــثلاث الأخـــيرة، تكشف عن أنها لم تخرج في معظمها عن هذا الفكر

الدفاعي ورد التهم، والكثير يشعر أنه على الرغم من ذلك فلا يزال الأمر بحاجة إلى المزيد، الذي قد يكون على حساب قضايانا الأخرى.. فالتهم، والمفردات الإعلامية، والمصطلحات السياسية، التي نُقذف بها كالحمم من (الآخر) استطاعت عملياً التحكم والتوجيه لنشاطنا الذهني وإنتاجنا الفكري.

هذه الهجمة على القيم الإسلامية، والتشنيع على عالم المسلمين، وإن اشتد أوارها، بعد أحداث أيلول (سبتمبر)، واستخدمت لها كل الأسلحة، إلا أنها قديمة قدم الإسلام نفسه، حتى لتكاد تصبح سنة ماضية ومسلَّمة لا تحتاج إلى مراجعة: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ (البقرة:٢١٧)، ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ (آل عمران:١١٩).. وسوف لن يرضى عنا بعضهم مهما حاولنا، والواقع شاهد على ذلك، حتى نتبع نهجهم وقيمهم وثقافتهم وحضارتهم؛ لأنهم يعتبرونها المعيار لكل حضارة وتقدم وسياسة واقتصاد واجتماع وفن وقيم وعادات، حتى الطعام والشراب... لن يرضوا حتى نتبع ملتهم.

وهذه ليست وجهة نظر، جاءت ثمرة لرد فعل، وإنما هي حقيقة تاريخية وحضارية، تؤكدها الحروب الصليبية، وحروب الاستعمار الحديث، وأنماط الاستعمار الأحدث، وحروب «العولمة» التي تكاد تكتسح العالم كله، لفرض قيم النظام العالمي الجديد، أو إقصاء كل ما عداها، حتى بات يحكم عالمنا اليوم بشكل واضح مقولة: «يرضى القتيل وليس يرضى القاتل».

وقضية المواجهة وإيجاد العدو وتجييش الجيوش وتحويل مسار العلم والتقنية لإنتاج وسائل القوة والتسلط، وتحريك الجيوش تجاه (الآخر) تحت مسميات متعددة، من حروب صليبية إلى حروب الاستعمار إلى حروب عالمية، والحلم بالإمبراطوريات،

يكـــاد يكون نسق الحضارة الغربية وحلمها وكيالها وهاجسها الدائم، فإذا لم يكن هـــناك عدو يصبح الأمر المطروح كيف نصنع عدواً، حتى لو لم تكن هناك معارك وحـــروب ســـاخنة، فالإعداد والاستعداد والهواجس تبقى تحكم العقلية في ما أسمي الحرب الباردة.

وتغـــيير الأسلحة والتحول إلى مجال الإنتاج الإعلامي والمعلوماتي والإلكتروني، واعتـــبار المعـــرفة هي القوة المرنة وقوة المستقبل، هو تطوير للوسيلة، وبقاء للعقلية، وتمكـــين للمـــناخ الثقافي، الذي يربي على السيطرة والتفوق والصراع والغلبة على (الآخـــر)؛ لأن ذلك في زعمهم يوحد الصف، ويقوي الجبهة الداخلية، ويجمع الأمة لحمايـــة نفســـها وتجاوز مشكلاتها وأزماتها الداخلية، دون أن تدري أن التداعيات الخارجـــية للمواجهة وتوسيع دائرتها وإقامة الإمبراطوريات يؤدي إلى نشوء الأزمات الداخلية القاتلة.

لذلـــك فمسلســـل المواجهة والاستهداف لم يتوقف وإن تغيرت وسائله، فمن الحـــروب الصليبية إلى الحروب العالمية، إلى حروب الاستعمار الحديث، إلى مواجهة الشيوعية ومؤسساتها، إلى حروب ما بعد سقوط الشيوعية، كلها مؤشرات على أن المواجهة واصطناع العدو والصراع معه هو نسق حضاري ثقافي معاً.

ولعـــل استهداف القيم الإسلامية والعالم الإسلامي لم يغب عن الذهنية وبعض الإدارات والقـــادة والمفكرين الغربيين، في كل مراحل المواجهة، التي بدأت بالحروب الصـــليبية، مـــروراً بالحروب العالمية التي أدت إلى تقسيم العالم الإسلامي وتفخيخ المـــنطقة بإقامة إسرائيل، وانتهاءً بحروب الاستعمار الحديث، التي أدت إلى احتلاله، وكانـــت غالباً ما تصفى الحسابات بدماء المسلمين، وكان المسلمون وعلى الأخص مـــن المغـــرب العـــربي هم وقود الحروب العالمية في كثير من الأحيان، كما كانوا السواعد لبناء ما خلفته الحرب من دمار.

ولا يغيب عن بال أحد من المتابعين والمراقبين كيف استخدمت القيم الإسلامية كسلاح لمواجهة الشيوعية والإلحاد في العالم، وجندت لذلك الكثير من الأنظمة والحكومات والأموال في عالم المسلمين لمواجهة الشيوعية، عدو الرأسمالية اللدود، باسم محاربة الإلحاد وحماية العقيدة الإسلامية، مما أدى إلى تقسيم العالم الإسلامي إلى دول ثورية اشتراكية ودول يمينية محافظة، وكان بأسها بينها شديداً، الأمر الذي أنهك الأمة و لم يقتصر على إنهاك الدولة.

لقد استخدمت التضحيات الإسلامية، والأموال الإسلامية، والأنظمة في البلاد الإسلامية، وحتى بعض التنظيمات الإسلامية، لمواجهة الاتحاد السوفيتي في أشرس المعارك في أفغانستان، وزُوِّد المجاهدون بأموال المسلمين وسلاح الغرب ودعمه لدحر الاتحاد السوفيتي، حتى لنكاد نقول: بأن أفغانستان والمجاهدين كانوا أحد الأسباب الرئيسة لسقوط الاتحاد السوفيتي، ثم تحولوا بعد ذلك إلى متطرفين إرهابيين يجب مطاردتهم، لما سوف يشكلون من خطر على الحضارة الغربية وعلى الأنظمة وحكومات المسلمين (!)

هذا عدا عن إقامة الأنظمة الديكتاتورية، ودعمها ودفعها لخوض المعارك الطاحنة لصالح (الآخر) ومن ثم يجيء الوقت للتضحية بهذه الأنظمة واستبدالها؛ لأن العملاء هم الأرخص دائماً، وسوف يُلفظون بعد أداء الدور المنوط بهم.. وقبل ذلك وبعده ما قام به الغرب، الذي يدعي العلمانية والديموقراطية، من تفخيخ العالم الإسلامي - كما أسلفنا - بإقامة الكيان الصهيوني العنصري القائم على الرؤية الدينية في قلبه، ينهك قواه، ويهدر طاقاته، ويصنع أزماته، ويساهم بعدم استقراره، ويستنزف ثرواته، ويكرس تخلفه.

ونستطيع القول: بأنه على الرغم من التحدي والاستفزاز الذي صنعه الكيان الصهيوني، والذي ساهم إلى حدٍ كبير بحركة الوعي والعودة إلى الذات والاحتماء بالجذور والقيم الإسلامية، وكشف الانحياز وتغييب الحق والعدل عن المواقف الدولية، الأمر الذي أسقط الأقنعة عن الوجوه، وأفقد الكثير من دول الغرب مصداقيته، وساهم بشكل أساس في صنع التطرف والتشدد والغلو لمواجهة إرهاب الدولة المحتلة، والثأر من الدول المنحازة لها، التي تكيل بمكيالين أو أكثر، إلا أن الحقيقة التي لا مجال لتجاوزها أن الكيان الصهيوني ومن ورائه اليمين المتصهين، كان فخاً محكماً ومخططاً له بذكاء ودهاء، أدى الدور المنوط به بشكل محكم ولا يزال.

فالتمهيد لشيوع الاستبداد السياسي في العالم العربي والإسلامي، وما يمكن أن ينتجه من الغلو والتطرف والمواجهة، سُوِّغ لوجوده بذريعة مواجهة الاحتلال، وكان الشعار الدائم الذي يخرس الناس: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، حيث أخرست الأصوات، فتخلف المجتمع وكتمت الأنفاس وصودرت الحريات، وبدأ مسلسل «العسكر من أجل حماية الوطن وأمل التحرير للأرض المحتلة»، واستمر مسلسل الانقلابات العسكرية المتبادلة باسم ثورات التحرير، التي قضت على الحرية، وقسم العالم العربي إلى دول تقدمية جعلت من نفسها وصية على القضية أو قضايا الأمة، ودول رجعية اتهمت بالعمالة والتآمر على القضية؛ ولا تسأل عن الإنهاك الذي تركته هذه المساجلات، التي لم تزد المنطقة إلاَّ تخلفاً وعجزاً.

حتى الجيوش، التي تشكلت من أجل التحرير وحماية الوطن استنفدت خيرات البلاد، وأنهكت اقتصادها، وتحولت من حماية الوطن إلى حماية الأنظمة وسدانة

الاستبداد السياسي وممارسة القهر للعباد والبلاد، وتحولت إسرائيل من كيان هزيل إلى أسطورة في القوة التي لا تقهر، وبذلك لم تقتصر الخسارة على فلسطين وإنما امتدت الخسائر والعوارض لتصيب جميع أنشطة الحياة.

أما الاقتصاد وإصاباته المزمنة في بعض بلدان العالم العربي والإسلامي فحدث عنها ولا حرج، فمعظمه تعرض للنهب العام، وما بقي انتهى إلى تكديس الأسلحة التي تضر ولا تنفع.. حيث أصبحت الأموال والأسواق العربية محلاً لأسلحة الخردة، إضافة إلى أن الأنظمة التي ادعت الثورية السياسية والاجتماعية وتخليص البلاد من الفقر والطبقية، لم تنجح إلا في تعميم الفقر بعد أن كان هناك فقراء وأغنياء، لتحقيق مبدأ المساواة، ونشوء طبقات جديدة استأثرت بالثروة والحكم (كان قلبها على اليسار لكن جيوبها كانت في اليمين) كما يقال، وأصبح الناس يقتاتون بالشعارات ويرددونها: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، «لا حرية لأعداء الشعب»، «كل الخصوم، من كل الأطراف، عملاء لإسرائيل ومن وراءها»، حتى يكاد لا يبقى شريف في الأمة، والقهر والتسلط والطرد والتهجير القسري والاختياري، وتفريغ البلاد من كل الطاقات، هو السياسة المعتمدة.

هذا إضافة إلى ما تركته نكبة فلسطين من الدفع بآلاف المحرومين واللاجئين والمطرودين والعاطلين عن العمل إلى بلاد العالم الإسلامي والعالم، في الوقت الذي كانت إسرائيل تسهر على بناء نفسها، وتكريس ديمقراطيتها، وتقوية جيشها، وإطلاق الصواريخ، وبناء مؤسسات أسلحة الدمار الشامل، وإطلاق المصطلحات والمفردات والمفهومات والمدلولات التي يعاد إنتاجها في الغرب وتسويقها إلى العالم بشكل عام والعالم العربي والإسلامي بشكل خاص،

ومحاسبته عليها، ويستمر فينا التراجع والتقهقر، وتسودنا مقولة: «يرضى القتيل وليس يرضى القاتل».

فكيف والحال هذه، والمناخ هذا، لا يكون التطرف، ولا يكون الإرهاب، ولا يكون الغلو؟!

فالغريب أن لا يكون هناك إرهاب وتطرف وحركات يائسة وتصرفات محبطة؛ لأن أسبابها جميعاً متوفرة، وضاغطة، وقد يكون من التعسف والظلم والمجازفة أن يعتبر بعض الباحثين والقادة السياسيين أن سبب التطرف والإرهاب والغلو، مع تحفظنا على الكثير من مدلول هذه المصطلحات، هو الإسلام، ومن ثم يعتمد هذا التسويغ، الذي لا يمت لعقل أو علم أو استقصاء أو دراسة موضوعية جادة، لظواهر الغلو والتطرف والإرهاب، فالأسباب التي قد لا تحصى هي المسؤولة عن مثل هذه الظواهر، اللهم إلا إذا كان الكثير منها مصنوعاً، وكان أصحابها مُخْتَرَقون، وأنها صنعت لتُتخذ ذريعة للنيل من الإسلام والقيم الإسلامية وحضارة المسلمين، ذلك أن رفع اللوحات والشعارات الإسلامية على مثل هذه الظواهر والممارسات لا يغير شيئاً من الحقيقة، فالاسم مهما كان لا يغير حقيقة المسمى، ولا أدل على ذلك من هذا التعميم الرهيب الرعيب، الذي يفتقر لكل منطق وعقل ودليل، على المسلمين جميعاً، بل وعزو سبب التطرف إلى القيم الإسلامية.

فالنظر لمثل هذه الظواهر، وعنونتها بالإسلام، فيه الكثير من الظلم والتجني ومجافاة الحقيقة؛ ومحاكمة الإسلام والمسلمين على هذه الظواهر هو الخطر، الذي لا بد من التفكير الكثير بكيفية التعامل معه.

والعجيب الغريب أيضاً أن ينساق وراء هذه التفاسير والتحليل لظواهر العنف والتطرف والإرهاب، الكثير من الساسة والمفكرين وأهل الرأي والعلماء، الذين تحول

العلم على يدهم إلى لون من البغي: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ (آل عمران:١٩)، وتناسوا الأسباب الحقيقية لهذه الظواهر، لحاجة في نفس يعقوب، واعتبروا القيم الإسلامية هي المسؤولة عنها، والمسلمين هم الإرهابيون والمجرمون.

وبذلك أعطوا أنفسهم الحق في الحرب على الإسلام والمسلمين، وإعادة احتلال بلادهم، وتجاوز سيادتهم، والتدخل بل والضغط عليهم لتغيير أسلوب حياتهم ومناهجهم وعاداتهم وتاريخهم وتعليمهم ودينهم وأنظمتهم السياسية والاجتماعية والإعلامية، وبدأت الدعوات إلى ضرورة التغيير، وامتلاك حق التدخل، ووضع التشريعات التي تسوغ ذلك، وتشريع قوانين الأدلة السرية، كسيوف مسلطة على رأس كل إنسان والتي لا يجوز الإطلاع عليها لدواع أمنية؛ لأن في ذلك إخلالاً بالقضية الأمنية وإضراراً بالأمن القومي، وتشريعات لحق التدخل باسم ضرورة توجيه الضربات الاستباقية أو الحروب الدفاعية، وافتراض أعداء، وتعميم هذا الافتراض، وعدم قصره على من يقوم بالإرهاب - حسب رأيهم- وتجنيد الكثير من القادة والزعماء والمفكرين والمشرعين لتسويغ هذه الممارسات لإرهاب الدولة الأقوى، التي تتدخل بالعالم كله باسم الحرب على الإرهاب وتعقبه، واعتماد المؤسسات السياسية والتشريعية الخاصة بالدول الأقوى، ومنحها الحق وإطلاق يدها في العالم بدل مؤسسات الأمم المتحدة.

إن مرحلة جديدة، أو حقبة جديدة من حقب التاريخ، بدأت بالحادي عشر من سبتمبر، مهما حاولنا التهوين من الأمر، أو التهويل لأسبابه وآثاره، وأن المستهدف الأول في ذلك يكاد يكون هو الإسلام والمسلمين، مع الأسف.

الهجرة إلى أرض العدل والحرية

هناك حقيقة يعتبر إدراكها على غاية من الأهمية، على مستوى الدعوة والحركة والتعامل مع (الآخر)، وهي أن المسلم يعتقد أن الأرض كلها لله، يورثها من يشاء من عباده، وهي فضاء الحركة ومجالها.. والهجرة إلى أرض الله الواسعة اعتبرها الإسلام سبيلاً للخروج من حالات الضغط والمعاناة، وتجاوزاً لحالات الاستضعاف: ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (النساء:٩٧)، ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ (النساء:١٠٠).

لذلك فالمسلم لا يعاني من عقدة الاغتراب، كما أنه لا يعاني من عقدة الأغراب والأغيار؛ لأنهم محل لدعوته، فهم أمة الدعوة ومجالها، والهدف هو إلحاق الرحمة بهم وإنقاذهم، والمسلم مواطن عالمي في أمة الإسلام، ومن ثم في دولة الإسلام، حيثما كان وكانت جنسيته، فالإسلام فكرة أمة قبل أن يكون كيان دولة.

والهجرة ليست هروباً وفعلاً سلبياً وإنما هي بالنسبة للمسلم خطة وحركة إيجابية، مجاهدة وفرصة عطاء، وإتاحة مجال لتوصيل قيم الإسلام وإلحاق الرحمة بالعالمين، استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) فالمهاجرون رسل الدعوة والرحمة للناس حيثما تحركوا وأينما كانوا، والأصل أن المسلم رسول رحمة ودعوة قبل أن يكون رجل دولة وسلطة؛ فالدولة والسلطة وسيلة لتحقيق كسب أكبر من الخير وليست غاية في نهاية المطاف.

فالهجـــرات في تاريخ الإسلام بشكل خاص والنبوة بشكل عام، وإثارة الاقتداء عـــند (الآخر)، كانت ولا تزال هي الوسيلة الأهم في مسيرة الدعوة إلى الله.. وإذا كـــان الإسلام دين الإنسان، وقرآنه خطاب الإنسان، أينما كان، فذلك يفتح آفاقاً للدعوة والحركة واتساع دائرة الأخوة الإنسانية بشكل يتجاوز كل الحدود والفوارق القسرية، والبعد عن التعصب والانغلاق والعنصرية، ولعل هذا هو السبب الرئيس في انتشار الإسلام والإقبال عليه وقبولـــه من أبناء بلاد المهجر، حتى ولو كان دعاته من المهاجرين إليهم.

والهجـــرة كانت ولا تزال منبع عطاء وخير وجهاد، سواءً أكانت هجرة المسلم إلى (الآخـــر) أم هجـــرة (الآخر) إلينا. لذلك فالهجرة ليست تولية دبر بقدر ما هي استراتيجية تجاوز لمجال أفضل وعطاء دائم ومستمر.

ولا بـــد مـــن الاعتراف أن أمريكا، حتى بدايات أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كانت تتمتع بأقدار من الحرية والديمقراطية وحماية حقوق الإنسان بشكل عام، والمساواة، وتكـــافؤ الفرص، وتوفير فرص العمل.. كانت حريصة على استقطاب الكفاءات العالمية النادرة للمساهمة في بنائها الحضاري، ولذلك كانت محل جذب وإغراء بالهجرة إليها من العالم الإسلامي والعالم، رغبة في الحرية والتمتع بالكرامة والعدل، خاصة وأن معظم أنحاء العالم الإسلامي يسوده الاستبداد السياسي وانتهاك حقوق الإنسان.

فالهجرة إلى أمريكا والغرب لم تقتصر على هجرة السواعد فقط، وإنما تجاوزتها إلى هجـــرة العقول والكفاءات، حتى غدت أمريكا محلاً لاستقطاب الكفاءات وتقديرها، ومحـــلاً لطلـــب العلم والمعرفة والخبرة في معاهدها وجامعاتها، الأمر الذي أتاح فرصاً ذهبـــية للـــتعريف بالإسلام، والتعرف عليه، واستقراره، وانتشاره، واعتناقه من عدد

ملفت من السكان الأصليين، إضافة إلى قيام المراكز والمدارس والمؤسسات الإسلامية على أصعدة متعددة، حتى لقد فضلها كثير من المسلمين على بلدانهم الأصلية.

ولعل قولة الرسول ﷺ للمسلمين الأوائل الذين عانوا ما عانوا في بلدهم: «**إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه**» تشكل رؤية دقيقة ومنهجاً خالداً، وحالة مجردة عن حدود الزمان والمكان، ومستمرة في حياة المسلمين.

فأمريكا، قبل الأحداث، كانت تتمتع بمناخ من إشاعة العدل والموضوعية والسمعة الطيبة؛ وقد وجد المهاجرون أنفسهم وكرامتهم فيها، وهذا لا يمكن ولا يجوز بخسه بحال من الأحوال، ولا يمكن أن يطمسه أو يتجاوزه بعض أصحاب الأنظار الكليلة والاجتهادات المحزنة، الذين قد لا يكونون مدركين للقيم الإسلامية وكيفية التعامل معها وتنـزيلها على الواقع بشكل صحيح، ولايدركون العصر ومتغيراته ومتطلباته ومشكلاته، ولا طبيعة المجتمعات وتكوينها وكيفية التعامل معها من خلال القيم الإسلامية، ولا حتى أمور المواطنة وعهودها ومواثيقها، لذلك نجد الكثير منهم يتعسف في استعمال فرص الحرية بحماسات ونزقات وغيبوبة وعي تسيء للإسلام، وتدعوا إلى النفور منه، وتحمل (الآخر) على دمغة بالتطرف والإرهاب، واتهامه بعدم الاعتراف بالتنوع وإقصاء (الآخر).

هذا واقع قد يضيق في فترات الوعي بالإسلام والعصر، وقد يتسع في فترات التعصب وقلة الفقه والإدراك، لكنه لا ينقطع بإطلاق، شأن حالة الخلق وطبيعته في كل المجتمعات والأديان والأقوام.

- المشكلة ثقافية:

لذلــك يمكــن القــول: بأن الإشكالية الحقيقية بالنسبة لمسلمي الغرب، وخاصة الوافدين منهم، إشكالية ثقافية، تتمظهر تجلياتها واضحة في المجالات المختلفة، السياسية والاجتماعــية والإعلامــية والفكرية والمؤسسية... إلخ، ذلك أن معظم المهاجرين، في الغالــب وعــلى الــرغم مــن الوصول إلى الجيل الثالث أو الرابع، ما يزال مسكوناً بمشــكلات وأزمات مواطنهم الأصلية، التي خرجوا منها، وإن كان عملياً ساكناً في الغــرب. وما تزال تلك المشكلات تشكل قُوتهم اليومي، وتستغرقهم وتنغلق عليهم، وتشــكل جدلاً مستمراً يستنــزف الطاقات، ويهدر الإمكانيات دون كبير جدوى، ودون أن يدركــوا بأن التباين الحضاري والثقافي والتنموي والتقني والديني واضح بين بلدانهم الأصلية وبلاد المهجر، ولعل ذلك هو السبب الأساس في أنهم لم يؤدوا رسالتهم بشــكل جيد، ولم يكن تأثيرهم كبيراً، كما هو مأمول، وكان غيرهم أقدر منهم على فهم المجتمع والاندماج به، والحصول على مفاتيحه الحقيقية في العلم والمعرفة والمواطنة.

ومــا لم يدرك مسلمو الغرب هذا التباين والاختلاف في السوية والتنمية وطبيعة المشــكلات، ويبصروا آليات التعامل الحضارية، والمنابر الفاعلة في المجتمع، ويعرفوا كيف يرتادونــها، ويرتقون من خــلالها بعلم وفقه وموضوعــية، أو بعبارة أخرى ما لم يدركوا أن المشكلة ثقافية، وأن المطلوب قبل كل شيء إعادة التشكيل الثقافي للذهنــية المســلمة في ضــوء مكونــات مجتمعات الغربة، وتحديد الفرص المتاحة والإمكانــات المتوفرة، فسوف يستمر الضرب في الحديد البارد، مهما طال الزمن، وتستمر المجازفات العميّة، التي لا تحمل إلا البلاء، ونحن نظن أننا نحسن صنعاً.

ولا شــك أن للمسلمين، سواءً كانوا من سكان البلاد الأصليين أم من المقيمين الوافدين، حقوقاً كفلتها دساتير وقوانين تلك البلاد، لكن مع شديد الأسف ما يزال الكــثير منا يتعسف في استعمالها، وبذلك نحوِّل فرص الحرية من فضاء متاح للخيار

والعمل والفهم وإدراك (الآخر) وكيفية التعامل معه، وهدايته، وإلحاق الرحمة به، إلى بيئة تستنبت الكثير من المشكلات والخلافات التي كانت مكبوتة قبل الهجرة إلى أمريكا والغرب، ويستمر صراخنا وإداناتنا وقتالنا في غير عدو، ويحتل نفوسنا ورؤوسنا مناخ التخلف والتعسف، ويستصحبنا ويسيطر علينا التشكيل الحزبي الناشئ في مناخ الاستبداد السياسي، بكل مشكلاته، وتحتل ذهنيتنا الاجتهادات الفقهية التي لم تعد تصلح حتى لمجتمعها وعصرها، ونعاود اجترار وإنتاج الأدبيات الفكرية الناشئة في مجتمعات التخلف، دون القدرة على تجاوزها، وفهم مكونات المجتمع الجديد، وفقهه، وفكره، ودوائر الاستطاعة فيه.

والعقل المهاجر اليوم، وبعد هذه العقود المتطاولة، والتجارب المتعددة، ما يزال يعاني الكثير من الارتباك وضباب الرؤية، فهو يتأرجح ويتراوح بين الانسلاخ من القيم الإسلامية بإطلاق ليدخل في مجتمع الاغتراب بكل ما فيه، وبذلك يدخل مرحلة الضياع والذوبان والغيبوبة الحضارية، التي قد تلغي الذات نهائياً وتفقد الفاعلية، وبين ما يعانيه من الأوهام وأحلام اليقظة في قراءة مناخ الحرية، وسوء استخدامها، والدعوة إلى تشكيل أجسام غريبة تنكفئ على نفسها، تمارس التعصب والتشنج، وتعجز عن فهم القيم الإسلامية وتنـزيلها بشكل سليم على الواقع، وامتلاك القدرة على التمييز بين الارتماء والانكفاء، بين الذوبان المذموم والاندماج المطلوب، وما يتطلبه الاندماج من إدراك فقه العهود والمواثيق وحقوق وواجبات المواطنة والاستيطان، وما يترتب على ذلك؛ فيغريه مناخ الحرية بالدعوة إلى مواجهة تلك المجتمعات، وإقامة الخلافة الإسلامية حتى ولو كان ذلك حركة في فراغ، وإيغاراً لصدور الخصوم، وإيقاظاً لعداواتهم بدون فائدة.

ونحن بذلك لا ندعو لإلغاء الارتكاز الحضاري لأمة الإسلام، وحضارتها، وتاريخها، وعدم التفاعل مع قضاياها العادلة، والانتصار لها، وتشكيل طلائع متقدمة تحاول إقناع

(الآخـــر) بحقهـــا وشرف مقصدها، وإنما ندعو لأهمية الإدراك لطبيعة تلك المجتمعات، وثقافتها، والإحاطة بعلمها، ومن ثم رسم المداخل الحقيقية والمجدية لكيفية التعامل معها، والإفـــادة من علومها وتقنياتها وإنجازها، ومحاولة إبراز الصورة الحضارية للإسلام البعيد عن التعصب والانغلاق وعدم الاعتراف بـــ (الآخر)، وتقديم صورة للتعايش والشراكة في البناء الحضاري، والقدرة على تحويل مسار الحضارة إلى خير البشرية.

وفي اعتقادي أن المشكلة التي لحقت بالمسلمين، في أمريكا والغرب، بعد أحداث أيلـــول (سبتمبر)، على الرغم من كل المضاعفات والتداعيات، وما خلف ذلك من آلام وآثار ومن أحقاد ونزعات عنصرية، ودفع إلى تصرفات وممارسات وتشريعات غاضـــبة وتصـــرفات طائشة، قد يكون لها بعض المبرر، إلا أن الإشكالية في التعميم بالأحكـــام والعقوبات والممارسات لتنال المخطئ والمصيب والجاني والبرئ، ومحاسبة الناس على نواياهم المفترضة، مهما قيل عن أهمية تلك التحوطات، حتى تجاوزت في عنصـــريتها وتعصبها إلى النيل من القيم الإسلامية نفسها، واعتبارها سبباً في إنبات جـــرائم القـــتل والاعـــتداء والـــتطرف والإرهاب، والتحول إلى حرب على القيم الإسلامية والمسلمين أينما كانوا.

هناك تكمن الخطورة الكبيرة، ليس بالنسبة للمسلمين فقط وإن كان المسلمون أولى ضـــحاياها، وإنما بالنسبة لأمريكا، التي بمثل هذه الممارسات والتعميمات وعمى الألوان والعوار العقلي إنما تقوم بتعبئة المسلمين في العالم على الكراهية والعمل ضدها والشماتة ببعض العمليات المتطرفة التي تشكل ثأراً منها؛ إن الكثير في العالم الإسلامي، وبسبب رد الفعـــل، سوف يتعاطفون مع التطرف، ويعممون أحكامهم ليقابلوا الخطأ والانحراف بخطأ وانحراف مماثل، وهنا تبدأ الكارثة والدوران في حلقة جهنمية مغلقة.

ومهمـــا يقـــال عن قوة أمريكا، وقدرتها على تغيير وتطويع الأنظمة، والضغط عليها، واحتوائها، فإنها تبقى عاجزة عن تطويع الأمم، وقد تحاول الأنظمة التي تدور

في فلـــك أمـــريكا تحويل ولاء الأمة، لكن التجارب التاريخية تدلل على أن الأنظمة بذلك تتحول إلى مواجهة الأمة، ولا يتحول إلاّ ولاؤها هي.

لذلـــك نقـــول: لا بد من تجاوز ردود الأفعال، والتفكير بكيفية احتواء الموجة، واســـتيعاب المتغيرات، ووضع الخطط لكيفية التعامل معها، وعدم معالجة الانحراف بانحراف مماثل.

والأمـــر المخيف حقاً، أن الكثير من حكومات بلدان العالم الإسلامي طاب لها المقام، لذلك فهي مصرة على تكريس التخلف، ومحاربة الإصلاح، وعدم الاعتبار بمن حولها وما حولها، تخوفاً من أن الإصلاح سوف ينال من مصالحها.

فـــلا مـــانع عندها أن تأخذ كل شيء من الغرب تقريباً، من بضائع وتقنيات، وحتى الطعام والشراب والركاب والثياب والعادات، وحتى الإباحيات؛ فإذا جاءت سيرة الإصلاح تثور فيها عزتها ووطنيتها وتأخذها العزة بالإثم، خوفاً على مصالحها، لذلك ترفض دعاوى الإصلاح والديمقراطية؛ بحجة أنها قادمة من الخارج (!)

والمـــنطق والواقـــع يقول: إن المهم الإصلاح وليس المهم من أين تأتي دعوات الإصـــلاح؛ المهم الإجابة عن الأسئلة الكبيرة التي ينتظرها الناس جميعاً: ما هي طبيعة الدعـــوات؟ ومـــا فائدتها؟ وما أهدافها؟ فالمشير قد لا يكون مهماً بعد اختبار أهمية وفـــائدة المشـــار إليه؛ لذلك لا بد من استيعاب المرحلة، والتكيف معها، من خلال الأصـــول والقيم الحضارية الإسلامية، القائمة على الحوار، والتبادل الثقافي، والحرص على التفتيش عن الحكمه نفسها، أكثر من الوعاء الذي جاءت منه، وأخذ العبرة من كـــل ظاهـــرة، سواء أكانت سلبية أو إيجابية، على مستوى الذات و(الآخر)، تحت شعار: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (الحشر:٢) حتى لا نخرب بيوتنا بأيدينا بسبب الإصابة بالعَمَه وغياب الوعي.

ملامح وإضاءات هادية

وعلى الرغم من حرصنا تجنب السقوط في مواقع الفكر الدفاعي، ما أمكن، التي أعادتنا إليها أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) إلا أن تلك الأحداث وتداعياتها، واستمرار النيل من القيم الإسلامية وعالم المسلمين، يقتضي ولو إشارات سريعة على الطريق، لعلها تشكل إضاءات لمن أراد أن يبصر.

وفي مقدمة هذه الإشارات، أن ندرك:

- أن الغاية من النبوة إلحاق الرحمة بالعالمين، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وأن الإسلام جاء تهذيباً للناس وليس تعذيباً وعنتاً لهم.

- أن حضارة المسلمين وتاريخ المسلمين لا يمكن أن يُختزل بموقف أو جماعة أو ادعاء أو حدث أو شخص، وأن تاريخهم الحضاري يشهد على أن القيم الإسلامية بريئة من التعصب والعنصرية والعدوان وترويع الآمنين بطبيعتها؛ لأنها ليست قيماً لشعب مغلق أو جنس أو لون أو جغرافيا؛ وأنها حضارة إنسانية شاركت فيها الأمم والشعوب؛ وحتى غير المسلمين وجدوا أنفسهم فيها، ولم يغير مجراها بعض الحوادث والممارسات الشاذة.

- أن الإسلام دين الإنسان أينما كان، لم يكن ولن يكون حكراً على أحد.

- أن تاريخ المسلمين لم يُلوث باعتداءات وحروب صليبية واحتلالات واستعمار وتحريك حروب عالمية وإبادة للجنس البشري بأسلحة دمار ذرية ونووية وبيولوجية وكيميائة، ما يزال بعد أكثر من نصف قرن ضحاياها يعانون على أسِرَّة المرض في المستشفيات.

- أن المسلمين كانوا محلاً للعدوان والاعتداء والاحتلال والاستعمار، ومع ذلك يُتهمون بالإرهاب!

- أن القيم الإسلامية تعتبر أن الناس جميعاً، من لدن آدم إلى قيام الساعة، مؤمنهم وكافرهم، أفراد أسرة واحدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ (الحجرات:١٣)، هذه الحقيقة الأسرية تؤهلهم للتعايش والتفاهم، وأن العلة من التنوع في الخلق التعارف والتكامل.

- أن الإسلام اعترف بالتنوع، واعتبره سبيلاً لإثراء الحضارة والتفاعل والتكامل والتعايش والتعارف: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ (الحجرات:١٣).

- أن الإنسان، في القيم الإسلامية،مكرَّم بأصل خلقه كإنسان، كائناً من كان: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ .... ﴾ (الإسراء:٧٠).

- أن التدين يعتبر أعلى أنواع الحرية والاختيار وأرقاها، لذلك فشعار الإسلام الكبير لمعتنقيه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ﴾ (البقرة:٢٥٦)،﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:٢٢)، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ (ق:٤٥)، فالإكراه والقسر والإجبار، ممارسات خارجة عن القيم الإسلامية.

- أن الإسلام شرع الجهاد لحماية حرية الاختيار، ومنح الإنسان الحرية الكاملة، والحيلولة دون إكراه الإنسان أو إجباره أو فتنته: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ...﴾ (البقرة:١٩٣)، وليس لإجبار الناس على اعتناق الإسلام.

- أن مشروعية الجهاد لدفع الظلم ورد العدوان، وتحقيق حرية الاختيار ونسخ الظلم والطغيان.

- أن سبيل العلاقة الإنسانية هو الحوار والتفاهم واحترام (الآخر): ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ...﴾ (آل عمران:٦٤)؛

وأن التبادل المعرفي سبيل النمو والارتقاء: «... **الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**»(1).

- أن من آداب الجهاد، حتى على أرض المعركة، بعد أن تتوفر شروطه ومقوماته، عدم قتل النساء والأطفال، وعدم قطع الأشجار والتعرض للشيوخ والرهبان وأماكن العبادة وترويع الأمنين، وعدم المعاملة بالمثل ومعالجة الخطأ من (الآخر) بخطأ من الذات، فلو مثّل الأعداء أثناء الحرب والمعركة بموتانا وعذبوا أسرانا لا يجوز لنا أن نسيئ إلى الأسرى أو نمثل في القتلى، فالميزان عندنا في الإسلام: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الأنعام:١٦٤).

- أن الأسير محلٌ لرعاية كاملة، والمعاملة الكريمة للأسير هي ميزان الإيمان والصدق والعطاء: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان:٨).

- أن الجهاد، بالمعنى الخاص، له مواصفاته وشروطه ومقوماته وقياداته وأهدافه وآدابه، فلا يمكن إعلانه وممارسته من كل إنسان.

- أن الأصل في الإسلام السلم والأمن، وأن الحرب استثناء: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال:٦١).

- أن الإعداد والاستعداد إنما شرع لترهيب الظالمين والطغاة من ممارسة العدوان والإرهاب وترويع الآمنين.

- أنه لا يجوز القتل والعدوان بغير الحق: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة:٣٢).

---

(١) أخرجه الترمذي.

- أنـــه لا يجوز قتل حتى الحيوان لغير هدف، «**مَنْ قَتَلَ عُصفُوراً عَبَثاً، عجَّ إلى الله عـــزَّ وجـــلَّ يـــومَ القِيَامةِ منْهُ، يقولُ: ياربِّ، إنَّ فُلاناً قتلني عَبثاً، ولم يقتلني لِمَنْفَعَةٍ**»[1].

- أن الإسلام حض على احترام المعاهدات والعهود والمواثيق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ (المـــائدة:١)، ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ (الإسراء:٣٤)، «**أَلا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِه، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

- أن الإســـلام لم ينتشر بالحروب والاحتلالات والاستعمار، ويُقِم دولة وأمة بالسلطة، وإنما هو أمة الفكرة التي تتجاوز الحدود والسدود، فالإسلام اليوم موجود حيـــثما وجد الإنسان، لذلك فإن الكثير من المقدمات التي نراها اليوم خاطئة سوف تقـــود إلى نـــتائج خاطئة، من مثل مصطلح الإسلام والغرب، حيث لا يمكن مقارنة فكـــرة وثقافـــة بجغرافيا، خاصة وأن في الغرب إسلاماً ومسلمين، مهاجرين مقيمين ومن سكان البلاد الأصليين، وفي الشرق إسلاماً ومسلمين وغير مسلمين.

- أن فترات الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان هي المناخ الطبيعي الذي ينتشر فـــيه الإسلام، وأن الإسلام انتشر في فترات السلم والحرية أكثر مما انتشر في فترات الظـــلم والاســـتبداد السياســـي، وهو اليوم ينمو في بلاد الحرية وينكمش في بلاد الاستبداد السياسي، لذلك أعداء الإسلام عرفوا كيف يحاصرونه، فحوّلوا الكثير من الأنظمـــة إلى مخافر ومؤسسات أمن، وعمموا حكم العسكر والطوارئ في مجتمعات المسلمين، لإثارة الخوف والرعب في عالم المسلمين ومحاصرة نمو الوعي الإسلامي.

---

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» وفي «الكبرى»، وابن حبان، والطبراني، وغيرهم.. وفي إسناده ضعف، انظر مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط. مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م.

(٢) أخرجه أبو داود.

- أن العدوان على الإسلام والمسلمين أصبح واضحاً، مهما افتُعل من الذرائع، لأن بلاد المسلمين هي ميدان المعركة على ما يسمى بالإرهاب، وأن الكثير من معارك الإرهاب تُصفى بدماء المسلمين وأموالهم وتنظيماته، التي انتهى معظمها ليكون أدوات بيد (الآخر) يستعملها حسب اللزوم.

- أن ما يسمى بـ«الحرب العالمية على الإرهاب» أمر ملغم بمصالح اقتصادية واستثمارية وسياسية، إلى درجة يمكن القول معها: إنها حروب «العولمة».

- أن احتمال وقوع المسلمين، أو بعض فئاتهم وأفرادهم، بالخطأ أمر وارد، هذا إن صحت نسبة الكثير من الأعمال المتطرفة للمسلمين، لكن أين موقع هذا الخطأ وحجمه وقيمته من فعل الآخرين وعدوانهم وتعميمهم الخطأ والعقوبة على عموم المسلمين؟

- أن الاعتراف بالخطأ وعدم معالجته بخطأ مماثل قيمة إسلامية، تتمثل في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ (البقرة:٢١٧)، وذلك قاعدة خالدة لا بد من إدراكها والتحلي بها.. لقد اعترف القرآن بالخطأ الذي وقع، وهو حرمة القتل في الأشهر الحرم، ودفع الرسول ﷺ دية القتيل، لكن في الوقت نفسه طرح في المقابل فظاعة جرائم الآخرين، التي لا تقاس بخطأ المسلمين، حتى لا يكون هناك عور عقلي.

لكن يبقى السؤال المطروح: ما قيمة هذا الخطأ ونسبته من الكبائر والجرائم التي ترتكب بحق المسلمين؟

أين موقع الخطأ بالقتال في الشهر الحرام من جرائم فتنة الناس وإرهابهم وسلبهم حريتهم ومطاردتهم في عقيدتهم، فـ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾(البقرة:٢١٧)؟

من شروط البناء
الاعتراف بالخطأ

ولا شك عندي أن الاعتراف بالخطأ يبني الأمة، ويصوب طريقها، ويمنحها القدرة على اكتشاف عللها ومعالجتها قبل أن تحيط بها خطيئتها.. والتعلل بأن ذلك يمكن أن يكون في صالح العدو وتبصيره بمواطن الضعف وإنهاك المجتمع وخلخلة الصف الإسلامي، فهي ذرائع غير ذات قيمة شرعية وعملية، ففي معركة أحد، وعلى أرض المعركة، التي استشهد فيها سبعون من الصحابة، نزلت الآيات تبين الأخطاء وتحدد أسباب الهزيمة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ (آل عمران:١٥٢)، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ...﴾ (آل عمران:١٦٥) ولم يفهم أحد من جيل القدوة وخير القرون أن ذلك إنهاك للمجتمع وتبصير للعدو بمواطن الضعف.

وهنا حقيقة قد تكون غائبة عن ذهن كثير من الناس، وقد تغيبها الحزبيات عن عمد، وهي أن المجتمع والأمة والجماعة التي لا تحتمل النقد والمناصحة ومعالجة الأخطاء وتجاوزها، أمة لا يوثق بها.

وإذا كان المسلم في مستوى إسلامه، اعترافاً بالخطأ وثباتاً على الحق وإنكار الباطل حيثما كان، كان مؤثراً في خصومه، مؤهلاً لإثارة الاقتداء.

ولعل الشيء المحزن الخطير، في الوقت نفسه، أن الغرب بعامة وأمريكا بخاصة، ماتزال تتجاهل الأسباب الحقيقية للعنف والتطرف والإرهاب، وترتكز وتقتصر في رؤيتها ومعالجتها على الحل الأمني العسكري الاستخباراتي، مدفوعة إلى ذلك بعقلية اليمين المتطرف، بل المتصهين، دون الدراسة الحقيقية للأسباب المنشئة

للـــتطرف، وقد تكون الإشكالية في ذلك أنه يستوي المفكر والسياسي والقائد العسكري ومسؤول الأمن.

إن تجـــاهل الأسباب الحقيقية للتطرف والإرهاب والعنف سوف يوسع دائرته، ويجـــند له الكـــثير مـــن المظلومين، ويأخذ بجريرته الكثير من البرآء، ويصيب بعمى الألـــوان والتعميم في المواجهة المجرم والبرئ، ويفتح أبوابه جميعاً، ويزيد من الكراهية وإحلال الصراع محل الحوار.

ونحـــن هنا لســـنا ضد الحل الأمـــني، الذي يعـــالج الآثار ويتعـــقبها ويحمي الآمنين وينقذ الأرواح والأموال والإنسان، فهو ضروري وضروري جداً، لكنا ضد الاقتصار على الحل الأمني وعـــدم تجاوزه، وخـــاصة من المفكرين والعقـــلاء، إلى دراســـة الأسباب المنشئة للتطرف والأرهاب والعنف، من القهر والاستعباد والإذلال والانحياز والهيمنة.

إن غياب الاستقرار، وشيوع الاستبداد السياسي، وإقامة الدكتاتوريات العميلة، وتحـــريكها لكثير من الحروب الخاسرة، وفقدان فرص الحرية، التي ساهم فيها الغرب وأمـــريكا بشـــكل خاص، إضافة إلى إقامة إسرائيل، والانحياز لها بالمطلق، وتشريد الملايـــين، وســـلبهم كـــل حقوقهم، هو مدعاة للتطرف والإرهاب والإقدام على محـــاولات يائســـة للانـــتقام والثأر، التي قد يعمى معها البصر، ويفشل صاحبها في التحقق من شرعية العمل.

حـــتى أن الكـــثير من حالات القهر واليأس والإحباط والظلم يدفع بالكثير من الـــناس إلى السؤال: أين الإرهابيون؟ لعل الخلاص يكون على أيديهم، تحت شعار: «علي وعلى أعدائي»!

ونحن بدعوتنا إلى دراسة الأسباب الحقيقية للتطرف والإرهاب والعنف، بشكل موضوعي وعلمي وبعيد عن الخلفيات الأيديولوجية العنصرية والمتعصبة والبغيضة والوقوع في الفخاخ الصهيونية، باعتبار الصراع هو الأصل، انطلاقاً من الأساطير الدينية في الصراع مع الآلهة ومع الناس، وعدم الاقتصار على الحل الأمني، لا نريد بذلك أن نسوغ الإرهاب والتطرف ونوجد له الذرائع، ولا العدول عن الحلول الأمنية.

فالتطرف والإرهاب مدان، مهما كان سببهما، وعلى المسلمين إدانتهما، دون تخوف أو تردد؛ لأن ذلك يزري بالقيم الإسلامية التي ينتسبون إليها، والتيقن أن الإسلام يمتد وينتشر في أجواء الحرية والعدل وتكافؤ الفرص، وتشل حركته في مناخات الاضطراب وعدم الاستقرار، لذلك نراه يمتد في الغرب من خلال وجود الهوامش الديمقراطية، وينمو ويكثر معتنقوه، ويكفي هنا أن ننقل بعض ما أوردته مجلة «دير شبيجل» الألمانية في عدد لها عن النبي محمد ﷺ: أن في أمريكا وحدها يكسب الإسلام سنوياً أكثر من ٢٢ ألف معتنق جديد، حسب رواية قناة «ديسكفري».

ولا غرو في ذلك، فإن امتداد الإسلام وانتشاره واستقراره واستمراره من قبل أبناء البلاد الأصليين حرك كوامن اليمين المتطرف والعنصري، وأثار الأحقاد التاريخية، مما اضطر المسؤولين لمتابعة وتعقب المسلمين، وإبراز الصور المشوهة، بتعصب وانحياز، ولو كان ذلك على حساب القيم الغربية نفسها.

والذي يحرك العداوة ضد الإسلام والمسلمين اليوم، دوائر معروفة بنواياها وأعمالها وأحقادها، لكن لا يصح إلا الصحيح في النهاية.

الضارة.. النافعة

وحسبنا أن نردد القول: «رب ضارة نافعة»، ضارة في النتائج القريبة، نافعة في العواقب والمآلات، فأحداث ١١ أيلول (سبتمبر) على بشاعتها وفظاعتها وآثارها السلبية، التي تمركزت في بلاد المسلمين، والتي لا يعلم إلا الله متى تنتهي، إلا أنها من وجه آخر استدعت الإسلام إلى بؤرة الاهتمام والدراسة والتحليل والاكتشاف، سواء على مستوى الذات أو (الآخر)، حتى يكاد اليوم يحتل الساحة السياسية والثقافية والأمنية، وعادت الجدلية حول النص الإسلامي ومدلولاته والحضارة الإسلامية ونسقها المعرفي من جديد، فهو اليوم محور الاهتمام العالمي، سواء أكان ذلك بالمواجهة أم بالحوار أو بالدفاع، الأمر الذي استدعى الكثير من المراجعة، خاصة وقد كثر الإقبال على الإسلام والاعتناق له؛ لأن الإنسان دائماً عدو ما يجهل.

فهل تتحول النقم إلى نعم، وينقلب السحر على الساحر، ويخسر هنالك المبطلون؟

نعود إلى القول: بأن أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) كانت أشبه بالزلزال المدمر، الذي خلف الكثير من الضحايا والإشكاليات وخلط الأوراق، سواء على مستوى الذات أو (الآخر).

ومما لا شك فيه أن العالم بعد أحداث سبتمبر قد تغير، وأن العالم بدأ يتشكل على صورة جديدة، على الأصعدة المتعددة، السياسية والثقافية والاجتماعية والإنسانية، وأفرز الحدث الكثير من المفاهيم والسياسات، وأخرج الكثير من الأضغان التي ما كانت لتخرج لولا هذا الزلزال الكبير، ودلل على مواطن الضعف والخلل في واقع

المسلمين، وأبان الكثير من الاجتهادات البائسة لتنزيل أحكام الشرع على واقع الناس، سواء أكانوا أقلية أو أكثرية، فالعلل تكاد تكون واحدة.

كما دلل على تبعثر رقعة التفكير، والفجوات الكبيرة في التشكيل الثقافي، وكان فرصة تستدعي الكثير من التأمل في صور التدين وعلل التدين والكثير من الفهوم المعوجة للقيم الإسلامية والأحكام الشرعية، وكيفية التعامل معها.

ودلل كذلك على تقطع الأمة إلى أمم، والجماعة إلى جماعات، والجماعات إلى آحاد، وكيف أن الاجتهادات البئيسة والنظرات الكليلة والعلم القليل وغياب الوعي والبصيرة دفع بعضنا إلى تصرفات كارثية، حيث ما نزال نحسن الموت ونعجز عن إحسان الحياة.

وهذه التصرفات، لم تقتصر آثارها على أصحابها، وإنما تجاوزهم إلى الأمة والقيم والدين نفسه، وأدت إلى هدر الطاقات والإمكانات، والاستمرار في تقديم الضحايا والتضحيات في المعارك الخطأ، حتى أن الكثير من الحسابات الأقليمية والدولية تصفى اليوم بدم أبناء المسلمين - كما أسلفنا - دون أن يعون أو يدرون، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً.

لقد كان الحدث أشبه بالكواشف الكيميائية التي تبين خصائص وصفات المواد، وتشير إلى طبيعة التفاعلات، الأمر الذي يستدعي الكثير من النظر والمراجعة والنقد وإعادة النظر بالكثير من المسلمات، والكثير من الحماسات والخطابات، التي ما تزال تحقن الشباب بالحماس وتجعله يعيش على الشعارات الكبيرة، دون أن تضع له الخطط في ضوء الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة والأوعية الشرعية لحركته، حتى لا يهلك نفسه ويقع بانفجارات اجتماعية وسياسية تحمل السوء له ولدينه وأمته، وقد يصبح هذا الشباب المسكين محل نقد بل وجلد ممن ساهموا بدفعه واندفاعه غير

المحســـوب، حتى أصبح في كثير من الأحيان يظن، لسوء تقديره، أنه يطلق النار على (الآخـــر) وفي الحقيقة إنما يطلق النار على نفسه، نتيجة لانعدام الفقه والخبرة وسوء التقدير للتداعيات والمآلات والإمكانات، حيث تختلط عنده الأمنيات بالإمكانيات، إذا سلمنا أن الأمنيات والنوايا صائبة.

هـــذا عـــلى مستوى الذات، أما على مستوى (الآخر) فلقد شكلت الأحداث نـــافذة مهمة، إن لم نقل نوافذ، على (الآخر) حتى ليكاد المتأمل يبصر قاع (الآخر) ويحـيط بعـــلمه ومســـالكه، بـــل والـــتعرف إلى نواياه وطبيعته وتركيبته الذهنية والاجتماعية، ودوافعه، والعوامل المؤثرة فيه.

هذه الخارطة أو هذا الدليل، الذي قدمته لنا أحداث ١١ أيلول (سبتمبر)، كيف نعيه وندركه، بل أقول: كيف نستوعبه ونستوعب تداعياته المستقبلية، فنعيد النظر في أوضـــاعنا وثقافتنا ومناهجنا التربوية وإعلامنا وأعمالنا وزعاماتنا وقياداتنا ووسائلنا، التي أنتجت تلك الصور للتعامل مع الذات وهذه الصور للتعامل مع (الآخر)؟

فهـــل نغلّـــب الـــتفاؤل، ولا دلـــيل على ذلك، بأننا سوف نستوعب الحدث ونستوعب تداعياته، التي بدأت على المستوى السياسي والثقافي والاجتماعي، العالمي والإقليمي، ونقوم بالمراجعة المطلوبة لكل وسائلنا ومصطلحاتنا واجتهاداتنا وتربيتنا، وقـــبل ذلك وبعده كيفية تعالمنا مع (الآخر) الذي حملناه على الإساءة إلينا، وساهمنا بصنع الكثير من عداوته لنا، وذللنا أنفسنا لأعدائنا والكائدين لنا؟

وقد تكون الإشكالية الكبيرة، والكبيرة جداً، أن هذه الأحداث الكبرى لا تعدوا أن تكـــون موضـــوع خطـــبة حماسية وومضات حماس لا تلبث أن تنتهي، ومن ثم نعـــود إلى مألوفنا ومعروفنا وواقعـــنا المتردي والتفـــتيش عن موضـــوعات أخرى لخطبـــنا القادمـــة، بعـــيداً عن دراســـة الحـــدث وتحـــليله، والتعرف إلى أسبابه،

واكتشــاف مواطــن الخلــل في حياتنا الفكرية والشرعية والثقافية، وتحديد أسباب القصــور، ومــن ثم وضــع الخطط والبرامج الكفيلة بمعالجة الأسباب وترميم الآثار وكيفية التجاوز وتحقيق الاعتبار.

صــحيح أن الصدمة الأولى للأحداث دفعت إلى الكثير من التصرفات العنصرية الطائشة، والحملات المجنونة، وعمى الألوان، والمساواة بين القاتل والقتيل، والإساءة للمسلمين في الغرب، ومحاصرتهم، ومراقبتهم، بعد أن كانوا يتمتعون بفرص وهوامش مــن الحــرية والمساواة، إلى حدٍ ما، يمارسون فيها أقداراً مهمة من النشاط والدعوة للإســلام، حــتى لــنكاد نقول: إن الحرية التي كان يتمتع به المسلم، في الشوارع والمؤسسات والمعاهد والجامعات، في الغرب وأمريكا بالذات، قد يفتقدها أمثاله حتى في بعض مؤسسات العبادة والعمل الإسلامي؟

لكــنها الموجة العاتية التي تكاد تنكسر الآن وتبدأ بالتراجع، ويدرك العقلاء أن المســلمين هم أهل حضارة وثقافة وعطاء، وأن تاريخهم يشهد لهم بالعدل حتى مع الأعــداء، والتســامح وحسن المعاملة مع غيرهم، وأن حقيقة إسلامهم تختلف عن الصورة الموروثة أو المرسومة من قبل أعداء الإسلام أو ممارسات بعض المسلمين، وأن المســلمين في الغرب لم يعد وجودهم موقوتاً، وإنما هو وجود مستقر ومستمر، وأن الكــثير مــن ســكان البلاد الأصليين اعتنقوا الإسلام، وأن المسلمين في الغرب هم جــزء مــن البــناء الحضــاري والنسيج الاجتماعي والوطني لتلك المجتمعات، وأن إسهاماتهم في الجامعات والمعاهد والمؤسسات التنموية والحضارية، والمعامل والمصانع، واضحة للعيان.

ولعلــنا نقــول أيضاً: إن مسلمي الغرب مدعوون قبل غيرهم للقيام بالمراجعة لفكــرهم، وفقههــم، وخطابهم، وأدبياتهم، وعلاقاتهم، وأدواتهم، وفهمهم للعهود

والمواثـيق وحقوق وواجبات المواطنة، وكيفية التعامل مع (الآخر)، بعد أن كانت الأحـداث فرصتهم لمعرفة أنفسهم ومن حولهم، حتى يقول أبناء المجتمع من حولهم: «إنا نراهم من المحسنين»، وبذلك يغرون باعتناق الإسلام، الذي يمكن أن يصبح دين (الآخـر) كمـا هو دينهم، فالإسلام ليس حكراً عليهم ولا على غيرهم، هو دين الإنسـان أيـنما كـان، وأن هذه الموجات العاتية سوف تنكسر ويعود الناس إلى رشدهم، وتاريخ هذا الدين شاهد على ذلك.

فعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الذي ذهب مغاضباً كائداً للإسلام والمسلمين عـاد مؤمناً مناصراً للإسلام، متحدياً لأعدائه، وحسبنا أن نقول: بأن واقع المسلمين اختلف قبل إسلام عمر عنه بعد إسلامه، رضي الله عنه.

والمغـول جـاءوا إعصـاراً مدمراً، لتدمير كل شيء، وعاثوا في الأرض فساداً وظلماً، ومن ثم تحولوا إلى فاتحين ينشرون الإسلام، ويدافعون عنه.

نعود إلى القول: إن الهجرة والاغتراب، ليست حركة انسحاب سلبية، وإنما هي خطـة اسـتراتيجية، في محاولـة لتأمين الحركة والدعوة، وتحقيق كسب أكبر لنشر الإسـلام، واغتنام ما يتمتع به المهاجر من الحرية والعدل، الذي كان ولا يزال فرصة لنشر قيم الدين وإلحاق الرحمة بالعالمين:

فالهجرة إلى الحبشة، كانت فرصه لحماية خمائر العمل وأجنة الإسلام الأولى.

والهجـرة إلى المديـنة، معقل يهود ومكان هيمنتهم، كانت إيذاناً بقيام المجتمع الإسلامي وانطلاقه إلى العالم.

والهجرة إلى الأندلس، من قبل فرد، حملت الإسلام إلى أوروبا، وأقامت حضارة الإسلام في الأندلس.

أبعاد النية.. والعمل الحسن

ويمكـــن القـــول، إلى حدٍ بعيد: بأن الكثير من الأعمال والممارسات التي ترفع شـــعار الإســـلام أو الإسلامية، قد تتوافر لها الرغبات الصادقة، والأمنيات الكبيرة، والرغائـــب العريضة، لكنها في معظمهـــا قد تفتقر إلى الإحاطة بعلم ما تقدم عليه، وإلى تقديـــر التداعـــيات المحتملة له، وبعبارة أخرى تفتقر إلى إدراك أبعاد النية، التي تعـــني الـــرؤية المحيطة قبل الحركة، والفكر النضيج قبل الفعل، وحســـن التقدير للإمكانـــات المتاحـــة، والظروف المحيطة، والتداعيات والمآلات المتوقعة، أو بشكل عام تفتقر إلى الرؤية الاستراتيجية، بكل ما في الكلمة من معنى.

ذلـــك أنـــه لا يكفي في العمل، أي عمل، سواء أكان فردياً أو جماعياً – وإن كانـــت المســـؤولية على العمل الجماعي آكد وأعظم– أن يتوفر له النوايا الصادقة، والنفوس المخلصة، والحماس المتوقد، والشجاعة الملفتة، والجرأة النادرة، والاستعداد للتضـــحية بالنفس والمال؛ بل لا بد له أن يتوفر، إلى جانب ذلك كله، على الخطط المدروســـة والموضـــوعية، والـــتقدير الدقـــيق للإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة والإصابات المحتملة، والنظر في العواقب والتداعيات الموصولة إلى الصواب، والحيلولة دون الإصـــابات والمفاســـد؛ بمعـــنى أنه لا بد أن تتوافر له الإرادة والقدرة؛ الأمانة والقوة؛ الإخلاص والصواب؛ والأمنيات والإمكانيات.

ولعلـــنا نقـــول: إن معظم الأعمال اليوم ، التي ترفع شعار الإسلام، إن لم نقل كـــلها، تنطلق من عنصر الحماس، وتتوهم أنه الحل الصحيح، وتتمحور حول النوايا والأماني، لكنها في الأعم الغالب تفتقر إلى التخطيط ودراسة الجدوى، وذلك لغياب أهـــل الخبرة والاختصاص، ومن يسمون بأهل الحل والعقد، حيث ما زلنا لا نقدر

الاختصاص حق قدره، ولا ندرك أهميته، بل إن الكثير من ممارساتنا تقلل من قدره، والكثير الكثير أيضاً من العاملين في الحقل الإسلامي غادروا اختصاصاتهم، التي يحسنونها من طب وهندسة وعلوم وكيمياء... إلخ وعجزوا وفشلوا في أن يوظفوها لخدمة دعوتهم وأمتهم، إلى منابر الوعظ والإرشاد، فقدموا مثلاً رديئاً للأجيال، وساهموا بتكريس الهزائم والفشل وهدر التضحيات والإمكانات.

وقبل ذلك كله لا بد من النظر والاجتهاد في كون العمل مشروعاً، بوسائله وأهدافه، منضبطاً بالمعايير الشرعية، ومحققاً للمقاصد الشرعية، جالباً للمصالح، دارئاً للمفاسد، مستخدماً الأدوات والوسائل الشرعية؛ لأن الغاية لا تبرر الوسيلة، فلا بد أن تكون الغاية مشروعة والوسيلة مشروعة أيضاً، وإن أي تجاوز في ذلك، أو اجتهاد باسم مصلحة الدعوة وادعاء تحقيق كسب أكبر للقضية الإسلامية والمجاهدة في رفع المعاناة عن المسلمين، يؤدي إلى الانفلات وفتح أبواب المفاسد على مصراعيها، حيث لا يبقى أمامنا في مراحل الهزيمة والفشل والإحباط من ذرائع ومعاذير إلاّ القول: بأنه تشفع لأصحابها النوايا الطيبة، وكأن الأصل بالنية الطيبة أن تكون عمياء وساذجة بعيدة عن أي تبين، وكأنما قوله تعالى: ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ (النساء:٩٤) نزل لغيرنا.

والكثير من علمائنا تنبه إلى هذه القضية الخطيرة في العمل والسلوك بشكل مبكر، حيث أدرك من قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك:٢) أن العمل لا يكون حسناً ما لم يتوفر له عنصرا الإخلاص والصواب معاً.

وإن كنت أرى – والله أعلم – أن النية الطيبة، التي هي عزم القلب على العمل والإخلاص فيه، تتطلب، أو تتضمن، أو من لوازمها، الرؤية المحيطة لأبعاد العمل قبل الحركة صوبه وانعقاد العزم على فعله.

فالرسـول ﷺ عـندما ناط الأعمال بالنيات فقال: « **الأَعْمَالُ بِالنِّيَّة، وَلِكُلِّ امْـرِئٍ مَا نَوَى ...**» بيّن أبعاد النية والرؤية المطلوب توافرها قبل الحركة، فقال تـتمة الحديـث: «... **فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُـهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُـهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[1].

أي أنـه لا بـد أن يبصر أبعاد الحركة قبل البدء بها، فالنية ليست عزم القلب والصـدق في ذلك فقط، بل لا بد لها من التبصر في الأهداف والوسائل قبل حركة الجوارح، ومن هنا كان نـهي الرسول ﷺ عن الجهاد والقتال تحت راية «عمِّـيَّة» - وهـي التي التبس أمرها وعميت أهدافها ووسائلها على الإنسـان- واعتبر من مـات تحت هذه الراية أنه يموت ميتة جاهلية: «**وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**».[2]

لذلـك فإن فحص العمل، واختباره، والنظر في عواقبه ومآلاته، وما يحقق من مصالح، ويدرأ من مفاسد، من أهم الشروط للعمل الحسن.

فهـل نُدخـل العقـل الناقد لصور التدين وفقه أحكام الشرع لساحة العمل الإسلامي اليوم، ليغيِّر في الذهنية، ويوفر المناخ المطلوب لتحقيق الصواب، إلى جانب الإخلاص، ونعتبر النقد هو أحد ركني البناء والتصويب، ومن ثم نُقبِّلُ يد المخلصين، الذين يفتقدون مقومات الصواب، ونجلُّهم، لكن لا نَقْبل أحاديثهم وأفعالهم، وبذلك نحمي مكاسبنا، ونسدد خطانا، ونثير الاقتداء؟

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه مسلم.

مخاوف.. مشروعة

إن أخشى ما يخشاه الإنسان اليوم: السقوط في محذور قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف:١٠٥)، وما يمكن أن يكون من انتقال علل التدين من الأمم السابقة إلى المسلمين، بحيث لا تأخذ أحداث سبتمبر ما تستحقه من التحليل والدراسة والمراجعة، والعكوف على مستوى الذات و(الآخر)، وتستشعر الأمة مسؤوليتها تجاه الأحداث وتداعياتها، وتجتهد بشكل منهجي للتعرف إلى الأسباب والقابليات الحقيقية والموضوعية التي تكمن وراءها، واكتشاف الفجوات الكبرى في حياتنا التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية والسياسية والاقتصادية، وبشكل عام الحضارية، وجميع الممارسات والاجتهادات والأمور التي أورثتنا هذا الفراغ الكبير، الذي مكّن للخصوم والأعداء أن يمتدوا في داخلنا، ويوظفوا الحدث وغيره كثير لمصلحتهم، ومراجعة الفهوم المعوجة التي مكنت له ولا تزال، فلئن كان غيرنا يستكبر بالقوة فالكثير منا يستكبر بغير الحق، الأمر الذي جعل منا أمة هشة سريعة العطب، تعاني من إشكالية الوهن الحضاري، والكثير من التحركات اليائسة والعشوائية، على الأصعدة المتعددة، بحيث نستمر في الإقدام على فعلها حتى صارت سبباً في أن تدور علينا الدوائر.

وحالة الوهن الحضاري، وما تستدعيه من تداعي الأمم علينا، وما تورثه من تخلف يطبع ذهنية الأفراد، لا تقتصر على جانب واحد من جوانب الحياة، بل هي حالة عامة تنعكس على كل شيء، والأخطر في ذلك كله أن تصيب بالدرجة الأولى كيفية فهم قيم الدين، وتساهم في نشوء صور من التدين المغشوش، الذي يعفي من مسؤولية النظر والدرس والتحليل والبحث والخلوص إلى الأسباب الحقيقية للمعاناة

والاهــتداء إلى كيفــية التعامل لتجنب الأزمات وإدارتها في الوقت نفسه، ومعالجة الأسباب وترميم الآثار.

ذلك أن الوهن الحضاري، وذهنية التخلف والعجز التي يورثها، تتمحض رؤيتها للعــلاج بإعفاء النفس والإلقاء بالتبعة على (الآخر)، أو ما يسمى هذه الأيام بنظرية المؤامــرة.. فـــ (الآخر) يصبح هو السبب في المصائب والبلايا والأزمات كلها، ويتســع فيــنا الفكر الذرائعي بقدر اتساع فجوة التخلف الذي يكرس حالة الوهن والعجــز، حتى يصبح موروثاً اجتماعياً، أو وباءً اجتماعياً، يزيد من تمكين الخصم، وينشــئ رمــوزاً وزعامــات غير مؤهلة وغير مسؤولة، تعيش وتقتات وتستمر في زعاماتها بنظرية المؤامرة، ومع الأسف يفوتها أن تدرك أنه لو كان ذلك كذلك، أي لو كان الخصــوم والأعداء هم سبب بلائنا كله، وأننا في الواقع كمسلوب الإرادة -ولا أقــول كالمعــاق؛ لأن المعاق طاقات كامنة وليس طاقة واحدة- لا فاعلية لنا البــتة، إذن فمــا معنى هذه الزعامات، وما قيمتها، التي رضيت بادعاءاتها تلك التي تسويها بالعدم، وتجعلها عاجزة عن التعامل مع الصورة وإدراك ما يراد لها؟

ولــيس ذلــك فقط، بل قد يمتد الأمر أو الخطر إلى اللجوء إلى التسويغ والتبرير الديــني لحــالات الفشــل التي نعاني منها، وهذا هو الأخطر، حيث تتحول القيم الإسلامية التي تمثل سفينة الإنقاذ والنهوض والحل إلى معوق ومشكلة، وبذلك نفتقد كل أمل.. فإذا أعجزتنا حيلة الإلقاء بالتبعة على العدو والخصم فالبديل جاهز، وهو أن الله قدر علينا ذلك، وأن ذلك هو قدرنا، فالله هو الذي قدر لنا وعلينا ذلك (!) وبذلــك لا نــترك أية مساحة للمراجعة والتقويم والدراسة والتحليل، بل قد يصل الــتفكير في ذلــك إلى مســتوى التحريم والتأثيم؛ لأنه ليس بإمكاننا ولا من حقنا مواجهة القدر(؟!)

وبذلك نحول قيم الدين، بفهم مغشوش وتدين سلبي، إلى أن تكون السبب في مصائبنا وأزماتنا، وندفع الناس دفعاً، حتى من على بعض منابر المسلمين، للهروب من قيم الدين، التي نحمِّلها مسؤولية تخلفنا وتراجعنا.

نقع في هذا الفهم السقيم المحزن والتدين المغشوش، دون أن ندرك الوجه الإيجابي والفاعل للقدر، ودون أن ندرك أن من مسؤولية المسلم فهم الأقدار والأسباب، ومن ثم مدافعة قدر بقدر، وسنة بسنة، فالمسلم الحق هو الذي يدفع القدر بقدر أحب إلى الله.

والخشية الأخرى، أن ننكفئ على أنفسنا، ونتقوقع، ونكتفي بأن نلعق جراحنا، ونستمر في حالة الاحتضار والانتظار، دون أن نبصر (الآخر) الذي يعيش معنا، ويشاركنا الحياة، ويدافعنا المصالح والأفكار، ويحاول الغلبة والهيمنة، ويتخذ لذلك كل الذرائع والأسباب، لدرجة أننا نتحول لنصبح نحن أداةً وسبباً لتسلطه علينا.

وفي تقديري، أن أخطر المراحل التي تمر بها الأمة من العطالة وانطفاء الفاعلية والتقطيع في الأرض أمماً، هي مرحلة عدم الإبصار، وتعطُّل أدوات النظر والتفكر، الذي يساهم بغياب الوعي والإدراك، وعندها نتحول من أمة قادرة على النظر والتفكير والاعتبار بذاتها و(الآخر)، لتصبح حياتنا عبرة لغيرنا؛ نصبح محلاً للاختبار، وميداناً للدرس والتجربة، ومثلاً ووسيلة للآخرين، فتصبح الأمة عبرة بدل أن تكون معتبِرة، وهذه هي المرحلة الأخطر في التحلل والانقراض، حيث تصبح الأمة عدوة نفسها، تخرب حضارتها وبيتها بأيديها وأيدي خصومها، والله سبحانه وتعالى يقول عن الأمم والحضارات البائدة: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (الحشر:٢).

فالعاقل من يعتبر بغيره، والأحمق من يكون عبرة لغيره.

وما لم يكن شعارنا الدائم: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ...﴾ (آل عمران:١٦٥)، فسوف يستمر فينا الفكر الذرائعي، وتكرس فينا القيادة الفاشلة، ويعمنا الوهن الثقافي، وتسود في حياتنا صور التدين المغشوش.

والأمل معقود على المسلمين في الغرب، رغم هذه الإصابات البالغة، التي لحقت بهم، والنزعات العنصرية التي تحاصرهم، وما وقعوا فيه من أخطاء أصبحت تحيط بهم، أن يكونوا جسور التواصل، وأدوات الحوار الحضاري والثقافي، ومرآة الإسلام الذي يُرى من خلالها، ومرقاة الحضارة، وخبرات الارتقاء بعالم المسلمين، من خلال تخصصاتهم... أن يكونوا قادرين على استيعاب أحداث (سبتمبر) وغيرها، والإفادة منها، وتحويل النقم إلى نعم، والقيام بالمراجعة وإعادة النظر، وتحديد مسؤوليتهم عن الأحداث بشكل شجاع، وتجاوز كل الظروف القاسية، والاستجابة لله ورسوله بشكل صحيح سليم، من بعد ما أصابهم القرح، وأن يصوِّبوا ذهنية تلك المجتمعات، لتراهم جزءاً أصيلاً منها، تراهم من المحسنين، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٧٢).

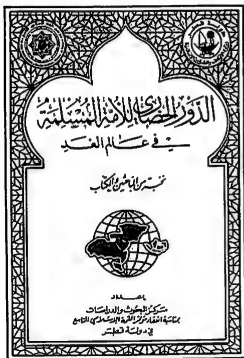
فأين الإحسان، وكيف نسلك سبيله، فلقد كان الصحابة، رضي الله عنهم، يسألون النبي ﷺ عن الخير ليفعلوه، بينما كان بعضهم يسأل عن الشر خشية أن يدركه.

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

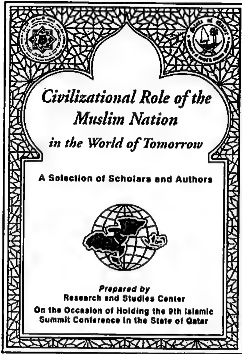
صدر كتاب : **(الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد)** ، باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، عن مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في مناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في رحاب دولة قطر (تشرين أول / نوفمبر ٢٠٠٠م)، مساهمة في إحياء عملية الاجتهاد والتجديد وإعادة بناء مشروع النهوض، لتستأنف الأمة المسلمة دورها في الشهود الحضاري وإلحاق الرحمة بالعالمين ، وما يتطلبه ذلك من معرفة الذات، وما تمتلكه الأمة من الإمكان الحضاري والتخطيط لحسن استثماره، ومعرفة (الآخر)، المعرفة التي تمكن من كيفية التعامل معه ودعوته إلى كلمة سواء ، وتحقيق المشترك الإنساني.



ويأتي الكتاب – الذي تقع نسخته العربية (٧٥٢) صفحة من الحجم المتوسط (١٧X٢٤سم)– في إطار محاولة لتقديم رؤية مستقبلية، لما يمكن الاصطلاح على تسميتهم : (أهل الاجتهاد والفكر والرأي)، بحيث تشكل هذه الرؤية أحد أدلة

العمل أمام أصحاب القرار للوصول إلى تحقيق الانسجام والتكامل والتصالح بين أهل الرأي وأصحاب القرار.

وكان الهدف الأساس من هذا المشروع الثقافي الممتد، التعرف على الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة، والرؤية الاستراتيجية لتفعيله، وكيفية استرداد الدور الغائب للأمة لتستأنف من جديد رسالتها في الشهود ومعالجة أزمة الحضارة، وتحقيق الغاية التي من أجلها جاءت الرسالة .



ولقد كان الحرص على أن تأتي المساهمات من مواقع ثقافية وجغرافية ومدارس فكرية ومذهبية متنوعة، ممثلة، إلى حد كبير، لجميع بلاد العالم الإسلامي الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم، إضافة إلى مساهمات ممن يعيشون ضمن منظومة الثقافة الغربية المعاصرة ومؤسساتها .

وقد تركز الكتاب حول أربعة محاور أساس :

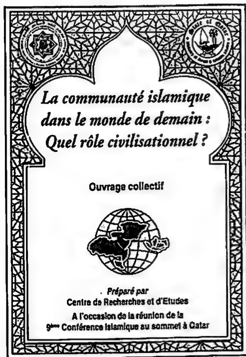
* أهم مقومات وشروط النهوض التي تمتلكها الأمة ، في إطار التعرف على الذات (الإمكان الحضاري) .

* أسباب عطالة الأمة وعدم فاعليتها: المعوقات (التعرف على مواطن الخلل) .

* أزمة الحضارة العالمية وحاجتها إلى الرؤية الإسلامية (معرفة الآخر وتحديد الحاجة والمداخل الفاعلة).

* أولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة، والرؤية الاستراتيجية لمستقبل العمل الإسلامي العام (دليل عمل، أو سبيل الخروج).

وكان التوجه إلى عدم تحديد المحاور التي تدور حولها المساهمات، حتى لا يشكل ذلك محددات مسبقة لرؤية الباحث، فترك الموضوع لكل باحث يتناوله من الزاوية التي يرى أهميتها، دون تحديد مسبق أو مداخلة لاحقة، ومن ثم المحافظة على نص الباحث، على الرغم مما يمكن أن يوجد فيه - أحياناً - من بعض الملحوظات أو التحفظات القابلة للمناقشة.

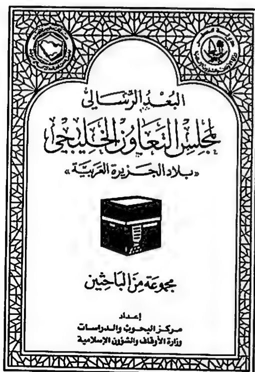


لذلك جاءت الآراء والاجتهادات الواردة في الكتاب تعبيراً حقيقياً عن وجهة نظر أصحابها. وهي تشكل في محصلتها محاولة لتقديم رؤية عن الواقع الموجود، بكل ما فيه، الذي تمور به الساحة الفكرية، ونوافذ مهمة تمكن من الإطلالة على هذا الواقع الثقافي القائم.

وتتمثل المحصلة الثقافية لهذا المشروع- الكتاب في أهمية طرح الأمر، والتأكيد على الرؤية المستقبلية واستدعائها إلى مجال الهم الثقافي العام وساحة تفكير النخبة المثقفة بشكل أخص، وذلك بغض النظر عن نوعية بعض المساهمات وقدرتها على إثراء الموضوع من جوانبه المتعددة وتحقيق الهدف المأمول، حيث إنها تعتبر باكورة لدراسات مستقبلية متكاملة ونضيجة.

البُعدُ الرِّساليّ
لمجلس التعاون الخليجي
«بلاد الجزيرة العربيّة»

صدر كتاب: **«البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي.. بلاد الجزيرة العربية»**، عن مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بمناسبة انعقاد الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية في دولة قطر، في كانون الأول (ديسمبر ٢٠٠٢م)، إسهاماً في الدعوة إلى تجديد الانتماء وإعادة النظر والمراجعة والتقويم للواقع، في محاولة لاستشراف الماضي وإبصار المستقبل، وسعياً للارتقاء والتنمية والنهوض على مختلف الأصعدة، وتأكيداً على أهمية الاضطلاع بالدور الرسالي لبلاد الجزيرة العربية، التي اختارها الله أرضاً للرسالة الخاتمة وشرفها بالإسلام.



ويشـــكل الكـــتاب، الذي جاءت نسخته العربية في (٤٣٢) صفحة من الحجم المتوســـط، رؤيـــة للـــبعد الرسالي، وأحد أدلة العمل المستقبلي أمام إنسان المنطقة وأصـــحاب القـــرار، والاستشعار بالمسؤولية الحضارية نحو الذات و(الآخر)، بحيث يكـــون استشراف الماضي هو السبيل لتقويم الحاضر وإبصـــار المســـتقبل، والارتقاء بإدارة الموارد البشـــرية، وإدارة المـــوارد المادية، للعطاء الأفضل.

وشـــارك في هذا العمل الثقافـــي، الذي جاء تحت شعار قولـــه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ نخـــبة من الباحثين على مستوى دول الخليج العربية.

وقد اشتمل على ثلاثة محاور أساس:

المحور الأول: استشراف الماضي (التجربة الحضارية التاريخية):

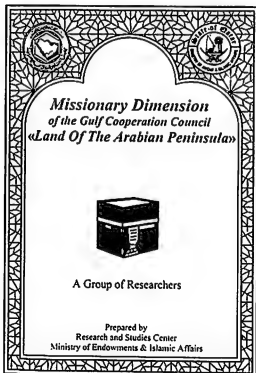
- الجـــزيـــرة العربـــية أرض النـــبوة الأولى (إبراهيم أبو الأنبياء عليه الصـــلاة والســـلام) والرســـالة الخاتـــمة (محمد ﷺ)؛
- الـــنص الســـماوي، وخاتمية وخلود الرسالة، وقدرتها على الإنتاج والنهوض تاريخياً؛
- عطـــاء الـــتجربة التاريخية (القيادة الحضارية العالمية): عبرة الماضي ورؤية المستقبل.

المحور الثاني: الإمكانات المذخورة:

- **الإمكـــان الـــتاريخي**: مهـــبط الوحي؛وراثـــة النبوة؛الـــتجربة الحضـــارية التاريخية؛امـــتلاك الأنموذج التطبيقي (السيرة النبوية، وخير القرون)؛ العطاء الإنساني على مستوى الذات و(الآخر).

– **الإمكـــان الـــثقافي والاجـــتماعي**: عالمية الرسالة وإنسانيتها؛ امتلاك الطاقة الروحية(الحرمين)؛ الرصيد الإسلامي في العالم؛ قبلة المسلمين (توجه المسلمين اليومي صوب الجزيرة العربية(دول مجلس التعاون) واستمرار الارتحال للحج.والعمرة؛ عوامل الـــتجانس والتشـــكيل المشـــترك، والتي تؤهل للـــدور الرسالي: العقيدة (القرآن)، اللغـــة واللهجات،الـــتاريخ المشـــترك،العادات والتـــقالـــيد وطبـــيعة الوحـــدات الاجتماعـــــية (الأسرة والقبيلة)، الوحدة الجغرافية، الظروف .الطبيعية (الجغرافيا)؛ التزاوج؛ التداخل السكاني (الديموغرافي).

– **الإمكـــان الاقتصـــادي**: امـــتلاك الطاقة المادية(النفط، المحرك الأساس لعجلة الحضارة العالمية)؛ الموقع الجغرافي؛ ارتفاع مســـتوى الدخل؛ توفر الأمن الاقتصادي والاجتماعي.



المحـــور الثالـــث: إبصـــار المســـتقبل (الـــــرؤية المســـــتقبلية للاضطلاع بالدور الرسالي):

الحاجـــة الإنسانية الحضارية المتأزمة للـــدور الرسالي؛ مواطن الخلل وأسباب القصـــور وعوامل الإعاقة؛ السبيل إلى الخـــروج ومعاودة الإحياء والبعث لأمة الرسالة، لإلحاق الرحمة بالعالمين.

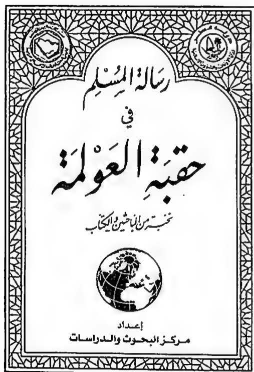
** تمت ترجمة الكتاب حديثاً إلى اللغة الإنجليزية.

رسالة المسلم في حقبة العولمة

صدر عن مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، باللغتين العربية والإنجليزية، كتاب: **(رسالة المسلم في حقبة العولمة)** في إطار سلسلة المشروعات الثقافية المستمرة، التي صدر منها: كتاب **(الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد)**، باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، في مناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في رحاب دولة قطر (تشرين أول/نوفمبر ٢٠٠٠م)، وكتاب **«البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي.. بلاد الجزيرة العربية»** باللغات العربية والإنجليزية الذي صدر بمناسبة انعقاد الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، في دولة قطر (نوفمبر ٢٠٠٢م)

ويأتي هذا الكتاب، الذي يقع في (٧٦٠) صفحة من الحجم المتوسط، مساهمة في محاولات الارتقاء بالوعي الإسلامي، وتبصير المسلم برسالته الإنسانية، والمهمة التي لا بد أن يضطلع بها في كل الظروف والمتغيرات، لإلحاق الرحمة بالعالمين، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)،

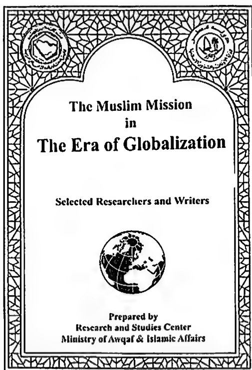
وما يتطلب ذلك من الوعي بالذات أولاً، وما تمتلك من قيم خالدة، قادرة على العطاء، والتعامل مع نوازل العصر، ومتغيراته، وما ترتكز إليه من مخزون تراثي، وشخصـــية حضارية تاريخية، حملت قيم الحق، والعدل، والخير للإنسانية جمعاء، وشـــاركت فيها جميع الأجناس، والألوان، والثقافات، فجاءت نسيجاً إنسانياً عالمـــياً، و لم تكـــن حكـــراً على أحد، فبرئت بذلك من أدواء الهيمنة والجمود والتعصب والانغلاق.



كمـــا يتطلـــب ذلـــك الوعـــيَ (بالآخر)، بعقائده، وتاريخه، وحاضره، ومكوناتـــه الثقافية، حتى يشكل ذلك بصيرة، ودليلاً، لكيفية التعامل معه، من خـــلال معايير واضحة، تشكل أساساً لـــلحوار، والـــتعاون، وبناء المشترك الإنســـاني، بعيداً عن الإكراه والتسلط والاســـتبداد، والإقصـــاء السياسي، والاغتصاب الثقافي.

حيـــث تشتد الحاجة لهذا الوعي، بـــالذات و(الآخـــر)، أكثر فأكثر، في هذه الحقبة، من تاريخ الإنسانية : «حقبة العولمـــة»، بكـــل ما ترافق معها من إزالة الحدود والسدود، وماترتب عليها، من محاولات الهيمنة والمغالبة الحضارية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية، وإخضاع العالم لثقافة الأقوى، أو لثقافة القوة، وإذابة الخصوصيات وإلغاء التنوع الثقافي.

وكـــان الهدف الأساس من هذا المشروع الثقافي الممتد، الذي سعى المركز لفتح ملفه واستدعائه إلى ساحة الهمِّ الإسلامي، تقديم بعض الملامح، والمعالم، التي يمكـــن أن تشـــكل خميرة الإنجاز وسبيل استرداد الفاعلية والنهوض، وتمثل إحدى اللبـــنات في البناء المأمول، كما تشكل نوافذ للإطلالة منها، والامتداد بها، وتبصير المسلم، بأبعاد هذه الحقبة، والاجتهاد في تقديم ما يمكن أن يسمى: «دليل عمل وتعـــامل» مع هذه المرحلة، ومحاولة تحقيق الوقاية الحضارية، إضافة إلى التفكير بكيفـــية الـــتقاط فرص «العولمة» والإفـــادة مـــن أدواتها، وآلياتها، ومجالاتها المتاحة، وحتى من أزماتها، لطرح قيم الإسلام، وتحقيق كسب أكـــبر، وذلك من خلال الوصول بالرســـالة الإسلامية، وإبلاغها إلى العالم، وامتلاك القدرة على تجاوز الســـلبيات، التي تحملها «العولمة»، وتوظيف إيجابياتها.



وحيـــث إن البعد الثقافي، هو الأخطر دائماً، وأنه المناخ، والرحم، الـــذي تنشأ وتنمو «العولمة» من خلاله، كان لا بد من إدامة التفكير والاجتهاد في اســـتنهاض همم الباحثين، والمفكرين، والنخب الفكرية، التي من المفترض أن تمثل عقل الأمة، للمساهمة في تقديم رؤية، أو دليل عمل، وتعامل، لكيفية التعاطي مع حقبة «العولمة».

و كما هو الحال في المشروعات الثقافية السابقة، جاءت المساهمات، من مواقع ثقافية وجغرافية، ومدارس فكرية ومذهبية متنوعة، إضافة إلى مساهمات من غير المسلمين أيضاً، أو من الذين يعيشون ضمن منظومة الثقافات الغربية، ومؤسساتها.

وحرصاً على تقديم فكرة واضحة عن الموضوع المطروح، وضعت له عدة محاور، علها تحدد الإطار المطلوب للمساهمات، وتأتي البحوث قاصدة إلى حد ما، وملتزمة بالمحاور المطروحة، ومستصحبة الإطار الموضوع.. والمحاور هي:

المحور الأول: دلالة المصطلح والتجليات التاريخية في المجالات المختلفة « الثقافي، السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، الإعلامي، ... ».

المحور الثاني: العولمة وسنن المدافعة الحضارية وبناء المشترك الإنساني.

المحور الثالث: كيفية التعامل مع حقبة العولمة، من خلال القيم الإسلامية، واغتنام الفرص المتاحة، تنمية، وعطاءً، وبلاغاً، وتحقيقاً للوقاية الثقافية.

المحور الرابع: العولمة بين الحوار والمواجهة ومحاولات الهيمنة والاغتصاب الحضاري.

المحور الخامس: المسلم والعولمة: رؤية مستقبلية (بصائر وبشائر).

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

في العلوم الشرعية والفكر الاسلامي

جائزة محكمة

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء في ميادين العلوم الشرعية المتعددة، تنظم أمانة جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني «رحمه الله» العالمية، مسابقة بحثية في مجال الدراسات الإسلامية، جائزتها (١٠٠) ألف ريال قطري.

شروط الجائزة:

١- يُشترط في البحوث المقدمة، أن تكون قد أُعدّت خصيصًا للجائزة، وألا تكون جزءًا من عمل منشور، أو إنتاج علمي حصل به صاحبه على درجة علمية جامعية.

٢- أن تتوفر في البحوث المقدمة خصائص البحث العلمي، من حيث الإطار النظري للبحث، و المنهج العلمي ، والإحاطة والشمولية، والجدة والابتكار.

٣- يحق للجنة التحكيم التوصية بمنح الجائزة مشتركة بين اثنين أو أكثر من الباحثين، كما يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٤- يحق للجهة المشرفة سحب قيمة الجائزة، إذا اكتشفت أن البحث الفائز قد نشر سابقًا، أو قدم إلى جهة أخرى، لغرض آخر، أو مستلاً من رسالة علمية، كما يحق لها حجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث المقدمة للمستوى المطلوب.

٥- لا تمنح الجائزة لمشارك واحد أكثر من مرة خلال ثلاث سنوات.

٦- يقدم الباحث ملخصًا لبحثه في حدود خمس صفحات باللغة العربية، والإنجليزية إن أمكن.

٧- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ، مكتوبًا على الحاسوب، على ألا يقل عدد صفحاته عن (٢٠٠) صفحة، ولا يزيد على (٢٥٠)

صفحة (A4×٢٠×سطرًا× ١٠كلمات)، حـــوالي (٤٠٠٠٠) كلمة .

٨- يُـــرفق مـــع البحـــث ترجمة ذاتية لصاحبه، وثبتًا بإنتاجه العلمي المطبوع وغير المطـــبوع، بالإضافة إلى صورة جواز السفر وصورة شخصية حديثة، وصورة من القرص الذي طبع منه البحث .

٩- تُعرض البحوث على لجنة من المحكَّمين.

وقـــد أعلـــن عن موضـــوع: «**الشـــورى ومعاودة إخراج الأمة**» كعنوان لجائزة ١٤٢٦هـــ - ٢٠٠٥م، وفق الأطر العامة الآتية:

- **الشـــورى مفهوماً ومردوداً**: القيم والبرامج، أهل الحل والعقد، مجالات الشورى وآفاقها؛ الشورى والتنمية؛ الشورى والمرأة.
- **التأصـــيل الإسلامي للشورى**: الشورى بين الإلزام والإعلام؛ التجربة الحضارية الإسلامية.
- **أزمة الشورى في واقع المسلمين**: الأسباب والمظاهر.
- **الإفـــادة من التجارب العالمية**: آلياتها وموازينها؛ الشورى والديمقراطية (التجانس الغائب).
- **رؤية مستقبلية** لكيفية استعادة الشورى في الحياة الإسلامية.

آخر موعد لاستلام البحوث نهاية شهرآب (أغسطس) ٢٠٠٥م.

العنوان البريدي:

* ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:

مركز البحوث والدراسات - أمانة الجائزة

ص.ب: ٨٩٣ — الدوحة — قطر

للاستفسار يرجى الاتصال على: هاتف : ٤٤٤٧٣٠٠ — ٤٤٢٠٠٦٦

فاكس: ٤٤٢٠٠٩٩/ ٩٧٤+

البريد الإلكتروني: E_Mail: Sheikhali_award@awqaf.gov.qa.